مطبوعات مكتبة مصر

السهول البيض

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣١ شارع كامل صدقى

— ١ —

راح عبود يتقدم فى خطوات مضطربة نحو النافذة وقد أخذ قلبه يخفق خفقات زاخرة بالرقة ، تمد مشاعره بفيض من النشوة الحالمة التى يزيد فى روعتها ذلك القلق المشتهى المواربين ضلوعه ، واستمر فى تقدمه ولم يعد يحس من كيانه إلا إحساسات اللذة الروحية التى تستغرقه ، وتلك اللهفة التى تدفعه إلى الشباك وقد تركزت كل آماله فى أن تقع عيناه عليها .

إنه ينطلق إلى الشباك كلما استيقظ من نومه فى الصباح وكلما عاد من عمله قبيل الغروب ، تداعبه أمنية أن يختلس إليها النظر وهى غادية رائحة فى غرفتها ، أو وهى مطلة على الطريق تروح عن نفسها . إنها لحظات حياته تلك التى يقف فيها منزويا خلف نافذته يمد الطرف الولهان إليها ، والقلب يرقص طربا ، والروح تهيم فى عوالم صيغت من رقة امتزجت بغيبوبة تخدر الحواس ، لا يستشعرها إلا الضارب فى الأحلام ، فما كان فى حياته الرتيبة من متعة إلا تلك اللحظات القصار التى تكتحل فيها عيناه برؤيتها ، وتلك الساعات التى يخلو فيها بطيفها الزائر ، يعيش معه أجمل حياة .

ويا طالما استلقى فى سريره وأسبل جفنيه ، وفتح عين خياله ليرى ما تهفو إليه نفسه ، ويدير بينه وبينها أحاديث تسيل عذوبة ، يناجيها وتناجيه ، ويبثها آماله ويصغى إلى همسها الذى يهز كيانه ، وينسجان معا خيوط مستقبلهما البسام ، وكانت دنيا أوهامه أكثر صدقا من واقع حياته ، فقد كانت تعيش نابضة فى وجدانه ، بينما كان يجتاز أيامه كراكب سفينة تشق عباب الماء ، لا يجد لها أثرا إذا ما تلفت خلفه ، ولا يرى إلا فضاء تكتنفه وحشة إذا ما مد بصره أمامه .

وبلغ موقفه من الشباك وقد ازداد وجيب فؤاده وشحذت اللهفة حواسه ، فتفجرت ينابيع الصبابة فى جوفه وفاضت حتى غمرته ، فأصبح كا ما يراه مسحورا ، فلم يعد يرى بيتها المصنوع من صفيح ، ولا الصدأ الذى تراكم فوقه على مر السنين حتى أخفاه عن الناظرين ، بل رآه غارقا فى أضواء شاعرية تسترخ

إليها نفسه ، وتتفتح لها ذاته تفتح الزهرة التى تتلقى وحى السحر .

ومرت بهية ندية كنسيم الصباح ، فعبق الجو بأريج عطر لم تشمه أنفه وإن انتشت به روحه ، وترددت فى ضميره أنغام شجية حالمة كأنها أصوات بلابل تصدح من بعيد ، وهام فى دنياه حتى استشعر أنه أصبح الوجود جميعه ، وأن كل ما فيه من لذة ونشوة وحنان أخذت تنسكب فى قلبه وتغذيه .

وعادت إلى الشباك ووقفت تنظر ناحيته ، فارتد إلى الوراء خطوة وحبس أنفاسه ، واستمر يرنو إليها فى خشوع ، ويتملى من حسنها وهو مأخوذ بالمشاعر الرقيقة الناعمة التى سرت فى جوانبه سريان الجدول الرقراق فى المروج الغنية بالأزهار والرياحين .

رأى وجهها كهالة من نور تتوجه قطعة من ليل بهيم ، تزينه عينان لا هما مفتوحتان يغوص فيهما ويسعد بما فى قاعهما من كنوز ، ولا هما مغلقتان على الفتنة التى تعبث بأوتار فؤاده وتعزف أناشيد الخلود ، بل كانتا متكسرتين فى دلال تذوب له مهجته عذوبة وترق له حواشيه .

وتقضت لحظات زاخرة بأنبل الإحساسات ، فقد صار روحا رفرافة قادرة على أن تهيم فى دنيا الوجد لتتصل بروحها وترشف فى أناة وغبطة رحيق الحب العظيم .

وتحركت فى خفة واختفت فجأة كاختفاء الطيف ، وظل هو فى شروده اللذيذ ، كان مندمجا فى روح الكون غائبا عن كل ما حوله ، لا ترى عين خياله إلا عالما مكللا بنور لطيف .

ومزق السكون المسحور صوت صك أذنيه يناديه :

— عبود ! صباح الخير .

وانتبه مذعورا كمن استيقظ فجأة من حلم لذيذ ، فهبط من سموات خياله إلى أرض البشر ، وانجابت عن عينيه غلالة الهيام المسحورة فاختفى ذلك النور اللطيف الذى كان يغلف كل ما يقع عليه بصره ، ورأى أمامه البيت المصنوع من صفيح ، وقد وقف — فى نافذته — مأمون يرتدى زيه العسكرى وعلى شفتيه بسمة عريضة وفى عينيه بريق ينطق بالجرأة والعزم ، أبيض البشرة أسود الشعر

يشبه بهية فى تقاطيع وجهه وخفة روحه ، ولكن لم يكن فيه ذلك السر الساحر الذى تزخر به أخته ، والذى ينقله من دنياه الضيقة الجافة القاسية إلى دنيا رحيبة لينة رحيمة كلها إشراق ونور .

وقال فى صوت متهدج :

— صباح الخير يا مأمون ، وحمدا لله على السلامة .. متى جئت ؟

فقال مأمون وهو يطل برأسه ويمد عنقه كأنما يحاول أن يدنو منه :

— البارحة مساء ، إنى فى شوق إليك أريد أن أراك .. متى نتقابل ؟ .. اليوم بعد أن تعود من عملك إذا لم تكن مشغولا .

فابتسم عبود وقال فى هدوء :

— أنت تعلم أنه ليس عندى ما يشغلنى .

ومرت بهية من خلف أخيها ، فصعدت الدماء حارة إلى وجه عبود وراح يتلفت فى اضطراب ويزدرد ريقه وقلبه يخفق فى شدة ، كأنما قد انكشف كذبه. وهمس فى جوفه صوت عابث يقول « وهذه الحبيبة ألا تشغلك ؟ ألم تسرق قلبك وتسلب كل تفكيرك وتملأ كل أوقاتك رؤى وبهجة ونورا ؟! » وقال مأمون :

— سأنتظرك حتى تعود .

فقال عبود وهو يشيح بوجهه عنه كأنما كان يخشى أن يقرأ فى عينيه ما يعتمل به صدره من انفعالات :

— إن شاء الله ... عن إذنك .

— تفضل .. مع السلامة .

ودار عبود على عقبيه وراح يجيل عينيه فى الغرفة ؛ كانت جدرانها من صفيح ، ليس بها إلا سرير من حديد ونضد من خشب عليه موقد نفط ، وحوله ثلاثة مقاعد ، ثم لا شيء إلا بعض ملابسه علقت فى مسامير دقت فى جدران الصفيح ، وبعض أشياء تناثرت هنا وهناك يستعملها عند استحمامه أو غسل ملابسه أو طهو طعامه إذا ما هفت نفسه يوما إلى طعام لذيذ .

وثبتت عيناه لحظة على بذلته الزرقاء الداكنة التى يرتديها فى أثناء عمله ، وشرد

ذهنه وراح يفكر فى نفسه وفى مأمون ، كانا طفلين يلعبان معا ، وكان مأمون يكبره بسنة واحدة ، وكانت بهية أصغر منه بسنتين ، وكانت تحب أن ترافقهما فى لعبهما ، وكان هو يتمنى ذلك ويشتهيه ، ولكن مأمون كان ينهرها وكثيرا ما كان يضربها ، وهو ينظر صامتا وإن كان قلبه يكاد ينفطر ألما ، فهو لا يطيق أن يرى أحدا يضرب أو يساء إليه ، فما بالك لو كانت التى تتلقى الضربات بهية ؟ كان يرقب لحظات صفو صديقه وينصحه ألا يلجأ إلى العنف أبدا ، وكثيرا ما كان مأمون يوافقه على آرائه ، ولكن إذا ما جد الجد وحدث ما يثيره عاد إلى طبعه العنيف يسب ويلعن ويضرب فى شدة ، فقد كان الضرب عنده هو الحل الحاسم لمشاكله مع الآخرين .

وكانت أسعد أيامهما تلك التى ترسلهما فيها أمهما لشراء سمك ، كانا يستيقظان فى الفجر وينطلقان إلى القابوطى مدينة الصيادين ، وتبعد عن حيهما كثيرا ، فكانا يعدوان مرحين ، حتى إذا ما انقطعت منهما الأنفاس تمهلا فى السير وأخذا يملآن صدريهما بهواء الصباح ليستأنفا ما كانا فيه ، وكانا يبلغان القابوطى مع الشروق .

إنه ليعرف تلك الدور الخشبية المتواضعة القائمة على الشاطئ دارا دارا ؛ كان هو يرى أن يشترى السمك من أى من الرجال الذين يقابلانهم على الشاطئ ، وكان مأمون يصر على ألا يشترى إلا من شيخ الصيادين !

وذات يوم جاءته بهية فرحة وقالت له إنها هى التى ستذهب معه لشراء السمك . فلما سألها عن مأمون وعن سبب تخلفه قالت له : إنه لا يزال يغط فى نومه ، وأشفق عليها من قسوة أخيها فنصحها بأن ترجع وإن كان فى قرارة نفسه يرحب برفقتها وينشرح لها صدره ويبتهج فؤاده ، فلما أخبرته أن أمها قد أمرتها بذلك خرج معها وهو يكاد من الفرح يطير .

وسارا يعابثهما النسيم ، يتحدثان حديثا كان وقعه فى أذنيه أعذب من أرق نغم تنتشى له نفسه وترفرف له روحه ، فيحس أنه صار طيفا مجنحا يهيم فى الوجود .

ووصلا إلى القابوطى بعد الشروق ، ولم يستشعر مرور الزمن ولم يدب فى

أو صاله التعب ، بل كان سعيدا يتمنى فى أعماقه أن يستمرا معا وأن ينعم بصحبتها إلى الأبد .

وانساب فى الطريق المتعرج السارى بين الدور الخشبية الذى طالما انطلق فيه مع مأمون ، ولكنه لم يسعد من قبل بتلك الغبطة المنتشرة فى أرجائه ، وكان يديم النظر إلى عينيها المنكسرتين فى نعومة آسرة فلا يرتوى من التطلع إليهما ، بل يحس ظمأ إليهما ، وانجذابا فى أن يغوص بكل روحه فى صفائهما الذى يغمره بغيبوبة منتشية لذيذة تسرى فى كل كيانه الضئيل .

وبلغا دار شيخ الصيادين ، وذهبا مع ابنه إلى الشاطئ ليقابلاه هناك ، وراحت بهية تعبث فى شباك الصيد المنثورة وهو يرقبها كأنما يخشى أن تغيب عن عينيه لحظة ، واشتريا السمك وقفلا عائدين وقد راحت الشمس ترتفع فى السماء .

كان كل منهما سعيدا بحمله ، وراحا يضربان فى الأرض الجرداء ، وفطن إلى أن الحمل ثقيل على يديها فأخذه وضم الحملين بذراعيه إلى صدره ، وسار وهو لا يحس تعبا ، وتمنى لو كان رجلا كبيرا ليحملها خوفا عليها من أن يمشى إليها التعب أو يمسها مس من الألم ، فقد كانت روحه فى أوج غبطتها .

وحميت الشمس ورفعت بهية يدها لتحجب بها الضوء الباهر عن عينيها وتفصد العرق من وجنتيها ، فلم يطق أن يرى وجهها وقد عكر صفوه سحابة خفيفة من الضيق ، فوضع حمله على الأرض ، وخلع قميصه ثم غطى به رأسها ليحميها من الشمس ، وهى جذلانة تضحك ضحكات صافية بريئة أثلجت صدره .

كان ذلك من سنين ، ولكن ذكرى ذلك اليوم انطبعت فى أعماق وجدانه لا تمحوها يد الزمن .

ومرت أعوام وأصبح فتى يافعا ، وصار عليه أن يعمل ليعول أمه بعد أن أقعدها المرض ، كان خلى الباب لا يدرى من أمر دنياه شيئا فإذا به يواجه الحياة فجأة ، وأخذه مأمون معه إلى حيث كان يعمل .

وذات صباح ذهب إلى النافذة ينظر فرأى بهية أمامه ، ممتلئة الصدر ، موردة الوجنتين تكاد تملأ فراغ الشباك كأنما قد شبت فى يوم وليلة ، فأحس اضطرابا

واشتد خفقان قلبه وارتد إلى الخلف خطوات ، وأطرقت هى فى حياء وأسبلت جفنيها على عينيها ، فاستشعر كأن ستارا قد انسدل بينه وبينها . ومنذ ذلك اليوم أحس أن شيئا ما قام حائلا بينهما يمنعه من أن يحييها بيده أو يومئ إليها برأسه أو ترف على شفتيه بسمة ترحيب بها ، بيد أن ذلك زاد اشتعال وجده ، وربما تألق خياله فأصبح يراها غارقة فى فيض من النور كلما مد عينيه إليها .

وفى ليلة حالكة السواد ماتت أمه ، وهصر الحزن قلبه وانفطرت كبده وانهمرت الدموع من مقلتيه ولكنها لم تطفئ وقد النار المتأججة فى أحشائه ، وفى لحظة صار وحيدا يتلفت فى ذعر خشية أن تتخطفه أنياب المجهول الذى وقر فى أعماقه أنه وحش هائل فاغر فاه ليبتلعه ، وسرت فى روحه مرارة اليتم والوحدة ، فأطرق فى انكسار وسار يجر رجليه جرا .

وضاق بنفسه وهو يسير خلف نعش أمه ، وطفق يتساءل لماذا جاء ؟ وما فائدة وجوده ! وماذا يضير الدنيا لو أنه قبر الساعة مع أمه الحبيبة فى قبر واحد ! ليت ذلك النفر القليل الذين جاءوا يودعونها الوداع الأخير يدفنونه معها ليريحوه من العذاب الذى يقاسيه ، وذلك الخوف الجاثم على صدره يكاد يكتم أنفاسه .

وصعد إلى غرفته وحده بعد أن انصرف الناس ، كان السكون الضارب فى جنباتها يخلع القلب ، وشبح الموت الذى نشر جناحيه الثقيلين فى أرجائها يقبض النفس ويزيد الروح ظلاما على ظلام ، وانطلق فى جوف السواد الذى يكلل كل شىء وهو يستشعر كأن وحشا كاسرا سينقض عليه من الخلف ، ولم يجد متنفسا لما يعانيه من كرب إلا دموعه ، فارتمى فى فراشه يذرف الدمع السخين من قلب مكلوم .

وفى صباح اليوم التالى جاءته بهية مع أمها لتواسيه ، كانت ترتدى السواد ، والتمست منه والدموع تترقرق فى عينيها المنكسرتين أن يصبر وأن يتجلد ، وأحس وهى تضع يدها فى يده أنه ليس فى الحياة وحده ، وسرى فى ظلام وحدته بصيص من نور ، وبذرت فى أرض يأسه بذرة أمل .

ومرت الأيام وذهب مأمون إلى الجيش ، وراح هو يعد نفسه ليتبعه فى السنة

التالية ، ومرت السنة ولم يذهب فقد أعفى من الخدمة العسكرية مع من أعفى من مواليد دفعته ، وارتاح لذلك القرار فقد كان بفطرته يمقت الحروب ، ويعجب من حكومات الدول التى تنفق جل مواردها لتكديس أدوات الدمار والتفنن فى كل ما يبيد البشر ؛ بينما ملايين الناس يقاسون الحرمان ويتلوون من الجوع ، وما كان يتصور كيف يمضى يوم دون أن يسعد بذلك الضياء الذى ينتشر فى جنبات صدره كلما وقعت عيناه على آسرة الفؤاد .

ومد يده إلى بذلته الزرقاء التى يرتديها فى العمل وتناولها وراح يلفها فى صحيفة قديمة ، ثم التفت ناحية النافذة لعله يتزود بنظرة ثانية قبل أن ينصرف إلى عمله ولكنه لم يرها ، فوضع اللفافة تحت إبطه وانصرف ، وصورة بهية تملأ كل آفاقه .

— ٢ —

وقف على وصيد الباب الخارجى ورفع بصره إلى نافذتها ، واشرأب بروحه إليها ودبت فى جوفه رغبة ناعمة تشتهى رؤيتها ، ومرت لحظات وهو خاشع لا تطرف له عين ، كأنه عابد متبتل فى محراب رفع رأسه بعد الدعاء ليتلقى السكينة الهابطة من السماء لتستقر فى أعماق قلبه .

ولمح طيفا قادما من جوف الغرفة نحو الشباك ، فتحركت المشاعر الخالمة لتملأ خواء نفسه بأرق ما تجود به روح هفهافة زاخرة بكنوز المحبة ، وخفق فؤاده خفقات تسكب فى وجدانه نعومة ورقة ، وبدأت ألواح الصفيح الصدئ التى كانت فى لون الطمى تغيب عن عينيه لتقوم مكانها جدران تشع أضواء شاعرية .

وأطل مأمون من النافذة فتبددت أحلامه وطارت أمانيه كما تطير عصافير كانت على فنن ثم انطلقت إلى جوارها رصاصة تمزق السكون فجأة ، فخفض رأسه وضغط بذراعه على اللفافة الموضوعة تحت إبطه ، ثم سار فى شارع الأمين لا يلوى على شىء .

سار فى رفقة ذاته لا يكاد يرى شيئا مما حوله ، ومر على المقهى ومشت إلى أذنيه الضوضاء المنبعثة من العمال الذين انتشروا فى أرجائه فلم يحفل بها ، وظل فى

طريقه وهو مشغول بالدنيا النابضة فى نفسه .

ومس سمعه صوت نسوى ساخر يقول :

— التحيات لله .

فالتفت ناحية الصوت ووقعت عيناه على إنصاف وعلى شفتيها بسمتها الهازئة وفى عينيها تلك النظرات الماجنة التى يضيق بها صدره ، وقد ظهر خلفها دكان العم فانوس كما تظهر الظلال فى الصورة ، ومد عنقه ليرى العم فانوس الذى غاب فى أقصى دكانه وقال :

— صباح الخير يا عم فانوس .

فضحكت إنصاف ضحكة احمر لها وجهه ، والتفتت إلى العم فانوس وقالت :

— يا ألطاف الله ! المحروس نطق . نهارك مبارك يا عم فانوس . رد على هذا الشرف العظيم .

فأسرع العم فانوس إلى صدر دكانه وقال فى تهليل :

— صباح النور يا سى عبود .. اتفضل . اتفضل يا أمير .

فقال عبود وهو يلقى على إنصاف نظرة ازدراء :

— متشكر .

فقال عم فانوس :

— مصحوبا بالسلامة يا رجل يا طيب .

والتفت فانوس إلى إنصاف وقال لها :

— العيون علينا والقلب معنا .

فرمته إنصاف بطرف عينها وقالت وهى تتناول من يده اللفافة التى قدمها إليها :

— يا كهين !

ثم أسرعت فى مشيتها حتى سبقت عبود وسارت أمامه ومفاتنها ترتج وترتخ .

كانت فى الثامنة عشرة ، ممتلئة الجسم وإن كانت ملفوفة العود خمرية اللون مفتوحة العينين غليظة الشفاه ، إذا ما سخرت من شىء ، وكثيرا ما كانت تسخر ، تتدلى شفتها السفلى وتنفرج شفتاها من ناحية وتضيق من الناحية

الأخرى ، يرتفع حاجب ويهبط حاجب ، وتتسع عين ويسبل الجفن عن العين الأخرى ، ثم تطرف المقلة المفتوحة كأنما صار ذلك الشيء قذى فى عينها .

وكانت ذات أنوثة طاغية تتحرك لها القلوب ، وحتى قلب عبود كان ينفعل بها فيضيق صدره ويتمنى فى أعماقه لو أن تلك الفتنة تذبل وتزول ، فقد كان فى قرارة نفسه يربط بين جسدها المتفتح ونزوات الشياطين .

وبلغا مفترق الطرق فعرجت إنصاف إلى اليمين ووقف هو على الناصية ينتظر السيارة التى ستقله مع زملائه إلى عمله ، وظلت صورة إنصاف فى مخيلته برهة ثم انمحت لتحل محلها صورة أخرى مشرقة ترتاح لها نفسه وتستكين لها حواسه استكانة القط لليد الرحيمة التى تمسح ظهره فى رفق وحنان ، فقد ملأت مخيلته صورة بهية بعينيها المنكسرتين فى نعومة تسلب اللب وتعبث بأوتار القلوب .

وجاءت السيارة تسبقها ضجة رفقائه وضحكاتهم فخف إليها وألقى تحية الصباح على من مر بهم ، ثم اندس بين زميلين أفسحا له مكانا بينهما وهو يقول لأحدهما :

ــ صباح الخير يا سليمان .

ــ صباح النور يا عبود .

ثم أطبق شفتيه وظل صامتا وإن كانت عيناه تدوران فى المكان وأذناه تلتقطان الصخب المجلجل فى جنبات السيارة .

وألفى نفسه برغمه يتتبع المناقشات الحامية الناشبة بين فريقين من الزملاء ، وفطن من الصيحات المنطلقة من الحناجر إلى أن مبارة فى الملاكمة قد جرت بالأمس بين زميلين ، وأن فريقا من الإخوان قد تحزب للظافر وراح يدلل على مهارته وكيف كان يكيل اللكمات لخصمه ، وأن فريقا آخر انتصر للمهزوم وراح يلقى لوم هزيمته إلى ضعف الحكم وسوء تقديره .

وانتصب سليمان فى وسط السيارة يقلد الفائز فى وقفته ويضرب الهواء بقبضته ويقول :

ــ أتذكرون تلك الضربة الهائلة التى سددها بيسراه من أسفل إلى أعلى ،

والتى ترنح منها فؤاد وكاد يسقط على الأرض !

وارتفعت صيحات التأييد والإعجاب من فريق وصيحات الإنكار من فريق ، وقام أحد المتحمسين للمهزوم وقال وهو يضرب بيده اليمنى فى وجه سليمان ذلك الواقف فى وسط السيارة منفوشا كالديك :

ــ كيف نسيت هذه الضربة ؟!

وترنح الديك المنفوش وارتفعت صيحات مزمجرة هادرة من فريق ، وتأهب الفريق الآخر للقتال إذا ما اعتدى على رجله ، وتكهرب الجو وانكمش عبود فى مقعده ، وراح يتلفت فى ضيق كأنما يبحث عن عاقل يضع حدا للمهزلة الحمقاء التى وقعت والتى قد تؤدى إلى بذر العداوة فى الصدور .

وقام بعض الزملاء بإطفاء النار التى اشتعلت فى النفوس ، وراح عبود يعجب فى نفسه كيف يتحمس الناس لفرد أو حزب أو فريق كل هذه الحماسة التى قد تبلغ حد الهوس وإراقة الدماء ! إنه يذكر أن سليمان صحبه ذات يوم لمشاهدة مباراة فى كرة القدم بين النادى المصرى ونادى الترسانة ، وهو يذكر كيف كان سليمان يصيح فى انفعال وحماسة كلما هدد المصرى مرمى الترسانة ، وكيف كان يرتجف رعبا كلما هددت الترسانة مرمى المصرى ، بينما كان هو هادئا ساكنا يشاهد المباراة التى تجرى أمامه دون أن ينفعل أو يتحمس . إن سليمان من بور سعيد وهو من بور سعيد ، فلماذا تحمس سليمان كل هذه الحماسة الرعناء التى جعلته يشترك فى مشاجرة استنكارية بعد هزيمة المصرى ، بينما ظل هو هادئ النفس ، لا ينفعل ولا يصخب ولا يصيح ؟! إن فى سليمان رعونة ، وما أكثر الرعناء من الناس !

وانسابت السيارة فى شوارع بور سعيد حتى بلغت القناة ، فهبط من فيها وانطلقوا جماعات إلى المعدية ، وداعب نسيم الصباح وجه عبود و أنعش روحه وحسر عن صدره موجات الكدر التى عكرت صفوه ، فراح يغوص فى رؤاه العذبة التى يندفع فيها بكل عواطفه حتى يكاد ينسى كل شىء حوله .

وبلغت المعدية بور فؤاد ، فانسابت السيارة بالعمال وانطلقت بهم فى المدينة

الهادئة الوادعة التى كانت أشبه بلوحة رائعة يسرى فى جنباتها همس النسيم كتسبيح الملائكة ، وحفيف الشجر كترنيمة شكر فى معبد الجمال .

ووقفت السيارة فى فناء شركة الملح ، فهبط العمال منها وانتشروا فى الأرض وانطلقوا إلى أعمالهم ، وفى لحظات كانت الملاحة كخلية نحل ، قطار صغير يجرى على قضبان يجر خلفه عربات مكشوفة ، ورجال فى غدو ورواح ، وآلات تهدر ، وصوت المياه المتدفقة فى الأحواض آت من بعيد .

واندمج عبود فى عمله ، وراح يصلح من قطع الغيار وسليمان إلى جواره بوجهه الشاحب وعوده النحيل يعاونه ، وكاد النهار أن ينتصف وهو مشغول بما فى يده لا يلتفت ولا يتحدث ولا يكاد يسمع مما يدور حوله شيئا ، وصكت أذنه أنه مكتومة انتهت إلى صرخة انخلع لها قلبه ، والتفت مذعورا فألفى الدم يقطر من يد سليمان فتقلصت سحنته وأخفى وجهه براحتيه ، ودارت به الأرض حتى كاد ينهار .

إنه لا يحتمل رؤية الدم المنبثق من الناس ، وإذا ما رأى دما فإنه يشعر بغثيان وبيد قوية تعتصر كل مشاعره فتئن كل أحاسيسه وتتألم .

وجلس على أقرب مقعد ، وعلى الرغم من أنه أشاح بوجهه عن كل ما يجرى على قيد خطوات منه فقد أرهفت حواسه ، وراحت أذنه تلتقط كل همسة وتجسم له عين خياله ما أغمض عنه مقلتيه تجسيما بشعا يقطر دما ، فتسرى قشعريرة فى بدنه ، ويستشعر وخزات فى روحه كأنها لسع النار .

ومر الوقت وخفت الأصوات ، وأحس يدا تلمس كتفه فالتفت فرأى سليمان يرنو إليه رنوة امتزجت فيها الشفقة بالسخرية ، فانتصب على قدميه ومسح وجهه براحته ، وقال سليمان :

— والله لا أدرى ما الذى تخشاه من رؤية بعض قطرات من الدم ؟

فقال عبود فى صوت لونه الانفعال :

— إنى لا أهتم إذا ما جرحت وجرى دمى ، أما أن أرى دم غيرى يسيل أمامى فهذا ما لا أحتمله .

فقال سليمان وهو يبتسم :

ـــ إننا يا عبود قربة من الدم ، فلماذا لا يخيفك الدم الذى يجرى فينا وترتعد إذا ما سالت قطرة من أصبع مجروحة ؟

ـــ ما أكثر الأشياء التى فى أجوافنا وتمتعض منها إذا ما خرجت .

وقال سليمان مداعبا :

ـــ ماذا تفعل يا عبود إذا ما وجدت نفسه يوما قد قتلت رجلا ؟

فقال عبود فى سرعة :

ـــ كنت أموت قبله ، إنى لا أطيق رؤية دجاجة تذبح .

فربت سليمان على ظهره بيده المجروحة وقال فى نبرات ساخرة :

ـــ بطل !

وعاد عبود إلى عمله وانهمك فيه وكاد ينسى نفسه ، وإذا بصوت يناديه فالتفت ، كان المهندس توفيق يأمره أن يدع ما فى يده وأن يحضر بعض الأدوات ليذهب معه لإصلاح وصلة فى الأنابيب بدأت ترشح :

كان يحب مهندسه ، فما يذكر أنه نهره مرة أو ثار فى وجهه ، وكان يزيده قربا من نفسه تواضعه فما كان يحس أبدا أنه أمام رئيس من الرؤساء المتغطرسين ، بل كان يستشعر فى أعماقه أنه أخ كبير يزجى النصح فى هدوء ويلتمس العون فى أدب إذا ما أراد أن يصلح شيئا من أدوات بيته . وما كان يضايقه إلا إصراره على أن يدفع له ثمن كل خدمة يؤديها له ، وكان يقدرها فوق قدرها وهو المهندس الخبير !

وخف إلى مهندسه الذى كان ينتظره فى صبر وأناة ، وصعدا إلى عربة صغيرة مكشوفة من العربات الكثيرة التى يجرها القطار الصغير الذى راح ينساب بين جنبات الملاحة ، وعرج يسارا وانطلق بن كثبان من الملح ثم يسرى بين أحواض الملح المترامية عن يمين وشمال كأنما قد كسيت الأرض بجليد ناصح البياض .

ومد عبود بصره إلى السهول البيض ، وراح يتلفت حوله ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا بسحاب أبيض قد حجب زرقتها ، فاستشعر راحة وتفتحت نفسه فقد خيل إليه فى تلك اللحظة أن الكون كله قد غلف بالطهر والنقاء .

كان كلما دب التعب إلى أوصاله يغادر عمله ويسير حتى يبلغ مشارف السهول البيض ، ثم ينظر إليها شاردا فتتبخر أوصابه وترق نفسه ويحس كأن روحه قد شفت ، أما إذا وقعت عيناه على عرق أحمر من تلك العروق المنسابة فى الملاحة كالأفاعى الحمر على صفحة بيضاء ، فقد كان ينقبض ويدور على عقبيه ليعود من حيث جاء .

— ٣ —

انقضى النهار أو كاد ، فخف العمال إلى السيارات الكبيرة التى كانت فى انتظارهم ، هذا ينادى على ذاك ، كل يحاول أن يكون مع صديقه أو ثلته ليتجاذب وإياهم أطراف الحديث . ويقص أقاصيصه التى رواها كثيرا ورددها مرات فى الغدو والآصال ، بيد أنه يجد لذة فى أن يسمعها من نفسه ، ولا يمل أبدا من ترديدها مادام هو الذى يتحدث ويجد آخرين يصغون إلى كلامه .

وراحوا يتزاحمون أمام باب السيارة ، ويتدافعون بالمناكب ، فتريث عبود حتى صعدوا ، ثم ارتقى السلم فى تؤدة وسار بين المقاعد يتلفت ، فوجد سليمان قد حجز له مكانا فاتجه إليه وجلس وهو صامت . وإن كان كل من فى السيارة يحاول أن يأخذ بطرف الحديث وأن يرغم زملاءه على أن يغلقوا أفواههم وأن يفتحوا له آذانهم ، وبدا من ارتفاع أصواتهم أن الجميع زاهدون فى الإصغاء .

وتحركت السيارة وارتفع عجيج السيارات الأخرى ، وخلفت الشركة وراءها وانسابت فى بور فؤاد ، فجرحت حياء السكون الذى ران على المدينة الهادئة المكللة بالوقار .

وبلغت السيارة نادى موظفى شركة القناة ، فمد سليمان عينيه إلى النادى ، وراح يرقب سيدة أجنبية وطفلها وهما يتجهان فى ثقة نحو الباب ، فالتفت إلى عبود وقال :

— متى يُسمح لنا بدخول هذا النادى ؟

فالتفت إليه عبود فى إنكار وقال له :

— عيبك يا سليمان أنك كثير الأحلام ، عريض الآمال .

فقال سليمان فى حماس :

— كل ما أطلبه أن أتساوى أنا ابن البلد بهؤلاء الأجانب الوافدين من كل مكان ، أن يكون من حقى أن أتمتع بجمال بلدى وخيراته وبكل ما خصوا به أنفسهم دوننا ، أن أجلس أنا وهم فى مكان واحد دون أن يبدوا استياءهم من وجودى .

فشرد عبود ساهما برهة ، ثم قال :

— لم أفكر يوما فى أن أدخل هذا النادى ولم أحلم بأن أجلس مع أحد من هؤلاء السادة فأين أنا منهم ، كل ما تمنيته يوما أن تفتح لى أبواب السماء وأن أعين كناسا فى الشركة ، ولكن لم أستطع أن أحقق حلمى ، أو أجد من يشفع لى عندهم .

وكان يصغى إلى حديثهما شاب فى عينيه بريق ذكاء ، وفى جبهته زبيبة من أثر السجود قال :

— لو دفعت ثمن الوظيفة لحصلت عليها .

— ومن أين لى المال الذى كنت أدفعه يا شيخ حسن ، يوم كنت أبحث عن قوتى ؟

فزفر الشيخ حسن فى قوة وقال :

— لو كنا دولة قوية لأرغمنا هؤلاء الأجانب على احترامنا ، فالناس لا يحترمون إلا الأقوياء ، ولا يقلدون إلا الأقوياء ، ولا يتملقون إلا الأقوياء .

وصمت قليلا ثم قال :

— ماذا كان يفعل هؤلاء أيام كنا أقوياء ، أيام غزونا بلادهم ؟ كان رجالهم يفاخرون بأنهم ينظمون الشعر العربى ، كما يفخر رجالنا اليوم بأنهم يجيدون لغاتهم .

ونظر الشيخ حسن من الشباك القريب منه ، ووقع بصره على رجال بيض الوجوه ، زرق العيون ، شعورهم شقراء ، فقال فى مرارة :

— لو كنا أقوياء ما مشى هؤلاء الإنجليز على أرضنا مطمئنين .

— لم يبق إلا شهور وبعدها نرتاح من رؤية وجوههم .

— لا أعتقد أنهم سيتركوننا دون حرب .

فقال سليمان فى فرح :

ـــ انتهى كل شىء ، تم الاتفاق بيننا وبينهم على أن يجلوا عن قاعدة القناة بعد عشرين شهرا ، بعد أقل من سنتين .

فقال الشيخ حسن :

ـــ أشك فى أنهم سيجلون : وحتى لو نفذوا الاتفاق فما أسرع ما يخلقون الظروف التى تمكنهم من العودة إلى القاعدة ، كيف قبلنا شرط رجوعهم إليها إذا ما حدث هجوم على مصر أو تركيا أو أية دولة من الدول العربية المنضمة إلى ميثاق الضمان الجماعى العربى ، ونحن نعلم أن العالم اليوم جالس على فوهة بركان ، هذا فى رأيى إذعان للقوة الموجودة بيننا .

ـــ وماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟

فقال سليمان :

ـــ نرفض هذا الشرط .

ـــ ولا نبرم اتفاقية الجلاء ؟

ـــ ونحاربهم إذا استدعى الأمر .

فقال عبود :

ـــ أنا لا أفهم فى السياسة ولكننى لا أوافق على هذا الرأى ، لأنى بطبعى أوافق على كل حل سلمى ، لماذا نقتل أنفسنا إن كنا نستطيع أن نحقق أهدافنا دون إراقة دماء ؟ إنى أومن بأن كل مشاكل الأرض يمكن أن تحل دون سلاح إذا خلصت النيات .

فقال حسن فى سخرية :

ـــ إذا خلصت النيات !

ورفت على شفتيه ابتسامة ساخرة مريرة ، ثم قال :

ـــ إننا بشر يا عبود ولسنا ملائكة ، وما من دعوة كبيرة انتشرت فى الأرض إلا وقد سقيت جذورها بالدماء ، وما من حق من الحقوق انتزع من مغتصبيه إلا وقد أريقت فى سبيله الدماء ، فالدماء المسفوكة إن هى إلا قرابين لمجتمعات

ناعمة بالطمأنينة ، سعيدة بالاستقرار .

فقال عبود :

ـــ أيهما أفضل أن يخرج الإنجليز دون قتال ، أو أن نقتل و تزهق أرواحنا دون مبرر يدعونا للقتال ؟

ـــ بل هناك مبرر ، لو طردناهم من بلادنا بالقوة فلن يكون لهم حق العودة ، ذلك الحق الذى لا أدرى كيف طاوعتنا قلوبنا على أن نعطيه !

قال سليمان :

ـــ أتحب يا حسن أن تقتل فى حرب بيننا وبين الإنجليز ؟

فشمخ حسن بأنفه وقال :

ـــ يا ليت ! هذا هو الاستشهاد .. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .

فقال سليمان فى تؤدة :

ـــ نسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا .

فابتسم حسن ابتسامة هازئة والتفت إلى عبود وقال :

ـــ أأنت يا عبود على استعداد لأن تعادى أحدا ؟!

وأحس عبود رنة السخرية فى أعماقه ، فلم يضطرب ولم ينقبض بل قال فى ثبات :

ـــ أنا أمقت العنف وأكره أن أعادى أحدا . وأحاول أن أحب كل الناس حتى أعدائى .

قال الشيخ حسن :

ـــ فى رأيى ألا نهادن من قتلوا آباءنا واضطهدونا وطعنونا فى قلوبنا يوم خانونا فى فلسطين ، الإنجليز أعداؤنا منذ أن عرفناهم وعرفونا وهم رأس كل بلاء حاق بنا .

قال عبود :

ـــ علينا أن ننسى الماضى ونصفح ، وأن نبدأ صفحة جديدة ونمد أيدينا للجميع ، فالأصدقاء لا ينفعون ولكنهم لا يضرون ، أما عدو واحد فقد يحيل الحياة إلى جحيم ، وعدو الأمس اللدود قد يصبح صديق الغد الحميم .

ـــ هيهات .

وظلت السيارة فى طريقها والمناقشات محتدمة بين ركابها ، مناقشات جادة ومناقشات هازلة ، ومهاترات ورواية نكات ، وانطلقت العوامة بحملها إلى بور سعيد ، ثم انسابت السيارة فى حى المناخ حيث هبط جل ركابها .

وسار عبود وحسن فى شارع الأمين ، عبود يمد بصره بعيدا لعله يلمح طيف بهية وقلبه يخفق فى حنان ، وخلجات نفسه كلها تحرضه على أن يفاتح مأمون فى أمر حبه لأخته ورغبته فى أن يتخذ منها زوجة ، وحسن يفكر فى مستقبله وفى العش الهادئ الذى عليه أن يبنيه . وفى الزوجة الصالحة التى سيسكن إليها.

كان الشيخ حسن فى مثل سن عبود ، ولكنه كان يبدو أكبر منه ببضع سنين ، فمسحة الجد التى تكسو وجهه ، والزبيبة التى تتوسط جبهته من أثر السجود ، وصوته الأجش ، وفمه المطبق فى براءة ، وشاربه الغزير الذى يملأ ما بين أنفه وشفته العليا ، وجسمه المبسوط ، كل أولئك يوحى بأنه قد جاوز الثلاثين .

وكان حسن مغرما بقراءة الكتب الدينية يحفظ كثيرا من السور القرآنية والأحاديث النبوية ، وكان يقتطع من أجره المحدود كل شهر مبلغا يشترى به الكتب الإسلامية ، وكان يسارع إلى الندوات والمحاضرات إذا ما كانت تدور حول الدين أو حول شخصية من الشخصيات التى كان لها أثر فى نشر الإسلام وتوطيد دعائمه ، فكان مثقفا ثقافة دينية وإن كان حظه من التعليم الدراسى ضئيلا ، وكانت نفسه تتفتح إذا ما جرت بينه وبين آخرين مناظرة أو أتيحت له فرصة أن يدلى برأى وجيه له فائدة الكتب التى ينفق فيها جزءا ليس باليسير من دخله.

كانت أحلام يقظته تدور حول الدعوة ، وكثيرا ما كان يرى نفسه بعين خياله يدعو الناس إلى الهدى ، ويعيد الضالين إلى الصراط المستقيم ، وقد أراد أن يحقق أحلامه يوما فراح يراسل بعض الشبان فى العراق وسورية عقب حرب فلسطين ، وكانوا يتحدثون عن العبث والقومية والدعوة الإسلامية وضرورة العودة إلى الدين .

كان لا يعرف الفرق بين البعثيين ولا القوميين ولا يدرى علام يختلفون ؟

بيد أن حماسته كانت تثار كلما جاء فى رسالة من الرسائل التى يتلقاها ذكر الماضى وبطولات الماضى المجيد ، وأمانى العودة إلى العزة التى كان فيها المسلمون أيام اتحاد الشعوب . كان ذلك حاله أيام أن كانت بعض الكتب المقررة على طلبة المدارس الثانوية تؤكد أن بيروت عاصمة سورية !

ومرا بدكان فانوس فتمهل عبود قليلا ، وتريث حتى وقع نظر فانوس عليه فألقى عليه تحية بيده وبلسانه ، بينما سار حسن فى طريقه وأشرف على القهوة ، وكانت الأصوات المنبعثة منها خليطا من همهمة وكركرة وقهقهة وضجيج وغناء منبعث من الراديو يضيع فى صيحات لاعبى الطاولة والورق وعجيج أنصارهم ، وكانت سحب الدخان تموج فى جنباتها وتسرى فى حلقات إلى السقف ، ففر المكان بنظرة سريعة فإذا بمأمون وصديق الفرارجى والشاويش بهنس جالسون تحت رف الراديو .

وقف حسن لحظات وقد ثبت بصره على صديق ، ودارت فى رأسه أفكار تنبعث فيه مشاعر وأمانى ، وأحس أنه ينجذب إليه بكل كيانه ، ثم تقدم فى خطوات ثابتة وصوت أجش يرن فى أعماقه يقول : « توكلنا على الله » .

كان صديق الفرارجى طويلا نحيلا ، أشقر الشعر ، وكانت عيناه واسعتين لامعتين لهما بريق لم تطفئه السنون ، فلئن أشرف على الستين إنه كان مستوى العود ، مشدود القامة ، يرتدى ثوبا بسيطا غاية البساطة ونظيفا تستريح لنظافته العيون .

وكان بهنس ربعة ، لا هو بالقصير ولا بالطويل ، أسمر ، يملأ وجهه شارب أسود غزير ، تدل ملامحه على الصرامة ، فى الرابعة والثلاثين يرتدى زى الشرطة الشتوى الأسود وحذاءها الضخم الثقيل .

سار حسن إلى حيث كانوا جالسين ، فألقى عليهم التحية ثم صافحهم بيده ، وقد بدا عليه شيء من التوقير الصادق وهو يصافح صديق ، ثم سحب كرسيا وجلس إلى جواره .

وتقدم عبود فى الطريق فى خطى ثقيلة وقد شخص ببصره إلى شباك بهية ، فلمحها هناك فى هالة من النور على الرغم من أن الظلام بدأ يزحف ليلف الكون

فى عباءته السوداء .

ونبتت فى جوفه مشاعر جميلة كان مذاقها فى نفسه لذيذا ، وسرى فيه خدر ناعم دغدغ حواسه وفتح أمام أحلامه آفاقا رحيبة ، وظل فى هيامه الروحى فترة حتى همس فيه هامس أن الناس جميعا فطنوا إلى ما هو فيه من وجد ، وأن العيون كلها غشيها ذلك الضوء الشاعرى الذى يشع من بهية كلما مد عينيه إليها ، فأفاق من النشوة السارية بين أضلعه وسار إلى القهوة وهو يتلفت .

ومشى هونا إلى حيث كان يجلس أصدقاؤه ، حتى إذا صار على بعد خطوات منهم حياهم فى صوت خافت ، وهم بأن يجلس على أول مقعد قابله ، إلا أن مأمون نهض لاستقباله وهتف فى ترحيب :

ـــ أهلا عبود .

ومد له يده ، فاعتدل عبود وصافحه ، وراح يصافح الآخرين وهو يبتسم وفى عينيه صفاء ينم عن نقاء نفسه .

وجلس الجميع ، وانتهز الشاويش بهنس الفرصة ليأخذ بطرف الحديث ، فقال :

ـــ حدث اليوم فى القسم شىء طريف ، جاءت شكوى من أحد مديرى شركة القناة يتهم فيها الطباخ بأنه سرق بعض أدوات البيت ، وقد تسلم الشكوى ضابط جديد ، فأمر باستدعاء الشاكى لأخذ أقواله ، وهرع أحدنا إلى المأمور يحمل إليه النبأ العظيم ، فخف المأمور إلى الضابط الشاب وقال له : « إن مديرى القناة لا يستدعون إلى القسم ، بل ينتقل إليهم المحققون » فقال الضابط فى دهش : « لماذا ؟ » وضحك الحاضرون وقال له المأمور : « إن كل مدير من مديرى القناة الثلاثة يتقاضى ثلاثة عشر ألف جنيه فى السنة » .

فقال حسن فى استنكار :

ـــ ولو ! إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب مثل بين يدى القاضى لما اشتكاه أحد رعاياه من اليهود !

فقال مأمون :

ـــ ذلك أمير المؤمنين ، أما هذا فهو أحد أباطرة القناة الفرنسيين !

وشرد عبود قليلا ثم قال :

ـــ ثلاثة عشر ألف جنيه فى السنة ؟! لو قدر لى أن أشتغل مائة سنة ما حصلت على هذا المبلغ .

وقال صديق الفرارجى فى مرارة :

ـــ إنه يتقاضاه فى سنة ، أما أنا وأنت فنموت دون أن تساوى كل جهود حياتنا مثل هذا المبلغ ، قد نحصل عليه لو اشتغلنا قرنا من الزمان وهذا مستحيل .

فقال حسن فى سخرية :

ـــ المسألة كلها قرون .

ورفت بسمات على الشفاه ، وقال مأمون :

ـــ وماذا فعل الضابط الشاب ؟

ـــ رفض أن يذهب إلى المدير لأخذ أقواله ، فاضطر المأمور لكيلا يثير أزمة أن يذهب بنفسه ، وبعد ساعات عاد المأمور وهو عابس الوجه ، وسرعان ما عرف السبب ، فالمدير الفرنسى رفض أن يوقع على أقواله لأنها مكتوبة باللغة العربية وقد طلب أن تترجم إلى الفرنسية قبل أن يوقع عليها .

فقال مأمون فى ضيق :

ـــ ما شاء الله !

وقال حسن فى مرارة :

ـــ يريد أن يجعل من أقسام القناة محاكم مختلطة إكراما لخاطره ! إنه معذور فهو يحس أنه إمبراطور فى دولة القناة !

وقال صديق الفرارجى :

ـــ ما أقوى صوت المال ، وما أعظم أن يكون الإنسان غنيا .

وتذكر فجأة حادثة لأحد مديرى شركة القناة ، فاعتدل وقال :

ـــ دخل أحد مديرى الشركة بار الفندق الحديدى ، وكان فى رفقته ثلة من وجهاء المصريين والمالطيين والإنجليز ، وأعلن أن جميع الطلبات من البار فى تلك الليلة على حسابه .

وقال الشاويش بهنس :

ــ له حق ، وأين سينفق الثلاثة عشر ألفا من الجنيهات التى تدخل جيبه كل سنة ، إن لم ينفقها فى البارات وفى القمار ؟

وقال مأمون وهو شارد يحلم :

ــ وعلى اللحم الأبيض والشعر الأصفر .

وقال حسن وهو يهز رأسه ويمسك شاربه :

ــ والعيون الزرق !

فقال له عبود فى عتاب :

ــ اتق الله يا شيخ حسن .

وقال صديق وهو يعبث فى ذقنه :

ــ والله لا أدرى ما الذى يجنيه من بعثرة أمواله ؟

فقال حسن وهو يهز رأسه استخفافا :

ــ يجنى الكثير . كأس .. كأسان .. ثلاثة ثم بعدها تحل عقدة اللسان ، ويجمع ما يشاء من معلومات . فشركة القناة أكبر بؤرة للجاسوسية فى الشرق الأوسط إن لم تكن أخطر بؤرة للتجسس فى العالم .

فقال عبود فى انكار :

ــ حرام عليك يا شيخ حسن .

فقال الشاويش بهنس :

ــ يخيل إلى أن الشيخ حسن على حق ، فوليامز كثيرا ما يتصل بكبار موظفى القناة .

فقال مأمون مستفسرا :

ــ وليامز ثعلب المخابرات ؟

فقال بهنس وهو يقبض على شعرات من شاربه بين أصابعه ويجذبها :

ــ نعم . وهل هناك غيره ؟ إنه كثيرا ما يحوم حول ضباط الأقسام.

وقال صديق الفرارجى :

— وأطباء المستشفيات ورجال الإسعاف .

وقال عبود فى دهش :

— أنا لم أصدق أذنى لما نادانى باسمى أول أمس وكنت أسير أمام مبنى المباحث الجنائية .

فقال مأمون فى لهفة :

— وماذا قال لك ؟

— لا شىء . حيانى وانصرف .

فقال صديق وهو يعبث فى ذقنه :

— يخيل إلى أنه يعرف سكان بور سعيد واحدا واحدا .

فقال بهنس :

— والأهالى يرحبون به لأنه يكلمهم بلسان عربى .

فقال عبود فى غيظ :

— وهذا أخطر ما فيه .

فقال صديق :

— سيغادرنا مع من سيفارقوننا بعد شهور .

فقال حسن فى مرارة :

— إن خرج مع جيوش الاحتلال فما أسرع ما يعود موظفا فى شركة القناة ! إنه كفاية ولا يمكن أن تستغنى عنه المخابرات .

ونهض مأمون مستأذنا ، فقال له بهنس :

— إلى أين ؟

فقال مأمون وهو يبتسم :

— أعطى أمى حقها ، فإجازتى قصيرة وقد أمضيت النهار كله هنا .

فقال له حسن .

— مع السلامة وبلغها تحياتى .

والتفت مأمون إلى عبود وقال له :

ـــ أراك غدا بخير .

فنهض عبود وقال :

ـــ إنى ذاهب لأستريح .

وسار مأمون وعبود إلى جواره تراوده فكرة أن يفاتح صديقه فى خطبة أخته ولكنه لم يجد لسانه حتى غادره مأمون وغاب فى ظلام بيته ، وانطلق هو إلى داره وهو حانق على نفسه .

وظل حسن وبهنس وصديق يتسامرون وحسن يحاول أن ينتهز فرصة ليفاتح صديق فيما عقد العزم عليه ، وأتيحت له فرصة طيبة ليكشف عن مكنون صدره ، بيد أنه آثر أن يتريث حتى ينفرد بصديق .

ومر الوقت والأغانى تنبعث من الراديو دون أن يصغى إليها أحد ، وأصوات رواد المقهى تعلو وتختلط وتطن حتى إن الآذان لم تعد تميز منها شيئا ، وراح الدخان يتكاثف ويستقر ليملأ كل فراغ المكان ، ولم يعد بقادر على أن يسامى أو يعرج إلى السقف كأنما أصيب بشلل .

وقام صديق لينصرف ، وما لبث أن قام حسن ، وقال بهنس إنه سينتظر حتى يسمع نشرة الأخبار .. وسار صديق وحسن إلى جواره ، ولما خلفا القهوة وراءهما قال حسن :

ـــ أمى تريد أن تزوركما غدا .

فقال صديق دون تفكير :

ـــ أهلا وسهلا .

ـــ متى ؟

ـــ فى أى وقت البيت بيتها .

فقال حسن فى انشراح :

ـــ شكرا .

ثم صافح صديق فى حرارة وانصرف وهو يحس بلابل تشدو بين جوانحه ، ومشاعر منتشية ترقص فى أرجاء نفسه التى تفتحت حتى وسعت الكون جميعه .

— ٤ —

سار صديق وهو مشغول بطعام العشاء الذى يحمله معه إلى بيته ، بعد أن التهمت بناته الخمس فى الغداء كل الطبيخ الذى أمضت زوجته فى إعداده صدر نهارها.

ورأى بعين خياله زوجه وهى تحمد الله ثم تغادر السفرة وما أكلت إلا لقيمات تمسك رمقها ، ورأى نفسه وهو ينسحب وراءها قبل أن يشبع ليترك لبناته ما يملأ بطونهن .

ووقف عند عربة صغيرة فوقها صندوق من زجاج مغبر ، ووضع عند مقدمها موقد غاز فوقه إناء به زيت ، تفوح منه رائحة الطعمية الشهية ، وقال للرجل :

— بخمسة قروش .

وانطلق فى طريقه ، وما بعد خطوات حتى عاد إلى الرجل وقال له :

— بستة قروش .

ثم عاود سيره ليشترى خبزا بخمسة قروش أخر .

ووضع أرغفة العيش تحت إبطه وحمل قرطاس الطعمية فى يده ، ووسع من خطوه وهو يرجو أن يصل إلى البيت والطعمية ساخنة ، فذلك يدخل البهجة على قلوب بناته .

ووصل إلى الدار ، ودلف إلى السلم مسرعا ، وراح يصعد فى الدرج المتهدم ، وعلى الرغم من الظلام الثقيل الذى ران على المكان فقد كان يعرف أين يضع قدمه .

ووقف أمام باب شقته وطرقه طرقات خفيفة ، وما أسرع أن انفرج عن بناته الخمس ، وما إن وقعت أنظارهن عليه حتى انقضت كل منهن تحاول أن تأخذ من يده قرطاس الطعمية .

وتعالت صيحاتهن لما تناولت فتحية ، الابنة الكبرى ، القرطاس من أبيها ، فأقبلت الأم على أصواتهن، ورأت زوجها فقالت :

— جئت يا صديق ؟ مساء الخير .

ـــ مساء النور .

ورأت قرطاس الطعمية فى يد فتحية ، فمدت يدها لتأخذه منها حسما للنزاع الذى سينشب بين البنات وقالت :

ـــ هاتى يا فتحية ، وافرشى السفرة .

ومد صديق يده بأرغفة العيش التى كانت تحت إبطه فتناولتها الزوجة منه ، وذهب إلى غرفته ليخلع ثياب الخروج ويلبس الجلباب الذى يرتديه فى المنزل .

كانت الغرفة خالية إلا من سرير عتيق ، ومرآة مكسورة ، ومشجب عليه جلباب أبيض ، وبذلة الإسعاف وقبعة رجال الإسعاف ، وقميص نوم وثوب بسيط للزوجة ولا شىء آخر غير الرطوبة التى كثيرا ما تعجز الأغطية الموضوعة على السرير عن أن تبعد عن النائمين فيها غائلتها .

وخلع ثيابه وارتدى جلبابه الأبيض ، وبلغ مسمعه صوت زوجته تناديه :

ـــ صديق . تعال قبل أن تبرد الطعمية .

وخف إلى الردهة الخارجية فألفاهن يتحلقن السفرة ، وكانت طشتا مقلوبا عليه مفرش من قماش قديم نثرت فوقه أقراص الطعمية .

وفسحت بنتان مكانا بينهما وقالتا فى صوت واحد :

ـــ بابا . تعال هنا .

وذهب وجلس بينهما على الحصيرة ، ووضعت الزوجة بصلة كبيرة على السفرة وقطعتها بسكين أربعة أجزاء متساوية ، ثم تناولت بصلة أخرى وقسمتها أربعة أجزاء أخر ، وقدمت نصف بصلة إلى زوجها وهى تقول له :

ـــ خذ وزتك .

وراحت توزع ربع بصلة على كل من بناتها وهى تقول :

ـــ فتحيـــة ، خذى وزتك . وأنت وزتك .. وأنت وزتك .. وأنت وزتك .. وأنت وزتك .. وأنا وزتى .

ونظرت صغرى البنات إلى نصف البصلة التى ميزت أباها بها وهمت أن تقول شيئا بيد أنها أحست سخافة ما ستقوله بعد أن فتحت فمها ، فقالت وهى

تتظاهر بالمرح :

ـــ كل واحدة وزة !

وقال صديق وهو يمد يده :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم .

وقبل أن يتناول الأب شيئا كانت البنت الصغرى قد غيبت فى فمها قرص طعمية ، ورأتها أمها فقالت لها :

ـــ من يأكل معك يظلم .

وراحت تقسم أقراص الطعمية على الجميع بالتساوى ، لكيلا يبدأ بينهن سباق لا يخسر فيه إلا هى وزوجها .

وساد الصمت بينهم ، كانوا مشغولين جميعا بالطعام ، وقد ألقى صديق نظرة على أسرته فأحس شيئا من الرضا ، فتياته متوردات الخدود فى صحة جيدة ، وزوجته على الرغم من أنها أشرفت على الخمسين لا تزال ناضرة .

كانت فتحية فى الثانية والعشرين ، بيضاء البشرة ذهبية الشعر ، ممتلئة الجسم متناسقة الأعضاء ، وزاد فى حيويتها ذلك المجهود الذى تبذله مع أمها فى توفير بعض أسباب الطمأنينة لأهل البيت ، فقد كانت تصنع من ثوب ضاق على صاحبته أو خلق من بعض أجزائه ثوبا آخر لأخت من أخواتها الصغار ، وكانت تتفنن مع أمها فى طهو أصناف شهية من بقول أو خضر رخيصة ، فكانت تتفنن فى صنع بعض أنواع الكفتة من الفول الحراتى ، وبعض ألوان من الملوخية على مرق من الفول النابت ، وقد كانوا يطلقون على هذا الصنف من الملوخية : ملوخية بالأرانب ! كانوا يتحدثون عن الأوز والدجاج والأرانب والديوك الرومية فى بساطة دون أن تتحرك المرارة فى وجدانهم ، فقد أفلحوا فى أن يقنعوا أنفسهم بالرضا عن الحياة التى يحبونها .

وكانت أصغر البنات فى العاشرة ، وكانت شهيتها مفتوحة كأخواتها ، ولكنها كانت أجرأهن فى التهام ما يوضع أمامها من شراب أو طعام ، بيد أنها ما كانت تأكل وحدها ما تقدمه المدرسة إليها من وجبة غذائية ، بل كانت تحمله

إلى أمها لتضعه مع ما تأتى به أختاها الأخريان اللتان تذهبان إلى المدرسة مثلها أمامهم جميعا ليشتركوا فيه .

وألقى صديق نظرة سريعة على المائدة ، فألفى أصغر بناته قد غيبت فى بطنها كل ما كان أمامها ، فمد يده وقدم إليها ربع البصلة الذى ميز به ، ثم التفت إلى زوجته وقال لها :

— هاتى لبنا لنحلى به .

وتهللت أسارير الفتيات جميعا ، وقامت الأم وتناولت إناء ملأته بالماء ثم وضعته على النار ، وجاءت بعلبة من الصفيح بها لبن مجفف جمع مما يأتى به الفتيات من مدارسهن ، ومما أتى به صديق من الإسعاف حيث يعمل ، وأخذت تذيب اللبن المجفف فى الماء ثم ألقت فيه كمية من السكر ووقفت تنتظر حتى فار اللبن ، فحملت الإناء وعادت به إلى حيث كان زوجها وبناتها فى انتظارها .

وضع إناء اللبن على المائدة ، وقبل أن يستقر فوقها كانت أصغر البنات قد ألقت فيه فتيت ما تبقى معها من خبز ، وإذا بباقى الأسرة تفعل مثل ما فعلت ، ونظرت الأم إلى فتحية وقالت :

— الملاعق يا فتحية .

وانتهوا من عشائهم ، فرفع صديق نظره إلى السقف وقال فى رضا :

— اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال .

فقالت الأم فى إخلاص :

— يارب .

وظل مصباح الغاز حائرا بين الأم وفتحية وأخواتها اللاتى يذهبن إلى المدرسة ، واستقر المصباح مع الفتيات بعد أن دخل الأب والأم غرفتهما ، وفرشت فتحية الحشايا على الأرض فى الغرفة الثانية لتنام هى وأخواتها .

وتذكر صديق ما قاله الشيخ حسن ، فقال لزوجه :

— قال الشيخ حسن إن أمه ستزورنا غدا .

فقالت الأم فى استغراب :

— ألم يقل لك لماذا ؟
— كل ما قاله إن أمه ستزورنا غدا .
— إنها لم تزرنا من سنة . ترى لماذا ستزورنا ؟!
— وهل لا بد من سبب ليزور جار جيرانه ؟
— يخيل إلى أن لهذه الزيارة سببا .
— وما هو ؟
— فتحية .
— فتحية ؟!
— زينب بنت إحسان جارتنا ولدت فى نفس الشهر الذى ولدت فيه فتحية ، وقد تزوجت وخلفت ثلاثة .

وساد الصمت برهة حتى قالت الزوجة :

— مالك ؟ لماذا لا تتكلم ؟

وكان الضوء المنبعث من مصباح الغاز خافتا حتى إنها لم تلحظ الانفعالات العنيفة التى ارتسمت على وجه زوجها .

كان قانعا راضيا بحياته ، وكان يجاهد ويكافح ليحقق لبناته رغباتهن ، وكان ينشرح صدره كلما ملأ لهن بطونهن ، وكان يظن أن ذلك غاية أمانيهن وما فكر يوما فى أمر زواجهن ، وإذا بحديث الليلة الخاطف يلقى ضوءا على مشكلة معقدة لم يحسب لها حسابا ، إنها ليست مسألة فتحية وحدها بل مسألة بناته كلهن وأسرته من بعده .

إنه قد أمضى كل عمره فى خدمة الإسعاف ، وأشرف على الستين وكانت ثمرة كل هذه السنين خمس بنات وأمهن ومرتبه الذى ينفقه على حاجة البطون وستر الأجسام ولا شيء آخر . ماذا يكون حال بناته وزوجته لو سقط ميتا كما سقط عشرات من الرجال من حوله ؟

وتلوى فى فراشه وعض على طرف الغطاء من الألم ، وسرت فيه أنة مكتومة كادت تمزق أحشاءه ، فما رآه بعين خياله بشع لا يمكن لرجل شريف مثله أن

يحتمل مجرد أن يطوف بذهنه .

آه لو تتزوج بناته جميعا فى هذه الليلة ويصبحن فى كنف رجال يصونونهن من العبث ، إذن لاستراح من سوط العذاب الذى بات يلهب روحه ويمزق وجدانه ويعذبه عذاب الهون .

وعلى الرغم من الظلام الذى جثم على أنفاس الغرفة ، فقد رأى فى وضوح بناته ناهدات الصدر ، ممتلئات الأرداف محلولات الشعر وقد امتدت إليهن أصابع نهمة ثائرة تمزق الأسمال التى تسترهن .

ومرر يده على وجهه وعصر رأسه بقبضته لعله يكتم أنفاس الرؤى البشعة التى عرفت طريقها إلى عقله ، وأحس رغبة فى أن يزفر الرماد المتخلف فى صدره من النار المندلعة فى جوفه تحرق عواطفه ، بيد أنه خشى أن تفطن زوجه إلى حقيقة ما يكابده فتسأله عما به وعما يدور فى رأسه فتزيد فى تعذيبه وأساه ، فأخذ يجاهد ليبدو تنفسه طبيعيا ، وكان ذلك جهدا آخر فوق الجهود المبذولة لإخماد الثورة التى انفجرت فى نفسه فجأة كالبركان .

ماذا يفعل لو طلب الشيخ حسن حقا الزواج من فتحية ؟ إنه بكل جارحة من جوارحه يتمنى أن يتحقق ذلك ولكن فرق بين أن يتمنى وأن يكون ، فهو لا يملك ما يشترى به ثوبا واحدا لابنته ترتديه ليلة الزفاف ، وحتى لو كان يملك ثمن ذلك الثوب ، أيكفى ليتم الزواج أن تمتلك الزوجة ثوبا واحدا ؟! ولو قبل حسن أن يأخذ فتحية بثوبها أيعفيه ذلك من شراء ملابس لأخواتها ولزوجه ؟ ومن أين له المال ؟!

ليت الزمن توقف عن الدوران أيام أن كن جميعا أطفالا كل حاجاتهن أن يملأن بطونهن ، أما وقد دارت عجلة الزمن وأصبحت لهن رغبات كان غافلا عنها فلم يعد يدرى ماذا يفعل .

وقالت الزوجة :

ـــ ماذا أقول لأم حسن لو طلبت فتحية لحسن ؟

ودارت به الغرفة ، فزوجته تطلب منه فى هذه اللحظة أن يقرر أن تظل بناته

عوانس أو أن يقبل ما لا يستطيع أن ينهض به . ماذا يقول لها ؟ وشحذت كل مشاعره وتنبهت كل حواسه ، وراح عقله يعمل بيد أنه لم يهتد إلى جواب ترتاح له انفعالاته الثائرة .

وظل صامتا وإن دار فى فراشه أكثر من دورة ، وعادت الزوجة تقول له :

— لم تقل لى ماذا أقول لأم حسن ؟

فقال وقد تهدج صوته :

— لو كان معنا ما نشترى به ما تحتاج إليه فتحية لرحبنا بطلب حسن ، ولكنك تعلمين أننا لا نملك شيئا .

— لو قبلت أن تشتغل فتحية لكان معها ما يعينها على أن تتزوج .

— من يسمعك يعتقد أنى رفضت أن تعمل فتحية . ألم أحاول أن أجد لها عملا فى شركة الشاى ؟ ولكننى لم أنجح لأن المديرين من الإنجليز ولا أعرف أحدا منهم .

— أنت الذى رفضت أن توسط عبود ليكلم المهندس توفيق ، ولو فعلت لكانت فتحية قد اشتغلت ، فالإنجليز لا يردون لتوفيق كلمة .

— لماذا ؟

— لأن زوجته منهم .

— وما رأيك فى أنى وسطت واحدا منهم ومع ذلك لم تعمل فتحية ، كلمت وليمز فى أن يعاوننى على أن يلحق فتحية بالمصنع ، ووعدنى خيرا ، ومع ذلك لم تعين فتحية ، إنهم لا يخدمون إلا من يستطيع أن يؤدى لهم خدمة .

وصمت قليلا ثم قال فى مرارة :

— وأنا لا حول لى ولا قوة .

وزفرت الزوجة وقالت :

— المهم . ماذا أقول لأم حسن لو طلبت منى فتحية ؟

فقال فى ضيق :

— وما أدراك أنها ستطلب فتحية .

ــ أنا واثقة أنها ستأتى غدا لتخطب فتحية لحسن .

وكانت الفرحة تغلف رنة صوتها ، فزاد ذلك فى انقباضه وقال فى نبرة حادة :

ــ قولى لها : الرأى رأى أبيها .

ــ وماذا سيكون جوابك لما أقول لك إن أم حسن تطلب منك ابنتك لابنها ؟!

فقال فى ضيق :

ــ دعينى أفكر .

وصمتت زوجته ، وقامت الأفكار فى رأسه كالأبالسة التى تنفث من أفواهها ألسنة النار ، تلسع كل خلجة من خلجاته وتجعله يتلوى ويئن ويتفصد منه العرق ، وإن كان الهواء فى الغرفة باردا .

ـ ٥ ـ

كانت الشمس تنحدر فى الأفق البعيد ، وكان توفيق يغدو ويروح فى الشرفة وهو يزفر فى ضيق ، فقد كانت زوجته ــ جانيت ــ تقوم بتنظيف البيت ، وكان مرجان الخادم الأسود يحمل المقاعد ويخرجها من الغرفة ، وينطلق بالسجاجيد إلى الحديقة ينفضها ، ثم يعود بها والعرق ينبثق من وجهه ورقبته ويجرى على جسمه كأنما قد سكب عليه ماء ولم يجففه .

كانت جانيت فى الخامسة والعشرين ، بيضاء البشرة ، شقراء زرقاء العينين ، طويلة القامة ، موفورة النشاط ، وكان مرجان فاحم اللون ، مفلفل الشعر ، أفطس الأنف ، قصير القامة ، مفتول العضلات ، وكانت جانيت تأمر وكان مرجان يلبى أوامرها فى خضوع ..

وعاد توفيق ينظر إلى ما يجرى أمامه فأحس استياء ، فسار إلى حيث كانت زوجته وقال :

ــ كفى اليوم يا جانيت .

فقالت دون أن تلتفت إليه :

ــ لم تبق إلا غرفة الاستقبال .

ــ دعيها للغد .

ــ إنها نظيفة ولن يحتاج أمر إعادة تنسيقها إلا إلى دقائق معدودة .

ومر مرجان بهما وصدره يعلو وينخفض من التعب ، فنظر توفيق إليه نظرة إشفاق ثم التفت إلى زوجه وقال :

ــ إنه روح مثلنا .

فقالت جانيت فى عدم اكتراث :

ــ أعرف .

وأمرت مرجان أن يحمل مقعدا ضخما ليخرجه إلى الردهة ، وأحس توفيق رغبة فى أن يؤلمها ، فراح يلقى على مسامعها فقرة من كتاب « روح القوانين » لمونتسكيو ، قال بالفرنسية :

ــ وهذه الشعوب إن هى إلا شعوب سوداء من القدم إلى الرأس ، وأنوفها فطساء بشعة ، حتى أنه من المستحيل أن نرثى لها .

ومن العسير أن يتصور المرء أن الله جل شأنه قد نفخ روحا ، وعلى الأخص روحا طيبة فى جسم حالك السواد .

واحمر وجه جانيت ،وقالت فى غضب :

ــ توفيق !

فرنا إليها توفيق رنوة طويلة وابتسم ابتسامة انتصار ، فقالت وهى لا تزال منفعلة :

ــ قلت لك مرات : لا تحزنى بمثل هذه الأقوال .

فقال بالإنجليزية وهو يبتعد عن جانيت :

ــ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . عمر بن الخطاب قالها قبل أن يولد منتسكيو بألف عام .

فقالت جانيت وهى تزفر :

ــ توفيق ! هذا ليس وقت جدل ، أريد أن أنتهى من ترتيب البيت ، وأحب أن تعلم أنى لا أرهق مرجان ، فهو لم يفعل طوال النهار شيئا .

فدار توفيق على عقبيه وذهب إليها ، وقال فى رقة :
ـــ أنا واثق من طيبة قلبك يا جانيت ولكنى أحب أن أرى الدم الإنجليزى وهو يشتعل فى هذه الوجنات .
وفى لمح البصر طبع على خدها قبلة ، وقالت له :
ـــ اذهب يا توفيق لتأتى بمن يصلح السخان .
ـــ ولماذا لا أقوم بإصلاحه بنفسى ! أنسيت أنى مهندس ؟
فقالت وهى تدفعه برفق :
ـــ اذهب . إصلاح السخانات ليس من اختصاص المهندسين .
فهز كتفيه وخرج ، وركب سيارته الصغيرة وانطلق إلى شارع الأمين ، حتى إذا ما بلغ القهوة ترك السيارة وسار على قدميه دون أن يتلفت . كان يعرف إلى أين يذهب .
وأشرف على القهوة ومد بصره إلى حيث وضع الراديو ، فرأى من خلال الدخان الكثيف المحصور بين الأرض والسقف عبود ومأمون والشيخ حسن وبهنس جالسين حول النضد الذى اعتادوا أن يجتمعوا عنده ، فسار إليهم ، وكان الشيخ حسن أول من لمحه فقد كان دائم التطلع ناحية الباب ، كان متلهفا على قدوم صديق ليعرف رأيه فى طلب زواجه من ابنته فتحية بعد أن زارتهم أمه فى الصباح وخطبتها له ، وقال الشيخ حسن وهو ينهض :
ـــ الباشمهندس .
والتفت الجميع ولمحوه قادما فنهضوا لاستقباله ، وخف إليه مأمون وهو يمد يده مصافحا ، قال توفيق :
ـــ أهلا مأمون . أنت هنا ولم تمر على .
فقال مأمون معتذرا :
ـــ أنا فى إجازة قصيرة .
وسلم توفيق على الجميع ، وقال له الشيخ حسن وهو يقدم له كرسيا :
ـــ تفضل !

فقال توفيق وهو ينظر إلى عبود :

ـــ متشكر . جئت آخذ عبود . أتسمحون ؟

فقالوا فى صوت واحد :

ـــ بكل سرور . تفضل .

وهم بأن ينصرف بيد أنه عاد والتفت إلى مأمون وقال له :

ـــ تعال معنا يا مأمون ، لم أرك من مدة طويلة .

وذهب مأمون معهما وقد أثلج صدره أن الرجل دعاه لينطلق معه إلى حيث لا يعلم ، فقد كانت لفتة طيبة منه أن يدعوه ليؤكد أنه لا ينسى من عمل معه يوما .

وانطلقوا بالسيارة إلى بيت توفيق وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، ثم دلفوا إلى الردهة ، فإذا بجانيت تستقبلهم وترحب بهم وتقول لمأمون :

ـــ لم نرك منذ أكثر من ستة شهور . أين كنت ؟

فقال مأمون وهو يبتسم فى زهو :

ـــ كنت على حدود إسرائيل .

وأشارت بيدها ليجلسوا وقالت :

ـــ تفضلوا !

فقال عبود وهو يتحرك لينصرف :

ـــ شكرا . ذاهب لإصلاح السخان .

وسار وكان يعرف طريقه ، وجلس مأمون وتوفيق ، وقالت جانيت لمأمون :

ـــ ستمكث فى بور سعيد طويلا ؟

ـــ غدا فقط ثم أعود .

ـــ إلى حدود إسرائيل ؟

ـــ إلى « أبو عجيلة » .

وساد الصمت برهة ، ورأى مأمون أن يقول شيئا فقال :

ـــ كلما فكرت فى موضوع فلسطين ، وجدت الحق واضحا فى جانب

العرب ، وزادت دهشتي لموقف الغرب من هذه القضية ، كيف ينكر حق أناس أخرجوا من ديارهم ويساند الغزاة المعتدين .

فابتسمت جانيت وقالت :

ـــ لكي تفهم قضية لا بد أن تدرس كيف ينظر إليها الطرف الآخر ، إنى على الرغم من أنى كنت أدرس تاريخ الشرق الأوسط فى الجامعة ، كنت متأثرة بالتراث الأدبى الذى يصور لى الشرق فى صورة خاصة تغلغلت فى أعماق .

وقال توفيق وهو يبتسم :

ـــ كانت تريد أن تعمل فى وزارة الخارجية فأقنعتها أن تعيش فى الخارج دون حاجة إلى أن تعمل بوزارة الخارجية .

وابتسم مأمون مجاملة ، فقد كان يحاول أن يفهم ما تقوله جانيت ، فقال لها:

ـــ معذرة ! أرجو توضيح ما تقصدينه بالتراث الأدبى .

فقالت جانيت وهى تنظر إلى توفيق :

ـــ كنت أنا وتوفيق نعيش فى بيت سيدة فى لندن ، وكانت غرفته إلى جوار غرفتى ، وكان يعيش معنا فى نفس البيت شاب إنجليزى يعمل فى شركة تأمين ، ورجل آخر يعمل فى التجارة ، وفتاة تعمل فى محل تجارى . كان توفيق رجلا مثل الآخرين ، وكان يرتدى نفس الزى الذى يرتدونه ، ولكن ما إن عرفت أنه قادم من مصر حتى نظرت إليه نظرة خاصة ، ولو أنى قرأت كثيرا عن مصر إلا أنى كنت أتصوره يعيش فى خيمة بالقرب من الأهرام وأبى الهول ، وكثيرا ما رأيته على صهوة جواد أشهب يخطفنى ويعدو بى إلى خيمة ليغتصبنى .

فقال توفيق مداعبا :

ـــ والله لا أدرى من منا الذى خطف الآخر !

ونظرت إليه نظرة خاطفة ، ثم قالت :

ـــ وأهدانى توفيق ذات ليلة نسخة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية ورأتها فى يدى الفتاة التى كانت تعيش معنا فى نفس البيت ، فأنكرت على قراءة مثل هذا الكتاب ، فلما قلت لها : « هل سبق لك أن قرأته ؟ » قالت فى إنكار : « كيف

أقرأه وقد رفض مارتن لوثر أن يقرأه ؟! » ودخلت غرفتي وتمددت في سريرى ، الذى طالما شردت بخيالى وأنا مستلقية عليه لأرى نفسي في جيش من الصليبيين نغمس أسيافنا في قلوب المسلمين الكفرة الذين يحتلون بيت المقدس ، وفتحت الكتاب لأقرأ قرآن هؤلاء الذين نشبت العداوة بيننا وبينهم منذ أن وقفوا على أبواب فرنسا يهددوننا بالغزو والقضاء على ديننا .

وطاف بذهني خاطر وأنا أمسك بالقرآن في يدى لأول مرة : لو قدر أن ينتصر العرب على شارل مارتل في معركة بواتييه لكان هذا الكتاب يدرس الآن في جامعاتنا وجامعات أوربا كلها !

فقال مأمون في لهفة :

ـــ وهل قرأته تلك الليلة ؟ وماذا كان رأيك فيه ؟

فقالت جانيت وهي تنظر إلى توفيق :

ـــ قرأته إكراما لعيون توفيق ، وكان في ذهني ما قاله لى توفيق : « ترجمة القرآن تفقده كثيرا من روعته ، إنه معجز في لسانه العربي ، تصورى كم يفقد شكسبير من جلاله إذا ما ترجم إلى لغة أخرى » .

فقال مأمون في حماسة :

ـــ هذا مع الفارق فإن القرآن من عند الله ، أما ما كتبه شكسبير فهو بقلم بشر مهما سمت عبقريته فالبشرية تستطيع أن تجود بمثله أو بمن يتفوق عليه .

فابتسمت جانيت وقالت وهي تنظر إلى مأمون :

ـــ حماستكم لهذا الكتاب وتمسككم به هو ما يخيف الغرب منكم !

فقال مأمون وهو يقلب نظره بين جانيت وتوفيق :

ـــ ليت الشيخ حسن أتى معنا فهو ينتشي بحديث الدين . إنه يقول : لو كان الغرب متدينا ويفهم حقيقة دينه لكان معنا على إسرائيل ، فاليهود هم الذين وشوا بالسيد المسيح ، وهم الذين أنهوا حياته كما شبه لهم .

فقال توفيق وهو يدلى شفته السفلى في مرارة :

ـــ مما أساء فهم الغرب لقضية فلسطين أن التورارة جزء متمم للكتاب المقدس .

فراح مأمون ينظر فى بلاهة ، لم يستطع أن يفهم ما يعنيه توفيق ، ودخل عبود على أطراف أصابعه بعد أن أصلح السخان وجلس صامتا يصغى إلى الحديث ، قالت جانيت :

ـــ هذا حق ، كلما قرأ المسيحى التوراة وجد أن اليهود فى فلسطين ، ووقر فى ذهنه أنهم أصحاب البلاد الأصليون ، وكلما نشب قتال بين إسرائيل ومصر تذكر المسيحى ما جاء فى التوراة عن المصريين .

فقال مأمون وقد اتسعت عيناه وأرهفت حواسه :

ـــ وماذا جاء فى التوراة عن المصريين ؟

فقال توفيق :

ـــ إنه لا يمكن الركون إليهم .

فقال مأمون فى ضيق :

ـــ والله ظلمتنا التوراة .

فقال توفيق :

ـــ بل ظلمنا اليهود الذين كتبوا التوراة بأيديهم وإن كانت العداوة بين الشرق والغرب قديمة ، بدأت بالعداوة بين الفرس والرومان ، ولما جاء الإسلام وانتصر على الفرس ، ورث عنهم فيما ورث العداوة التى كانت بينهم وبين الرومان .

فقالت جانيت :

ـــ ربما يكون ذلك صحيحا ، ولكن أس العداوة بينكم وبين الغرب هى الفكرة التى بثها الغرب عن الإسلام فى نفوس الأطفال . المسلم مخادع مكار ، رجل شهوة ومحب لسفك الدماء ، يقتل من يرفض الدخون فى دينه ، فإذا ما قوى المسلم واشتد ساعده فسيقضى على كل المسيحيين الأبرار ! المسيحية والإسلام فى رأى الغرب كفتا ميزان ، إذا شالت إحداهما فلا بد أن تنخفض الأخرى .

وامتقع وجه عبود ولكنه لم يحرك لسانه ، وقال مأمون :

ـــ ألا تزال هذه الفكرة عن الإسلام فى رءوس الغربيين حتى الآن ؟

قالت جانيت وهى تبتسم :

ـ عندما عرض على توفيق الزواج طفت كل الرواسب التى كانت فى نفسى على سطح ذهنى ، فانتابنى خوف من فكرة الزواج منه ، رأيت نفسى أساق لأضم إلى حريم توفيق ، ورأيت رمالا وخياما ورجالا لا هم لهم إلا أن يؤذنوا طوال الليل والنهار ، وأن يسجدوا وأن يركعوا ، ولم أنقد لخواطرى ورحت أفكر فى هدوء فعجز فكرى عن أن يربط بين حياة الحريم وحياة القيام والسجود والركوع ، ورحت أتذكر كل ما قرأته عن مصر ، وأبعد عن ذهنى الأوهام ، وخطر لى أن توفيق قد يفرض على الحجاب ، ولكنى جاهدت أن أهتك الحجاب الذى ضربته على عقلى ثقافتى التى كانت تبذر فى نفسى بذور الخوف والمقت لكل ما هو عربى ، ولكل من يدين بدين الإسلام ، ولما كنت قد أحببت توفيق فقد كان من اليسير على الحب أن يقتلع بذور الشك والكراهية ، وقبلت أن أكون زوجة لرجل مسلم .

فقال مأمون وهو يضحك :

ـ وعلى ذلك ، ولكى نقتلع كراهية الغرب لنا من قلوب أبنائه ، علينا أن نوفد أبناءنا إلى أوروبا المسيحية ليتزوجوا من بناتها !

فقال توفيق مازحا :

ـ وحتى لو فعلنا ذلك فلن نكتسب إلا قلوب الفتيات .

فقالت جانيت :

ـ إنهن الأغلبية ، ولا تنس تأثيرهن على الرجال !

وجاء مرجان يحمل بنادق صيد ، فالتفتت إليه جانيت وقالت :

ـ نظفتها جيدا يا مرجان ؟

فهز مرجان رأسه أن نعم وابتسم فأضاءت أسنانه البيض رقعة وجهه السوداء ، وتقدم خطوات حتى اقترب من مأمون ، فمد مأمون يده وأخذ بندقية وجعل يفحصها ويقلبها ويصوبها إلى أهداف وهمية ويختبرها ، وكان توفيق ينظر إليه فى ارتياح ، ثم قال :

ـ أتجيد الرماية يا مأمون ؟

فقال مأمون فى زهو :
— نلت جائزة الرماية فى فرقتى أكثر من مرة .
فقالت جانيت فى بساطة :
— سنخرج فى فجر غد للصيد ، تعال معنا .
فالتفت مأمون إلى عبود ، وقال له وهو يقدم إليه بندقية :
— ما رأيك يا عبود ؟
فقال عبود وهو يبتعد عن البندقية فى فزع :
— تعلم أنى لا أحب الأسلحة ، وأمقت إراقة الدماء وإن كانت دماء عصافير .
فقالت جانيت وهى تضحك :
— مرحى برجل السلام .
وقال مأمون وهو ينظر إلى عبود نظرة خبث وإن كانت زاخرة بالمحبة :
— يسرنا أنا وعبود أن نلبى هذه الدعوة الكريمة .
وقال عبود فى صرامة :
— لا .. شكرا . اذهب أنت ودعنى فى حالى .. أنت رجل محب لسفك الدماء .
وضحك الجميع وقال توفيق :
— غدا فى الفجر ، سأمر عليكما بسيارتى .
فقال مأمون وهو ينهض :
— إلى الغد . مساء الخير .
وتحرك لينصرف فقال له توفيق :
— انتظر . سأعيدكما كما جئت بكما .
فقال عبود وهو يوسع من خطوه لينصرف :
— شكرا .. شكرا ، إنا نريد أن نتمشى ، فجو الليلة جميل .
وقال مأمون وهو يبتسم :
— هذه فرصة طيبة لأكون أنا وعبود وحدنا ، لنتسامر على هوانا .
وخفق قلب عبود خفقات ناعمة ، إنها فرصة حقا ليفاتحه فى أمره وأمر بهية

التى شغف بها حبا ، وباتت أسعد أمانيه أن تصبح له زوجة .

وخرجا إلى الطريق والمشاعر الرقيقة تملأ صدر عبود ، والكلمات الحبيسة التى تضع حدا لمسألته الهينة التى تتراقص على لسانه ، بيد أن لسانه لا ينطق بها ويقول :

ـــ الحلو لا يكتمل ، الباشمهندس رجل كريم ، إنسان عظيم لولا ..

فقال له مأمون فى لهفة :

ـــ لولا ماذا ؟!

ـــ لولا أنه تزوج من إنجليزية .

ـــ هذا أمر يخصه يا عبود .

فقال عبود فى مرارة :

ـــ ما أكثر ما حاولت أن أقنع نفسى أن هذا أمر لا دخل لأحد فيه إلا توفيق ، إلا أن شيئا ما فى داخلى يأبى أن يغمض عينه عن هذه السقطة .

فقال مأمون فى دهش :

ـــ سقطة ؟!

فقال عبود فى شرود :

ـــ إن شيئا ما فى داخلى يصيح : بل زلة كبرى .

ونظر إليه مأمون وهو يعجب فى نفسه من أمر عبود ، فهو هادئ ساكن ينفر من الخصام ويفزع من رؤية الدماء ، ولكن يبدو أن فى جوفه براكين تحاول أحيانا أن تنفجر وأن تعبر عن ذاتها !

وبلغا أول شارع الأمين ، وما درجا فيه خطوات حتى سمعا وقع أقدام أنثوية تجد فى أثرهما وتحاول أن تلحق بهما ، فالتفت مأمون فرأى إنصاف توسع من خطاها ، فتمهل فى سيره ، حتى إذا بلغته قالت :

ـــ مساء الخير يا مأمون ؟

فقال مأمون وهو يبتسم :

ـــ مساء النور .

والتفت عبود ، وما إن وقعت عيناه على إنصاف حتى امتقع لونه ، وأشاح

عنها بوجهه ، وفطنت إنصاف إلى ما اعتراه ، فتعمدت أن تطيل سيرها إلى جوار مأمون فقالت له :

— كيف حال بهية ؟

وربما غيظ عبود ، وتمنى لو يستطيع أن يأمرها ألا يجرى اسم بهية على لسانها مرة أخرى ، بيد أنه كظم غيظه على كره منه وسار وهو يزفر وإن أرهف سمعه ، قال مأمون :

— بخير .

— وكيف حال الوالدة ؟

— الحمد لله . أحسن .

— كنت أحب أن أراهما .

— إن كنت تحبين رؤيتهما فما يمنعك من زيارتهما الآن ؟

فقالت وهى تضحك متهالكة :

— التعب . اريد ان أضع رأسى على الوسادة وأنام . مساء الخير .

فقال مأمون فى رقة :

— مساء النور .

ووسعت خطواتها وقال عبود فى غضب :

— نمت ما قمت .

فقال له مأمون فى عتاب :

— حرام عليك يا عبود ، لماذا تكرهها كل هذا الكره ؟

— أكره سلوكها .

— إنها مسكينة ، تعمل ممرضة طوال النهار أو الليل ثم تعود إلى بيتها ، ولم يعرف عنها ما يشين .

فقال عبود فى سخرية :

— ممرضة ؟! هذه مهنة للتغطية .

فقال مأمون فى انفعال :

— عبود ! لماذا تظلم الناس ؟

— ليتك تراها وهى تهز أردافها كلما مرت على القهوة ، وليتك تسمعها وهى تروى لفانوس نكات بذيئة ، أخجل من سماعها .

— إنها فتاة مكدودة ، وإن فعلت شيئا من ذلك فهى تروح عن نفسها ، وتنفس عن قسوة حياتها .

— أنت ماهر فى تبرير أخطاء الناس .

— يجب أن نرحم الناس ليرحمنا الناس .

فقال عبود ليبرر سلوكه :

— إنى أقسو عليها شفقة بها ، لو ظلت فى سيرها الذى أكرهه ، فهل هناك رجل يقدم على زواجها ؟

— لو فكرت يوما فى أن أتزوج فلن أتردد فى أن أتزوجها .

فقال عبود فى استياء :

— مجرد كلام . لو كنت أنا وهى فى صحراء ، وكنت أموت من العطش وكان الماء فى يدها ، ما تناولته منها !

فقال مأمون وهو يبتسم :

— أنا واثق يا عبود أن قلبك أرق مما ينطق به لسانك .

وكانا قد وصلا إلى القهوة ، فهم مأمون أن يعرج إليها بيد أن عبود توقف وقال له :

— أستأذن . سأذهب لأنام .

فقال له مأمون :

— مع السلامة ، وإلى الغد ، ومن يستيقظ منا أولا يوقظ الآخر ، سيمر علينا توفيق فى الفجر .

— إن شاء الله .

ودخل مأمون القهوة ، وانطلق عبود إلى بيته وهو حاقد على نفسه ، كانت الفرصة سانحة ليطلب من صديقه يد بهية ، بيد أنه أضاعها فى انتقاد توفيق ،

ومهاجمة إنصاف ، وقال لنفسه فى غضب : مالى أنا إن كان توفيق تزوج إنجليزية ، أو كانت إنصاف تتاجر فى عرضها ، إنى أريد بهية .. بهية ... بهية .

ورفع رأسه ونظر إلى نافذتها ، فألفى الظلام يخيم عليها ، فسار لا يلوى على شىء .

— ٦ —

أغلق فانوس دكانه وذهب إلى القهوة يمضى بعض الوقت مع أصدقائه الذين يتسامر معهم كل ليلة قبل أن يعود إلى داره ، فألفى الشيخ حسن وبهنس وحدهما ، فانضم إليهما يصغى إلى مشاكل الناس ومآسيهم التى كان بهنس يرويها كأنما كانت مشاهد تجرى على مسرح فرقة فكاهية !

كانت عين بهنس تلتقط المتناقضات ، وتبحث عن المفارقات ، وتنقب عن السخرية بين أشلاء الأسر وأجداث الناس ، وكان فى أول عهده بالعمل فى أقسام الشرطة ينفعل بالأحداث ويرق قلبه لبعض من يقسو عليهم المجتمع فيدفعهم إلى الوقوف أمامه ليحرر لهم محضرا ، ويحيل بعضهم إلى النيابة ، أو يأمر بحبسهم فى « التخشيبة » ، بيد أن حسه قد تبلد بمرور الزمن ، من كثرة ما رأى من النكبات ، وشحذت موهبته فى التقاط النكات من بين الرمم .

واعتدل بهنس وقال :

ـ جاء إلينا زوج أعمى يتهم زوجته بأنها تستغل عماه وتسرقه ، ولما يسألها عن المسروقات تقسو عليه وتضربه ، وقد اعتدت عليه اليوم بالضرب وأسالت الدماء من أنفه ، واستدعينا الزوجة لنسمع أقوالها : فلما رأت زوجها قالت له : إنه يظلمها ويقسو عليها ولا يقدر جمالها ، ولو كان يبصر ورأى حسنها ما وجه إليها الإهانات التى يكيلها لها ، فقال لها الزوج الأعمى : والله لو كنت جميلة حقا ما تركك لى من يبصرون .

وضحك فانوس ، ومد الشيخ حسن بصره ينظر ، كان متلهفا على عودة صديق ليسمع منه رأيه فى مسألة زواجه من فتحية ، وقد بدأت الريب تضايقه لتأخر صديق ، فلو أن عرضه قد أسعده ما تأخر حتى هذه الساعة ، « ترى

أتحاول يا صديق أن تهرب من لقائى ؟ ولماذا تهرب ؟! لك كل الحق فى أن تقبل أو ترفض ، فإن قبلت فهذا يسعدنى وإن رفضت فلن يؤثر ذلك على صداقتنا . يا ولد ! أنت صاحب مبادئ وتقدر ظروف الناس يا شيخ حسن « تعال يا صديق وارحمنى ، وأنت يا فتحية ما هو شعورك يا ترى لما عرفت أنى أريد أن أتزوجك . لماذا أتزوج ، لأن الزواج نصف الدين يا شيخ حسن .. الزواج دائرة من فى داخلها يريد أن يخرج منها ومن خارجها يريد أن يدخلها .. تعال يا صديق .. تعال » .

ونظر الشيخ حسن إلى فانوس وقال له :

— متى ستتزوج يا فانوس ؟

فقال فانوس فى بساطة :

— ولماذا أتزوج ؟ النسل فى زيادة والبلد ليس فى حاجة إلى نسل جديد . ليت ما نتمتع به من إخصاب ينتقل إلى الثيران والبقر والجاموس والخراف والنعاج ، إذن لوجدنا اللحم الذى نأكله . نصف أقة من لحم الضأن خير عندى من امرأة .

فقال له بهنس وهو يلعق شفتيه بلسانه :

— لا خير فى اللحم كله إن لم تأكله من أجل امرأة !

وهم الشيخ حسن بأن يرد على فانوس ولكنه رأى مأمون مقبلا ، فقال :

— عاد مأمون وحده ، أين عبود ؟

وكان مأمون قد وصل إلى حيث كان الأصدقاء يجلسون والتقطت أذنه سؤال حسن ، فقال :

— ذهب لينام ، عبود يكره السهر ويحب أن ينام مبكرا .

وشرد حسن : « عبود يحب بهية وهو الآن خلف النافذة يمتع البصر والنفس والفؤاد بالنظر إليها . أنت محظوظ يا عبود ، بهية أمامك تراها كلما هفا إليها قلبك ، أما أنا فإن بينى وبين فتحية شوارع ومنازل وأبوها صديق . أين أنت يا صديق ؟ تعال وأرح قلبى ، أراح الله قلبك » .

وأفاق حسن من شروده على صوت مأمون يوجه إليه الحديث ، قال :

— ليتك يا شيخ حسن كنت معنا ، كان حديث جانيت يستحق أن تسمعه .

فاعتدل الشيخ حسن وقال :

— وماذا قالت جانيت ؟

— قالت إن التوراة من أسباب إساءة فهم الغربيين المتدينين لقضية فلسطين .

فقال بهنس بنفس اللهجة التي يستوفى بها محضرا :

— لماذا ؟

فقال مأمون :

— لأنهم كلما قرءوا التوراة وجدوا اليهود فى فلسطين ، فيقر فى أذهانهم أنهم أصحاب البلاد .

فقال حسن فى مرارة :

— لو كان المسيحيون الغربيون يفهمون دينهم حقا لعرفوا أن اليهود المتدينين لا يعترفون إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى من التوراة ، ويعتبرون كل ما بعدها كتابا يسجل تاريخ اليهودية لا أكثر ولا أقل .

ونظر إليه فانوس وقال :

— لم أسمع بذلك من قبل ، من أين جئت بهذا الرأى يا شيخ حسن ؟

فقال الشيخ حسن فى هدوء :

— كان السامريون وهم من اليهود المتمسكين بأصول دينهم لا يعترفون إلا بالإصحاحات الخمسة وهم على حق ، فعلى من نزلت التوراة يا فانوس ؟

— على موسى .

— فكيف يرد فيها أخبار اليهود بعد موسى ؟

فاتسعت عينا فانوس ولاح فى وجهه الدهش ، وقال :

— يبدو أن ذلك حق ، أنا لست مثقفا فى الدين ، ولكن من ذا الذى كتب باقى التوراة ؟

فقال حسن فى ثقة :

— حكماء بنى إسرائيل على مر العصور ، ونجحوا فى أن يضفوا ثوب القداسة على آرائهم وقد وقع فى مكرهم كثير من المؤمنين .

وتذكر مأمون شيئا فقال :

— آه .

والتفت إلى فانوس وقال له :

— هل جاء فى التوراة أن المصريين لا يركن إليهم ؟

فقال فانوس فى هدوء :

— نعم .

وقال مأمون فى قلق :

— وهل يؤثر ذلك فى نظرتكم إلى قضية فلسطين ؟

فقال فانوس فى ثبات :

— الشيوخ والمسنون والعجائز يؤمنون أن المصريين القدماء اضطهدوا اليهود وأساءوا إليهم ، أما الشبان فلم يعد للدين تأثير عليهم .

فقال الشيخ حسن :

— أخطر ما فى الأمر أن اليهود قد نجحوا فى أن يبثوا آراءهم فى عقائد الناس !

ولاح فى وجه مأمون الأسى وقال ساخرا من نفسه :

— وكنت أظن أن قضية فلسطين واضحة لا يمكن أن يختلف عليها منصفان !

وقال الشيخ حسن :

— لكى تفهم قضية فلسطين لا بد أن تطهر عقائد البشر من شوائب اليهود ، وهذا أمر عسير .

وخرج فانوس عن صمته وقال لحسن :

— ألم يأت فى القرآن أن فرعون عذب اليهود وقتل أبناءهم واستحيى بناتهم ؟

فقال حسن :

— هذا حق ، اضطهد فرعون اليهود كما اضطهدهم هتلر ، ولكن ذلك لاضطهاد لا يعطيهم حقا فى فلسطين .

وقال فانوس :

ـــ ألا يحس المسلم المؤمن الصادق عطفا على اليهود ؟

فقال حسن :

ـــ أبدا . لأن الله لعنهم فى القرآن مرتين .

ونهض بهنس مستأذنا فموعد بدء عمله الليلى قد أزف ، ودعا فانوس مأمون ليلعب معه الطاولة ، وبقى حسن وحده يفكر فيما أخر صديق الليلة ، وراح الملل يتسرب إلى نفسه . وهم أكثر من مرة أن ينهض لينصرف بيد أنه كان يعود ويقنع نفسه بالانتظار دقائق أخر ، لعل صوت جرس عربة الإسعاف يداعب أذنيه : « الناس كلها تنقبض إذا ما سمعت صوت جرس الإسعاف أما أنا فأتلهف على سماعه . ليته يدق ليعلن قدوم صديق ويريحنى من هذا الترقب القلق » .

وفى سكون الليل دق جرس عربة الإسعاف دقات خافتة ، التقطتها أذنا حسن ، وما أسرع ما بعثت بالنبأ إلى كل مشاعره وعواطفه ، فاضطرب وخفق قلبه وسرى فيه خوف ولهفة ، ولم يستطع أن يظل مستقرا على كرسيه فنهض ، ومد عنقه ناحية باب القهوة .

ووقفت عربة الإسعاف أمام القهوة ، وهبط منها صديق وعلى رأسه القبعة الحمراء وقد ارتدى بذلة الإسعاف ، وتقدم فى خطو ثابت وحسن ينظر إليه وقد لاح فى وجهه الانفعال : « إنه قادم ليضمد جراح قلبى ، لا إنه قادم ليبترنى وجهه يقول ذلك . يضمد جرحى .. يبترنى .. فليفعل ما يشاء » .

ولمح صديق الشيخ حسن واقفا ينتظره ، فسرت فى بدنه قشعريرة ، وتمنى لو أن شيئا ما يحدث ويجنبه هذا اللقاء ، وغمرته موجة من الأسى ، بيد أنه ابتسم وقال :

ـــ مساء الخير يا شيخ حسن :

فقال حسن فى صوت متهدج :

ـــ مساء الخير يا عمى .

وتمنى صديق لو أن مأمون وفانوس يتركان الطاولة التى أخذت منهما كل انتباههما ويشتركان فى الحديث لينقذاه من الأثر المدمر الذى تركته كلمة :

« يا عمى » . إنها مست وتر الحنان فى أغواره ، وجسمت فى لحظة كل مأساة حياته ، إنه يشتهى بكل كيانه أن يتحقق الحلم الجميل ، حلم أن تتزوج فتحية ، بيد أن كل ظروفه تقوض أركان ذلك الأمل ، وتكتم أنفاسه .

وقرر أن يفر من هذا اللقاء لحظات إلى أن يجمع شتات أمره ، ويعيد سيطرته على مشاعره ، ويتحكم فى قلبه ، فالتفت إلى مأمون وفانوس وقال لهما وهو يجلس:

ــ أنا أتحدى الغالب منكما .

فقال فانوس وهو يزهو بنفسه :

ــ لم يخلق من يهزمنى فى الطاولة فى حى العرب كله وفى الافرنج أيضا إن كان فيهم من يلعب الطاولة .

وسحب صديق كرسيه ودنا منهما وهو يقول لفانوس :

ــ ألم أهزمك أول أمس ؟

فقال فانوس :

ــ حظ .

ولم يعجب حسن أن صديق أولاه ظهره ، وفطن إلى أنه يتهرب من لقائه فعزم على أن يستأذن وينصرف ، بيد أنه عاد وقرر أن يضع حدا لموضوع طلب زواجه من فتحية قبل أن يعود إلى داره ، فمال على صديق وقال له فى صوت هامس :

ــ أتسمح لى بدقيقة واحدة قبل أن تنهمك فى الطاولة ؟

فطارت رباطة جأش صديق وقد حاول أن يعتصم بها بكل قواه ، لكن ما أسرع أن خارت تحت وطأة دعوة حسن له ، فقال وقد ذهبت نفسه شعاعا :

ــ بكل سرور .

ونهض وحسن ينظر إليه : « لا يبدو عليك أنك مسرور يا صديق . هل أنا أقسو عليك ؟ لا بأس إنها لحظات وبعدها يستريح كل منا . لماذا أنا خائف ولماذا أنت خائف . . كأننا عدوان يلتقيان يتربص كل منهما بالآخر ؟ » .

وانتبذا مكانا بعيدا وجلسا إلى نضد سطحه من رخام وقوائمه من حديد ، وسرت برودة الرخام إلى أذرعهما التى استندا عليها وقد دنا رأس كل منهما من

رأس الآخر يد أنهما لم يحسا البرودة ، كانت المشاعر تتلظى فى جوفهما كأنما كانت تتفجر فى جوف بركان .

وقال حسن وهو يحاول ما وسعه الجهد أن يبدو هادئا :

ـ زارتكم أمي فى الصباح وطلبت منكم فتحية لتكون لى زوجة ، وأحب أن أسمع رأيك فى هذا الموضوع .

وصمت حسن وهو حانق على نفسه : « مالك لا تستطيع أن تعبر عن موضوع يمس كل مستقبل حياتك ؟ إنك تتحدث كأنما أنت مقبل على إبرام صفقة ، أو شراء صفقة ، ماذا سيقول صديق عنك بعد أن يعود إلى أهله ؟ بقرة وثور .. بقرة وثور » .

ولم يسمع صديق ما قاله حسن فى وضوح ، كان مشغولا عنه بمحاولة التعبير الصادق عما يحسه دون أن يكشف عن السبب الحقيقى الذى يرغمه على أن يرفض هذه الفرصة المواتية وهو حزين يعتصر الأسى قلبه ، ويكاد الكدر أن يهد كيانه ، قال وهو مطرق ، فما كان بقادر على أن يواجه وهو الشيخ الذى أشرف على الستين ، نظرات الشاب التى تعلقت بشفتيه :

ـ تعلم يا حسن مقدار إعزازى لك وحبى لاستقامتك ومكانتك من نفسى ، ولو كنت سأزوج فتحية ما وجدت لها من خير لدنياها ودينها منك ، ولكنى لا أفكر فى زواج فتحية الآن .

وساد بينهما صمت رهيب على الرغم من الضوضاء المنبعثة من كل أرجاء القهوة ، كانت خناجر تطعن قلب صديق ، وأنياب حادة تمزق حشاياه ، ونار تتلظى فى حناياه ، ويدان من فولاذ تطبقان على عنقه تكادان تكتمان أنفاسه ، وودت دموعه أن تطفر من مآقيه لتطفئ مشاعره المشبوبة ولكنه جاهد ليكتمها حتى لا يبدو ضعيفا أمام حسن ، فزاد ذلك فى كربه وأساه .

وظل حسن مطرقا مدة وهو حزين : « لماذا هذا الحزن ؟ كنت تقول : إنك لن تغضب إذا رفض صديق أن يزوجك فتحية ، هل أنا لست كفئا لفتحية ؟ عزيز على نفسى أن يرفضنى إنسان » .

ونهض حسن وهو مطأطئ البصر ، وقال :

— السلام عليكم .

ونهض صديق ومد يده إلى حسن ، فصافح حسن اليد الممدودة إليه وانصرف لا يلوى على شيء ، وسار صديق يجر رجليه واتجه ناحية الباب ، ومس أذنيه صوت فانوس وهو يقول له :

— هزمت مأمون . تعال يا بطل إلى الميدان .

ولم يلتفت خلفه بل انطلق فى طريقه ، وما غادر القهوة حتى انفجر باكيا وهو يقول بصوت خيل إليه أنه ملأ أرجاء الكون :

— لو كان معى يا فتحية ما أزوجك به ما رفضت أبدا أن أزوجك من حسن . .

— ٧ —

نام عبود نوما متقطعا ، فما يكاد يغمض عينيه ويروح فى سبات حتى يهب من نومه وينظر إلى الأفق من خلال النافذة القريبة من سريره يرقب ظهور تباشير الصباح . كان يخشى أن يمر عليه المهندس توفيق وقد خطفه النوم فيتسبب فى تعطيل رحلة الصيد . وكان أهون عليه أن يعذب نفسه من أن يكون سببا فى تكدير أمزجة الآخرين .

وقبيل الفجر غادر فراشه وأسرع بارتداء ثيابه ، وهرع إلى النافذة وراح ينادى فى صوت خافت خشية أن يزعج الجيران :

— مأمون .. مأمون .

وخطر على قلبه أن الشباك سينفرج عن بهية ، فخفق فؤاده فى حنان ، ومشت فى كيانه مشاعر ناعمة ، وشرد بصره وقد أسلم قياده للأمانى والآمال وطفق ينادى :

— مأمون .. مأمون .

وجوارحه تهتف فى شوق : « بهية ... بهية » .

وطافت برأسه فكرة أن ينطلق إلى مأمون يقرع بابه ليوقظه قبل أن يأتى

المهندس توفيق ، وإذا بالفكرة تصبح رغبة ملحة مستبدة وتتحول إلى شوق آسر بعد أن طافت ببهية وتشبثت بها وباحتمال أن يكون بينه وبينها لقاء .

وسار إلى بيت مأمون كالمسحور ، في جوفه رهبة وبين جوانحه رغبة وفي سويداء قلبه حب وفي حشاياه خوف ، بيد أنه كان على استعداد ليجود بنصف عمره لقاء نظرة من لواحظ فاتنة الفؤاد .

وهبط في الدرج المظلم ولكن عواطفه كانت تنير له طريقه ، وخرج إلى الشارع ولفحه هواء البكرة وانطلق إلى بيت مأمون وقد دبت في كل مشاعره الحياة ، وسار وقد تدفقت إلى رأسه الأفكار : « ما لنا يا مأمون وهذه الرحلة ؟ أين نحن من هؤلاء الناس ؟! ولكنها جرأتك يا مأمون التي تضعنا في هذه المواقف . آه لو كان لي جرأتك لقلت لك الآن : مأمون زوجني أختك . قبلت ؟ وأنا قبلت زواجها . مبروك .. بارك الله فيك ، زغاريد .. زغاريد . متى أسمع هذه الزغاريد .. قريبا يا عبود ، وقد تسمعها الليلة . سأفاتح مأمون في زواجي من بهية قبل أن تغرب شمس هذا النهار ، وقبل أن يسافر مأمون » .

وانتفض من الخوف بعد أن دقت يده الباب ، كان شاردا يجري وراء أحلامه ، ولم يفق من شروده إلا بعد أن أفزع صوت طرقات يده أذنيه ، فانبهرت أنفاسه وراح يترقب ، وقد زاد في رهبته أن التقط سمعه وقع أقدام .

وفتح الباب ، وإذا ببهية مشرقة تبتسم له ، فخيل إليه أنه قد رأى هالة من نور ، وسمعها تنطق باسمه فأحس أنه يصغي إلى تراتيل هابطة إليه من السماء ، قالت :

— عبود ! تفضل ..

قال وهو يتلعثم :

— قولي لمأمون أزف الوقت ، إني سأنتظره هنا .

فقالت وهي تفسح له الطريق :

— تفضل . إنه لم يبدأ في ارتداء ثيابه بعد .

ودخل وقد أحس أبواب الجنة فتحت له ، وجلس على أول مقعد قابله ، ولم ير من المكان شيئا فقد رأى بعين فؤاده أن النور قد غمر كل شيء ، ووقفت أمامه

وهى تشتهى أن تظل واقفة ترنو إليه ، بيد أنها قالت :

ــ قهوة ؟

فقال وقد أسبل عينيه :

ــ متشكر .

فقالت فى إصرار :

ــ سأعد لك القهوة إلى أن يرتدى مأمون ملابسه .

ودارت على عقبيها وسارت فأحس كأن بعضا من روحه بعد عنه ، وظل ينظر ناحية إنصرافها : « تعالى يا بهية . إكرامى أن تظلى جالسة أمامى وروحى تناجى روحك وإن أطبقنا الشفاه ، وإن شئت زيادة فى إكرامى فاجلسى إلى جوارى وعيناى فى عينيك .. أحبك يا بهية » .

ووقفت بهية تعد القهوة وهى تتلفت ، كانت تشتهى أن تعود سريعا إليه وأن تصغى إلى حديثه وأن تسعد بقربه : « ليتك يا عبود تأمرنى بشىء ، سأحمل إليك القهوة ولن أحمل إليك كوب ماء لأتيح لك فرصة أن تطلب منى شيئا ، آه لو طلبت كوب ماء فسينشرح صدرى وسأحمل إليك الماء وأنا سعيدة أكاد أطير من الفرح . أشتهى يا عبود أن أنجب منك أولادا ، بنين وبنات ، يملئون علينا البيت . إنى أحب أولاد الجيران . وأحب أن يكون لى أبناء أجمل من كل أبناء الحى » .

ومس أذنيها صوت آت من غرفة أمها فالتفتت وقد أرهفت حواسها : « أرجوك يا أمى أن تظلى فى سريرك فما حان موعد استيقاظك بعد ، أحب أن أكون وعبود لا أحد معنا ، حتى وجودك أنت يا أمى يا أعز حبيب يعكر صفو لقائنا ، نامى يا أمى الآن إكراما لى » .

ونام الصوت وأشرق وجه بهية بالابتسام ، وعادت تنظر إلى حيث كان عبود فأحست كأن روحها إمتلأ محبة وقلبها عمر بالسعادة وبين جوانحها فرح مرح يكاد يهز أعطافها ، والتفتت إلى القهوة الموضوعة على النار فإذا بها قد فارت ، فأسرعت ترفعها عن النار فى لهفة وتنظفها ثم تضعها على الصينية التى وضعت عليها فنجان القهوة .

وحملت الصينية وهرعت إليه وهي توسع من خطوها ، كانت حريصة على أن تمضى إلى جواره أطول وقت قبل أن يأتى أخوها مأمون ، ووضعت الصينية أمامه والتقت عيناها بعينيه فأحست فى قرارة نفسها أن نظراتها لم تكن بريئة : « عيب يا بهية فى عينيك اشتهاء ... والنعمة الشريفة لقد نظرت إليه نظرة عابرة .. لا تكذبى على يا بهية أنت تريدينه ... نعم أريده .. أريده فى الحلال . أفى ذلك عيب ؟ » . وقالت فى رقة :

— تفضل .

— متشكر .

ورفع الفنجان إلى شفتيه وراح يختلس النظر إليها : « روحها خفيفة ، لا تزال مرحة كعهدى بها مذ كانت طفلة . ليتنا نذهب معا الآن إلى القابوطى لنشترى السمك . بل ليتنا نذهب الآن إلى بيتى .. الصيد ليس لى فيه ، والله لا أدرى يا مأمون لماذا حشرتنى فى زمرة هؤلاء الناس .. لن أغضب منك يا مأمون أبدا إكراما لعيون بهية » .

ووقفت بهية وهى ترجو أن يأمرها بأن تحضر كوب ماء . بيد أنه لم يفعل ، فشهقت فى استنكار كأنما قد ارتكبت خطأ غير مقصود ، وقالت :

— آسفة ، نسيت كوب الماء ، والنعمة الشريفة لا أدرى ماذا جرى لعقلى؟

ودارت على عقبيها وسارت كالغزال وعينا عبود تتبعانها : « سلامة عقلك يا بهية ، عقلى أنا الذى طاش ، مأمون تأخر وقد يدوى كلاكس سيارة توفيق الآن ، ليت مأمون يتريث ، ويا لحظى لو انفجر اطار من إطارات سيارة توفيق ، لو انفجرت الإطارات جميعا أو تعطل المحرك ، آه لو توقف الزمن عن الدوران لكنت أسعد الناس » .

ورشف من القهوة رشفة طويلة وقد ركز عينيه حيث غابت بهية ، وإذا بصوت مأمون يصلك أذنيه :

— صباح الخير يا عبود . آسف إن كنت قد تأخرت .

وهب عبود مفزوعا ولكنه كبح جماح نفسه سريعا ، وقال :

ـ صباح النور .

ووضع فنجان القهوة على النضد أمامه وقال :

ـ هيا ننتظر المهندس توفيق تحت .

فقال مأمون وهو يجلس :

ـ اقعد يا رجل حتى تشرب القهوة .

وقعد عبود وهو سعيد ، وعادت بهية تحمل كوب الماء ولما رأت مأمون قالت فى خفر وهى تنظر إلى الأرض بعينيها :

ـ صباح الخير .

ومالت ووضعت كوب الماء فى حرص : « مؤدبة يا بنت يا بهية ! افتحى عينيك وانظرى إليه ، يا خوفى من مأمون ! لو فطن إلى ما فى عينى لوضع أصابعه فيهما » .

وقال مأمون وهو ينظر إلى بهية :

ـ صباح الخير ، وأرجو أن يكون الصيد اليوم وفيرا لنكرم عبود .

ونظر إلى عبود وقال :

ـ ستتغذى اليوم معنا .

ـ شكرا .

ـ وعلام الشكر ؟ سنطعمك مما نصيده .

فقالت بهية وهى تبتسم :

ـ وإذا لم تصيدوا شيئا ؟

فقال مأمون وهو يضحك :

ـ يصوم اليوم معنا .

ودوى صوت سيارة توفيق ، فهب عبود واقفا ، وقام مأمون وانصرفا مسرعين ، وتأهبت بهية لتبتسم معبرة عن حقيقة المشاعر الرقيقة السارية فى جوانحها إذا ما التفت إليها عبود مودعا ، إلا أن عبود خاف نظرات مأمون فانطلق دون أن ينظر وإن كانت كل خلجة من خلجاته تهفو إليها .

وهبط فى الدرج قفزا وبهية تلاحقهما بنظراتها حتى غابا فى الظلام عن عينيها ، وظلت صورة عبود محتلة رأسها ، واستمر الحوار دائرا بينها وبين طيفه : « عبود يا حبيبى ، كيف تذهب إلى العمل دون أن تفطر .. إنه ليس ذاهبا إلى العمل ، إنه خارج للصيد ، أوه اسكت أنت . إننى أكلم زوجى .. حبيبى . عبود ! ماذا تريد أن تتغذى اليوم ؟ قال مأمون سنتغذى مما نصيده ، أوه لماذا لا تسكت أنت ولا تعود إلى مضايقتى . دعنى أكلم حبيبى » .

وصعد عبود إلى المقعد الخلفى وقفز مأمون إلى جوار توفيق ، وانطلقت السيارة بهم ونسيم البكرة يداعب وجوههم وينعش أفئدتهم ويوقظ عقولهم فيجرون فى صفاء أذهانهم وراء الأمانى والآمال .

وبلغت السيارة منزل توفيق ، فإذا بسيارة أخرى واقفة وإلى جوارها جانيت ووليمز ، وما إن وقعت عينا عبود عليهما حتى انكمش فى مقعده وأحس تضاؤلا وود لو يستطيع أن يفر من هذا اللقاء ، فهو لا يرتاح إلى جانيت ، ويوجس خيفة من وليمز على الرغم من رقته ونعومته التى تذكره دواما بنعومة الثعابين .

وفى مثل لمح البصر ربط عقله بين جانيت ووليمز ، ذلك الثعلب العجوز الذى امتدت أصابعه إلى جميع أرجاء بور سعيد ، وانتشر نفوذه فى شركاتها ومصارفها بل وفى مصالحها ودواوينها ، ترى أتعمل جانيت هى الأخرى فى المخابرات ؟

ونظر إلى توفيق فإذا بالمحبة التى يكنها له تكدرها جانيت : « لماذا يا توفيق تزوجت هذه الإنجليزية . أما كان فى بنات مصر من ترضى غرورك وتملأ فراغ قلبك ؟ » وأفاق من شروده على صوت مأمون يقول له :

— انزل يا عبود وتعال نسلم على السادة .

ورنت كلمة « السادة » فى أذنى عبود رنينا بغيضا جعله يندم على أن أسلس قياده لمأمون ، فما كان لمثله أن يخرج للصيد مع هؤلاء السادة لولا اندفاع مأمون ، ولن يكون فى هذه القافلة إلا خادما ، لن تزيد مكانته على مكانة مرجان .

وحقد على نفسه لأنه فى معرض المقارنة بينه وبين السادة حط من قدر مرجان ، فإن كان مرجان يعمل فى بيت توفيق عمل العبيد فهو فى الشركة يعمل

نفس ما يعمله مرجان ، يبيع نفسه لمن يدفع له فى نهاية الشهر أجره الذى يمسك به الرمق !

وبلغ توفيق ومأمون وعبود سيارة وليمز ، فقال توفيق :

— صباح الخير .

قال وليمز فى لهجة أولاد البلد :

— صباح الفل .

وراح توفيق يقدم الشابين إلى الإنجليزى الذى كانت عيناه متقدتين بالذكاء والخبث على الرغم من السنين التى هدلت جفنيه وجعدت ما تحت عينيه ، وقال :

— عبود ! ويعمل معى فى الشركة ، مأمون وكان يعمل معنا فى الشركة ولكنه الآن صول فى الجيش .

وابتسم وليمز ابتسامة عريضة وقال :

— أهلا وسهلا .

والتفت إلى مأمون وقال مداعبا :

— أنا وأنت رفقاء فى السلاح !

وراح عبود يقلب وجهه بين جانيت ووليمز وهو صامت حتى فتح وليمز باب سيارته وقال له وللمأمون :

— تفضلا معى .

وصعد عبود إلى المقعد الخلفى ، فإذا ببنادق صيد وذخيرة ، فجلس بعيدا عنها وهو يوجس منها خيفة ، وقفز مأمون إلى المقعد المجاور لمقعد السائق ، واستوى وليمز خلف عجلة القيادة ، بينما ذهبت جانيت وتوفيق إلى سيارتهما .

وانطلقت السيارتان وراح وليمز يحدث عبود ، قال له :

— أمستريح أنت فى الشركة يا عبود ؟

فقال عبود فى اقتضاب :

— نعم .

قال وليمز فى هدوء :

ـــ إن كان هناك ما يضايقك أو كان لك مطلب فقل لى ، فمسيو فاجولى صديقى .

ـــ شكرا .

فابتسم وليمز وقال :

ـــ انتهز هذه الفرصة قبل أن يبعد مسيو فاجولى عن الشركة ، فقد بلغنى أن الحكومة ستقوم بتقويم الشركة وستضمها إلى شركة ملاحات إسكندرية . ويومها لن يكون لمسيو فاجولى سلطان على الشركة .

فقال عبود وهو منكمش فى ركن السيارة ، يختلس النظر إلى البنادق والذخيرة بين الفينة والفينة :

ـــ شكرا .

وقال مأمون وهو ينظر إلى وليمز :

ـــ ميزة عبود أنه قانع بما هو فيه .

فقال وليمز مخاطبا مأمون :

ـــ أين أنت الآن يا مأمون ؟

ـــ على حدود إسرائيل ، الدولة التى خلقتها حكومتكم لتكون شوكة فى جنب العرب .

والتمعت عينا عبود وأرهفت حواسه : « لماذا هذا الاندفاع يا مأمون ؟ أين أنت من هذا الثعلب الماكر ؟ وماذا ستجنى من هذا التحدى ؟ » .

وقال وليمز فى هدوء :

ـــ حقا كانت غلطة من الحكومة البريطانية أن أمرت الموظفين البريطانيين أن يفتحوا أبواب فلسطين لليهود .

وراح عبود يصغى وهو فى دهشة : « يا منافق ، يا بن الكلب ! وهل ينتظر غير هذا من ثعلب ماكر مثلك ؟! وقع مأمون . سيطمئن إليه ويفضى بكل ما عنده . حذار يا مأمون وأمسك لسانك » .

وراح مأمون يتحدث عما يفعله فى « أبو عجيلة » ووليمز يشجعه على

الحديث بأن يؤيد كل ما يقول ، ويلعن اليهود ويقرر أنهم فى إنجلترا لا يحبونهم . وتضايق عبود وانكمش وأحس أنه غريب فى سيارة وليمز ، ويا طالما أحس ذلك الإحساس كلما مر بمعسكر من معسكرات الإنجليز ، أو وقعت عيناه على الأجانب وهم يغدون ويروحون فى بور سعيد ويحتلون أرقى منتدياتها ويتقلدون أرفع الوظائف فيها » .

وطفا على سطح ذهنه ذلك اليوم الذى كان عائدا فيه من القاهرة إلى بور سعيد أيام كانت معسكرات الإنجليز على طول طريق المعاهدة . وقفت السيارة التى كان فيها عند كل نقط المراقبة ، وقام جندى بريطانى بتفتيشها . ولم يقف الهوان عند ذلك ، بل لحق بها جندى من البوليس الحربى يركب موتوسيكلا ويرتدى خوذة على رأسه تحمل شارة بريطانيا العظمى ، وأوقف السيارة فى منتصف الطريق بين التل الكبير والإسماعيلية وعاود تفتيشها !

أحس ذلك اليوم أنه غريب فى وطنه ، وكاد يخنقه حنقه لولا الدموع التى طفرت من مآقيه لتخفف عنه ضغط حزنه . ليته يستطيع الساعة وهو فى سيارة وليمز أن يبكى لينفس عن الغيظ الذى يكتمه فى جوفه !

ووصلوا إلى المنزلة فى عماية الصبح ، وهبطوا جميعا من السيارتين فرحين مستبشرين ، يحمل كل منهم بندقية ، إلا عبود فقد سار صامتا ينظر وقد أنكر ذلك المرح الذى بدا على وجه جانيت : « ما كل هذا البشر يا جانيت ؟ ألأنك ذاهبة لإزهاق أرواح بعض الطيور ؟ » .

ووضع مأمون فى يده بندقية ، فنظر إليه نظرة إنكار وعتاب كأنما قد وضع فى يده أفعى . وكاد يلقيها من يده لولا أنه خجل أن يفعل ما قد يجعله سخرية ممن احترفوا إراقة الدماء ، وفطن مأمون إلى ما يكابده ، فقال له :

ـــ احتفظ بها معك إلى أن أطلبها منك .

وتفرقوا وراحوا يخوضون فى الماء ، وساد الصمت ووقف عبود على الشاطئ يقلب البندقية بين يديه ، ودوى صوت الرصاص فجأة ، وتهاوت الطيور وارتفعت صيحات الفرح وكان أعلاها صوت جانيت الحاد .

ومر بعض الوقت واطمأن عبود إلى البندقية التى فى يده فراح يعبث بها وثنى مقبضها وفوهتها فإذا بها تنثنى بين يديه ، وإذا بالخوف ينبعث فيه فجأة ويصور له أن البندقية قد تنطلق فيه ، فحاول أن يعيد البندقية إلى سيرتها الأولى فى سرعة .

وفى لحظة أحس ألما وبالدم يسيل من أصبعه فى غزارة ، فنظر إلى الدم فى هلع وجرى ناحية مأمون وراح يخوض الماء دون أن يتردد .

ووصل إلى حيث كان مأمون كامنا ، وقال فى فزع :

ـــ مأمون ! مأمون ! أصبعى قطعت .

ونظر مأمون فإذا بقطرات الدم تسيل من أصبع عبود لتسقط فى الماء ، فأخرج من جيبه منديلا وربطه حول أصبع عبود لعل الدم الذى كان ينزف يتوقف ، وقال لعبود :

ـــ أسرع إلى سيارة توفيق وسألحق بك .

وخرج عبود من الماء وخف إلى سيارة توفيق ، بينما راح مأمون يعدو ناحية توفيق حتى إذا بلغه قال :

ـــ أعطنى مفاتيح السيارة ، أغلق عبود البندقية على أصبعه .

ـــ وماذا ستفعل ؟

ـــ سأذهب به إلى الدكتور حازم .

وانطلق مأمون بالسيارة وإلى جواره عبود يئن فى صمت ، كان النهار قد تم مولده لما وصلا إلى العيادة ، فراح مأمون يدق جرس الباب فى لهفة ، وإن هى إلا لحظات حتى انفرج الباب عن إنصاف ، ولما وقعت عيناها عليهما قالت فى دهش :

ـــ مأمون ؟! عبود ؟! تفضلا .

وفتحت الباب وفسحت لهما الطريق وهى تقول :

ـــ خطوة عزيزة .

ورأت أصبع عبود فقالت فى اهتمام :

ـــ ماذا جرى ؟

فقال مأمون :
ــ قطع عبود أصبعه .
فقالت إنصاف فى اهتمام :
ــ أرجو أن يكون جرحا بسيطا .
وتقدمت من عبود خطوة وقالت :
ــ تعال لنرى ماذا فعلت بأصبعك .
ولم ينس عبود كراهيته لها فقال فى ضيق :
ــ الدكتور موجود ؟
ــ لم يأت بعد ، سأقوم بالإسعافات الأولية حتى يأتى .
فقال وهو يدور على عقبيه لينصرف :
ــ شكرا هيا يا مأمون إلى المبرة .
فقالت له فى استعطاف :
ــ ادخل وسأقوم بما سيقومون به فى المبرة وزيادة .
وقال مأمون :
ــ إنصاف منا ، ادخل يا عبود واطمئن .
وأعرض عبود عن توسلاتهما وذهب إلى المبرة ليضمد جراحه :
« أفضل أن تقطع أصبعى على أن تمسنى هذه العاهرة » .

— ٨ —

تقلب عبود فى فراشه وأبى أن يفتح عينيه حتى لا يفر النوم منهما ، بيد أن حواسه استيقظت جميعا ؛ راح يفكر فيما كان فى أمسه ، وكان أول ما تذكره أنه حرم من الغداء الذى دعاه مأمون إليه ، ومن متعة أن يبقى ساعة أو ساعات بالقرب من بهية .

وفتح عينيه واعتدل فى فراشه ونظر إلى الضمادة التى لفت حول أصبعه وثبتت حول رسغه ، ولوى شفته فى مرارة وهو يهز رأسه فى أسى ، وما أسرع أن

شرد بصره : « ترى ماذا فعلت يا بهية لما قال لك مأمون أن أصبعى قد جرحت ؟ كنت أحب أن نتغدى معا ، أن أنظر إليك بقلبى المفتوح ، أن يتدفق الحديث بينى وبين مأمون إلى أن أقول له : مأمون ! زوجنى بهية » .

وسار إلى الشباك فإذا بالنهار قد غمر الكون ، وإذا بالشمس ساطعة ، وبالحياة قد دبت فى الشارع ، فمد بصره إلى نافذتها ومشاعره تهتف : « بهية .. بهية ، ما الذى يحول بينك وبينى ؟ لا شيء إلا جبنى . أنا جبان . أجبن من أن أطلب من صديقى أن يزوجنى حبيبة القلب . لك كل العذر أن تغضبى يا بهية . أين أنت يا بهية ؟ أريد أن أسعد برؤية وجهك ! » .

ومس أذنيه صوت طرق على الباب ، فسار وقد لوى عنقه لا يريد أن يبعد عينيه عن نافذتها ، كان يأمل أن يلمحها وأن تشرق نفسه بالضياء ولكنه وصل إلى باب الغرفة دون أن يرى شيئا ، فسار إلى باب شقته المتواضعة وفتحه ، فإذا بدمائه تتدفق حارة فى عروقه ، وإذا بالاضطراب يسرى فى كيانه ، وإذا بقلبه يخفق فى عنف ، وبعينيه تتسعان فى دهش ، وبابتسامة حائرة ترف على شفتيه ، فقد وقعت عيناه على بهية وأمها قد جاءتا إليه ، فقال وهو مأخوذ :

— تفضلا .

وقالت أم مأمون :

— صباح الخير يا بنى . كيف أصبحت ؟

وقال وهو يفسح لهما الطريق ويحس إحساس الغارق فى حلم جميل :

— بخير يا خالة .

وقالت بهية فى صوت حنون :

— صباح الخير يا عبود ، كيف حال أصبعك اليوم ؟

— الحمد لله . شكرا .

ودخلت أم مأمون تجر نفسها جرا وسارت بهية خلفها ، تحمل على يدها شيئا ملفوفا فى ورق صحيفة ، وكانت أم مأمون تدير عينيها فى المكان ، بينما التقت عينا عبود بعينى بهية ، وأخذت العيون تتحدث حديثا رقيقا عذبا تعجز أفصح

الألسن عن أن تعبر عن مكنون أسراره ، أو تكشف جانبا من كنوز ثروته .

ونظر عبود إلى أصبعه : « شكرا لك يا أصبعى ما دام جرحك قد أتى لى بها ، لو كنت أعرف أنها تأتى لذلك لقطعتك من زمان ! » .

وابتسم وابتسمت دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، ووضعت ما كانت تحمله على نضد ذهب لونه ، وبان معدنه الصدئ ، وقالت :

ــ كان مأمون يريد أن يبعث إليك بالأمس بنصيبك من الصيد ، ولكنه رأى أن يدعك تستريح بعد الغرزتين فى أصبعك .

وقالت أم مأمون وهى تجلس على أول مقعد قابلها :

ــ مأمون يحبك ، لم يسافر إلا بعد أن أوصانى بأن أزورك وأن نخدمك حتى تعود إلى عملك . .

ــ شكرا لكم . مأمون أخى .

وراحت حواسه تجرى وراء بهية ، تشتهى كلها أن تسعد بها ، ورقص قلبه طربا : « الحمد لله أن مأمون ليس أخى حقا وإلا لما كان لى أن أتزوج بهية . قالوا لنا فى المدرسة إن الفراعنة كانوا يتزوجون أخواتهم . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ما لى أنا والفراعنة ! المهم أن بهية هنا فى شقتى ، أنا سعيد لأنها بقربى ، ليتها تبقى معى ، لا يفسد سعادتنا شىء . إنها هى الأخرى سعيدة . ما أدرانى ؟ كل ملامحها تنطق بالسعادة ، يا لفرحتى ! » .

وقالت أم مأمون :

ــ ستذوق اليوم طبيخ بهية ، لم يسترح مأمون حتى اطمأن إلى أنها طبخت لك نصيبك من الصيد كما يشتهى .

قال وهو يرنو إلى بهية فى وجد :

ــ أنا واثق أنى سآكل أصابعى بعد أن أذوق طعامها .

قالت بهية وقد ابتسمت عيناها :

ــ أكلت البندقية أصابعك قبل أن تأكلها .

قال وخلجات نفسه ترفرف بالسعادة :

— عضتها ولم تأكلها .

قالت أم مأمون وقد ثبتت عينيها على ملابسه التى علقها فى مسامير فى الحائط:

— قدر ولطف .

والتفتت إلى ابنتها وقالت وهى تشير إلى الملابس المعلقة :

— بهية خذى هذه الملابس واغسليها .

وتحركت بهية وفزع عبود ، فأسرع يعترض سبيلها :

— بالله لا تتعبى نفسك .

فقالت بهية فى رقة :

— أتعب لمن إن لم أتعب لك !

وقال لها فى توسل :

— أرجوك ألا تفعلى . سيضايقنى أنى أتعبتك .

فقالت بهية وهى تحاول أن تنطلق إلى ملابسه :

— والنعمة الشريفة تعبك راحة يا سى عبود .

وقالت أم مأمون وهى تنقل بصرها بين ابنتها وعبود :

— لمى يا بهية كل ما يحتاج إلى غسيل .

— حاضر .

والتفت إلى أم مأمون وقال لها :

— لا داعى لكل هذا التعب ، والله لا أحب أن أتعبكم .

وسرى صوت طرقات خفيفة على الباب ، فخفت بهية فى خفة الغزال تفتح الباب ، فألفت إنصاف أمامها ، فتكدر كل صفوها وتحركت غيرتها قبل أن تفتح إنصاف فمها ، وكانت الدهشة التى ارتسمت على وجه إنصاف لا تقل عن الدهشة التى علت وجه بهية ، غير أن عقارب الغيرة لم تنهش قلبها ، اعتادت بعد أن عملت فى العيادات والمستشفيات أن تجد فى اختلاط الرجال بالنساء أمرا مألوفا لا يثير شكوكها أو يطلق لسانها بأحاديث الإفك والبهتان .

وقالت وهى تبتسم فى رقة :

ـــ صباح الخير . كيف أصبح حال سى عبود ؟

فقالت بهية فى غير ارتياح :

ـــ بخير . تفضلى .

وظلت واقفة تسد الباب بجسمها ، كأنما كانت تحول بين إنصاف وبين الدخول ، بيد أن إنصاف تقدمت ودفعتها بصدرها ودلفت حيث كان عبود وأم مأمون جالسين ، فأسرعت بهية خلفها . وراحت الفتاتان تستبقان إلى الرجل الذى راح يرمق إنصاف فى ضيق وقد فغر فاه من الدهشة . إنها لم تطرق بابه قبل الآن ، فما بالها جاءت إليه وبهية عنده ؟ « ماذا ستقول بهية ؟ ستظن أن هناك علاقة بينى وبين هذه المستهترة ! لو جرى بذهنها شىء من هذا لما استحقت أن تكون زوجتى ، إنها معذورة يا عبود لو ظنت بك السوء ، فما عاشرتك بعد ولا عرفت أخلاقك ، كشر عن أنيابك يا عبود وعامل التى تطفلت عليك بغلظة ، لتنفى عن نفسك كل شك ، وتريح قلب بهية . لا ، هذا لا يليق . إنها فى بيتى » .

وأرهفت حواس بهية ووقفت تصغى وترقب حركات عينى إنصاف ، حتى لا يفوتها شىء وإن كان رمزا ، ونسيت الغسيل وكل ما دبرته لتشرح صدر الرجل الذى كانت كل أحلامها تدور حول أن تنجب منه أولادا !

قالت إنصاف وهى تمد يدها تصافح عبود وأم مأمون فى بساطة :

ـــ صباح الخير يا خالة . صباح الخير يا سى عبود .

وركزت بهية عينيها على اليدين المتصافحتين لعلها تلمح ضغطة تعبر عما لا يمكن التعبير عنه فى حضورهما ولكنها لم تلحظ شيئا ، والتفتت إنصاف إلى أم مأمون وقالت فى صراحة :

ـــ تصورى يا خالة ، رفض عبود بالأمس أن أضمد له جرحه وراح يفر منى كأنما يفر من جيفة ، وسألت نفسى ، لماذا يكرهنى عبود ولم أفعل له شيئا يسيئه ولم أجد لسؤالى جوابا .

وأطرق عبود ولم ينبس بكلمة ، ولم ترتح بهية لهذا الحديث ، فإن لم يكن عبود

يهمها فلماذا هذا العتاب ، ولماذا جاءت تسأل عنه إن كانت على يقين أن عبود يمقتها حقا ؟ وقالت إنصاف :

ـــ لولا أنى أصيلة وأحب أن أنسى إساءات الناس ، ما جئت لأسأل عنك .

وظل عبود فى صمته ، ونظرت بهية إليها فى غيظ دون أن تتحرك أو تفتح فمها بكلمة : « يا لئيمة ! يا ناعمة ! يا فاجرة » وقالت أم مأمون لتلتمس له عذرا ، بعد أن وجدت فى صمته إهانة للفتاة التى تجشمت الحضور لتستفسر عن صحته :

ـــ عبود لا يعرف الكراهية ولكنه خجول .

فقال إنصاف وقد أطلقتها ضحكة عالية :

ـــ يضع على وجهه منخلا !

وتدفق دم الغيظ إلى وجه عبود ، وعضت بهية على نواجذها ، وزاد فى حنقها أن إنصاف كانت ذات دلال وحيوية ، وأن غيرتها صورت لها أن ضحكة إنصاف الماجنة فعلت فى عبود فعلتها الساحرة ، فجعلت دم الرغبة يسرى فى خديه ، وبريق الاشتهاء يأتلق فى عينيه .

وقالت إنصاف لأم مأمون :

ـــ ألم يأمرك الدكتور حازم بالبقاء فى فراشك ؟ لماذا تركت سريرك ؟ سيتعبك نزول السلم وصعوده .

فقالت أم مأمون فى هدوء :

ـــ عبود عزيز علينا وكان لا بد أن أزوره وأطمئن عليه .

فقالت إنصاف وهى تنظر إلى بهية :

ـــ كان فى بهية الكفاية ! إنها الخير والبركة .

وضايق بهية حديثها ونظراتها : « آه لو أقبض على رقبتك وأكتم أنفاسك ، أو أضع أصابعى فى عينيك » ، وودت أم مأمون أن تقول شيئا ولكنها أمسكت لسانها حتى لا تجرح إنصاف ، ولم تنتظر إنصاف جوابا ، ونهضت ثم قالت :

ـــ تأخرت عن العيادة ، عن إذنكم .

والتفتت إلى عبود وقالت :

— إن احتجت إلى شيء فأنا فى خدمتك . ولا داعى للخجل : إننا أهل ، أليس كذلك يا خالة ؟

— تمام يا بنيتى ، الجيران أهل ، النبى أوصى على سابع جار .

فقالت إنصاف وهى تضحك :

— وأنا ثالث جار !

ومدت يدها تصافح أم مأمون ، وقالت :

— سيغضب الدكتور حازم لما يعرف أنك تركت فراشك .

— والله يا بنتى لا تقولى له إكراما لخاطرى .

فابتسمت إنصاف وقالت :

— لو كنت لا أحبك لأخفيت عنه ذلك ، ولكنى أحبك ، لذلك لا بد أن يعلم .

وخيل إلى بهية أن إنصاف نظرت إلى عبود نظرة ذات معنى ، فاضطربت وأحست كأن يدا قوية تهصر قلبها وكأن حملا ثقيلا جثم على صدرها ، وتمنت بكل جوارحها لو أن إنصاف تنصرف : « تحركى . يا شيال الحمول يا متولى . مدد » .

ومدت إنصاف يدها إلى عبود وهى تقول :

— كنت أنوى أن أمرضك اليوم ولكنك محظوظ . عندك ممرضة جميلة متطوعة ، والمتطوع أفضل دائما من المحترف .

فقالت أم مأمون فى سذاجة :

— الله يجبر خاطرك .

ولم تشأ بهية أن تدع حديث إنصاف يمر ، دون أن تعلق عليه تعليقا يجرح كبرياء من أطلقت للسانها حريته ، يسخر ويخز ويرغب ويصرح ويلمح ويلمز ، فقالت وهى تحرك رأسها استخفافا وتحديا :

— أنا لا أمرض غريبا ، عبود منا ، تربى فى البيت معنا ، لا فرق بينه وبين مأمون ولا داعى للغمز واللمز .

وأحست إنصاف أن بهية تريد أن تثيرها معركة ، وهى على الرغم من طلاقة

لسانها تخشى معارك النساء ، فقالت فى انكسار :

— لم أقل شيئا يغضبك يا بهية ، ومع ذلك فأنا آسفة إن كان قد صدر منى ما يسيئك . السلام عليكم .

وانصرفت إنصاف لا تلوى على شيء ، وأغلقت الباب وراءها فراحت بهية تزفر بصوت مسموع كأنما كانت تزفر سموما ملأت صدرها .

وقالت أم مأمون لابنتها فى عتاب :

— لماذا ثرت عليها يا بنتى ولم تقل لك ما يغضبك ؟ إنصاف بنت حلال ، وخدوم ، لا تستأهل منك ما فعلته بها .

فقالت بهية فى انفعال :

— ليتها انتظرت ولم تهرب لأفعل بها ما اشتهته نفسى ، لماذا تطيل لسانها على؟

— لم تقل لك شيئا يا بهية .

— قالت أشياء كثيرة بلسانها وبعينها وشفتها الملتوية ، أليس كذلك يا سى عبود ؟

وقال عبود فى حماسة :

— إنى أكره جرأتها ولا أحترم أية فتاة جريئة .

وأرضت شهادة عبود غرور بهية ، فأسبلت عينيها فى خفر ، وسارت إلى ملابسه ، وهى تحس أنوثتها ، وهو يتبعها بنظرة شاردة « آه لو كانت لك جرأة إنصاف يا عبود ، لما كان هذا حالك . حالى ؟! ما أحسن حالى ، أنا سعيد ، أسعد إنسان فى الوجود ، بهية تخطر أمامى .. هل حقا جرحنا شعور إنصاف ؟ لعنة الله على إنصاف . مالها ومالى ؟ . بهية هنا فى دارى ، تغسل ثيابى بعد أن طبخت لى طعامى ، متأهبة لأن تلبى ندائى ، أين أنت يا مأمون لتأتى بالمأذون يعقد قراننا ؟ لماذا انتهت إجازتك اليوم ، لو لم تجرح أصبعى لطلبتها منك بالأمس ، لو خطبتها بالأمس ما كنت أسعد حالا مما أنا فيه الآن » .

واضطجع فى مقعده ، وبدأت عيناه تريان نور المحبة وقد انسكب فى أرجاء الشقة المتواضعة فغمر كل ما فيها ، فاستشعر كأنما يهيم فى فردوس ونعيم .

وغابت بهية بالغسيل عن العيون ، وقلبت أم مأمون وجهها فى المكان وقالت:

ــ ما أصعب أن يعيش الإنسان وحده ، لماذا لا تتزوج يا عبود ؟

واعتدل فى مجلسه وخفق قلبه إلا أنه لم يحس إحساسات الرهبة التى كانت تعقد لسانه إذا ما تحدث إلى مأمون ، وشعر لأول مرة أنه سيد الموقف فقال :

ــ كنت أنوى أن أطلب بهية من مأمون لولا ما أصاب أصبعى ، أيقبلنى زوجا لأخته يا خالة ؟

وتهللت أسارير الأم وخفق قلبها فرحا ، فما دار بخلدها أن يكون الأمر بهذه السهولة وهذا اليسر ، فقالت فى انشراح ؟

ــ وهل سيجد لها أفضل منك ؟ أنت ابن العزيزة الغالية يا عبود ، كانت أمك رحمة الله عليها أطيب الجيران وأعزهم علينا ، لو أطال الله فى عمرها ما رضيت أن تزوجك غير بهية .

وراحت أم مأمون تتدفق من فرحتها فى الحديث ، وتروى ما كان بينها وبين أم عبود من ود ومحبة ، وكان عبود شاردا عنها وإن صوب عينيه إليها ، كان مشغولا بفرحته بنفسه لأنه اجتاز عقبة الإفضاء بما فى صدره .

والتفت حيث غابت بهية وراوده أمل أن يذهب إليها ويقول لها : مبارك يا بهية يا زوجتى العزيزة ، ثم يطبع على جبينها قبلة . جبينها ؟! ولماذا لا يطبق شفتيه على شفتيها ؟! لا . لا يا عبود . لن تفعل شيئا من ذلك قبل ليلة الزفاف حتى لو عقد المأذون لك عليها .

وراحت الأم تتلفت وتتململ فى جلستها ولاح عليها القلق . كان الخبر الذى جاءها أكبر من أن تحمله وحدها ، ليتها تستطيع أن تنهض لتفضى به إلى بهية . أوَ تفضى به إلى بهية قبل عودة مأمون وأخذ رأيه ؟ أخذ رأيه فى ماذا وقد قال لها أول من أمس أنه يحس أن عبود يريد أن يقول له شيئا وأن الكلمات تموت على طرف لسانه خجلا ، وأنه فى أعماقه يشعر أن عبود يريد أن يطلب منه بهية ، وأنه لو فعل فسيرحب به ، فعبود رجل يقدر المسئولية ، وسوف يعرف حق بهية عليه .

ذهبت الصحة ولو بقى منها شىء لأطلقت زغرودة تعلن النبأ السعيد فى الحى كله .

وخرجت بهية إليهما لتنشر الغسيل وامتدت العيون إليها ، كان عبود يجاهد خجله وتردده لينهض لمعاونتها ، وكانت الأم تجاهد الرغبة الملحة التى كانت تحرضها على أن تناديها وتزف إليها أجمل نبأ تنتظره كل فتاة ، ثم تضمها إلى صدرها وتغمرها بقبلاتها .

وقام عبود ولحق بها وقال لها :

— كفاك تعبا اليوم . دعينى أفعل شيئا .

وهم بأن يأخذ منها الغسيل ، فقالت بهية وهى تبعد عنه الغسيل :

— والنعمة الشريفة لن ينشره أحد غيرى . ناولنى المشابك .

وذهب إلى حيث يضع المشابك وعاد بها : « والنعمة الشريفة روحك خفيفة يا بهية . أنا محظوظ » وقدم إليها المشابك :

— تفضلى .

— ورن صوته فى جوفه : « يا روحى . يا عقلى . يا عينى »

وراحت تنشر الغسيل وهو يرنو إليها مسحورا وقد أفعم بالغبطة ، وما انتهت منه حتى قالت الأم :

— هيا يا بهية لندع عبود يستريح ..

فقال عبود فى حماس :

— والله يا خالة ما أحسست فى حياتى راحة كما أحسست بها اليوم . انتظرى يا خالة حتى نتغدى معا .

— يا بنى هذا نصيبك وقد أكلنا نصيبنا بالأمس ، وخير ربنا كثير ، والحمد لله .

فقال عبود وهو يختلس النظر إلى بهية :

— « لقمة هنية تكفى ميه » .

— بالهناء والشفاء يا بنى . هيا يا بهية .

ومدت يدها وصافحت عبود وهى تقول :

— مبارك يا بنى .

ورنت الكلمة غريبة فى أذنى بهية ، فما تدرى ما الذى دعاها إلى أن تبارك له

وأصبعه فى الضمادة !

ومدت يدها إلى عبود تصافحه قبل انصرافها ، فقال لها عبود فى رقة :

— يد لا نعدمها . شكرا لكما ومع السلامة .

وهبطتا فى الدرج . الأم تتوكأ على الدرابزين وعلى ذراع ابنتها ، وبهية تهبط فى تؤدة ، وعبود عند رأس السلم يرقبهما وهو مفعم بمشاعر لذيذة وقد أحاطت بهما كل عواطفه الرقيق ، وتعلقت كل آماله المشرقة .

وغابتا عن عينيه ، فأسرع إلى النافذة المطلة على الطريق يرصدهما وهما فى سبيلهما إلى البيت ، كانت بهية معتدلة القامة ، نحيلة الخصر ، ممتلئة الصدر ، مرفوعة الرأس ، جميلة ، بيد أن شيئا من ذلك لم يكن يخطف بصره . كان يراها روحا هفهافة شفافة تأسر روحه وتملؤها رضا وغبطة .

وزحفتا رويدا رويدا إلى الدار . ولما اختفتا فيه عن ناظريه راح يدور فى الغرفة من السرور ويضم الهواء من الفرح بين ذراعيه وهو يقول بصوت عال : « والله قد صفا لك الزمان يا عبود يا بن حنيفة » . وشخص ببصره إلى السقف وقال :

— أمى ! أنا سعيد ، خطبت بهية يا أمى .. سأتزوج بهية يا أمى . أتسمعيننى ؟! أنا واثق أنك تسمعين ، وأنك الساعة هنا معى .. تشاركيننى فرحتى .

ورفت على فمه بسمة وقال : « بارك الله فيك يا أمى » .

ومد بصره إلى نافذة بهية فألفاها تتقدم نحوه ، فخفق قلبه حنانا ، وأرهفت حواسه ، فألفاها تبتسم له ابتسامة خفيفة ، ثم تسبل عينيها حياء ؛ وفجأة تدور على عقبيها وتفر من النافذة .

وفاض سروره فهتف فى فرح :

— عرفت .. عرفت أنى خطبتها . قالت لها خالتى ، وقالت لى عيناها إنها سعيدة بأن تكون لى زوجة ، وأنا سعيد أيضا يا بهية .

ودار فى الغرفة دورة كاملة وصاح دون أن يعى :

— يا وعدى !

ـ ٩ ـ

وعاد توفيق من عمله ، فألفى جانيت جالسة تصغى إلى الراديو وقد ركزت انتباهها فى الأخبار التى كانت تذاع باللغة الإنجليزية ، وكانت تلتقط قلما من الرصاص ملقى على النضد أمامها ، وتدون بعض الملاحظات فى كراسة صغيرة أنيقة مغلفة بجلد أخضر .

ووقف توفيق يرقبها برهة ، ولم تحس دخوله ، فقال لها مداعبا :

ـــ أما زلت جالسة إلى الراديو منذ البارحة ؟

فالتفتت إليه وقالت :

ـــ إنى أستمع إلى إذاعات إسرائيل ولندن والقاهرة .

ونهضت من مقعدها وأقبلت عليه وهى تقول :

ـــ إذاعات إسرائيل لا تفتأ تردد أن اتفاقية الجلاء التى وقعت بين مصر وإنجلترا ، خيانة من إنجلترا لإسرائيل .

فقال توفيق فى سخرية :

ـــ وإنشاء إسرائيل فى الوطن العربى ، ألم يكن خيانة للعرب ؟

ولم تعلق جانيت على ما قال ، بل استمرت فى حديثها ، قالت :

ـــ أعتقد أن إسرائيل لن تسكت عن هذه الاتفاقية .

ـــ وماذا تستطيع أن تفعل ؟

ـــ قلت لك يا توفيق أكثر من مرة : « لا تستهن بعدوك ؛ ستقاوم إسرائيل جلاء الإنجليز عن مصر بالدس وإثارة القلاقل فى المنطقة والتآمر ، المسألة بالنسبة لها مسألة حياة أو موت .

ـــ وما رأى الإنجليز فى الجلاء ؟

ـــ أخشى أن الإنجليزى العادى لن يفهم الدوافع الحقيقية لهذا الجلاء ؛ سيصاب بخيبة أمل كتلك التى أصيب بها يوم جلت إنجلترا عن الهند . كنت أعقد آمالا كبيرة على تشرشل ، فهو وحده القادر على أن يشرح للشعب البريطانى

ظروف هذا الجلاء ؛ ولكن تشرشل خيب رجائى ، قال إن منطقة القناة لم تعد منطقة حيوية بعد اكتشاف الأسلحة النووية .

ــ وماذا كان يمكن لتشرشل أن يقول غير هذا ؟

ــ الرأى العام البريطانى يعتقد أن حكومته استسلمت لضغط ناصر ، فكان على تشرشل أن يبصر الشعب بحقيقة الوضع الجديد فى مصر ، أن يشرح لهم أن عهدا جديدا يختلف عن العهود السابقة قد قام فى مصر ، وأن العهد الجديد مصمم على أن يرعى مصالح بلاده ، وأن يكون على الحياد بين الكتلتين المتصارعتين ، الشرقية والغربية .

ــ أظن أن الرئيس عبد الناصر أعلن سياسته فى وضوح : الحرية ، وحق تقرير المصير ، والقضاء على الاستعمار ، وعدم الانحياز ، والتعايش السلمى ، والحياد الإيجابى ، والتعاون مع جميع الدول ؛ نعادى من يعادينا ونسالم من يسالمنا .

ــ قلت لك يا توفيق أكثر من مرة : إن من أصعب الأمور فهم الأشياء الواضحة ، الشعوب لا تفهم إلا ما تحب أن تفهمه ، وما يحب ساستها أن يفهموها إياه .

ــ إنا سنسير فى طريقنا ، سواء أفهم الساسة البريطانيون أم لم يفهموا ، وسواء عرفت الشعوب الغربية والشرقية حقيقة أهدافنا أم تأخر فهمها لنا

فقالت جانيت وهى تسير إلى جوار زوجها إلى غرفة السفرة :

ــ أنا واثقة من ذلك ؛ ولكن الطريق لن يكون مفروشا بالورود !

وبلغا المائدة وقعد كل منهما على مقعده ، وقال توفيق :

ــ قال لى وليمز إن مركز شركة قناة السويس سيكون دقيقا عقب الجلاء .

فقالت جانيت وهى تهز رأسها :

ــ هذا حق .

وأقبل مرجان يحمل الطعام فى صحفة من معدن يتألق كالفضة ، فرمقته جانيت ثم التفتت إلى توفيق وقالت :

ــ لا أدرى سببا لموجة الغلاء المتزايدة هذه الأيام .

فقال توفيق فى دهش :

ـــ موجة الغلاء ؟

فقالت جانيت دون أن تلقى بالا لدهشته :

ـــ أعطيت مرجان جنيها ليشترى أقة لحم وأقة طماطم وأقة قرع وأقة موز ، وكنت أظن أنه سيعيد ثلاثين قرشا على الأقل ، ولكنه أعاد من الجنية قرشين .

فنظر توفيق إلى مرجان نظرة ريبة وقال :

ـــ أحقا هذا يا مرجان ؟

فقال مرجان دون أن يرفع عينيه عن الصحفة :

ـــ كل شيء أصبح غاليا يا سيدى هذه الأيام ، إلا بنى آدم .

ولم يصدق توفيق شيئا مما قاله مرجان ، بيد أنه سكت وتظاهر بالانهماك فى الأكل ، ولم يشأ أن يثير مشكلة وأن يعطى زوجه فرصة لومه على ثقته فى مرجان ، والوقوف إلى جانبه ظالما أو مظلوما ؛ فقد كانت معظم المشادات التى تقوم بينهما بسبب مرجان ، وكان مرجان يعتمد على تأييد توفيق له وعطفه عليه ليتمادى فى غيه ، ويرتكب من الحماقات ما يفجر غضب جانيت ، ويجعلها تصرخ فى حدة سيدات البحر الأبيض !

وشغلا بالطعام عن مرجان ، وراحا يتبادلان أحاديث خاطفة عابرة ، قالت جانيت :

ـــ هل رأيت عبود ؟

ـــ لم أره بعد ، طلب إجازة اليوم وسأذهب لزيارته بعد العصر .

ـــ بلغه تمنياتى وتمنيات وليمز ، فقد سأل عنه صباحا .

وقبيل الغروب انطلق توفيق إلى دار عبود ، ولمحه واقفا فى النافذة ؛ كان يرصد معبودة الفؤاد ، فأشار له بيده محييا ، فخجل عبود كأنما ضبط متلبسا وقد جاء شيئا نكرا ، وتحرك فى ارتباك ليستقبل رئيسه الذى جاء ليعوده

وعند باب الشقة المتواضعة التقى الرجلان ، قال توفيق :

ـــ كيف أصبحت يا عبود ؟

ـــ بخير والحمد لله . شكرا لك . ليس ما بى يستحق أن تجشم نفسك هذا التعب . وآسف إن كنت قد أزعجتكم وعكرت عليكم صفوكم ، ما لمغفل مثلى وللصيد !

وابتسم توفيق وقال :

ـــ يعجبنى فيك صراحتك .

وقال عبود فى بساطة :

ـــ إن لم أقل أنا ذلك فستقولونه أنتم ، فلماذا أغش نفسى ؟!

وقال توفيق وقد لاحت فى عينيه حقيقة مشاعره نحو عبود :

ـــ أنت رجل طيب يا عبود ؛ كلنا نحبك ؛ أرادت جانيت أن تأتى معى لتزورك .

فقال عبود فى صوت متهدج :

ـــ هذا شرف لا أستحقه . من أنا حتى يأتى أناس كرماء مثلكم ليسألوا عنى ؟!

ونظر إليه توفيق فى عتاب وقال له :

ـــ وقد طلبت منى أن أعتذر لك عن عدم تمكنها من الحضور ، وأن أحمل إليك أطيب تمنياتها وتمنيات ويمز .

ـــ شكرا لهما .

وخشى عبود أن يفصح وجهه عن حقيقة مشاعره نحوهما ، فدار على عقبيه وذهب بعيدا ليعود وفى يده زجاجة كوكاكولا ، قدمها إلى توفيق وهو يقول :

ـــ تفضل .

وتناول توفيق الزجاجة وراح يشربها ، وعبود ينظر إليه وقد لاح عليه أنه يريد أن يطلب شيئا إلا أنه متردد فى الإفصاح عما يراوده ، وفطن توفيق إلى ما هو فيه فقال له :

ـــ ماذا تريد أن تقول يا عبود ؟

ـــ أأستطيع أن أحصل على إجازة أسبوعا ؟ سليمان قادر على أن ينهض بكل عملى فى هذه المدة .

ورفع توفيق زجاجة الكوكاكولا عن فمه ، ولاح فى عينيه أسى وقهر ولم ينبس بكلمة ، وأحس عبود أن ما قاله لم يلق قبولا فقال :

ـــ آسف إن كان طلبى قد ساءك ، الظاهر أنى لم أكن موفقا فيما طلبت .

ونهض توفيق وقال وقد أولاه ظهره :

ـــ أبدا يا عبود ، ولكن سليمان لم يعد قادرا على أن ينهض بعمله .. بأى ثمن .

وفغر عبود فاه وجعل يتلفت برهة ، ثم قال :

ـــ هل أصابه مكروه ؟

قال توفيق وقد أطرق حزنا :

ـــ أحس سليمان وخزا فى ذراعيه فذهب إلى طبيب الشركة ، وبعد أن فحص عنه أمره أن يذهب إلى بيته ، ثم أرسل تقريرا سريا إلى الشركة يقرر فيه الاستغناء عنه لضعف قلبه الشديد . فلما تسلمت التقرير ذهبت إلى الطبيب وقلت له : هذا قرار خطير ، حكم على إنسان طيب بالتشرد . فقال لى : إذا استمر فى عمله فسيموت . فقلت له : وإذا ترك عمله فسيموت جوعا ، خير له أن يموت وهو يعمل من أن يموت ذليلا . قال : أعلم أنه قرار بغيض . فقلت له فى ثورة : قرار لا رحمة فيه . فقال لى : واجبى يحتم على أن أتخذ هذا القرار وإن كان قاسيا . إنى لم أتخذه إلا رأفة به .

وزفر توفيق زفرة شديدة ثم قال :

ـــ يا للسخرية ! يلقى به فى عرض الطريق ليموت جوعا رأفة به .

فقال عبود فى حماس :

ـــ لن نتخلى عنه ، ولن نتركه يموت جوعا ما دمنا على وجه الأرض نسير .

فقال توفيق فى مرارة :

ـــ هذه حماسة اللحظة .. النخوة العارضة ، ولكن إذا طال به الزمن فسيصبح عبئا نضيق به جميعا .

فقال عبود فى هلع :

ـــ لا . لا . لن نضيق به أبدا ، سنرعاه رعايتنا لأنفسنا .

فقال توفيق وهو يهز رأسه استخفافا :

ــ يا ليت .

ــ مسكين يا سليمان .

ــ كلنا مساكين ، قد يحدث هذا غدا لأى منا .

ــ وساد صمت ثقيل بينهما ، وتمنى كل منهما لو أن الآخر يقول شيئا ، أى شيء ليخرجهما من ذلك القلق الذى أطبق عليهما . ومس آذانهما صوت أقدام تقترب ، فالتفت توفيق وعبود ناحيته ، وهتك السكون طرق خفيف على الباب ، فراحا يستبقان إليه ليفرا من الشجن الذى أحاط بهما .

وفتح توفيق الباب فإذا بالشيخ حسن أمامه يقول :

ــ السلام عليكم .

ــ وعليكم السلام ورحمة الله يا شيخ حسن.. تفضل !

ودخل الشيخ حسن وما وقعت عيناه على عبود حتى قال :

ــ علموا أولادكم الرماية والسباحة ، لو أنك طبقت تعاليم سيد المرسلين لما أصابك ما أصابك .

فقال له توفيق :

ــ أتجيد الرماية يا شيخ حسن؟

فقال الشيخ حسن فى بساطة :

ــ أجيد الرماية بكل أنواعها ، السهام والمقلاع والبندقية والمدفع الرشاش وإلقاء القنابل ، وصنع الذخائر الحية .

ــ وأين تعلمت كل هذا يا شيخ حسن ؟

ــ من يريد أن يتعلم لا يعدم الوسيلة .

والتفت إلى عبود وقال :

ــ وقد قررت أن أعلم عبود الرماية ليكمل إسلامه .

فقال عبود فى فزع :

ــ حد الله بينى وبين أى سلاح .

فقال الشيخ حسن فى إصرار :

— بل ستتعلم الرماية حتى لا تمكر البندقية بك كما فعلت بالأمس ، السلاح كالنار خادم مطيع ، وسيد طاغ مستبد لا يرحم ، فاتخذه خادما ولا تجعله سيدا .

ورمق توفيق الشيخ حسن فى إعجاب ، وقال :

— عن إذنكما .

وقال للشيخ حسن وهو يصافحه لينصرف :

— عليك به يا شيخ حسن حتى يكمل إسلامه .

وانسل توفيق خارجا ، وما بعد عن أبصارهما حتى قال عبود :

— بارك لى يا شيخ حسن ، اليوم أكملت دينى ، خطبت بهية من أمها ، وقد رحبت الأم بى .

— مبارك يا عبود ! وقد كنت موفقا لأنك طلبتها من أمها ، فخير من يبت فى مثل هذه الأمور النساء .

وصمت قليلا ثم قال فى أسى :

— طلبت فتحية من صديق ، ولم يقبلنى زوجا لابنته ، قال : لا أفكر فى زواج فتحية الآن .

فقال عبود فى دهشة :

— كلام فارغ ، كيف يضيع هذه الفرصة من يده ، لن يجد لها خيرا منك .

فأطرق حسن وقال :

— كل شىء قسمة ؛ ولكن ما يضايقنى أنى كنت قد قررت ألا أغضب إذا ما رفضنى صديق ، فلما رفضنى حز ذلك فى . عزيز على النفس أن ترفض .

فقال عبود متطوعا ليخفف عن صديقه :

— لا بد من سبب أرغمه على هذا الرفض ، وسأعرف السبب .

فقال حسن فى صوت أسيف :

— لا داعى للتعب ، رفضنى صديق وانتهى الأمر .

ونهض وقال :

ـــ سأصلى المغرب والعشاء ثم أعود إليك ..

وانصرف حسن ، وراح عبود يمد بصره إلى شباك بهية ويدور فى الغرفة فى فرح . ثم توقف فجأة وارتسم على وجهه صرامة ، وأصاخ السمع كأنما كان يصغى إلى من يؤنبه : « عيب يا عبود أن ترقص طربا وقد ألقى سليمان إلى الشارع شريدا ، وقد رفض صديق أن يزوج ابنته لحسن . سليمان لن يهان ، سيعيش بيننا عزيزا مكرما ؛ وسأقنع صديق بأن يقبل حسن زوجا لابنته . إنه كفيل بذلك . هل جن صديق حتى يرفض الشيخ حسن ؟ لعل امرأته تريد أن تزوج ابنتها موظفا . الشيخ حسن خير من ألف موظف . سأقول لصديق هذا ، سأقسو عليه إن اضطرنى إلى ذلك ، وشفيعى أنى أريد مصلحة ابنته قبل مصلحة حسن ، إى والله إنى لا أبغى إلا مصلحة فتحية . الحمد لله لم ترفضنى حماتى . قبلة لك يا حماتى . قبلة على الخد . أما أنت يا بهية فلك قبلة عميقة نابعة من سويداء قلبى ، من أغوار كل مشاعرى » .

وأقنع نفسه بأنه سيسعد أصدقاءه جميعا ، فعاد إليه مرحه ، وراح يدور فى المكان وقد غمرته سعادة وانشرح صدره ، حتى خيل إليه أنه قادر على احتواء الكون كله !

وسمع طرقا على الباب فذهب وفتحه ، فرأى أمامه صديق يرتدى ملابس الإسعاف وقد حمل حقيبة صغيرة ، فقال عبود مهللا :

ـــ أهلا .. أهلا .. جئت فى وقتك .

وقال صديق فى براءة :

ـــ الفضل لإنصاف ، قالت لى إنك جرحت بالأمس ، وطلبت منى أن آتى لأطهر جرحك وأغير الضمادة . كانت ترجو أن تفعل ذلك بنفسها لولا أنها واثقة من أنك تكرهها .

واربد وجه عبود وقال :

ـــ إنى لا أكره أحدا ، ولكنى لا أحب أن تكون بينى وبين بعض الناس مودة ؛ وفرق بين الكراهية والاقتصار عن الناس .

ودخل صديق وفتح الحقيبة ، وأخرج منها لفافة من القماش وأنبوبة مرهم ومقصا صغيرا ، وقال :

ــ ناولنى أصبعك .

ومد عبود إليه يده وقال :

ــ ليتك جئت قبل نصف ساعة ، كان الشيخ حسن هنا .

وغام وجه صديق بسحابة من الكدر ، وراح يفك الضمادة فى انفعال ينم عن الثورة التى تأججت فى جوفه ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة ، وراح عبود يرقبه ففطن إلى الصراع الناشب بين جوانحه ، فقال له فى رقة :

ــ لماذا رفضت الشيخ حسن يا صديق ؟

ورفع صديق وجهه فإذا بالدموع قد بللت عينيه ، وقال فى صوت خنقته العبرات :

ــ أتظن يا عبود أن ذلك كان هينا على ، رفضته والخناجر المسمومة تمزق قلبى ، والمطارق تدق رأسى ، والحزن يخنقنى ويكاد يكتم أنفاسى . كان رفضى له أقسى قرار اتخذته فى حياتى . قلت له صادقا إنى لن أجد لابنتى زوجا خيرا منه .

ــ ولماذا رفضته ؟

فأطرق صديق وترك يد عبود تسقط من بين يديه ، وقال :

ــ لأنى لا أملك ما أزوج به ابنتى . مرتبى لا يكاد يكفى قوت عيالى فكيف أزوج فتحية ، ومن أين أدفع تكاليف زواجها ؟!

فقال عبود كأنما يواسيه :

ــ كل شيء برزقه يا سيد صديق .

فقال صديق فى ضيق ، وفى صوته رنة غضب وأسى وعدم رضا :

ــ لا أملك غير مرتبى ، ويا ليته يدوم ، فمن أين سيأتينى ذلك الرزق الذى أزوج به بناتى ، وليس لى قريب غنى أنتظر موته لأرث ثروته ؟

وصمت صديق برهة ثم قال فى مرارة :

ــ لم أحس جرم ما فعلته بإنجاب كل هؤلاء البنات قبل أن يفاتحنى حسن فى

زواج فتحية . أنا بائس .. مسكين .. مجرم .. لمن سأترك بناتى وزوجتى لو كتب على أن أموت ؟

وبللت الدموع عينى صديق وارتسم على وجهه أسى عميق ، وفجأة طفرت العبرات من مقلتيه ، وأجهش بالبكاء ، فقد راح هامس يفح فى جوفه بصوت أجش بغيض : وماذا ستفعل بهم بعد سنوات ، حتى لو أطال الله فى عمرك ؟ ستحال إلى المعاش ، وتتقلص الجنيهات القليلة التى لا تكاد تكفى القوت إلى جنيهات لا تغنى ولا تمسك الرمق .

وفجرت دموع صديق كل منابع الشفقة فى قلب عبود ، وأيقظت شهامته ، فقال فى صوت متهدج :

— وإذا كفيت مؤونة تجهيز فتحية ، أتقبل حسن زوجا لها ؟

فقال صديق كأنما يتحدث عن أمنية عزيزة المنال :

— يا ليت ! أين لى هذا ؟ سيستر عرضى ويغلق فم من الأفواه المفتوحة فى بيتى .

فقال عبود فى حماسة :

— دع لى هذا الأمر .. سأدبره .

وراح كل منهما ينظر إلى صاحبه فى بلاهة ، ثم ضم عبود السيد صديق الفرارجى إلى صدره وقال :

— مبارك . أنت رجل طيب وحسن رجل صالح ، الطيبون للطيبات يا سيد صديق .

— ١٠ —

وقفت إنصاف أمام العم فانوس تتثاءب وتتمطى ، وتتكئ بمرفقيها على الحاجز الذى يفصل بين الزبائن والدكان ، وتغالب النعاس الذى يداعب عينيها وإن كان الوقت ظهرا ، فقد أمضت ليلة طويلة إلى جوار مريض فى عيادة الدكتور حازم عقب أن أنهت عملها فى المستشفى .

ومالت بصدرها إلى الأمام واسترخت فى وقفتها ، فبدت كأنما تتعمد أن تبرز

مفاتنها وأن تلتقط أنظار المارة . وراح العم فانوس يزن لها السكر والشاى ويختلس النظر بين لحظة وأخرى إلى الأخدود الغائر المكشوف بين نهديها ، وقال يبلل شفتيه بلسانه :

ـــ متى ستصيبك العدوى يا إنصاف ؟

فقالت دون أن تفكر فيما يقول ، أو تحاول أن تفهم ما يرمى إليه :

ـــ أنا محصنة .

فقال وهو يدنو منها ليرى من صدرها أكثر مما رأى :

ـــ ما أصاب بنات الحى يجعل كل فتاة تتمنى أن يكون وباء .

وصمت قليلا ليثير فضولها ويجذب انتباهها ، وأرضاه أنها قالت :

ـــ وما الذى أصاب بنات الحى ؟

ـــ « شوطة » زواج . خطبت بهية وفتحية بنت صديق الفرارجى .

فاعتدلت إنصاف ، وطار النعاس من عينيها ، وقالت :

ـــ عبود خطب بهية ، ومن الذى خطب فتحية ؟

فقال العم فانوس :

ـــ الشيخ حسن .

وقدم إليها قرطاس السكر .

ـــ العقبى لك .

وفطن إلى شرودها ، ورأى الأحلام على وجهها ، فتعمد أن تلمس يده يدها فأفاقت مما كانت فيه ، وقالت وهى تنفخ الهواء فى وجهه :

ـــ فانوس ! والنبى أطفئك .

وابتسم فانوس وأبعد يده عنها وقال :

ـــ أتحبين الزواج يا إنصاف ؟

فقالت فى صراحة :

ـــ الزواج نعمة .

ونظرت إليه نظرة طويلة وقالت :

ـــ لماذا لا تتزوج يا فانوس ؟

فقال وهو يبتسم فى خبث ويلحسها بعينيه :

ـــ ولماذا أتزوج ؟

ولم تدعه يتم حديثه بل قالت :

ـــ عندك حق ، فالرجال هم الذين يتزوجون .

ـــ والنساء أيضا .

فقالت وقد التمعت عيناها ببريق خبث :

ـــ والنساء أيضا . أما من لا يتزوج فلا هو رجل ولا هو أنثى !

فقال فانوس وهو يسبل عينيه :

ـــ حرام أن نحكم على الناس قبل أن نجربهم .

فقالت له دون أن تغضب :

ـــ يا كهين !

وحملت أشياءها وهمت بالانصراف ، بيد أنها عادت ووضعت حملها وقالت :

ـــ ومتى خطب الشيخ حسن فتحية ؟

ـــ خطبها من أبيها منذ أيام ولكن صديق اعتذر له ، ولما سأله عبود عن سبب رفضه لحسن علم منه أنه لا يملك ما يزوج به ابنته ، فأقنعه أن حسن لا يطلب جهازا ، وأننا نحن أصدقاء صديق سنتعاون على حمل تكاليف الزواج الأخرى ، علق عبود فى عنقه إتمام هذا الزواج .

فقالت إنصاف فى حرارة وقد شخص بصرها إلى نافذة بهية :

ـــ عبود إنسان ، وإن كان يكرهنى .

وعادت تحمل أشياءها وهى تفكر فيما فعله عبود ، دون أن تلسعها غيرتها أو يتحرك حقدها . وانصرفت وقد زحف النعاس ليداعب جفونها .

وأقبل حسن وعبود من القابوطى وكل منهما يحمل حملا ثقيلا من السمك . وتعبت يدا عبود ، بيد أنه كان سعيدا فما يحمله إن هو إلا هدية لبهية . ونظر الشيخ حسن إلى السمك الذى يرفعه بيديه ، وأشرق وجهه بابتسامة وقال :

— كان صديق جاهلا لما قال لك : من أين سيأتينى ذلك الرزق الذى أزوج به بناتى ، وليس لى قريب غنى أنتظر موته لأرث ثروته .

وهز السمك الذى يحمله وقال :

— ها هو رزق ساقه الله إليه ما كان يفكر فيه . المرتب يا عبود شىء والرزق شىء آخر . قد يكون مرتب شخص ما أربعين جنيها بينما يكون رزقه أكثر من ذلك أو أقل .

فالتفت إليه عبود وقال له :

— كيف ؟

— إذا مرض ذلك الشخص أو أحد ممن يعولهم ، وأنفق على ذلك المرض خمسة جنيهات أو أكثر ، فإن ما أنفقه هو من مرتبه وليس من رزقه ؛ قد يكون من رزق الطبيب أو الصيدلى . الرزق فى رأيى هو ما ننفقه فى معاشنا ، وما نكسو به أنفسنا ، وما نعلم به أبناءنا ، وما ننفقه فى البر لينفعنا فى آخرتنا . قد يكون لأحدنا مرتب معلوم يا عبود فإذا مات انقطع رزقه .

— ومتى يزيد الرزق على المرتب ؟

فقال حسن وقد لاح فى وجهه الرضا :

— إذا منحك الله صحة وألبس ذريتك ثوب العافية ، فهذا رزق خفى . وإذا بارك لك فى أهلك فهذا رزق خفى . وإن أمدك بقوة تمكنك من الإعراض عن نزوات النفس الأمارة بالسوء فهذا رزق خفى .

ثم ضحك حسن وقال :

— وإذا قيض الله لك زوج ابنة ذا قلب كبير مثل عبود يحمل إلى بيتك الهدايا ، فهذا رزق ظاهر .

ورأى عبود سمكة من الأسماك التى يحملها حسن تريد أن تسقط ، فقال وقد أشرق وجهه ببسمة :

— حاذر يا حسن ، بعض الرزق يريد أن يفلت من بين يديك .

وانسابا سعيدين فى شارع الأمين ، عبود يوسع من خطوه لينسق حركاته

والحرارة المنبعثة من قلبه ؛ فعما قليل سيقدم هديته إلى بهية ، آسرة الفؤاد .
وحسن يسرع ليلحق بدكان العم فانوس ليلف السمك فى ورق جديد ، غير هذا الورق الذى تمزق وذاب .

وبلغا الدكان ، فوضع كل منهما حمله على الحاجز الخشبى الذى كاد لونه الأخضر أن يختفى ليحل مكانه طبقة من الزيت امتزجت بالأوساخ ، وراحا يزفران فى راحة ، ومد حسن بصره إلى حيث كان فانوس ، فألفاه يتناول غداءه . كان أمامه دجاجة كاملة ، فقال له حسن فى دهشة :

ــ من أين لك هذا الطعام ؟

فقال فانوس فى هدوء :

ــ من البيت :

فقال حسن ساخرا :

ــ مستحيل . البيت يكتفى بإرسال دبوس أو جناح أو قطعة من الصدر .

فقال عبود فى انشراح :

ــ هذا رزق ، وأظن أنا أعرف من أين جاء .

ونظر إليه فانوس فى تحد ، ولم يأبه عبود لنظرته وقال :

ــ جاء من المستشفى ، جاءت به إنصاف . حرمت منه مريضا وحملته إلى صاحب القسمة .

فقال فانوس فى انفعال :

ــ وعهد الله لا صلة بين هذا الطعام وبين إنصاف . لماذا تظلمها دائما يا عبود ؟

ثم ضحك ضحكته المجلجلة فجأة وقال :

ــ بنات الحلال كثيرات ؟

ومد عينيه إلى السمك ، ثم نظر إلى عبود وحسن وقال :

ــ الحب جميل .

وانفجر ضاحكا ثم قال :

ــ الزيت موجود . اللهم اجعل فيها زيتا .

وقال له حسن :

ـــ هات فرخ ورق قزاز وثلاثة أفرخ ورق أبيض .

فقال فانوس وهو يقدم له ما طلب :

ـــ وشريط حرير أحمر .

وضحك ثم التفت إلى عبود وقال له :

ـــ لماذا لم تضع فى خياشيم السمك ورودا حمراء ، إنها دليل على أن الحب نار .

وجلجلت ضحكته ، وقال له عبود :

ـــ لك حق ، اضحك . إنها راضية عنك .

ورفع فانوس نظره إلى شباك بهية ، ثم استقر على وجه عبود وقال :

ـــ وسترضى عنك لما يصل إليها السمك ، اليوم كله رضا .

وانتهى حسن من لف السمك فى عناية ، ثم اتجه إلى المقهى ، وما لبث أن عاد ومعه صبى القهوة ، فوضع فى يديه اللفافة وقال له :

ـــ اذهب بها إلى بيت السيد صديق الفرارجى ، وقل لأهل البيت إنها من حسن ، فاهم ! إنها من حسن .

ـــ فاهم .

وقال فانوس للصبى :

ـــ وبعد ذلك عد إلى .

وقال حسن لعبود :

ـــ وأنت ؟ ماذا ستفعل ؟

فقال عبود وهو يرفع هديته بين يديه :

ـــ سأذهب بنفسى .

فقال فانوس :

ـــ هذا أجمل .

وسار عبود وهو مسرور ، وراح يصعد فى الدرج قفزا ، حتى إذا بلغ شقة بهية توقف برهة خافق القلب ، وقد سرى فى كيانه كله خدر لذيذ ثم طرق الباب

فى رفق ، وسرعان ما فتحت الأم الباب ، ولما رأت عبود قالت :

ـــ تفضل يا عبود ، ادخل يا بنى .

فقال فى تردد :

ـــ شكرا .

ومد يديه بهديته ، ولم تمد الأم يديها لتأخذها منه ، كانت أعجز من أن تحمل شيئا ، فنادت فى صوت يموج فيه الفرح :

ـــ بهية ! تعالى . عبود هنا .

وخفت بهية إليه وهى تصلح من زينتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خيل إليه أن نورا غمر المكان كله ، وقالت له فى صوت ساحر :

ـــ تفضل .

فقدم إليها هديته وهو يقول :

ـــ تفضلى .

وتناولت منه هديته وعيناها تشعان فرحا ، فأحس بسرور من أدى رسالة هامة !

وتناولت فتحية من صبى القهوة هدية حسن وهى تكاد ترقص فرحا ، وقالت له :

ـــ انتظر .

وهرعت إلى أمها وهى تقول فى غبطة :

ـــ أمى . أمى . تعالى انظرى ماذا أرسل لنا حسن .

وجاءت الأم تهرول وراحت تعاون ابنتها فى فك اللفافة ، وقالت الأم فى ابتهاج :

ـــ سمك !

وتذكرت فتحية صبى القهوة الذى أمرته أن ينتظر ، فقالت لأمها :

ـــ ماذا سنعطى من حمل إلينا النفقة ؟

وكان رنين كلمة « النفقة » فى أذنى الأم جميلا ، فزاد إشراق وجهها ، وقالت فى رضا :

ـــ تحت وسادة سريرى خمسة قروش كنت سأشترى بها جبنا ، لم نعد فى

حاجة إليها ، أعطيها له .

وجرت فتحية كالطيف إلى غرفة نوم والديها ، والتقطت القروش الخمسة ، ثم راحت تهرول إلى الباب ووضعتها فى يد الصبى وقالت :

ـــ شكرا .

وكان سرورها من أنها أعطت شيئا أعظم من سرورها بالهدية ، وقفلت راجعة إلى أمها وقالت :

ـــ استريحى أنت وسأقوم أنا بتنظيفه .

فنظرت الأم إليها بعينين ترقرقت فيهما الدموع ، وقالت :

ـــ يا ليت كل التعب كهذا يا فتحية !

وانهمكت الأم وفتحية فى تنظيف السمك ؛ كان كثيرا ، وكان فاخرا ، وراحت فتحية وأمها تتجادلان فى أنواعه وأسمائه ، وإن اتفقتا على أنه أطيب أنواع أسماك بور سعيد ، وقالت فتحية فى حماسة :

ـــ سمك بور سعيد أحسن سمك فى الدنيا .

وسمعت الأم طرقا على الباب فقالت :

ـــ ترى من الذى جاء الينا فى هذه الساعة ؟! افتحى يا فتحية .

وذهبت فتحية فى تثاقل وفتحت الباب ، وما لبثت أن صاحت فى فرح :

ـــ ما هذا ؟

فقال صبى القهوة :

ـــ هذا من العم فانوس وهو يقول لكم : مبارك .

وحملت فتحية قفص الجريد الذى صفت فيه زجاجات الشربات ، وطارت به إلى أمها وهى تقول :

ـــ انظرى يا أمى هدية العم فانوس .

ونظرت ورقص قلبها سرورا ، ورفعت عينيها إلى السقف وقالت

ـــ الحمد لك يارب ، والشكر لك .

ثم أسبلت جفنيها وقالت فى صفاء

ــ الحمد لله . الدنيا بخير .

وعادت البنات من مدارسهن ، وامتلأت خياشيمهن برائحة السمك ، واتسعت عيونهن من الدهش ، وتحركت الألسن فى الأفواه ، وانهالت الأسئلة :

ــ هل رقى أبى ؟ مبارك .

ــ علاوة الترقية لا يمكن أن تشترى كل هذا السمك يا عبيطة ! من أين جاء كل هذا ؟

فشمخت الأم بأنفها وقالت وهى مسرورة :

ــ رزق ساقه الله الينا .

ــ ولماذا لا يرزقنا بمثل هذا الرزق كل يوم ؟

وراحت البنات يقفزن حول أمهن وفتحية فى فرح ، وتقول إحداهن :

ــ والله يا أمى قولى : من أين جاءنا كل هذا السمك ؟

ولاح فى وجه فتحية غبطة وإن ظلت صامتة ، وإن كانت تقول فى نفسها : « قولى لهن يا أمى إنه هدية حسن إلى . إلى فتحية . يا حبيبى يا حسن ! » .

وقالت الأم وهى تكاد تطير فرحا :

ــ إنها نفقة فتحية .. بعث بها حسن .

وتعلقت عيون الفتيات بأختهن وقد تبدلت نظراتهن إليها ، كانت إكبارا لها ، وهرعن إليها وكل منهن تصيح :

ــ مبارك . مبارك يا فتحية . مبارك يا أختى ... مبارك يا أبلة .

وانفعلت الأم بسرور بناتها حتى كادت تبكى ، وقالت وقد تركز فى صوتها كل ما فى الإنسان من مشاعر نبيلة رقيقة :

ــ العقبى لكن . اذهبن الآن واخلعن ثيابكن حتى لا تعلق بها رائحة السمك ، وتعالين لتحملن للجيران نفقة فتحية .

وأسرع البنات يستبقن إلى حجرتهن ، ورحن يبدلن ملابسهن فى نشوة كان حدثا عظيما أن يأتى اليوم الذى يوزعن فيه طعاما على الجيران ، هن اللاتى لم يشبعن أبدا من طعام طيب وضع أمامهن !

وعادت الفتيات إلى المطبخ يتصايحن :

ـــ أين ما سأوزعه ؟

ـــ أنا التى سأحمل هديتنا لأم حسين .

وقالت فتحية :

ـــ لا تنسى يا أمى صبى القهوة ، فهو الذى جاءنا بالسمك وبالشربات .

وارتفعت أصوات الفتيات قائلة :

ـــ شربات ؟ وأين هو ؟

وقالت فتحية فى زهو :

ـــ تحت سرير بابا .

ـــ ومن الذى أرسله ؟

ـــ حسن طبعا ؟

ـــ أبدا . العم فانوس .

ـــ العم فانوس ؟! غير معقول ، إنه يرفض أن يعطينى قطعة حلوى بعد أن أشترى منه السكر والشاى .

وابتسمت الأم وقالت :

ـــ الشغل شغل . الرجل طيب وابن حلال .

وقالت فتحية :

ـــ وإنسان .

فقالت إحدى الفتيات فى خبث وهى تنظر إلى فتحية نظرة خاصة :

ـــ طبعا .

وهرعت بعض الفتيات ليشاهدن زجاجات الشربات الموضوعة تحت السرير ، وقالت فتاة :

ـــ هاتى نصيب أم حسين .

فقالت الأم :

ـــ انتظرى حتى يعود بابا ويرى الهدية كلها .

وسمع طرق على الباب ، فصاحت الفتاة قائلة :

ـــ بابا جاء .

ورن صوتها فى أرجاء الشقة ، فخف كل من فيها لاستقباله ، وما إن وقعت عيونهن عليه حتى حاولت كل منهن أن تسبق الأخريات فى أن تزف إليه النبأ العظيم ، وارتفعت الأصوات وامتزجت :

ـــ بابا . أرسل لنا حسن هدية .

ـــ سمك كثير .

ـــ وشربات . أرسله العم فانوس .

ـــ تعال .. تعال يا بابا .

وذهب الأب إلى المطبخ وألقى نظرة على السمك ، ودخل غرفة نومه وأهل بيته كلهن حوله ورأى الشربات . ثم غادرته الأم وبناتها ليوزعن النفقة على الجيران ، وبقى هو وحده صامتا وإن مس شغاف قلبه ما قام به فانوس ؛ كان أكثر مما يخطر له على بال .

وعقب الجرى هنا وهناك ، وخروج الفتيات بالهدايا وعودتهن وهن يحملن من الجيران أطيب التمنيات ، جلس الجميع حول السفرة وأكلوا . وامتلأت البطون بطعام شهى ، والمشاعر بعواطف رقيقة زاخرة بالرضا والانشراح .

وذهب الأب والأم إلى غرفتهما ، وتكدست الفتيات الخمس فى غرفتهن ، وأخذن فى مداعبة فتحية والتحليق معها فى دنيا الأحلام . ثم قامت أصغرهن تقلد الشيخ حسن ، فقامت إليها فتحية وهى مسرورة ، وقبضت عليها وراحت تضربها فى حنان على مؤخر ظهرها ، والأخريات غارقات فى الضحك .

وبلغت الضحكات مسامع صديق فانبسطت أساريره ، وسرعان ما فر انشراحه وعاد إليه خوفه وراح يتساءل : إن كان حسن قد أدخل السرور على قلوبهن اليوم ، فمن ذا الذى سيدخله على قلوبهن غدا ؟ ، من أين لى تكاليف هذا الزواج . ورطنى عبود والأمر لله .

وقبل الغروب سمع طرق على الباب ، فخفت فتحية لاستقبال القادم ، بيد أن

أختها الصغرى سبقتها وفتحته ، وقالت فى صوت عال :

ـــ تفضلى .

وسمعت الأم صوت ابنتها فنهضت من نومها وهى تقول :

ـــ جاءنا ضيوف .

وهرعت لاستقبال الزوار ، فرأت فتحية تعانق إنصاف وتقول لها :

ـــ تفضلى . العقبى لك . نشرب شرباتك قريبا إن شاء الله..

وقدمت إنصاف إلى فتحية لفافة وهى تقول :

ـــ تفضلى أرجو أن تعجبك .

قالت الأم :

ـــ سلمت يدك .

وهمت البنت الصغرى بأن تتناول اللفافة من أختها وتفتحها لترى ما بها ، ولكن الأم نظرت إليها نظرة زاجرة فانكمشت .

وقالت إنصاف وهى تتأهب للانصراف :

ـــ أستأذن . ميعاد العيادة جاء . ربنا يتمم أفراحكم بخير .

وقالت الأم وهى تمسك بها :

ـــ والله لن تمشى قبل أن تشربى الشربات .

والتفتت إلى فتحية وقالت :

ـــ الشربات يا فتحية .

وذهبت فتحية وجلست إنصاف ، وجلست الفتيات الأخريات يداعبهن جميعا أمل أن يشربن الشربات مع الضيفة التى جاءت بهدية ، إلا أن ذلك الأمل لم يعش طويلا فقد عادت فتحية تحمل كأسا واحدة فى يدها .

وقالت إنصاف وهى تنهض لتنصرف :

ـــ نشرب شربات عوضك .

وقالت الأم فى طلاقة :

ـــ تشربى المغات إن شاء الله .

وانصرفت إنصاف ، وما أغلق الباب خلفها حتى انقضت الفتيات على اللفافة وأخرجن ما بها . وما لبثن أن نظرن مشدوهات ؛ كانت ملابس داخلية من الحرير ، فى لون الفسدق ، وكانت مشغولة برسوم دقيقة أنيقة ينشرح لها صدر المراهقات !

وحملن الهدايا إلى الأب وهن يتصايحن ، وقالت الأم فى قهر :

— ياللكسوف ! لم نرسل لإنصاف شيئا من النفقة .

وقالت البنت الصغرى :

— لن ننساها فى المرة القادمة .

وانشرحت فتحية وقالت فى نفسها : « إن شاء الله » ، ورفت على فم الأم بسمة ، بينما شرد صديق يفكر فى هذا الأمر الجديد الذى لم يعمل له حسابا .

وجاءت جانيت ولم يقابلها من الأسرة غير الأم وفتحية ، أما باقى الفتيات فقد قبعن فى حجرتهن صامتات وإن أرهفن السمع ، وكن يغالبن رغبتهن فى الضحك لطريقة جانيت فى نطقها العربى ، كانت تتحدث عن مرجان وكيف أنها أمرته بأن يغلى اللبن فتركه على النار حتى فار .

وقدمت جانيت إلى فتحية عشرة جنيهات ، وقالت لها :

— هذه هدية من توفيق ، كلفنى أن أشترى بها شيئا ؛ ولكنى فضلت أن أقدمها لك لتشترى ما تحبين .

وراح صديق يغلو ويروح فى غرفته وهو يفكر فيما قدمه الأصدقاء ، فتأثر وفاض تأثره حتى إن دموعه جرت على خديه .

— ١١ —

كان بيت توفيق يأتلق النور ، وكانت جانيت تشرف على إعداد المائدة وتعاون مرجان على تنسيقها ، وكان مرجان يغدو ويروح بين المطبخ وغرفة السفرة وقد أرهف سمعه ليصغى إلى نشرة الأخبار المذاعة من الراديو ، فقد أصبح مهتما بمعرفة ما يجرى من أحداث فى البلاد ، كان الراديو يشن حملة عنيفة على

نورى السعيد وحلف بغداد .

واطمأنت جانيت إلى تنسيق كل شيء ، فاتجهت إلى غرفة الاستقبال وقالت :

ـــ تفضلوا .

ونهض ويلز ومسيو فاجولى وساروا إلى غرفة الطعام ، وراحوا يستأنفون حديثهم ، قال ويلز :

ـــ أنا معجب بنورى السعيد وبن جوريون ، فهما سياسيان محنكان .

فقال توفيق فى سخرية :

ـــ أنت معجب بهما لأنهما يخدمان سياسة بريطانيا .

فقال ويلز فى حماسة :

ـــ أبدا . سر إعجابى أنهما يعرفان كيف يخدمان بلادهما دون أن يقيما وزنا لرأى الجماهير ؛ فنورى السعيد هاجم الحياد الإيجابى فى شجاعة هنا فى قلب القاهرة ، وبن جوريون خرج من عزلته وقبض على غريمه لافون وزير الدفاع ونحاه عن السلطة .

وقال مسيو فاجولى ، وهو يمرر يده على شعره الأبيض :

ـــ ألم يتفق نورى السعيد مع عبد الناصر على تقوية ميثاق الضمان الجماعى العربى ، وعلى عدم توقيع أية معاهدة غير عربية قبل أن يخطر جمع الدول الأعضاء فى الميثاق ؟

وقال توفيق :

ـــ اتفق على شيء ونفذ غيره ، أهذه هى السياسة المحنكة ؟

قالت جانيت وهى تجلس :

ـــ كل ما أخشاه أن تخطئ بريطانيا وتنضم إلى هذا الحلف .

فقال ويلز وهو يضحك :

ـــ وماذا ستخسر بريطانيا لو انضمت إليه ؟

قالت جانيت فى إيمان :

ـــ ستخسر صداقة الشعوب العربية ، وقد تحدث كارثة فى العلاقات بين

بريطانيا والجيل الصاعد من العرب .

وضحك وليمز وأغرق فى الضحك ، ثم قال :

ـــ لا خوف على بريطانيا فى هذه المنطقة ، مادامت أمورها فى أيدى ساسة محنكين مثل نورى السعيد وبن جوريون .

فقالت جانيت فى مرارة :

ـــ هذا الوهم الذى سيقطع أواصر العلاقات الطيبة بين الشعوب العربية وإنجلترا ، وإنى أحب إنجلترا وأحب مصر وأحب أن تدوم أطيب العلاقات بينهما ، ولن تدوم هذه العلاقات إلا إذا فهم الساسة الإنجليز حقيقة مشاعر الجيل الصاعد من أبناء العرب .

وقال توفيق فى رنة ساخرة :

ـــ وليمز يحب أن تظل قبضة إنجلترا قوية فى هذه المنطقة ، لذلك فهو يمقت كل الحركات المتحررة .

فقال وليمز دون أن ينفعل :

ـــ إنى أحب هذه البلاد وأحب الخير لها . وإن أعز أمانى أن أموت بها ، قد لا تصدقون هذا ، ولكنه الحقيقة ، وإنى أومن أن خير هذه البلاد والبلاد العربية جمعاء أن تدوم الصداقة بينها وبين إنجلترا . والله لقد حاولت أن أفهم معنى الحياد الإيجابى الذى يدعون إليه ، فلم أفهم شيئا . كيف تستطيع مصر أن تقف على الحياد بين قوى الشرق وقوى الغرب المتصارعة ؟ ستجتاحها إحدى القوتين ، فعلى مصر أن تختار أن تكون معنا أو علينا ، هذا ما أفهمه .

والتفت إلى مسيو فاجولى وقال له :

ـــ هذا رأيى فما رأيك أنت ؟

فقال مسيو فاجولى :

ـــ هذا رأى الشيوخ ، ولا أظن أن آراء الشيوخ تعجب الشباب فى هذه الأيام .

فقالت جانيت :

ـــ تعلم يا مسيو فاجولى أنى متهمة بدراسة منطقة الشرق الأوسط والشعوب العربية بنوع خاص ، فبعد عودتى مع توفيق من إنجلترا عكفت على دراسة المجلات التى تصدر فى القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، وقد استرعى انتباهى مجلة « الفكر الجديد » ، مجلة كانت تصدر فى القاهرة إبان حرب فلسطين ، ولم يكتب لها الانتشار . كتبت هذه المجلة أثناء معركة فلسطين ، أيام كان الملك عبد الله قائدا للجيوش العربية ، « اقتلوا الملك عبد الله » كانت تشم رائحة الخيانة ، ورسمت رسوما كاريكاتيرية للتنديد بالأحلاف ؛ رسمت جون بول وقد قيد مصر وسوريا ولبنان والعراق والسعودية والأردن بسلاسل من حديد ، وكتبت تحت الصورة « الدفاع المشترك » . وكانت تدعو إلى وحدة عربية وتهاجم الإقطاع ، كان ذلك سنة ١٩٤٨ ، وكانت المجلات السورية فى ذلك الوقت تتحدث عن القومية العربية ، وكان العراقيون الشبان يحملون بالبعث وبالقومية . إن جمال عبد الناصر ليس وحده الذى يدعو إلى الحياد وإلى الوحدة ، ولكنه يمثل هذا الجيل الثائر من الشبان ، ومن المؤسف أن الساسة البريطانيين لم يقدروا هذه الاتجاهات حق قدرها .

فقال وليمز :

ـــ فورات شباب . الوحدة العربية حلم راود ساسة العرب الشبان فى كل الأجيال .

فقال توفيق :

ـــ شباب اليوم من الثوار .

ـــ ستخمد الثورة المشبوبة فى جوانحهم على مر الأيام ، وسيصبحون محنكين .

فقال توفيق فى سخرية :

ـــ كنورى السعيد .

فقال وليمز فى ثبات :

ـــ كنورى السعيد وغيره من الساسة الموالين للديمقراطية .

فقالت جانيت فى ضيق :

— إن كان هذا هو فهم الساسة البريطانيين للحركات التحررية هنا وفى البلاد العربية ، فعلى بريطانيا العظمى السلام .

فقال وليمز :

— كنا ننتظر من عبد الناصر بعد أن وقعنا معه اتفاقية الجلاء ، أن ينضم إلينا أو يسكت على الأقل ولا يهاجم حلف بغداد هذا الهجوم القاسى المرير .

فقال توفيق :

— عيب الحكومة البريطانية أنها لا تزال تنظر إلى الثوار الذين يحكمون مصر الآن ، نظرتها إلى الساسة القدامى .

فقال وليمز ساخرا :

— أبدا ، جافاك الصواب فى هذا الرأى ، فبريطانيا تعاملهم وهى على يقين من أن الساسة القدامى أكثر منهم حنكة وأعظم دراية بأمور السياسة .

فقالت جانيت وهى تكاد تتلوى من الألم :

— من هنا ستأتى المصائب . أرجوك يا وليمز من أجل بلادك أن تنسى تجارب الماضى ، وأن ترقب الأمور بعقلية جديدة متحررة .

وقال توفيق فى حماسة :

— وأن تؤمن بأن هؤلاء الشبان لن يكتبوا تاريخ بلادهم بأقلام بريطانية ولا بأقلام روسية ، بل بأقلام وطنية ، ولن يوقعوا على شىء إلا إذا كانت فيه مصلحة بلادهم .

فقال وليمز هازئا :

— يا ليت ؟ أين لشيخ مثلى انطبعت فى سريرته تجارب الماضى مثل هذه العقلية المتفتحة المتحررة !

والتفت إلى فاجولى وقال :

— وأين لأمثالنا نحن الشيوخ مثل هذه الحماسة المتقدة ؟

وقال فاجولى وهو يقطع قطعة اللحم التى وضعها مرجان فى الصحفة أمامه :

— إنى لا أفهم كثيرا فى السياسة ، فمجالى التجارة والاقتصاد ، ولقد لمست

تغييرا فى سياسة الحكومة الجديدة حيال الشركات ؛ أرسلت وزارة التجارة والصناعة لجنة لتقوم شركة الملح ببور سعيد ، وتدخلت الحكومة فى إعادة تقويم أصول شركة السكر .

فقال توفيق :

ــ تعلم يا مسيو فاجولى أن لشركة السكر وضعا خاصا ، وأن هناك نزاعا بينها وبين مصلحة الضرائب على تقدير قيمة أصولها .

فقال فاجولى فى تحد :

ــ وشركتنا ؟

فقال توفيق :

ــ رأت الدولة إدماج شركة الملح بالإسكندرية وشركة الملح ببور سعيد لتقضى على التنافس الضار بينهما فى الأسواق الخارجية ، وذلك خدمة للاقتصاد القومى .

فابتسم مسيو فاجولى ابتسامة باهتة وقال :

ــ أنا واثق أن ذلك سياسة دولة ، خطة مرسومة للسيطرة على نشاط الشركات والمصانع وكل أدوات الإنتاج وشرايين الاقتصاد .

فقال وليمز :

ــ لو فكرنا هذا التفكير لمنحناهم مواهب أكثر من مواهبهم الحقيقية .

فقالت جانيت وهى تنظر إلى وليمز نظرة عتاب :

ــ عيبك يا وليمز أنك لا تقدر هؤلاء الثوار حق قدرهم ، آه لو كان ساسة بريطانيا كلهم مثلك ، لكانت الكارثة .

فقال وليمز :

ــ الحمد لله أنك لست فى وزارة الخارجية البريطانية ، وإلا لأشرت بأن نذعن لمطالب هؤلاء المتطرفين .

فقال توفيق فى سرعة :

ــ من سوء حظ بريطانيا أنها ليست هناك فى وزارة خارجيتها .

فقال ويلمز مازحاً :

ـــ بل من سوء حظ مصر أنها الآن هنا وليست هناك .

ولم تأبه جانيت لقوله ، بل قالت :

ـــ غرسنا فى قلوب شباب العرب جميعا بذور الكراهية لبريطانيا يوم ساندنا قيام إسرائيل ، فلا نسقها بحماقاتنا .

ـــ أنا أعرف بهذه الشعوب منك ، إنها شعوب طيبة القلب ، سريعة النسيان !

فقالت جانيت :

ـــ لن نجنى إلا ما زرعنا .

وقال توفيق :

ـــ لا شك أنك تعرف أن هناك أزمة عدم ثقة بين الجيل الجديد من العرب وبين كل من بريطانيا وأمريكا .

فقال ويلمز وقد توقف عن الأكل :

ـــ أعتقد أن هذه الأزمة قد انقشعت بعد توقيع معاهدة الجلاء .

فقال توفيق :

ـــ أبدا ، وستظل الأزمة قائمة ما دامت إنجلترا وأمريكا ودول الغرب تضيق على البلاد العربية الخناق وتمنع عنها الأسلحة ، بينما تغدق الأسلحة على إسرائيل .

ـــ إننا نحافظ على توازن القوى فى هذه المنطقة .

ـــ إنكم تدللون إسرائيل ، هذا ما يغرس المرارة فى نفوسنا .

قال ويلمز :

ـــ كيف ؟

قال توفيق :

ـــ جاء إلى بلادنا إرهابى إسرائيلى ، وادعى أن اسمه جون دارلنج ، ونظم شبكة تجسس وتخريب . وقد قام رجاله بضرب السفارة الأمريكية بالقنابل ، وكان هدفه أن يعمل على إساءة العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة ، ومن حسن الحظ أن انكشف أمره ، وإلا لحاولت أمريكا أن تفعل ما فعلته إنجلترا بنا

يوم قتل السردار ، فطردت الجيش المصرى من السودان ، وفرضت عليه فدية مقدارها نصف مليون من الجنيهات ، أيام أن كانت قدرة الجنيه الشرائية عشرة أمثال قدرته اليوم . فلما عرف أن إسرائيل المدللة هى التى دست هذه القنابل سكتت صحف أمريكا وصحف الغرب عن فعلتها الشنعاء .

فقال ويلز :

ــ أنت تبالغ يا توفيق ، فقد استنكرت كل صحف الغرب ما قامت به إسرائيل .

ــ استنكار فاتر ، لتغطية المؤامرات التى تدبر بين إسرائيل والغرب لتوهين قوى العرب .

فقال ويلز :

ــ لا أظن .

فقالت جانيت :

ــ العرب معذورون لو اعتقدوا أن الغرب كله يتآمر مع إسرائيل عليهم ، فكل يوم يكتشفون هنا وفى سورية وفى العراق مؤامرات إسرائيلية تباركها السلطات الغربية وتعاونها بكل أسلحتها .

ــ هذا افتراء يا جانيت .

ــ وما قولك يا ويلز فى أحدث الأجهزة اللاسلكية الأمريكية السرية التى ضبطتها السلطات السورية وقد دستها إسرائيل تحت أعمدة التليفونات العسكرية ، لتنقل أوامر القيادة السورية بدمشق إلى قلب إسرائيل ؟ من أين لإسرائيل مثل هذه الأجهزة الأمريكية التى تعتبر من أخطر أسرارها الحربية ؟!

فقال ويلز :

ــ تعلمون أن اليهود الموالون لإسرائيل مندسون فى كل مرافق الولايات المتحدة .

فقال توفيق :

ــ أكانت أمريكا تسكت على خياناتهم ، إن لم يكن ما نعتقده نحن خيانة ، يتفق مه أهداف الولايات المتحدة ويتسق مع أهوائها ؟!

وانتقل الحديث إلى بن جوريون وابنه عاموس ونفاقه ، وكيف ظل محتفظا بجنسيته البريطانية على الرغم من إقامته فى إسرائيل وشغله مركزا مرموقا بها ، وكيف يستغل الإعانات الأمريكية لمصلحته ، وكيف يتستر بن جوريون على فضائح ابنه ، من رشوة واتجار فى الحشيش والتهريب وحماية بيوت الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض وعصابات السرقة . وتشعب الحديث حول الفجور فى إسرائيل ، والمعارك بين المسيطرين على أسواق الرذيلة ، وسردت قصة « إيدا » الغانية الإيطالية اليهودية التى كانت تمتلك فى موانى إيطاليا بيوتا وفنادق تدار للدعارة ، وكيف انتقلت إلى إسرائيل لتنافس عاموس فى حقل الفساد الذى كان يحتكره وحده دون منازع ولا شريك !

وانصرف الضيفان ، وخفت الأصوات ، وتناولت جانيت كتابا وعكفت تقرأ فيه ، وراح توفيق يتصفح صحف اليوم ، وما كان يعكر الصمت إلا أصوات الأوانى والصحاف التى كان يغسلها مرجان فى المطبخ . وما لبثت تلك الأصوات أن ماتت وخيم على الدار سكون عميق .

هتك غلالة الصمت فجأة صوت مرجان وهو يدير حديثا بينه وبين آخر ، فالتفتت جانيت إلى توفيق فى دهش وقالت :

ـــ مع من يتحدث مرجان فى هذه الساعة ؟

فقال توفيق وهو ينهض :

ـــ لست أدرى .

ونحت جانيت الكتاب جانبا ثم سارت مع زوجها إلى حيث كان مرجان ، فوجداه نائما يروى بصوت عال كل ما جرى فى يومه ، قال :

ـــ لا . لا يا عم عثمان . أقة الكوسة ستة قروش ، والجزر أربعة قروش ، والطماطم خمسة قروش . والله لن أدفع أكثر من هذا . لعنة الله على الإنجليز ، فهم سبب هذا الغلاء .

والتفت توفيق إلى جانيت وابتسم ، وقال مرجان :

ـــ خذ . خمسة عشر قرشا ، والله العظيم لن أدفع غير هذا .. السلام عليكم

يا عم سرحان .. ثلاثة أزواج حمام على مزاجك ، عندنا اليوم خواجات يأكلون مال النبى ، والله يا عم سرحان لا يعرف فوائد الحمام إلا أولاد البلد . كم ؟ لا . يا عم سرحان ، هذا ثمن خروف ... خذ تسعين قرشا .. والله لن أدفع مليما أكثر من هذا .. يا ولد يا محمود ، لعنة الله عليك ، اللحم لم يعجب الست ، أريد عرق فلتو ممتاز .. خذ .. خمسين قرشا .. أريد موزا أطيب من هذا . مغربى بنقطة .. ثلاث أقات .. هات القرش يا حرامى . أعطيتك خمسة وعشرين قرشا.

وصمت مرجان وانسل توفيق وجانيت من الغرفة وهما يبتسمان ، ولما عادا إلى مكانهما ، قال توفيق لزوجه :

ــ كم أعطيته اليوم ليشترى هذه الحاجات .

ــ جنيهان .

وتناول توفيق قصاصة ورق وراح يدون أثمان اللحم والحمام والخضر والفاكهة . وفى الصباح انطلق توفيق وجانيت إلى حيث كان مرجان ، وقال له توفيق :

ــ هات واحدا وعشرين قرشا ، باقى حساب الأمس .

ونظر إليه مرجان بعيون مفتوحة دون أن ينبس بكلمة ، واستمر توفيق يقول :

ــ أقة كوسة ستة قروش ، أقة جزر أربعة قروش ، أقة طماطم خمسة قروش ، ثلاثة أزواج حمام تسعون قرشا ، أقة لحم خمسون قرشا ، ثلاث أقق موز أربعة وعشرون قرشا ، المجموع مائة وتسعة وسبعون قرشا ، وقد أعطتك الست جنيهين وبذلك يصبح الباقى واحدا وعشرين قرشا . أليس كذلك ؟

فقال مرجان وهو أشبه بالمذهول :

ــ تمام .

وغادرهما وهو يتلفت فى حيرة ، وذهب إلى غرفته وما لبث أن عاد بالمبلغ وقدمه إلى توفيق ، وقال وهو لا يزال غارقا فى دهشته :

ــ تفضل .

وتناول توفيق المبلغ ، وجانيت تجاهد لتكتم ضحكاتها التى تود أن تنطلق .

— ١٢ —

كان الكون لا يزال نائما فى عماية الصبح ، وكانت بهية فى سبات ، وإن رفت على شفتيها بسمة رقيقة تنم عن روعة ما تهيم فيه من أحلام ، كانت تحس إحساسا صادقا أنها فى أحضان عبود وأنهما يتبادلان أعذب القبل .

وسمعت صوت أمها تناديها فى وهن ، فاختلط عليها الأمر ، لم تكن تدرى أكانت لا تزال فى أحلامها أم أن ما تسمعه حقيقة . وأرهفت أذنيها فإذا بالنداء يتكرر :

— بهية ! بهية !

لم يكن نداء عاديا بل كان استغاثة على الرغم من خفوته وضعفه ، ودق قلب بهية خوفا ورهبة ، وزلزلت من الرأس إلى القدم وهبت مذعورة ، فقد استشعرت فى أعماقها الخطر المحيق بأمها الحبيبة ، وهرعت إليها ملهوفة ونظرت إلى وجهها الذابل ، وكان فى صفرته يحاكى وجوه الموتى ، وقالت لها :

— أمى ! ماذا جرى ؟ بماذا تحسين ؟

فقالت الأم فى جهد ، وهى تشهق كأنما تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة :

— صدرى .. صدرى ضاق .

وراح صدرها يعلو وينخفض ، فقالت لها بهية وهى تكاد تموت من الخوف :

— سأغلى لك ينسونا .

وذهبت تعد لها الينسون وهى تحاول أن تستجمع شتات أفكارها . ماذا عليها أن تفعل ؟ « اذهبى يا بهية إلى عبود واطلبى منه أن يأتى ليقف إلى جوارك . لا يا بهية ، ماذا يقول الناس إذا رآك أحدهم وأنت تدقين بابه فى هذه الساعة ؟ أمك ليست فى حاجة إلى عبود . إنها فى حاجة إلى طبيب يا بهية . اذهبى إلى إنصاف . هذا هو الرأى الصائب . إنصاف ممرضة وستعرف ماذا ينبغى أن تفعل . إذا وجدت أن الخالة تستدعى وجود طبيب ، فهى تعرف كيف تحضر الدكتور حازم . الدكتور حازم يعرف حالة أمى وهى تثق به وتقول له : إن دخولك على يا بنى يزيل كل آلامى . لو كانت أمى شابة لقلت إنها تحب

الدكتور حازم . بهية . اذهبى إلى أمك وانظرى ألا تزال تتنفس » .

وانتابها خوف ، وخفت إلى حيث كانت أمها وراحت تفحص عنها بعيون قلقة ، فألفتها تلتقط أنفاسا متلاحقة . وأرادت أن تتأكد من أنها مالكة لحواسها ، فقالت لها فى صوت حاولت أن يبدو هادئا :

— كم قطعة سكر أضع لك فى الينسون ؟

فقالت الأم فى جهد :

— واحدة .

ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلب بهية ، فراحت تنظر إلى نافذة عبود ببصر زائغ ، لعلها تلمحه فتناديه ليسعف أمها التى تنوء من الضعف ، بيد أنها لم تر إلا الفضاء فزادت وحشتها واشتد وجيب فؤادها ، وأحست رغبة ملحة فى الفرار إلى الناس .

وحملت فنجان الينسون إلى أمها ، فرشفت منه رشفة واحدة ، ثم زمت شفتيها وتفصد من جبينها عرق بارد . ونادتها بهية فى هلع :

— أمى .. أمى .. ماذا بك ؟

فقالت الأم فى ضعف وصدرها يرتفع وينخفض فى تتابع سريع :

— الدكتور .. الدكتور حازم .

وجرت بهية وهى خائفة ، وفتحت الباب وهبطت فى الدرج كأنما يعدو فى أثرها شيطان . وانسابت فى الطرق إلى بيت إنصاف وإن كانت أصوات فى أغوارها تهتف بها أن بيت عبود أقرب .

ودقت باب إنصاف دقات تنم عما يعتمل فى صدرها من إحساسات ، وسرعان ما فتحت إنصاف الباب ، ولما رأت بهية وما فى عينيها من خوف قالت:

— خيرا ؟

فقالت بهية وعبراتها تخنقها :

— أمى يا إنصاف . ضاق صدرها حتى إنها لم تستطع أن تشرب فنجان الينسون ، وهى تطلب الدكتور حازم .

ــ ومن معها الآن ؟

ــ لا أحد .

ــ اذهبى إليها وسآتى بالدكتور حازم وألحق بك .

ودارت بهية على عقبيها ، وقد أخذت مخاوفها تزداد : « ماذا تفعلين يا بهية لو عدت إليها ووجدتها جثة هامدة ؟ آه يا أمى .. آه يا حبيبتى . ليس لى فى هذه الدنيا غيرك . ومأمون ؟ وعبود ؟ أين أنت يا عبود لتقف إلى جوارى فى محنتى ؟ هل سينخلع قلبك إذا ما انطلق صوتى معلنا موت أمى .. لا . لا . أمى لن تموت . ستبقى لتفرح بفرحى . أبى مات . أما أمى فستبقى لتفرح لى وتفرح بمأمون وبأولادنا من حولنا » .

وانسابت إلى حيث كانت أمها راقدة ، وقلبها يدوى فى صدرها ، ونظراتها زائغة . وركعت إلى جوارها وتظاهرت بأنها تمرر يدها على وجهها حنانا ، بيد أنها كانت تريد أن تحس أنفاسها الواهنة وهى تتردد على يدها ليطمئن قلبها ، وقالت فى انفعال :

ــ أمى ! ذهبت إلى إنصاف لتحضر الدكتور حازم . سيكون هنا بعد قليل . أنت بخير يا أمى . أنت أحسن الآن . أليس كذلك يا أمى ؟

وهبطت إنصاف إلى الشارع وسارت توسع من خطوها ، حتى إذا ما بلغت بيت عبود وقفت برهة وهى مترددة . ثم دلفت إلى بيت عبود وراحت تصعد فى الدرج قفزا ، وطرقت الباب بيد ثابتة ، وما لبثت أن بلغها صوت عبود يسأل فى صوت يغالبه النوم :

ــ من ؟

ــ أنا إنصاف .

ودهش عبود واستشعر شيئا من الاشمئزاز ، إلا أن الخوف غمر كل ما عداه ، وزاد فى رهبته جرأة الفتاة التى تطرق بابه فى مثل هذه الساعة ، وتقدم خافق القلب ، زائغ النظرات ، يشعر بغثيان ، ويفكر فيما يفعله لو أنها اقتحمت الباب ودخلت شقته دون أن تأبه لما يظهر فى وجهه من امتعاض !

وبلع ريقه ووقف لحظة يجمع شتات أمره ، ثم فتح الباب وتعمد أن يسده بجسمه ، ورأى إنصاف أمامه فارتبك ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة ، وقالت إنصاف :

— صباح الخير . آسفة إن كنت أيقظتك ، ولكن المرض اشتد على أم مأمون ، فجاءت بهية إلىّ وطلبت منى أن أستدعى الدكتور حازم ، وقد رأيت أن أبلغك لتقف مع بهية إلى أن يأتى الدكتور .

ودارت على عقبيها وهى تقول :

— سآخذ تاكسى وأعود بالدكتور حالا . السلام عليكم .

وقال وهو يسرع ليرتدى ثيابه :

— وعليكم السلام .

وفى مثل لمح البصر ارتدى ملابسه : « فزعت بهية إلى إنصاف لتطلب منها استدعاء الدكتور ، لابد أن أمها تموت . لماذا يا بهية لم تلجئى إلىّ ؟ خفت علىّ من الفزع . لو طرقت بابى لمتّ من الرعب » .

ولفح هواء الطريق وجهه ، واستقبلته رطوبة مدخل بيت مأمون ، وسرت فيه رعدة وهو يطرق الباب فى لهفة ، ومرت عليه لحظات كأنها دهر ، تململ فيها وتلفت وفرك يديه ومسح وجهه بكفه أكثر من مرة ، وفتح الباب ورأته بهية ، فقالت فى نبرات حية كأنما كانت تغرق ومدت إليها يد لتنتشلها :

— عبود ! تفضل .

— كيف حال خالتى ؟

— أحسن .

— قالت لى إنصاف إنك طلبت منها أن تحضر الدكتور .

— ضاق صدرها واضطرب نفسها ، وأصبحت عيناها كالزجاج فخفت .

وسارا على أطراف أصابعهما حتى وصلا إليها فألفياها خاشعة ، فقالت بهية فى همس :

— نامت .

وأشارت إلى مقعد بالقرب من السرير ، وقالت :

ـــ تفضل .

وجلس وهو ينظر إلى أم مأمون المسجاة أمامه ، وجلست بهية ، وغرق المكان فى الصمت ، بيد أن حركة عارمة كانت تموج فى حنايا عبود وبين أضلع بهية . كان عبود يفكر فيما سيكون لو أن أم مأمون ماتت ، سيتأخر زواجه حتى تنقضى أيام الحداد ، ولن يستطيع بعدها أن يقيم الفرح الذى يتراءى له فى خياله . كان قد اتفق على أن يتزوج هو وحسن فى ليلة واحدة ، وقد نذر أصدقاؤهما فى الشركة أن تكون ليلة زفافهما ليلة من ليالى العمر ، وها هى ذى أم مأمون تموت لتقوض كل أحلامه .

وراحت بهية تفكر فى حالها لو أن أمها ماتت ، ستتجرع كأس اليتم المريرة . وأحست غصة وكادت دموعها تجرى على خديها ، إلا أن صوتا زاجرا انبعث من أعماقها يقول لها : لست أول من ماتت أمها ومات أبوها ، تيتم عبود قبلك وعاش وحيدا . سيكون عبود عما قليل أباك وأمك وكل دنياك . لا . لا يا ربى . كانت أمنية أمى أن تفرح بى . أبقها يا رب حتى تفرح .

وتحركت الأم حركة خفيفة ، فهرعت إليها بهية وقالت لها فى حنان :

ـــ أتريدين شيئا يا أمى ؟

فقالت الأم فى صوت خافت :

ـــ أشرب .

وجاءت بهية بكوب ماء ، وحاولت أن ترفع رأس أمها بيدها فأسرع عبود يعاونها على رفعها ، ورأت الأم عبود فانبسطت أساريرها ، ومدت يدها ووضعتها على يده وضغطت ضغطة واهنة ، إلا أن عبود أحس وقعها فى سويداء قلبه . وسمع طرق على الباب فقالت بهية :

ـــ الدكتور حازم .

وهرع عبود يستقبله ويقوده إلى حيث كانت أم مأمون . وضايقه أن إنصاف سبقته وأن مفاتنها كانت تترنح ، وزادت فى ضيقه أن وهمه راح يؤكد له أنها تتعمد أن تسير أمامه لتعرض فتنتها .

كان الدكتور حازم شابا ، معتدل القامة ، أبيض الوجه ، يميل لون شعره إلى الصفرة ، وكان أبرز ما فيه خفة روحه ، يألفه الناس سريعا ، وقد استراح له عبود وما كان يعكر ذلك الإحساس الطيب الذى أحسه نحوه إلا معاملته اللينة لإنصاف ، حتى أنه راح يتصور وجود علاقة بينه وبينها .

وراح الدكتور يفحص عن المريضة ، وكان وجهه كمرآة صافية تعكس كل انفعالات نفسه ، وقد رأى فيه عبود خطورة الحالة التى يفحصها ، فاختلس نظرة سريعة إلى بهية فألفاها مشغولة عنه بحديث خافت بينها وبين إنصاف ، فاستراح لأنها لم تفطن إلى ما فطن إليه .

ونحى الدكتور حازم السماعة الطبية عن أذنيه ، والتفت إلى بهية وقال لها :

ــ يجب ألا تتحرك أبدا من فراشها .

وصمت لحظة ثم قال :

ــ وحتى السرير يجب ألا تصعده أو تنزل من فوقه . من الأفضل أن تنام فى فراش على الأرض .

ودنا منه عبود وهو يكتب الدواء ، وقال هامسا :

ــ ماذا وجدت يا دكتور ؟

ــ قلبها ضعيف جدا ، وأى حركة تضرها .. يجب ألا تتحرك إطلاقا .

وشغلت بهية وإنصاف ببسط الفراش على الأرض ، ولحهما عبود وهما تحاولان حمل أم مأمون لوضعها فيه ، فأسرع يعاونهما على حملها فى تؤدة ورفق ، كأنما يحملون شيئا هشا قابلا للكسر .

وعاد الدكتور يقول :

ــ يجب ألا تغادر الفراش لأى أمر كان .

وتناول عبود منه تذكرة الدواء ، وهبط مسرعا لإحضار ما أشار إليه به . ولم يغب طويلا ، فما لبث أن عاد يحمل أدوية كثيرة قدمها إلى بهية وهو يقول :

ــ بالشفاء إن شاء الله .

وقالت بهية :

ـــ كم دفعت فيها ؟

فقال عبود فى بساطة :

ـــ سأحاسب مأمون عليها لما يعود بإذن الله .

فقالت له بهية فى إصرار :

ـــ لا . قل كم دفعت فيها ؟

ـــ هناك حساب بينى وبين مأمون ، سأسوى معه حساب الدواء . فقالت بهية فى إلحاح :

ـــ لابد أن تقول . والنعمة الشريفة لقد ترك لنا مأمون نقودا نشترى بها كل ما نحتاج إليه ، حتى ثمن الدواء .

فقال عبود وهو يفر منها :

ـــ والنعمة الشريفة سأحاسب مأمون عندما يجىء على ما دفعته . السلام عليكم .

وانصرف إلى الشركة ، ووقف فى الورشة يعمل وهو شارد ، يفكر فى دنياه . كان هنا إلى جواره صديقه سليمان ، وإذا به يمرض ويفقد مورد رزقه ، ترى ماذا يفعل سليمان لو طال أجله وتخلى عنه الأصدقاء ! . وماذا تفعل أنت يا عبود إن تزوجت وأنجبت أطفالا صغارا ، ثم هجم عليك المرض ولفظتك الشركة وألقت بك فى الطريق ؟ .

وضايقه فكره ، فراح يحاول أن ينهمك فى عمله ليفر من نفسه ، بيد أن الأفكار السود ظلت تلح فى ذهنه ، وفحيح الأفاعى توسوس فى كيانه وتضنيه : «أهون عليك يا عبود الموت من أن تنتظر ما يجود به الأصدقاء عليك ، أولادك يا عبود ؟ وبهية يا عبود ؟ إن الأصدقاء بدأوا يتململون مما يدفعونه لسليمان ولم يمض على فصله شهران . إنهم معذورون ، فتكاليف الحياة باهظة وأرزاقهم محدودة وأعباؤهم كل يوم تزيد ، حسن يريد أن يتزوج ، وصديق لا يملك إلا القوت ، وبهنس ليس من أصدقاء سليمان حتى يقتطع من قوته وقوت عياله ليعطيه ، والسيد توفيق حتى متى يواظب على دفع ما يدفعه ؟ لو

أن توفيق حاول أن يعاون كل المحتاجين فى الشركة فلن يجد طعام بيته ، فراتبه مهما بلغ محدود » .

وألقى عبود ما فى يده ، وخرج من الورشة ضيق الصدر ، وانطلق إلى أحواض الملح المترامية ؛ وراح يمد عينيه إلى السهول البيض ، فأحس كأن بياضها الناصع أخذ يغسل ما فى جوفه من هموم ، ويمحو ما فى ذهنه من سواد ، فانقشع ما فى نفسه من ضباب ، وانشرح صدره ، وراح يستنشق ما فى الكون من نقاء.

ومرت لحظات وقد هام فى دنيا رقيقة من الأحلام ، ودار على عقبيه ليعود إلى الورشة فإذا به يجد سليمان أمامه ، فقال فى ترحيب :

ـــ أهلا يا سليمان .

فقال سليمان وهو مقطب الجبين .

ـــ أهلا بك .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ آسف إن كنت أزعجتك .

فقال له عبود فى عتاب :

ـــ عيب يا راجل ، لا تقل هذا . أنت تعرف معزتك عندنا .

واكفهر وجه سليمان ، ولاح عليه أنه يجاهد نفسه ليقول شيئا ، فقال له عبود :

ـــ لماذا تعذب نفسك يا سليمان ؟ أنا أخوك . اطلب ما تريد .

وأحس سليمان كأن يدا قوية تعتصر قلبه ، وراح يغالب فى حياء ، فقال والدموع تكاد تفر من عينيه ، فما كان له عهد بمثل هذا الهوان :

ـــ نفد الدواء يا عبود ، وأنا فى حاجة إلى كورامين .

فربت عبود على ظهره وقال له :

ـــ آسف إن كنا شغلنا عنك هذه الأيام ، والله لقد اتفقنا بالأمس أنا وحسن على أن نزورك اليوم .

وكانت نفس سليمان ثائرة ، فلم يلتفت إلى ما قاله عبود ، وقال فى مرارة وغضب :

ـــ لماذا ألقانى طبيب الشركة فى الطريق ؟ شفقة على ؟! رأفة بى ؟ ذهبت إليه قبل أن آتى إليك وتوسلت إليه أن يعيدنى إلى عملى ، أن يرد إلى حياتى ، فقال لى : إنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية ما قد يحدث لى لو وافق على عودتى . قلت له : أن أموت فى العمل وأنا كريم خير من أن أموت من الجوع وأنا ذليل . فقال لى : إنى أعلم يا بنى أن قرارى قاس ولكنى أقوم بواجبى . قلت له : إنى على استعداد لأن أكتب إقرارا على نفسى أذكر فيه أنى متحمل لكل النتائج التى قد تترتب على عودتى إلى عملى . قال لى : آسف ! لا أستطيع ، قلت له : ومن أين أعيش ؟ فهز كتفيه ولم ينطق بكلمة ، وغسل يديه منى كأنى لست إنسانا مثله ، لو كنت كلبا لمسح ظهرى بيده حنانا ، ولكن لسوء حظى لم أكن كلبا .

وظل عبود يصغى إليه وهو مشفق عليه : « لعنة الله على الفقر والمرض . هل أصبحت أمراض القلب مودة هذه الأيام ؟ سليمان قلبه ضعيف ، وأم مأمون قلبها ضعيف ويجب ألا تتحرك من فراشها . وأنا أدفع ثمن الدواء لأم مأمون وثمن الكورامين لسليمان . أصرت بهية على أن تدفع ثمن الدواء ، لماذا لم تأخذ منها ثمنه ؟ « والنعمة الشريفة لقد ترك لنا مأمون نقودا نشترى بها كل ما نحتاج إليه حتى الدواء . سيعطينى مأمون ما دفعته لما يعود » .

وأراد عبود أن يقول لسليمان إن الأصدقاء كلهم مهتمون بأمره ، فقال له :

ـــ لقد أشار صديق بإدخالك مستشفى المبرة .

فقال سليمان فى سخرية مريرة :

ـــ وبعد أن أمكث به شهرا أو أكثر هل سأخرج منه إلى عملى ؟ سأعود إلى الطريق ، ما من أحد يقبل أن يلحق مريضا بالقلب بعمل عنده . إنى انتهيت يا عبود ، وسأبقى عبئا على الناس ما حييت .

وصمت سليمان قليلا ثم قال :

ـــ الحيوان المريض الذى لا يرجى له شفاء يرمى بالرصاص رأفة به ، فلماذا لا يرمى بالرصاص الإنسان المريض الذى لا أمل فى شفائه ؟ أليس ذلك أفضل من أن يترك للعذاب والهوان والتشريد ؟

فقال له عبود وهو يضمه إلى صدره :

— اتق الله يا سليمان ، رحمة الله واسعة .

وأقبل القطار الصغير الذى يجر وراءه عربات كثيرة مكشوفة ، فصعد إليه عبود وسليمان ، وانطلق بهما إلى الورشة وقد خلفا وراءهما السهول البيض .

— ١٣ —

وقف عبود فى الشباك يرتدى ملابسه ويمد عينيه إلى شقة بهية ، كان السكوت مخيما عليها على الرغم من أن الحياة قد دبت فى حى المناخ : « لا بد أن بهية سهرت الليل إلى جوار أمها وأن النوم لم يعرف طريقه إلى عيونها إلا فى الفجر . نامى يا بهية واستريحى . كان الله فى عونك . لا أحب أن أتعبك . سأمر عليك لأستفسر عن صحة أمك آخر النهار » .

وهم بأن يغادر الشباك ، وإذا به يلمح إنصاف قادمة من ناحية بيتها وقد اتجهت إلى بيت بهية ، وإذا بفانوس قادم من الناحية الأخرى ، ولما رأى إنصاف وسع من خطوه حتى التقى بها أمام الباب ، فمد يده وصافحها فى شوق ، ثم قال شيئا فضحكا معا لما قال ، وقد اهتز جسم إنصاف وارتج حتى أن عبود ضرب قاعدة الشباك بقبضته غيظا .

وغابا عن عينيه فى جوف الدار ، فطاف بذهنه أنهما انتهزا فرصة مرض أم مأمون ليتواعدا على اللقاء عندها ، وزجره زاجر فى نفسه : « حرام عليك يا عبود ، فقد كان لقاؤهما مصادفة . لماذا تسىء الظن دائما بإنصاف ؟ إنصاف أهل لكل مظنة » والتفت إلى ناحية شقتها . كانت نوافذها كلها مغلقة ، إنه لا يذكر أنه رأى نافذة منها مفتوحة فى يوم من الأيام ، وأن هذه النوافذ المغلقة تمد خياله دائما بأفعال مريبة تجرى خلفها ، إنه لا يستطيع أن ينسى أنه رأى الدكتور حازم أكثر من مرة وهو يهبط فى سواد الليل من بيتها . ماذا يفعل شاب مثله وشابة جريئة مثلها خلف نوافذ مغلقة ؟ وإنه ليذكر أن الدكتور حازم اتجه معها إلى بيتها

عقب أن عاد أم مأمون ، لماذا لم ينصرف إلى بيته أو إلى عيادته أو إلى المستشفى ؟ كم أنت طيب القلب وساذج يا مأمون ، كيف طاوعك لسانك على أن ينطق بما قال : لو فكرت فى الزواج يوما لتزوجت إنصاف . أعوذ بالله .

ليتك يا مأمون كنت كبهنس الذى عركته الحياة ، والذى يسر له عمله فى الأقسام أن يلمس حقيقة الناس ، قال ذات ليلة لما رأى إنصاف عائدة وهى ترقص فى مشيتها : أشتهى أن تكون إنصاف لى كل شىء إلا أن تكون زوجة ! ليتها تعتدى على أحد فى الليل بالسب أو بالضرب لتبيت فى القسم على أن أكون أنا هناك !

وجرى عبود ليلحق بهما ، فهو لا يطيق أن يبقى فانوس وإنصاف وحدهما بعيدا عن رقابته ورن فى جوفه صوته وهو يعدو فى الدرج : « أتشتهى يا عبود أن تكون أنت وإنصاف وحدكما فى مكان قصى ؟ فقال بصوت مرتفع ، أعوذ بالله ! » .

وبلغ الشقة ، كان بابها مفتوحا فوقف مترددا برهة ، والتفت فانوس فرآه فهب واقفا وهو يقول :

ــ أهلا عبود .

ومس الصوت أذنى بهية مسا رقيقا ، فالتفتت ناحية الباب وقد تهللت أساريرها وتوردت وجنتاها ، وهمت بأن تسرى إليه كالطيف بيد أنها خجلت من العيون الغريبة المصوبة إليها تحصى حركاتها وسكناتها ، فوقفت ثابتة فى مكانها وإن كان قلبها قد طار إليه .

وتقدم عبود وقال :

ــ صباح الخير .

ولم يمد يده ليصافح أحدا حتى لا يضطر إلى مصافحة إنصاف ، وقال موجها الحديث إلى بهية :

ــ كيف حال خالتى اليوم ؟

وقالت إنصاف :

ــ لا تزال فى حاجة إلى راحة .

وذهب عبود إليها ونظر فى وجهها فألفاها لا تزال ذابلة ، وقد زادت صفرة

بشرتها ووهنت عيناها ، وأحست به على الرغم من أنه لم ينطق حرفا .

فقالت فى صوت خافت :

ـــ عبود ! كيف أنت ؟

ـــ كيف أنت يا خالة ؟

فمدت يدها وقبضت على يده وظلت يده فى يدها مدة ، وقد ساد الخشوع المكان .

والتفتت إنصاف إلى بهية وقالت لها :

ـــ هنيئا لك زوجك . إنى أغبطك عليه .

وراحت بهية تتلفت فى حيرة ، لا تدرى أين تستقر عيناها ، ولم ترحم إنصاف اضطرابها بل قالت :

ـــ أتعرفين ماذا نسميه فى الحى ؟ الرجل البكر .

وصعد الدم حارا إلى وجه عبود ، وغالبت بهية الضحكة التى كادت تفلت من حنجرتها ، بينما ضحكت إنصاف ضحكة هزت كيان عبود وجعلت ثورته تتدفق بين جوانحه وتنعكس على محياه ، وضحك فانوس وقال :

ـــ لو كان فتاة ما ترددت فى أن أتزوجه .

ونظر إليه عبود نظرة غيظ وكانت ملامحه تصيح فى فانوس هاتفة : يا خبيث ! واستمرأت إنصاف هذا الهزر ، فقالت لعبود وهى معجبة بنفسها :

ـــ إلى متى ستظل بكرا ؟

ولم يستطع عبود صبرا وانفجر مرجل غضبه ، ضايقه أن انتهز فانوس وإنصاف فرصة وجود بهية وراحا يركبانه بسخريتهما ، وقد سمحت إنصاف لنفسها أن تجاوز كل حد ، فقال لها وهو يرميها بنظرة تحد :

ـــ إلى أن تعودى بكرا مرة أخرى .

وفزعت إنصاف كأنما سددت رصاصة إلى قلبها ، واتسعت عيناها وفغر فوها ولم تعد تحس إلا الطعنة المسمومة التى مزقت شرفها ، وودت أن تصرخ .. أن تسبه وتلعنه .. أن تبكى .. بيد أنها ظلت جامدة كأنما مسها مس من

الكهرباء فصعقها .

وجرت بهية بعيدا تخفى وجهها وتفر من الحرج الذى بدأت تستشعره ، ولكنها كانت فى قرارتها سعيدة . لم يستكن عبود للألسنة الطويلة ، بل ضرب ضربته القاضية وأنهى المعركة لما وجد أنه لو سكت على الاستخفاف به ، فسيصبح مطية ذلولا للساخرين والهازئين .

وتلفت فانوس فى دهش وعقلت لسانه المفاجأة ، وزاد فى ارتباكه أنه لم يدر بخلده يوما أن الحمل الوديع يمكن أن ينقلب فجأة إلى ليث كشر عن أنيابه . وفكر فى أن يقول شيئا يخفف به وقع الكارثة التى نجمت عن الألسنة التى أفلت عيارها ، بيد أنه أحس ثقلا فى لسانه وخوفا فى قلبه ، خشى أن يند منه ما قد يغضب عبود ، فيطعنه بكلام يمرغه فى الأوحال .

ووجد فانوس أن خير ما يفعله أن ينسحب فى صمت ، وأن يبعد إنصاف عن ميدان المعركة لتسترد أنفاسها المبهورة ، وتهدأ نفسها الثائرة ، وتلعق جرح كرامتها بعيدا عن الأعين الشامتة ؛ فنهض ونظر إلى إنصاف ، فقامت وهى ذابلة وقد هرب الدم من وجهها ، وبان فى عينيه دهش ، أيمكن أن تبدل كلمة الإنسان كل هذا التبدل الذى طرأ على إنصاف !

وسار فانوس وإنصاف إلى جواره تقول فى ألم :

ـــ أعرف أن عبود يكرهنى ، ولكنى ما كنت أظن أنه يحتقرنى إلى هذا الحد.

وراح عبود ينظر إليهما وقد أحس قسوة ما نطق به ، وفتش فى أعماقه عن حقيقة مشاعره ، فوجد أنه آسف على أنه قد اضطر إلى ما نطق به ، ولكنه غير نادم على ما قاله .

وهرعت بهية إليهما ولحقت بهما عند الباب وقالت لهما :

ـــ شكرا لكما على هذه الزيارة .

فقال فانوس وهو يفسح الطريق لإنصاف لتخرج من الباب :

ـــ ربنا يطمئنكم عليها .

وأرادت بهية أن تشعر إنصاف أن كل شىء سائر فى طريقه المعتاد ، وأن

ما قاله عبود إن هو إلا مزاح عابر ، فقالت لها :

ـــ ومتى ستعطينها الحقنة الثانية ؟

فقال إنصاف وهي تتحاشى لأول مرة أن تلتقى عيناها بعينيها :

ـــ فى الليل : بعد أن ينتهى العمل فى العيادة .

ـــ شكرا ومع السلامة .

وهتفت أم مأمون فى جهد :

ـــ أشرب .

فخف عبود إليها وفى يده كوب ماء ، ورفع رأسها فى رفق وحنان ، ووضع الكوب على شفتيها . وهرعت بهية إليهما وراحت تعاونه على إسناد ظهر أمها ، ورشفت الأم قطرات من الماء ، ثم قالت فى همس :

ـــ أنام .

وأرقدها فى فراشها وهى واهنة ، تلتقط أنفاسا مكروبة ؛ وجاهدت حتى فتحت عينيها ، ونظرت إلى عبود وبهية نظرة طويلة ، ثم أسبلت جفنيها لتعيش مع الحياة التى دبت فى ذهنها .

والتفت عبود إلى بهية فى حب ، وقال فى حنان :

ـــ أتريدين أن أحضر لك شيئا ما عند عودتى .

ـــ شكرا .

ودار على عقبيه وقال وهو يسير نحو الباب :

ـــ السلام عليكم .

ـــ مع السلامة .

وتقدم فى خطوات بطيئة وهى إلى جواره ، كأنما كانا يرجوان ألا تنتهى أبدا المسافة القصيرة الفاصلة بين فراش الأم والباب .

وراحت الأم تصغى إلى ما يدور فى نفسها وهى مسجاة فى فراشها : « ستموتين يا زكية ، انتهى الأجل ، فإن مت الآن قبل أن تتزوج بهية فسيتأخر زواجها حتى تنتهى أيام الحداد ، وستعيش بهية وحيدة حزينة لا تجد من يمسح لها

دموعها ، ولا من يواسيها فى سواد الليل الطويل . ستموتين هذا قضاء الله ، ولكن لا . يجب ألا تموتى يا زكية إلا بعد أن تتزوج بهية وتحمل إلى بيت عبود . آه لو تزوجت بهية قبل أن أموت لرقدت فى قبرى مستريحة الفؤاد . بيدك يا زكية أن تتزوج بهية وأن تسعد قبل موتك ، انهضى يا زكية من هذا الفراش ، وقولى إنك بخير ، وأصرى على أن يتم هذا الزواج قبل أن ينطفئ ما بقى فيك من زيت الحياة . قومى يا زكية ، ولكن الدكتور حازم قال لك : لست مسئولا عن حياتك إن غادرت فراشك ، ومن قال للدكتور حازم إنه مسئول عن حياتى ، وما قيمة هذه الحياة إن كانت ستسبب شقاء ابنتى . ليت بهية تتزوج الآن ثم أموت قريرة العين . لم يعد لى ما أريد أن أعيش من أجله بعد أن أستر عرض ابنتى . والله لو مت قبل أن أرى بهية وهى إلى جوار عبود فى طريقها إلى بيتها ، فلن تعرف روحى الراحة وستظل هائمة فى ملكوت الله . لو عشت حتى رأيتك يا ابنتى فى ثياب الزفاف فسأموت من الفرح . خير لى أن أموت من الفرح من أن أموت حزينة كسيرة الفؤاد ، قومى يا زكية .. تحاملى على نفسك . ماذا تنتظرين ؟ أنتظر عودة مأمون .. ها هو ذا صاعد فى السلم » .

وتحركت أم مأمون فى فراشها وجاهدت حتى استوت جالسة ، ونادت فى صوت خافت إلا أنه كان ملونا بالحنان :

— مأمون ! مأمون !

فخفت إليها بهية وقالت لها فى توسل وهى تحاول أن تعاونها على أن تتمدد الفراش :

— نامى يا أمى .

— افتحى لمأمون الباب . اذهبى . مأمون حضر . إنه جاء . إنى لا أهذى يا بهية . افتحى لأخيك .

وراحت ترنو إلى أمها فى خوف وشفقة واضطراب ، وتقاوم فى رفق رغبة أمها فى أن تنهض . ومس أذنيها صوت طرق على الباب ، فالتفتت فى دهش ، ثم راحت تعدو لترى من الطارق ثم تعود إلى أمها على عجل لتمنعها من النهوض .

وفتحت الباب ، وما لبثت أن صاحت قائلة فى فرح :

ـــ مأمون !

ودبت القوة فى جسد الأم ، فقامت وقالت وهى تبسط ذراعيها :

ـــ مأمون ! ابنى حبيبى .

واندفع مأمون إلى أحضان أمه ، وهتفت بهية فى خوف :

ـــ أمى . لماذا قمت ؟

فقالت الأم فى فرح :

ـــ أنا بخير يا بهية .

فقالت لها بهية فى توسل :

ـــ نامى . نامى يا أمى . أرجوك .

ونظر مأمون إلى الفراش الموضوع على الأرض ، ثم التفت إلى بهية فى تساؤل ، فقالت له بهية :

ـــ أمرها الدكتور حازم ألا تغادر الفراش أبدا . قال لها إنه ليس مسئولا عن حياتها .

فقال مأمون لأمه فى توسل :

ـــ استريحى يا أمى . أرجوك .

فقالت الأم فى عناد :

ـــ أنا بخير يا مأمون .

فقال لها وهو يسندها برفق خشية أن تنهار :

ـــ نامى يا أمى . نامى وسأجلس معك فى فراشك .

وخشيت الأم أن تنوء من الجهد قبل أن تصل إلى غرضها ، فقالت :

ـــ سأبقى فى فراشى إذا سمعت كلامى .

فقال لها مأمون فى حب :

ـــ ومتى يا أمى لم أسمع كلامك ! نامى واطلبى ما تريدين .

وقالت وهى تبذل آخر ما فى طاقتها لتظل على قدميها :

— أريد أن يكون زفاف بهية يوم الخميس .

فقال مأمون فى إنكار :

— بعد ثلاثة أيام ؟!

— أريد أن أفرح بها يا مأمون .

وصمتت ، وفطن مأمون إلى أنها تريد أن تقول : « قبل أن أموت » فقال لها فى استسلام :

— أمرك . استريحى يا أمى .

وأحست شيئا من الراحة ، وداعب روحها الأمل ، وأرادت أن تستوثق من أن هذا الوعد حق ، فقالت له :

— أقسم لى بشرفك يا مأمون أن بهية ستتزوج يوم الخميس .

فقال لها وهو يرفعها بذراعه :

— قلت لك يا أمى إن بهية ستتزوج يوم الخميس .

فقالت له فى عناد :

— أرح قلبى يا مأمون واقسم لى بشرفك أن زفاف بهية سيكون يوم الخميس .

وأحس مأمون أنها بدأت ترتجف فى يده ، فقال لها :

— أقسم لك بشرفى أن بهية ستتزوج يوم الخميس .

وثقلت على ذراعه ، فأسرعت بهية تعاونه على تمديدها فى فراشها ، ولما استقر رأسها على الوسادة ، قالت وهى تزفر وتشهق فى صوت مسموع ، يعلو على صوتها :

— بارك الله فيك يا مأمون . أرحت قلبى .

وجرت بهية بعيدا لتجفف الدموع التى ترقرقت فى مقلتيها .

ـ ١٤ ـ

كانت الرياح تصفر فى سكون الليل ، وكان البرد قاسيا حتى إن شوارع بور سعيد أقفرت من الناس وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة مساء ، وكانت جانيت جالسة أمام المدفأة تصغى إلى الراديو ، وتداعب قطتها التى اختارت وسادة حريرية وغاصت فيها هانئة تنعم بدفء النار .

وأقبل توفيق من غرفته ووقف يصغى إلى ما تذيعه إذاعة إسرائيل ، كانت تؤكد أن متسللين خرجوا من غزة وتوغلوا فى إسرائيل وقتلوا بعض الأهالى العزل ، ثم فروا هاربين .

ونظر توفيق إلى جانيت فألفاها تنهض وتحضر كراستها التى تدون فيها ملاحظاتها ، ثم تكتب فيها بعض فقرات وهى تقول :

ـــ عاد بن جوريون إلى وزارة الدفاع خلفا لغريمه لافون .

ثم رفعت رأسها عن الكراسة وقالت :

ـــ إنى لا أصدق ما تذيعه إسرائيل .

فقال لها توفيق وهو يحاول أن يقرأ ما يدور فى رأسها :

ـــ ولماذا تذيعه إذا لم يكن حقيقة ؟

فقالت جانيت شاردة :

ـــ ربما لتهيىء الرأى العالمى لعدوان تنوى أن تقوم به . بن جوريون مشاكس . يؤمن بالعدوان . وسيعمل على خلق الاضطراب فى المنطقة ليرغم إنجلترا على نقض وعدها بالجلاء .

ـــ بن جوريون ليس فى حاجة إلى تهيئة الرأى العالمى إذا كان ينوى العدوان حقا ، فالصحافة العالمية تكاد تكون كلها فى يد اليهود ، وكل وسائل النشر والإعلام فى الدول الكبرى فى أيديهم ، وهى جميعا فى خدمته ، ويا ليتها تكتفى بأن تسكت عن جرائم إسرائيل بل تصورها دواما على أنها الحمل الوديع الذى

يتحمل الأذى فى سماحة وصبر . ماذا فعلت الصحافة العالميـة يوم اغتـالت برنادوت ؟ وماذا قالت عن مذابح دير ياسين ؟ كنت فى تلك الأيام مكلفا فى القوات الجوية وكنت فى قلب المعركة ، وقد أحسست فى تلك الأيام مرارة لما كانت تذيعه صحافة العالم من أكاذيب ، كانت تشوه وجه الحقيقة ، وكانت تفترى على العرب وتلصق بهم كل نقيصة ، بينما كانت تشيد بأعمال الأفاكين من عصابات صهيون . إن قوة إسرائيل فى أصدقائها المنبثين فى العالم ، القابضين على شرايين الحياة فى الدول التى يعيشون فيها . إنهم هم الذين فرضوا الهدنة الأولى لما وجدوا أن إسرائيل على وشك أن تزول من الوجود قبل أن يثبت كيانها ، وأنهم هم الذين أمدوها بالأسلحة بينما فرضوا حظر إرسال الأسلحة إلى العرب .

قال لى زميل فى القوات الجوية كان ضابطا للأسلحة : فتحنا مخازننا للإنجليز فى الحرب العالمية الثانية ، وأعطيناهم كل ما عندنا من ذخيرة وقذائف ، ولما قامت حرب فلسطين أبوا أن يردوا إلينا ما أعطيناهم .

فقالت جانيت :

ـــ أعلم يا توفيق أنكم تحاربون الصهيونية العالمية المنتشرة كالأخطبوط فى المراكز الحساسة فى كل دول العالم ، ولكنى أقول إن ابن جوريون يعبئ شعور الكراهية ضدكم بتصويركم فى صورة المعتدين دواما ، وأنه إن قام بالهجوم عليكم فإنما يقوم بحقه المشروع فى الدفاع عن نفسه .

ـــ إن اعتدى علينا فلن نسكت ، هذا ما أنا واثق منه .

فقالت جانيت وهى تعاود الكتابة فى كراستها :

ـــ العين بالعين والسن بالسن .

وقال توفيق فى مرارة :

ـــ وموقف الدول الكبرى لم يتبدل منذ قامت حرب فلسطين إلى الآن ، إنها تسلح إسرائيل بكل سلاح بينما تمنع عنا الأسلحة بحجة توازن القوى فى المنطقة . سبع دول عربية لا تستطيع أن تحصل على ما تحصل عليه إسرائيل من أسلحة . هذا إذلال ، ولا أحسب أننا نصبر على هذا الهوان طويلا .

ودخل مرجان ووقف صامتا برهة إلى أن وقع نظر توفيق عليه ، فقال له :

— ماذا تريد ؟

فقال مرجان وهو يتقدم خطوات :

— أريد أن أحاسب المدام على ما اشتريت اليوم من لحم وخضار وفاكهة .. و ..

فقال له توفيق :

— غدا صباحا ستحاسبك المدام . اذهب لتنام .

ورفت ابتسامة على شفتي جانيت ، وهز مرجان كتفيه استنكارا وقال :

— والله لا أدرى لماذا لا نقطع هذا الحساب الآن ؟!

ودار على عقبيه وانصرف ، وقالت جانيت :

— لو ارتكب مرجان جريمة فما أسرع ما يكتشف أمره ، إنه ظاهرة عجيبة ؛ يروى فى صدق وهو نائم كل ما يجرى له فى النهار ، كأنه شريط مسجل!

وعاد مرجان ، ورأته جانيت فقالت له :

— قلنا لك الحساب فى الصباح .

فقال مرجان فى هدوء :

— عارف .

وقال له توفيق :

— فماذا تريد الآن ؟

فقال مرجان وهو ينظر خلفه :

— جاء مأمون وعبود يطلبان مقابلتكم .

فقال توفيق وهو يبعد القطة عن الوسادة التى تربعت فوقها :

— قل لهما : تفضلا .

وغاب مرجان قليلا ، وما لبث أن عاد وخلفه مأمون فى ثوبه العسكرى ، وعبود وقد تأنق ، فبدا رائعا حتى إن توفيق أطال النظر إليه ، ثم قال :

— أهلا بكما .

فقال مأمون فى بساطة :

ــ آسف إن كنا جئنا فى هذا الوقت ، ولكننا لن نمكث طويلا .

فقال توفيق فى صدق :

ــ هذا بيتكم .

ــ شكرا .

وجلسا وفرت القطة منهما وغادرت الغرفة كأنما كانت تحتج على هذين اللذين جاءا ليعكرا صفوها ، وقالت جانيت لمأمون :

ــ كيف صحة أمك ؟ قال لى توفيق إن عبود خبره أنها مريضة .

فقال مأمون :

ــ إنها لا تزال مريضة ، ولكنها تصر على أن يتم زواج عبود وبهية يوم الخميس ، وقد جئنا لنلتمس تشريفكم لنا فى ذلك اليوم .

فقال توفيق وهو ينظر إلى عبود :

ــ إن شاء الله .

فقال عبود فى فرح :

ــ سيتزوج معنا فى نفس اليوم الشيخ حسن وفتحية بنت صديق الفرارجى .

وهم مأمون أن يقول شيئا ، وفهم توفيق ما يدور فى رأسه فقال :

ــ خيرا فعلتم .

والتفت توفيق إلى جانيت وقال :

ــ إنى معجب بالرابطة الطيبة التى تربطهم جميعا ، لو تعاون الناس مثل تعاونهم لخفت قسوة الحياة ولصار لها طعم لذيذ .

وقال مأمون وهو يبتسم :

ــ الضعفاء هم الذين يتعاونون ، أما الأقوياء فلا يعرفون إلا التنافس والتشاحن والقتال والكراهية .

فقالت جانيت :

ــ أتريد أن تقول إن الأقوياء هم الذين يفسدون فى الأرض ؟

وتيقن توفيق أن جانيت تتأهب للدخول فى جدل طويل ، فنظر إليها نظرة

تلتمس منها أن تسكت . وفطنت إلى ما يريد ، فنهضت ومدت يدها إلى صندوق الحلوى وفتحته وقدمته إلى عبود ثم إلى مأمون وهى تقول :

— تفضل .

— شكرا .

وقال مأمون لتوفيق :

— لى رجاء وأرجو ألا أثقل عليك .

فقال توفيق وهو يبتسم :

— اطلب ما تريد .

وأرهفت أذنا جانيت ، وقال مأمون :

— أن تسمح لمرجان أن يعاوننا يوم الخميس .

فقال توفيق فى راحة ، فقد حسب أن مأمون سيطلب طلبا عزيزا :

— بكل سرور .

ونهض مأمون وقال :

— شكرا لكم .

ومد يده وصافح جانيت ثم توفيق ، وتبعه عبود ، ودلفا إلى الطريق وقد هب هواء بارد من الباب المفتوح ، فهرعت جانيت إلى الغرفة الدافئة ، وجاء فى أثرها توفيق ، وما إن رأته حتى قالت :

— لا أفهم لماذا يطلبون مرجان ؟

— ليعاونهم .

— على ماذا ؟

— على طبخ طعام للمدعوين .

فضحكت جانيت وقالت :

— أتظن أنهم سيطعمون المدعوين ؟!

وشرد توفيق قليلا ففطن إلى أن ذلك مستحيل ، فمن أين لمثلهم بنفقات إطعام الحى جميعه ، فقد دعوا بلا شك كل سكان حى المناخ ، وكل العاملين فى

شركة الملح ، وربما العاملين فى الإسعاف إكراما لصديق ، فقال :

ـــ ربما سيعد طعام العروسين .

فقالت جانيت وهى تهز رأسها موافقة :

ـــ هذا معقول .

وتناولت جانيت كتابا راحت تقرأ فيه ، وعكف توفيق على الصحف والمجلات ، ومر الوقت ، وارتفع صوت مرجان ، كان قد نام وبدأ يروى كل ما حدث فى يومه وما جرى بينه وبين الجزار وبائع الخضر والفاكهة من مناقشات ، فأسرع توفيق يدون أسعار الحاجات التى اشتراها مرجان ليقدمها إلى جانيت لحساب الصباح .

وأطفأت جانيت النور واتجها إلى الفراش واندسا فيه ، كان الفراش باردا حتى إن جانيت غطت رأسها وراحت تزفر أنفاسا حارة لينقشع البرد ، وجعلت تتقلب وتنكمش وتنفرد فيرتفع الغطاء ، ويصيح توفيق قائلا :

ـــ جانيت ! كفى حركة فقد ارتفع الغطاء وتسرب الهواء البارد إلى ، إنى أرتجف .

والتصق كل منهما بالآخر وهو ينتفض من البرد ، ومرت لحظات ثم سرى الدفء اللذيذ فاستسلما له وقد هدأت أنفسهما واستكانت للخدر الذى مشى حنونا فى أوصالهما .

وارتفع مواء القطة وأصاخت جانيت سمعها ثم قالت :

ـــ توفيق . افتح الباب للقطة . ستموت من البرد .

فقال توفيق وهو يقرب ركبتيه من ذقنه :

ـــ اذهبى أنت . لو قمت من تحت الغطاء فسأموت من البرد .

فقالت جانيت فى إغراء :

ـــ أتعرف يا توفيق لماذا تزوجتك ؟

فقال لها مداعبا :

ـــ أنى كنت الرجل الوحيد الذى تقدم إليك يطلب يدك .

فقالت فى عتاب :

— توفيق !

واستمرأ توفيق مداعبتها فقال لها :

— أكان ذلك الإنجليزى الأصلع المغرور الذى يعمل فى التأمين ، يقدم على الزواج منك ؟

فقالت له جانيت فى لهجة جادة :

— لو تقدم مستر جونس وطلب منى أن أقبله زوجا لرفضته .

— لماذا ؟

— لأنى أمقت صنف أنصاف المتغلمين .

— إنى احتقرته يوم دخل حزينا لأن بريطانيا العظمى فرطت فى الهند ، درة التاج البريطانى ، ومنحته استقلاله ، إنى لا أنسى ساعة أن وقف على رأس المائدة ، وقال فى خيلاء : « الهند لنا وما كان للساسة أن يفرطوا فى حقوقنا » .

وعاودت القطة المواء ، فقالت جانيت فى توسل :

— القطة . افتح لها الباب .

— قومى أنت .

— تفتح لك قلبى يا توفيق من أجل قطة . أتذكر ليلة دخل كل منا إلى غرفته وكان الثلج يتساقط فى الخارج ، وارتفع مواء القطة فلم يخرج إليها أحد منا ، وخرجت أنت إليها بالرغم من شدة البرد وحملتها ووضعتها إلى جوار المدفأة . إنى تعلقت بك منذ تلك الليلة .

فقال لها توفيق وهو يحكم الغطاء حوله :

— إنى أكره أن أكرر نفسى .

فجذبت جانيت الغطاء من فوقه وقالت له :

— اذهب .. إكراما لى .

وقام وهو ينتفض من البرد وجرى إلى الباب وفتحه ، ثم انتشل القطة وعاد بها وراح يعدو حتى وصل إلى الفراش فاندس فيه وهو يرتجف ، وسحب الغطاء

عليه ، ولم يكتف بذلك بل ضم جانيت إلى صدره .

وقبلته جانيت وقالت له :

ـــ أتذكر أول قبلة كانت بيننا ؟

ـــ أجل وقد سرنى أنها كانت أمام عينى مستر جونس المفتوحتين .

وقالت جانيت وهى تبتسم :

ـــ طافت بك نوبة كرم فدعوتنى للعشاء فى الأمباسادور ، وعندما عدنا إلى البيت قبضت الثمن .

فقال لها توفيق فى حدة :

ـــ لا . لا يا جانيت . لا تقولى هذا حتى لا تفسدى روعة الذكريات .

فقالت وهى تضحك :

ـــ ولم تكتف بأن تتقاضى ثمن العشاء قبلة ، بل ..

فقال لها وهو ينهض بصدره :

ـــ اسكتى أرجوك .. وإلا كتمت أنفاسك .

وأطبق بشفتيه على شفتيها .

— ١٥ —

غرق بيت مأمون فى النور ، فقد تعاون عبود والشيخ حسن ومأمون وأصدقاؤهم على أن تتدلى المصابيح الكهربية على واجهة البيت ، وتنتشر فى الشقق التى فتحت أبوابها على مصاريعها لاستقبال سكان الحى ، الذين خفوا ليشاركوا جيرانهم أفراحهم وليتمنوا لهم السعادة والهناء .

وجلست بهية فى ثياب الزفاف على كرسى مذهب ، وجلست إلى جوارها فتحية وقد زينت رأسها بتاج مرصع لا تدرى من أين استعاره بهنس ، وقد التفت أخواتها حولها كأنما يردن أن يعلن المدعوين أن هذه العروس أختهن ، وراحت الأم تتلقى التهانى وتغدو وتروح فى سرور ، وتملأ عينيها بمنظر بناتها وهى

مزهوة ، دون أن تستشعر أى قلق لأن اثنتين منهن قد بلغتا سن الزواج .

وراحت إنصاف ترقص أمام العروسين رقصا رائعا على أنغام طبول بعض النسوة من الجيران ، وأخذت الفتيات والنساء يصفقن على الوحدة ، وإنصاف تتلوى فى فن وتتثنى فى إغراء ، فشاع فى بعض العيون الإعجاب ، بينما امتلأت عيون أخرى بالغيرة فمصمصت الشفاه .

وطافت أم مأمون بين المدعوات وهى ذابلة ، تكاد تنوء من الإعياء ، ولكنها كانت تتحامل على نفسها وتتلفت بعيون زائغة ، وتحاول أن تبتسم : « تجلدى يا زكية ، ساعات قليلة ثم يغلق على بهية باب بيتها ، وبعدها أموت مستريحة » .

وأحست أنها ستنهار ، فالتصقت بجدار الحائط وراحت تلتقط أنفاسها ، ومرت بها سيدة من المدعوات فقالت لها :

— مبارك العقبى لمأمون .

فقالت لها فى جهد وقد تفصد من جبينها العرق ، على الرغم من البرد الذى يكاد يخرم العظام :

— فى حياتك .

وراحت تجر نفسها جرا حتى بلغت مكانا قصيا ، فانهارت على كرسى وهى تلهث وتشخص إلى السماء وتدعو دعاء حارا : « يا رب ! أطل فى أجلى هذه الساعات » .

ولم تكد تسترد أنفاسها حتى قامت وذهبت إلى حيث كان الناس يموج بعضهم فى بعض ، خشية أن يفطن أحد إلى غيابها فيبحث عنها حتى يجدها وهى يكاد يغمى عليها من الإعياء ، فتعكر صفو الليلة التى تركزت كل أمانى حياتها فى أن تمر بخير .

وذهبت إلى بهية ورنت إليها فى حب ، واستشعرت انجذابا إليها فتقدمت منها وطفقت تتحسسها فى عطف وحنان ، وبلغت مسامعها أصوات كثيرة عجزت عن أن تميزها ، بيد أنها فطنت إلى أنها تحمل إليها التهانى ، فراحت تجاهد حتى ابتسمت ، بيد أن غشاوة انسدلت على عينيها فلم تعد ترى شيئا .

وارتفع صوت المغنى الذى كان يشدو عند الرجال ، فهرع بعض النسوة الحاسدات لإنصاف إلى النوافذ وتدلين منها يرهفن الأسماع ، وأحست إنصاف بانفضاضهن من حولها ، فأخذت ترقص فى عنف ، ودبت الحماسة فى نفوس المعجبات فانتقلت إلى الأكف التى كانت تصفق ، فارتفعت أصواتها حتى غطت على صوت المغنى ، فابتسمت إنصاف ابتسامة انتصار .

ودارت الأرض بأم مأمون ، وخافت أن تسقط مغشيا عليها ، فانسلت لتنتبذ مكانا قصيا تسترد فيه أنفاسها ، وتبتهل إلى الله فى حرارة أن يمنحها القوة حتى تزف حبيبة الفؤاد .

وراحت أم فتحية تنقب عن ابنتها الصغرى وتمرق بين الجموع كالسهم حتى إذا ما عثرت عليها قالت لها :

ـــ اذهبى إلى أبيك وقولى له أن يحضر مفتاح الشقة من حسن .

وهبطت الفتاة فى الدرج وهى مسرورة ، فستتاح لها رؤية الفرح عند الرجال ، وسارت فى الشارع خطوات ، حتى إذا وصلت إلى القهوة وجدت الرجال قد انتشروا فيها ، وقد وجهوا أنظارهم إلى حيث كان يجلس مطرب أسود يغنى بصوت رخيم ، والناس يهللون فى نشوة وانشراح .

ووقفت الفتاة تتلفت حتى وقعت عيناها على أبيها ، كان جالسا مع حسن وعبود ومأمون وفانوس وبهنس ، فانسابت إليه ، ووقعت عينا صديق على ابنته فنهض وذهب إليها وقال لها :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فقالت فى ثبات :

ـــ أمى تريد مفتاح الشقة من حسن .

وقال الأب دون تفكير :

ـــ لماذا ؟ ماذا ستفعل بمفتاح الشقة .

ـــ ليجدها مفتوحة إذا ما ذهب إليها مع فتحية . العروس يا أبى لا تنتظر حتى يفتح العريس لها باب الشقة .

ونهض المغنى الأسود بين تهليل الناس وصيحات الإعجاب وغادر المنصة ، وسار صديق فى ضيق لأنه تسرع وسأل عن حاجة زوجه إلى المفتاح ، ترى أقالت لها أمها ما قالته أم أنها فطنت إلى ما قالت بغريزتها ؟! وخف إلى حسن وقال له :

ـــ مفتاح الشقة من فضلك .

فنهض حسن وراح يبحث عنه فى جيوبه ، وقال له فانوس :

ـــ أعطه مفتاح حريتك .

فالتفت مأمون إلى فانوس وقال :

ـــ هذا قصر ذيل يا أزعر .

واستمر حسن فى بحثه حتى عثر على المفتاح ، فقدمه إلى صديق ومأمون يرقبه ويقول :

ـــ ليس معك إلا مفتاح واحد ؟

فابتسم حسن وقال :

ـــ الحمد لله على هذا ، فكلما كثرت المفاتيح كثرت الذنوب .

وقال بهنس :

ـــ كيف ؟

قال حسن :

ـــ ماذا يحمل الإنسان من مفاتيح ؟ مفتاح الخزانة ، وهذا دليل على الكنز ، وسيسأل المرء على حبسه الأموال وسيكوى بما يكنز يوم القيامة ، مفتاح البيت الحر .

وقال بهنس وهو يبتسم :

ـــ قل مفتاح الجرسونييرة ، الله يفتح عليك ، اللهم اوعدنا .

قال حسن فى بساطة :

ـــ مفتاح جرسونييرة الذنوب .

قال فانوس :

ـــ ومفتاح الدكان ، هذا أطهر مفتاح .

فقال مأمون :

ـــ وقد يكون أخبث مفتاح .

واشترك صديق فى المناقشة ، قال :

ـــ ومفتاح السيارة .

فقال بهنس فى ابتهال وهو يرفع أكف الضراعة إلى السماء :

ـــ اللهم ارزقنا بالمفاتيح .

فقال عبود وهو يبتسم :

ـــ يكفيك ما عندك من مفاتيح السجون .

فقال بهنس فى امتعاض :

ـــ أعوذ بالله ! إنا نذكر مفاتيح الخزائن ومفاتيح الجرسونيرات ومفاتيح السيارات ، وفتاحات الويسكى ، وأنت لا تذكر إلا القرف .

فقال مأمون لبهنس :

ـــ أتحب أن تحمل ذنوب المفاتيح .

قال بهنس :

ـــ أحملها وقبل أن أموت أتوب .

وقال له فانوس :

ـــ ماذا تريد من الدنيا وقد تزوجت مرتين ؟

فقال بهنس وهو يضحك :

ـــ تزوجت مرتين وأنجبت خمسة أولاد ، ومع ذلك فإنى أقاسى من الكبت الجنسى .

فقال عبود ساخرا :

ـــ من الشهوة البهيمية .

فقال الشيخ حسن :

ـــ والله إنا نظلم البهائم لما ننسب إليها هذه الشهوة ، فالبهائم لا تمارسها إلا لحفظ النوع ، أما البشر فيتفننون فى ممارستها للذة .

فقال فانوس :

ـــ البشر من أمثال السيد بهنس .

فقال له بهنس مازحا :

ـــ اسكت أنت فهذا كلام لا يعنيك ، فالشيخ حسن يتكلم عن الفحول من الرجال ومن النساء .

ـــ اسكت يا فحل .

والتفت مأمون ناحية باب القهوة ، فوقعت عيناه على توفيق وهو يشق طريقه بين الجموع ، فهرع لاستقباله ، والتفتوا إلى حيث ذهب مأمون ، فلما رأوا توفيق خفوا جميعا إليه وصافحوه وراحوا يفسحون له مكانا فى الصدر ، فجلس وهو يقول لحسن مداعبا :

ـــ أنت تتزوج لتشهر دينك يا حسن ، أليس كذلك ؟!

فقال حسن وهو يبتسم :

ـــ الزواج نصف الدين يا افندم .

وقال بهنس :

ـــ إذن تزوج اثنتين لتكمل دينك .

فقال صديق الفرارجى لبهنس :

ـــ خيرا لك ولنا يا سيد بهنس أن تحتفظ بنصائحك لنفسك .

قال بهنس :

ـــ عندما ذهبت إلى حماى الأول ، وأرجو أن يرزقنى الله مالا لأتحدث عن حماى السابع عشر ، وشكوت إليه تصرفات زوجتى ، قال لى فى سماحة : طلقها . كان حماى الأول ـــ رحمة الله عليه ـــ رجلا .

فقال له مأمون معاتبا :

ـــ أهذا كلام يقال فى ليلة زفاف ؟!

وقال فانوس :

ـــ ماذا تنتظر من رجل يتغذى طول يومه بمصائب الناس !

وخشى توفيق أن ينقلب المزاح إلى جراح وتجريح ، فالتفت إلى عبود وقال :

— مبارك يا عبود .

وفطن فانوس إلى ما رمى إليه توفيق ، فقال ليدير الحديث وجهة أخرى :

— شد حيلك يا عبود لنضيف لك إلى بطاقة التموين نصف أقة سكر وربع أقة زيت وثلاثة لترات جاز .

فابتسم توفيق وقال :

— وسيزيد راتبك جنيهين فى الشهر ، فالشركة تدفع جنيهين للولد الأول .

وقال صديق فى مرارة :

— ليت الحكومة تأخذ بطاقة التموين وكل ما أعطته من علاوات ، وتتكفل بالأبناء :

فقال فانوس :

— إنى فى عجب من أمر الحكومة ، تغرى الناس على تحديد النسل ، ثم تعطى مكافأة لمن ينجب أطفالا . لو كنت من الحكومة لخصمت جنيها من راتب كل من ينجب طفلا .

فقال صديق فى فزع :

— حرام عليك .

وقال بهنس :

— لا تؤاخذه فهذا كلام أغوات .

وكان سليمان جالسا على البعد يرقب ما يجرى وقد تعكر صفوه ، يحس إحساس الغريب ، وجعل يتلفت فى قلق ، خيل إليه أن من فى الفرح جميعا ضاقوا ببقائه ، وأن النظرات التى وجهت إليه تحثه على أن ينهض وينصرف ليتنفسوا فى راحة ، فهو جاثم على صدورهم .

وشعر بأنه ينكمش ويتضاءل وأنه يكاد يذوب من خجله من نفسه ، وسمع صوت ضميره يقول له فى وضوح : « لو لم تطرد من عملك لكنت الآن جالسا معهم ، ولكنك طردت من عملك ومن دنياهم » ، ففاضت شجونه ، وهب

واقفا وقد عزم على أن يفر من ذلك الحرج الذى بات يملأ خواطره ومشاعره وفراغ فؤاده .

وانطلق إلى حيث كانوا جالسين وهو مرتبك يتعثر فى مشيته ويتأرجح فى لفته ، حتى أصبح على بعد خطوات منهم ، فلمحه عبود ، فقام إليه مرحبا وهو يقول :

— سليمان ! تعال هنا إلى جوارى .

وفسح له مكانا ، فقال سليمان فى صوت متهدج :

— شكرا . أريد أن أنصرف . السهر يضر صحتى .

ومد يده ليصافح عبود وصوت ساخر يرن فى أعماقه : « صحتك ! وما قيمة صحتك ؟ ليتك تموت وتستريح » . واربد وجهه ، بيد أنه راح يقاوم انفعالاته ، ويحاول أن يرسم بسمة على شفتيه ، وفطن إلى أن تأثره كان أقوى من محاولاته ، وأن أى عين تنظر إليه تكشف فى يسر ما كان يعانيه ، فقال وهو يتأهب للفرار :

— مبارك يا عبود .

وانصرف لا يلوى على شىء دون أن يحاول أن يحيى باقى أصحابه ، وراحت نظراتهم تتبعه ، وقال صديق :

— ما أقسى أن يعيش إنسان بلا عمل ولا أمل !

وسيطر عليهم السكون ، ولاحت على محياهم عواطفهم التى حركها ظهور سليمان واختفاؤه ، وسرعان ما تبخرت تلك العواطف لما عاد المغنى الأسود ليطرب الحاضرين .

ونظر إليه توفيق فى دهش ، ثم التفت إلى مأمون وعبود وقال :

— ماذا يفعل مرجان هناك ؟

فقال مأمون فى بساطة :

— يغنى . ألم تسمعه وهو يغنى ؟

فقال توفيق وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

— أبدا .

وسرى صوت مرجان عذبا حنونا ، وارتفعت آهات الناس وصيحات

الإعجاب ، وتوفيق ذاهل يكاد ينكر ما يجرى حوله : « من يصدق أن هذا هو مرجان الذى يفأفئ ويثأثئ إذا ما وجهت إليه جانيت سؤالا أى سؤال ؟! » .

وراح ما وقر فى نفسه عن مرجان يتلاشى ، وأحس نحوه شيئا من التقدير والإكبار ، والتفت إلى مأمون وعبود والشيخ حسن وقال مازحا :

— ما كنت أحسب أن مرجان يتواضع بقبوله العمل عندنا .

وصور له خياله أن مرجان يقول له : « احمدوا ربنا أنى قابل أن أعمل عندكم طباخا وخداما وسفرجيا » .

وضحك توفيق ورفت بسمات الرضا على الشفاه .

وصعد مأمون إلى حيث كانت النسوة وأعلنهن أن العريسين صاعدان ، فهرعت الفتيات إلى السلم ، ودوت الزغاريد ، وراحت أم فتحية تشق الجموع لتكون فى استقبال حسن ، بينما كانت أم مأمون تلهث وتحس أن الدنيا تدور بها وأن كل جسمها يحن إلى الأرض ، بيد أن عزيمتها كانت تصرخ فيها أن تظل على قدميها حتى تنصرف بهية إلى بيتها فى أمان ، ثم بعد ذلك تنهار .

وجلس عبود إلى جوار بهية وحسن إلى جوار فتحية ، وراحت إنصاف ترقص أمامهن رقصا مثيرا ، تميل حتى يلمس رأسها حجر عبود ، ثم ترتفع بصدرها حتى تكاد شفتاها تلمسان خد بهية ، وشعر عبود بضيق ، إلا أنه كان يجاهد حتى لا يعكر ليلة صفوه .

ونهض عبود ووضع ذراعه فى ذراع بهية ، وقام الشيخ حسن وظلت فتحية جالسة ، فأسرعت أمها تجذبها لتنهض ، وسار ركب الأزواج وإنصاف تزفهم هى وبعض النسوة من الجيران .

وسار كل من فى الدار خلفهم إلا أم مأمون فقد أسندت ظهرها إلى الحائط ، ووضعت يدها على قلبها وهى تنظر إلى الأشباح المبتعدة ، وفجأة خيل إليها أن الأضواء التى كانت تتلألأ أطفئت جميعا ، وأن كل شىء يتراقص كأن الأرض زلزلت زلزالها .

وانطلق الشيخ حسن بعروسه إلى بيته ، وأغلق عبود بابه عليه وعلى بهية ، ثم

تقدم إليها وحملها بين ذراعيه ، وفى نفس الوقت دنا مأمون من إنصاف وقال لها :

ــ العقبى لنا .

فابتسمت إنصاف فى إنشراح ، وقال لها مأمون وهو يضغط على يدها :

ــ والله لا أدرى كيف أشكرك .

فقالت إنصاف فى بساطة :

ــ بهية أختى . يا ليت كنت أستطيع أن أفعل شيئا أكثر مما فعلت .

وصعدا معا إلى حيث كانت أمه ، فألفاها ممدودة على الأرض ، فهتف فى خوف :

ــ أمى ! أمى .

وهرول إليها وحملها بين ذراعيه وهو يقول :

ــ الدكتور .. الدكتور يا إنصاف .

وراحت إنصاف تعدو لاستدعاء الطبيب ، ولمحها صديق وتوفيق وهى تجرى وتتلفت ، فقال لها صديق :

ــ ماذا جرى يا إنصاف ؟

ــ أم مأمون أغمى عليها وأريد أن أستدعى الدكتور حازم حالا .

فقال لها توفيق :

ــ تعالى معى فى سيارتى .

وقال صديق :

ــ سأصعد لأرى ماذا أستطيع أن أفعل حتى يأتى الطبيب .

وانطلقت سيارة توفيق ، وما أسرع أن عادت بالدكتور حازم ، وصعد الجميع مهرولين إلى حيث كانت أم مأمون مسجاة فى فراشها ، وأخذ الدكتور يفحصها فى عناية وقد تعلقت كل العيون بوجهه لتقرأ فيه أثر انفعالاته ، ولم يستطع الدكتور أن يسيطر على سحنته فعبرت عن كل شيء .

وأطرق مأمون فى أسى ، واقتربت منه إنصاف وقالت له :

ــ تشجع .

وسار الدكتور حازم مبتعدا ، ولحق به توفيق وقال له :

ـــ ماذا وجدت يا دكتور ؟

فقال الدكتور حازم :

ـــ قلت لها : « لا تتحركى لا تغادرى فراشك أبدا ، ضحت بنفسها لتزوج بهية ، لن تعيش أكثر من أيام » .

فقال توفيق :

ـــ كان لا بد أن تضحى ، فالأمهات يعرفن أن وظيفتهن ليست إنجاب الأولاد وحسب ، بل يشعرن أن عليهن إسعادهم .

وشرد توفيق قليلا ثم قال :

ـــ إن كنا نريد أن نسعد من نحب فلا بد من التضحية .

— ١٦ —

الظلام منتشر فى أرجاء شقة عبود ، والسكون مسيطر على المكان ، حتى إن تقلبات بهية فى السرير كانت تحدث أصواتا تعكر صفو الهدوء الذى ران على كل شىء . وفتحت بهية عينيها ونظرت إلى عبود الراقد إلى جوارها ، فألفته فى سبات عميق ، فأشفقت عليه وودت فكرة أن تهزه لتوقظه ، بيد أنه لا بد أن ينهض ليتناول عشاءه ويداعبها حتى يعود النوم إلى جفونهما ، فمالت عليه وراحت تمطره بقبلاتها ، فتمطى فى سعادة وفتح عينيه وقد توجت شفتيه بسمة رضا ومحبة . وتظاهر بالنعاس وإن كان يرقبها من بين أهدابه المسبلة ؛ فلما مالت عليه لتعاود تقبيله ، لف ذراعه حولها وضمها إلى صدره فى قوة وأخذ يلثمها هنا وهناك ، فقالت له وهى سعيدة :

ـــ عبود قم . نمنا كثيرا ، والله لا أدرى كيف سننام الليل .

فقال لها وهو لا يزال يضمها إليه :

ـــ كما نمناه فى الليالى السابقة ، لا قلق ولا أرق فى شهر العسل .

وأفلتت من بين ذراعيه فى دل وأضاءت النور . كانت ترتدى قميص نوم من الحرير ، وكان عبود يرقد وقد ظهر صدره العارى وذراعاه العاريتان من الفانيلة

الاسبور ، كان الجو باردا ولكن حرارة الشباب كانت أقوى من برد الشتاء .

وقام عبود من سريره قفزا وراح يتلفت فى الغرفة ، إنها نفس الغرفة التى كان ينام فيها ، إلا أن ستائر أسدلت على نافذتها ، وكانت من نفس القماش الذى نجد به اللحاف .

ـــ واتجه عبود إلى الشباك ، وسارت بهية خلفه ، وراح يراقب القهوة مدة ، ثم التفت إلى بهية وقال :

ـــ سأنزل إلى القهوة .

فقالت فى دلال :

ـــ لا تتأخر لأنى سأسخن العشاء .

ـــ لم أذهب إلى القهوة منذ أن ماتت المرحومة .

وأطرقت بهية ، وساد الصمت برهة ؛ ونظر عبود إليها فألفى موجة من الأسى طافت بها ، فمد يده إليها ورفع ذقنها وهو يقول :

ـــ كلنا لها يا بهية .

ثم طبع على شفتيها قبلة هادئة وقال :

ـــ ناولينى القميص .

وذهبت بهية تعاون زوجها على ارتداء ثيابه ، وكان يمنحها قبلة ثمن كل قطعة تقدمها إليه ، وراحت تمسح له حذاءه فقال لها :

ـــ هذا يستحق أكثر من قبلة .

وضمها إليه فى وجد ، وراح يمسح شعرها بيده ، ويمرر خده على خدها فى حنان ، وهو يحس أنه يحتوى الدنيا كلها بين ذراعيه ، وقال فى صوت رقيق :

ـــ بهية !

ـــ روح بهية .

ـــ أحبك .. بهية .

ـــ عيون بهية .

ـــ أعبدك .. عبود .

ـــ روح عبود .

ـــ إذا بقينا هكذا فسيمر العمر كله دون أن نحس . اذهب إلى القهوة الآن وإلا فلن تخرج الليلة .

فقال وقد هم بخلع الجاكتة :

ـــ ليس من الضرورى أن أذهب إلى القهوة الليلة ، لا هو سنة ولا هو فرض .

فأسرعت إليه تمنعه من خلع الجاكتة ، وقالت :

ـــ اذهب يا حبيبى إلى أصدقائك . الليل طويل .

وقبلته ثم فرت منه بعيدا ، وقالت :

ـــ مع السلامة .

وانطلق عبود سعيدا ، حتى إذا ما بلغ وصيد الباب وقف يتلفت ، ألفى دكان فانوس مغلقا ، ووجد نوافذ شقة إنصاف مغلقة ، إنه لا يذكر أنه رآها مفتوحة مرة ، ولما كان منشرح الصدر ، مشرق النفس ، فلم تذهب به الظنون إلى ما كانت تذهب إليه . وتأهب لينطلق إلى القهوة ، إلا أن عينيه وقعتا على مشهد جعله يثبت فى مكانه ويستشعر شيئا من الضيق ، رأى إنصاف والدكتور حازم خارجين من بيتها وقد التصق كتفه بكتفها ، وهو يتحدث وهى تلتفت إليه بكل حواسها .

ومرت به والدكتور إلى جوارها ، ولم تخجل ولم تضطرب وقالت فى ثبات :

ـــ مساء الخير يا عبود .

وقال فى صوت متهدج :

ـــ مساء الخير .

وظل يتبعهما بنظراته ، إنها تتثنى وتتلوى كأنما كانت تسير على شوك ، واشتد غيظه فزفر فى ضيق وحقد على نفسه وعليها : « مالك وما لها يا عبود ؟ وهل ينتظر غير هذا من فتاة لعوب مثلها ؟ » .

ولمح بهنس قادما فانتظره ، ورآه يلقى السلام على إنصاف وعلى الدكتور ، ولم يكتف بذلك بل كان يتبع إنصاف بنظره بعد أن تجاوزها ، فلما وصل إلى حيث كان عبود قال :

ـــ مساؤنا فل .

ثم عاد ينظر إلى ظهرها ، فتضايق عبود ، وزاد فى ضيقه ذلك الصوت الهامس الذى هجس فى نفسه : لماذا تتضايق يا عبود ؟ أتغار عليها ؟ أبدا أنا أغار للفضيلة ، ما الذى يدعونى لأغار على فاجرة مثلها ؟ » .

والتفت بهنس إلى عبود وقال :

ـــ ما أحلى أن يموت الإنسان بين يديها .

وشرد بهنس لحظة ، ثم قال فى ابتهاج :

ـــ غدا سأكون مريضا فى المستشفى ، سأكون فى رعايتها ، وسأعلق على الباب لافتة مكتوبا عليها « الحالة خطيرة . ممنوع الدخول » .

وضحك بهنس ثم قال وهو ينظر إلى عبود :

ـــ عينى عليك باردة ، مورد الخدين ، هادئ النفس ، مستريح البال .

ثم شم الهواء وقال :

ـــ تنبعث منك رائحة الصابون الممسك . إنى أحسد العرسان ، وأتمنى أن أبيت كل ليلة فى أحضان عروس جديدة . الزواج لذيذ ، أليس كذلك يا عبود ؟

فقال عبود فى انشراح :

ـــ لا أظن ما تتحدث عنه له صلة بالزواج ، إنه أحلام الشيوخ .

ـــ أنا لا أزال فى قوة ابن العشرين .

ثم تنهد وقال :

ـــ ما أحلى الشباب ! ليت الإنسان إذا ما بلغ الثلاثين يعود ثانية إلى العشرين .

فقال عبود وهو يبتسم :

ـــ يقطع العمر ذهابا وإيابا بين العشرين والثلاثين ! جميل !

وأشرفا على القهوة ، ووجدا حسن وفانوس وصديق قد احتلوا مكانهم عند الراديو ، فاتجها إليهم ، ولمحهما فانوس فقال فى صوت عال :

ـــ أهلا عبود . أين كنت يا رجل ؟!

فقال عبود :

— غارقا فى العسل . اللهم وحدك .

ثم حك بهنس جسمه بجسم عبود وقال :

— ليته كان يعدى .

فقال صديق وهو يبتسم :

— لو كان الزواج يعدى لبت كل ليلة يا بهنس مع عريس لتنقل إليك العدوى .

فقال بهنس فى إنكار :

— ومتى أتزوج إن كنت سأمضى عمرى مع المصابين بالزواج ؟

وقال فانوس لعبود :

— كانت العادة قديما ألا تغادر العروس بيت زوجها إلا إذا أنجبت طفلا وحملته على ذراعها . الظاهر يا عبود أنك كنت تنتظر حتى تخرج علينا وقد حملت ابنك على ذراعك !

وضحك فانوس ضحكته المجلجلة ، ثم قطعها فجأة لما لاحظ أن الآخرين قد أصاخوا سمعهم لما كان يذيعه الراديو . كان المذيع يعلن أن وحدات من الجيش الإسرائيلى اخترقت حدود الهدنة فى غزة ، واستخدمت أسلحتها الثقيلة فى هذا الهجوم ، وإنها قتلت عددا من المدنيين فى هذا الهجوم الغادر .

وساد الوجوم ، وأحس كل من فى القهوة بالخطر ، وقال حسن :

— وماذا بعد غزة إلا مصر ؟ يجب ألا نسكت على هذا العدوان أبدا .

قال صديق فى مرارة :

— لو كانت عندنا أسلحة ما كنا نسكت على هذا الاعتداء .

قال حسن .

— ولماذا لا نحصل على الأسلحة ؟

فقال بهنس :

— من أين ؟

قال حسن :

— من الشيطان ، إن كنا نريد أن نحصل على أسلحة حقا ، فلن نعجز عن أن نحصل عليها .

قال فانوس :

— يمكننا أن نحصل عليها من أمريكا وإنجلترا .

قال حسن :

— لن يعطينا الغرب شيئا إلا إذا رضخنا لضغطه ، وانضممنا إلى معسكره .

قال فانوس :

— وهل سيعطينا الشرق أسلحة ونحن نقبض كل يوم على الشيوعيين ؟

قال صديق :

— الغرب يضرب علينا حصارا شديدا لنركع عند أقدامه ، إنى أخاف نتائج هذا الحصار .

فقال حسن فى سخرية :

— لن يستطيعوا أن ينالوا منا .

فقال عبود :

— لعنة الله على أطماع البشر ، وتجار الحرب . لماذا لا يعيش الناس أعمارهم القصيرة فى محبة وسلام ؟

فقال حسن :

— لأنهم بشر .

وقال بهنس :

— أنا مع صديق ، أخشى أن ينجح الغرب فى أن يوهن عزائمنا بتضييق حصاره علينا .

فقال حسن فى إيمان :

— علمتنى تجارب الماضى أن الله لا يريد بمصر شرا ، فكلما اشتدت الأزمات ولاح أن الكارثة وشيكة الوقوع ، امتدت يد الله الرحيمة لتنقذ هذا الشعب الطيب من النتيجة المحتومة . أتذكرون أيام انتشرت الملاريا فى الصعيد .

هل كافحناها يا سيد صديق ؟

فهز صديق رأسه نفيا ، واستمر حسن فى حديثه قال :

ــ والكوليرا التى انتشرت من القرين إلى البلاد المجاورة ، من الذى أوقفها ؟ من الذى قاومها ؟ لم يقاومها أحد . استيقظنا ذات يوم وإذا بالغول المروع والفزع الأكبر ، يرحل عن بلادنا . وروميل ، الثعلب الألمانى ، الذى كان يتقدم نحو الإسكندرية دون مقاومة ، من الذى أوقفه عند العلمين ؟ ولماذا لم يتابع زحفه المظفر ؟ لا لشيء إلا أن الله أراد بنا خيرا .

فقال فانوس :

ــ إذا كان ما تقول حقا ، فلماذا رمانا بالصهيونية ، وترك على حدودنا عدوا خبيثا يهدد أمننا ؟

فقال حسن فى إيمان :

ــ لعله أراد أن يوقظنا لنقوم برسالتنا نحو البشرية .

فقال بهنس :

ــ وما هى الرسالة التى سنقوم بها ؟

فقال حسن :

ــ رسالة المحبة والسلام والإيمان بالإنسان والقيم الروحية .

فقال فانوس ساخرا :

ــ إننا نشكو ضعفنا ، وأنت يا سيد حسن تتحدث عن رسالتنا التى سنؤديها للبشرية .

فاعتدل حسن فى جلسته ، وقال وهو ينظر إلى فانوس :

ــ مثلنا ومثل يهود إسرائيل الآن كمثل النبى ﷺ ويهود المدينة ، كانوا قد عاهدوه على حسن الجوار وعلى أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما داهمها عدو خارجى ؛ بيد أنهم كانوا فى الخفاء يؤلبون عليه الأعداء . خرج زعماؤهم إلى قريش وإلى القبائل العربية يغرونهم بقتال المسلمين واستئصال شأفتهم ووعدوهم بمساعدتهم سرا . واستجاب أعداء المسلمين لدعوة اليهود ، وخرجوا فى جيش

عظيم ليداهموا المدينة ، ويقضوا على محمد ﷺ وأتباعه .

وعلم الرسول بما فعل اليهود ، ففكر فى الأمر ، وأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة . وجاءت الجيوش وحاصرت المدينة ، واشتد الحصار ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا . وبينما بلغت قلوب المسلمين الحناجر راح النبى يتحدث عن فتح اليمن والشام واستيلاء المسلمين على إيوان كسرى . أصحاب العزائم القوية ، يا سيد فانوس ، يذكرون فى لحظات الشدة الأمجاد التى تنتظرهم .

ويهود إسرائيل الآن وقعنا معهم هدنة ، ولكنهم ينقضونها كل يوم ، ويعتدون على خطوط الهدنة ، ويؤلبون علينا دول العالم الغربية والشرقية ، ويدعون ساسة هذه الدول للقضاء علينا ، وإنى على يقين من أن مصير يهود فلسطين سيكون نفس مصير بنى قريظة وبنى النضير الذين خالفوا النبى ﷺ ثم نقضوا عهدهم .

فقال فانوس :

ـــ لو كانت أمريكا قد اكتشفت فى ذلك الوقت ، وكان اليهود قد سيطروا عليها ، لكان من الصعب على المسلمين أن يقضوا على يهود المدينة .

فقال حسن فى ثقة :

ـــ سيأتى الوقت الذى تتحرر فيه أمريكا نفسها من الصهيونية ، فلن يستطيع أنصار الصهيونية أن يخدعوا الشعب الأمريكى إلى الأبد ، ويومها سيكون انتقام الأمريكيين ممن سخروهم لخدمة مآربهم وأطماعهم رهيبا .

فقال بهنس :

ـــ أنت تحلم يا شيخ حسن .

وقال فانوس :

ـــ اليهود أمهر من أن ينكشف أمرهم ؛ قتلوا السيد المسيح ونجحوا فى أن يخفوا عن أعين المسيحيين الذين آمنوا به فعلتهم الشنعاء . مَن مِن المسيحيين يذكر اليوم أن اليهود هم الذين قتلوه ؟ ولكن لا بأس من أن تحلم يا شيخ حسن .

فقال الشيخ حسن :

ـــ الأحلام هى بداية الأعمال الجليلة ، وما أكثر الأحلام التى تحققت .

ونهض عبود مستأذنا ، فقال له فانوس :

ـــ لم نستأنس بك . لماذا كل هذه العجلة ؟

فقال بهنس :

ـــ لا بد أنها كانت تسخن له العشاء ، لو كنت منه ما تركت البيت أبدا .

قال له فانوس :

ـــ لك زوجتان وله زوجة واحدة ، فلماذا تحسده ؟

فقال بهنس وهو يلعق شفتيه ، كأنما وقعت عيناه على طعام شهى :

ـــ زوجة فى الثامنة عشرة بألف زوجة كالتى عندى .

وشرد قليلا ثم قال :

ـــ غدا لن أغادر سريرى .

وهمس فى جوفه هامس : « ولو قبلتنى زوجا فسيكون شهر العسل ما بقى من عمرى » .

وفى البكرة كان بهنس فى المستشفى الأميرى ممدودا فى سرير ، وقد ارتدى جلبابا أبيض ، وحلق ذقنه ومشط شعره ، وغسل أسنانه بالفرشاة وتطيب ، وراح يرقب الباب يتعجل قدومها ويفكر فيما سيقوله ، ولم يندم أبدا على ما فعله ، بل كان سعيدا لأنه استطاع أن يفعل ما قد يفعله أى مراهق شاب جسور : « اللهم احشرنى فى زمرة المراهقين ، وأدم على نعمة المراهقة يا كريم » .

وأقبلت إنصاف فراح يجول بعينيه فى مفاتنها وقد انبسطت أساريره ، وأخذ لسانه يرطب شفتيه ، ولمحته إنصاف فاتجهت إليه وقالت له :

ـــ خيرا ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا .

فقال وهو يتنهد فى هيام :

ـــ قلبى .

ـــ ماذا به ؟

ـــ عرف العشق .

فقالت وهى تبتسم :

ــ هذا ليس جديدا عليه .

فمد يده وقبض على يدها فى حنان وقال :

ــ لم يعرف الحب الذى أحسه هذه المرة من قبل أبدا .

فسحبت يدها من يده وقالت :

ــ دع الهذر وقل لى بماذا تشعر .

ــ بقلبى يدق فى مرح ، بالثمل يسرى فى كل جسمى ، بدم الشباب يتدفق فى عروقى .

ــ بهنس ! اعقل وقل لى : ما الذى جاء بك إلى المستشفى .

ــ إننى جئت لأجد فرصة لأعبر لك عن عواطفى .

فاعتدلت فى وقفتها ، وقالت فى لهجة جادة :

ــ وماذا تريد منى ؟

فقال فى ثبات :

ــ أن نتزوج .

فلم تضطرب ، ووضعت يدها فى وسطها وقالت :

ــ يفتح الله . ؟

ونهض من السرير ودنا منها وقال :

ــ أنا على استعداد لأن ألبى لك كل طلباتك ، اطلبى ما شئت .

فقالت ساخرة :

ــ أنت لا تستطيع أن تلبى لى طلبا واحدا مما أريد .

فقال فى حركة تمثيلية ، كأنما كان فارسا من فرسان العصور الوسطى :

ــ أنا تحت أمرك .

فقالت وهى تبتسم فى استعلاء :

ــ لكى أقبلك زوجا لا بد أن تصغر سنك عشرين سنة ، وأن لا تكون قد عرفت الزواج .

وعز عليه أن ينهزم فقال :

— أنا أصبى من أى شاب من شبان الحى ، أما زوجتى ...
فقاطعته قائلة :
— زوجتاك .
— أما زوجتاى ، فلم يعد بينى وبينهما إلا العشرة الطيبة .
فضحكت ضحكة طليقة ، ثم قالت :
— إذا كان ما بقى بينك وبين زوجتيك العشرة الطيبة ، فلماذا تريد الزواج ؟
— العيب ليس عيبى ، استهلكتا قبل الأوان .
فقالت إنصاف فى جد :
— اسمع يا بهنس ، أنا لن أبيع نفسى لأى رجل يتقدم إلى ، لن أفعل ما يفعله أغلب البنات . لن أتزوج رجلا إلا إذا أحببته وأحسست أنى سأشقى إن عشت بدونه ، إن وجدته فلن يهمنى إن كان طويلا أو قصيرا ، أسمر أو أبيض ، شابا أو شيخا ، فقيرا أو غنيا ، لم يسبق له أن تزوج أو تزوج عشرات المرات . كل ما أريده أن يتفتح له قلبى ، أن تعشقه روحى .
وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قالت إنصاف :
— إن كنت جئت إلى هنا لتفاتحنى فى أمر الزواج حقا ، فوفر وقتك ومالك وانصرف فى أمان .
فنظر إليها فى استعطاف :
— لا أمل ؟
فقالت وهى تدور على عقبيها :
— لا أمل .
وانصرفت وبهنس يرنو إليها ، وقد لاح على وجهه أنه قد شاخ

— ١٧ —

كان مأمون قد تطوع ليكون من الفدائيين ؛ أحس بعد موت أمه وزواج بهية أن روحه أصبحت ملكا له ، وأنه يستطيع أن يهبها لوطنه راضيا ، وللمغامرات التى تملك عليه كل حواسه وتستهويه ، قليلا ما كان يذكر إنصاف وبهية وعبود

وحي المناخ وشارع الأمين في لحظات الحنين ، فقد كان في أغلب الأوقات يحلم باللحظة التي سينطلق فيها خلف التلال والجبال ليقاتل العدو البغيض .

كان منذ الصباح الباكر يتدرب تدريبات عنيفة مع زملائه في صحراء « أبو عجيلة » ، يجري مسافات طويلة ، ويرتقي التلال القريبة والبعيدة ، ويسير على هدى النجوم ، ويلعب بالسونكي ، ويتدرب على استخدام الخنجر ومصارعة العدو والالتحام معه ، فإذا ما انتهى التدريب وتفصد منه العرق ونال منه الجهد ، عاد يجلس بالقرب من البئر ، ويمد بصره إلى القبة الحمراء ، يحلم باليوم الذي سينطلق فيه مع رفاقه إلى قلب إسرائيل .

وأتم مأمون وصحبه تدريبات اجتياز الحواجز ، وقطع الأسلاك الشائكة ، وفتح ثغرات في الجدران ، وإلقاء القنابل على الحصون ، واقتحام الموانع ، وجندلة كل من يعترض سبيل الصواعق الثائرة المزمجرة المنقضة للقضاء على الأعداء ، فتأهبوا ليغوصوا في جوف الصحراء بلا طعام ولا ماء ، ليختبروا قوة احتمالهم وحسن تصرفهم وقدرتهم على انتزاع ما يسكتون به صراخ الجوع ، ويطفئون به وقدة الظمأ ، من الطبيعة الشحيحة القاسية .

وخرجت السرية مع الفجر ، ولا شيء غير الرمال والجبال والسماء ، وعزائم فتية ، وإرادات قوية وطدت النفس على احتمال المكاره ، وقهر قسوة الظروف التي ألقوا بأنفسهم فيها طائعين .

وأشرقت الشمس والفتية يضربون في الصحراء ، رءوسهم شامخة ، وصدورهم العريضة ممتلئة ثقة ، وسواعدهم المفتولة صاعدة هابطة ، في صعودها دفعة إلى الأمام ، وفي هبوطها طي لخطوة قطعت في سبيل بلوغ غرض ، وتأهب لقطع خطوة أخرى نحو هدف ، إنهم ساروا وسيظلون سائرين النهار والليل ، والصيف والشتاء ، وسنة في إثر سنة ، إلى أن يتحقق الأمل الكبير ، أمل الملايين من العرب ، وتعود الأرض الغالية المسلوبة إلى الوطن العربي الجريح .

وارتفعت الشمس والفتية في طريقهم لا يلوون على شيء ، العرق يتصبب منهم ، وأنفاسهم الحارة تلهب عزائمهم فيغذون السير وتطوى الأرض تحت

أقدامهم ، وينتصف النهار وتشتد وطأة الطبيعة عليهم ، بيد أنها لا تنال من الأجسام المفتولة التي كانت في صلابة الصخور .

وبدأ الإحساس بالجوع ، ثم ارتفع صراخ البطون ، فصدرت الأوامر إليهم أن يبحثوا عن طعامهم في الفلاة ، فانتشروا في الصحراء ينقبون عما تجود به ، فراح فريق منهم يأكل الأعشاب ، وراح فريق يأكل الزواحف ، وعثر مأمون على ثعبان فقبض عليه بيد من فولاذ ، ثم فتح فاه وراح يلتهمه .

وجلسوا يستريحون قليلا ، وراح راسم الفتى الفلسطيني الطويل النحيل يقص على رفاقه قصته ، قال :

— كنت في دير يا سين ، أعيش مع أبي وأمي وأخت أصغر مني ، وقامت الحرب بيننا وبين اليهود ، وخرج أبي يجاهد مع المجاهدين ؛ كنت في ذلك الوقت في الثالثة عشرة من عمري ، وطلبت من أبي أن أخرج للقتال مع الرجال ، وكان أبي يميل إلى أن يأخذني معه ، ولكن أمي تشبثت بي ، وقالت إني لا أزال طفلا . فبكيت وقلت لها : إني رجل وواجب علي أن أقاتل أعداء بلادي . ولكن أمي أبت على ذلك على الرغم من أني كنت قد جبت مع أبي كل فلسطين ، وغبت عنها أياما طويلة .

واستشهد أبي ، وبقيت إلى جوار أمي إلى أن دخل اليهود دير ياسين ، وحاولت أنا وأمي وأختي أن نفر من وجه الغزاة السفاحين مع من خرجوا هاربين ، بيد أننا وجدناهم قد أحاطوا بنا ، ومد أحدهم يده ليقبض علي ، فدفعته أمي بعيدا عني ، فإذا بمجرم آخر يطعنها بخنجر معه في قلبها ، فصرخت صرخة مفزوعة ثم انهارت ، فأطلقت ساقي للريح وأنا مرعوب ، وكان يزيد في رعبي الجثث الملقاة في طريقي ، البطون مبقورة والوجوه مشوهة والدماء تسيل . ولحقت بفلول الهاربين من طغيان المعتدين ، وصرت لاجئا من اللاجئين .

وصمت راسم ولاح في وجهه غيظ وقهر ومرارة ، وقال له مأمون :

— وأختك ؟

— لا أدري ما حل بها ، أغلب الظن أنهم قتلوها .

قال مأمون :

— ما الذى يجنونه من قتل طفلة صغيرة ؟

— كان هدفهم إلقاء الرعب فى قلوب الفلسطينيين ليخرجوا من ديارهم هاربين .

وساد الصمت برهة ، ثم قال راسم :

— إن صرخة أمى لا تزال تدوى فى أذنى على الرغم من انقضاء سبع سنين ، وجثث الضحايا التى رأيتها بعينى تصرخ بى ليل نهار أن أثأر لها .. متى نبدأ العمل ؟!

فقال له مأمون :

— صبرا يا راسم .

— إنى أعيش لأمل واحد : أن أدخل تل أبيب ، وأن أعتلى أعلى سقف فيها ، وأن أرفع وجهى إلى السماء وأصيح : « نامى يا أمى قريرة العين ، فاليوم ثأرنا لك ولكل الشهداء ، وعدنا إلى فلسطين » .

ودوى هتافه فى الصحراء ، أخذته حماسته فصاح دون شعور ، والتفتت الجموع إليه ، ثم عاد الصمت وأطبق على الجميع .

واستأنفوا رحلتهم وجدوا فى السير حتى مالت الشمس للغروب ، وراح الظلام يزحف لينشر رداءه الأسود على الصحراء ، وجعلوا يضربون فى الفضاء فى جوف الليل ، وأحسوا العطش ولم يكن معهم ماء ، كان عليهم أن ينتزعوه من جفاف البيد .

وفى منتصف الليل حفر كل فدائى حفرة فى الأرض على هيئة قمع ، ووضع فى نهاية المخروط كوبا ، وغطى الكوب بشبكة ، ثم وضع فوق الشبكة حصى على هيئة هرم قمته مقعرة ، وبعد أن انتهوا من هذا العمل ، أسلموا جنوبهم للرقاد ، فراحوا فى سبات ، إلا أن راسم كان شاخصا إلى السماء ، وكان يتحدث كأنما يروى مشاهد يشاهدها وينفعل بها ، بينما كان مأمون يصغى إليه ، قال راسم :

— كل أحلام يقظتى تدور حول قتال إسرائيل ، ولم أر نفسى مرة إلا وأنا فى قلب إسرائيل أحمل قنابل ألقى بها على الأعداء ، ومدفعا رشاشا أحصد به من كانت كراهيتهم تأكل قلبى ، إنى قتلت بن جوريون وجولدا ماير وموسى ديان

آلاف المرات ، وقد هممت أكثر من مرة أن أندفع وحدى إلى بلادى ، وأنا أحمل مدفعى أجدل كل من أقابله ممن دنسوا الأرض الطاهرة ، ثم ألقى مصرعى وأنا مستريح الضمير.

وظل راسم يتحدث ومأمون يصغى إليه ، إلى أن غلبهما النوم ، فساد المكان هدوء ما كان يعكره إلا صوت الريح ، ورأى راسم فيما يرى النائم أن جحافل من جيوش العرب أطبقت على إسرائيل من كل جانب ، وأن أسراب الطائرات راحت تلقى عليها حممها من السماء ، والأساطيل تقذفها بالموت والدمار ، فهب من نومه وانتصب واقفا وهو يهتف ويصيح فى ثورة وانفعال ، واستيقظ مأمون وخف إليه يضمه إليه ويتوسل إليه أن ينام .

وفى الفجر قبل أن تشرق الشمس ذهب كل منهم إلى الحفرة التى حفرها ، وأزاح الحصى ، ورفع الكوب فإذا به قد امتلأ بالماء ؛ وكان ذلك الماء الذى تجمع من الندى هو كل نصيبهم منه إلى أن يعودوا مرة أخرى إلى بئر « أبو عجيلة » .

ومرت أيام ، وتوطدت الصداقة بين مأمون وراسم ، وقرب بينهما اتفاقهما فى وحدة الهدف . كان راسم لا يعيش إلا للقضاء على إسرائيل ، وكان مأمون يقول : « أمنيتى أن أعيش حتى أرى نهاية إسرائيل ثم أموت » .

ودقت ساعة العمل ، ودب نشاط غريب فى معسكرات الفدائيين ، وراحت السرايا تتأهب لاجتياح إسرائيل لإلقاء الرعب فى قلوب المعتدين ، وللثأر لمن دهمهم بن جوريون بدباباته وأسلحته الثقيلة على حين غرة من سكان غزة.

والتفت راسم إلى مأمون وقال له :

— يعجبنى فى الرئيس أنه لا يسكت على العدوان بل يرد الصاع صاعين .

فقال له مأمون :

— لو تركنا الغرب نحصل على ما نريد من أسلحة ، لكان لنا مع إسرائيل شأن آخر

فقال راسم فى مرارة :

— الغرب خلق إسرائيل لتعيش ، ولن يعاونونا على خنقها ؛ فإن أردنا أن

نقضى عليها فلا بد لنا أن نفهم أن ذلك لن يكون بإرادة الغرب أبدا .

ووقف الضابط يقول لرجال السرية الخارجين تحت إمرته :

— إنا ذاهبون إلى بير سبع لنضرب ضربتنا ثم نعود ، أوامرى ألا تبدر أية بادرة من أحدكم إلا بعد أن أصدر أوامرى بما تفعلون .

وقال راسم لمأمون :

— إنى أعرف كل شبر فى هذه المنطقة .

وانتشرت السرايا تتسلل إلى أهدافها وقد تدثرت بظلام الليل الثقيل ، وراح راسم ومأمون ومن معهما من الرجال يتقدمون فى جرأة ، ويمشون مشى الليوث وأيديهم على خناجرهم ، وقد أرهفت حواسهم ، وراحت عيونهم تجاهد لتخترق سواد الليل البهيم .

وقال راسم فى صوت خافت :

— أمامكم أنابيب المياه .

وتمهل الرجال وتقدموا فى حذر ، حتى لمست أرجلهم الأنابيب ، وانقض راسم عليها يريد أن يتلفها ، فقال له مأمون :

— راسم ! ماذا تفعل ؟

— أقطع الماء عن المستعمرة .

— ليس الآن . دع هذا حتى نعود .

ومد يده وجذبه من كتفه فنهض وتقدم مع المتقدمين وقد تدفقت الدماء حارة فى عروقه ، وأحس عطشا إلى دماء من سفكوا دماء أمه وبقروا بطون الحبالى والأطفال والشيوخ الأبرياء فى دير ياسين .

ورأى نفسه وهو يفر مرعوبا ورجلاه تغوصان فى الدماء ، وعيناه لا تقعان إلا على أجداث الضحايا ، وصيحات الأنين والفزع تدوى فى أذنيه ، فكاد ينسى نفسه ، ويندفع وهو يصيح إلى بصيص النور المنبعث من نار تندلع ألسنتها فى الأفق البعيد ، بيد أنه كبح جماح نفسه وإن كان قلبه يدوى ثائرا بين جنباته .

وهمس مأمون :

ــ أترى ما أرى ؟

وقال راسم :

ــ نعم . إنهم هناك .

وقال الضابط :

ــ خذوا حذركم ، اقتربنا من الهدف . لا يبدأ أحدكم بالعمل قبل أن أشير إشارة الهجوم .

وتقدموا فى حرص شديد وقد كتموا أنفاسهم ، ولاحت لهم خيمة كبيرة ، فأمرهم قائدهم أن يزحفوا على بطونهم وأيديهم على خناجرهم ، ودنوا من الخيمة حتى كادت أنوفهم تلمسها ، والتفتوا جميعا إلى قائدهم وقد حبسوا أنفاسهم ينتظرون إشارة الهجوم . ونفد صبر راسم ، ولم يحتمل أن يتريث وأعداؤه تحت رحمة سلاحه ، فهب واقفا وصاح بصوت جهورى :

ــ الله أكبر . الله أكبر .

واندفع إلى الخيمة كالعاصفة ، ورأى مأمون ما فعل راسم فهب خلفه يشد أزره ويحميه ، واندفع الآخرون خلفهما .

ألقت التكبيرة الرعب فى قلوب اليهود ، وزاد فى ارتباكهم المفاجأة وصيحات المهاجمين والأسلحة البيضاء المشهورة التى كانت تتألق فى النور ، وتتابعت الطعنات ، ودوت أصوات الهلع ، وارتفعت الأنات ، وسقطت الأجسام لترقد رقدتها الأخيرة ، وساد الخيمة سكون لحظة ، وما لبث أن أجهش راسم بالبكاء ، وارتمى على الأرض يقبلها ويعفر وجهه بترابها وينتحب فى حرقة كأنما قد مات للتو أعز من تعلق به قلبه .

ومال مأمون عليه ورفعه بين يديه وضمه إليه ليواسيه ، وصدرت أوامر قائد السرية بالانسحاب السريع ، فقفلوا راجعين فى جنح الليل ، حتى إذا ما بلغوا أنابيب المياه انكب راسم عليها يحطمها فى حنق شديد .

وفى مساء اليوم التالى كان صديق وحسن وعبود وفانوس وبهنس فى القهوة ، يصغون إلى المذيع الذى كان يعلن دخول الفدائيين من سورية والأردن وغزة

ومصر وتغلغلهم فى قلب إسرائيل ، وعودتهم جميعا سالمين .

والتفت صديق إلى حسن وعبود وفانوس وقال :

— أيامكم كلها كفاح وبطولات وأعمال جسام ، لا أعاد الله أيام الذل التى عشناها والاستعمار جاثم على أنفاسنا ، لو كنت من شباب هذا العهد لتمنيت أن أكون من الفدائيين .

وصمت قليلا ثم قال وهو شارد ببصره :

— جميل أن يكون الإنسان بطلا ، وأن يحس أنه يؤدى حق بلاده عليه .

فقال له بهنس :

— أنت بطل يا صديق .. أنت تؤدى للناس خدمات جليلة .

وقال صديق :

— إننا انتهينا . البركة فيكم .

وقال حسن :

— يا ليت تتاح لنا فرصة الكفاح فى سبيل استرداد فلسطين .

قال له فانوس :

— الباب مفتوح على مصراعيه .. تطوع .

ولم يلتفت حسن إلى ما قال فانوس ، وقال :

— إنى أحس خزيا كلما فكرت أن عصابة من اليهود تحدت ملايين العرب واستقرت فى قلب وطنهم ، وأسست لها دولة تناوشهم وتقض مضاجعهم وتذل كبرياءهم . وطالما أحسست أنى أنا وكل إخوانى العرب سبب هذا الهوان ، فلو وضع كل منا يده فى يد أخيه وسرنا إلى إسرائيل على الأقدام لاجتحناها ، ولو سقط منا مليون شهيد فى هذه الموقعة فلن يكون ذلك كثيرا لغسل العار الذى لحقنا . إنى أتمنى أن أموت فى مثل هذه المعركة

والتفت فانوس إلى بهنس وقال له :

— وأنت ؟

فقال بهنس وقد التمعت عيناه ببريق خبيث :

— إنى على استعداد للحرب إذا قيل لنا إن نساء اليهود غنيمة لنا .

فابتسم فانوس ، وقال عبود لبهنس :

— اتق الله .

وقال حسن وهو يبتسم :

— بهنس يعبر عن روح المقاتلين وإن كان يمزح ، قرأت فى كتاب عن نابليون أن حصون فيينا وقفت صامدة أمام جيوشه التى هزمت أوروبا ، فقام نابليون خطيبا فى جنوده ، وقال : « خلف هذه الأسوار أجمل نساء العالم » . وقبل أن ينتهى من خطابه كان الجنود يتسلقون أسوار الحصون .

وقال بهنس :

— لو كنت أحارب إسرائيل ، وقال لى قائدى مثل هذا القول ، لنبشت جدران الحصون بأظافرى .

— ١٨ —

دخل توفيق الورشة ، وأخذ يتلفت باحثا عن عبود فلم يجده ، فعاد من حيث جاء وركب عربة مكشوفة فى القطار الصغير الذى كان ينساب فى الملاحة ، حتى إذا ما بلغ أحواض الملح التى كانت تترامى على مدى البصر قفز من القطار ، وذهب إلى حيث يحب عبود أن يقف ليمد بصره إلى السهول الناصعة البياض لينشرح صدره ويغسل النقاء فؤاده ؛ بيد أنه لم يجده ، فذهب إلى عامل كان يفتح صنابير المياه لتتدفق من الأنابيب إلى الأحواض ، وقال له :

— ألم تر عبود ؟

— كان هنا منذ قليل ، وقد طلب لإصلاح الطاحونة .

فدار توفيق على عقبيه واتجه إلى مكان الطواحين ، فألفى إحدى طواحين الملح معطلة ، فمشى إليها وراح ينقب عن عبود عندها ، فألفاه منهمكا فى إصلاح عطل طرأ على الكهرباء فقال له :

— ماذا وجدت ؟

— تعرى سلك من أسلاك الموتور فسبب ماسا فى الكهرباء ، وقد غطيته .

واتجه عبود ليدير الطاحونة ، ومشى توفيق خلفه وهو يقول :

— أنت بارع يا عبود .

فقال عبود فى بساطة :

— لم أفعل شيئا . كل ما فعلته أنى غطيت سلكا تعرى .

فابتسم توفيق وقال له :

— توقف مصنع فجأة ، واستدعى أصحاب المصنع خبيرا فأشار بعد أن فحص عن الخلل بضرورة فك أجزاء رئيسية فى المصنع والكشف عليها ، مما سينجم عنه توقف الإنتاج شهرا ، فجاءوا بخبير آخر ، وبعد أن اختبر معدات المصنع قال : « أتدفعون لى ألفا من الجنيهات إذا ما أدرت المصنع الآن ؟ فقبل أصحاب المصنع عرضه ، لأنه سينقذ إنتاج شهر على الأقل ، فقام الخبير وبمفك صغير ربط مسمارا واحدا ، وإذا بالمصنع تدب فيه الحياة مرة أخرى . قال له أصحاب المصنع : « أتأخذ ألفا من الجنيهات لأنك ربطت مسمارا ؟! » قال لهم : «إن ربط المسمار لا يساوى أكثر من قرش واحد ، ولكن خبرتى التى جعلتنى أضع أصبعى على الخلل دون أن أفك كل المصنع وأشل إنتاجه ، هى التى تساوى ألفا من الجنيهات» .

وأنت يا عبود لا تستهن بما فعلت ، فخبرتك هى التى قادتك إلى الخلل مباشرة ، فمن يدرى ماذا كان مآل هذه الطاحونة لو أن أحدا غيرك هو الذى جاء لإصلاحها ؟

ورفع عبود سكين الكهرباء بيده ، فإذا بالطاحونة تدور ، ويتأهب عبود ليعود إلى ورشته . وقبل أن يتحرك يخرج توفيق من جيبه بعض النقود ويدفعها إليه وهو يقول :

— هذا نصيبى فيما ندفعه لسليمان .

فقال عبود وهو يأخذ النقود :

— شكرا لك

ولم يكن ذلك ما جاء توفيق من أجله ، إنه جاء ليحدثه فى أمر يهمه ، قال :

ـــ بالأمس نشبت مشادة حامية بين جانيت ومرجان ؛ استأذن منها مرجان أول أمس فى أنه سيضطر إلى أن يتأخر حتى منتصف الليل ، لأن بعض أقاربه جاءوا إلى بور سعيد ، وأنه سيسهر معهم ، فأذنت له . وعاد مرجان فى الثانية صباحا ودخل لينام .

إن عيب مرجان أنه يقص كل ما حدث فى نهاره أثناء نومه ، يحكى كل شيء ، فى أمانة عجيبة ، إنه لا يهمل أدق التفاصيل ، فلما نام راح يتحدث ويغنى ، فقامت جانيت من نومها على غنائه ، وذهبت إليه ، وجعلت تصغى لما يقول فى نومه ، فتيقنت إنه كان يغنى فى فرح .

وفى الصباح لامته على كذبه ، وقالت له : إنه لم يسهر مع أقاربه بل كان يحيى أحد الأفراح ، فأنكر مرجان ذلك ، فاشتد غضب جانيت وعنفته ، فلما ضيقت عليه الخناق قال : أنا حر أفعل ما أشاء . ثم أقسم ألا يعمل عندنا ، وطلب منى حسابه ، ولما كنت لا أحب أن أفرط فيه ، فقد طلبت منه أن يمر على اليوم هنا ليأخذ حسابه . كان هدفى أن تمر العاصفة ، وأن تهدأ نفسه .

قال عبود :

ـــ مرجان شاب طيب ، لن تعوضه .

ـــ هذا رأيى ، فإذا جاءنى فسأبعث به إليك لتعقله وتعيد إليه صوابه .

وعاد عبود إلى ورشته وقد سره أن مرجان لم يستكن لاستبداد جانيت ، وثار لحريته ، وعكف عبود على عمله وهو يصغى إلى ما يدور فى نفسه : « حسنا فعلت يا مرجان . إن هذه السيدة الإنجليزية متعجرفة ، إنى لا أحبها .. تظن أنها من طينة أفضل من طينتنا . إنها لا تصرح بذلك بلسانها ، ولكن كل حركة من حركاتها تؤكد هذه الحقيقة . أنت رجل يا مرجان . ماذا يهمك من أمرها ؟ أنت صاحب موهبة ، تستطيع أن تعيش فى رخاء من صوتك . لماذا تقبل ذل العمل عندها ؟ توفيق رجل طيب ، ولكن ليس معنى ذلك أن تطأطئ رأسك لزوجته الإنجليزية لتدوس على رقبتك . لا يا مرجان ، لن أثنيك عن عزمك ، بل سأحرضك على أن تتشبث بموقفك لتثبت لهذه المتكبرة أن لنا كرامة . توفيق

طلب منك أن تعيد إليه صوابه ، والأمانة تقتضى منك يا عبود أن تكون واسطة خير . أنت مسالم يا عبود وتحب المسالمة . لا . أنا أكره الظلم . لا يمكن أن أعاون على إذلال إنسان ، إن مرجان سيتحرر من عبودية هذه السيدة ، فواجبى أن أعاونه على أن يتحرر . سأقول لتوفيق وأنا مرفوع الرأس : آسف يا سيد توفيق .. مرجان مصمم على رأيه .. لم أستطع إقناعه .. إنه يطلب حسابه . سيكون وجهى جامدا ، أما صدرى فستنتشر فيه ضحكة انتصار عريضة . أنت خبيث يا عبود ، كيف تشمت فى توفيق ؟! فى الرجل الطيب ؟! أنا لا أشمت فيه بل أشمت فى جانيت . ليتك يا توفيق لم ترتكب هذه الحماقة ، ولكن هل يرتكب هذه الحماقة إلا أناس طيبون ؟! » .

وأفاق عبود من شروده على صوت حسن ، فرفع عينيه إليه وقال :

ــ أهلا حسن .

فمد حسن يده إليه ببعض النقود وقال :

ــ نصيبى فيما ندفعه لسليمان .

فقال عبود فى أسى :

ــ مسكين سليمان ! لم يدفع له هذا الشهر أحد غيرك وغير الباشمهندس . اعتذر الآخرون . قالوا إنهم معذورون وإن تكاليف الحياة أصبحت باهظة هذه الأيام .

فقال الشيخ حسن :

ــ كان لا بد أن يحدث هذا ، طال الزمن بينهم وبين زمالة سليمان فانطفأت جذوة الحماسة التى هزت نخوتهم . الإنسان سريع النسيان .

فقال عبود وهو شارد :

ــ ما حدث لسليمان قد يحدث لأى واحد منا .

ــ الإنسان قد يشفق على جريح ، ولكنه لا يحس ألم الجرح إلا إذا أصابه .

وتأهب الشيخ حسن لينصرف ، فقال له عبود :

ــ ما رأيك فى أن نذهب غدا إلى القابوطى نشترى سمكا لنا ولسليمان؟

فقال الشيخ حسن وهو يبتسم :

ــ إنا لا نهنأ بطعام هذه الأيام .

فقال عبود فى دهش :

ـــ لماذا ؟

ـــ فتحية تتوحم . لا تطيق أن ترى لحما أو تشم رائحة السمك .

فقال له عبود فى حماس :

ـــ مبارك . ستصبح أبا .

فقال حسن فى سخرية :

ـــ هذا أرخص إنتاج .

وانصرف حسن وعاد عبود يستأنف عمله وهو يفكر فيما قاله حسن : « أرخص إنتاج ؟! تقول ذلك يا حسن فى استخفاف لأنك ستصبح أبا أما أنا فلا أجرؤ أن أقول ذلك . إنى أريد أن أصبح أبا . أبا لأكثر من ولد . عشت وحيدا لأمى ، ولما ماتت أمى أصبحت مهيض الجناح ، أريد أن تكون لى أسرة .. أسرة كبيرة ، أنا الذى عشت بلا أهل ، بلا سلاح . أريد أن أذوق طعم العزة . لماذا حملت فتحية ولم تحمل بهية ؟ آه لو كانت بهية عاقرا لكنت أتعس الناس . أريد ولدا أشد به أزرى وأحقق حكمة وجودى فى الحياة . ماذا أنتظر ؟ لا بد أن أعرض بهية على طبيب ، والمال ؟ من أين آتى بالمال ؟ أقتر على نفسى ، فابنى أغلى من كل مال . سأطلب من إنصاف أن تذهب مع بهية إلى الطبيب . لا . لا . لن تخرج بهية مع إنصاف أبدا . أين بهية من إنصاف . إنصاف تعرف ولا شك كل وسائل منع الحمل . حرام عليك يا عبود . سينتقم الله منك ولن يمنحك الولد الذى تشتهيه . استغفر الله .. استغفر الله .

سأطلب من بهية أن تعرض نفسها على طبيب ، وإذا ثارت بهية وقالت له : افحص نفسك أولا ؟ أتطعننى فى رجولتى ؟ وأنت ألا تشك فى أنوثتها ؟ ماذا يكون حالى لو ظهر أن العيب فى ، وأنى غير صالح لإنجاب أولاد ؟ يا لطول شقائك يا عبود !

بهية تتمنى الحمل وإنصاف تفزع من الحمل ، ما أعجب الدنيا ! مالك وإنصاف . لماذا تفكر فيها ؟ دع الخلق للخالق واتق الله يا شيخ » .

ورفع رأسه إلى السماء وقال فى ابتهال :

ـــ اللهم سترك . اللهم ارزقنى ذرية صالحة ولا تدعنى فى هذه الدنيا فردا .

ولمح سليمان قادما ، فخف إليه يرحب به ويفر من نفسه ، قال :

ـــ أهلا سليمان .

وقال سليمان فى تقطيب :

ـــ أهلا بك .

ولاحظ عبود القهر فى وجه سليمان وقد زوى ما بين حاجبيه ، فقال له فى رقة :

ـــ مالك ؟

فانفجر سليمان قائلا :

ـــ أعرف أنى أصبحت ثقيلا على قلوبكم .

ـــ لا يا سليمان ، لا تقل هذا .

فقال سليمان وهو مطرق وفى عينيه دموع :

ـــ هذه هى الحقيقة ، تصور يا عبود أن أعز أصدقائى رأونى وأنا قادم الآن فتشاغلوا عنى وتظاهروا بأنهم لم يشعروا بى .

فقال عبود وهو يجاهد ليبدو صوته طبيعيا :

ـــ لا تتصور هذا يا سليمان . هذه أوهام .

ـــ يا ليت ! إنى ذهبت إلى حمدان وسلمت عليه ، فرد على تحيتى فى اقتضاب واستأذن منى فى جفاء . ادعى أن وراءه عملا يريد أن ينجزه . فر منى .. هرب من وجهى .

وتنهد سليمان ثم قال :

ـــ أعرف أنى أصبحت حملا ثقيلا عليكم ، أتظن يا عبود أنى راض عن حالى . إنى حاولت أن أجد عملا ولكنى أخفقت ، فمن ذا الذى يقبل أن يشغل عنده مريضا بالقلب . كتب على أن أظل عالة على الناس إلى أن تنتهى حياتى . ليتنى أموت وأستريح .

فقال عبود فى رقة :

— الشر بعيد .

ونظر سليمان إلى عبود وقال فى مرارة :

— يا ليتنى كنت أتمنى الموت حقا ، إنى أخاف منه . أعلم أن حياتى أصبحت بلا هدف ولا أمل ، ومع ذلك أفزع من الموت . إذا ضاقت نفسى أو اشتدت دقات قلبى أهرع إلى الدواء وأنا مرعوب . لماذا أتشبث بالحياة ؟ لماذا أريد أن أعيش على الرغم مما أصبحت فيه ؟ ما كنت أحسب أن يأتى يوم أقبل هذا الهوان الذى أتمرغ فيه .

وربت عبود على ظهره وقال :

— هون عليك يا سليمان ، واصبر .

وهم سليمان أن ينفجر ، إنه رأى عبود يتجه إلى حيث وضع ملابسه ، فكظم غيظه ومضغ حقده ، فكفى عبود ما حمل اليوم من متاعبه . وأخرج عبود من جيبه ما كان يعطيه له كل شهر ، على الرغم من أن أغلب الزملاء لم يدفعوا أنصبتهم .. رأى أن يتحمل هو بعض الضيق على أن يزيد آلام سليمان .

وأخذ سليمان ما أعطاه عبود وانصرف ، وعاد عبود إلى عمله وشروده : « أعطيته من قوتك وقوت بهية ما بخل به الزملاء . لماذا فعلت هذا ؟ إن استطعت أن تتحمل هذا شهرا فلن تقدر عليه شهرا آخر . لو مرضت بهية لأنفقت ما دفعته له فى الدواء . الحمد لله إننا لم نمرض . ما أعطيته إياه ليس رزقى ، إنه رزقه . من يدرى قد يكون ما يقوله الشيخ حسن صوابا ، لعل الله يرزقنا برزقنا ورزق سليمان . ماذا نستطيع أن نفعل لو انقطع الرزق الذى يأتينا من السماء ؟ كلام جميل ، ولكنك لن تستطيع أن تسير على هذه الحال إلى أن يموت سليمان . يموت سليمان ؟! أتتمنى موته لتوفر لنفسك بعض المال ؟! احفظ مالك ودعه لخالقه وهو كفيل به . وما أدرانى أن رزقى كله قد يذهب إذا بخلت بمالى ؟ ماذا لو أصبحت غدا شريدا طريدا مثل سليمان ؟ إلى من أذهب ومن ذا الذى سيتكفل بى وبزوجتى ؟ أكل هذا الرزق الذى يغمر الدنيا يقصر عن أن يوفر حياة كريمة لحفنة من البائسين الذين طحنتهم قسوة الحياة ؟ . » وسمع وقع أقدام بالقرب منه ،

فأفاق من شروده ، ونظر بعينين مفتوحتين ، بعد أن أطبق الواقع جفنه على عين خياله ، فرأى مرجان مقبلا عليه وهو عابس ، فخف إليه يستقبله ، قال له :

— أقابلت الباشمهندس ؟

فقال مرجان فى صوت متهدج ينم عن الخوف والقلق :

— لا . رأيت أن آتى إليك لأتحدث معك قبل أن أقابله .

— حسنا فعلت ! ولو كنت ذهبت إليه ، لأشار عليك بأن تقابلنى أولا .

واعتدل عبود وقال :

— قال لى الباشمهندس إنك ثرت بالأمس وأقسمت ألا تعمل عندهم وطلبت حسابك . الحق لقد سعدت بما سمعت ، فمن حسن الحظ أن الله وهبك صوتا جميلا تستطيع أن تستغله لتضمن عيشة راضية . هذه الهبة هى التى حررتك من المذلة .. حررتك من أن تتحكم فيك سيدة متغطرسة .. إنى سعيد بالقرار الذى اتخذته يا مرجان .

فأطرق مرجان قليلا ثم قال :

— فكرت طوال الليل فى هذا الذى تقوله يا عبود ، فوجدت أن الناس يدعوننى لإحياء أفراحهم لأنى لا أتخذ على غنائى أجرا ، فلو طلبت منهم ثمنا فسيعرضون عنى ، وقد أموت من الجوع .

فأحس عبود كأن يدا قوية تحاول أن تكتم أنفاسه ، ولكنه لم يشأ أن يستسلم لها فقال :

— صوتك يا مرجان يدر عليك ذهبا . لا تخف .

— بعد أن ثرت ثورتى وأقسمت ألا أعمل عندهم ، فكرت فى أمرى فكدت أموت من الخوف ، ماذا يكون حالى لو أعرض الناس عنى ولم يدعونى لإحياء أفراحهم ؟ سأموت جوعا .

— تعمل فى بيت آخر ما كنت تعمله فى بيت جانيت .

فقال مرجان وهو مطرق :

— من تعرفه خير ممن لا تعرفه . إنى عملت فى هذا البيت من سنين وقد

ألفت من فيه وألفونى ، لذلك استقر رأيى بعد طول تفكير أن آتى إليك لتصلح ما بينى وبين الباشمهندس .

وأحس عبود مرارة ، حتى من فى يده سلاح يواجه به الحياة لا يستطيع أن يتحرر من عبوديته ، من خوفه ، من أسر بطنه ، فقال :

— قابلنى الباشمهندس هذا الصباح وأخبرنى بما كان بينك وبين زوجته بالأمس ، وطلب منى أن أثنيك عن عزمك ، سأقول له إنى قابلتك مصادفة ، وإنى بعد إلحاح شديد نجحت فى أن أقنعك بأن تعود إليهم ، فلو ذهبنا نطلب الصفح فسيهون شأنك . إذا كنت ستعود فلا بد أن تعود مرفوع الرأس .

وتأثر مرجان وأراد أن يعبر عن عواطفه ، فضم عبود إليه وقبله ، وقال له عبود :

— لا تضعف ولا تخف وأمل شروطك ، وسيقبل منك كل ما تقول . هيا نقابل الباشمهندس .

وسارا إلى مكتب توفيق ، وقبل أن يدخلا إليه قال عبود فى أسى :

— كلنا عبيد بطوننا .

— ١٩ —

كان وليمز فى النادى وحده ، ينظر إلى قرص الشمس القرمزى الذى كان يغوص فى البحر وتداعب وجهه نسمات الأصيل . ولم تنعش روحه مداعبات الهواء ، ولا الخضرة الزاهية ، ولا الزهور المتفتحة ، ولا سحر الطبيعة الأخاذ الذى أضفى جلاله على الشاطئ والماء والسماء ، فقد كان منحرف المزاج ، يفكر فى السنين الغامضة المجهولة الباقية فى حياته .

وظل يرقب الشمس الغاربة ، وإذا بصوت ساخر يرن فى جوفه ، « الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس » ولوى شفته فى امتعاض وزوى ما بين حاجبيه ، وأخرج غليونه من جيبه ووضع فيه الدخان ، ثم أطبق عليه شفتيه وشرد .

كانت الهند جوهرة التاج البريطانى وقد نالت استقلالها وقطعت قطعة غالية من إمبراطوريتنا ، وكان تساهل المحافظين هو السبب . وفى إيران أذلنا مصدق . ذلك الشيخ المتهدم الذى تجرى دموعه غزيرة لأى سبب . وفى العراق لنا أصدقاء ولكن هؤلاء الأصدقاء عجزوا عن أن يربطوا الدول العربية فى حلف بغداد . حتى الأردن التى يحكمها جلوب باشا رفضت أن تدخل هذا الحلف . واستقل السودان . وإن هى إلا شهور حتى نخرج من مصر . من ذا الذى أقر هذا الهوان؟ لماذا نترك هذه البلاد ؟ هنا فى مصر يكمن الخطر الأكبر . ليت ساستنا يعرفون . آه لو عرفوا لنقضوا المعاهدة التى وقعوها ، ولتشبثوا بأظافرهم فى هذه الأرض . سنفقد كل شىء إذا خرجنا من هنا ، سنفقد الشرق وبترول الشرق ، ومواقعنا الاستراتيجية . إن الرجل لا يخفى نواياه . قال : بترول الشرق للشرق ، فلماذا لا نريد أن نفهم ، وها هو ذا قد كشف عن هواه واشترى من أعدائنا السلاح .

لو سمع ساستنا رأيى ما غادروا أبدا هذه البلاد ، فجلاؤنا عن مصر سيكون الضربة القاضية على إمبراطوريتنا . إنى قلت ذلك مرات ولكن لم يستمعوا النصحى .

بعد شهور سأرحل إلى لندن ، ولن أكون أكثر من ضابط متقاعد يمضى وقته فى قراءة الصحف والمجلات ، وتمضية ليالى الشتاء الباردة أمام المدفئة . أنا ويمز الذى كنت حركة دائبة ، وكنت هنا ملء السمع والبصر ، سأصبح شيئا مهملا ، لا يحس وجوده أحد ، وقد أموت وحيدا وتنقضى أيام قبل أن يكتشف موتى إنسان . ماأبشع هذا .

كانت أيامى هنا كلها سعادة ، كنت صاحب كلمة وصولة ونفوذ . الجميع يعملون لى ألف حساب ، الأبواب تفتح فى وجهى ، لا أستقبل إلا بالابتسامات والانحناءات .. ويمز جاء .. ويمز قال .. ويمز فعل ، وما كنت أفعل شيئا إلا لتوطيد أقدام بلادى ، وإذا بالحمقى يرضون بالجلاء !

لم تكن حياتى هنا فى أمان ، هددت بالقتل أكثر من مرة ، وكنت هدفا للفدائيين الذين اجتاحوا معسكرات القناة ، وجاءت أيام كنت أعيش فيها على فوهة بركان ، ولكننى كنت سعيدا لأنى كنت شيئا هاما ، وكانت لحياتى قيمة .

ترى ماذا ستكون قيمة حياتى بعد أن أعود إلى بلادى؟ سأعيش فى سلام. ألا سحقا لهذا السلام! ليتنى أقتل هذا وأنا فى أوج مجدى على أن أموت فى بيتى كما تموت الكلاب .

لو كان العرب يأتون إلى بلادى سائحين لاشتغلت لهم مترجما ، وإلا ماذا سأفعل بهذه اللغة التى أنفقت عمرى فى تعلمها؟ لقد قوض الساسة الجهلاء إمبراطوريتنا ، وقوضوا معها كل آمالى .

ودار بعينيه فى المكان حتى استقرتا على مبنى شركة القناة ، فإذا بها تبدو له كبارقة ضوء فى الظلام . هنا ياوليمز مستقبلك . إذا كانت جيوشنا ستغادر هذه البلاد ، فستبقى هذه الشركة . يجب أن تجد لك مكانا بها ، حتى إذا ما خرجت مع الخارجين عدت إلى حيث يعرفون فضلك ، واستأنفت خدمة بلادك .

هذه الشركة لن يدوم عمرها أكثر من ثلاثة عشر عاما ، سينتهى امتيازها بعدها ، ولن يقبل الرجل الواقف لنا بالمرصاد أن يجدد الامتياز . لا بد أن نضغط عليه حتى يقبل تجديد الامتياز مائة سنة أخرى . أنت واهم ياوليمز ، لن يرضخ لضغطنا . لا بأس! أمامى ثلاثة عشر عاما ، من يدرى ماذا سيجرى فيها من أحداث . إننا مشهورون بأنا نعرف كيف نستغل الظروف لمصلحتنا . ستتاح لنا أكثر من فرصة لتقليم أظافره ، وفرض سلطاننا . إن كان ساستنا غافلين اليوم فسيستيقظون غدا .. بعد فوات الأوان . لا . لا ياوليمز لا تكن متشائما . إننا نفقد المعارك فى أولها ثم يعقد لنا النصر النهائى . كان هذا هو حالنا مع نابليون ومع هتلر... هزمنا نابليون بأموال اليهود ونفوذهم . وهزمنا هتلر بأموال اليهود ونفوذهم ، وإننا نحتضن اليوم إسرائيل لنضمن أموال اليهود ونفوذهم .

إننا نمقت اليهود فى بلادنا ، ولكن السياسة تفرض علينا أن نصادقهم فى الخارج ، أن نرتبط معهم بمعاهدات لتحقيق مصالحنا ، ما دامت أهدافنا واحدة .

وغابت الشمس ، وترامى إلى سمعه صوت مؤذن يؤذن بالمغرب ، فأطرق يصغى . يا طالما سمع أصوات المؤذنين ، بيد أن الصوت الآتى من بعيد حرك أفكاره ، وجعله يتساءل : لماذا اندثرت حضارات وماتت فلسفات وتلاشت

مبادئ وأفكار ، وبقيت نواقيس الصوامع والكنائس وأصوات المؤذنين ؟ ربما لأن نفوس البشر تهوى التطلع إلى فوق ، بينما حضارات الشعوب وفلسفات المتفلسفين تحاول أن تشدهم إلى الأرض ، وقد تمرغهم فى أوحالها .

وتذكر ليلة أن كان فى الخندق فى الحرب الطاحنة التى نشبت بينهم وبين النازية والفاشية ، وكان يغوص فى الوحل ، والمطر يهطل من السماء ، وأنوار القذائف تضيء فى الظلام كالبرق الخاطف ، وهدير أصوات الانفجارات يخلع القلوب ويلقى بها إلى الحناجر ، وقد تركز كل الوجود فى كيانه ، فى أنفاسه التى تتردد بين جنبيه ، وظل يتلفت فى رعب وما كان يعرف من أين يطلب العون ، وقد شغل كل من فى الميدان بنفسه . فشخص ببصره إلى السماء ، وصلى صلاة خاطفة ولكنها كانت منبعثة من سويداء فؤاده . إنه لا يذكر أنه صلى صلاة خاشعة مثلها فى حياته ، أحس فى تلك اللحظة أن روحه اتصلت بقوة عظيمة ، نشرت الطمأنينة فى أرجائه ، وأنزلت السكينة على قلبه .

ولمح توفيق وجانيت قادمين فنهض يستقبلهما مرحبا ، وكان صادقا فى التعبير عن شعوره فقد أتيحت له فرصة أن يفر من وحدته ، وأن يعيش مع أناس يرتاح إليهم ويحس متعة فى محادثتهم وإن اختلفت الزاوية التى ينظر منها كل منهم إلى الحياة .

كان يحب توفيق ويحترم جانيت وإن كان فى قرارة نفسه يخشاها ، فقد كانت فى نظره أشبه بجندى كان فى معسكره واطلع على مواطن الضعف عنده ثم انضم إلى المعسكر الآخر .

وقال توفيق فى دهش :

— ما الذى جاء بك إلى هنا الليلة ؟

قال وليمز وهو يبتسم :

— أردت أن أكون فى رفقة نفسى ، لتتاح لى فرصة محادثة رجل ذكى .

قالت جانيت وهى تبتسم :

— قالها برناردشو ، أليس كذلك ؟

فقال وليمز :

ـــ قالها كل الأذكياء ، وإن كان برناردشو سجلها فى بعض أقواله .

قال توفيق :

ـــ آسف إن كنت قد حرمتك من لذة الحديث مع ذلك الذكى .

ـــ أبدا . كنت قد بدأت أسأم صحبته ، حتى الأذكياء يبعثون على الملل إن طالت صحبتهم .

فقال توفيق مازحا :

ـــ إنى فى صحبة غبى مذ ولدت إلى أن أموت ، ولم أسأم صحبته .

فقال وليمز :

ـــ لولا دخول الأذكياء من البشر بينك وبينه لأزهقت روحه .

ثم التفت إلى جانيت وقال :

ـــ إن دخول جانيت فى حياة إنسان خليق بأن يضفى عليها بهجة .

فقالت جانيت فى سرور :

ـــ شكرا لك .

وقال وليمز فى بساطة :

ـــ نظرة من عينيك الجميلتين تملأ القلوب بالسعادة .

فقالت جانيت فى فرح :

ـــ إنها مجاملة أن يتغزل إنسان فى عينى بعد أن رأى عيون المصريات الجميلة !

فقال توفيق :

ـــ بل إنها جرأة أن يتغزل رجل ويتغنى بجمال امرأة وزوجها الشرقى قاعد يسمع . ألا تخشى أن تثور كرامتى وأعد ذلك إهانة لرجولتى ، فأدعوك للمبارزة ؟!

فابتسمت جانيت وقالت :

ـــ جميل أن يتبارز الرجال من أجلى .

وقال وليمز وهو يضحك :

ـــ إنه لمما يسعد روحى أن أموت فى سبيلك .

وقالت جانيت فى مرح :

— ما أجمل أيام الفروسية ! الفارس يخطف حبيبته ويعدو بحصانه الأشهب ، والفرسان يجرون فى أثره ، ثم تحتدم المعارك بين الرجال من أجل امرأة.

فقال توفيق مازحا :

— كان للمرأة قيمة فى تلك الأيام .

ولم تشأ جانيت أن تفسد أحلامها فلم تعلق على ما قال ، وقالت وهى شاردة :

— وما أكثر ما حلمت بأن توفيق قد جاء على حصانه العربى . وقد ارتدى زى الفرسان العرب وخطفنى ، فقفز مستر جونس على حصانه وراح يعدو خلفنا لينتزعنى منه .

فقال توفيق فى إنكار :

— مستر جونس ! رجل التأمين الأصلع ؟! كيف أمكن لخيالك أن يتصور ذلك المغرور فارسا ؟ خيالك خصيب ولا شك !

واستمرت جانيت فى حديثها ، قالت :

— ولحق بنا الفارس جونس وشهر سيفه ، فأخرج توفيق سيفه من غمده وراح يبارز جونس بيد، ويحملنى باليد الأخرى ، وإن هى إلا لحظات حتى طعن توفيق جونس طعنة نفذت من قلبه لتخرج من ظهره .

فقال توفيق فى امتعاض :

— لا . لا . إنى أرفض أن أبارز هذا الجونس حتى فى الخيال .

فقال وليمز :

— لماذا ؟

فقال توفيق :

— إنه كان وضيعا فى كل تصرفاته .

وقالت جانيت :

— توفيق يكرهه مذ دخل علينا ونحن نتناول غداءنا يوم أعلن استقلال الهند ، وضرب المائدة بقبضته وقال : كيف فرط الساسة الأغبياء فى الهند ، الهند لنا ، سفكت دماء آبائنا فى سبيلها . كيف نتخلى عنها ؟ كيف نتركها ؟ كيف

فعل ذلك ساستنا الحمقى ؟

وأحس وليمز تعاطفنا مع جونس فكأنما كان يعبر عن حقيقة شعوره ، فقد بدأت شمس الإمبراطورية تغيب منذ غابت عن الهند ، وقال توفيق :

— كنت أكرهه قبل ذلك . كانت كل تصرفاته معي بغيضة ، كان يحاول أن يدخل الحمام قبلي ، وكان يتعمد أن يغيب فيه ليغيظني ، وإذا ما ترك أي من النزلاء قذارة في الحمام أو في أي مكان كان يسرع باتهامي ومهاجمتي على الملأ ، كان يسره أن ينال مني وأن يذل كبريائي ، كان يصور له وهمه وغروره أنه بإذلالي يذل كل الشعوب التي وضعها الله في حوزته .

فقال له وليمز :

— لعل إحساسك بالغربة هو الذي ضخم شعور كراهيته لك .

— أبدا . كنت أتعاطف مع الإنجليز البسطاء من العمال والفلاحين ، وكنت أحترم الإنجليز المثقفين ، إن نكبة بريطانيا في أنصاف العوام الذين لا يفهمون حقيقة الأمور ، ثم يريدون بغرورهم أن يفرضوا آراءهم الخاطئة على سياسة الدولة .

وساد الصمت برهة ، لم يشأ وليمز أن يستمر ذلك الحديث فما جاء لتزجية الوقت ، بل جاء متعمدا ليخوض معهم في موضوع خطير شغل باله وحرك كل مخاوفه ، وأراد أن يدير دفة الحديث إلى الوجهة التي يريدها ، فراح يديم النظر إلى العلم المصري المرفوع على النادي مدة ، ثم قال دون أن يحيد بصره عنه :

— ألا ترى شيئا جديدا في هذا العلم يا توفيق ؟

فنظر توفيق إلى العلم نظرة فاحصة ثم قال :

— لا .

والتفت وليمز إلى جانيت وقال :

— وأنت ؟

وفطنت جانيت إلى أنه يريد أن يقول شيئا ، فقالت :

— أني لا أرى فيه شيئا جديدا ، فماذا ترى أنت ؟

فقال وليمز وهو يهز رأسه :

ــ أرى علما أحمر يتوسطه منجل ومطرقة .

ونظر إليه توفيق فى ضيق ، وقالت جانيت :

ــ تقصد صفقة الأسلحة التشيكية ؟

فهز وليمز رأسه أن نعم وقال :

ــ كشف الحياد عن حقيقة مذهبه . كان حيادا خداعا يحاول أن يخفى ثوبه الأحمر .

فقال توفيق فى حماسة :

ــ ما كنا شيوعيين ولن نكون فى يوم من الأيام شيوعيين .

وقال وليمز فى سخرية :

ــ بهذه الصفقة فتحتم الأبواب للشيوعية لتتدفق إلى المنطقة . إنها دعوة منكم غير كريمة .

فقالت جانيت :

ــ أنت تعلم ياوليمز أنهم لم يدعوا الروس إلى المنطقة ، بل أنتم الذين دعوتموهم إليها يوم أشركتموهم معكم فى ضمان مستقبل إسرائيل . إنهم هنا سواء أتمت صفقة الأسلحة أم لم تتم .

ــ هذه الصفقة هى التى فتحت لهم الأبواب على مصاريعها ؛ سيعرفون كيف يضغطون عليكم لينالوا كل ما يريدون .

قالت جانيت :

ــ وماذا كنت تنتظر منهم أن يفعلوا وقد منعتم عنهم السلاح وأغدقتم به على إسرائيل ؟

ــ أنا لم نعط الإسرائيلين سلاحا .

قالت جانيت :

ــ أعطتها فرنسا طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة .

فقال وليمز فى ضيق :

— أتصدقين ما يذيعه عبد الناصر ؟

— أنا واثقة من أن كل ما يقوله صحيح .

وقال توفيق فى سخرية :

— وماذا أعطيتم لنا ؟

فقال ويلز فى زهو :

— أربعين دبابة .

— بلا ذخيرة ، بلا طلقة واحدة .

وقال ويلز :

— وكنا على استعداد لنرسل لكم بعثة بريطانية لتدريب جيشكم .

فضحك توفيق ضحكة ساخرة عالية حتى إن جانيت رمقته فى دهش ، وقال :

— قد أكون أعلم الناس بما تفعله بعثاتكم العسكرية . كنت مكلفا للعمل بالقوات الجوية أثناء حرب فلسطين ، وكانت البعثة البريطانية تعمل هناك إلى ما قبل قيام حرب فلسطين بشهور قلائل . لقد تركت بعثتكم القوات الجوية وليس بها إلا طائرة واحدة صالحة للاستعمال ، وكنا نذهب إلى المخازن للبحث عن قطع الغيار لإصلاح الطائرات ، فكنا نجد فى المخازن التى سهرت على تكوينها بعثتكم عجبا ، كنا نجد أن البعثة طلبت تموين المخازن بستة وثلاثين جناحا أيسر ، بينما لم تطلب إلا جناح طائرة أيمن واحدا . وكانت تكدس المخازن بالأجزاء الكبيرة التى لا تتلف أبدا ، ولا توصى باستيراد القطع الصغيرة سريعة التلف . تصور يا مستر ويلز أن ثلاثين طائرة كانت معطلة ، لأن المخازن لم يكن بها حلقات صغيرة من المطاط تمنع تسرب الزيت ، وأظن أن دهشتك ستزيد لو علمت أن ثمن الحلقة الواحدة لم يكن ليصل إلى ثلاثة قروش ! كانت البعثة البريطانية تستورد الطباشير والأقماع الصفيح والكبريت من إنجلترا ، كانت وظيفتها أن تستنفد ميزانية وزارة الحربية دون أن تكون جيشا .

فقال ويلز فى ضيق :

— أنت تبالغ يا توفيق .

فقال توفيق فى حماسة :

— أقسم أن ما أقوله إن هو إلا بعض مارأيته أثناء عملى بالقوات الجوية . لقد بعنا فى المزاد أطنانا من قطع الغيار بعد أن ثبت أن هذه الأطنان لا يرجى منها فائدة ، وأنها لا تساوى الفراغ الذى تشغله فى المخازن .

وقال وليمز :

— أتظن أن الروس سيعطونكم ذخائر كافية للأسلحة التى ستتسلمونها ؟

فقال توفيق وهو يبتسم :

— المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، وأنا واثق أننا مؤمنون .

وقال وليمز :

— هذه الصفقة لن تمر بخير .

فقالت جانيت :

— لماذا ؟

قال وليمز :

— لا إنجلترا ولا أمريكا ولا أية دولة من دول الغرب ستسمح بأن تنتشر الشيوعية فى هذه المنطقة .

قالت جانيت :

— ألم يتحالف تشرشل مع روسيا فى الحرب العالمية الثانية ، ألم يقل إنه على استعداد ليتحالف مع الشيطان ، إن كان فى ذلك التحالف نصر للديمقراطية؟ لماذا لم يقل أحد فى ذلك الوقت إن تشرشل فتح أبواب إنجلترا للشيوعية ؟ إن عبد الناصر لم يتحالف مع الروس، إنه وقع صفقة مع تشيكوسلوفاكيا ، سيأخذ أسلحة وسيسدد ثمنها قطنا . كان لا بد له أن يتسلح ما دامت إسرائيل تتسلح ، اشترى بالقطن الذى أعرض الغرب عن شرائه ليخنق به مصر اقتصاديا ، أسلحة يحمى بها بلاده من أى عدوان .

ونظر إليها وليمز نظرة فيها تأنيب وقال :

— أنت أكثر حماسة لمصر يا جانيت من كثير من المصريين .

فقالت فى هدوء دون أن تنفعل :

ـــ قد يكون ذلك صحيحا لأنى أحس الخطر المحدق بهذه البلاد أكثر من أهلها ، إنى أعرف حقيقة ما يكنه الغرب للشرق ، وأعرف الدوافع الحقيقية للنزاع الناشب بيننا . وأظن أنك تعلم يامستر وليمز أن أولادى سيكونون مصريين ، وأنى أحب أن يعيش أولادى فى أمن وسلام .

وهز وليمز رأسه وابتسم ابتسامة تقطر مرارة ، ثم قال :

ـــ لن تمر هذه الصفقة بسلام . صبرا وسنرى .

— ٢٠ —

كانوا جالسين فى القهوة يتسامرون ، الأغانى تنبعث من الراديو ولا أحد يصغى إليها ، والأصوات تختلط وتمتزج ، والمكان قد عبق بالدخان المتصاعد من السجاير والنراجيل ، وراح بهنس يروى كعادته بعض النوادر التى وقعت فى القسم فى أثناء النهار ، وعبود وحسن وصديق يصغون إليه ، قال :

ـــ أفرج اليوم عن سجين فجاء إلى لأستوفى له اجراءات الإفراج عنه ، فأخذ ينظر إلى ثم بكى . قلت له : « لماذا تبكى وقد أفرج عنك ؟ » قال : « أبكى من أجلك لأنك ستظل سجينا هنا حتى تموت » .

وضحك بهنس ضحكته الطليقة ، وقال عبود :

ـــ الرجل على حق ، كلنا مساجين فى هذه الدنيا ، أنا سجين ورشتى وبهنس سجين مكتبه فى القسم .

ولمح فانوس قادما فقال :

ـــ وفانوس سجين دكانه .

ووصل فانوس إلى حيث كانوا جالسين فقال :

ـــ ليلتكم سعيدة .

فقال حسن :

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وجلس فانوس وهو يبتسم ، ثم قال :

ـــ لم تعد هناك ضرورة لاستمرارك فى التدريب على ضرب النار يا شيخ حسن . سيتم الصلح بين العرب وإسرائيل .

ـــ كلام فارغ .

ـــ قبل العرب أن يتفاوضوا فى الصلح على أساس قرارات الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .

فقال حسن :

ـــ قبول العرب لهذا المبدأ ليس معناه أن الصلح سيتم ، لن تقبل إسرائيل أن تتنازل عن شبر من الأرض التى احتلتها طائعة . لا بد من أن تنتزع منها بالحرب .

قال فانوس :

ـــ وإن قبلت إسرائيل ؟

قال بهنس :

ـــ سنكسب منها أراض دون قتال .

قال حسن .

ـــ لن تقبل إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة أبدا ، أنتم لا تعرفون اليهود .

قال صديق :

ـــ ولماذا يشغل الناس أنفسهم بأمور من المعروف أنها لن تتم ؟

فقال حسن :

ـــ مناورات سياسية ، العرب يريدون أن يكشفوا للعالم حقيقة نوايا إسرائيل.

فقال فانوس :

ـــ ربما أراد إيدن أن يكشف للعرب أن جمال عبد الناصر قبل مبدأ المفاوضة مع إسرائيل .

فقال بهنس :

ـــ ولماذا لا تقول إن عبد الناصر أراد أن يكشف إيدن ويورطه فى تصريحات صريحة ، ثم يثبت للعالم أنه لا يستطيع تنفيذها .

والتفت حسن إلى صديق وقال دون مقدمات :

ــ ماذا فعلت فى الخروف ؟

قال صديق :

ــ لم أجد بعد ما تريده . لا داعى للعجلة أمامنا وقت طويل .

وقال بهنس :

ــ وما هى حكاية الخروف ؟

قال صديق فى زهو :

ــ طلب منى حسن أن أشترى له خروفا يذبحه ليوزعه على الفقراء بعد أن تلد فتحية .

فقال بهنس :

ــ وهل فى الدنيا أفقر منا ؟ أنا لا آكل إلا الرأس .

والتفت فانوس إلى عبود ، وقال له :

ــ وأنت . متى ستذبح خروفا ؟ شد حيلك .

فقال بهنس مازحا :

ــ الظاهر أنه لم يعرف بعد طريق الأولاد .

واربد وجه عبود وارتبك واستشعر ضيقا ، وزاد فى ضيقه أنه أحس أن اضطرابه قد بدا على تصرفاته ، فأراد أن يخفى ما يعتمل فى جوفه فابتسم ، وفطن إلى أن ابتسامته باهتة مضطربة قلقة فراح يعبث فى أصابعه ويتلفت ليبعد وجهه عن النظرات التى صوبت إليه .

وقال بهنس لصديق :

ــ سأكلفك بأن تشترى لى خروفا مادمت خبيرا فى الخراف ، لما أعثر على زوجة جديدة .

وقال فانوس :

ــ الحصول على زوجة اليوم أيسر من الحصول على خروف .

فقال بهنس وهو يضحك ويمد يده ويمسك كتف فانوس :

ــ أبدا ، لو أردنا خروفا لمددنا يدنا وأخذناه ، أما الزوجة فقد لا نحصل

عليها حتى لو فتحنا لها قلوبنا .

وشرد بهنس لحظة ، تذكر فيها يوم ذهب إلى المستشفى وادعى المرض ليعرض على إنصاف أن تكون له زوجة ، فطافت بوجهه سحابة من الكدر ، آه لو قبلته إنصاف زوجا لساق إليها ما تشاء من الخراف . وأراد أن يخرج من الحزن الذى كان يغمره فقال :

ـــ نذر على لو وجدت الزوجة التى أتمناها لأذبحنك يا فانوس ليلة فرحى .

وضحك بهنس ضحكته المجلجلة ، وقال حسن وهو يبتسم :

ـــ أمرك لله يا فانوس ، من سوء حظك أن بهنس ممن يوفون بالنذر .

وأراد فانوس أن يجاريهم فى مزاحهم فقال :

ـــ لو كان ولا بد أن أذبح ، فإنى أفضل أن أذبح يوم تلد بهية .

وغضب عبود ، ظن أنه يريد أن يعرض به وهم بأن ينفجر فيه ، بيد أنه كظم غيظه وجاهد ليبتسم تلك الابتسامة التى تتأرجح على شفتيه لتخفى حقيقة ما يعتمل فى جوفه من انفعالات .

وأراد أن يفر من حديث الليلة الذى أخذ يدور حول أشياء تنغص حياته ، إنه بكل جوارحه يتمنى لو أن بهية قد حملت ، فتأخير حملها قد خدش كبرياءه ونثر غبارا على رجولته ، فمال على حسن وقال له هامسا :

ـــ مضت خمسة أيام من الشهر ولم ندفع لسليمان ما ندفعه له أول كل شهر .

فقال حسن بصوت عال :

ـــ حرام على أن أحرم نفسى وأحرم بيتى من ثمرة عرقى ، لأعطى عاطلا ليسكر بما أتصدق به عليه .

وضايق عبود أن حسن أعلن رفضه على الملأ ، فقال له :

ـــ أنت تعلم أنه أرغم على ترك عمله ، لم يسع أبدا ليكون عاطلا .

فقال حسن فى سخرية :

ـــ وما الذى أرغمه على أن يسكر ؟ أنا لا أعطى مالى أبدا لمن ينفقه فى المعاصى .

فقال له عبود :

— ألم تكن تقول يا حسن إن ما نعطيه له ليس رزقنا ، بل رزقه ساقه الله إليه على أيدينا .

فقال حسن فى حماس :

— كان رزقه قبل أن يكفر بنعمة الله ، فلما كفر بها منعه الله عنه .

فقال له عبود :

— ولماذا لا يكون رزقه وقد بخلنا به عليه ؟

— إننا لم نبخل به ، ولكنه هو الذى كفر بنعمة الله عليه . لماذا يسكر ؟ لماذا باع نفسه للشيطان ؟

فقال فانوس :

— لعله يريد أن يهرب مما يقاسيه .

فقال حسن :

— لو كان مؤمنا ما هرب من مصيره ، بل لتقبله صابرا .

فقال بهنس :

— ما أضعف البشر يا شيخ حسن . ربك أعلم بهم من عباده . إنه غفور رحيم .

فقال الشيخ حسن :

— إنه مع مغفرته ورحمته قد أمرنا بإقامة الحدود ، برجم الزانى وقطع يد السارق وجلد السكير .

فقال عبود :

— علينا أن نعطيه مادمنا نعرف أنه فى حاجة إلى ما نعطيه ، وليس علينا أن نسأله فيم أنفقه .

— إنا لم نسأله ، ولكنه أعلن على الملأ أنه ينفق ما نحرم منه أنفسنا وبيوتنا على المعاصى ، وأنا لا أعين إنسانا على معصية .

فقال عبود :

— علينا أن نعطيه وحسابه على الله .

فقال حسن :

— لن أعطيه شيئا ، وأرجوك ألا تعطيه وأن تنفض يدك منه .

فقال عبود :

— إذا لم نعاونه فسندفعه إلى أن يسرق ، إلى أن يقتل ، إلى أن يصبح مجرما .

فقال حسن :

— إنه سائر فى الطريق .

فقال بهنس :

— أتريد أن تقول يا شيخ حسن إن كل من يسكر يصبح مجرما ؟

فقال حسن فى ثبات :

— أريد أن أقول إن الخمر مفتاح كل جريمة .

فقال فانوس ساخرا :

— لا بد أن بيتي قد امتلأ بالمفاتيح دون أن أدرى .

وقام عبود واستأذن وانصرف وخرج إلى الطريق ، ولم يتجه إلى بيته بل انساب فى الشارع يجد فى السير ، وقد غرق فى التفكير ، فى طريقه إلى بيت سليمان.

ودلف إلى مدخل البيت ، كان الظلام ثقيلا وقد ملأت أنفه روائح عفنة كريهة ، وصعد بعض درجات متهدمة ثم طرق الباب طرقات وانتظر وهو يتفزز من الرائحة ويحاول ألا يملأ بها رئتيه .

ومرت لحظات ثقيلة خيل إليه فيها أن الحشرات والزواحف تتجه إليه من كل الأركان ، وأنها لن تلبث أن تسقط عليه من السقف ، فعاود الطرق على الباب فى شدة بيد أنه لم يسمع لطرقه جوابا ، فخرج هاربا إلى الطريق .

وسار إلى حانة حقيرة قريبة من البيت ، وتقدم إليها فى خطوات مضطربة حتى وقف عند بابها مترددا ، ومد عينيه فرأى سليمان ينهض ويحتضن أحد رفقاء الشراب ثم يقبله ويضحك الآخرون .

وأحس عبود يدا قوية تهصر قلبه ، وامتلأت جوانبه بالشفقة ، ولم يخطر على باله أن يدور على عقبيه وينصرف من حيث جاء ، بل تقدم وانتظر حتى انتهى سليمان من إلقاء ما فى الكأس الموضوعة أمامه فى جوفه ، ثم قال :

— السلام عليكم .

فقال الجميع فى أصوات مخمورة :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . تفضل .

والتفت سليمان ثم قام إليه يحتضنه ويقبله ويقول :

— أهلا عبود . أين كنت يا جميل ؟

وسحبه عبود بعيدا وقال له :

— أنت تقتل نفسك يا سليمان . لماذا تفعل هذا ؟ حرام عليك يا شيخ .

فقال سليمان :

— تعال .. تعال اشرب معنا .

وحاول سليمان أن يجذب عبود ليشرب معه ، ولكن عبود جذبه إليه وقال :

— سليمان ! أنت تضيع نفسك .

وضحك سليمان ضحكة ساخرة وقال :

— كلام جميل . أضيع نفسى . وأين هى نفسى التى أضيعها ؟ ضاعت من زمان يا عبود . ضاعت من يوم أن طردنى الدكتور من الشركة . لماذا طردنى ؟ خاف أن أموت .. لقد مات بعدها من عمال الشركة ثلاثة ولم أمت ، ومن يدرى كم سيموت قبل موتى ، هل اكتشف الدكتور أنهم سيموتون قبل أن يموتوا ؟ لماذا لم يتركنى أعمل حتى أموت كما ماتوا ؟ رفض أن يتحمل نتيجة السماح لى بالعمل . تشكر يا دكتور . أنا لا أزال حيا يا دكتور للأسف الشديد ، بينما مات ثلاثة من عمالك الأصحاء ! هل لامك أحد على موتهم ؟! هل حاسبك أحد على أنهم ماتوا ؟! ضميرك أبى أن يدعنى أموت ، يا ليت ضميرك لم يستيقظ يوم قررت فصلى شفقة بى . ما أرحمك وما أرق قلبك ! تعال يا عبود . تعال نشرب كأسا فى صحة الدكتور .

وعاود جذب عبود مرة أخرى ، فتشبث عبود بالأرض وقال له :

— آسف أن أبلغك أن أصدقاءك غضبوا مما تفعله بنفسك ، أفق يا سليمان مما أنت فيه .

— غضبوا لأنى أسكر . أليس كذلك ؟ لو كانوا يحسون ما أحسه لعذرونى . إنى أموت كل يوم مائة مرة ، أريد أن أنسى .. أريد أن أنسى أنى أصبحت عالة على الناس ، أصبحت حملا ثقيلا . أتظن يا عبود أنى راض عما وصلت إليه ؟ حاولت كثيرا أن أعمل ، أن أجد أى عمل ، أن أثبت لنفسى أنى أهل لأن أعيش ، لكنى أخفقت ، أخفقت حتى أن أقوى بأى عمل خسيس .

فقال عبود وهو يربت على كتفه :

— هون عليك .

ومد سليمان يده فى جيبه وأخرج ما فيه من نقود ووضعها فى يده ، وقال سليمان :

— تصور يا عبود أنى عرضت نفسى على بعض مهربى الحشيش فرفضونى ، أصبحت أرحب بأى عمل ولو كان غير شريف .

ولم يتحمل عبود أن يسمع من رفيق الأمس أكثر مما سمع ، فانسل خارجا وراح يوسع من خطوه كأنما يفر من شبح بغيض .

وسار وهو حزين ، وراح يفكر فيما قاله حسن وفيما قاله سليمان ، وفيما انحدر إليه زميله الطيب الذى كان يطرق خجلا إذا سمع كلمة تخدش الحياء ، فامتلأ غيظا ، وثارت دماؤه وراحت تتدفق حارة فى عروقه .

وبلغ شارع الأمين ، وتقدم فيه بخطوات ثقيلة تنم عن وطأة مشاعره التى تموج بها نفسه ، كانت أضواء المصابيح خافتة ، بيد أن الظلام المنتشر فى أرجائه جعله يحس أن الدنيا كلها قد لفت فى السواد .

ووقع بصره على شبح رجل وامرأة ، كانت المرأة تفر من الرجل وهو يتبعها فى إصرار ، ووقفت المرأة ولطمت الرجل فإذا به يلطمها فى قوة دون أن يضطرب ، وربا حنق عبود ، فاندفع كالعاصفة الهائجة إليهما ، ودون أن يفكر سدد ضربة قوية بقبضته إلى وجه الرجل أودعها كل غيظه ، وإذا بالرجل يترنح ويسقط على الأرض .

ونظر عبود إلى المرأة وهتف فى دهشة :

ــ إنصاف ؟!

وراحت إنصاف تفره بنظرها فى إعجاب وهى تقول فى استغراب :

ــ أهو أنت ؟

وقام الرجل وهو يرغى ويزبد ويقول :

ــ سأعرف كيف أربيك .

ثم دار على عقبيه وزاغ فى الظلام لا يلوى على شىء ، وقالت إنصاف لعبود :

ــ ضايقنى وظل يتابعنى بألفاظ بذيئة فنهرته ، فزاد فى مضايقتى ، فلم أجد إلا أن ألطمه فلم يهرب ولم يتوار من وجهى ، بل رفع يده ولطمنى فى جرأة عجيبة .

ــ رأيت كل شىء .

ــ والله لا أدرى ماذا كنت أفعل لو لم تنقذنى منه . شكرا لك .

ــ عفوا .

وتركها وراح يوسع من خطوه ، وجعل يفكر فيما فعله ، فما دار بخلده يوما أنه يتهور إلى حد أن يضرب رجلا بقبضته تلك الضربة الهائلة التى لا يدرى كيف صدرت عنه ! ترى هل أخطأ فيما فعل؟ أما كان من الأجدر أن ينهر الرجل ويأمره أن يعود من حيث جاء؟ وإذا كان الرجل قد ركب رأسه واعتدى عليه بالضرب كما اعتدى على إنصاف ، فماذا كان يفعل؟ وراح يمرر يده على وجهه ويصغى إلى الصوت الذى راح يرن فى أعماقه : « لا يا عبود . ما كان ينبغى أن تضرب الرجل أبدا . كيف طاوعك قلبك على أن تلكمه تلك اللكمة التى أسقطته على الأرض؟ إنه اعتدى بالضرب على امرأة عزلاء ، وما أدراك أن إنصاف لم تشجعه على معاكستها ؟ وكيف جرؤت إنصاف على أن تلطمه تلك اللطمة وهى تعلم أنهما وحدهما فى الطريق ولن ينقذها منه أحد إذا ما هجم عليها؟ ما كانت امرأة من نسائنا تجرؤ على أن تقدم على ما أقدمت عليه إنصاف. لا يا عبود . كان من الأفضل أن تقبض على الرجل وتسلمه للشرطة تقتص منه . وما كان لك أن تضربه أبدا . لماذا يعتدى إنسان على إنسان ؟ لماذا لا يعرف كل إنسان حده ؟ » .

وراح يفرك يده التى ضرب الرجل بها فى غيظ ويستشعر ضيقا فى أعماقه ، لم يكن راضيا على ما فعله ، بل كان حانقا على نفسه .

وصعد إلى بيته وهو مشغول ، كان يفكر فى إنصاف وهو حائر لا يدرى من أى معدن هى : أهى عابثة ؟ إن كانت عابثة لما ثارت لأن رجلا طاردها أو غازلها أو أسمعها فحش الكلام . أهى شريفة ، ما كان لفتاة شريفة تتعثر فى خفرها أن تقدم على ما أقدمت عليه إنصاف . أهى رجل ؟! لن يكون رجلا من يملك كل تلك الأنوثة الفائرة الطاغية . الأنوثة الفائرة الطاغية ؟ وكيف فطنت إلى هذا يا سيد عبود إذا لم تكن نظراتك إليها نظرات ليست منزهة عن الاشتهاء ؟ وفتحت بهية له الباب وطوقته بذراعيه وقبلته وقالت :

— ما الذى أخرك يا حبيبى ، لقد برد العشاء .

أيقول لها ما كان بين الرجل وإنصاف ؟ لا . إنه لا يعرف أن بهية تغار من إنصاف ولا تحب أن تسمع اسمها ، وحتى إن كانت بهية لا تغار من إنصاف فماذا يقول ؟ أيقول لها إنه ضرب رجلا ؟ أيقول لها إنه وحش كالآخرين ؟ إنه أحد الديوك التى تتقاتل ، لأن ما يحركها هو غريزة القتال ؟ لا . خير له أن ينسى ما كان . ليت إنصاف تسكت ولا تروى ما حدث لفانوس .

لن تسكت إنصاف ، وسيوسع فانوس الأرض إذاعة ، وغدا سأكون هدفا للألسنة الطويلة التى لا ترحم ، وقال لبهية ليفر منها :

— سخنى العشاء ، وسأبدل ملابسى .

ودخل إلى غرفته ، وقعت عيناه على بندقية مأمون فسار إليها ورفعها بين يديه ، وإذا به يصوبها إلى نفسه فى المرآة ، ورن فى أذنيه صوت حسن يقول : لا يمكن أن تعيش فى سلام إذا كان الآخرون يعتدون عليك ، ديننا يا عبود لا يقول : من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن ، بل يقول : فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .

وهز عبود رأسه ليطرد الصور التى كانت تتراءى له فى ذهنه ، وأعاد البندقية إلى مكانها وهو يزفر فى ضيق .

بيت صديق الفرارجى ينبض بالفرح والسرور ، فقد أنجبت فتحية طفلا جميلا بعث البهجة فى كل القلوب . راحت الأم تغدو وتروح بين المطبخ والغرفة التى نامت فيها ابنتها وهى تحمل الينسون والمغات وهى تكاد تطير من الفرح ، فقد أصبحت جدة لأول مرة ، وتفجر فى أعماقها نبع جديد من المحبة ، فجره الحفيد الوليد الواهن الرقيق .

وراحت أخوات فتحية يستبقن نحو الباب وهن يتصايحن فى بهجة ، فقد جاء الشيخ حسن بالجزار ليذبح الخروف الذى نذر أن يذبحه فى السابع من مولد ابنه . ودخل الجميع إلى الحمام يرقبون ما يفعل الجزار بالخروف وهم مسرورون ، ووقف صديق ينظر من بعيد وهو يبتسم ، لم تكن سعادته صافية ، بل كان يشوبها مخاوف أقلقته وعكرت انشراحه .

كان زواج فتحية من حسن كله بركة ، لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به ، وبرهم وغمرهم بهداياه ، إلا أنه فتح أمام بناته آفاقا جديدة وآمالا عريضة يخشى ألا تتحقق يوما .

كانت بناته قانعات راضيات قبل أن تتزوج فتحية . وكانت أمانيهن لا تتعدى ملء البطون . أما وقد تزوجت فتحية وأصبح لها بيت وزوج وأولاد ، فقد اتسعت آفاق البنات ، ورحبت رقعة أحلامهن، صارت كل منهن تتطلع أن يكون لها زوج مثل حسن ، يرعاها وينفق عليها ويغمرها بحبه وتنجب له أولادا .

من أين له أن يجد لهن أزواجا من طراز حسن ؟ إن كان حسن قد قبل أن يأخذ فتحية دون جهاز فأين الرجال أمثاله الذين يقبلون الزواج من فتيات لا يملكن إلا أنفسهن ؟ كانت فتحية محظوظة ، وقد غمرها الأصدقاء بالهدايا ، أما أخواتها ترى ما حظهن فى الحياة !

الزواج اليوم من نصيب الفتيات العاملات ، فالشباب يتطلع إلى حياة أفضل . لن تتزوج بناتى إلا إذا التحقن بعمل . إنى لم أقصر فى حقهن . طرقت كل

الأبواب لأجد لهن عملا .. لأدفع بهن إلى الحياة ، ولكن كل الأبواب أغلقت فى وجهى . لا . لا لن أيأس ، سأعاود البحث لهن عن عمل . ليت الحكومة تعطينا غذاءنا وكسوتنا وتتكفل بالأولاد ! وهل قالت لك الحكومة أنجب خمس بنات ؟!

وأحس حركة فأفاق من شروده والتفت ، فألفى الجزار وحسن مقبلين وابنته الصغرى فى أثرهما ، وسار حسن مع الجزار حتى غادر الشقة ثم عاد ، وإذا بالبنت الصغرى تقول له :

— لماذا ذبحت خروفا اليوم ؟

فقال لها حسن :

— لأن النبى ﷺ نحر فى اليوم السابع من مولد سيدنا الحسين خروفا ، وأعطى القابلة فخذه ؛ وأمر ابنته السيدة فاطمة أن تحلق شعر ابنها وأن تتصدق بوزنه فضة .

فضحكت الفتاة وقالت :

— من حسن حظك أن ابنك ليس له شعر .

وابتسم صديق راضيا ، والتفتت إليه ابنته وقالت له :

— هل ذبحت لى خروفا فى اليوم السابع من مولدى ؟

وارتبك صديق وأشفق حسن عليه وأراد أن ينقذه من حرجه ، فأخذ الفتاة من يدها وهو يقول لها :

— تعالى نساعدهن على تقطيع الخروف .

وذهبا إلى حيث كانت الأم وبناتها ، وأخذ صديق يغدو ويروح فى الغرفة وهو مطرق يفكر :

خروف ؟! الخراف لم تعرف بيتنا قبل أن يدخله حسن ، الحمد لله أن استطعت أن أقوم بالإنفاق عليكن حتى اليوم . أنا أوفر لكن شيئا من المتعة . كانت حياتنا جافة قاسية . جافة قاسية ؟! والله لقد مرت علينا أيام كلها بهجة . ليت هذه الأيام تدوم ، ليتنى أعيش حتى أزوجكن ، أو أجد لكن أعمالا شريفة . ماذا يكون حالكن لو مت غدا ؟ من من الناس يتكفل بكن ؟

حسن؟! لماذا ؟ لأنه تزوج أختكن ؟ هذا ظلم . ظلم .

قال حسن ذات ليلة إن الدولة الإسلامية كانت تجعل لكل مولود نصيبا فى بيت المال ، لماذا لا تعطى الحكومة راتبا لكل من أبنائها ؟ ألسنا جميعا أبناءها ؟!

وجال بعينيه فى المكان وقال بصوت مسموع :

ـــ أين سيجلس الذين دعوتهم الليلة يا شيخ حسن ليشاركوك فرحتك ، وليس عندنا مقاعد لهم ؟

وفى العصر ملأ الشيخ حسن الشقة بالمقاعد ، وحمل إلى زوجته الشموع لتوزعها على الجارات وأطفالهن ، الذين سيشاركون فى الاحتفال بمرور أسبوع على مولد ابنه البكر .

وجاء عبود وبهية ، ودخل عبود إلى حيث كان حسن وصديق جالسين ، وسارت بهية إلى حيث كانت فتحية . ولما رأتها قبلتها وجلست إلى جوارها على السرير ، فقامت الأم وحملت المولود ووضعته بين يدى بهية وهى تقول :

ـــ العقبى لك .

وأحست بهية موجة من الأسى تنتشر فى أرجائها . ولم تشأ أن تستسلم لحزنها وأرادت أن تفر من نفسها ، فقالت وهى تنظر إلى فتحية وتبتسم :

ـــ الحمد لله أن جاء ولدا . فلو كان بنتا لما وجد العريس .

فقالت فتحية وهى ترنو إلى ابنها فى حنان ، وترمقه فى وله :

ـــ لا يا بهية . إنه قمر .

وقالت الأم وهى ترقب حركات بهية :

ـــ سنرى ماذا سيكون عوضك .

فقالت بهية فى ارتباك :

ـــ الحمد لله أن بقيت فاضية حتى الآن ، لا أريد أن أشغل بالأولاد .

وتشاغلت بإعادة الطفل إلى مكانه ، وتبعتها الأم بعينيها : « يا كذابة ! ولماذا حفيت قدماك إذن وأنت تدورين على المولدات ؟ » ثم قالت لها :

ـــ لا يا بهية . لست معك . ما أجمل أن تلد المرأة فى أول سنة من زواجها .

الأولاد زينة .

وسرى فى الغرفة صوت أنثوى يقول للرجال : السلام عليكم . فقالت فتحية :

ـــ هذا صوت إنصاف .

ودخلت إنصاف ، فقامت الأم ترحب بها ، قالت :

ـــ أهلا .. أهلا خطوة عزيزة .

فقالت إنصاف صادقة :

ـــ جئت أساعدكم فى هذا اليوم ، فأنا أحب أن أشارك فى الأفراح .

وذهبت إلى فتحية وقبلتها ، ونظرت إلى الوليد وقالت :

ـــ جميل ! ما كنت أظن أن الشيخ حسن قادر على أن يأتى بولد جميل مثل هذا .

وضحكت الأم وقالت فتحية فى انشراح :

ـــ قولى هذا لبهية .

فقالت إنصاف وهى تصافح بهية :

ـــ سنرى بماذا سيأتينا عبود ؟

فقالت بهية فى تحد :

ـــ ابننا سينال الجائزة الأولى فى الجمال .

فقالت إنصاف مازحة :

ـــ الحلو حلو الطبع ، ولا يعيب الرجل إلا جيبه .

وقالت لها الأم :

ـــ العقبى لك . نفرح بك قريبا إن شاء الله .

ولم تستطع بهية أن تكتم شعورها قبل إنصاف ، فقالت لها :

ـــ أنت جميلة يا إنصاف ، فلماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟

وقالت الأم فى سرعة حتى لا تجرح إنصاف :

ـــ الزواج قسمة يا بنتى . وكل شىء له أوان .

ولم تغضب إنصاف ، وقالت فى هدوء :

ـــ لو كنت أقبل أى رجل يتقدم إلى لكنت تزوجت من سنين ، ولكنى

لا أريد أن أتزوج إلا رجلا أحبه ويحبنى . أنا لا أريد أن أبيع نفسى لأى رجل كما تفعل أغلب الفتيات .

وأحست بهية ضيقا ، وغاظها ما ظنته غرورا من إنصاف فقالت لها :

ــ من يسمع هذا يظن أن الخطاب بروا درجات السلم !

فقالت إنصاف دون أن تثور أو تنفعل :

ــ الرجال يسيرون خلفى أينما أسير . ألم يقل لك عبود : إنه ضرب رجلا كان يضايقنى فى الظلام ؟

ونهشت الغيرة قلب بهية وجعلت ترمق إنصاف فى حنق ، فهذه الفاجرة تلعب بعقول الرجال ، إنها قادرة على أن تسلب عبود لبه ، وما أدراها أن ليس هناك علاقة بينها وبين زوجها ؟، وقالت لها فى ثورة :

ــ الرجال قد يشتهون النساء اللاتى يسيرون خلفهن ، ولكنهم لا يتزوجونهن .

فضحكت إنصاف ضحكة طليقة وقالت :

ــ لا تزالين طفلة ساذجة وإن كنت قد أصبحت زوجة . ما أدراك بما يريده الرجال ؟!

فقالت بهية وقد بدرت فى عينيها بادرة انتصار :

ــ عندك حق ، أنا لا أعرف إلا ما يريده عبود ، أما ما يريده الرجال فأنت أدرى به منى وإن لم تتزوجى بعد .

وظنت بهية أن إنصاف ستتناثر شعاعا وقد تنهار ، بيد أن إنصاف ظلت هادئة وقالت :

ــ هذا حق . أنا أعمل بين الرجال وأقابل كل يوم منهم ألوانا وأسمع من أحاديثهم فنونا ، حتى أصبحت أستطيع من طول معاشرتى لهم ، أن أقرأ ما يدور فى رءوسهم قبل أن تنطق ببعضه ألسنتهم .

وأحست بهية أنها لن تستطيع أن تنتصر عليها فسكتت ، وراحت الأم وفتحية وإنصاف يتحدثن وبهية شاردة وقد انتابها خوف ، خشيت أن تتمكن إنصاف يوما من أن تخطف منها زوجها ، وراودتها فكرة أن تختلى بغريمتها وأن تتوسل إليها

أن تدع لها عبود ، فهى تحبه وتغار عليه ، فالرجال أمامها كثيرون ، إلا أن كبرياءها أبت ذلك ، فظلت ترقب إنصاف وفى قلبها حريق .

وجلس فى الغرفة الأخرى صديق وحسن وبهنس وفانوس يتسامرون .

قال بهنس :

ـــ إننا ندعو إلى القومية العربية ، فهل نحن عرب ؟

فقال فانوس :

ـــ إننا فراعنة .

فابتسم حسن وقال :

ـــ هل قرأت التوراة يافانوس ؟!

ـــ نعم .

ـــ أتعلم أن سيدنا إبراهيم جاء إلى مصر ؟

فقال فانوس فى حماسة :

ـــ وقد أهدى إليه ملك مصر هاجر .

ـــ وتعلم أن سيدنا إبراهيم تزوج هاجر وأنجب منها إسماعيل .

ـــ نعم .

ـــ إسماعيل هذا هو أبو العرب ، الذين نزلوا حول بئر زمزم التى تفجرت تحت قدمه عندما كاد يموت من العطش فى الصحراء .

فقال بهنس :

ـــ تريد أن تقول أننا أخوال العرب ؟

فقال حسن :

ـــ عرب الحجاز جاءوا من زواج العراق بمصر .

والتفت حسن إلى صديق وقال :

ـــ هاجر المصرية ، أم العرب ، مدفونة فى الكعبة ، لا يقرئها السلام أحد من الحجاج المصريين .

فقال فانوس :

ـــ أتريد أن نطالب بالكعبة ؟

فابتسم حسن وقال :

ـــ أتذكر ماذا جاء فى التوراة عن أمة إسماعيل ، عن العرب ؟

وفكر فانوس طويلا ثم قال :

ـــ لا .

فقال حسن :

ـــ أذكر وعدين جاءا على لسان الله سبحانه وتعالى ، قال لإبراهيم :

« وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه من نسلك » ، وقال لهاجر الجارية :

« مالك يا هاجر لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى . احملى الغلام وشدى يدك بى لأنى سأجعله أمة عظيمة » .

ودخل مأمون فجأة فصاح الجميع مرحبين فى دهش ، وقاموا إليه يعانقونه . وضم حسن إليه فى قوة وقال :

ـــ مبارك يا أبا على .

وقال لعبود مازحا :

ـــ شد حيلك وأطل رقابنا .

فقال فانوس فى خبث :

ـــ اطمئن . سيصبح عبود أبا عما قريب . عندى فى الدكان ما سيحقق المعجزة .

فقال بهنس فى لهفة :

ـــ قل لى : ماذا عندك ؟

قال فانوس وهو يضحك :

ـــ كتاب : كيف تنجب الأولاد فى ثلاثة أشهر .

وضحك الجميع ، وابتسم عبود ابتسامة مرة ، كان فى قرارته يمقت الدعابات التى تخزه وخزا أليما ، وكان يزيد فى وقعها على نفسه أنه لا يستطيع أن يفصح عن غضبه ، أو ينهاهم عن دعاباتهم البريئة .

وقال عبود لمأمون ليدير دفة الحديث وجهة أخرى :

— بهية فى شوق إليك .

وفهمها حسن ، فقال لمأمون :

— تفضل . لست غريبا .

وسار حسن ومأمون خلفه حتى إذا ما بلغا الغرفة التى رقدت فيها فتحية وقف مأمون خارجها ينتظر خروج أخته منها ، قال له حسن :

— ادخل .

قال مأمون بصوت عال :

— شكرا ، سأنتظر بهية هنا .

وبلغ صوته مسامع من فى الغرفة ، فخرجت إليه بهية وارتمت فى أحضانه وهى تقول فى فرح وانفعال :

— مأمون ! حمدا لله على سلامتك :

وخرجت إنصاف من الغرفة ، ورآها مأمون فقال لها :

— إنصاف ! كيف أنت ؟

فقالت فى ابتهاج :

— بخير . مادمتم بخير يامأمون .

— معى لك هدية . لو كنت أعرف أنك هنا كنت أحضرتها معى .

— شكرا لك أنك تذكرتنى .

فقال مأمون وهو يقلب وجهه فى إنصاف وبهية وحسن :

— أنتم معنا فى كل وقت .

وعكر صفو بهية ترحيب أخيها بإنصاف وحديثه معها حديث ود صريح ، لا كلفة فيه ولا حواجز ولا عقبات . ترى هل أدارت إنصاف رأس أخيها أيضا ؟ ماذا فيها يسحر الرجال ؟ ولماذا تهفو قلوبهم إليها ؟ إن عبود لا يذكرها بخير أبدا ولكنه كثيرا ما يذكرها ، أليس ذلك دليلا على اهتمامه بها ؟ ليتها لا تخطر له على بال .

وعاد مأمون وحسن إلى حيث كان الرجال ، وما كاد مأمون يستقر فى مكانه حتى قال له حسن :

— لماذا لا تتزوج يا مأمون ؟

— كيف أتزوج وقد أقتل فى أية غارة من الغارات التى نشنها على إسرائيل ؟ ماذا تفعل امرأتى إذا قتلت ؟ أتنكفئ على طشت غسيل لتحصل على قوتها ؟

وكأن حديثه جرح صديق وهيج مخاوفه ، فإذا به يعاود التفكير فيما يكون حال بناته لو قدر له أن يموت ، وإذا به يقول فى نفسه : « سأقبل الأقدام حتى أجد لهن عملا . لعنة الله على الشركات الإنجليزية والفرنسية التى تغلق أبوابها فى وجوههن » .

ودخل توفيق ، دعاه حسن فى الصباح مجاملة وما كان يظن أنه سيأتى ، ولكنه جاء ولم يأت وحده ، بل كان معه مرجان وقد ارتدى الثياب التى يرتديها فى إحياء الأفراح .

وقاموا جميعا يرحبون بتوفيق أطيب ترحيب ، وذهب بهنس إلى مرجان وصافحه ، ثم قال له :

— هات قطعة سكر نبات .

فمد مرجان يده فى جيبه وأخرج منه قطعة ودسها فى يد بهنس ، وفانوس يرمقه وعلى شفتيه بسمة هازئة ، فقال له بهنس :

— يا نمس . لا منك ولا كفاية شرك .

وجلسوا جميعا ، ولم يجرؤ مرجان على أن يجلس مع توفيق فى غرفة واحدة ، فانسحب وجلس خارج الغرفة ، وقال بهنس لمأمون :

— أوحشتنا يا رجل ، أين كنت كل هذه المدة ؟

فقال مأمون فى زهو :

— كنت أجوس خلال إسرائيل ، ألقى الرعب فى قلوب الصهاينة .

وقال صديق :

— هل اشتركت فى غارات مع الفدائيين على إسرائيل ؟

— فى كل الغارات . كنا جماعة متجانسة ، وكان معنا راسم ، إنه شاب فلسطينى يعرف كل شبر فى فلسطين . فى آخر غارة لنا سار راسم أمامنا ، كان الليل حالك الظلام ولكن راسم كان ينطلق كالسهم يعرف أين هدفه ، وما إن

توغلنا قليلا حتى وجدنا خيمة أمامها سيارة من سيارات الجيش الإسرائيلى ، لا أدرى كيف اهتدى راسم إليها . ووقفنا نتأهب برهة ثم صدرت إلينا الأوامر بالهجوم . كان هدفى تدمير السيارة ، أما راسم فكان هدفه من كانوا فى الخيمة . إنه لا ينسى أبدا أنهم بقروا بطن أمه فى دير ياسين . ألقيت على السيارة قنبلة فتطايرت أشلاء فى الهواء ، وفى نفس الوقت كان راسم يقفز كالليث فى وسط الخيمة ، وإن هى إلا لحظات حتى قضى على من فيها ، وما لبثنا أن قفلنا راجعين ، وعدنا خفافا إلى مواقعنا .

ولمح عبود مرجان يجلس وحده فقام وذهب ليجلس معه ، وتذكر فى تلك اللحظة سليمان . إنه لن يأتى ، لن يشاركهم أفراحهم فحسن لم يدعه ، وإن جاء فلن يتردد فى طرده .

ونظر صديق فى إكبار إلى مأمون وقال له :

— إنى أحسد شباب هذا العهد ، ما أكثر فرص البطولة أمامكم ! كنا فى أيامنا نخشى أن نمر فى طريق فيه جندى بريطانى أو أسترالى أو سنغالى خشية أن يطلق النار علينا دون سبب أو يطعننا بخنجر . لم تكن حياتنا تساوى شيئا .

قال توفيق :

— كنتم عزلا من السلاح فى دنيا يستمد فيها الإنسان هيبته من هيبة السلاح الذى فى حوزته ، فمن لا سلاح عنده لا هيبة له .

قال بهنس :

— أنا لا أفهم سببا لغضب إنجلترا وأمريكا ذلك الغضب الشديد لأننا أبرمنا صفقة الأسلحة التشيكية . إننا لن نحارب بهذه الأسلحة أمريكا أو إنجلترا .

قال حسن :

— يريدون أن نظل ضعافا لا حول لنا ولا قوة ، حتى نخضع لإرادتهم ونظل فى منطقة نفوذهم ، نلتمس منهم حمايتنا .

قال صديق :

— نريد أن نقوى لنتفرغ للإصلاح . أيكرهون أن نصلح أنفسنا ؟

قال حسن :

ـــ إنهم يخشون هذا الإصلاح .

قال بهنس :

ـــ ماذا يضيرهم لو أصلحنا حالنا ؟!

قال توفيق :

ـــ إذا جلب أحدنا الآلات لدك الأرض لتشييد عمارة ضخمة ، فماذا يكون مآل البيوت التي حولها ؟

قال بهنس :

ـــ تنهار كلها .

فابتسم توفيق وقال :

ـــ هذا حالنا وحال البلاد المتداعية حولنا ، كلما دككنا الأرض لنبنى أنفسنا انهارت النظم البالية من حولنا . من كان يصدق أن الأردن يرفض أن ينضم إلى حلف بغداد ، ويثور فى وجه بعثة تمبلر التي ما ذهبت إلى العاصمة الأردنية إلا لتبحث مع حكومتها موضوع انضمام الأردن إلى الحلف ؟!

ـــ إنهم يخشون يقظة العملاق الذى طال نومه .

ودوت زغاريد النسوة ، وارتفع صوت إنصاف وهى تدق الهاون :

ـــ اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبيك .

ثم أطلقت ضحكة أنعشت بهنس وجعلته يشرئب بعنقه ويفتح عينيه كما تفتحت نفسه .

وسار الأطفال وفى أيديهم الشموع يصيحون :

ـــ حلقاتك برجالاتك .. يارب يا ربنا ، يكبر ويبقى قدنا .

وسار الأولاد فرحين حتى هبطوا فى الدرج وهم يتصايحون ، وحملت إنصاف صينية عليها أكواب المغات وراحت تدور بها على الرجال ، حتى إذا ما وصلت إلى بهنس تناول منها الفنجان وقال بصوت عال :

ـــ يشربون شرباتنا أنا وأنت يا جميل قريبا إن شاء الله .

وضحك بهنس فى فرح ، وتوجهت الأنظار إليها ، وقالت إنصاف فى خفة :

ـــ فى الجنة ونعيمها إن شاء الله .

وضحك الرجال ، وأدبرت إنصاف وأكثر من عين تجول فى مفاتنها .

— ٢٢ —

كان الجو شديد البرودة والليل ثقيل الأنفاس ، وكان عبود يفرك يديه ليجلب الدفء إلى بدنه المقرور ، وينظر إلى بهية فيلمح فى وجهها صفرة وذبولا ، فيحس عطفا عليها ورغبة فى أن يدللها ، فيحيطها بذراعيه ويضمها إليه فى قوة وهو يقول :

ـــ الدنيا برد .

وترف على شفتى بهية بسمة خفيفة ، وتهم بأن تفصح له عن شىء يشغل بالها ولكنها تحجم خشية أن تكون واهمة فيما تظن ، ويمد عبود عينيه إلى نتيجة متواضعة معلقة على الحائط ، ويلتفت إلى بهية ويقول مداعبا :

ـــ الظاهر أننا أغنياء هذا الشهر !

ـــ لماذا ؟

فقال وهو يتجه إلى النتيجة :

ـــ لأنك لم تنزعى أوراق ثلاثة أيام مضت منه .

وراح ينزع أيام الرابع والعشرين والخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر فبراير من عام ١٩٥٦ وهو يقول :

ـــ لم يبق فى عمر أمشير إلا أيام قليلة . مع السلامة .

وذهب إلى غرفته يرتدى ثياب الخروج ، فقالت له بهية :

ـــ أتخرج فى هذا البرد ؟

ـــ لولا أنى واعدت فانوس على أن أقابله فى القهوة ما نزلت . سأريه نفسى ثم أعود . لن أغيب عنك طويلا .

ومال عليها وقبلها ، وأوجست بهية خيفة من مداعباته ومحاولة تدليلها ، فقد طاف بذهنها أنه إنما يحاول أن يغمرها بعواطفه ليخفى شيئا فى نفسه ، إنه أمسى

يغادر البيت كل ليلة فى مثل هذه الساعة . ألا تكون هذه الساعة هى التى تعود فيها إنصاف من عملها ؟!

ودق قلبها فى جوفها دقات عنيفة ، وزادت صفرة وجهها ولاح عليها الجهد ، فقد تحركت غيرتها وراحت تحرضها على أن تتشبث به ولا تدعه يخرج أبدا ، بيد أنها خشيت أن تفضح نفسها وتكشف عن غيرتها التى تضنيها .

سألته فى تلك الليلة التى احتفلوا فيها بمرور أسبوع على مولد ابن الشيخ حسن ، بعد أن عادا إلى بيتهما ، عن الرجل الذى كان يغازل إنصاف ، وعما أبداه من ضروب الشهامة ، فاضطرب وارتبك وراح يتلجلج فى الكلام ، مما أثارها وأكد لها أن بينه وبين إنصاف ما يحاول أن يخفيه عنها . وسألته فى حدة : لماذا لم يخبرها بما فعله ، فقال لها فى قلق : إن ما فعله كان شيئا تافها حتى إنه نسيه . فقالت له فى غيظ : أتضرب رجلا وتلقيه على الأرض يا عبود ، ثم تقول إن ما فعلته شيء تافه نسيته ؟ أتريدنى أن أصدق هذا . أنا ساذجة . صحيح . ليس لى خبرة إنصاف . صحيح . ولكنى لست ساذجة للدرجة التى أصدق أنك تضرب رجلا ثم تنسى بعد لحظات أمضيتها فى قطع المسافة بين أول الشارع والبيت ، إن كنت حقا قد عدت بعد ما ضربت الرجل إلى بيتك .

وقامت مشادة حامية سافرة بينهما لأول مرة فى حياتهما الزوجية ، انتهت بأن تمدد كل منهما فى طرف من السرير وهو يلهث من الغيظ والضيق ، وقد التصق لسانه فى سقف حلقه ، وعجز تماما عن أن يتحرك أو يتفوه بكلمة قد تقضى على التوتر الذى جثم على أنفاسهما .

إنها تذكر قسوة تلك الليلة ولا تريد أن تعيدها ، إلا أن عقارب الغيرة من إنصاف تلسعها وتغضبها : « لماذا تحب إنصاف أن تخطف رجلا متزوجا ؟ ألا يكفيها مأمون ؟ إنه يعزها وقد أهداها هدية أفخر مما جاءنى بها » .

وسار عبود إلى الباب وبهية ترمقه فى غيظ ، وخطر لها أن تفضى إليه بسرها لتشده إليها وتمنعه من أن يخرج الليلة ، بيد أنها أحست خوفا وترددا ، وقبل أن تفتح فمها كان عبود قد أغلق الباب وراءه .

وخفت بهية إلى الشباك لترصد حركات زوجها من خلف خصاص نافذتها ، ولترى إن كان سيتجه إلى القهوة حقا أم سيولى وجهه قبلة أخرى .

ووقف عبود على عتبة الباب يتأهب لاستقبال البرد اللافح ، ورمى بصره إلى نوافذ شقة إنصاف فألفى الضوء يشع منها ، فبدت الدهشة فى وجهه ، فهو لا يذكر أبدا أنه رأى ضوءا ينتشر فيها ، إنها مغلقة دائما ، غارقة في الظلام والريبة دائما . ترى أبلغت الجرأة بإنصاف أنها لم تعد تحفل بالجيران ، ولم تعد تهتم بأن تخفى عنهم عبثها ؟!

وراح يهرول إلى القهوة ليفر من البرد ، وبهية فى الشباك ترقبه ، حتى إذا غاب فى القهوة أحست راحة وتحركت لتغادر الشباك ، إلا أن غيرتها أبت عليها أن تهدأ ، فراحت تنفث سمومها : « ما أدراك يا عبيطة أنه يعلم أنك ستراقبينه ، لذلك اتجه أولا إلى القهوة ليخدعك . لو انتظرت قليلا فسترينه وهو خارج من القهوة يتلفت ثم ينسل إليها » .

ولم تقو على مغادرة الشباك وعصيان أوامر غيرتها ، فظلت واقفة ترصد باب القهوة بعيون مفتوحة ، ومر الوقت وهى تتململ فى وقفتها ، ودب فى ساقيها التعب فدارت على عقبيها وذهبت إلى فراشها وارتمت فيه وهى مجهدة .

وخرج عبود وصديق من القهوة وتأهبا للانطلاق إلى دارهما ، وإذا بصوت استغاثة يشق السكون ، فنظرا ناحية الصوت فوجدا إنصاف قد فتحت الشباك على مصراعيه ، وأطلقت لصوتها عنانه .

ووقف عبود ينظر مشدوها ، ولم يحس إلا بصديق يجذبه من يده ويقول له :

— تعال نرى ماذا جرى ؟

وخفق قلب عبود فى رهبة ، وسار مع صديق وهو ذاهل وإن كانت أفكار شاردة تلمع فى ذهنه كالبرق وسرعان ما تختفى : « هل قام إليها عشيق مخمور يريد أن يقتلها ؟ أمات رجل فى أحضانها ؟ مالى أنا وهذه الفضائح ؟ » . وخيل إليه أن بهية انتصبت أمامه كالمارد — تصرخ فيه قائلة : ما الذى قادك إلى هناك ؟ ما الذى بينك وبين إنصاف ؟ ، فهم بأن ينكص على عقبيه ، إلا أن صديق الفرارجى كان

يجذبه من يده جذبا .

وصعدا فى الدرج كأن شبحا يطاردهما ، وانطلقا فى الشقة كالعاصفة وهما يتلفتان ، وراح عبود يدير عينيه فى المكان وهو مشدوه ، لم يكن فى الشقة أثاث إلا حصير بال وبقايا سجادة ممزقة كلح لونها ، وفى ركن من المكان صينية بها ثلاث قلل ، وعلى الحائط علقت بعض ثياب إنصاف ثم لا شىء آخر . إن أغلب البيوت التى يدخلها بيوت فقيرة ، ولكنه لم ير بؤسا مخيما على بيت كما رآه فى شقة إنصاف !.

وهرعت إنصاف إليهما وهى ذاهلة ، وقالت وعيونها زائغة :

— أمى .. أمى .

وجرت أمامهما إلى حيث كانت أمها مسجاة . كانت ممدودة على حشية وتحت رأسها وسادة ، وتحت الحشية بعض أكياس من الخيش فرشت فوق حصيرة ، وكانت السيدة الراقدة فى الفراش نحيلة غاية فى النحول ، لكأنما كانت جلدا شد فوق هيكل عظمى ، شعرها أبيض ، ووجهها كله غضون وتجاعيد ، وقد فغر فوها فلم تكن فيه سنة واحدة ، وتهدلت جفونها على عينيها فلم يبد منهما شىء .

وأطرق عبود خاشعا وإن نزلت الرهبة بقلبه ، فقد استشعر أنه ماثل بين يدى الموت ، وصاحت إنصاف مولولة :

— ماتت !. ماتت .

وركع صديق ووضع أذنه على قلب السيدة وراح يصغى فى انتباه ، وجعل عبود يرقبه وهو خافق الفؤاد ، بيد أنه لم يستطع أن يمد عينيه إليه طويلا ، فأضلع السيدة كانت بارزة تحت خد صديق بروزا يثير الشفقة ويعذب الروح .

ورفع صديق رأسه وقال :

— إنصاف ! ناولينى نشادر إن كان عندك .

وأسرعت إنصاف تعاونه وتناوله كل ما يطلبه .

— قليل من الكولونيا من فضلك ..

وراح يضرب السيدة على وجهها فى رفق .

ولم يقو عبود على متابعة ما يفعلان فأدار لهما ظهره ، وشرد بنظره ناحية

الباب ، ولكنه لم يكن يرى شيئا .

وهتفت إنصاف فى فرح وأمل ، قالت :

ــ إنها تتحرك . إنها تفتح عينيها .

ونظر عبود وإذا بقلبه يدق دقات عنيفة ، وتتسع عيناه دهشة ، وينعكس على وجهه ما كان يقاسيه من ألم ، كانت عينا السيدة بيضاوين ، ولأول مرة كره البياض ، كانت السيدة عمياء . وجف حلقه وراح ينظر إلى إنصاف فى حيرة ويتساءل فى نفسه : كيف تستطيع هذه التى تعيش فى كل هذا البؤس أن تضحك ؟! كيف تمرح كل هذا المرح الذى ينم على أنها خالية الفؤاد ، ناعمة البال ؟! ما من فرح فى الحى إلا شاركت فيه وبثت فيه روحا كلها خفة وإشراق ؟!

أحقا هذه التى تعيش فى هذه المأساة هى إنصاف ؟ إنصاف التى تقف عند فانوس وتركب الغادى والرائح بدعاباتها ، إنصاف التى رقصت ليلة زفافه رقصاً أثار السيدات قبل الرجال ؟ إنصاف التى أضفت على الحفل الذى أقامه حسن لمولد ابنه روحا مرحة ، حتى إن توفيق خرج عن وقاره وراح يبادلها الدعابات ! .

لو أن أية فتاة أخرى كانت فى مثل ظروفها لشاخت وتحطمت روحها ، وران عليها الحزن ، وعششت الكآبة فى أغوارها .

وقامت إنصاف وقد هدأ روعها ، وقالت :

ــ أرجوكما أن تبقيا معها إلى أن أعود بالدكتور حازم .

فقال له عبود :

ــ سيمكث معها السيد صديق ، أما أنا فعائد إلى البيت بعد أن اطمأننت أنها بخير .

والتفتت إليه إنصاف وقالت :

ــ شكرا لك .

وخرجت تهرول ، وسار عبود وهو يفكر : « كنت أظن أن الدكتور حازم عشيقها وأنها كانت تقابله فى بيتها ؟ أين ذلك الرجل الذى يستطيع أن يمارس الحب فى مثل هذا الجو المقبض البغيض ؟ كان الدكتور حازم يعالج الأم البائسة

الضريرة ، وكان لا شك يتألم بينما أحسبه غارقا فى أحضان الهوى يرشف أعذب القبلات !.

كانت نوافذها مغلقة دائما ، وكنت أظن أنها ما أغلقتها إلا لتحجب مشاهد الحب المحرم عن أعين الجيران ، ياويلتى ! لماذا تركزت كل ظنونى حول رغبات الجسد ؟ وهل كانت ضحكاتها الخليعة ومشيتها الراقصة توحى إلا بالمجون والعبث ؟

جاءت إنصاف إلى حينا من أكثر من سنة ، فكيف خفى عن الجيران أن لها أما عجوزا ضريرة ؟ حتى فانوس لم يذكر أبدا أن لها أما . كانت إنصاف تزور كل الجيران ، وما كان أحد يزورها بحجة أن ليس لها مواعيد معينة يمكن أن تزار فيها . وما كانت هذه هى الحقيقة .

وتذكر ذلك اليوم الذى تجاوز فيه كل حد واتهمها فى شرفها ، كيف سكتت على تطاوله عليها ؟ ولماذا لم تحقد عليه ؟ واستشعر خجلا من نفسه وأحس أنه قد تضاءل .

وبلغ باب بيته وقال فى نفسه : « لن تصدق بهية أبدا أن لإنصاف أما كادت تموت الليلة . هل سترى لبهية ما حدث ؟ إياك ! ستثور وتغضب وتتهمك بأن بينك وبينها علاقة ، وأنك خائن ككل الرجال ، ولن تصدق الحقيقة أبدا . سأقول لها إن صديق الفرارجى كان معى . ها ها ها ها ، وهل وجود صديق معك سيكتم أنفاس غيرتها؟ ستقول لك إنك أنت وصديق اتفقتما على تمضية سهراتكما الحمراء عند إنصاف . خير لك أن تسكت ولا تقول شيئا . إن سكت فلن يسكت صديق ولن تسكت إنصاف ، وستخبر فتحية بهية بما كان ، وتكون المشادة الكبرى التى تذرف فيها الدموع ، وتشيح فيها الوجوه ، وتتمزق الأعصاب ، وتفور مراجل الغضب .

خير لك أن تقول لها كل شيء الآن قبل أن تخبرها فتحية بما كان ، فتقول لك : لو كنت زوجتك ما سمعت أخبارك من الناس !، وإذا لم تصدقك فخذها من يدها إلى بيت إنصاف لترى الأم العجوز المحطمة التى تستدر كل شفقة وعطف .

وكان قد بلغ باب شقته فمد بصره إليه ، وقال بصوت خافت :

ـ الناس كلهم يثقون فى ، ويعرفون أنى رجل شريف مستقيم ، إلا أنت يا بهية ! أمرى لله .

وفتح الباب بمفتاح معه وتقدم فى اضطراب ، لم يكن قد استقر بعد على رأى . وقرر أن يتريث حتى يعرف حال زوجه ومقدار تقبلها بما سيفضى به إليها.

وراح يتلفت باحثا عنها ، ثم سار إلى غرفة النوم .

كانت بهية مستلقية فى الفراش مسبلة العينين مصفرة الوجه ، فمال عليها وطبع على شفتيها قبلة ، فتهللت أساريرها وقالت وهى تحاول أن تنهض :

ـ الظاهر أنى غفوت قليلا .

وانتصبت واقفة ، بيد أنها مالبثت أن ترنحت وناءت وعادت تستلقى فى فراشها ، فهرع إليها وقال فى لهفة :

ـ بهية ! ماذا بك ؟

فقالت فى صوت واهن :

ـ أحس بدوار .

فركع إلى جوار السرير وقال وهو يدنى وجهه من وجهها :

ـ أأستدعى لك الدكتور يا حبيبتى ؟

ـ لا . لا داعى للدكتور .

فنهض وهو يقول :

ـ سأذهب لأدعوه ، إنه هنا قريب . الدكتور حازم يعود الآن أم إنصاف ، لقد أغمى عليها فذهبت إنصاف فى طلبه .

وتحرك وهو يقول :

ـ أنا ذاهب .

واستشعر بعض الراحة لأنه أفضى إليها بما كان يخاف أن يثير الزوابع بينه وبينها ، وقالت بهية فى صوت ضعيف :

ـ لا يا عبود . لا تذهب .. تعال إنى أعرف سبب تعبى .

ودار على عقبيه واتجه إليها وهو يقول :

— وما سبب تعبك ؟

قالت وهى تسبل جفنيها على عينيها فى دلال :

— ستصبح أبا يا عبود .

وكأنما تفجرت مستودعات عواطفه ، فأحس مشاعر غنية تتدفق إلى صدره بلا حساب ، فقال فى فرح شديد :

— حقا يا بهية !

فأومأت برأسها أن نعم .

ودار عبود حول نفسه وقلبه يرقص طربا بين جنبيه ، ثم ارتمى عليها يقبلها ، وفطن إلى أن ما يفعله قد يضر بابنه الذى فى بطنها ، فرفع نفسه عنها فى فزع وهو يقول :

— آسف إن كنت آلمتك يا حبيبتى . استريحى .. لا تتحركى أرجوك . سأحضر لك العشاء هنا . من الليلة لن أسمح لك بأن تبذلى أى جهد .

ورنا إليها رنوة طويلة زاخرة بالمحبة ، ثم قال :

— أنا فى شوق إليك يا بنى يا حبيبى .

وقالت بهية :

— قالت لى فتحية إنها ظلت تغسل الغسيل حتى قبل أن تلد بخمس دقائق .

قال عبود :

— حسن لم ينتظر ابنه كما انتظرت ابنى ، لا تجهدى نفسك أرجوك .

وراح يغدو ويروح فى الشقة كالطيف يعد لها العشاء ويحمله إليها وهو غارق فى بهجة ، يتمنى لو يستطيع أن يفتح النوافذ ويصيح بأعلى صوت : بهية حامل . بهية حامل .

وفى البكرة خرج إلى فانوس ، لم يطق أن يبقى فى البيت حتى يحين موعد خروجه ، وما إن رأى فانوس حتى قال له :

— بارك لى .

وفطن فانوس إلى أنه يريد منه أن يسأله : علام ؟ فأراد أن يداعبه ، فقال فى هدوء :

— مبارك .

فقال عبود فى مرح :

ـــ ألا تسألنى عن السبب ؟ سأصبح أبا . بهية حامل . بعد تسعة أشهر ستصبح أسرتنا ثلاثة .

فقال له فانوس :

ـــ أخيرا عرفت الطريق . مبارك .

ـــ استعد يا بطل من الآن للزيادة التى ستطرأ على بطاقتنا التموينية .

وأقبلت إنصاف متطلقة الوجه ، ضاحكة السن ، مرحة الأرداف ، حتى إن عبود كاد ينكر ما جرى فى بيتها بالأمس ، وقالت فى إشراق :

ـــ صباح الخير .

وقال فانوس :

ـــ صباح النور . عينى عليك باردة ، متفتحة كوردة ، أتنام يا جميل على ريش نعام !

وأحس عبود على الرغم من السرور الطاغى المعربد بين جنباته مرارة ، آه لو يدرى ذلك المخدوع أين تنام ، ورأى أن عليه أن يسألها عن أمها ، فقال لها :

ـــ كيف أصبحت أمك ؟

ـــ بخير . الحمد لله .

وظن أن سؤاله عن أمها سيدهش فانوس ، بيد أن فانوس لم يظهر عليه أنه دهش من السؤال ، بل قال لإنصاف :

ـــ باركى لعبود . عرف طريق إنجاب الأولاد . بهية حامل .

فقالت إنصاف فى صدق وحرارة :

ـــ مبارك يا عبود . سأعرف كيف أحتفل بمولده .

فقال فانوس :

ـــ بعد تسعة أشهر بإذن الله .

وقالت إنصاف فى مرح :

ـــ بهية حملت لما غارت من فتحية ، غيرة النساء تفعل أشياء كثيرة .

فقال عبود فى حماس :

ـــ هذا حق . غيرة النساء تزلزل الجبال .

وسارت إنصاف فى طريقها ، ووقف عبود عند رأس الشارع ينتظر السيارة ، ويعيد ما سيقوله لحسن مرات وهو منشرح الصدر متفتح النفس ، وأقبلت السيارة فصعد فى تؤدة ، وذهب إلى حيث كان حسن وجلس إلى جواره . وكان حسن مشغولا فى حديث مع بعض الزملاء ، فانتظر عبود على مضض حتى ينتهى حسن من حديثه ، كان يقول :

ـــ وافق البنك الدولى على أن يقرضنا مائتى مليون دولار لتنفيذ مشروع السد العالى ، ولكنه اشترط أن يشرف على ميزانية الدولة ، ومن المؤكد أننا سنرفض هذا الشرط ، لن نقبل أبدا أن نعود إلى صندوق الدين .

واهتزت السيارة هزة عنيفة ، كان سائقها يتفادى شابا يعبر الطريق ، فانتهز عبود هذه الفرصة ليعلن على الملأ الخبر الذى تعب من كتمانه فى صدره ، فقام يصيح قائلا :

ـــ حاذر يا أسطى على . نريد أن نربى أولادنا ، فقد أصبحت فى أعناقنا أمانة .

ورمقه حسن فى دهشة ، فما كان عبود يثور على السائق مهما ارتكب من أخطاء ، وما كان ممن يلقون الكلام جزافا ، فالتفت إليه وقال :

ـــ خيرا ! ما الذى جد اليوم ؟

فقال عبود فى زهو :

ـــ بالأمس كان فى عنقى روح واحدة ، أما اليوم فقد أصبح فى عنقى روحان ، بهية وابننا .

فضمه حسن إلى صدره وقبله وهو يقول :

ـــ مبارك .

وسمع الجالسون بالقرب منهما ما دار بينهما من حديث ، فنهضوا يباركون لعبود ، وان هى إلا لحظة حتى كانت الأصوات تنبعث من جوانب السيارة تدعو الله أن يبارك لعبود فى ولده الذى سيرى النور بعد تسعة شهور .

وجاء توفيق إلى عبود فى الورشة ، وطلب منه أن يذهب لإصلاح انفجار أنابيب الماء فى الملاحة ، فقال عبود دون مبرر :

ـــ ربنا يستر . أريد أن أعيش لأربى ابنى .

فقال توفيق فى دهش :

ـــ ابنك ؟!

فقال عبود وهو يبتسم :

ـــ نعم . الذى سينزل إلى الأرض بعد تسعة شهور .

وركب عبود القطار الصغير الذى يجوس خلال الشركة ، وذهب إلى أحواض الملح المترامية على مدى البصر ، ومد عينيه إلى السهول البيض التى بدت له فى هذا الصباح ناصعة كالجليد صافية كاللبن ، وملأ رئتيه بالهواء ، وطوح ذراعيه فى مرح ، ونادى بأعلى صوته كأنما يريد أن يسمع الكون كله ، أعظم نبأ :

ـــ سأصبح أبا .. سأصبح أبا .

— ٢٣ —

كان وليمز يجوس بسيارته فى الليل خلال بور سعيد ، فقد كان يلقى عليها نظرة وداع قبل أن يخرج منها مع الخارجين من الإنجليز . كان الهواء يهب رخاء ، وكانت الليلة صافية ، بيد أنه كان كسير الفؤاد ، مضعضع النفس ، يحس حزنا ثقيلا . كان يستشعر فى أعماقه أنه يطوى آخر صفحة فى حياته الحافلة بالغطرسة والكبرياء ، ليهوى من مكانته الرفيعة المرموقة إلى أرض سواد البشر .

أين هو الآن مما كان فيه ؟ كان إذا ظهر يوما فى بور سعيد فى زيه العسكرى ، تلتفت إليه الأنظار وتنحنى له الهامات ، ويهرع إليه الناس لتلبية أية اشارة تبدو منه ، أما الليلة فقد استأذن فى الذهاب لوداع أصدقائه فى المدينة التى طالما تمنى أن يبقى فيها صاحب سطوة وسلطان حتى النفس الأخير .

وانساب فى شارع رمسيس وهو يدير عينيه فى المكان ، يحس أن دموعه تبلل روحه ، كانت دموع غيظ وقهر ، لأنه عاش حتى أرغم على أن يغادر المدينة التى

خيل له غروره أنها ضيعة من ضياع إنجلترا ، أطلقت يده فيها هو وحفنة من زملائه العسكريين .

كان قبلة المقاولين والموردين والطامعين فى أموال الإنجليز ، وكان بالمال الذى ينثره هنا وهناك يلعب بعقول الناس ، أما الليلة فهو بلا مال ، ولا نفوذ ولا سلطان ، ترى لو انفجرت عجلة سيارته ، أيتقدم لمعاونته أحد ؟! .

وعرج إلى شارع النهضة ، وسار يملأ عينيه بالمشاهد التى كان يمر بها دون أن يحفل بها . إنها الليلة شىء آخر ، سيهفو إليها كلما انفرد بنفسه لتذكره بأيام قوته ، أيام أن كان أسطورة من الأساطير .

وزاد فى ضيقه أن كل تفكيره كان يدور حول ماضيه ، لم يجر ذهنه مرة واحدة وراء مستقبله يحاول أن يكشف عنه ستره ، إنه لا يرى نفسه بعين خياله ، بعد عودته إلى بلده ، إلا جالسا فى النادى وحوله ثلة من الرجال والنساء ، يروى على مسامعهم ذكريات الفترة التى قضاها فى مصر أيام احتلالها ، أو عاكفا على كتابة تقرير يسرد فيه تجارب ماضيه ، ترى هل ستنتهى حياته بخروجه غدا ؟! .

وخطر له أن ينطلق إلى حى العرب ، وسرعان ما رفض الفكرة وضاق بها ، كان يتودد إلى الأهالى ليثقوا فيه وليربطهم إليه برباط المودة ، حتى إذا استأنسوا إليه حلت عقد ألسنتهم ، وكشفوا له عن مكنون نفوسهم ، وما أكثر المعلومات التى جمعها من أفواههم . أما الليلة فما الذى يدعوه إلى الذهاب إليهم ، إنه فى قرارة نفسه لا يكن لهم أى حب . بل كانوا بالنسبة له مصادر أخبار لا أكثر ولا أقل .

ونظر فى ساعته ، لقد حان موعد زيارة توفيق وجانيت ، فاتجه إلى دارهما وقد قرر أن يودعهما دون أن يخوض معهما أحاديث السياسة ، حتى لا يكشف عن المرارة التى يتجرعها . كان يؤكد دواما أن إنجلترا ستجد فيما جد من أحداث فى المنطقة ذريعة لنقض اتفاقية الجلاء ، ولكن ها هو ذا يتأهب ليجلو عن مصر غدا دون أن يحدث شىء مما توقعه .

ووقفت السيارة أمام بيت توفيق ، وهبط منها وسار فى خطى ثقيلة نحو الباب . وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء ، وأن يودع توفيق وجانيت فى

التليفون ويعتذر لهما بضيق الوقت ، فهو يحس الهزيمة فى قرارة نفسه ، إلا أنه تشبث بما بقى من كبريائه وتقدم وهو يرفع رأسه ، ثم دق جرس الباب .

وفتح له مرجان ، ولما رآه فسح له الطريق وقال :

— تفضل .

— مساء الخير يا مرجان .

— مساء النور .

وقال وهو يسير خلف مرجان إلى غرفة استقبال :

— أنا مسافر غدا إلى إنجلترا . أتأتى معى يا مرجان ؟

وابتسم مرجان هازئا ، أيظن أنه قطعة أثاث أو تحفة من خان الخليلى سيأخذها معه فى يده ، وقال :

— لا .

وأراد وليمز أن يستمر فى اللعبة التى صادفت هوى فى نفسه ، وإن كان على يقين من استحالة تنفيذها :

— سأعطيك يا مرجان ثلاثة أمثال الأجر الذى تأخذه هنا .

فقال مرجان فى انفعال :

— لا ، ولو أعطيتنى كل ما عندك من مال . أنا أحب بلادى .

وراح وليمز يرمقه وهو يجلس وفى نفسه سؤال : « أيفهم هذا العبد الأسود حقيقة ما يقول ؟ ماذا يهمه من دنياه إلا أن يملأ بطنه ويسكر ولا يحمل فى هذه الدنيا هما » ؟!.

وتركه مرجان فى الغرفة وحده ، ليس معه إلا أفكاره . وأرضت خيال وليمز فكرة أن مرجان بجلبابه الأبيض وحزامه الأحمر ومركوبه الأحمر وطربوشه الأحمر سيسافر معه ويقدم له ولضيوفه شاى الساعة الخامسة . آه لو جاء معه مرجان لعاونه على أن يعيش فى الجو الذى يذكره بسيادته وعظمته ونفوذه وسلطانه .

وتململ فى جلسته وقد اشتد حنقه ، فكل شىء قد تسرب من بين يديه وهو يحاول أن يقفل قبضته على أوهام ، وراح يحرض نفسه على أن يتماسك وأن يكبت

عواطفه وألا يفقد روحه المرحة أبدا ، وإن أرهق ذلك أعصابه ، حتى لا تهتز صورته فى أذهان آخر من سيرونه قبل مغادرة المسرح .

وأقبلت جانيت وتوفيق إلى جوارها ، فلما رآهما نهض يستقبلهما وقد بدا البشر عليه . قال لجانيت :

ــ أنت رائعة الليلة ، ولولا خوفى من غيرة عطيل لقبلتك .

فقال توفيق وهو يبتسم ويحرك قبضتى يديه كأنما يطبق على عنقه :

ــ لو فعلت لخنقتها الليلة بيدى هاتين وهى نائمة فى فراشها .

وقالت جانيت لوليمز مداعبة :

ــ قد يغفر لك القبلة ، ولكنه لن يغفر أبدا أن يعثر على منديلك هنا ، أرجوك أن تتأكد قبل انصرافك أنك لم تنس منديلك .

وضحك وليمز وسرعان ما غاضت ضحكته ، غلبه حزنه الذى كان يستولى عليه تلك الليلة ، وقالت له جانيت :

ــ ماذا تشرب ؟

فقال بلهجة أولاد البلد :

ــ قهوة سادة .

عبر فى كلمتين عن أشجانه ، وفهمها توفيق فقال مازحا :

ــ عندنا الليلة شربات ورد .

ورمقه وليمز بعيون مفتوحة ، الجميع فرحون لخروجهم حقا ، ولكنه ما كان يدور بخلده أن توفيقا فى غمرة سروره ينسى أبسط قواعد المجاملة .

وقالت جانيت لوليمز :

ــ ما كنت أحب أن أتحدث فى السياسة الليلة ، ولكن لى نصيحة أحب أن أقولها .

ــ قولى .

واعتدل وليمز ليصغى إلى نصيحتها ، قالت :

ــ أنصح أن نخطب ود هذا الشعب بعد الجلاء ، وأن نعبر له عن حسن

نوايانا نحوه .

ــ وبماذا تشيرين ؟

ــ أن نعاون مصر على إقامة مشروع السد العالى .

فابتسم ويمز ابتسامة هازئة وقال :

ــ ونغضب أصدقاءنا فى هذه المنطقة ؟

فقال توفيق فى إنكار :

ــ إسرائيل ؟

ــ لا . نورى السعيد . إنه يطلب منا عدم تقديم أى عون لمصر حتى لا يفقد هيبته فى المنطقة .

فقال توفيق فى حماسة :

ــ عيبكم أنكم تساندون دائما البغاة وجلادى الشعوب والخونة . ساندتم إسرائيل وتساندون اليوم نورى السعيد وعبد الإله وفيصل .

ــ إنا نساند أصدقاءنا . نساند العرب فى المنطقة .

ــ بل تساندون خدامكم ، الذين ينفذون سياستكم ويمكنون لكم من استغلال المنطقة .

قالت جانيت :

ــ نورى السعيد لا يمثل الشعب العراقى ، ولا عبد الإله وفيصل .

فقال ويمز :

ــ السياسة ليست بهذه البساطة .

فقال توفيق :

ــ تقصد السياسة الملتوية ، السياسة التى فتح لها الساسة البريطانيون مدرسة يلقنون فيها من يريد أن يتلقى العلم فيها ، الغش والخداع وفساد الذمة و..

فقال له ويمز فى ثورة :

ــ لا يا توفيق ، هذه إهانة .

فقالت جانيت على الفور :

ـــ أتعرف ياويلز ماذا قال جوردون : الرجل الطيب الذى كان يحكم السودان ، والذى زج به الساسة فى مآزق ليقتل وليستغلوا دمه فى تحقيق مآربهم الاستعمارية ؟ قال « الشعب البريطانى طيب القلب ، أما ساسته فهم أوغاد مراوغون جبناء لا خلاق لهم » .

فقال ويلز فى إنكار :

ـــ لم أسمع أن جوردون قال هذا القول أبدا .

فقال له جانيت :

ـــ اقرأ كتاب « النيل » لإميل لودفج ، وستقرأ فيه هذا القول وزيادة .

وقال له توفيق :

ـــ ما الذى بيننا وبينكم ؟ لماذا تكرهوننا كل هذه الكراهية ؟

ـــ ليس بيننا وبينكم إلا هذا الرجل ، لو أزحناه من طريقنا لم يعد بيننا وبينكم شيء . إنه يبث الكراهية لنا فى كل مكان . فى باندونج ، فى الهند ، فى يوغسلافيا .

قال توفيق :

ـــ لو كان وحده الذى يعتنق الآراء التى يعلنها لهان أمره ، ولكنه يعبر عن آراء الناس جميعا فى منطقته ، ومن هنا كان خطره . ما من عربى واحد لا يؤمن بما يقوله عن القومية العربية .

فقال ويلز :

ـــ ليتك تسمع ما يقوله نورى السعيد والحكام العرب عن القومية العربية التى يدعو إليها ناصر .

فقال توفيق :

ـــ هؤلاء تجار سياسة ، لا يعبرون إلا عن آرائهم التى تحقق لهم مصالحهم الشخصية . هل أثرت آراء نورى السعيد فى الوطنيين فى البحرين مثلا ؟ انظر ماذا فعلت آراء عبد الناصر فيهم . من كان يصدق أن تقوم فى البحرين ثورة ضدكم .

قالت جانيت :

ـــ من الخير لإنجلترا أن تمد له يدها ، أن تقف مرة فى صف أمانى الشعوب .

إنه يطلب معونة إنجلترا وأمريكا لتمويل إقامة السد العالى . وهذه فرصة يجب ألا تفوت بريطانيا .

فقال وليمز ساخرا :

ـــ على بريطانيا أن تمده بالقوة التى تمكنه من طردها من المنطقة كلها ، وعلى أمريكا أن تعاونه على أن يزيد الرقعة المنزرعة من الأرض ليزرع قطنا ، وينافس قطنها . هذا ليس منطقا يا جانيت .

فقال جانيت :

ـــ إن رفض الغرب أن يمول السد العالى فستموله روسيا .

ـــ إن رفضت إنجلترا وأمريكا تمويله ، فلن يقوم هذا السد أبدا .

فقال توفيق :

ـــ كان هذا هو الوهم الذى بنيتم عليه سياسة حظر توريد الأسلحة لنا ، بينما كنتم تغرقون بها أعداءنا ، وقد استطعنا أن نفلت من حصاركم ونشترى الأسلحة من روسيا .

فقال وليمز فى شماتة :

ـــ زرعتم الحنظل ولن تجنوا إلا المر الذى زرعتموه . لا أظن أن صفقة الأسلحة هذه ستمر بسلام .

فقال توفيق :

ـــ لقد مرت يا مستر وليمز ، وسيأتى الروس لتمويل السد العالى إن رفضتم معاونتنا .

وقالت جانيت :

ـــ ليس من الحكمة فى شىء أن ترفض أمريكا وإنجلترا تمويل هذا المشروع بعد أن أصبح مشروعا شعبيا تعلقت به قلوب الجماهير . لن يترك الرفض إلا المرارة فى قلوب الناس ، وستقبل مصر المعونة السوفيتية .

فقال وليمز فى غضب :

ـــ لو فعلت لكان معنى ذلك الحرب ، فلن نسكت أبدا هذه المرة على دعوة

الشيوعية إلى المنطقة ، وفتح أبواب البلاد العربية لها .

فقال توفيق فى غيظ :

— اسمح لى يا مستر ويلمز أن أقول لكم : إنكم بغبائكم وغباء أصدقائكم الأمريكان تدعون الشيوعية إلى المنطقة .

فقال ويلمز فى ثورة :

— لماذا كل هذه الإهانات الليلة ؟ جئت لأودعكم وقد عزمت على أن يكون وداعا هادئا بلا جدال ولا جروح ، ولكنك يا سيد توفيق أبيت إلا أن تلقى قفازك فى وجهى ، فآسف إن اضطررت إلى التقاط قفازك . كنتم يا سيد توفيق شيوعيين مقنعين وقد آن الأوان لترفعوا القناع عن وجوهكم ، أبرمتم اتفاقيات سرية مع الشيوعيين واعترفتم بالصين الشعبية وتفاوضوننا على تمويل السد العالى ، بينما تفاوضون فى نفس الوقت روسيا سرا .

قال توفيق :

— لو كنتم أذكياء لقبلتم تمويل السد العالى وضيعتم علينا فرصة الاتفاق مع روسيا إن كان ما تزعمه حقا . إن صحافتكم كلها تجاهر بعدائنا حتى إن بعض المتهوسين اقترحوا إقامة سد فى كينيا لمنع ماء النيل عنا !

— صحافتنا تكره ما تقومون به لجر الشيوعية إلى المنطقة .

فقال توفيق :

— للأسف الشديد تخضع أغلب صحافتكم لنفوذ اليهود .

— هذا كذب .

— هذه هى الحقيقة ، وعلى كل حال فأنتم أسعد حظا من أمريكا ، فإن كان اليهود يسيطرون على صحافتكم فهم يحتلون أمريكا .

فابتسم ويلمز وقال فى دهاء :

— كنت أظن أنك جاد فى حديث الليلة ، وإذا بى أكتشف أنك تريد أن ترفه عنى .

قال توفيق :

— إن حاولت بهذا الأسلوب الساخر أن تنكر هذه الحقيقة فكثير من الأمريكان يعترفون بها . قلت ذات يوم لصاحب مصنع فى أمريكا : لماذا لا تقاطع اليهود ؟ فقال لى : كيف أقاطعهم وكل الخامات التى أستخدمها فى مصنعى فى قبضة أيديهم ؟

وجاء مرجان وأعلن أن العشاء قد أعد ، فنهض وليمز وقال دون تفكير :

— العشاء الأخير .

فقالت جانيت :

— فى بور سعيد لا فى أورشليم ، ومعنا لا مع الحواريين .

فقال وليمز :

— ألا ما أروع صبر السيد المسيح على الآلام التى تحملها !

— وما أكثر الذين يتحملون آلام السيد المسيح فى هذه الأرض .

وقالت جانيت وهى تسير إلى جوار وليمز :

— أبى ، لماذا كتبت على أن أتجرع هذه الكأس ؟!

والتفت توفيق إلى مرجان وقال له :

— إذا جاء عبود فأخبرنى .

وساروا ليتناولوا معا العشاء الأخير .

ومر الوقت وهم يتسامرون ، ودخل مرجان فمال على أذن توفيق وهمس قائلا :

— عبود جاء .

فقال له توفيق :

— أدخله غرفة النوم ليصلح الأباجورة الكبيرة .

وذهب مرجان وقاد عبود إلى غرفة النوم ، ولمح عبود وهو فى طريقه وليمز يضحك وجانيت متهللة الأسارير فامتعض ، إنها تحتفى برحيل ذلك الرجل البغيض ، ومن يدرى لعله ما جاء إلا ليتفق معها على أن تقوم بما كان يقوم به قبل أن يرغم على مغادرة البلاد .

وعكف عبود على إصلاح الأباجورة وذهنه شارد : « لا يا عبود ! لا أظن

أن جانيت تقبل أن تعمل جاسوسة . وما الذى يمنعها من ذلك ؟ إنها إنجليزية ، فإن تجسست علينا فهى تخدم مصالح بلادها . وتوفيق ؟ زوج ككل الأزواج المصريين الذين تزوجوا أجنبيات ، إن وقف فى طريق تحقيق مآربها ضربته بالرصاص.

حرام عليك يا عبود ، حرام ؟ وهل افتريت عليها ؟ ما أكثر الأجنبيات اللاتى ضربن أزواجهن المصريين بالرصاص ، أو اللاتى هجرنهم بعد أن امتصصن دماءهم . ليت وليمز يأخذ جانيت فى يده وهو راحل ويريحنا منها ، سيحزن عليها توفيق ، وأنا لا أحب أن يساء ذلك الرجل الطيب . سيحزن قليلا ثم يعوضه الله مصرية خيرا منها تنجب له أولادا . ما الذى يعجبه فى هذه المرأة العاقر ؟ إن كانت بهية ظلت عاقرا حتى اليوم أفكنت تطلقها يا عبود ؟ لا . لست وضيعا لأفكر فى شىء من ذلك ، ما ذنبها ؟! وما ذنب جانيت إن كانت لم تحمل حتى اليوم ، وما أدراك أنها لم تتفق هى وتوفيق على ألا ينجبا أولادا حتى الآن ؟ هل يمكن أن يحتمل زوجان مرور السنين دون أن يكون لهما ولد ؟ مالك أنت يا عبود وللناس ؟ لماذا لا تدع كل إنسان يدبر أموره ؟ إنى أحب توفيق وأشفق عليه من هذه الإنجليزية التى تشع عيناها مكرا ودهاء ، هو أدرى بمصالحه . قد يكون حبه إياها أعماه عن أن يراها على حقيقتها ؟ أترى أنت بهية على حقيقتها ؟ أعرفها أكثر مما تعرف نفسها ، إنها غيور ، تغار من خيالها فى المرآة ، وإنى أحبها على الرغم من هذه الغيرة التى كثيرا ما تعكر على صفو حياتى » .

وظل عبود يعمل بيديه وعقله دائب فى التفكير فى وليمز وجانيت وتوفيق وبهية ، وقفز إلى ذهنه سليمان ، وفكر فيما وصل إليه وما ينتظره من مستقبل كله متاعب وآلام .

وانتهى عبود من إصلاح الأباجورة فغادر غرفة النوم ومرجان يسير معه . وما إن سار خطوات حتى وجدا أنفسهما أمام وليمز وجها لوجه ، كان يودع جانيت الوداع الأخير ، ووقعت عيناه عليهما فقال لعبود :

— مساء الخير .

فقال له عبود :

ـــ مع السلامة .

وقال وليمز لمرجان :

ـــ أراك بخير .

وتذكر مرجان فجأة ما قالته إنصاف لبهنس لما عرض عليها الزواج ليلة الاحتفال بأسبوع ابن حسن ، فقال له كما قالت :

ـــ فى الجنة ونعيمها إن شاء الله .

وانصرف وليمز وتوفيق وجانيت يسيران خلفه حتى الباب ، والتفت عبود إلى مرجان وقال له :

ـــ لن تتقابلا أبدا بعد اليوم ، ولا فى الآخرة ، فأمثال وليمز لا يدخلون الجنة أبدا .. اللهم إلا إذا كانت أعمالك فى لون وجهك فستلتقيان فى جهنم .

وابتسم مرجان ابتسامة عريضة ، فلاحت أسنانه ناصعة البياض فى رقعة وجهه السوداء وقال :

ـــ إن الله لا ينظر إلى وجوهنا ، بل ينظر إلى قلوبنا .

فقال له عبود مازحا :

ـــ لو أفاد فى هذا بياض الأسنان ، لضمنت لك الجنة .

— ٢٤ —

سار توفيق وعبود وحسن فى طرقات الشركة لا يلوون على شىء ، كانوا يتحدثون حديثا يقطر مرارة ، فقد أحسوا أن ما فاضت به صحف الصباح مهين كل المهانة ، وإنه إساءة وجهت إلى كل المصريين ، قال حسن :

ـــ كيف قرر دالاس سحب القرض الأمريكى بعد أن أعلن موافقته على تمويل مشروع السد العالى ؟ وكيف رضى وهو وزير خارجية مرموق أن يتبع هذه الطريقة المزرية ؟

قال توفيق :

ـــ ظن أنه بهذه الطريقة يوجه ضربة قاضية إلى عبد الناصر .

فقال حسن فى انفعال :

ـــ إنه بما فعل وجه الإهانة لنا ، إنه سمح لنفسه أن ينقدنا وأن يلومنا وأن يتدخل فى أخص شئوننا الداخلية ، لماذا كل هذه الإهانات ؟

قال توفيق :

ـــ ليرد على الحياد الإيجابى الذى يدعو إليه الرئيس ، فهو يرى أن الحياد الإيجابى مفهوم غير أخلاقى ، وليرد على صفقة الأسلحة التشيكية .

فقال عبود فى بساطة :

ـــ إنه بما فعل سيخسر كل العرب ، لن يرضى أى عربى عن هذه الإهانة .

فقال توفيق وهو يبتسم فى مرارة :

ـــ يظن مستر دالاس ومستر إيدن أنهما بهذا الإجراء يؤيدان صديقهما نورى السعيد .

فقال حسن فى غيظ :

ـــ ولماذا لا يكونان بهذا الإجراء يعملان على التعجيل بنهايته ؟

فقال عبود فى تخاذل :

ـــ وهل يستطيع الرئيس أن يصمد فى وجه أمريكا وإنجلترا ؟ إنا لا نملك إلا أن نستسلم لإرادتهما .

فقال حسن فى ثورة :

ـــ لو استسلمنا لهذه الإهانة فقدنا كرامتنا إلى الأبد .

وقال توفيق :

ـــ لا أظن أننا نسكت على هذه اللطمة .

فقال عبود :

ـــ وماذا نستطيع أن نفعل ؟ ليس أمامنا إلا أن نرضخ لمشيئة دالاس وإيدن ونورى السعيد ، للأسف الشديد .

فقال حسن فى انفعال :

ـــ لن يطأطئ عبد الناصر رأسه لهذه الإهانة .

وقال عبود فى أسى :

ـــ لا أفهم لماذا يؤلب زعيم عربى أعداء العرب على زعيم عربى آخر ، لمصلحة من ؟

فقال توفيق :

ـــ لتحقيق مآرب شخصية . للإبقاء على نفوذه و سلطانه وابتزاز من أوقعهم سوء طالعهم تحت حكمه . لقد كانت هذه الآفة سبب تمزق العرب . إنها هى التى أضاعت الأندلس ، التنافس بين بغداد و قرطبة كان سبب نكبة العرب فى الأندلس ، وأخشى أن يكون التنافس بين بغداد والقاهرة سببا فى القضاء على العروبة.

فقال حسن فى حماسة :

ـــ لقد استيقظت العروبة ، ولن تسمح شعوبها للمستغلين من حكامها أن يقضوا عليها .

وقال عبود لتوفيق :

ـــ وكيف أضاع التنافس بين بغداد وقرطبة الأندلس ؟

ـــ كان هارون الرشيد يتقرب إلى شارلمان ملك فرنسا ويهديه الهدايا ، لأنه كان يحارب أعداءه العرب فى الأندلس . كنا نقرأ ونحن تلاميذ فى المدارس فى سرور عظيم أن هارون الرشيد أهدى ساعة إلى شارلمان ، وأن شارلمان خاف منها فى أول الأمر ثم أعجب بها ، وما كنا ندرى أن هذه الهدايا إن هى إلا الخنجر المسموم الذى يطعن به العربى أخاه العربى ، لا لشيء إلا لإرضاء الجشع والطمع والغرور .

ـــ وكيف كان العرب فى الأندلس أعداءه وهو خليفة المسلمين ؟

ـــ كان الأمويون الذين انتزع العباسيون الملك منهم فى الشرق يحكمون الأندلس ، فكان هارون الرشيد ومن جاء بعده من الخلفاء العباسيين ، يرون فى بقاء الدولة الأموية فى الأندلس خطرا عليهم ، فكانوا يشجعون ملوك الفرنجة على القضاء على العرب فى أسبانيا .

وقال حسن فى مرارة :

ـــ ولم يسكت الأمويون على هذه العداوة بالطبع ؟

قال توفيق :

ــ هذا ما كان ، فالأمويون فى الأندلس كانوا يتقربون من ملــوك القسطنطينية ويحرضونهم على التحرش بالعباسيين فى بغداد .

فقال حسن فى أسى عميق :

ــ وكان أن وهن العرب أجمعون ، واشتد ساعد الأوروبيين .

وقال عبود فى حيرة :

ــ إنى فى دهشة من أمر الناس ، لماذا يفنون أعمارهم فى عداوات ومشاحنات وحروب وأيامهم على الأرض معدودة ؟! لماذا لا يعيشون فى سلام ، إخوانا متعاونين متحابين ؟

فقال له حسن :

ــ لأنهم بشر .

وانقضى النهار ولم تهدأ ثورة النفوس : لماذا وجهت أمريكا إلينا هذه الإهانة على أعين الناس ؟ لماذا أعلنتها من أعلى منبر على الملأ ؟ لا يمكن أن تكون هذه الإهانة بلا هدف ؟ أهى مؤامرة بين إنجلترا وأمريكا ؟ ترى ماذا وراءها ؟ ماذا سيفعل الرئيس عند عوته من بريونى ؟ كان الله فى عونه وعوننا ، فما كنا نحسب أن الخداع قد يصل إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط ! .

ووقفت بهية فى النافذة ترقب عودة زوجها وقد بدأت الغيرة تنهشها ، أقبل الليل وأضيئت الأنوار فى الشارع ولم يعد عبود بعد ، ترى أين هو الآن ؟ وخطر لها أنه قد يكون ذهب إلى سليمان ، فتحرك غضبها .

ما الذى يربطه بذلك الشريد الذى لا يفيق من سكره أبدا ؟ إن الشيخ حسن قطع كل ما كان بينه وبين ذلك السكير ، لأن الشيخ حسن رجل مستقيم ، فما الذى يربط بين عبود وبين سليمان ؟ عبود لا يشرب الخمر . ولكن ما أدراها أنه لا يذهب معه إلى النساء ؟

ومشى التعب إلى أوصالها فغادرت الشباك وراحت تدور فى الغرف ، ولم تطق البعد عن نافذتها طويلا ، فما لبثت أن عادت وفى جوفها ثورة وقلق

وضيق ، وأخذت تمد عينيها إلى الطريق وهى تكاد تبكى من الغيظ .

ولمحت عبود قادما وحده . فهدأ قلقها وبدأت نفسها تصفو ، وتأهبت لاستقباله إلا أنها رأت إنصاف خلفه فدق قلبها حنقا ، وتطاير الشرر من عينيها ، وضربت قاعدة الشباك بقبضتها ، وراحت تشهق وتزفر فى صوت مسموع ، وزاد فى كربها أن شيطانها راح يوسوس لها أن عبود ما تأخر إلا لأنه كان مع الفاجرة .

واقتربت إنصاف من عبود وحيته فرد عليها التحية بابتسامته ، وسارت إلى جواره وكتفه يلمس كتفها . ياللعار ! لم يعد عبود يخجل من أن يظهر معها فى الطريق على أعين الناس ، إنه أمسى يستخف بها ، إن ما يفعله إهانة لها ولن تسكت على هذه الإهانة أبدا . ستصرخ فى وجهه ، وستقول له إنه يخونها ، إنه يحتقرها ، ولن تسمح له بعد الليلة أن يمرغ كرامتها فى الوحل . إنها لن تتردد فى أن تترك له البيت غاضبة إن لم يبرر لها مسلكه هذا تبريرا يرضيها ، ولكن إلى أين تذهب إذا غضبت وليس لها أحد بعد أن ماتت أمها وطال غياب أخيها ؟

وأحست قهرا وودت لو تبكى ، بيد أنها خشيت أن تمتلىء عيناها بالدموع فيفوتها حركة من حركات زوجها مع المرأة التى تتطلع إليه تكاد تأكله بعينيها .

وبلغا باب البيت . ياللدهشة ! عبود لم يدلف إلى بيته بل سار معها . إلى أين ؟ لعله يسير إلى جوارها حتى يصل إلى القهوة ثم يودعها ويتركها تنطلق إلى دارها .

واشرأبت بعنقها ، وخفق قلبها رهبة ونز بالأسى ، وأطبقت قبضة الحنق تكتم أنفاسها فجعلت تلهث ، ودماؤها الثائرة تتدفق كاللهب تكاد تشوى وجهها .

وأشرفا على القهوة ولم يعرج عبود إليها ، بل سار مع إنصاف إلى بيتها . أبلغ بهما الاستهتار أن يصعد مع الفاجرة جهارا دون أن يتستر أو يتوارى عن أعين الناس أو ينسل خفية إليها ؟!.

ودارت الدنيا بها وأظلمت فى عينيها ، وصارت كلبؤة جريحة تريد أن تنشب أظافرها فيمن طعنها ، فغادرت الشباك واندفعت كالعاصفة نحو الباب ، وراحت تهبط فى الدرج قفزا وقد أنستها ثورتها ما فى بطنها ، وانسابت فى الطريق وهى تزمجر وتتوعد وترغى وتزبد ، وتصيح فى غضب شديد صيحات زلزلتها وإن لم

تصل إلى مسامعها :

ـــ أبلغت بك الجرأة يا عبود أن تخونني وأنا أنظر ؟! هذه وقاحة لن أسكت عنها ، سأفضحك وأفضحها وسأدك البيت على رأسك ورأس المومس دكا دكا . لماذا أبقى عليك بعد أن سفحت كرامتى ، بعد أن مزقت أحشائى ، بعد أن جرعتنى كئوس المذلة ؟!

ووصلت إلى بيت إنصاف وقد توترت أعصابها وتفجرت مراجل غضبها وأفلتت منها ضوابط نفسها ، فصارت فى ضراوة وحش كاسر وجد الخطر أحدق به من كل جانب ففقد كل سلطان له على عقله ، ولم تعد تحركه إلا غريزة البقاء.

وصعدت فى الظلام كأنما كانت تعدو فى سباق ، ودقت باب شقة إنصاف دقات عنيفة ثائرة . وما لبث أن انفرج الباب عن إنصاف ، فلما رأت بهية لاح فى وجهها دهشة ، وزاد فى دهشتها أن بهية هجمت عليها تنحيها من طريقها وهى تقول فى صراخ وانفعال وغضب :

ـــ أين هو ؟ أين هو ؟

فقالت إنصاف فى استغراب :

ـــ من ؟

فقالت بهية وهى تدفعها من أمامها :

ـــ أين أخفيته ؟ السافل . المنحط .

فقالت إنصاف فى غضب :

ـــ أنا لا أخفى أحدا .

وانفجرت بهية صائحة :

ـــ إنه عندك . إنه هنا .

ونفد صبر إنصاف فصاحت فيها :

ـــ قلت لك : لا أحد عندى . ماذا تظنيني ؟ إنى لا أسمح لك أبدا أن تهينيني هذه الإهانة .

ـــ إنى رأيته . رأيته بعينى هاتين وهو يصعد معك .

ـــ اعقلي يا بهية واخفضي صوتك .

ـــ تخافين الفضيحة ! لو كنت تخافين الفضيحة ما جئت به إلى هنا .

ـــ لا يا بهية ! لا تدفعيني إلى ضربك . حاذري .

ـــ تخفين زوجي عندك يا فاجرة .

ـــ اخرسي . أنا أشرف منك .

ودفعتها بهية في قسوة ، واندفعت كالمجنونة تنقب عن زوجها في الغرف وهي تصيح وقد خنقتها عبراتها :

ـــ عبود ! .. عبود ! .. عبود !

فقالت لها إنصاف :

ـــ عبود سار معي حتى باب البيت ، كان يسألني عن صحة أمي ثم عاد إلى القهوة . اذهبي إلى القهوة وستجدينه هناك ، وكفى إهانات .

وظلت بهية تدور وتتلفت دون أن ترى شيئا وهي تنادي في غيظ شديد :

ـــ عبود ! .. عبود ! .. عبود !

ولم تعد تحتمل شدة وطأة عواطفها الثائرة الحانقة الخانقة المتشككة القاسية ، فانهارت على أريكة محطمة ، وأخفت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . وزاد في أساها أنها أحست أنها ضعيفة خائرة منهارة .

وأشفقت إنصاف عليها ، فمالت عليها وراحت تربت في حنان على ظهرها :

ـــ لماذا تعذبين نفسك كل هذا العذاب يا بهية ؟

فقالت بهية وهي مطرقة :

ـــ ليس لي في هذه الدنيا إلا عبود ، فهو أبي وأمي ، وأخي وأختي ، وهو أبو ذلك الذي في بطني ، فأرجوك يا إنصاف أن تتركيه لي ، إن لم يكن إكراما لخاطري فمن أجل الطفل البريء الذي أحمله .

وبللت الدموع عيني إنصاف فقالت في تأثر :

ـــ أقسم لك يا بهية ليس بيني وبين عبود شيء مما تفكرين فيه .

فقالت بهية في تأثر :

— الرجال كثير يا إنصاف ، أكثر من رجل يتمنى أن يتزوجك . مأمون أخى يعزك ، ولولا سفره ما أحجم عن أن يخطبك ، أما أنا فليس لى غير عبود . اتركيه لى .

وصمتت بهية قليلا ثم قالت :

— عندما يأتى مأمون سأعرض عليه أن يتزوجك .

وأحست إنصاف أنها أمام طفلة ، صغيرة غريرة وإن انتفخ بطنها ، فقالت لها:

— اطمئنى يا بهية . أقسمت لك أن ليس بينى وبين عبود شيء . وأقسم لك أنى لم أفكر يوما فى أن أخطفه منك ، ولو كنت أريد أن أتزوج كما تتزوج الفتيات لتزوجت من سنين ، ولكنى عزمت ألا أتزوج إلا رجلا يستطيع أن يجعلنى أحس أن حياتى بدونه لا تساوى شيئا ، رجلا لا أصبر على بعده لحظة .

فعادت بهية تقول لترضيها ولتحول أفكارها وجهة أخرى غير زوجها :

— وما رأيك فى مأمون ؟

فقالت إنصاف فى صدق :

— شاب لطيف ، ولكنى أقول لك إنى لم أحس نحوه ذلك الإحساس الطاغى الذى يجعلنى أربط حياتى بحياته ، ولو تقدم إلى يخطبنى لرفضت طلبه .

فقالت بهية فى إنكار :

— لماذا ؟

فقالت إنصاف وقد شردت بنظرها ولاح فى وجهها الجد :

— لأنى لو كنت أحببته ذلك الحب الذى أتصوره ما أطقت فراقه كل هذا الزمن ، ولذهبت إليه لأسعد بقربه أينما كان .

فقالت بهية وهى ترنو إليها لعلها تقرأ ما تحاول أن تخفيه :

— تعلمين أن ذهابك إليه مستحيل .

فقالت إنصاف وهى تبتسم :

— الذهاب يا بهية قد يكون بالروح ، لو كان هو الرجل الذى أتمناه لظلت روحى ترفرف حوله بالليل والنهار .

وأحست بهية بعض الراحة ، إن كانت إنصاف صادقة فيما تقول فلم تعد هناك ضرورة بأن تضحى بأخيها فى سبيل هناءتها ، وأرادت أن تجاملها بعد الإهانات التى سددتها إليها فقالت لها :

— ترى من ذلك الرجل الذى سلب قلبك ؟

فقالت إنصاف فى ثقة :

— قلبى لا يزال فى مكانه ، ولو خفق يوما بالحب فلن أتردد لحظة فى أن ألبى نداءه .

وانقشعت ثورة بهية واستشعرت راحة . سرها أن ما أحنقها وزلزل كيانها كان أوهاما ، وبدأت ترى فى وضوح كل ما حولها ، رأت البؤس المنتشر فى المكان ، وسرت شفقة طاغية إلى كيانها لما وقعت عيناها على أم إنصاف ممدودة فى فراشها كمومياء ، ولم تستطع أن تصبر على ما تراه فنهضت لتفر من المكان ، وقالت لإنصاف :

— آسفة ، أرجو أن تصفحى عنى . عذرى أنى رأيت عبود معك ، فخفت أن أفقد الرجل الذى أسير به فى الحياة .

فقالت لها إنصاف :

— اطمئنى ، عبود رجل طيب ، ليس له فى هذه الدنيا إلا بيته .

وسارت بهية خطوات ، وسرعان ما التفتت إلى إنصاف وقالت فى توسل :

— لى عندك رجاء .

فقالت لها إنصاف وقد تفتحت لها :

— تفضلى .

فقالت بهية وهى تدنو منها حتى تكاد تلتصق بها :

— أرجوك ألا تقولى لعبود إنى جئت إلى هنا أبحث عنه عندك .

فقالت لها إنصاف وهى تبتسم كما تبتسم لطفلة صغيرة ، لتسكن الطمأنينة قلبها :

— لن أقول له :

وخرجت بهية وإنصاف تقول لها :

ــ أرجوك ألا تكون هذه آخر زيارة لك . أحب أن أراك ولكن فى ظروف أحسن .

فقالت بهية وهى تهبط فى حذر :

ــ إن شاء الله .

وخرجت إلى الطريق خائفة تترقب ، كانت تخشى أن يلمحها عبود فيسألها أين كانت ، ترى ماذا تقول له إن رآها ووجه لها هذا السؤال ؟ وانسلت من أمام القهوة وقلبها يدق رهبة ، حتى إذا بلغت دارها فى أمان زفرت فى راحة ، واتجهت إلى سريرها وارتمت فيه وهى تتوارى خلف كفيها من الخجل .

— ٢٥ —

تمدد عبود فى سريره وأسبل جفنيه وراح يفكر فيما عرضه عليه حسن ، فأحس أنه يتضاءل وينكمش ، فقد طلب منه حسن أن يخبر توفيق أنهما قررا ترك الشركة إن لم تنظر فى تحسين حالتهما ، فقد عرض عليهما العمل فى شركة أخرى بشروط أفضل من الشروط التى يعملان بها .

إنه يرى فيما عرضه عليه حسن استغلالا لعطف توفيق عليه ، فما تأخر توفيق أبدا عن أن يخدمه إذا ما أتيحت له أية فرصة ، « حتى إن أكثر من شكوى من مجهول قدمت إلى كل الجهات تتهم توفيق بمحاباتى لأنى أقوم بصنع أشياء له فى الورشة » .

وثارت الدماء حارة فى عروقه واستشعر ضيقا ، وإذا به يقسم لنفسه ليريحها من القلق الذى ساورها : « والله ما فعلت له شيئا فى الورشة ، ووالله ما قمت له بعمل فى بيته إلا ودفع لى أكثر مما أستحق » .

وتذكر شكوى همس بها أحد أصدقائه فى أذنه ، ولم يفاتحه أحد من المسئولين فيها لأنها كانت شكوى دنيئة خسيسة كانت تفترى عليه وعلى زوجة توفيق الإنجليزية وتؤكد وجود علاقة بينه وبين السيدة ! يا للسفالة ويا للحطة ! إن قلبه لم يتفتح يوما لجانيت فهو لا يكرهها ولكنه لا يرتاح إلى وجودها ، ويا طالما تمنى لو أن توفيق لم يتزوجها .

إن هذه الشكوى الحقيرة أحنقته ، حتى إنه ضاق بها وهم أكثر من مرة أن يفاتح حسن فيها ، بيد أنه كان يمسك لسانه بعد صراع مرير مع نفسه حتى لا يسيء إلى سمعة السيدة دون قصد منه ، وتصور مرات أن هذا الاتهام الظالم وجه إلى بهية وأن بعض من لا خلاق لهم كتب أن هناك علاقة شائنة بينها وبين توفيق ، فكاد يموت من الكمد والغيظ ، وود لو يعرف هؤلاء السفلة ليشرب من دمائهم .

وضايقه أن خطر على باله أن يقتل أحدا من البشر ، فهو لا يطمع فى أكثر من أن يعيش أيامه فى هذه الدنيا فى سلام ، وهو يحسب أن ذلك مطلب يسير ، بيد أن الناس لا يتركونه يحقق أحلامه المتواضعة ، بل يقتحمون عليه عزلته ويحاولون أن يمرغوه فى الأوحال . لماذا يفعل الناس ذلك ؟

الناس يجدون متعة فى الخوض فى أعراض الآخرين ، إنه هو نفسه ما كان يتردد فى أن يلقى التهم جزافا على من يعرف ومن لا يعرف ، وكان يسره أن أصدقاءه يصغون إليه وقد أرهفوا آذانهم ولاح فى وجوههم الاهتمام الشديد ، كان ذلك حاله إلى أن دخل ذات ليلة ونام ، وإذا به يرى فيما يرى النائم أنه يأكل لحم إنسان ميت ، وهب من نومه مذعورا ، وزاد فى خوفه أنه بعد أن استيقظ ظل يحس أن لحم الميت ما يزال عالقا بأسنانه ، وتفززت نفسه واستولى ذلك الحلم الرهيب على كل تفكيره ومشاعره ، وبقى طعم الميت فى فمه وفى روحه ، ومرت عليه ثلاثة أيام رهيبة ، وأراد أن يشاركه أحد فى حمل عبء ذلك الحلم الذى نغض عليه حياته ، فذهب إلى حسن وقصه عليه ، فقال حسن فى فزع :

— أعوذ بالله ! أمسك لسانك عن الناس .

ومنذ تلك الليلة سلم الناس من لسانه ، ولكن ما أكثر الألسنة التى لا تتحرك إلا لتدنيس كل شريف ، وهتك كل مستور !

وعاد يفكر فيما عرضه عليه حسن فقرر ألا يقول لتوفيق شيئا ، فهو يحب عمله ويحب أصدقاءه ويرضى بما قسم الله له ، وراح يرى بعين خياله الشركة بطرقاتها ، بأكداس الملح على جانبيها ، بمكاتبها الخشبية المتواضعة ، بطواحينها

العتيقة التي تئن في سيرها أنينا ، بقطارها الصغير الذي ينساب كشريان الحياة في جنباتها ، بأحواضها الكثيرة التي تتدفق المياه فيها لتغسل أدران الملح كما تغسل التوبة ذنوب البشر .

ووقعت عين خياله على السهول البيض ، فأحس أن نقاوتها قد سرت في روحه وانتشرت في صدره وجعلت وجدانه ناصعا حتى كاد يضيء .

ومس أذنيه وقع أقدام بهية فراح ينظر من بين أهدابه وإن كانت جفونه مسبلة ، إنها تتقدم منه في خفة الطيف ، ثم تميل وتطبع على فمه قبلة ، فيطوقها بذراعيه ويضمها إليه في حرارة ويأخذ في تقبيلها هنا وهناك .

وتضحك بهية وتحاول أن تفلت منه في دلال وهي تقول في رقة :

— عبود ! عبود !

— روح عبود .

وأرادت أن تثير اهتمامه فقالت :

— بطني ! بطني يا عبود .

فتركها وهو يقول :

— سلامة بطنك وما في بطنك .

وقفز من سريره وذهب إليها وقال لها :

— آسف ! استريحي أرجوك . كنت بجهلي سأفعص ابني .

فقالت بهية في عتاب :

— بنتك يا عبود ! أريدها بنتا يا عبود . ليس لي أخت وستكون أختي .

فقال عبود في حرارة :

— أريده ولدا يا بهية ، أنا مقطوع من شجرة ، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا عم ولا خال . سيكون أبي وأمي وأخي وأختي وعمي وخالي وكل أهلي . سيكون قلبي ونور عيني وذراعي ورجلي وكل دنياي .

وصمتت بهية وسكت عبود ، كانت المشاعر الحنون التي سرت فيهما رقيقة ساحرة أخاذة ، استولت عليهما وعطلت كل ما عداها من وسائل التعبير .

وسار عبود إلى قميصه وتناوله وراح يستبدل ثيابه .

فقالت له بهية :

ـــ خارج الليلة ؟

فقال وهو يخلع جلبابه :

ـــ ذاهب إلى القهوة أستمع إلى خطاب الرئيس .. سيخطب فى ميدان المنشية .

فقالت بهية فى عتاب :

ـــ أما كان من الأفضل أن نشترى راديو لنسمع معا كل ما يذاع ؟

فقال لها عبود وهو يدس رجله فى البنطلون :

ـــ إن شاء الله نشترى راديو لما نقبض المكافأة السنوية .

فقالت بهية وهى تتطلع إلى وجهه :

ـــ لو كنا اشتريناه بالتقسيط كنا انتهينا من تسديد أقساطه .

فقال عبود وهو يحاول ألا تلتقى عيناه بعينيها :

ـــ ومن أين لنا ما نسدد به الأقساط ، وما نأخذه من الشركة ندفعه فى أجر الشقة ونأكل به ؟

فقالت بهية فى ثورة مكتومة :

ـــ ما ندفعه لسليمان كل شهر كان يسدد أقساط الراديو وزيادة !

ولاذ بالصمت ، أحس أن ما قالته إن هو إلا فتح باب معركة تريد من زمن طويل أن تخوض غمارها ، ولكنه لا يهيئ لها هذه الفرصة أبدا ، وضايقها أنه لم ينطق بشىء ، ولم يرضها سكوته فقالت :

ـــ ما يريده البيت يحرم على الجامع .

ودس رجليه فى حذائه ، وقال لها وهو يفر من هذه المشادة التى أوشكت أن تحتدم :

ـــ سأعود بعد أن تنتهى خطبة الرئيس . لن أتأخر عنك الليلة .

وأغلق باب الشقة خلفه ، وراح يزفر مشاعر الضيق التى كان يكتمها فى صدره .
وسار إلى القهوة فألفى صديق وحسن وبهنس وفانوس قد جلسوا فى مكانهم

بالقرب من الراديو ، ورأى مرجان جالسا معهم فتعجب ، فما كان مرجان ممن يفدون إلى القهوة أبدا ، فسلم على أصدقائه وعلى مرجان ، ثم جلس وهو يقول لمرجان :

ـــ شرفتنا .

وقال بهنس :

ـــ طردته الست .

فقال عبود فى خوف :

ـــ طردته ؟ لماذا ؟

فقال صديق فى هدوء :

ـــ طردته الليلة فقط ، لتستمع إلى خطاب الرئيس دون أن يعكر عليها خلوتها .

وقال مرجان :

ـــ إنها تنهانى عن أن أعلى صوت الراديو ، وأنا أحب أن أسمع الخطب من الراديو وهى تلقى بصوت عال ، لتثير حماستى . أنا لا أطيق أن أسمع خطيبا وهو يهمس .

وقال له حسن :

ـــ أتحب السياسة يا مرجان ؟

فقال فانوس ساخرا :

ـــ إنه سياسى خطير ، وإن كنت لا أفهم فى السياسة .

وفهمها مرجان فقال فى صراحة :

ـــ من لا يفهم فى السياسة حمار .

وضحك الجميع حتى فانوس ، وارتفع صوت ابن صاحب القهوة حتى غطى على كل الأصوات . كان يطرد زبونا لم يدفع الحساب ، والتفتت إليه أنظار الجميع ، وقال بهنس :

ـــ ولد ابن حلال مصفى ، نذل مثل أبيه !

وتداخلت الأصوات حتى إن صوت الراديو لم يعد يسمع ، فنهض مرجان ، فالتفت إليه صديق وقال له :

— إلى أين ؟

قال مرجان فى كبرياء :

— لا أستطيع أن أسمع الخطبة فى هذا الجو ، سأعود إلى البيت . نار الست ولا هذه القهوة .

وقال فانوس :

— صاحب مزاج . ابن عز صحيح .

وانسل مرجان من المكان وراح يعدو حتى لا تفوته كلمة من الخطاب .

وظل حسن ينظر إلى حيث انطلق مرجان وشرد يفكر ، فقال له عبود :

— من أخذ عقلك يتهنى به .

وقال فانوس مازحا :

— لا بد أن مرجان أخذه معه .

فقال حسن وهو لا يزال يفكر :

— هذا حق . كنت أفكر فى مرجان ، فى أنه وإن كان يعمل فى بيت توفيق فهو يعيش فى وسط أرقى من الوسط الذى نعيش فيه ، وهو معذور إن ظن نفسه من طبقة أرقى من طبقتنا .

وقال بهنس فى إنكار :

— مرجان أرقى منا ؟

وقال فانوس :

— إنه يعرف بعض كلمات إنجليزية ، ويعرف كيف يطبخ طعاما على الطريقة الإنجليزية .

وقال حسن :

— إنه يعيش فى بيئة أفضل من بيئتنا .

وقال صديق :

— ويأكل طعاما أفضل مما نأكله .

وقال بهنس :

ـــ وتقع عيناه فى كل وقت على امرأة أجمل من النسوان التى نخفيها فى بيوتنا .

وخشى عبود أن يتطرق الحديث إلى الخوض فى أعراض الناس ، فقال :

ـــ اتق الله يا بهنس .

فقال له بهنس :

ـــ لا تغضب . أنا لا أتحدث عن نسائكم ، بل أتحدث عن النسوان اللاتى يحرسن بيتى ، فزوجتاى لا تختلفان كثيرا عن خفراء الريف .

وضحك بهنس ، وقال فانوس :

ـــ الظاهر أنك خطبتهما من القسم ، اخترتهما من دورية الليل .

فقال له بهنس مازحا :

ـــ فى المرة القادمة سأختارها من دكانك .. حلاوة طحينية .

فقال حسن :

ـــ أحسن صنف عنده الزيتون الأسود .

فقال بهنس :

ـــ شبعت من هذا الصنف ، أريد أن أحلى ولو بقالب سكر .

وأعلن المذيع أن سيادة الرئيس يتقدم إلى المنصة ليلقى خطابه السنوى الذى يلقيه كل عام فى السادس والعشرين من يوليو ، فى ذكرى طرد فاروق من البلاد ، فساد الصمت المكان ، وأرهف الناس سمعهم والتفتوا ناحية الراديو ، وراح الرئيس يخاطب الشعب ويقص عليهم كل شىء . فأحس كل من فى القهوة أنه يحادثه وحده ، وهمس حسن :

ـــ جميل أن يذكر الرئيس مصطفى حافظ الذى اغتالته إسرائيل .

وقال بهنس :

ـــ حقدت عليه لأنه أنشأ جيش فلسطين .

وقال الشيخ حسن :

ـــ يا ليت الأحلام تتحقق وتتحد سورية معنا .

قال عبود :

— قال الرئيس إن سوريا تريد أن تتحد معنا .

وقال صديق :

— المندوب السامى ! لا أعاد الله أيامه . أذكر أنى كنت يوما أسير بجوار قصر الدوبارة ، مقر المندوب السامى ، فهجم على جندى بريطانى وراح يطردنى من الشارع كله فى غلظة وقسوة .

والتفت إلى بهنس وقال له :

— أتذكر أيام أن كان الجنود الإنجليز فى ثكنات قصر النيل ؟

فقال بهنس :

— أنا أصغر من هذا يا سيد صديق ، ولكن يخيل إلى أنى رأيتهم وهم ينظرون من نوافذ الثكنات كما تنظر القردة من أقفاصها فى حديقة الحيوان . لقد ألقيت إليهم ذات يوم برتقالة .

وقال حسن :

— هس . أريد أن أسمع ماذا يقول الرئيس عن الجزائر .

وصمتوا قليلا ، وما لبث أن قال حسن :

— أنا معجب بالأبطال الجزائريين ، لو فتح لنا باب التطوع للحرب معهم ، لما ترددت لحظة ..

وعادوا إلى الصمت مرة أخرى ، وأعاروا الرئيس سمعهم ، وإذا بصديق يهتف فى حماسة قائلا :

— سلمت يارئيسنا ، حقا السلاح هنا سلاح مصر لا سلاح روسيا ولا سلاح تشيكوسلوفاكيا .

وقال بهنس :

— والله أنا فى حيرة ، لا أفهم سببا معقولا للضجة التى تقوم بها أمريكا وإنجلترا حول صفقة الأسلحة .

قال حسن :

— ستظل مصالحهم مصونة مادامت إسرائيل فى المنطقة .

وقال عبود :

ـــ أكانوا يريدون أن يفرضوا وصايتهم على ميزانيتنا حقا ؟

قال صديق :

ـــ الرجل يقول كل شيء فى وضوح . لا يخفى عنا شيئا .

قال فانوس :

ـــ ما هى الدولة التى فى الشمال ، ويشرفون على اقتصادياتها ، واقتصادها بالرغم من ذلك منهار ؟

قال حسن :

ـــ الرئيس يقصد تركيا .

ثم أصاخ حسن سمعه وقال :

ـــ فرق تسد ، هذه سياسة الإنجليز ، ويا طالما نجحوا فى أن يفرقوا بيننا ، ولكنهم لن ينجحوا هذه المرة فى أن يفرقوا بيننا وبين إخواننا السودانيين ، حسنا فعل بكشف مؤامرتهم . لو بعدوا عنا فما أيسر أن نتفق مع إخواننا حول مياه النيل والسد العالى .

وقال صديق :

ـــ أوه اللورد كليرن ! ألا يزال على قيد الحياة ، والله ظننت أنه قد انتهى لولا أن ذكره الرئيس . لقد نسيناه ونسينا تهديداته ودباباته وتنفيذ أوامره بالقوة ، وإن أذلنا .

وساد الصمت مرة أخرى إلى أن قال فانوس :

ـــ الرئيس اليوم يكثر الكلام عن دلسبس وعن شركة القناة .

قال حسن وقد شرد بذهنه :

ـــ يخيل إلى أنه يمهد لشيء ، شبه مستر بلاك مدير البنك الدولى بدلسبس ، ثم أخذ يسرد التضحيات التى تكبدناها فى القناة . إنها قناة مصر . إنه معلم الشعوب ، استفاد من الفترة التى كان يدرس فيها فى الكلية الحربية وفى كلية أركان الحرب .

ومال صديق بأذنه حتى لا تفوته كلمة من الخطاب ، ثم قال لحسن :

— ماذا قال ؟

— قال سنستعيد حقوقنا فى قناة السويس .

وقال بهنس :

— وقال سنبنى السد العالى بأموالنا فى شركة القناة .

وهب صديق واقفا ، ودنا من الراديو وهو يصغى إلى الشاب الذى راح يعلن أخطر قرار اتخذته حكومة مصرية : « .. ولهذا قد وقعت اليوم ، ووافقت الحكومة على القانون الآتى :

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :

باسم الأمة — رئيس الجمهورية .

مادة ١ — تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية — شركة مساهمة مصرية — وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات وتحل جميع الهيئات القائمة حاليا على إدارتها » .

وأرهفت الناس آذانهم لسماع باقى القرارات وقد جاشت عواطفهم وامتلئوا عزة وكرامة وغبطة وزهوا ، وكان التأثر قد بلغ من صديق مداه ، فلم يستطع أن يتحكم فى عواطفه ، وإذا به ينفجر بالبكاء .

وانتهى الرئيس من خطابه ، فنهض حسن وعبود وصديق وبهنس وفانوس وهم مأخوذون وتأهبوا للانصراف ، قال حسن :

— هذا أجرأ خطاب سمعته فى حياتى .

وقال فانوس :

— ترى ماذا ستفعل إنجلترا وفرنسا ؟ لن يسكتا أبدا على هذه اللطمة .

وقال حسن فى غيظ :

— وماذا يستطيعان أن يفعلا ؟

قال فانوس :

— سنرى .

قال بهنس :

— أصبحت القناة لنا . ولن يستطيعوا أن يستعيدوها أبدا .

قال فانوس :

— إلا بالحرب .

قال عبود :

— قال الله ولا فالك . إننا نريد أن نعيش فى سلام .

وكان صديق لا يزال مسحورا بما سمع فقال :

— ما كنت أظن أن يمتد عمرى لأرى هذا اليوم المجيد . من كان يصدق أن سيأتى يوم يقف فيه شاب منا ، يعلن على الملأ فى قوة أننا قررنا أن نسترد حقوقنا فى القناة ، وأننا سنمارس سيادتنا على كل شبر من أرضنا ؟ إنى إن مت اليوم فسأموت وأنا قرير العين ، فما أحسب مهما طال عمرى إنى سأعيش لأرى يوما أمجد من هذا اليوم .

— ٢٦ —

أسرع توفيق إلى صحف الصباح يتابع أنباء مصر المثيرة التى شغلت أذهان العالم ، وهرعت جانيت إلى الراديو تصغى إلى محطات الإذاعة التى كانت كلها تعلق على قرار تأميم القناة ، وخف مرجان يصغى إلى أحاديث الزوجين لعله يلتقط ما يروى ظمأه إلى الأخبار .

قال توفيق فى صوت عال ليسمع جانيت :

— كل الشعوب العربية تؤيد قرار التأميم ، وشعوب دول مؤتمر باندونج كلها تقف إلى جوار الحق .

وقالت جانيت :

— للأسف لا تزال إذاعة فرنسا وإنجلترا تتوعدان .

وذهب توفيق إلى حيث كانت زوجته وقال :

— إنى أستطيع أن أرى صديقنا الأصلع ، رجل التأمين الإنجليزى . وهو

واقف ثائر فى لندن يصيح فى عجرفة وكبرياء :

« سرق ناصر منا القناة . القناة قناتنا . لا بد أن نسترد القناة وإلا ضاعت هيبتنا . إن تهاون إيدن هذه المرة فى حقوقنا فلن ينال صوتى فى الانتخابات » .

وسيظل يولول ويتحسر ويتهدد ويتوعد كأن قناة كيلى سلبت من إنجلترا .

فقالت جانيت :

ــ تعلم يا توفيق أن ليس كل الإنجليز مثل مستر جونس .

وقال توفيق فى مرارة :

ــ ولكن للأسف الحمقى من أمثال مستر جونس هم الذين يسيرون السياسة البريطانية . فهم الطبقة التى تعمل الحكومة لها كل حساب .

قالت جانيت :

ــ والجنود العائدون من مصر سيكون لهم أثر فى هذه الأزمة .

قال توفيق فى مرارة :

ــ هذه فرصة طيبة سنحت لويليمز لينفث سموم حقده على من أخرجه من مصر . وسيزيد فى عداوته أن آخر فرصة كانت تداعبه ليعود ثانية إلى هنا قد قضى عليها ، فلم يعد له أى أمل فى أن يعمل فى شركة القناة بعد أن أممت .

قالت جانيت وهى تدير أزرار الراديو :

ــ سيبذل المستحيل لإقناع المسئولين بضرورة استرداد السيطرة على شركة القناة ، حتى يعود إليه أمله فى العودة إلى مصر .

ــ الأعصاب متوترة فى كل مكان ، أخشى أن يفلت زمام الموقف من أيدى الساسة .

ترى ماذا بعد أن قدمت إنجلترا إلى مصر احتجاجا ، وبعد أن تجاوز مستر بينو حدود اللياقة مع سفير مصر فى باريس ؟

ــ أعتقد أن الأمر لن يتجاوز صيحات من هنا وصيحات من هناك ، ثم تهدأ العاصفة .

ــ الجو السياسى مشحون بالاحتمالات ، وهذا السباب المتدفق من كل

الأفواه قد يكون الشرارة التى يندلع منها اللهب .

وأراد مرجان أن يسمع هذه المحاورة فتقدم خطوات ، وقالت جانيت :

ـــ أى لهب ؟

ـــ لهب الحرب .

فقالت جانيت فى ثقة :

ـــ لا أظن أن مجنونا واحدا من مجانين السياسة يحب أن يشعل نار الحرب فى المنطقة .

ـــ ما أكثر الذين يريدون أن يكتموا أنفاس هذه الانتفاضة الثائرة .

قالت جانيت وهى تفكر فى سرعة :

ـــ الجو ملبد بالغيوم . إسرائيل تطمع فى أن تتوسع على حساب مصر ، تريد أن تستولى على سيناء ، فإن لسيناء لدى اليهودى سحرا ، ففيها الجبل الذى تلقى من فوقه موسى من ربه الوصايا العشر . وفرنسا تقاسى الأهوال من حرب الجزائر ، وهى تعتقد أنها تدار من قلب القاهرة ، وقد أيد الرئيس ذلك لما قال فى رده على بينو : أما فرنسا ووقاحة فرنسا ووقاحة وزير خارجية فرنسا ، فأنا لن أرد عليها ، بل أترك للجزائر أن ترد على فرنسا ، وتعطيها درسا فى الأدب . ونورى السعيد يأكل صدره الحقد على عبد الناصر ، وكل هدفه أن يقضى عليه ويزيحه من طريقه ، وفى هذه الأزمة فرصة لتحقيق مأربه . ومستر إيدن يريد أن يعيد النفوذ البريطانى إلى المنطقة ، ولن يتمكن من تنفيذ ذلك إلا إذا عقد زعامة الشرق لنورى السعيد . وعلى الرغم من كل هذه الرغبات والأمانى والأحقاد والمصالح المشتركة فإنى أجزم أن أحدا لن يجرؤ على إشعال نار الحرب فى هذه المنطقة.

ولمحت جانيت مرجان واقفا فقالت له :

ـــ ماذا تريد يا مرجان ؟

فقال مرجان فى ارتباك :

ـــ ماذا تريد السيدة أن تتناول فى الإفطار اليوم : بيضا أم فولا ؟

وقالت جانيت وهى تنظر إلى توفيق :

ــ لا أريد بيضا اليوم .. الدنيا حر .. وأنت يا توفيق ؟

ــ مربى جزر وفنجان شاى .

وسار مرجان على مهل وقد أرهف أذنيه ، وقال توفيق :

ــ وإذا أشعل نار الحرب مجنون ؟

قالت جانيت فى ثقة :

ــ لن يستطيع أى إنسان مهما بلغ جنونه أن يتحدى العالم كله . الناس لا يريدون حربا .

ــ لنفرض أن مجنونا أقدم على إشعالها .

ــ سيثور العالم كله فى وجهه .

ومرت لحظات قصيرة ، وما لبث أن عاد مرجان وقال :

ــ الإفطار أعد .

كان يتلهف على أن ينقلهما سريعا إلى غرفة السفرة ، ليسمع كل ما يدور بينهما حول الموقف القلق الذى كانت البلاد تجتازه .

وتناولا طعامهما ، ثم نهض توفيق وقبل جانيت وخرج ، وانطلق إلى المعدية لتحمله إلى بور فؤاد . وأحس وهو فى طريقه رغبة فى أن يمر على تمثال دلسبس ، واستهوته الفكرة فاتجه إلى هناك .

وتطلع إلى التمثال ، وأحس لأول مرة فى حياته عزة وهو ينظر إليه ، فقد كان كلما مر به قبل اليوم يستشعر مهانة المخدوع ، وأن دلسبس القائم عند مدخل القناة هو الذى خدعه ، وأنه بوجوده يعلن على الملأ فى غطرسة قصة ذلك الخداع .

واضطرمت انفعالاته ، وثارت ذكرياته حتى تصور أن دلسبس بلحمه ودمه شاخص أمامه ، فندت منه صيحة عبرت عن المشاعر التى كانت تتفجر فى أعماقه !

ــ سيد دلسبس ، قناتنا ردت إلينا . لم يعد لك مكان هنا ، من الخير لك أن ترحل قبل أن نثأر للآلاف من آبائنا الذين ماتوا فى سبيل بناء مجدك .

والتفت إلى القناة وإلى قوافل السفن التى تتأهب للمرور منها فأحس كأنها صارت شريانا من شرايين جسمه ، وهفت روحه إليها حتى راحت تلثم صفحة

مائها ، وتحتوى المكان كله فى أحضانها .

وسار وهو نشوان ، وراح يرنو إلى علم مصر الذى كان يرفرف فى زهو فوق مبنى شركة القناة ، فشاعت فيه غبطة ، ورفع رأسه ، وخيل إليه أن قامته طالت ، وأن كرامته سلمت من كل عار .

وانساب إلى حيث كانت المعدية راسية وصعد إليها وهو غارق فى أفكاره : كيف قبل سعيد باشا أن يقدم لمسيو دلسبس صديقه الحميم كل ما قدمه من خدمات على حساب بلاده ؟ وكيف توطدت بينهما الصداقة ؟ إنى لا أكا أصدق ما قالته لى جانيت ، وإن أكدت لى أنها قرأت ذلك فى كتاب « النيل » لإميل لدفيج ، قالت : كان سعيد باشا مريضا بمرض السرقة ، وقد حدث أن كان مدعوا فى فرنسا فى وليمة أقيمت لتكريمه ، وعقب الانتهاء من تناول الطعام أعجب سعيد باشا بالشوك والسكاكين فسرقها ودسها فى جيبه ، وضبطه مسيو دلسبس وهو متلبس بالسرقة ، فتغاضى عنه وتستر عليه ، وقد حفظ له سعيد باشا هذه المكرمة . فلما جاء يعرض عليه مشروع قناة السويس تحمس له ، وأعطى المسيو دلسبس كل ما طلبه وزيادة اعترافا منه بجميله . باع سعيد باشا بلاده من أجل نزوة شريرة زينت له سرقة بعض الشوك والسكاكين . أيعقل هذا ؟! لو كان ذلك صحيحا لكان مرض السرقة فى أسرة محمد على وراثة ، فقد اشتهر عن فاروق أنه كان يتلثم كما يفعل لصوص السينما ويقتحم المستشفيات والقصور والمصارف ليلا ليسرق بعض الأدوية أو التحف ، أو يفتح خزانة ثم يفر هاربا وهو فى قمة النشوة والسرور . شذوذ ! ولقد ضاعت البلاد بسبب شذوذ إسماعيل وتوفيق وسعيد وفاروق .

ورفع توفيق رأسه فلمح عبود وحسن جالسين فى الناحية الأخرى فحياهم بيده ، وسرعان ما عاد ليعيش فى أفكاره وتأملاته وآماله وأمانيه .

وكان حسن وعبود آخذين بأطراف حديث الساعة ، حديث تأميم القناة ، وتهديد إنجلترا وفرنسا باستخدام القوة لإعادة الشركة إلى مصاصى الدماء والمستغلين .

قال حسن :

— إننا لم نفعل أكثر مما فعلوه فى بلادهم ، فقد أممت إنجلترا صناعة الصلب كما أممت النقل البحرى ، ولم يهددها أحد بإعلان الحرب عليها لإعادة شركات الصلب إلى أصحابها .

فقال عبود :

— ربما لأن شركات الصلب يملكها بريطانيون ، أما أسهم شركة القناة فهى بين أيدى بريطانيين وفرنسيين وسويسريين ويونانيين وكل الأجناس الأخرى .

قال حسن :

— قلنا على أعين الناس إنا سندفع لحملة الأسهم حقوقهم ، كان امتياز الشركة سينتهى بعد ١٢ سنة ، وكنا سنفعل بعد هذه المدة نفس ما نفعله اليوم ، أكانوا يثورون علينا ويهددوننا بالحرب إن لم نمد أجل الامتياز ؟ والله إن أمرهم غريب .

قال عبود وهو يلوى شفته فى زراية :

— فلماذا كل هذه الضجة ما دام ما حدث اليوم كان سيحدث بعد ١٢ سنة ؟

قال حسن وهو يبعد عن الشمس التى بدأت ترسل أشعتها الحامية أشعة شهر أغسطس :

— الجشع . الطمع . الأنانية . حب الاستغلال . حب السيطرة . إعادة نفوذ الغرب إلى المنطقة ، الإطاحة بعبد الناصر لأنه يؤيد ثورة الجزائر ويمدها بالسلاح .

قال عبود وهو يحاول أن يحجب الشمس الحامية بصحيفة فى يده :

— لماذا لا يحاول الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عادلة فيريحوا ويستريحوا ؟

قال حسن وهو يبتسم :

— عيبك يا عبود أنك رجل أوهام ، الإنسان لا يمكن أن يتخلص من أطماعه ولا من أنانيته ولا من القيود التى تربطه بالدنيا . فلو أنه استطاع أن يحطم قيوده التى تشده إلى الأرض لحلق كالملائكة ، ولأمكنه أن يرى الحق ببصيرته النفاذة . قرأت أن أحد المتصوفين كان يبحث عن الله ، وقد تملكته حيرة قاسية حتى إنه قال لينفس عن القلق الذى استبد به : يا رب . كيف أراك ؟ فخيل إليه أن صوتا يرن

فى ضميره يقول : خل نفسك وتعال . نفوسنا هى التى تعذبنا ، هى التى تحجب عنا الحقيقة ، فإن أردنا أن نصل إلى ما يحتاج إلى سمو ، إلى ارتفاع ، فعلينا أن ننسى أنفسنا ، أن نقضى على شهواتنا ، أن نكتم أنفاس رغباتنا ، أن نصم آذاننا عن نداءات عواطفنا . الأنبياء والمصلحون والقادة الذين وهبوا أنفسهم لأوطانهم قطعوا كل الأواصر التى تربطهم بالأرض ، بعرَض الدنيا ، فاستطاعوا أن يحققوا رسالاتهم ؛ أما إيدن وموليه ودالاس ونورى السعيد وبن جوريون وحملة أسهم القناة ، فالأطماع تملأ قلوبهم ، والأحقاد تعمى بصائرهم ، والظلم يقيح نفوسهم ، فلا يخطر على أذهانهم إلا استخدام القوة ، والتهديد بشن الحرب وسفك الدماء .

قال عبود فى مرارة :

ـــ أتظن يا حسن أنهم صادقون فى تهديداتهم ؟

قال حسن فى قوة :

ـــ إنهم قراصنة .. تجار حروب . وسواء أكانوا صادقين فى تهديداتهم أم أنهم يريدون تخويفنا لنرضخ لمشيئتهم ونقبل ما يملونه علينا من شروط ، فعلى العاقل أن يستعد لهم ليقابل القوة بالقوة . إنى قد عزمت على أن أستأنف تدريباتى .

وقال له عبود :

ـــ وماذا تستطيع أن تفعل إذا جاءوا بطائراتهم وأساطيلهم ومدافعهم ودباباتهم ؟

ـــ لو تسلحت أنا وأنت وكل الشعب لأصبحنا قوة تستطيع أن تقهر عدوانهم ، ولحاربهم الله معنا ، فالله يقف إلى جانب الحق ، والحق فى جانبنا . ألم ينصر الله الفئة القليلة فى غزوة بدر على الفئة الكثيرة ، لماذا ؟ لأنه أراد أن يظهر الحق . اسمع يا عبود ، من اليوم سنتدرب على القتال ، سنتأهب للقائهم إذا جاءوا ليعتدوا علينا .

قال عبود فى فزع :

ـــ لا . لا . أنا أكره الحرب ، لا أحب سفك الدماء .

— ومن منا يحب الحروب ؟ كلنا مثلك نحب السلام ونتمناه . ولكن ماذا نفعل إن كان الآخرون يجروننا إلى القتال ؟ أندعهم يقتلوننا دون أن ندافع عن أنفسنا لأننا من أنصار السلام ؟ ستخرج معى اليوم لنتدرب على القتال .

— لا .

— لا بد أن تكون مستعدا يا عبود لتدافع عن عرضك . كان أبى فى الحرب الماضية يخفى فى بيتنا سكينا كبيرة طولها نصف متر ، وقضيب حديد ، ليقتل بهما من يوسوس له شيطانه من جنود الحلفاء أن يقتحم بيتنا ليعبث بشرف من فيه .

وامتعض عبود وقال له فى استياء :

— من أين تأتيكم مثل هذه الأفكار البشعة ؟

فقال حسن وهو يصرف أنيابه :

— من الواقع ، من الأحداث التى جرت فى أثناء الحروب . كم امرأة خطفها جنود الحلفاء فى الحرب الماضية وفى الحرب الأولى ؟

وصمت حسن قليلا ثم قال :

— ماذا تفعل يا عبود إن اقتحم عليك دارك جندى فرنسى ، وهجم على بهية يريد أن ..

وصاح عبود فى فزع :

— لا . لا . لا تقل هذا ؟ اسكت يا حسن . اسكت أرجوك .

ورفت على شفتى حسن ابتسامة مريرة وقال :

— فزعت من مجرد فرض ، ثرت لمجرد وهم ، فماذا تفعل إذا انقلب ذلك الوهم حقيقة ؟

قال عبود وهو يشهق ويزفر بصوت مسموع :

— كنت أقتله بيدى .

— أتظن أنه سيقتحم دارك وهو أعزل ؟ سيكون مسلحا وسيقتلك شر قتلة إن بدرت منك بادرة استياء .

— هذا فظيع .

— لا بد أن تتسلح يا عبود لتصون عرضك ، لن يخشاك الناس مادمت أعزل من السلاح . ستصبح هدفا لأطماعهم ، أما إذا تسلحت فسيرهبونك ويعملون لك ألف حساب ، وسيفكرون كثيرا قبل أن يعتدوا عليك . السلاح يا عبود يحميك حتى وإن لم تستعمله .

وقال عبود فى ضيق :

— إلى متى سنظل كالوحوش فى الغابة ، يقتل بعضنا بعضا ؟

— إلى أن نخلى أنفسنا ونذهب إلى الله .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال عبود :

— ما رأيك يا حسن فى أن نأخذ سليمان معنا ؟

قال حسن فى حدة :

— سليمان انتهى .. لا تفكر فيه .

— إنما يقضى عليه الفراغ ، لو أمكننا أن نشغله بشىء ، بأى شىء فسننتشله مما هو فيه .. لن يجد الوقت الذى يمضيه فى الحانات .

— سليمان فسد .. تعفن .. لم يعد يرجى منه .. ليته يموت ويستريح .

— ماذا علينا لو حاولنا ؟

— لو كان هناك أمل لوجب علينا أن نحاول ، أما ونحن واثقون من أنه لا أمل يرجى منه فحرام علينا أن نضيع وقتنا . لو قلت له تعال لنتدرب على القتال فسيقول لك : قلبى ضعيف . أتريد أن تستريح منى ؟ وإن جاء فسيكون عبئا علينا ، سيشغلنا بمرضه عن تدريباتنا . وقد يرغمنا على أن نقدم له السم الذى أصبح يسرى فى عروقه ، إذا ما تماوت وطلب منا أن نرد روحه بكأس من الزفت الذى يشربه .

وأصاخ الشيخ حسن سمعه ، كانت الأخبار تذاع من راديو بعيد ، وتلون وجهه ، وتزوى ما بين حاجبيه ، ثم قال فى صوت خافت :

— قرر وزراء خارجية إنجلترا وفرنسا وأمريكا تجميد أموالنا .

وقال عبود فى رهبة :

— يريدون أن نموت من الجوع !

— أو نخضع لإرادتهم .

وشرد حسن ببصره قليلا ثم قال :

— يستخدمون نفس السلاح الذى استخدمه كل المعتدين منذ الأزل ، ولكنه سلاح مفلول لا يفت عزائم من يؤمنون بحقوقهم . أتعرف يا عبود أن كفار قريش ضربوا الحصار على النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، وحبسوهم فى شعب أبى طالب ، وقرروا ألا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم ، وأن الجهد بلغ بالمسلمين مبلغا كبيرا ، ولكنهم لم يستسلموا ، وأرغموا قريش بصبرهم على أن ترفع الحصار ، وقد خرج المسلمون منه أشد قوة وأمضى عزيمة .

وقال عبود فى تخاذل :

— ولكنه الجوع يا حسن .

فقال حسن :

— بل الجوع والحرب معا .

— ليتهم يصلون إلى تسوية سلمية ويريحوننا مما يهددوننا به .

— لن نقبل أية تسوية سلمية تمس حقوقنا أو تحاول أن تنال من كرامتنا ، أو تخفض رءوسنا بعد أن رفعناها .

وقرأ حسن فى وجه عبود القهر ، فقال له ليسكن الطمأنينة قلبه :

— قلت لك أكثر من مرة إنى لا أخاف على مصر ، فالله يحميها ، فمن رفع عنا غمة الملاريا ، وغمة الكوليرا ، وحجز روميل عن الإسكندرية ، سيرفع عنا غمة فرنسا وإنجلترا ودالاس وإسرائيل والخونة من العرب .

— ٢٧ —

خف عبود إلى بهية وقال لها فى خوف :

ــ ماذا تفعلين ؟

قالت وصوت آلة الخياطة يدوى فى المكان :

ــ أخيط بعض ملابس لابنتى .

فقال لها وهو ينحيها عن مقعدها :

ــ قومى . يجب ألا تجهدى نفسك . أنت فى الشهر السابع . يجب أن تستريحى .

ــ ومن ذا الذى سيخيط هذه الملابس ؟

قال وهو يجلس على الكرسى :

ــ أنا . أبوه .

ورفعت ثوبا صغيرا وقالت فى فرح :

ــ سيكون جميلا عليها .

ثم ضمت الثوب إلى صدرها فى حنان ، كأنما كانت تضم وليدها ، وقال عبود :

ــ ترى ما شكله ؟ كم أنا فى شوق إليك يا بنى .

وقالت بهية فى خوف وشوق :

ــ بعد شهرين سنراها ، ستكون جميلة إن جاءت فى شبهك ، إن أخذت تقاطيع وجهك . ما أجملها إن كانت عيناها كعينيك ، وأنفها كأنفك ، وفمها كفمك ، وكان لها شعر أسود ناعم .

وأسدلت شعرها فوق رأسه ودلته حول وجهه ، وقالت له فى انشراح وهى تميل بصدرها تنظر من فوق رأسه إلى شكله بعد أن أعارته شعرها .

ــ أخف شنبك بأصبعك يا عبود .

واستجاب لها وهو مسرور ، فعادت ترنو إليه ثم قالت :

ــ اطمئن . ستكون جميلة .

وقال عبود وهو ينظر إليها بطرف عينه :

ـــ ولكنى أريده ولدا .

وقالت بهية فى دلال :

ـــ سأضع ما وضعت فى ، فلا حقد على إن جاء بنتا .

فقال وهو يضمها إليه فى حب ويقبلها بروحه :

ـــ أنا لا أستطيع أن أحقد عليك أبدا ، فالمحب لا يمكن أن يحقد على من يحبه . كل ما أرجوه أن تظلى لى .

وساد الصمت بينهما فترة ، ثم راح عبود يدير بيده آلة الخياطة ، وبهية تصلح فى وضع القماش تحت الإبرة وتحركه كما تشاء ، وراح عبود يدير اليد فى سرعة فقالت له زوجه :

ـــ تمهل يا عبود . نريد أن نعيدها إلى أصحابها سليمة . هذه آخر إبرة عندنا .

ـــ عندما أخرج سأشترى لك عشر إبر .

والتفت إليها وقال :

ـــ إذا جاء ولدا فماذا نسميه ؟

فقالت بهية فى سرعة :

ـــ نسميه مأمون ، فالولد لخاله .

فقال عبود فى انشراح :

ـــ ما أكثر ما سيجلب لنا من مشاكل لو جاء مثل خاله ، سيضرب كل أولاد الجيران ، وسيحرضهم على الهرب من المدرسة كما كان خاله يغرينى على أن نهرب من المدرسة ونذهب إلى السينما فى حفلة الصباح ، سيكون جنا مصورا .

فقالت له مداعبة فى نبرة هازئة :

ـــ أتريده مثلك ؟

فتوقف عبود عن إدارة آلة الخياطة ، وقال وهو يرمقها بنظرة :

ـــ وماذا فى من عيوب ؟

قالت وهى تضحك :

ـــ القطة تأكل أكلك ولا تقول لها : بس .

ولم يضحك ، ضايقه أنها تنتقده وإن كانت تداعبه ، وقال لها :

ــ وماذا أيضا ؟

قالت وهى تطوقه بذراعيها من خلفه :

ــ قلبك طيب ، والناس تستغل فيك هذه الطيبة .

ــ قصدك أن الناس تستغفلنى ؟

ــ أبدا يا عبود . قصدى أن لا مكان فى هذه الدنيا لمن كان قلبه طيبا مثلك ، سيطمع الناس فيه ، وسيشقى من أجلهم دون أن يحسوا به بعد أن يستغلوه ، أريد أن يعيش ابنى لنفسه .

ــ لا يا بهية . لن أكون سعيدا إن جاء ابنى أنانيا .

وصمت وقال فى نفسه : آه لو ورث عنك حرصكِ وحبك لنفسك ، وغيرتك !

وانفجرت ضاحكة وقالت :

ــ عندما تغضب تصبح رجلا حقا .

فنهض وأمسكها من ذراعها وثناها فى رفق وقال :

ــ لولا ذلك الذى فى بطنك لأدبتك على ما قلت .

واهتزت من الضحك وقالت :

ــ اطمئن يا عبود ، ما فى بطنى قد أثبت أنك رجل .

وقبلته وأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، فعاد يجلس على الكرسى ويدير يد آلة الخياطة فى تؤدة وهو يفكر : ماذا تحب فيها يا عبود ؟ إنها مشاكسة ، أنانية ، تغار من النسيم . أحب فيها مشاكستها وأنانيتها وغيرتها . من يدرى فربما لو كانت مسالمة ساذجة طيبة لما أحببتها هذا الحب . لعلنى أحب فيها حيويتها .. دفعتها .. الأشياء التى تنقصنى . أنا سلك كهربا وهى السلك الآخر ، لو كنا متماثلين لما تولد شىء ، أما وقد اختلفنا فقد تولدت منا الكهربا .

وقالت وهى تحرك القماش تحت الإبرة :

ــ قالت لى جاراتى لا بد أن أمشى كثيرا فى شهورى الأخيرة . ما رأيك أن

نخرج نتمشى على شاطئ البحر ؟

فقال فى ارتباك :

ـــ غدا يا بهية أخرج معك .

ـــ ولماذا لا تخرج الليلة ؟

ـــ لأنى واعدت حسن على أن ألقاه .

فقالت فى ضيق :

ـــ كثرت مواعيدك أنت وحسن هذه الأيام ، والله لا أدرى أين تذهبان إن كنتما لا تذهبان إلى القهوة ! يا خوفى من أمثال الشيخ حسن !

وأحس فى صوتها رنة اتهام ، تحركت غيرتها فأمدتها بأوهام ، إنه يعرف كل ما يدور فى رأسها فهى دائما تقول : لا يتلف الرجل إلا رجل مثله ، ولا تتلف المرأة إلا امرأة مثلها ، إنها لا يمكن أن تتصور أن يتصادق رجلان إلا لتحقيق نزوة من النزوات ، ولا يستطيع عقلها أن يقتنع أن اثنين يمكن أن يتحابا فى الله . وهى ترى أن ما يبديه بعض الرجال من تقوى وصلاح إن هو إلا رياء لإخفاء حقيقة أفعالهم الدنيئة . إنها تكره أن يكون له أصدقاء ، وتتمنى أن تستخلصه لنفسها ، وهو لا ينسى ما قالته له ذات ليلة بعد أن انصرف حسن وفتحية عقب زيارتهما لهما ، قالت له : لاحظت أن نظرات الشيخ حسن إلى نظرات غير بريئة . ثار ثورة عارمة فى تلك الليلة ، وكادت تنجح فى أن تفسد بينه وبين أعز أصدقائه ، إلا أنه كبح جماح غيظه ، وراح يفكر فى كل كلمة قالها الرجل ، ويستعيد كل نظرة صوبها إليها ، فلم يجد فى أقواله ولا فى نظراته ما تدعيه . لم يبالغ فى ملاحظتها كما قالت ، ولم يتبسم الابتسامة اللماحة التى لا يفهمها إلا النساء ، إن الرجل برىء من كل ما أرادت أن تلصقه به لتبعد بينه وبين زوجها ، وعلى الرغم من اقتناعه ببراءة صديق طفولته فقد نجحت فى أن تغرس فى قلبه بذرة الشك ، فقد أصبح لا هم له كلما اجتمع حسن وبهية فى مكان إلا أن يرقب كل حركة من حركات الرجل ويحاول أن يحلل دوافعها .

« لماذا لا أقول لها إلى أين نذهب أنا وحسن كل ليلة ؟ هذا من حقها . أأقول

لها كل شيء؟ ألا أحتفظ لنفسي بأسراري حتى إن كانت هذه الأسرار لا تمسها؟ أتحب أن تحتفظ بهية بأسرارها ، أتحب أن تخفي عنك شيئا؟ ما أدراني أن ليس لها أسرار وأنها لا تخفي عني بعض تصرفاتها . لا يا عبود ، إن هذه الأفكار إهانة لها ، ولو عرفت ما يدور في رأسك لثارت وغضبت ولمزقت وجهها بأظافرها ، قل لها يا عبود .. ستسخر مني ، لن تستطيع أن تفهمني . ألا تفهمك خير من أن يظل الشك ينهش قلبها . قل لها وأمرك لله وتلق وعدك . ولماذا أقول لها ما ستسخر منه ؟ لأني مغفل لا أطيق أن أتركها لعذاب وهمها . أحب أن أريحها » .

وقال لها وهو يحاول ألا تلتقي عيناه بعينيها :

ـــ إني أذهب أنا وحسن وبعض الأصدقاء لنتدرب على استعمال الأسلحة .

ودوت في المكان ضحكة ساخرة زلزلت كيانه ، وقالت بهية :

ـــ أتريدني أن أصدق هذا ؟ أنت الذي ترتجف وتشيح بوجهك إذا ما توسلت إليك لتمسك لي أرنبا لأذبحها تتدرب على استعمال الأسلحة ؟! قل قولا غير هذا يا عبود . اختلق عذرا مقبولا . أنت لا تعرف كيف تكذب يا حبيبي .

فقال في غضب :

ـــ أنا لا أكذب يا بهية . هذه هي الحقيقة .

ـــ ولماذا تتدرب على استعمال الأسلحة ؟

ـــ لنحمي أنفسنا إذا اعتدى أحد علينا .

وعادت تضحك ضحكتها التي تمزق أعصابه وقالت :

ـــ ومن ذا الذي سيعتدي علينا ؟ ولماذا يعتدي علينا ؟ ليسرق الخزائن ، ليستولي على الجواهر . ماذا سيطمعه فينا ؟

وتحلم وقال لها :

ـــ الإنجليز والفرنسيون يهددوننا بالحرب ، يقولون إننا خطفنا منهم القناة ، سرقناها منهم .

فقالت بهية في سخرية :

ـــ يفتشوننا . ليس في جيوبنا شيء .

— بهية !. أنا لا أمزح . قد نستيقظ يوما ونجد أعداءنا يهاجموننا .
— الله يجازيك يا شيخ حسن . أفسدت عقل الرجل .
— وإذا جاءوا فستحاربهم ؟
— أنا أمقت الحرب يا بهية ، ولكن ماذا نفعل إذا اعتدى علينا أحد ؟ إذا جاء رجل غريب إلى هنا ؟
— وما الذى سيأتى به إلى هنا ؟
فقال فى غضب :
— شيطانه . إذا جاء أحد إلى هنا فسأقتله .
قالت له هازئة :
— إذا جاء أحد منهم إلى هنا فستموت من الخوف .
فقال عبود فى ثورة :
— أنا لست جبانا يا بهية ، ولكنى أمقت العنف .
— ومن ممن أعرفهم يتدرب معكم ؟
— مرجان .
والتمعت عيناها ببريق الشك فقالت :
— أليست بين الأسلحة التى تتدربون عليها جوزة ؟
فقال فى غضب :
— ماذا تقولين يا بهية ؟
— مادام مرجان معكم فسيغنى لكم أثناء الانسجام .
فقال فى ثورة وهو يهب فى جلسته منفعلا :
— أتريدين أن تقولى إنى حشاش !
— لا تغضب يا عبود ! الشيخ حسن يرى أن الحشيش ليس حراما .
— أقال لك حسن ذلك ؟ لماذا تفترين على الرجل دائما ؟ لماذا تكرهينه ؟
— الحق على . لن أهزر معك مرة أخرى . عيبك يا عبود أنك لا تفرق بين

الضحك والجد .

ورأت أن خير ما تفعله لتقهره أن تظهر أنه أساء إليها ، وأنه أغضبها وجرح كرامتها .

فأشاحت بوجهها عنه وأولته ظهرها ، ثم غادرت الغرفة وانسابت إلى غرفة النوم وارتمت فى فراشها وراحت تجهش بالبكاء فى صوت عال ليصل إلى مسامعه .

وراح عبود يتلفت فى قلق لا يدرى سببا لبكائها ، إنها أهانته وأهانت صديقه ، ثم بكت دون سبب . ترى ما الذى أجرى دموعها ؟ وشرد يفكر :

« هل أنا جبان ؟ لماذا تسخر بهية منى ؟ لو طاوعت نفسى لضربتها ؟ لماذا لم أضربها ؟ إنها غضبت وبكت دونما سبب ، فما بالك لو كنت قد ضربتها ؟ ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى . أنت الذى تفسدها يا عبود بكثرة تدليلك إياها . دعها تبكى ولا تهتم بها .. قم ارتد ملابسك واتركها واخرج . المرأة إذا كسرت لها ضلعا نبت لها عوضا عنه ثلاثة ! ترى يا حسن أتطبق نصائحك لى مع فتحية أم أنك معها ضعيف مثلى مع بهية ؟ لا . أنا لست ضعيفا ولكنى أوثر اللين ، أحب السلام . لا ، أنت تخشى مواجهة العواصف تطأطئ لها رأسك ، هذه قوة . ما أيسر أن أقوم الآن فأذهب إلى بهية وأصيح فيها : لماذا تبكين الآن ؟ تريدين أن تغطى أخطاءك بدموعك ؟ أنا أحذرك يا بهية أن تعودى إلى الاستخفاف بى أو تحقير أصدقائى . الزمى حدودك . أتظن ذلك سهلا ، لو كنت رجلا حقا لقمت إليها ووضعتها فى مكانها الصحيح .

لو كنت مغفلا لفعلت ذلك ، سأحطم برعونتى كل الجسور التى تصل بينى وبينها ، وسأحيل حياتنا إلى جحيم - إنها قوة يا عبود أن تسيطر على عواطفك وأن تكبح جماح غضبك ، وأن تنقذ حياتك الزوجية من أن تتعفن . قم إليها يا عبود وتودد إليها وامسح دموعها ، فهى مهما تكن امرأة ضعيفة ، ناقصة عقل ودين . أليس ذلك رأيك يا حسن ؟ خذها كما هى ، إنها خلقت من ضلع أعوج ، إن حاولت أن تقومه كسرته » .

وعز عليها أن يدعها تبكى دون أن يهرع إليها يستعطفها ، فراحت تئن فى

حرقة ، وتنشج بالبكاء ، ولم يعد يحتمل ما صارت إليه ، وخشى على ما فى بطنها فقام وسار إليها ، ثم جلس على حافة السرير وراح يمرر يده على ظهرها فى حنان ويقول :

— بهية ! قومى اغسلى وجهك .

وشاع السرور فى كل جنباتها ، بيد أنها رأت أن تستمر فيما هى فيه لتذل كبرياءه وليكون نصرها عليه كبيرا ، ولتلقنه درسا حتى يفكر طويلا قبل أن يثور أو يجرحها بكلمة ، فأخفت وجهها فى الفراش وراحت تضربه بقبضتها فى عصبية ، وقال لها :

— كفى يا بهية . كفى إكراما لى .

ومال عليها ورفعها بين يديه فى رفق وهو يقول :

— قومى . لا تغيرى دمك .

ورفع خصلة الشعر التى تهدلت على عينيها ، وقال وهو يجذبها من يدها فى رفق :

— تعالى معى . تعالى نقلع عين الشيطان .

وذهبت بهية تغسل وجهها وهى فى قرارة نفسها مسرورة بانتصارها ، ولكن عكر ذلك السرور رغبة قامت فيها راحت تتمنى لو أنه قسا عليها ولم يحفل بدموعها ، وأثبت لها أنه رجل ، وأنه أقوى من أن يخور أمام عبرات كاذبة . ورن فيها صوت يقول : ليتك يا عبود تضربنى مرة . وأنكرت ذلك الهاتف وقالت لنفسها فى حدة : والله لو مد يده وضربنى لأضربنه .

وعاد الصفو إليهما ، وجلسا يستأنفان حياكة ملابس المولود المنتظر ، ورفعت بهية ثوبا بين يديها ، وأخذت ترمقه فى سرور ، ثم قالت :

— لو جاء بنتا ، فماذا نسميها ؟

فقال دون تفكير :

— إنصاف .

واربد وجهها وانقلبت سحنتها وتفجرت غيرتها ، وشعر هو أنه أخطأ خطأ فادحا ، فلو فكر لحظة ما جرى ذلك الاسم على لسانه ، ولم تستطع أن تخفى حقيقة مشاعرها فقالت فى ثورة :

— ولماذا نسميها إنصاف ؟

فقال فى صوت متهدج :

— اسم جرى على لسانى .

لم يكن اسم أمك ولا اسم أمى حتى تذكره ، تريد أن يذكرك هذا الاسم بمن تحب . تريد أن يعيش معك دواما .

فقال عبود فى انفعال :

— بهية .

— لو لم يكن هذا الاسم عزيزا عليك لما جرى على لسانك .

— اعقلى يا بهية .

— الإنسان يردد دائما اسم من يحب ، ينتهز أية فرصة ليذكره .

ورأى أن يطعنها كما تطعنه وإن كان ذلك يضايقه ويرهقه ، فقال لها :

— منذ أن جلسنا وأنت تذكرين دائما اسم حسن ، أهو عزيز عليك ؟

— أنا لم أذكره بخير .

— المهم أنك تذكرينه ، وأن اسمه دائما يجرى على لسانك ، أتريدينني أن أفهم . .

فقالت فى غضب :

— عبود أنا لا أسمح لك أن تهينني .

— وأنا لا أسمح لك بإهانتى يا بهية .

فقالت وهى تزفر فى انفعال :

— أنا أقرر حقيقة ، أما أنت فتريد أن تهرب منى بما تزعمه ، أن تشغلنى باتهاماتك عن أن أكشف سرك ، أنت تحب إنصاف يا عبود . تحبها ، لا تنكر .

— أنت مجنونة . مجنونة . قلت لك يا بهية أكثر من مرة إن غيرتك هذه ستفسد حياتنا . لماذا تحاولين يا بهية دائما أن تحطمى حياتنا ؟

— أنا لا أحب أن يقوم بيتنا على خداع . إن كنت لا تحبنى فاتركنى واذهب إليها .

وقال وهو ينطلق ليرتدى ثيابه وينصرف :

ـ لا . هذا البيت لم يعد يطاق .

فذهبت خلفه وهى تقول فى عناد :

ـ قلها . قل إنك كرهتنا . إنك سئمت عشرتنا .

وراح يرتدى ثيابه فى انفعال وهو يقول :

ـ بهية . اسكتى وإلا فستندمين على ما تقولينه . لمى لسانك أحسن .

فقالت فى غضب :

ـ وإذا لم ألمه ، ماذا ستفعل ؟

وقبل أن ينفجر فيها صائحا بما سيفعله ، غادرها وخلفها وراءه واندفع صوب الباب ، وإذا بها تصيح :

ـ اذهب . اذهب إليها ولا داعى لأن تثير خناقة لتغضب وتهرب .

وأغلق الباب خلفه فى عنف ، وهبط فى الدرج وهو يكاد يتمزق غضبا ، وما إن بلغ الطريق حتى وجد الشيخ حسن ينتظره وهو متهلل الأسارير ، فكبت ما به واغتصب ابتسامة ثم سارا معا فى الطريق ، وما قطعا فيه خطوات حتى قال حسن :

ـ الليلة سنتدرب على استعمال المدفع الرشاش .

ـ ٢٨ ـ

أغلق توفيق الراديو فى حنق وغضب ، فقالت له جانيت :

ـ لم أغلقته ؟

فقال توفيق وهو يطوح ذراعه فى الهواء ثائرا :

ـ ضقت بحملة الأكاذيب ، لندن تفترى علينا ، باريس تهاجمنا ، إسرائيل تنفث سمومها وتبث كراهيتها فى كل النفوس .

ـ وهل أسكت الافتراءات لما أغلقت الراديو ؟

ـ كيف يقبل الزعماء أن يخدعوا شعوبهم ؟ أن يباركوا حملة الأكاذيب ؟ أنا واثق أن إيدن وموليه وسلوين لويد يعلمون أنهم يكذبون .

ـ إنها السياسة يا توفيق .

ـــ لعنـــة الله على السيـــاسة إن كان المقصود بها الـــغش والخداع ، والكذب والبهتان وإخفاء وجه الحقيقة .

ـــ الحقيقة فى عرف السياسة هى ما يحقـق أغـراضك . إيـدن وموليه وبن جوريون يهدفون إلى هدف واحـد ، تحطيم عدوهـم المشترك ، وهـم يحاولون أن يخدعوا شعوب العالم بأكاذيبهم ليكونوا معهم على عدوهم .

فقال توفيق وهو يجلس غاضبا :

ـــ كيف يتحدث إيدن عن تدويل القنـاة وهـو يعلـم أن هذا التدويـل لا قيمـة له إلا إذا كانت هنـاك قوة دوليـة تسانـده ؟ لنفـرض أن التدويـل فرض على مصر ، وجاءت هيئة دولية لتديـر القنـاة ، ثم قررت مصر عدم مرور سفن دولة من الـدول كما فرضت فى الماضى الحظـر على مرور سفـن إسرائيل . فهل تستطيع الهيئة الدولية أن تنفذ قوانينها رغم أنف مصر ؟

قالت جانيت وهى تبتسم :

ـــ كان إيـدن على يقين من أن الرئـيس سيرفض هذا الاقتـــراح ، كل ما يهدف إيدن إليـه باقتراحـه أن يظهـر عبـد النـاصر فى صورة من يرفض التسويـة السلمية ، وقـد رفض الرئـيس منـاقشة اقتـراح التدويـل وقـال : الإشراف الدولى نوع من الاستعمار المشترك .

ـــ وحقق إيدن هدفه !

فقالت جانيت وهى تنظر إلى زوجها الثائر :

ـــ وأعلن إيدن على الملأ : نحن لا نثق فى عبد الناصر .

ولم يطـق توفيـق البقـاء فى مقعـده ، بل هـب واقفـا وقـال وهـو يغـدو ويروح فى الغرفة :

ـــ لم يكن جيتسكل موفقا لما شبه عبد الناصر بهتلـر ، وشبـه ما فعلـه فى السويس بما فعله هتلر عندما نقض معاهدة فرساى واحتل الراين .

ـــ ولكن جيتسكـل ثاب إلى رشده وعـاد هو وحـزب العمـال الـذى يرأسه يعلنون أن ليس فى تأميم قناة السويس أية مخالفة للقوانين الدولية .

— بعد أن تلقف إيدن قوله وراح يذيعه على ملايين البشر من مستمعيه.

أنا لا أتصور كيف يجد إيدن فى نفسه الشجاعة ليقول مثل هذا البهتان ، وهو أعلم الناس أن عبد الناصر لما أمم القناة لم ينقض معاهدة ، ولم يطلق رصاصة واحدة ، بل استعمل حق الدولة فى تأميم ما تشاء من المرافق العامة .

قالت جانيت وهى تبتسم :

— إيدن هو الذى وقع معاهدة الجلاء وقد جاء فيها أن القناة أرض مصرية ، وأنها جزء لا يتجزأ من مصر .

— ثم يأتى فى هذه الأيام ويعلن على أعين الناس أن مصر اغتصبت القناة ، سرقتها ، ويقول البغل الأسترالى فى التليفزيون البريطانى إن عبد الناصر أمم القناة نفسها لا شركتها .

قالت جانيت وهى تضحك :

— تقصد منزيس .

— وهل هناك بغل أسترالى غيره ؟ ما لرئيس وزراء أستراليا .. وهذه الأزمة التى يحاول إيدن أن يشوه حقيقتها ؟

— إنه أداة من أدوات التشويه فى يده ، فلماذا لا يستخدمها ، لن يتورع إيدن وموليه وبن جوريون ، ونورى السعيد من وراء ستار ، عن استخدام كل السبل الدنيئة لتحقيق هدفهم . هل سمعت ما قاله سلوين لويد فى إذاعة له عن كتاب « فلسفة الثورة » ؟

— لا .

— قال : كنت أقرأ فى هذا اليوم كتيبا وضعه عبد الناصر عن الثورة ، يكشف فيه صورة تفكيره ومطامعه ، فهناك ثلاث مراحل واضحة كل الوضوح ، أولاها السيطرة على البلاد العربية ، وثانيتها السيطرة على إفريقية كلها ، والثالثة السيطرة على العالم الإسلامى كله .

وقد أطلق موليه على هذا الكتاب اسم « كفاحى » بقلم عبد الناصر.

— دعاية مسمومة .

ــ دالاس نفسه تأثر بها حتى أنه شبه كتاب « فلسفة الثورة » بكفاحى لهتلر .
ــ ماذا يريد إيدن منا ؟
ــ يخيل إلى أنه يحلم بأن يكون جلادستون آخر فى تاريخ بريطانيا ، يحلم بهزيمة عبد الناصر كما هزم جلادستون عرابى وقضى على ثورته .
ــ وما سبب هذه العداوة كلها التى يكنها إيدن لعبد الناصر ؟
فقالت جانيت وهى تشير له بيدها أن يجلس :
ــ ماذا تظن أنه السبب فى هذه العداوة ؟
ــ مهاجمة عبد الناصر لحلف بغداد ، وطرد جلوب من الأردن ، وتقرب الأردن من مصر ، وخشية إيدن أن تدور الدولة التى رسم تشرشل حدودها لأول مرة على غطاء مائدة طعام فى أحد مطاعم لندن فى عام ١٩٢١ فى فلك مصر ، وأن تنتهج سياستها .

إن إنجلترا لا تسكت أبدا على أن تصبح الأردن فى صف الدول المناهضة لسياستها ، لأنها تعتبرها مفتاح العراق ، والعراق مركز السياسة البريطانية فى المنطقة .

قالت جانيت وقد شردت ببصرها :
ــ أنت تلف حول مركز الموضوع ، إنى فكرت فى أسباب عداوة الغرب لعبد الناصر ، وقد اهتديت إلى فكرة أعتقد أنها توضح الأمر كله . بعد أن تهزم أمة فى حرب من الحروب تتركز المرارة فى نفوس أبنائها ، وتتطلع إلى محو العار الذى لحقها ، وتتلفت تبحث عن ابن من أبنائها كوى بنار الهزيمة وذاق مرارة الانكسار ليقيلها من عثرتها ، وما إن يظهر هذا الابن البار حتى تتعلق به كل الآمال ، وتلتف حوله كل لقلوب ، فهو المعبر عن آلامهم وآمالهم . فبعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى قام مصطفى كمال يضمد جراح الشعب التركى ، ويلم شمله ، وينتشله من عثرته ، وقد نجح أتاتورك فى أن يحقق آمال الشعب المنهزم .

وبعد هزيمة العرب فى فلسطين ، كان الغرب يخشى أن يقوم رجل من العرب ذاق مرارة الهزيمة ، يعبر عن آلامهم وآمالهم ، وينجح فى أن يلم شملهم ، وأن

يقودهم إلى مجدهم . وكادت مخاوف الغرب أن تنقشع لما مرت سنوات بعد حرب فلسطين ، وملوك العرب وحكامهم غارقون فى ملذاتهم ، يتناحرون فيما بينهم على مطامعهم الذاتية . وقامت ثورة مصر ، وكان الغرب واثقا من نفسه من قدرته على أن يفرق بين حكام العرب فلم يفزع ، بل كان على يقين من أن الشبان الذين تولوا مقاليد الحكم فى مصر سيكونون لعبة فى يد ساسة الغرب الدهاة . ومرت الأيام، وتمت صفقة الأسلحة الروسية، وقوض حلف بغداد بعد أن رفضت الأردن أن تنضم إليه ، وطرد جلوب منها . وانتشت الشعوب العربية كلها بدعوة القومية العربية ، وذاقت فرنسا الأمرين من ثوار الجزائر وتأييد عبد الناصر لهم ، فتأكد الغرب أن عبد الناصر هو الرجل الذى قام بعد هزيمة فلسطين ليعبر عن إرادة الشعوب العربية ، وليجمع شملهم تحت راية القومية العربية ، فكان على الغرب أن يطيح به ويقضى عليه قبل أن يستفحل خطره ، ويحطم كل نفوذ لهم فى المنطقة .

وقال توفيق وهو يهز رأسه موافقا :

— معقول .

ثم التفت إليها وقال :

— فى رأيك أن التسوية السلمية التى يتحدث عنها إيدن إن هى إلا خداع ؟

— نعم .

— وأن غضبة إيدن ومموليه من هذا التأميم واقتراحات التدويل وسيلة لا غاية ، وسيلة للإطاحة بعبد الناصر .

— أصبح التخلص منه هدفا من أهداف سياسة الغرب بعد أن اتضحت خطورته على مصالحهم . إنه نجح فى أن يجعل مشكلة القناة مشكلة عربية ، فالشعوب العربية كلها اليوم تقول : إنها ليست قناة السويس ولكنها قناة العرب .

— إذا كان العدوان قد تقرر ، فلماذا يرسل إيدن منزيس للتفاوض مع مصر؟

— إنه يعلم علم اليقين من أن سفارة منزيس ستخفق ، وأن الشروط التى يحملها سترفض ، وهو لذلك يبعث به حتى يظهر للعالم أن عبد الناصر لا يقبل

الحلول السلمية ، وأنه قد اضطر اضطرارا لاستخدام القوة لحل الأزمة . إنه يعبئ شعور الكراهية الآن لعبد الناصر فى العالم بأسره ، ولو حللت الأسئلة التى يلقيها عليه الصحفيون الأجانب فى هذه الأيام لكشفت عن خبثها ، وإن بدت بعضها ساذجة فى ظاهرها . قال له واحد منهم : هل أنت دكتاتور ؟ وقال له آخر : هل أنت فرعون ؟ يريدون بهذه الأسئلة أن يثبتوا هذه المعانى فى أذهان قرائهم.

وسأله سائل منهم : هل فى النية تأميم شركات البترول فى البلدان العربية ؟ ولم يكن بأية حال ينتظر ردا ، فهو يعلم أن ذلك من أخص شئون تلك البلدان الداخلية ، ولكنه كان يريد بهذا السؤال أن يلقى الرعب فى قلوب المهتمين بالزيت العربى ، وأن يبذر فى صدورهم بذور العداوة للرجل الذى قام ليوقظ العرب من سباتهم .

— أتعتقدين أن إيدن سيلجأ إلى استخدام القوة ؟

— هذه أمنيته ، ولكنى أعتقد أنه لو أقدم على الحرب فسيكون أكبر مجنون فى هذا العصر ؛ فظروف اليوم تختلف عن الظروف فى أيام جلادستون ، فلن يقبل أحد أن تندلع شرارة الحرب فى هذه المنطقة .

— وإذا ركب رأسه ونفذ حلمه .

— على من سيعتمد فى تأييد عدوانه ؟

— على فرنسا وأمريكا وحكام العرب الموالين للغرب .

— أظن أن مستر دالاس حاقد على إيدن ، فهو الذى أغراه بسحب تمويل السد العالى وأكد له أن عبد الناصر لن يفعل شيئا ، وأن إهانة سحب التمويل إن وجهت إلى عبد الناصر فستضعف نفوذه فى المنطقة ، فسمع لنصحه ، وإذا بالآية تنعكس ، ويصبح عبد الناصر محط أنظار الشعوب العربية كلها بعد أن ضرب ضربته الجريئة وأمم القناة ، وإذا بدالاس يشعر فى قرارة نفسه أن هيبته قد طعنت طعنة نجلاء ، وأن إيدن هو الذى عرضه لهذه الطعنة .

— ولو أعرض عن كل هذا وقام بمغامرته ليطيح بعبد الناصر ، ويقضى على القومية العربية فى مهدها ..

— لو فعل فلن يقضى على القومية العربية ، بل سيعاونه على تقويتها ، على أن تصبح حقيقة واقعة . فما من شيء يقوى المبادئ ويعين على انتشارها قدر اضطهادها ومحاولة القضاء عليها بحد السيف .

ودوى فى سكون الليل رنين جرس الإسعاف ، فأرهف توفيق سمعه وقال :

— ترى ماذا هناك ؟

ومالت جانيت برأسها تصغى ثم قالت :

— يخيل إلى أن سيارة الاسعاف وقفت عند بيتنا .

فابتسم توفيق وقال :

— ترى ستسعف من منا ؟ الحقيقة أنى فى حاجة إلى من يسعفنى من الدوامة التى نعيش فيها .

وساد الصمت برهة ، وإذا بجرس الباب الخارجى يدق ، فالتفت توفيق إلى زوجته فى دهش ، ثم ذهب ليرى ماذا جرى وهو فى حيرة . وانطلقت جانيت خلفه وقد ارتسم فى وجهها شيء من القلق والاستغراب .

وفتح توفيق الباب فألفى أمامه صديق الفرارجى فى ثياب الإسعاف ، وقد أسند بذراعه مرجان ، وكانت الضمادات البيضاء تلتف حول رأسه فى إحكام ، وهتفت جانيت قائلة :

— مرجان ! ماذا أصابك ؟

وقال مرجان وهو يبتسم :

— حادث بسيط ، قد أسعفنى السيد صديق .

وقال صديق وهو يحاول أن يروغ قبل أن تكثر الأسئلة والاستفسارات :

— مساء الخير .

وقال له توفيق :

— تفضل .

— شكرا .

وانسل صديق ، ودخل مرجان وجانيت تقول له :

— لم تقل لى ماذا حدث ؟

قال مرجان وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينيها :

— كنت أسير فى شارع سعد زغلول وحدى ، وخطر لى أن أعبر الطريق لأتمشى بالقرب من البحر ، وما أن قطعت فى عبور الشارع بعض خطوات حتى جاءت سيارة مسرعة كادت تدهمنى ، فهربت من طريقها ، ولكن رفرفها صدمنى ، فسقطت على الأرض ، وارتطم رأسى بالرصيف وسال دمى .

قال له توفيق :

— وماذا فعل سائق السيارة ؟

قال مرجان وهو يدور بعينيه فى المكان :

— هرب . لم يقف ليرى ماذا حدث لى .

قالت جانيت وهى تفحصه بعينيها كأنما تحاول أن تقرأ ما فى ضميره :

— ومن الذى استدعى الإسعاف ؟

قال مرجان :

— جاء العسكرى يهرول بعد أن سمع صوت الفرملة ، فوجد أن السيارة قد هربت وأنى ملقى على الأرض ودمى يسيل ، فأسرع باستدعاء الإسعاف .

وتبادل توفيق وجانيت النظرات ، وكانت عيونهما تؤكد أنهما لم يصدقا شيئا مما قال .

وغمز توفيق لجانيت أن تسكت وأن تدعه ينصرف ، وقال له توفيق :

— ادخل يا مرجان لتستريح .

وتنفس مرجان فى راحة ، انتهت الأسئلة التى كان يخشاها ، ودلف إلى غرفته لينام ، وقال توفيق لجانيت :

— لماذا كل هذه الأسئلة ؟

— كنت أريد أن أعرف حقيقة ما وقع له .

— الرجل لا يستطيع أن يخفى شيئا من أدق شئون حياته ، انتظرى حتى ينام ثم يبدأ فى إذاعة كل ما حدث فى يومه .

وعادت جانيت تدون مذكراتها ، وراح توفيق يقرأ كتابا عن السويس ، وبعد أن قرأ فقرات رفع رأسه وقال لجانيت :

ـــ لم أكن أعرف قبل اليوم أن مدينة السويس كانت تسمى بالقلزم ، وأنها مشتقة من كليزما اللاتينية ومعناها المرفأ ، وأن العرب أطلقوا عليها القلزم تحريفا ، لأن القلزمة فى اللغة العربية معناها ابتلاع الشيء ، ولأنهم يعتقدون أن عندها عبر موسى البحر ، وأن البحر هناك ابتلع فرعون .

وصمت قليلا ثم قال وهو يضحك :

ـــ البحر قلزم فرعون !

وقالت له جانيت :

ـــ ما أكثر ما فى الكتب من حقائق وخيالات .

وصمتت جانيت وأرهفت سمعها ، فتيقنت أن مرجان قد راح فى سبات ، وبدأ يتكلم فى نومه .

فقالت وهى تنهض :

ـــ بدأت محطة إذاعة مرجان فى إذاعة نشرتها اليومية .

ورمى توفيق الكتاب وانطلق خلف زوجته إلى غرفة مرجان وقد بدأ يفضى بكل أسراره دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، وفتحت جانيت باب الغرفة فى رفق واحتراس حتى لا تحدث صوتا قد يوقظ مرجان ، ووقف توفيق خلفها وهو يصغى ، وقال مرجان :

ـــ لا يا سليمان . هذا فرح لا يليق بى أن أغنى فيه . لماذا جئت بى إلى أناس لا يقدرون الفن ؟ جئت بى إلى هنا لتشرب كما تشاء وتملأ بطنك بالطعام .

ـــ لا يا سيد سليمان . شكرا . أنا لا أشرب . اشرب أنت . أنا خائف يا سليمان . لن تمر هذه الليلة على خير . الناس الجالسون هناك وفى أيديهم الهراوات فى عيونهم الشر . أتقول إن بينهم وبين أصحاب الفرح عداوات ودماء ؟! لا يا سليمان . أنا لا أحب هذا المزاح . سأنصرف .. أنا لا أحرجك ولكنك أنت الذى أحرجتنى . لماذا جئت بى إلى هنا ؟ إذا كنت تريد أن تشرب

وأن تأكل فما أكثر الأفراح التى تستطيع أن تشرب فيها على هواك .

سليمان ! لقد بدأت المعركة . اتركني . دعنى أنصرف أرجوك ..

أنا لا أدرى لماذا أطاوعك وأنقاد معك إلى حيث تشاء من الأفراح .

العيب عيبى لأنى أتبعك . لن أصغى إلى توسلاتك بعد الليلة .

وى ! الكراسى تطير فى الهواء ، إنهم قادمون نحونا وهم يحطمون كل شىء .

آه .. آه يارأسى .. رأسى . لعنة الله عليك يا سليمان .. الدم ! الدم ! الدم !

وجذب توفيق جانيت من يدها وانسلا من المكان ، وأغلق باب الغرفة خلفهما ومرجان يصيح ويتألم ويتدفق من فمه أقذع السباب لسليمان الذى غرر به ليملأ بطنه بالطعام ، ويطفئ ظمأه للشراب .

— ٢٩ —

كان حسن يتقلب فى فراشه ، فقد طار النوم من عينيه وراحت الأفكار تنثال على رأسه وتتزاحم ، وتزيد فى قلقه الذى انتابه ، وتحرضه على أن ينهض ويخرج ليكون على مقربة من الأحداث الهائلة التى تجرى فى بلده ، بيد أن الظلام الذى كان ناشرا جناحيه على المدينة كان يدفعه إلى أن يتريث حتى مطلع النهار .

انحصر كل تفكيره فى المشاكل التى خلقها الغرب بعد تأميم القناة : « مسيو بيكو مدير شركة القناة سافر منذ شهور إلى واشنطن ، ليبذل كل جهد ممكن ليحمل الدول الكبرى على الضغط علينا لنقبل مد امتياز الشركة . أنت مغفل يا مسيو بيكو . كيف خطر على بالك أننا نقبل أن نمد أجل الامتياز يوما واحدا ؟ لا لم تكن مغفلا . أنا أعذرك لأنك وجدت من يستمع إليك . فمستر بلاك مدير البنك الدولى اقتنع برأيك وعرض أن يعطينا مليون دولار كقرض لتوسيع قناة السويس ، واشترط أن نبحث موضوع مد امتياز الشركة . هل عندك ابنة يا مستر بلاك ؟ لو كنت والدا وعرض عليك رجل ثرى أن يلبس ابنتك الحرير وأن يزينها بالجواهر والأحجار الكريمة على شريطة أن تتنازل له عنها ، أكنت تقبل ذلك يا مستر بلاك ؟ القناة يا مستر بلاك ابنتنا ، انتزعت من بين أحشائنا ليلة

ولادتها ، وقد عشنا السنين ونحن فى لوعة نكتوى بنار فراقها ، فلما عادت إلينا بعد طول غياب ، أتظن يا مستر بلاك أننا نفرط فيها ؟ لو فكرت يا مسيو بيكو ويا مستر إيدن ويا مسيو موليه تفكيرا إنسانيا لتيقنتم أنكم تطلبون منا المستحيل . أهون علينا أن نموت من أن نفرط فيها .

تتوعدوننا بالحرب . لماذا ؟ ألأننا استرددنا منكم حقنا ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أبدا أن تقوم كل هذه الضجة ، وأن تنقل الجيوش من إنجلترا إلى قبرص ، وأن تحرك القوات الفرنسية ، وأن تنفق كل هذه النفقات من أجل أن تسترد شركة القناة سيطرتها على القناة ، ماذا فى رءوسكم ؟ ماذا قال إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد لما اجتمعوا معا فى باريس ؟ ماذا قال بيكو لوزير خارجية إنجلترا لما اجتمع به فى لندن ؟ نجحت يا بيكو فى أن تدبر سحب المرشدين الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين والطليان . غدا سنعمل بلا مرشدين أجانب . غدا ؟ لا . بل اليوم ، فقد ولد يوم الجمعة ، الخامس عشر من سبتمبر من عام ١٩٥٦ منذ أربع ساعات .

هذا يوم له ما بعده ، يوم يجب علينا فيه أن نفوت على الغرب غرضه . وما هو غرضه ؟ يريد أن تشل الحركة فى القناة فيعلن للعالم أجمع أننا أخفقنا فى إدارتها . لن نخفق يا مستر إيدن ، ولن نمكنك من أن تحقق هدفك . أنستطيع حقا أن ندير القناة وحدنا ؟ على إخواننا المرشدين المصريين والمرشدين اليونانيين الذين وقفوا معنا أن يبذلوا جهود الجبابرة ويبذلوا كل ما فى طاقة البشر ليحطموا المؤامرة الدنيئة . وإذا أخفقنا يا حسن ؟ لا . يجب ألا نخفق أبدا وإلا انتهينا . ليتنى كنت مرشدا بحريا لأعمل حتى يغمى على من الجهد والتعب .

ماذا يريدون منا ؟ أريد أن أعرف .. أن أهتدى . ألا تعرف يا حسن ماذا يريدون منا ! إن أسئلة صحفييهم تكشف عن خبيئة نفوسهم . لماذا سأل أحدهم عما إذا كانت الدول الإسلامية ترضى بأن يسيطر عليها دول غير إسلامية ؟ ما الذى دس الإسلام فى هذا السؤال ؟ أو ترضى أية دولة سواء أكانت إسلامية أم مسيحية أم بوذية أم ملحدة أن تخضع لسيطرة دولة أخرى ؟!

ذكر الإسلام لأن فى أعماق شعوره خوفا منه ، يخشى أن يستيقظ بعد أن أطال نومه ، يخشى أن يتحد قومه ، إن بعض كتابهم يظهرون خوفهم من يقظته صراحة ، أذكر أنى قرأت رأيا غريبا يقول : لو علم المسيحيون حقيقة الدور الذى لعبه معاوية لتمزيق وحدة المسلمين لصنع كل مسيحى مخلص لمعاوية تمثالا ، فهو الذى أوقف تيار الإسلام الذى كان سيجرف العالم كله . من من كتابهم الذى قال ذلك يا حسن ؟ نسيت . ولكن هذا القول نقش فى قلبى منذ أن قرأته ، وألقى ضوءا على الدوافع الحقيقية التى تحرك أغلب الساسة الغربيين .

لا . أنا لست متعصبا . أنا أفهم حقيقة ما تدعو إليه كل الأديان ، إنها تدعو إلى المحبة والتعاون والتضافر لتحقيق رفاهية البشر أجمعين . هل العدوان الذى يدعو إليه إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد من الدين فى شىء ؟ إن ديننا ودينهم وكل دين يدعو إلى السلام ، ويذم الظلم والبغى والعدوان .

هل جاءوا حقا لحقن الدماء وإقرار السلام ؟ منزيس لم يأت ليتفاوض بل جاء يملى شروطا مجحفة ، جاء لينفخ فى نيران العداوة والبغضاء ، وتجميد أموالنا فى مصارفهم هل أريد به إقرار السلام ؟ وتحركات القوات المسلحة إلى قبرص أقصد بها السلام ؟ هل من الدين فى شىء أن يلتهم القوى الضعيف ، وأن يسود قانون الغابة ؟! » .

وهب من فراشه وفى جوفه صيحات غاضبة تدوى : اسمع يا إيدن واسمع يا موليه ، اسمع يا دالاس : لن نقبل الذل الذى تريدون أن تضربوه علينا أبدا . خير لنا أن نفنى كلنا من أن نمكنكم من أن تدوسوا كرامتنا . وراح يغدو ويروح فى الغرفة وهو يزفر فى ضيق ويضرب كفه بقبضته ويغمغم :

ـــ ليتنى أستطيع أن أفعل شيئا . ليتنى كنت مرشدا . ليتنى أستطيع أن أرشد كل السفن التى ستفد لتعبر القناة .

ولم يستطع أن يبقى فى الدار ، خيل إليه أنه سجين عواطفه وأوهامه ومخاوفه ، أحس رغبة فى أن ينطلق إلى ميدان المعركة ، أن يشاهد عن كثب آثار المؤامرة ، فراح يرتدى ملابسه . وشعرت فتحية به فقالت فى دهشة :

ــ حسن ! ماذا تفعل عندك ؟

ــ أرتدى ملابسى .

ــ لماذا ؟ اليوم يوم الجمعة والمؤذن يؤذن بالفجر .

وهم بأن يقول لها : إنه خارج ليصلى الفجر ، ولكنه كره أن يكذب عليها وعلى الله ، فهو خارج ليذهب إلى مدخل القناة ليرى ما يحدث هناك ، فقال لها :

ــ ذاهب لأرى ماذا يجرى فى القناة .

فقالت فى انكسار :

ــ مالك أنت وما يحدث هناك ؟

وصمت ، فسكتت فتحية ، وكانت تعلم أنه إذا عزم على شىء فلن يمكن لأحد أن يثنيه عنه ، إنها تذكر أن بهية شكت إليها يوما من أن زوجها يغرى عبود على السهر وعلى الذهاب إلى حيث لا تدرى فى أيام الإجازات ، ففاتحته فى الأمر والتمست منه أن يدع عبود لزوجته ، فقال لها فى حزم : هذه مسائل لا دخل للنساء فيها ، وأبى أن يستمع إليها أو يسمح لها بأن تناقشه فى الموضوع .

وخرج حسن فى عماية الصبح ، وانساب فى الطريق وهو يحس أن فى صدره طاقات تدفعه إلى أن يغذ السير . وانطلق إلى شاطئ البحر ، وسرى خفيفا إلى مدخل القناة ، وجعل يترقب وهو خائف قلق ، كان يخشى أن تتفتح عيناه على حقيقة مؤلمة ، وكان القلق يستبد به ويمده بأوهام قاسية تكاد تزلزل إيمانه بقدرتنا على أن نجتاز الأزمة المريرة فى سلام .

ورأى سفنا كثيرة ، أكثر مما اعتاد أن يراه كل صباح ومساء تنتظر المرور فى القناة ، فهتف فى حنق :

ــ يا للأبالسة ، ساقوا كل ما يستطيعون أن يسوقوه من السفن إلى القناة فى هذا اليوم ليعرقلوا حركة الملاحة ، وليدمغونا أمام العالم بأننا لسنا أكفاء للنهوض بهذا العمل . آه لو قصرنا اليوم ، أو حدث ــ لا قدر الله ــ ما يعوق مرور السفن ، إذن لانطلقت الحملات المسعورة من أبواق إذاعات العالم ، ومن أجهزة التلفزيون ، ولظهرت العناوين المثيرة فى صحافة العالم التى يسيطر عليها اليهود ،

تعلن على الملأ أننا عاجزون عن حمل هذه الأمانة .

ورفع بصره إلى السماء وراح يدعو فى حرارة :

ـــ يارب . تخلى عنا من ظنوا أنهم عظماء ، ولكنك أعظم وأجل ، ليس لنا سواك فلا تتخل عنا .

وتعلقت أنظاره بالسفن ، وظل شاخصا ينظر فى قلق وصمت وقد أرهفت حواسه كأنما كان ينتظر أن تنفجر فجأة قذيفة من القذائف لتودى به وبكل ما حوله . وراح يعد السفن التى تمر فى القناة .

ـــ واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

وأشرقت الشمس وأرسلت أشعة الصباح ، ثم راحت ترتفع وتتألق حتى صارت فوق رأس حسن وهو فى مكانه لا يريم ، واستمر فى عد السفن التى كان يرشدها المرشدون المصريون واليونانيون .

ـــ خمسة عشر . ستة عشر .. يارب .. يارب سترك .. عونك يارب .. اللهم امنحهم القوة . اللهم أمدهم بروح من عندك . إن ينصركم الله فلا غالب لكم .. اللهم نصرك ..

وطافت برأسه فكرة : لماذا يقف مكتوف اليدين ينظر ويبتهل دون أن يتقدم لفعل شيء ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل يا حسن؟ تستطيع أن تمد يدك إلى هؤلاء الأبطال الذين يبذلون ذوب نفوسهم لتظل رءوسنا مرفوعة ، لكيلا تتمرغ كرامتنا فى الوحل ، ماذا أفعل ؟. ماذا أفعل ؟ . اذهب إليهم وقل لهم إنك معهم ، تضع نفسك تحت إمرتهم ... ولم ينتظر بل انطلق إلى شركة القناة وهو محموم بحرارة ما فى جوفه من انفعالات وتقدم إلى أول مكتب قابله وقال فى حماسة:

ـــ وجدت من واجبى أن أقدم نفسى إليكم ، فإنه لمما يسعدنى أن أبذل روحى حتى ننتصر على ما يدبره لنا الأعداء . لسوء حظى أنى لست بحارا ولكنى أستطيع أن أعاون فى الورش ، فأنا ميكانيكى فى شركة الملاحات .

وقال له الرجل الجالس خلف مكتبه وقد بدا عليه الجهد والإعياء :

ـــ شكرا لك . تستطيع أن تأتى غدا صباحا .

وأراد حسن أن يطمئن على الأحداث الهائلة التى تجرى فى الشركة فقال :

ـــ كيف حال العمل اليوم ؟

فقال له الشاب :

ـــ يسير على ما يرام .

فقال حسن وهو ينصرف :

ـــ وفقنا الله ، فعيون العالم كلها مفتوحة اليوم على ما يجرى هنا ، فى القناة .

وسار حسن وفى عقله أصوات تردد : القناة قناة العرب .. القناة قناة العرب .. لسنا فى المعركة وحدنا .. لسنا فى المعركة وحدنا .. كل الشعوب العربية معنا .. كل الشعوب العربية معنا .. كل الشعوب العربية معنا .. أصدقاؤنا يؤيدوننا فى كل مكان .. أصدقاؤنا يؤيدوننا .

وراح يسير على ما يتردد فى أعماقه من هتافات ، وإذا به يصيح فجأة :

ـــ سنقاتل .. سنقاتل حتى آخر رمق . حتى آخر رجل . حتى ننتصر .

وعاد هامس يهمس فى جوفه : والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته .

وبلغ شارع الأمين ، فعرج إليه ، وسار دون أن يحس شمس الظهيرة الحامية حتى وصل إلى دكان فانوس ، فقال له :

ـــ السلام عليكم .

ـــ سعيدة مبارك ، كيف حالك يا شيخ حسن ؟

قال حسن وهو يبتسم :

ـــ ألم تفكر يا فانوس أن تأتى معنا يوما لتتدرب على استعمال السلاح ؟

ـــ قلت لك أكثر من مرة يا شيخ حسن : أنا رجل لا أعرف فى السياسة ولست رجل قتال . كل ما أريده فى دنياى أن أحصل على لقمة العيش ، وألا أحتاج إلى أحد يوما .

ـــ إن رجالا من جنسيات كثيرة أرسلوا إلينا يطلبون أن يتطوعوا للقتال معنا إذا ما حاربنا الذين يتربصون بنا . نحن أولى منهم بالدفاع عن بلادنا .

قال فانوس ساخرا ليهرب من حديث حسن :

ـــ أرسلوا إليك ؟

فقال حسن فى ثبات :

ـــ نعم أرسلوا إلى وإليك وإلى صديق وعبود وبهنس ، وإلى كل الناس هنا . إنهم يتطوعون ليحاربوا إلى جانبى وإلى جانبك ، وإلى جانب كل المصريين ، إنهم يتطوعون ليقفوا إلى جانب الحق .

قال فانوس :

ـــ أنا واثق أن الحرب لن تنشب بيننا وبين الإنجليز والفرنسيين .

ـــ ومن أين جاءتك هذه الثقة ؟

ـــ الإنجليز لهم مصالح كثيرة فى الشرق العربى ، ولا أظن أنهم يعرضون هذه المصالح للخطر بشن الحرب علينا .

ـــ هذا رأى وجيه وإن كنت تدعى أنك لا تفهم فى السياسة ، وهناك رأى آخر .

ـــ وما هو ؟

ـــ إنهم إذا لم يحاربوا ضاعت مصالحهم فى المنطقة ، ستلتهمها دعوة القومية العربية ويقظة الشعوب العربية . إنهم بين نارين ، إن حاربوا تعرضت مصالحهم للخطر ، وإن سكتوا عن الدعوة الجديدة تعرضت مصالحهم للخطر ، فمصالحهم فى خطر فى كلتا الحالتين .

ـــ لو كنت من الساسة الإنجليز لآثرت المسالمة حتى لا أفقد أصدقائى العرب .

ـــ قد يرى الإنجليز فى حربنا إرضاء لبعض أصدقائهم من ساسة العرب وحكامهم .

المهم ، متى ستأتى لتتدرب معنا .

ـــ لا تنس يا شيخ حسن أنى كنت فى الجيش .

ـــ ولو . لا بد من أن تعاود التدريب على استعمال الأسلحة .

ـــ أنا رجل فقير يا شيخ حسن ، لو أغلقت هذا الدكان مت من الجوع ،

والذين يسحبون حاجاتهم على الحساب حتى يأتى أول الشهر سيموتون أيضا من الجوع .

— قل إنك لا تحب أن تأتى معنا ، فالوقت الذى ستضيعه معنا لن يزيد على الوقت الذى تضيعه فى لعب الطاولة . السلام عليكم .

— مع السلامة يا شيخ حسن .

وسار الشيخ حسن حتى بلغ منزل عبود ووقف قليلا يفكر ، إن عبود قد اعتذر فى الأيام الأخيرة عن التدريب ، كان فى كل مرة يعتذر بأن بهية فى شهرها الأخير وأنه لا يستطيع أن يتركها فى هذا الشهر وحدها . إنه على يقين من أن بهية لن تلد قبل شهر أكتوبر فلماذا يكذب عبود ؟ لماذا يهرب من التدريب ومن السهر مع أصدقائه ؟ لماذا يقاطعهم ويفضل أن ينزوى فى بيته ؟

وقرر أن يصعد ليقابل عبود ، فعرج إلى بيته وصعد فى الدرج ثابت الخطو ثم طرق الباب ، وما مرت لحظات حتى فتحت له بهية ، ولما رأته انقبضت بيد أنها جاهدت حتى لا تنعكس مشاعرها على وجهها وقالت :

— تفضل .

ثم التفتت خلفها لتخفى انفعالاتها عنه ونادت :

— عبود ! حسن جاء .

وخف عبود لاستقبال صديقه وسار به إلى مكان بعيد ، وتظاهرت بهية أنها تركت الصديقين يتناجيان ولكنها توارت فى مكان تستطيع أن تلتقط منه كل ما يدور بين الرجلين من حوار .

وقال حسن :

— خسارة ياعبود أن تنقطع عن التدريب معنا فى هذه الأيام المشحونة بالاحتمالات .

يخيل إلى أن المؤامرات من حولنا يأخذ بعضها برقاب بعض ، وأننا قد نجد أنفسنا فجأة فى قلب المعركة .

فقال عبود فى صوت متخاذل :

— تعلم يا حسن أنى أمقت الحروب ، وأنى لم أقبل أن أتدرب معكم على استعمال الأسلحة إلا لأدافع عن شرفى إذا ما حاول أحد أن يعتدى عليه .

— من يأتى ليغزونا إنما يعتدى على أغلى شرف ! شرف الوطن يا عبود .

وقال عبود فى ضيق :

— لا يمكن أن أتصور نفسى وأنا أحمل سلاحا لأقتل به إنسانا .

فقال حسن فى سخرية :

— ولكن يمكن أن تتصور إنسانا أتى من بلاده البعيدة يحمل سلاحا ليقتلك ، وأنت تنظر مكتوف اليدين . لن يقول أحد فى تلك الساعة إنك شهيد السلام ، بل سيقال إنك جبان .

فقال عبود فى قلق وعيناه لا تستقران فى مكان من الاضطراب :

— حسن !

— آسف يا عبود ولكنها الحقيقة وإن كانت مرة .

وقال عبود فى ضعف :

— أنت لا تفهمنى يا حسن .

وهم حسن أن يقول له : أنا أفهمك أكثر مما تفهم نفسك . أنت أضعف من أن تعصى لزوجتك أمرا . ترتجف من ثورتها وتخاف من غضبها ، أنت لم تنقطع عن التدريب معنا إلا لأنها لامتك لكثرة غيابك عن البيت ، بيد أنه آثر الصمت وراح يمضغ غيظه دون أن تتحرك شفتاه بكلمة .

ومر بعض الوقت وبهية تصغى فى اهتمام ، وخطر لها أن تذهب لتقدم لحسن شيئا ولكنها خشيت أن يفوتها طرف من الحديث الدائر بين الزميلين ، فآثرت البقاء فى مكانها . وقال حسن :

— فكرت اليوم بعد انسحاب المرشدين أن أضع نفسى فى خدمة شركة القناة ، أن أعاون على إحباط المؤامرات التى دبرها الغرب ، فذهبت وقدمت نفسى ، فطلب منى أن أنتظر حتى الغد . وقد جئت يا عبود أقول لك إن الواجب يقضى بأن تقدم نفسك للشركة غدا .

فقال عبود فى إنكار :

ـــ ماذا يستطيع أمثالنا أن يفعلوا فى مثل هذه الآونة ؟

قال حسن فى ثقة :

ـــ أى جهد مهما قل فى مثل هذه الظروف له قيمته . لا تتردد يا عبود .

فقال عبود فى ضعف :

ـــ أفكر .

وقام حسن واستأذن وانصرف ، وما إن أغلق الباب وراءه حتى قالت بهية لعبود فى نبرة غاضبة :

ـــ لماذا لم تقل له يا عبود إنك لن تترك عملك فى شركتك أبدا ؟ لماذا لم تطلب منه أن يبتعد عنك ويتركك لتعيش فى أمان ؟

ـــ أنا لم أعده بشىء .

ـــ وهل كنت تريد أن تعده بشىء ؟ لم تعد حرا يا عبود تتصرف على هواك . ستصبح بعد شهر أبا لذلك الذى فى بطنى . ستصبح فى رقبتك أسرة أنت مسئول عنها ، فحرام عليك أن تضيعها . لا تصغ يا عبود للشيخ حسن ، إنه متهور ، ولن تكسب من تهوره إلا الضياع .

وآثر عبود الصمت ، وانقضى بعض الوقت ثم ذهب مع بهية يعاونها على التأهب لاستقبال ابنهما الذى سيرى النور بعد شهر .

وشرد عبود وراح يسأل نفسه : لماذا سمعت كلامها يا عبود ، وقاطعت أصدقاء القهوة ، وانتحلت الأعذار الكاذبة لتتخلف عن التدريب ؟ لماذا قبلت يا عبود أن تستخلصك لنفسك دون سائر أصحابك ؟ وأن تشدك إليها وتخضعك لسلطانها ؟ لماذا احتملت غيرتها وبذلت كل جهد لتقتلع من نفسها كل شك خامرها ؟ لماذا لا تثور وتتحرر ؟ أتحرر من ماذا ؟ أنا أحبها ؟ أهواها . وهل يستطيع المحب أن يتحرر ممن يحب . كلنا عبيد .. عبيد .

لا . حسن ليس عبدا ، فهو حر يفعل ما يشاء وما يريد . يخرج عندما يحلو له أن يخرج ، ويعود إلى بيته وقتما يشاء ، ويترك عمله ليلتحق بعمل آخر دون أن

يعقب على إرادته معقب . إنه حر .. حر .. لا . ليس حرا . إنه عبد مثلى ، عبد لفكرة تستولى عليه وتملى عليه كل تصرفاته ، وتكبله بقيود من حديد ! كلنا عبيد .

وقالت بهية فى دلال :

ـــ ملابس ابنتنا كلها بلا أزرار . يا عبود .

فقال عبود مداعبا :

ـــ سأذهب لأشترى أزرارا إذا قلت : ابننا .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ ملابس ابننا .

فقام إليها وقبلها وهو سعيد وقد تبخرت انفعالات القلق والحيرة ، ثم غادرها ليشترى لها ما طلبت وهو فرحان .

وخرج إلى الطريق ، ولمح إنصاف والدكتور حازم مقبلين من بيت إنصاف فخطر له أن يتريث حتى يسألهما عن صحة الأم ، ولكنه خشى أن تراه بهية وهو واقف معهما فتتحرك غيرتها فينطلق لسانها باتهاماتها الظالمة ، فانساب فى طريقه وتظاهر بأنه لم يرهما .

وراحت بهية تعرض ملابس وليدها المنتظر أمام عينيها وهى خافقة القلب ، منتشية بالفرح . ومس أذنيها طرق خفيف على الباب فالتفتت فى دهش ، فما كانت تتصور أن يعود عبود هكذا سريعا .

وخفت إلى الباب وفتحته فرأت سليمان أمامها فقالت :

ـــ نعم ؟

فقال سليمان فى ارتباك :

ـــ عبود موجود ؟

ـــ ماذا تريد منه ؟

فقال سليمان وقد أطرق إلى الأرض :

ـــ بقائى هنا أصبح مستحيلا . أريد أن أعود إلى بلدى لأمكث هناك حتى أموت .

— وماذا يستطيع أن يفعل لك عبود ؟

— كل ما أريده ، أجر تذكرة السفر .

فقالت بهية فى انفعال :

— حرام عليك أن تحرمنا من اللقمة التى نأكلها لتسكر بثمنها ، ولكن العيب ليس عيبك . العيب عيب عبود الذى يسمح لكم بأن تستغفلوه . هذه ليست طيبة . هذا تغفيل ، ولن أسمح لأحد بعد اليوم أن يستغفله .. لن أسمح أبدا بأن نقتطع من قوتنا لنعطيك لتصرف ما نعطيك على مزاجك .

إننا بعد شهر سيكون لنا ولد ، وهو أحق بكل مليم يكسبه أبوه بعرق جبينه . من قال إن رجلا يشقى ويتعب ليعطى من لا يعمل ليشرب خمرا ، حرام عليك . حرام عليك .

وفر سليمان من أمامها ، وهبط فى الدرج مسرعا وهى تزمجر وتثور ، وانطلق لا يلتفت خلفه ولا يلوى على شىء .

— ٣٠ —

كان الجو باردا ، فقد أشرف الثلث الأخير من أكتوبر ، وكان حفيف الشجر يعكر سكون الليل ، والأنوار خافتة كأنما كانت أنفاس مصابيح تحتضر ، وسار حسن قاصدا النادى وهو غارق فى أفكاره : كان يرجو أن يأتى اليوم الذى تفتح فيه له ولإخوانه أبواب أندية بور سعيد وبور فؤاد ، ليلجوا منها إلى الجنات التى وعد بها الفرنسيون والإنجليز وكل من كانوا فى بلاط أباطرة شركة القناة ، بينما كانت محرمة على الوطنيين المنبوذين ؛ وإذا بما تحقق يفوق كل ما كانت تهفو إليه أحلامه وأمانيه .

ما كان يحسب أن الإطاحة بأباطرة الشركة أمر ميسور ، ومادار بخلده أن وكر الدسائس والتجسس وخدمة الأعداء يمكن أن يتقوض . كان على يقين من أنه ثابت كالطود ، كل ما كان يحلم به أن يأتى اليوم الذى يسمح فيه الأباطرة بفتح أبواب الرحمة للمساكين من أبناء بور سعيد ؛ ولكن تمخضت الأيام عن حقائق

مذهلة ، فقد هان أمر الأباطرة لما عرفنا حقوقنا ، وثرنا لكرامتنا . فروا من وجوهنا كأرانب مذعورة ، وراحوا يستعدون علينا أعداءنا ، وخلفوا وراءهم وكر دسائسهم المظلم الذى كانت تتردد فيه أنفاس خبيثة محمومة . تنفتح نوافذه ، فيتجدد هواؤه وينسكب فيه النور .

وسار فى النادى مرفوع الرأس ، مزهوا بنفسه ، وخطر له خاطر أرضاه : سيدخل ابنه حيث يشاء من أرض بلاده ، دون أن يحس المهانة التى كان يحسها كلما وقف بعيدا يمد بصره ليخترق الحواجز التى ضربت بينه هو وأمثاله من المصريين وبين السادة الأجانب المترفعين المتغطرسين ، الذين كانوا ينعمون وحدهم بكل ما فى البلاد من متاع .

وتقدم ثابت الخطو وراح يتلفت فى سرور ، وإذا بصوت يناديه :

— حسن ! حسن !

فالتفت ناحية الصوت ، فألفى توفيقا وزوجه جالسين إلى مائدة وحدهما ، فذهب إليهما وحياهما ، وقال له توفيق وهو يقدم له كرسيا :

— تفضل .

وجلس حسن فى بساطة وهو يقول :

— شكرا .

وراح حسن يدور بعبنيه فى المكان وقد لاح البشر فى وجهه ، ثم التفت إلى توفيق وقال :

— وأورثناها قوما آخرين .

فابتسم توفيق وقال له :

— ماذا تأكل ؟

فقال حسن وهو يطرق إلى الأرض :

— شكرا . السيد صديق وبهنس مدعوان للعشاء عندنا الليلة .

ثم ضحك وقال :

— السيد صديق لا يحلو له أن يتعشى إلا بعد الساعة الحادية عشرة .

وقالت جانيت :

ـــ ماذا تشرب ؟

قال حسن مازحا :

ـــ شربات .

وفهمها توفيق فضحك . وجاء الجرسون فقال له حسن :

ـــ قهوة سكر زيادة .

وقال توفيق لحسن :

ـــ ما الأخبار ؟

ـــ الأخبار هذه الأيام كلها مثيرة . إننا نعيش فى دوامة . لم أعد أفهم بعقلى البسيط كيف يفكر الساسة الغربيون .

فقالت له جانيت فى اهتمام :

ـــ لماذا ؟

ـــ تضارب فى القرارات . سذاجة فى التفكير . تخبط معيب . ومما يزيد فى حيرتى أن الساسة يجدون من يصغى إلى تفاهاتهم ، ويصدقون ما يفترونه وما يدلون به من أكاذيب مفضوحة .

قال له توفيق :

ـــ لا تأخذ يا حسن الأمور بظواهرها ، فما أكثر الأشياء التى تبدو ساذجة وهى عميقة كل العمق .

فقال حسن فى ثبات :

ـــ قل لى : ما الذى كان يقصده دالاس لما اقترح إنشاء هيئة المنتفعين ؟ كيف يمكن أن يتصور رجل سياسى مثل دالاس ، أن تقوم هيئة فى مكان ما بعيدا عن القناة لتجبى الرسوم لمصلحة المنتفعين ، وأن تقف مكتوفة اليدين تنظر وهى راضية إلى من يسلبونها بغير حق عوائد قناتها ؟!

فقالت جانيت :

ـــ لعله أراد بهذا الاقتراح أن يخفت الأصوات التى تنادى بالحرب .

قال حسن :

ــ الأصوات ترتفع فى كل مكان ، والاستعدادات قائمة على قدم وساق ؛ القوات الفرنسية تحتشد فى منطقة مرسيليا ــ طولون ، وقوات إنجلترا تتأهب فى قبرص ومالطة وليبيا والأردن وعدن والعراق ، وأعلن بن جوريون فى الكنيست من يومين صراحة أن مصر هى عدو إسرائيل الحقيقى ، وأنه لن يصبر على أعمال الفدائيين المصريين الذين يتسللون إلى قلب إسرائيل . إن طبول الحرب تقرع فى كل مكان .

قالت جانيت :

ــ لا زلت على ثقة من أنه ليس هناك مجنون يجرؤ على إشعال نار الحرب فى هذه المنطقة .

قال توفيق :

ــ والأموال الطائلة التى تنفق على تحريك كل هذه القوات ، أتذهب هباء ؟ .

قالت جانيت فى هدوء :

ــ ما أكثر الأموال التى تنفق دون مبرر ، ولكنها هنا لها ما يبرر إنفاقها .

قال الشيخ حسن :

ــ وما هو هذا المبرر ؟

قالت جانيت :

ــ تحطيم الروح المعنوية العالية لهذا الشعب التى سرت فيه بعد تأميم القناة ، حتى يقبل التسويات السلمية المعروضة .

قال توفيق :

ــ المجحفة .

وقال حسن :

ــ ولماذا هاجم بن جوريون الأردن ، وألحق الدمار بقلعتيه العربيتين ؟

قالت جانيت :

ــ ليبرهن سادة الغرب للأردن أن مصر مشغولة عنه بمشاكلها ، وأنها لن

تخف لنجدته إذا ما هاجمته إسرائيل ، ولتثنيه عن الطريق الذى بدأ يسير فيه : طريق مصر وسورية .

قال حسن :

— فى اعتقادى أن هذه عملية تضليل أريد بها تحويل الأنظار إلى الأردن ، فى حين أننا الهدف الحقيقى لهجوم إسرائيل .

قال توفيق :

— هذا الهجوم أريد به إخضاع الملك حسين لرغبات نورى السعيد ، إنه يريد أن يرسل قوات عراقية إلى الأردن ، حتى يحول دون أن تسفر الانتخابات التى ستجرى فى ٢٨ أكتوبر عن نجاح المؤيدين للسير فى طريق التحرر والوحدة مع مصر وسورية .

قال حسن :

— وأين مصلحة إسرائيل فى هذا الهجوم ؟

قال توفيق :

— يعتقد نورى السعيد أن تسوية مشكلة فلسطين وتصفيتها أمر ضرورى ، قبل أن يصبح هو رجل العرب الأول الذى يشدهم إلى عربة الغرب ، وهو يرى أن هذه التسوية يمكن أن تتم على حساب الأردن : يتنازل لإسرائيل عن الضفة الغربية للأردن فيحقق لها حلما من أجمل أحلامهم ، ويضم الضفة الشرقية إلى العراق .

قال حسن وهو يهز كتفيه استنكارا :

— أمر إنجلترا يحيرنى فى هذه الأيام ؛ لم تتخبط فى سياستها من قبل كما تتخبط الآن . إنها حليفة إسرائيل وحليفة الأردن ، فهل إذا استنجد الأردن بها لتقف معه فى وجه إسرائيل ، تحارب إنجلترا حليفتها إسرائيل ؟

فقالت جانيت وهى تبتسم :

— ما أيسر تسوية الموضوع إذا ما بلغ هذا الحد . من مصلحة إنجلترا فى هذه الأيام أن تدع إسرائيل تؤدب الأردن ، حتى يعود ليرتمى فى أحضانها كما كان .

فقال حسن وهو شارد :

— يجوز . كنت أعلل النفس بأن ساسة إنجلترا فى هذه الأيام ليسوا دهاة كأسلافهم ، وكان ذلك يطمئننى .

قالت جانيت :

— لأنهم لو كانوا كأسلافهم ، فإنهم سيجدون المبرر القانونى ليعودوا إلى القناة .

قال توفيق :

— كيف ؟

قال حسن فى مرارة :

— المعاهدة التى وقعناها معهم تنص على حق العودة إلى القناة فى حالة نشوب حرب بيننا وبين أية دولة أخرى ماعدا إسرائيل ، فى بحر سبع سنين . أليس كذلك ؟

قال توفيق :

— نعم .

قال حسن :

— إن فرنسا تمقتنا لما حاق بها من هزائم فى الجزائر ، فهى تعلم أننا ساعد الجزائر الأيمن ، وقد أبرمت معاهدة بين فرنسا وإسرائيل ، وأعلنت إسرائيل أنها وجدت أخيرا حليفا صادقا ، فما أيسر أن تثيرهما إنجلترا علينا ، حتى إذا ما بدأ عدوانهما المسلح ، طلبت إنجلترا العودة إلى القناة ، مستندة إلى اتفاقية الجلاء ، وساعتها لن يكون أمامنا إلا أحد أمرين : أن نسلم لها بهذا الحق فتعود إلى القناة لتحتلنا مرة أخرى ، أو نرفض عودتها وبذلك نعطيها الحق فى استخدام القوة لتنفيذ الاتفاقية التى تنكرنا لها ، وسيؤيدها العالم كله فى هذه الحرب .

قالت جانيت :

— أعتقد أن إنجلترا لو فكرت فى حرب مصر فستلجأ إلى هذا الأسلوب .

قال توفيق :

— ولماذا لا تتفق مع إسرائيل وفرنسا على حربنا ؟

قالت جانيت :

ـــ إنجلترا تحاول دائما أن تضفى على ما تفعله المظهر القانونى . إن ما قاله حسن يتفق مع العقلية الإنجليزية كل الاتفاق ، فالإنجليز يعلمون أن وقوفهم مع إسرائيل جنبا لجنب سيغضب أصدقاءها العرب ؛ فهى على يقين من أن العرب لم يتفقوا على شيء إلا على كراهية إسرائيل .

قال حسن فى مرارة :

ـــ كنت أوجس خيفة من نص حق العودة إلى القناة منذ اليوم الذى وقعت فيه الاتفاقية ، وكنت دائم التفكير فى هذا النص ، حتى إنى عدت لقراءة نصوص اتفاقية الصلح التى أبرمت بين المسلمين وبين قريش فى الحديبية . كان المسلمون المتحمسون يكرهون هذه الاتفاقية ، لأنها أعطت القرشيين حقوقا ما كانوا يحصلون عليها أبدا لو ظلت الحرب ناشبة بينهم وبين المسلمين ؛ ولكن النبى ﷺ بارك هذ الصلح ورضى به ، وجاءت الأيام محققة لرأى النبى ، فقد نقض القرشيون بعدوانهم ذلك الصلح ، وكان الفتح المبين .

عشت السنتين الماضيتين اللتين انقضتا منذ توقيع اتفاقية الجلاء حتى اليوم ، وأنا أرجوا أن ينقض الإنجليز هذه الاتفاقية كما نقض القرشيون صلح الحديبية ، ليكون لنا الفتح المبين إن شاء الله .

قال توفيق فى حسرة :

ـــ أظن أن الإنجليز أخبث من كفار مكة ، ولن يقعوا فى هذا الشرك أبدا .

ونظر حسن إلى جانيت وارتبك ، ولاحظ توفيق ارتباكه فقال له وهو يتبسم :

ـــ هون عليك فقد تعلمت سب الإنجليز منها .

قالت جانيت وهى تضحك :

ـــ إننا عندما نسب الإنجليز نقصد الساسة الحمقى منهم .

قال توفيق :

ـــ آه لو كانت هذه خطة إيدن لضعنا .

قال حسن فى ثقة :

ـــ لن يضيعنا الله أبدا مادمنا ندعو إلى العزة والكرامة والعدل والتحرر

والمساواة ، وهو قادر على أن يعمى إيدن عن هذا كما أعمى القرشيين من قبل ، وما أكثر الأشياء التى أعمى الله الغرب عنها ليمنع عنا أذاهم حتى هذه الساعة .

قالت جانيت :

— مثل ماذا ؟

فقال حسن :

— ما دام أن الغرب كان ينوى سحب المرشدين ليعرقل الحركة فى القناة ليجد له مبررا للتدخل المسلح ، فلماذا لم يسحبهم عقب التأميم مباشرة قبل أن نتأهب لكل الاحتمالات ؟!

قالت جانيت :

— كان التأميم مفاجأة أطاشت بعقولهم وتركتهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون .

وراح حسن يرتل فى رضا وقد شاعت بين جنباته طمأنينة وأمن :

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين.

قالت له جانيت :

— أتحفظ القرآن يا حسن ؟

— بعض آياته ، وإن كانت تموج فى جوانبى معانيه .

— هل تلقيت العلم فى الأزهر ؟

قال توفيق :

— أبدا ؟

وقال حسن فى بساطة :

— رشفت العلم من الكتب ومن الحياة . لم أمكث فى المدارس طويلا ، فقد كان أبى أفقر من أن يدفع لى مصاريف التعليم .

وقال توفيق :

— هذا من حسن حظك ، فقد ظلت سليقتك سليمة ، لم تفسدها النظريات .

قالت جانيت :

ــ لا يا توفيق ، الاستعداد الطيب يفيده العلم ، كالأرض الطيبة تزهو وتزهر إذا ما وجدت الماء الذى يرويها .

قال توفيق :

ــ ولو كان الماء ملحا ؟

قالت جانيت :

ــ لا يروى الأرض الطيبة بالماء الملح إلا المفسدون .

قال توفيق :

ــ وما أكثر المفسدين فى هذه الأيام .

قال حسن فى هدوء :

ــ بل ما أكثر المخدوعين ، فلا أظن أن أحدا يقدم على شيء دون أن يكون مقتنعا بأن الخير فيه .

ونظر فى ساعته ثم نهض وهو يقول :

ــ آسف إن كنت أثقلت عليكم .

قالت جانيت فى صدق :

ــ أبدا . إنا سعداء بهذا اللقاء .

وقال توفيق :

ــ ألا تجلس قليلا ؟

ــ شكرا لكما ، لا بد أن أذهب الآن لأنتظر بهنس والسيد صديق . مساء الخير .

قالت جانيت :

ــ مساء الخير . ونرجو أن نراك قريبا .

ــ إن شاء الله .

وانصرف ، حتى إذا ابتعد عنهما قالت جانيت لزوجها :

ــ كنت على يقين من أنكم أذكياء ، ولكن ما كان يدور بخلدى أن تبلغ رجاحة العقل عند البسطاء منكم هذا القدر .

قال توفيق وهو مرفوع الرأس :

— فى رأيى أن حسن أرجح عقلا وأوسع أفقا من صديقنا جونس ، رجل التأمين الأصلع المتعجرف .

— لماذا تذكره دائما يا توفيق ؟

— لأنه يذكرنى دائما بأنصاف المتعلمين من الإنجليز ، الذين يكادون يتفجرون غرورا ، والذين يتحكمون بجهالاتهم فى سياسة بلادهم . أين غطرسة جونس من تواضع حسن ؟ أين تعصب جونس من سماحة حسن ؟ إنه لم يشأ أن يعترف أن هناك مفسدين يتعمدون الإفساد فى الأرض ، بل يقول عنهم إنهم مخدوعون ، وأن الخديعة قد تغلغلت فى نفوسهم حتى باتوا يعتقدون أن الخير فيما يفعلون .

ورفع توفيق رأسه فى غطرسة وقال بالإنجليزية مقلدا جونس :

— الهند لنا . كيف سمح الساسة لأنفسهم أن يفرطوا فيها ؟ قناة السويس قناتنا .. لا بد أن نستردها ، لا تسكت يا إيدن على الإهانات التى وجهت إلينا .. الحرب .. الحرب .. الحرب ..

— ٣١ —

كانت الشمس تميل للمغيب وقد خفت الحركة فى أبو عجيلة — فأغلب جنود الكتيبتين المصريتين اللتين كانتا هناك ذهبوا إلى خيامهم ليستريحوا بعد جهد النهار ، وبدأ الهواء البارد يهب على الصحراء ، فآوى مأمون إلى سريره وتمدد فيه .

وجاء راسم من أقصى المعسكر يسعى ، بقامته الطويلة النحيلة ، ووجهه الصارم الذى لا تبدو فيه لمحة إشراق . كان يبدو كأنما ولد شيخا ، وإن كان لا يتجاوز الثانية والعشرين .

واتجه راسم إلى سرير مأمون وقال له فى عبوس :

— هل سمعت الأخبار ؟

— أية أخبار ؟

— أخبار اعتداءات إسرائيل .. يتجه الآن لواء من إسرائيل نحو الأردن .

— هذا غير معقول .

— لماذا ؟

— لا أصدق أن إسرائيل تهاجم الأردن بعد أن حذرها إيدن من ذلك ، عقب غاراتها الانتقامية على قلقيلية .

— وما أدراك أن إنجلترا لم تتفق مع إسرائيل على ذلك ، لترهب الأردنيين ولتبعدهم من التقرب من مصر .

— وفيم كان اجتماع إيدن وموليه وبينو وسلوين لويد فى باريس فى السادس عشر من هذا الشهر ؟ لقد اجتمعوا لدراسة الوضع الأردنى ، حذر إيدن بن جوريون من الاعتداء على الأردن بعد هذا الاجتماع .

فقال راسم فى ضيق :

— أنا لا أستطيع أن أصدق أن رئيس وزراء إنجلترا ورئيس وزراء فرنسا ووزير خارجية إنجلترا ووزير خارجية فرنسا يجتمعون اجتماعا سريا لا يحضره أحد سواهم ، لدراسة الوضع الأردنى .

— وفيم كان اجتماعهم ؟

قال راسم وهو يجلس على حافة السرير :

— لا أدرى ، ولكن ما أنا واثق منه أنى لا أستطيع أن أثق فى هؤلاء الذين باعونا لليهود .

وصمت قليلا ثم قال :

— وما أدرانا أن بن جوريون لم يكن هناك .

واعتدل مأمون فى سريره وقال :

— المسائل كلها معقدة ، إنى لا أرى شيئا بوضوح . أليس اليوم يوم الاثنين التاسع والعشرين من أكتوبر ؟

— نعم .

— كان من المنتظر أن تجتمع مصر وفرنسا وإنجلترا فى جنيف اليوم لإيجاد حل لمشكلة القناة ، بعد اقتراح همرشولد هذا الاجتماع . وقد قبلت مصر ذلك ، ولكن إنجلترا وفرنسا تلكأتا فى قبول هذا الاقتراح .

ترى ما الذى دعاهما إلى هذا التلكؤ والتهرب من الموعد ، فأومأتا إلى أنهما تسعيان إلى تسوية كلية لمشكلة القناة .

ـــ أتصدق يا مأمون أن إنجلترا وفرنسا تسعيان حقا لايجاد تسوية سلمية لمشكلة القناة ؟

إن صدقت ذلك فأنت واهم . الأمر ليس أمر القناة .

ـــ إذا لم يكن الأمر أمر القناة ، فما الذى ذهب بعقول الإنجليز والفرنسيين ؟

ـــ الانتفاضة العربية التى سرت فى المنطقة .. الخوف من أن تصبح القومية العربية والوحدة العربية حقيقة واقعة . ألم تسمع ماذا تقول إنجلترا ؟ إنها تقول : إن نفوذ مصر السياسى يهدد نفوذ بريطانيا .

وصمت راسم قليلا ثم قال :

ـــ أخشى أن يكون تحرك اللواء الإسرائيلى صوب الأردن ، وتصريحات إيدن وتحذيره لإسرائيل من معاودة مهاجمة الأردن ، إن هى إلا حملة خداع اتفق بن جوريون وإيدن وموليه على تنفيذها .

ودبت فى المعسكر حركة وسرى الهمس وانتشر انتشار الريح ، وبلغ الهمس مسامع مأمون وراسم . كان الهمس يؤكد أن كتيبة من الهابطين بالمظلات الإسرائيليين هبطت عند مضيق سدر الحيطان ، والتفت مأمون إلى راسم وقال :

ـــ إن صدق ما يقولون فما الذى يدعو إسرائيل إلى إسقاط جنودها فى منطقة ليس لنا فيها جنود ؟

قال راسم وهو يفكر :

ـــ إن كان هدف إسرائيل القيام بغارة ، فيجب أن يكون اتجاهها إما إلى قطاع غزة أو إلى مواقعنا الأمامية على الحدود ، فهناك يمكن إلحاق خسائر بنا ، يطنطنون بها ويتحقق لهم الهدف من الغارة ، أما أن يهبطوا فى منطقة جرداء فما هو الغرض منه ؟

وهب مأمون من سريره وقال :

ـــ لماذا هبطوا فى جنوب سيناء ؟ ماذا يمكنهم أن يفعلوا هناك ؟

قال راسم وهو شارد :

ـــ يمكنهم أن يقوموا بحركة التفاف حول الطريق الأوسط المؤدى إلينا .

قال مأمون فى دهش :

ـــ إنها ليست غارة .

ـــ إنه هجوم عام ، وإلا ما أسقطت إسرائيل جنودها فى هذه المنطقة ليفنوا عن آخرها .

ـــ أتجرؤ إسرائيل على أن تشن علينا هجوما عاما ؟

ـــ لعلها أرادت أن تستفيد من الوضع فى سيناء ، بعد أن سحبت مصر معظم قواتها منها عقب تهديد إنجلترا وفرنسا باستخدام القوة لحل أزمة القناة ؟

ـــ بن جوريون مغامر .. هذا لا شك فيه ، ولكن لا تبلغ به المغامرة حد الهوس ، إنه لو شن علينا الحرب فما أيسر أن تتحرك قواتنا إلى سيناء لتقضى عليه .

قال راسم وهو يهز رأسه فى مرارة :

ـــ ما من يهودى يقدم على شيء إلا بعد أن يحسب له ألف حساب ، وأن يدرس كل الاحتمالات ، حتى إذا اطمأن إلى سلامة العملية أقدم عليها وهو واثق من نتائجها ، لا أحسب بن جوريون يختلف عن بنى جنسه ، بل أن عيبه أن أسوأ خصائصهم بارزة فيه .

ـــ كيف يجرؤ بن جوريون على أن يقوم بهجوم على مضر ؟ ألا يخشى دخول سورية إلى المعركة ؟ ألا يخشى أن يتحرك الأردن ؟ إنه يعلم ولا شك أن قيادة الجيوش العربية اليوم موحدة ، وأن القائد العام يستطيع أن يلقى بقوات الأردن وسوريا فى المعركة !

ـــ والشعب العراقى لن يسكت على هجوم إسرائيل على مصر ، سيثور ويطلب من حكومته أن تتحرك . لو كان ما بدأ الآن هجوما عاما على مصر لكان ذلك لغزا لا أقوى على حله ، بن جوريون يقف وحده فى الميدان متحديا أمام جيش مصر ؟ بن جوريون وحده ؟! لا أستطيع أن أصدق .

وفى ذلك الوقت طارت أربعون طائرة من طائرات النقل الفرنسية من مطار

تيمبو فى جزيرة قبرص ، واتجهت إلى سيناء ، وراحت تلقى إلى الهابطين بالمظلات سيارات الجيب والمؤن والعتاد والذخيرة .

ودوى فى المعسكر صوت النداء للتأهب للدفاع عن « أبو عجيلة » ، فخف الرجال إلى مواقعهم ووقفوا خلف أسلحتهم وآذانهم مرهفة ، وعيونهم مفتوحة ، وراحت المعاول تعمل لحفر الخنادق ، وارتفعت وجوه ترصد السماء ، وشخصت المدافع بفوهاتها إلى الأفق البعيد الذى انتشر فيه الظلام ، وفى سواد الليل كانت تتألق عيون عقدت العزم على أن تدافع عن مواقعها ، أو أن تهلك دونها .

ودنا راسم من مأمون وقال له :

ـــ ألم أقل لك إنى لا أصدق أن القوات الإسرائيلية متجهة إلى الأردن ؟! لقد عادت أدراجها واتجهت إلى سيناء واخترقت خطوط الهدنة،كل ما أظهرته كان خداعا .

وقال مأمون وهو ينظر أمامه وقد أرهفت كل حواسه :

ـــ وما هو طريقها الآن ؟

ـــ يقال إنها تحركت من إيلات إلى الكونتيلا إلى ثامد، وهى فى طريقها إلى نخل .

ـــ لن تلقى أية مقاومة ، فليس لنا فى هذه المنطقة إلا نقط حدود للإنذار .

وصمت مأمون قليلا ثم قال :

ـــ عما قليل سيهاجموننا ، فهم يعلمون أنهم إذا انتصروا علينا انفتح أمامهم الطريق إلى الإسماعيلية .

فقال راسم فى غيظ :

ـــ أجن بن جوريون حتى يشن علينا هجوما عاما ؟!

وراح راسم يغدو ويروح كليث هائج ثم قال :

ـــ أحس إحساسا عميقا أن أملا من آمالى الكبار أوشك أن يتحقق .

ـــ أى أمل ؟

ـــ الأمل الذى أعيش من أجله ، أن أدخل تل أبيب ، وأن أنتقم لأمى وأختى

وأهلى الذين جرت دماؤهم الزكية لتروى أرض دير ياسين ، ولتظل وصمة عار فى جبين البرابرة الصهيونيين . إن صور العجائز القتلى والأطفال الأبرياء الذى مزقوا قلوبهم ، والحبالى اللائى بقروا بطونهن لا تغيب عن خيالى ، وأصوات الفزع وأنات الألم وحشرجات الموت ترن دواما فى وجدانى ، عشت السنين وأنا أتلوى من العذاب أكاد أموت كمدا ، لولا أنى كنت أتشبث بالحياة لأذيق الذين أذلونا من نفس الكأس التى أرغمونا على أن نتجرعها .

ودبت الحياة فى الصحراء فى سكون الليل ، وأخذت العزائم القوية تمد الأجسام بطاقات رائعة من النشاط ، فكان الجميع يتحركون فى خفة وهم يحسون فى أعماقهم عظم المسئولية التى ألقيت على عواتقهم ، فهم سيدافعون عن شرف الوطن ، وسيعملون على تطهيره من الدنس الذى أصابه هذه الليلة ، ساعة أن وطئت أرضه الطاهرة أقدام أعدائه النجسة .

وذاع فى المعسكر أن نقطة الحراسة عند سدر الحيطان أصلت الهابطين بالمظلات الإسرائيليين نارا حامية ، وأنها أرغمتهم على أن يحفروا لأنفسهم خنادق فى الجبل ليتحصنوا فيها ، فرفع راسم رأسه إلى السماء وراح يبتهل إلى الله فى حرارة :

ـــ اللهم نصرك . اللهم نصرك . اللهم نصرك .

وامتلأ صدره بمشاعر حارة ثائرة ، وماجت نفسه بكراهية شديدة لأعدائه ، حتى ود لو ينطلق إليهم ليشتبك معهم فى قتال ينفث فيه سمومه التى ضاق بها . وراح يردد فى عزم وأنفاسه محمومة :

ـــ سأقتلهم . سأقتلهم . سأقتلهم جميعا .

والتفت إلى مأمون وقال له :

ـــ ليت إسرائيل كلها كانت رجلا واحدا لأقتله وأستريح ، فلن تعرف الراحة طريقها إلى ما دام صهيونى واحد يسعى فى الأرض . إنهم شردونا ، طردونا من بيوتنا ، أذلوا كبرياءنا وجعلونا نحن الذين كنا سادة مكرمين أمة من اللاجئين .

وعاد ينظر إلى بعيد ، وصمت وطال صمته وارتسمت على وجهه انفعالات

عنيفة ، وتقلصت أساريره وما لبث أن انبسطت ، ودار بكل جسمه حتى أصبح أمام مأمون وجها لوجه ، ثم قال :

ـــ أتدرى أين كنت الآن ؟

فقال مأمون وهو يحدج فيه بعينيه :

ـــ أين ؟

ـــ كنت أسير مع الجيوش العربية المظفرة فى شوارع تل أبيب ، ورأيت مبنى عاليا فأسرعت أعلوه ، حتى إذا بلغت سطحه نظرت إلى السماء وهتفت قائلا : أمى ! لقد عدنا يا أمى ، عدنا يا أمى . يمكنك الآن أن ترقدى مستريحة الفؤاد .

وأفاق فجأة من حلمه الجميل فقال فى ضيق :

ـــ متى نعود ؟ متى نعود ؟ متى ؟ متى ؟

ورمى ببصره بعيدا ثم قال :

ـــ لماذا لا يأتون ؟ لماذا لا يأتون ؟

فقال له مأمون :

ـــ ارحم نفسك يا راسم . سيأتون .

ـــ وسننتصر عليهم ؟

فقال له مأمون :

ـــ وسننتصر عليهم .

وراح راسم يغدو ويروح ، يحس رغبة طاغية فى أن يفرغ ما معه من رصاص فى قلب شبح إسرائيل البغيض الذى كان يملأ آفاق الظلام الذى ران على الصحراء ، وطفق يصرف أنيابه فى غيظ شديد ، ويستشعر كأن الدماء التى كانت تجرى فى عروقه قد استحالت إلى صديد .

ومر الوقت والمعسكر يدوى كخلية نحل . الأوامر تصدر ، والاستعدادات على قدم وساق ، وقد أمست المدافع تتحكم فى الطريق ، وأحس مأمون فجأة أن أمه معه ، وأن روحها ترفرف حوله ترعاه وتسهر عليه وتسكب بين جنباته طمأنينة وأمنا .

وشخص ببصره فى الفضاء فاستشعر وجدا وهياما ، وسرت فيه مشاعر رقيقة حركها إحساسه بأن روحه اتصلت بروح أمه الحبيبة ، فإذا بآفاق رحيبة تضاء فى وجدانه كأن مصباحا أضاء فى جوف بيت مظلم .

كانت مشاعره الحالمة لا تتسق مع قعقعة السلاح ، ولا أصوات أدوات الحرب التى تتحرك هنا وهناك ، ولا العرق المتصبب من الجباه ، ولا قلق ترقب ظهور الأعداء ، وانقاد إلى ما تفتحت له نفسه فراح يفكر فى بهية وعبود ، فبرقت عيناه ببريق حنان . بهية ! هذا هو شهرها ، لعلها قد وضعت ما فى بطنها ، ولعلها وضعته ذكرا ، ولعلها أسمته مأمون .

وتذكر ما قالته له أخته آخر مرة رآها فيها ، قالت له إن عبود يخشى أن يأتى ابنه شيطانا مثل خاله ، فابتسم فى رضا ، وقال كأنما يخاطب عبود وأن تتحرك شفتاه بكلمة : « أنت تعلم يا عبود أن خاله رجل طيب . يا طالما قلت لى يا عبود إن قلبى قد من صخر وأنى لا أعرف معنى الخوف ، ليتك تعرف يا عبود أن قلبى أرق من قلوب الأمهات ، وأنى ما أقدمت على عمل من أعمال الشجاعة التى كانت تبهرك إلا وأنا أرتجف من الخوف . الشجاعة يا عبود أن تقهر خوفك وألا تستسلم له » .

وترقرقت فى عينيه دمعتان مسحهما بظهر يده . وهو يتلفت خشية أن يلمح أحد ضعفه ، وهو يمقت أن يرى فى موقف ينم عن الرقة ، كان يفخر أمام إخوانه بأنه عصى الدمع ، بينما كان كثيرا ما ينزوى بعيدا ويجهش بالبكاء إذا أحس حنينا إلى أهله وأصدقائه وإلى الحى الذى عاش فيه .

ورأى الشيخ حسن وبهنس وصديق وفانوس ، وإذا به يرى نفسه عائدا منتصرا بعد أن هزم الأعداء وهم يستقبلونه بالعناق والترحيب والفرح والسرور ، ورن فى أعماقه صوت يصيح : سننتصر ، سننتصر ، سننتصر .

وأفاق من شروده لما وضع راسم يده على كتفه وقال فى صوت متهدج :

ـــ لو كتب علىّ أن أستشهد ونحن فى الطريق إلى تل أبيب ، فأوصيك أن تقرأ الفاتحة على روحي فى مسجد العجمى يوم تدخلون يافا . فقد أمضيت أسعد أيام

طفولتى فى هذا المسجد ؛ كنت أذهب إليه كل يوم مع أبى أمرح فيه ، وأصعد إلى منبره وأنا مسرور ، كان ذلك قبل أن نرحل إلى دير ياسين .

قال له مأمون وهو يربت عليه :

— ستدخل إن شاء الله يافا ، وستقرأ الفاتحة فى مسجد العجمى على روح أبيك .

وشرد راسم ببصره وقال فى مرارة :

— العجمى ؟ ترى ماذا أصبح الآن ؟ ألا تزال مئذنته قائمة ؟! وإذا كانت لا تزال قائمة ، فلم يعد المؤذن يدعو الناس من فوقها إلى الصلاة ، اختفى الأذان الجميل من حياة بلادنا المحتلة ، وخرست أصوات النواقيس ، وتقطعت الأواصر النبيلة المقدسة التى كانت تربط قلوب أهل الأرض بالسماء .

ورفع راسم رأسه وقال :

— يارب ! لماذا كتبت علينا هذا العار ؟!

فقال له مأمون :

— لنستيقظ ، لنقوم من سباتنا الذى طال .

وراح راسم يقلب وجهه فى الأفق البعيد ويقول :

— لماذا لا يأتون ؟ لماذا لا يأتون ؟

— صبرا . سيأتون .

— ٣٢ —

كانت جانيت تتأهب لاستقبال من دعتهم الليلة للاحتفال معها بعيد ميلادها ، والتفتت إلى توفيق وقالت :

— لا أدرى كيف زاد عدد المدعوين هذا العام عمن دعوناهم فى العام الماضى؟

فقال توفيق وهو يضحك :

— اقتصرت فى العام الماضى على دعوة أصدقائك .

فقالت وهى تبتسم ابتسامة خاصة :

— من الإنجليز ، أليس كذلك ؟

— دعوت وليمز وبعض نزلاء الحى الأفرنجى من الرجال والنساء من ذوى الوجوه الحمر والشعر الأصفر والعيون الزرقاء . أما ضيوف الليلة فسمر الوجوه ، عيونهم وشعورهم سوداء وقلوبهم بيضاء . .

وضحكت جانيت وقالت :

— ترى أين وليمز الليلة ؟

فقال توفيق وهو يرتدى الجاكتة :

— لعله الآن يطارد الثوار اليونانيين فى قبرص .

— لماذا تكرهه يا توفيق ؟

— لأنه يكره الأحرار فى كل مكان ، فلو فتشنا قلبه لوجدنا فيه مقت أحرار جماعة أيوكا جنبا إلى جنب مع مقت أحرار مصر ، ومقت أحرار أيرلندا ، ومقت الأحرار الذين ثاروا على نفوذ بريطانيا فى أية بقعة من بقاع الأرض . لو فكروا يوما فى أن يصنعوا تمثالا للاستعمار فلن يجدوا خيرا من وليمز يرمز إليه .

— ما دمت تكرهه إلى هذا الحد فلماذا كنت تقبل أن تستقبله فى دارك ؟ وأن تخرج معه فى رحلات الترفيه والصيد ؟

— كنت لا أحب أن أجرح شعورك .

— لا يا توفيق ، لا تظن أن ذلك يرضينى . إنى أحس الآن شيئا من الأسى لأنى كنت أعكر أيام راحتك بإرغامك على مصاحبة من تكره مصاحبتهم . لماذا لا يصارح الرجال زوجاتهم بما يحبونه وبما يكرهون ؟

ولاحظ توفيق موجة من الكدر تنتشر فى وجه جانيت ، فقال لها :

— لأنهم يحبون زوجاتهم حبا يجعلهم يفضلون تحمل بعض ما يضايقهم على أن يبدوا ما قد يسىء إلى شعور زوجاتهم .

— لا يا توفيق ، هذا ليس حبا ، هذا خضوع . الحب الذى ينبنى على المصارحة لا شك أقوى من الحب الذى يقوم على الرياء .

— الحب يا جانيت هو نسيان كل إساءة تبدر من المحبوب ، والصفح عن كل خطأ يصدر منه .

ــ فرق كبير بين الحب والذل يا توفيق ، المحب قد يكون أقسى من سائر البشر على من يحب إذا ارتكب خطأ من الأخطاء ، والمحبوب كثيرا ما يغفر قسوة المحب إذا أيقن أن هذه القسوة لم يحركها إلا الحب .

وأراد أن ينهى هذا الحوار الذى قد يطول دون ثمرة فقال لها :

ــ أتعرفين المثل العامى الذى يقول : ضرب الحبيب زى أكل الزبيب ؟

ــ سمعته وحفظته ، وإنى معجبة بالأمثال العامية ففيها كثير من الحكمة والذكاء .

فقال لها وهو يتجه إليها :

ــ كنت أعتقد أنها تعبر عن سوداوية فى المزاج .

فقالت وهى تبتسم :

ــ إنها تعبر عن طبيعة البشر .

فضمها إليه فى شدة وقال لها :

ــ الظاهر أن نفوس كل النساء تهفو إلى القسوة .

وقبلها قبلة طويلة فبرقت عيناها سرورا ، ثم قالت مداعبة :

ــ لو شئت أن تنجح فى الحياة فأصغ إلى الأمثال ولا تصغ إلى ثقافتك ، فالثقافة لا تجلب إلا الشقاء .

فقال لها وهو يرمقها بعينين مفتوحتين :

ــ حقا ؟

ــ أنا لا أمزح . الثقافة تعقد الناس وتزيد فى عبوسهم ، كلما كنت أدنى إلى الفطرة كنت أقرب إلى السعادة . لا أظن أن الحيوانات تقاسى من العقد .

وسرح خيال توفيق ، وفطنت جانيت إلى شروده فقالت له :

ــ فيم تفكر ؟

فانتبه والتفت إليها ثم قال :

ــ ذكرنى حديثك بحادثة كدت أن أنساها ؛ جاء إلىّ ذات يوم زوج إحدى العاملات بالشركة وقال لى : إنه غاضب من زوجته لأنها تهمله وتهمل أولادهما وتعود إلى البيت وقتما تشاء وتخرج فى أى وقت دون أن تستأذنه ، والتمس منى أن

أنصحها بأن ترعى بيتها ، فقلت له : ولماذا لا تسوى معها هذا الأمر دون أن يتدخل بينكما رجل غريب ؟ فأطرق ثم قال : إنى أحبها ولا أستطيع أن أنهرها ، وأخاف أن أقسو عليها .

وبعد أن ذهب الرجل استدعيت السيدة ونصحتها أن تلتفت إلى بيتها وأن تحترم زوجها وألا تهينه بإهمالها إياه ، فقالت لى : شكانى إليك ! قلت لها : كل ما يطمع فيه أن يحس أنه رجل البيت . قالت وهى تبتسم هازئة : وهل منعته من أن يكون رجل البيت ؟ قلت لها : لا تخرجى قبل أن تقولى له إنك خارجة ، وإذا اضطررت إلى أن تتأخرى فى العود فأخبريه بسبب تأخرك . فقالت فى ضيق : أخرج وقتما أشاء وأعود وقتما أشاء ، أنا حرة .

فقلت لها : لو كنت زوجك لضربتك . فقالت : ياليت ! ياليته يضربنى . ياليته ينهانى عن فعل شىء ! ياليته يشعرنى أنى فى كنف رجل .

قالت جانيت :

— إنها على حق . المرأة تمقت أن تذوب شخصية زوجها فى شخصيتها ، يضايقها كأنثى أن يخضع لها .

قال توفيق :

— يسرها أن يروضها . سأعرف كيف أحطم ضلوعك .

وعاد يضمها فى قوة ، ثم رفعها بين ذراعيه وقبلها وهو يقول لها :

— كل عام وأنت بخير يا قطتى الجميلة .

وسارا ليلقيا نظرة أخيرة على الترتيبات التى أعدت للحفلة ، وقالت جانيت وهى مسرورة :

— أحس أن هذا العام سيكون عاما هاما فى حياتى .

فقال لها توفيق وهو يحاول أن يتذكر شيئا :

— ألم تقولى هذا القول فى السنة الماضية ؟

— لا أظن .

— يخيل إلىّ أنى سمعت هذا منك فى العام الماضى ، فى مثل هذا اليوم بينما كنت

تسيرين بيني وبين وليامز .

ـــ كثيرا ما يتصور المرء أنه رأى من قبل شيئا يراه لأول مرة ، أو سمع من قبل قولا يسمعه لأول مرة . ألم تحس يوما أنك عشت على هذه الأرض حياة أخرى قبل هذه الحياة ؟

ـــ أبدا .

ـــ يخيل إلى أحيانا أن حياتى هذه ليست أول حياة لى على الأرض ، ولن تكون آخر حياة .

فقال توفيق وهو يضحك :

ـــ عيبك أنك تتأثرين بكل ما تقرئينه ، جاءت إليك هذه الفكرة بعد أن قرأت كتابا عن مذهب تناسخ الأرواح .

فقالت وهى تنظر إلى التورتة :

ـــ جائز .

وراح توفيق يعد الشموع التى غرست فى التورتة ، وما لبث أن ضحك وقال :

ـــ يعجبنى فيك محافظتك على كلمتك . عدد شموع هذه السنة نفس عدد شموع السنة الماضية ، وأنا واثق أنه سيكون نفس عدد شموع السنة المقبلة . يحيا الثبات على المبدأ .

فقالت فى إنكار :

ـــ أبدا يا توفيق ، شموع هذه السنة تزيد على شموع السنة الماضية .

وذهب توفيق وسرعان ما عاد وفى يده شمعة ، وهم بأن يغرسها فى « التورتة » فصاحت جانيت فى فزع وهى تحول بينه وبين ما يريد أن يفعله :

ـــ لا لا . حرام عليك .

وقال توفيق :

ـــ كل بنات حواء سواء ، سواء أكانت مصرية أم هندية أم بريطانية ، كلهن يخشين الكبر .

فقالت جانيت وهى ترنو إليه فى حب :

— كل البشر فى هذا سواء . كل شمعة تضاف فى عيد الميلاد تقربنا خطوة من النهاية .

وقال توفيق وهو شارد البصر :

— أيقاس العمر بالسنين ؟

فقالت وهى تحاول أن تقرأ ما يدور فى رأسه :

— وبم يقاس إن لم يكن يقاس بالسنين ؟

فقال لها فى بساطة :

قد يموت إنسان فى الأربعين ويموت آخر فى الستين ، وعلى الرغم من ذلك يكون من مات فى الأربعين قد عاش عمرا أطول ممن مات فى الستين .

— وكيف ذلك ؟

— الأمر بسيط . يكون من مات فى الأربعين قد عاش حياة عريضة زاخرة ، بينما يكون من عاش ستين عاما قد قضاها فى حياة فارغة خالية من الإثارة والمتعة .

فصمتت جانيت قليلا ثم قالت :

— معقول .

وجاء مرجان وقال :

— اشتريت اليوم أشياء كثيرة ، وأظن أن عندنا الآن وقتا لنتحاسب .

قال توفيق :

— غدا صباحا يا مرجان .

قال مرجان فى تبرم :

— ولم لا يكون الآن ؟ أخشى أن أنسى شيئا وأن يطير الحساب من دماغى .

قال له توفيق فى هدوء :

— اطمئن ، إذا نسيت شيئا فسأذكرك به .

وقالت جانيت فى سخرية :

— واطمئن إن طار من دماغك سعر شيء ، فقد أصبح توفيق خبيرا فى الأسعار .

ولاحت فى عيون توفيق وجانيت بسمة وإن ظلت الشفاه مطبقة ، وانصرف

مرجان وهو لا يدرى سر إصرارهما دواما على إرجاء محاسبته على ما يشتريه حتى الصباح .

وتألق المكان بالأنوار ، وتوافد المدعوون وتوفيق وجانيت يستقبلانهم ويرحبان بهم ، حتى إذا ماوافى ميعاد الاحتفال ساروا جميعا إلى حيث مدت الموائد ، وأطفأت الشموع بين صيحات الفرح ، وصاح توفيق مع الصائحين ، وتركزت عيناه على الشموع المطفأة وسرح خياله وراح يتساءل فى نفسه : إلى أى شيء يرمز إطفاء الشموع ؟ إلى أن سنى العمر التى كانت مشتعلة بالحياة قد مضت وولت وانطفأت لنفاذ زيتها ؟! أتستحق هذه المناسبة أن نحتفل بها فرحين ؟ أنفرح لأن سنين من أعمارنا القصيرة ولت وأدبرت ؟ لا إنا نحتفل بسنة جديدة سعيدة من سنى حياتنا قد أطلت على الدنيا ، أليس ذلك خداعا ؟! إن ميلاد سنة جديدة معناه موت سنة انقضت ، فلماذا نفرح بالسنة الجديدة ولا نبكى على السنة التى فاتت ؟

وأنكر على نفسه أن يخوض فى مثل هذه اللحظة السعيدة فى خضم أفكار متشائمة يائسة ، وإذا بصوت يرن فى جوفه : أليست هذه هى الحقيقة للأسف ؟ ولماذا تفتح عينيك على الحقيقة إذا كانت مرة ؟ تفاءل . اضحك . تمتع بلحظات صفوك ، وأدر وجهك عن هذه الحقيقة الساخرة الأليمة ، وخير لك ولكل البشر أن يجلدوا أنفسهم فجأة أمام النهاية من أن يعيشوا فى فزع منها يترقبون مجيئها .

واندفع بكل كيانه بين مدعويه الذين انطلقت ضحكاتهم واغرورقت عيونهم بدموع الفرح ، كأن ليلة الصفو ليس لها نهاية ، وراح يضحك ويشرب حتى كاد ينسى نفسه .

وأقبل شاب ممن دعاهم توفيق فخفت إليه جانيت نرحب به ، وقادته إلى حيث كان زوجها ، فلما وقعت عيناه عليه قال له :

ـــ ما الذى أخرك ؟

قال الشاب معتذرا :

— كنت أدور على محطات الراديو العالمية لأقطع الوقت حتى يحين موعد حضورى إلى هنا ، وإذا بى أسمع من راديو إسرائيل بلاغا حربيا يعلن أن القوات الإسرائيلية أشرفت على قناة السويس .

وساد الوجوم ، وراح الناس يتلفتون زائغى العيون ، وخف توفيق إلى الراديو وفتحه ، فألفى الجميع محطات الأذاعة المصرية تذيع الأغانى والأحاديث ، فقال :

— ليس معقولا أن تكون القوات الإسرائيلية على مشارف القناة دون أن نحس الخطر المحدق بنا . لو كان ما أذاعته إسرائيل صحيحا لظهر أثر ذلك العدوان فيما تذيعه محطات الإذاعة .

وقال قائل :

— لا أتصور أن إسرائيل تقدم على هذه المغامرة فى هذا الوقت، وهى تعلم أن قيادة الجيوش السورية والأردنية والمصرية أصبحت قيادة واحدة. ما أيسر أن يصدر القائد العام أمرا للجيوش السورية والجيوش الأردنية لتتحرك لخوض المعركة .

قالت جانيت :

— أخشى أن تكون إسرائيل تهدف إلى القيام بحرب خاطفة لتصل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس فى أسرع وقت ، لتوهم العالم بأنها قادرة على تهديد مصر وتهديد الملاحة فى القناة .

وظل توفيق يتابع الأخبار فى محطات العالم ، حتى إذا وصل إلى محطة تذيع أخبار تحركات إسرائيل وقف يصغى إليها ، ووقف المدعوون خلفه يصغون ، وراحت المحطة تذيع أن اليهود طردوا مراقبى الهدنة من منطقة العوجة واحتلوها ورفعوا عليها علم إسرائيل .

فصاح صائح :

— إنها منطقة محايدة . كيف يحتلونها ؟

— ومتى احترمت إسرائيل أية اتفاقية ؟ إنها على يقين من أن كل خطاياها

مغفورة لها .

ــ وماذا ستفعل إنجلترا إذا اتضح أن هدف إسرائيل قناة السويس حقا ؟

ــ بريطانيا مشغولة فى قبرص بمطاردة الثوار اليونانيين .

وقالت جانيت :

ــ إذا تحركت بريطانيا فستتحرك إلى فلسطين ، لضمان تنفيذ التصريح الثلاثى الذى تعهدت فيه بإقرار السلام فى المنطقة .

ــ كانت أمريكا على علم بنوايا إسرائيل ، فقد طلبت من رعاياها مغادرة البلاد ، وقد عملت على ترحيلهم قبل أن تسفر إسرائيل عن نواياها العدوانية .

وقالت جانيت :

ــ السفير البريطانى السير همفرى تريفليان لم يطلب من رعايا بريطانيا أن يرحلوا عن المنطقة .

ــ هذا يطمئننى . فبريطانيا أعلم بظروف المنطقة من أمريكا ، فلو كانت إنجلترا تخشى نشوب حرب شاملة بيننا وبين إسرائيل لطلبت من رعاياها مغادرة مصر .

قال توفيق :

ــ أشك فى أن تتطور الاشتباكات بين مصر وإسرائيل إلى حرب ، إنها مجازفة محفوفة بالمخاطر أن تبدأ إسرائيل بالعدوان وأن تتوغل فى الأراضى المصرية . إنها لو هزمت فى الصحراء فستقتفى آثارها الجيوش العربية ، وقد تكون نتيجة هذه المغامرة زوال إسرائيل من الوجود .

قال قائل :

ــ لا يمكن أن أصدق أن قادة إسرائيل بهذه السذاجة . لا بد أنهم على يقين من نتيجة هذه المغامرة .

قال توفيق :

ــ لعل إسرائيل تبغى من هذه الحركة كسب الدعاية والتظاهر بالقوة .

وقال جانيت :

ــ ربما أغرى إسرائيل على هذا الهجوم معرفتها أن مصر لم تستكمل بعد

تدريب قواتها على الأسلحة الروسية . إنها وجدت أن الزمن ليس فى مصلحتها ، فعزمت على الإقدام على هذه المخاطرة .

قال توفيق وهو يهز رأسه :

ـ رأى محتمل .

وقال قائل :

ـ لماذا لا يكون سبب هذا الهجوم توقيع الحلف العسكرى بين مصر والأردن ؟ إنها لو انتظرت حتى تقوى الأواصر بين مصر والأردن فسيكون ذلك تطويقا كاملا لها يهدد كيانها .

وقال توفيق وهو يدير أزرار الراديو :

ـ لماذا لا تقول مصر شيئا ؟ لماذا هذا الصمت ؟

وفى الساعة الحادية عشرة مساء بدأ المذيع يقول : « صرح ناطق باسم القيادة العامة للقوات المسلحة أن قوات الحدود المصرية أبلغت عن نشاط للقوات الإسرائيلية فى منطقة « الكونتيلا » جنوب صحراء سيناء ، داخل الحدود المصرية . وأضاف الناطق أنه لم يحدث اشتباك بين القوات المصرية والإسرائيلية حتى الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم » . ولاح الأسى فى وجوه الجميع ، كان إعلان ذلك مفاجأة لهم ، وكأنهم لم يكونوا يخوضون فى هذا الموضوع ، كان التصريح يؤكد أن أرض الوطن انتهكت حرمتها أقدام الغزاة ، وأى غزاة ؟! الصهاينة . ياللعار !. لبطن الأرض خير من ظهرها .

وقالت جانيت :

ـ لعنة الله على بن جوريون . أفسد ليلتنا . لماذا اختار يوم مولدى ليشن هجومه الغادر ؟

وانصرف المدعوون مطأطئى الرءوس، يحسون مرارة، فما كان يدور بخلدهم أن يأتى اليوم الذى تسير فيه إسرائيل لغزوهم .

وبقى توفيق وجانيت وحدهما ، فقال توفيق وهو يهز رأسه فى أسى :

ـ لا بد أن اليهود الذين يسيرون فى سيناء الآن يتملكهم هوس دينى ، لأنهم

يسيرون فى الأرض التى سار عليها موسى .

ثم قال فى ثورة :

— لماذا نتهم بالتعصب وبالرجعية إذا تحدثنا عن ديننا ، بينما البشر يتمسكون بالدين الذى يؤمنون به ؟ لماذا لم يمتعض الغرب من قيام إسرائيل ، الدولة التى قامت على فكرة دينية ، بينما يناصب أغلب كتاب الغرب ديننا العداء ؟

وراح الراديو يذيع :

« البلاغ الحربى رقم واحد »

صرح ناطق باسم القيادة العامة للقوات المسلحة تعليقا على البلاغات الإسرائيلية بأن منطقة الكونتيللا التى وصلت إليها القوات الإسرائيلية هى منطقة صحراوية خالية إلا من نقطة مراقبة الحدود ، ولم تشتبك قواتنا مع القوات الإسرائيلية حتى الساعة الواحدة صباحا .

وقال توفيق فى صوت خافت :

— بلاغ حربى ؟ إنها الحرب .

وأحس توفيق غصة وبدموعه تترقرق فى عينيه ، وقامت جانيت وذهبت وما لبثت أن عادت وفى يدها خريطة للمنطقة بسطتها أمامها لتدرس عليها مواقع القوات التى تتأهب للمعركة التى ستدور رحاها لأول مرة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية على أرض سيناء .

وصاح توفيق فى غضب :

— لا بد أن نطردهم وأن نطهر أرضنا منهم ، لا بد أن ننقل المعركة إلى قلب إسرائيل .

— ٣٣ —

وقف عبود ينظر إلى أحواض الملح المترامية أمامه ، وكانت صافية صفاء الجليد ، بيد أنها عجزت عن أن تغسل الكآبة التى رانت على روحه ، كانت نفسه منقبضة حتى إنه كان يحس وخز الألم فى صدره .

وراح يستنشق الهواء فى قوة وهو يرجو أن يزيل الضيق الذى نزل بصدره ، إلا أنه كان يزفره حارا كأنما كان ينفث نارا من جوفه ، وزاد فى قلقه ذلك الخوف الذى انتشر فى جنباته فجعله يتلفت وهو زائغ البصر ، يترقب أن ينقض عليه شبح يكتم أنفاسه ويسلبه الروح .

وسمع صوتا يقول :

— السلام عليكم .

فانتفض والتفت مرعوبا ، فرأى الشيخ حسن والمهندس توفيق ينظران إليه فى إنكار ، وقال له حسن :

— مالك منذ الصباح ساهم حزين ؟ ما الذى يشغل بالك ؟

قال عبود فى قلق :

— لا شىء . لا شىء .

وقال توفيق :

— يبدو عليك أنك مهموم .

وأحس عبود شيئا من الراحة فقد وجد من يفضى إليهما بما يقلقه ، ففى البوح بالآلام راحة لنفسه ، فقال وعيناه لا تقويان على أن تستقرا على شىء :

— قامت بهية من نومها باكية حزينة .

وقبل أن يتم عبود روايته قال حسن :

— البكاء فى المنام فرج .

قال عبود :

— لم تكن تبكى فى المنام ، بل بكت بعد أن فهمت ما رأته فى أحلامها .

قال حسن فى اهتمام :

— وماذا رأت ؟

قال عبود فى صوت حزين :

— لم تقل لى ، ولكنها قالت وهى تنشج بالبكاء إنها فهمت من حلمها أنها لن ترى مأمون .

قال توفيق :

ـــ شغلت بأخيها بعد أن علمت أن قتالا يدور بيننا وبين اليهود فى سيناء ، وفكرت فيه وهى خائفة عليه قبل أن تنام فرأت ما رأت . لا تقلق يا عبود إنها أضغاث أحلام .

قال عبود وهو يتلفت فى حيرة :

ـــ نمنا بالأمس قبل أن نعلم شيئا عن هجوم إسرائيل ، وفى الصباح استيقظت بهية وهى تبكى فطيبت خاطرها ، ولكن ما إن وقعت عيناى فى الصباح على ما فاضت به الصحف حتى انقبضت ، تيقنت أن مأمون يخوض معركة مع إسرائيل ، وزاد فى خوفى أن أحلام بهية تتحقق كلها .

فابتسم توفيق فى استخفاف وقال :

ـــ قرر فرويد ، وهو أعظم من حلل الأحلام ، أنه لا توجد رؤيا تتنبأ بما قد يقع فى الحياة .

قال حسن فى حماسة :

ـــ فليقرر فرويد ما يشاء ، ولكن كل من يؤمن بالأديان يؤمن بالرؤيا الصادقة . كان ﷺ يرى الرؤيا فما تلبث أن تتحقق كفلق الصبح ، وما رأى فرويد اليهودى فى رؤيا يوسف الصديق ، ورؤى أنبياء بنى إسرائيل التى تموج بها التوراة !

قال توفيق :

ـــ أعتقد أنه أنكرها كلها .

ـــ ليثبت نظرياته ، فلو أنه اعترف بالرؤيا الصادقة لهدمت كل ما بناه عن الأحلام من أساسه .

والتفت توفيق إلى حسن وقال فى دهش :

ـــ من أين لك هذه المعلومات يا شيخ حسن ؟

قال الشيخ حسن فى بساطة :

ـــ من الكتب . العلم فى الكتب ولم يعد فى الصدور كما كان يقال .

والتفت حسن إلى عبود وقال :

ـــ مأمون فى ضيق ، ونحن كلنا فى ضيق فى هذه الأيام ، وليس أمامنا إلا أن نبتهل إلى الله .

ورفع وجهه إلى السماء وقال فى حرارة :

ـــ يارب ! إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

وقال توفيق فى ثقة :

ـــ أنا لست متشائما ، أنا واثق أن الموقف فى الساعات القادمة سينقلب فى مصلحتنا .

طائرات سلاحنا الجوى تشتبك مع طائرات الأعداء فى معارك دائمة وتقصف مواقع تجمعات الأعداء ، والإمدادات تتدفق إلى سيناء لطرد اليهود منها .

وقال عبود فى ضيق :

ـــ لماذا حاربتنا إسرائيل ؟ ولماذا هذا الغدر ؟

كان عبود يستنكر فكرة الحرب ، وظن توفيق أنه يستفسر عن الدوافع التى دفعت إسرائيل إلى شن هذا الهجوم الغادر ، فقال :

ـــ تدعى إسرائيل أنها هجمت على منطقة سيناء لأنها كانت وكرا لنشاط الفدائيين المصريين .

وقال حسن :

ـــ بررت إسرائيل عدوانها بأنها تخشى من عدوان مصر عليها ، وقد اتهمتنا بأننا نتأهب لتدميرها حتى تكسب باعتدائها عطف الرأى العام عليها .

قال توفيق فى ضيق :

ـــ كيف يصدق العالم هذا الزعم وهو يعلم أن الدول الكبرى تفرض حصارا اقتصاديا علينا ؟ كيف نحارب وإنجلترا وفرنسا وأمريكا لا تبيعنا شيئا ولا تبتاع منا .

قال حسن فى مرارة :

ـــ العالم دائما يفهم ما يحب أن يفهمه ، لا الحقيقة ولا المنطق ولا العدل لها دخل فيما يريد أن يفهمه العالم .

وقال توفيق :

— لو استمرت هذه الحرب فستكون وبالا على إسرائيل ، فقد طلبت سوريا رسميا أن تشترك قواتها اشتراكا فعليا فى المعركة ، وطلب الأردن أن يخوض مع مصر المعركة بعد أن اتضحت نوايا إسرائيل .

قال حسن :

— نوايا إسرائيل أن تصل إلى القناة بأسرع ما يمكن . وصولها إلى القمر أهون عليها من هذا . سنردها على أعقابها ، وسنحول بينها وبين ما تريد وإن جعلنا من أجسامنا سدا بينها وبين قناتنا .

وقال عبود فى غضب :

— لماذا لا تقف هذه الحرب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وقال توفيق وهو ينظر فى ساعته :

— وافى موعد نشرة الأخبار .

وساروا إلى حيث كان العمال متجمهرين حول جهاز الراديو ، وعزفت المقدمة الموسيقية للنشرة فإذا بالقلوب تخفق ، وبالأعناق تشرئب ، وبالآذان تصغى ، وبالقلق ينتشر فى الصدور ، وبالخوف من المجهول يستولى على النفوس ، وراح المذيع يذيع الأخبار والعيون زائغة والأنفاس متلاحقة .

وراح يقرأ فى صوت يهز المشاعر :

— بدأ العدو يستخدم قواته الجوية للضغط على قواتنا البرية ، وقد تدخل سلاحنا الجوى فى الحال فأسقط طائرتين نفاثتين للعدو كما دمر ١٢ عربة مصفحة ، وقد أصيبت قوات العدو بخسائر جسيمة فى منطقة الثامد . وهكذا أوقف تحرك العدو تماما .

وحدث هرج بين العمال ، وأحس حسن عبراته تخنقه ، وخشى أن تجرى دموعه على أعين الناس فانسل بعيدا وهو يجاهد انفعالاته ليرد إلى نفسه ، وانصرف العمال إلى أعمالهم وقد سكنت الطمأنينة أفئدتهم ، وذهب توفيق وعبود إلى حيث كان الشيخ حسن ، وأحس قدومهما فالتفت إليهما .

وقال توفيق :

ـــ إنى لا أستطيع أن أتصور حتى الآن مواقع القوات الإسرائيلية واتجاهاتها .

قال توفيق :

ـــ تمكنت أنا وجانيت هذا الصباح بعد أن سمعنا كل أذاعات العالم تقريبا أن نحدد مواقعها واتجاهاتها على خريطة سيناء .

أسقطت بعض قوات المظلات أمس بمنطقة سدر الحيطان وممر ميتلا ، هذه القوات ليست قادرة وحدها على الوصول إلى القناة ، فكان لا بد أن تتحرك قوات إسرائيلية من الحدود وتجتاح منطقة مراقبة الحدود المصرية عند الكونتيللا ثم تتقدم إلى ممر ميتلا ، وبعد أن تستولى على نخل تتصل بالقوات التى أسقطت بالمظلات فى سدر الحيطان ، ثم تندفع هذه القوات كلها إلى السويس ، هذا محور من محاور الهجوم .

وهناك محور آخر : يتقدم المشاة الإسرائيليون ليستولوا على القسيمة ثم يتجهون إلى أم قطف وأبو عجيلة ، ومنها يتقدمون إلى الإسماعيلية .

فقال حسن فى غيظ :

ـــ ما شاء الله ! وأين نحن ؟!! إذا كان اليهود يتصورون أننا سنقف مكتوفى الأيدى أمام هذا الاستفزاز فهم خاطئون .

ـــ إنهم يبنون آمالا كبارا على المفاجأة . يحسبون أنهم ما داموا قد أخذونا على غرة فلن نفيق من المباغتة قبل أن يكونوا قد قضوا علينا .

وقال عبود فى صوت متهدج :

ـــ ترى أين مأمون الآن ؟

فقال حسن فى حماسة :

ـــ يقوم بأشرف واجب . ليتنى كنت هناك .

ثم دنا من عبود وقال :

ـــ إنه يدافع الآن عن أعراضنا ، يدافع عن شرف بهية وفتحية وإنصاف وبناتنا وأخواتنا . يدافع عن كرامتنا . ليتنى أستطيع أن أجود بدمى لأمحو هذا العار .

وصمت قليلا ثم قال :

— بقاؤنا هنا عبث .

وقال له توفيق :

— ماذا تريد أن نفعل ؟

قال وهو يزفر فى قوة :

— نحمل كلنا سلاحنا ونخرج إليهم .

وقال توفيق :

— صبرا يا حسن حتى تنكشف الأمور ، إننا لا نستطيع أن نقر ما يجب علينا أن نفعله . فلننتظر ما نؤمر به .

فقال حسن فى ثورة :

— لماذا لا نخرج كلنا إليهم ؟ لماذا لا نقابلهم فى الفضاء ونقضى عليهم ؟

— قد تكون المصلحة فى أن ننتظرهم حتى يتعبوا من التوغل فى الصحراء ، فيصبح أمر اقتناصهم ميسرا . سنصيدهم كما تصاد الأرانب .

وشرد حسن قليلا ثم قال :

— أنخرج إليهم أم نتحصن فى المدينة ؟ هذا ما اختلف عليه أصحاب رسول الله ﷺ يوم غزوة أحد. ترى أنختلف كما اختلفوا أم نأخذ من تاريخنا عبرة ؟ إذا لم نعتبر بتاريخنا فما فائدة ذلك التاريخ ؟ إننا أغنياء به ، فياليتنا نعرف كيف نستغل كنوزه !

وانقضى الوقت بطيئا ، وأعرض الناس عن أعمالهم ، كان لا هم لهم إلا تتبع الأخبار . تركز كل تفكيرهم فى الخطر الداهم الذى يتقدم فى الصحراء ليقضى على آمالهم ، وليرغمهم على أن ينكسوا رءوسهم فى ذلة ، ويلطخهم بالعار .

وصاح حسن فى غضب :

— أن أقتل وأحيا لأقتل مائة مرة ، أهون على نفسى من أن أرى يهوديا يسير منتصرا على أرض وطنى . لا . لا . بقاؤنا هنا لا طائل تحته ، بقاؤنا ذل وهوان .

وسار حسن وقد عزم على أن يحمل سلاحه ، وإذا بمقدمة نشرة الأخبار تعزف فتسمر فى مكانه وأصبح كله آذانا ، وسرت فى بدنه رعدة فانتفض انتفاضة المحموم وتفصد منه العرق .

وراح المذيع يقرأ :

ــ تمكنت قواتنا بعد ظهر اليوم من تطهير قوة العدو غرب نخل وقضت تماما ، واشتبكت أربع طائرات من قواتنا الجوية بثمانى طائرات إسرائيلية من طراز ميستير ، وقد تمكنت طائراتنا من إسقاط طائرة من هذه الطائرات الإسرائيلية الثمان ، ويحتمل أن تكون طائرة أخرى قد أصيبت أصابة مباشرة . كما أسقطت نيران المدفعية المضادة طائرة للعدو من طراز أورجون ، وأسقطت طائرة أخرى فى قطاع غزة .

وجار تطهير باقى قوات العدو فى أرض العمليات .

وصاح العمال فرحين مستبشرين ، وقال توفيق :

ــ كنت واثقا من أننا سنردهم على أعقابهم .

وقال حسن فى عزم :

ــ لا . يجب أن تكون أهدافنا أبعد من أن نردهم عن بلادنا بعد أن اتضحت نواياهم الخبيثة . يجب لتأمين سلامتنا أن نسحقهم ، أن نمحقهم ، أن نزيلهم من الوجود . إنهم جرثومة خبيثة فى جسم الوطن العربى ، إنهم خطر يهدد حياتنا وحياة أبنائنا ، فعلينا ــ نحن العرب ــ أن نتكتل وأن نقضى على عدونا المشترك قضاء مبرما .

والتفت إلى توفيق وقال :

ــ لماذا لم يصدر القائد العام أوامره بأن يتحرك الجيش السورى والجيش الأردنى ليخوضا هذه المعركة المقدسة ؟

فقال عبود فى دهش :

ــ المعركة المقدسة ؟!

قال حسن فى حماسة :

ــ أجل ، إنها معركة مقدسة ، لا لأنها دفاع عن أرض العروبة وحسب ، بل لأن إسرائيل هى التى شنتها علينا ، هى التى بدأت بالعدوان . وفى مثل هذه الحرب العدوانية للمسلم إذا انتصر على عدوه أن يسبى النساء ليرهب عدوه ،

ويجعله يفكر طويلا قبل أن يعتدى عليه .

قال عبود فى امتعاض :

— لا يمكننى أن أتصور هذا ؟

فقال حسن فى سخرية :

— ما أكثر الأشياء العادلة التى لا يمكن أن تتصورها . إن من شرع القتال ، وشرع القصاص ، وأقام الحدود أعرف بنفوس البشر .

ثم قال لتوفيق :

— لم تقل لى : لماذا لم يصدر القائد العام أوامره للجيش السورى والجيش الأردنى بخوض هذه المعركة المقدسة ؟

قال توفيق :

— لعل الوقت لم يحن بعد . أو لعل الأمر لا يستحق إشعال نيران الحرب فى كل المنطقة .

وقال عبود :

— ما من شىء يستحق إشعال نيران الحروب ، كل شىء يمكن أن يحل بالتراضى ، بالمفاوضة .

فقال له حسن فى ضيق :

— اسكت بالله عليك يا عبود .

وقال توفيق :

— سمعت هذا الصباح إشاعة تقول : إن المشير عبد الحكيم عامر انتهت زيارته للأردن وسورية أمس ، وأنه استقل هو وهيئة أركان حربه طائرة للعودة من دمشق إلى القاهرة ، بينما خصصت طائرة أخرى لضباط الحرس والصحفيين . وقامت طائرة الضباط والصحفيين فى موعدها وتأخرت طائرة القائد العام بعض الوقت ، فوصلت طائرة المشير إلى القاهرة بعد إعلان الهجوم الإسرائيلى ، بينما اختفت الطائرة الأخرى .

قال حسن :

ـــ كان اليهود يرصدون حركاته من غير شك ، وما دام أن العدوان كان مبيتا فقد قرروا إسقاط طائرته ليعلن النبأ فى الوقت الذى تعلن فيه أخبار عدوانهم ، ليفت فى عضد الدول العربية ولينزل على القوات المسلحة نزول الصاعقة .

وانقضى النهار وانقلب كل منهم إلى أهله ، وماإن دخل توفيق على جانيت حتى قالت له فى فرح :

ـــ أعلنت بريطانيا أنها لا تنوى استغلال القتال الذى نشب فجأة فى سيناء لصالحها . لكم أثلج صدرى هذا النبأ . إنه يؤكد أننا لا نزال أناسا شرفاء .

وأراد توفيق أن يشاكسها فقال لها :

ـــ أأنت واثقة من أن إيدن سيحافظ على وعده هذا ؟

قالت فى حماسة :

ـــ كل الثقة . إنه قطع على نفسه عهدا أمام العالم . إنه وعد من تلقاء نفسه وما من أحد أرغمه على أن يصرح هذا التصريح . إنه تصريح رائع يبرهن بلا جدال على أننا خصوم شرفاء .

وتعلقت بعنق توفيق :

ـــ ألسنا خصوما شرفاء يا توفيق ؟

قال توفيق وهو يهز كتفيه فى إنكار :

ـــ لا أستطيع أن أقول شيئا قبل أن تنكشف الأمور .

ـــ لقد وضح كل شيء بعد هذا الإعلان ، وضح أننا نبلاء .

وقربت شفتيها من شفتيه وقالت :

ـــ ليت بلادك وبلادى يتحابان هكذا .

ولثمت شفتيه بشفتيها .

* * *

وراحت بهية تذرع الغرفة جيئة وذهابا وبطنها منتفخ ، وعبود يحمل رأسه على كفه لا يدرى ماذا يفعل ، فزوجته تولول وتبكى كأنما جاءها نبأ مصرع مأمون ، راحت تقول :

ـــ يا خسارة شبابك . لماذا كتب عليّ ألا أراك يا حبيبى ؟ ترى أين أنت ؟ أين أنت يا مأمون ؟ مأمون ! مأمون !

— ٣٤ —

كان النهار يحتضر وقوات « أبو عجيلة » فى أماكنها تتأهب لاستقبال قوات العدو المدرعة ومدافعه ومشاته ، فقد هاجمت القسيمة منذ الصباح الباكر ، وحاولت بكل ما لديها من أسلحة متفوقة أن تقضى على حاميتها لتندفع سريعا إلى « أبو عجيلة » وتطعن حاميتها طعنة قاتلة ، ثم تنساب إلى الإسماعيلية لتحقق نصرا سريعا خاطفا تتيه به ، وتؤكد للعالم أن إسرائيل استطاعت أن تنتصر على مصر ، أخطر أعدائها ، وتهدد سلامتها .

ووقف مأمون وراسم ينتظران مع إخوانهم المنتظرين ، وقال مأمون :

ـــ كيف لم تصل إلينا حتى الآن قوات العدو ؟! إن قواتنا فى القسيمة لا تستعمل إلا السيارات الجيب ، فكيف تقوى مثل هذه السيارات على أن تعرقل تقدم الدبابات والمدافع والمشاة نهارا كاملا ؟

ـــ قواتنا لا تلتحم معها فى معركة ، ولكنها تحاول أن تعرقل تقدمها .

ـــ أعرف ، ولكنى أعجب من قدرتها على عرقلة إسرائيل نهارا كاملا ، والقتال بينها وبين تلك القوات يدور على الطريق الأسفلت الموصل بيننا وبين القسيمة . كنت أظن أن قوات القسيمة لن تصمد فى وجه قوات إسرائيل أكثر من ساعة .

وقال راسم وهو قابض على سلاحه متأهبا ليستخدمه فى أية لحظة :

ـــ إسرائيل تعلم أن كل دقيقة تمر ليست فى مصلحتها ، فالإمدادات العربية ستتدفق إلى أرض المعركة .

قال مأمون وهو يرقب الأفق البعيد :

ـــ أتظن أن قوات إسرائيل ستهاجمنا الليلة ؟

ـــ إذا قضت على مقاومة حامية القسيمة فلن تضيع ثانية ، وستشن علينا هجوما ليليا .

— لو فعلت فستكون خسائرها جسيمة ، فإننا أعرف منهم بطبيعة هذه المنطقة ومسالكها ، لكثرة التدريبات العسكرية التى قمنا بها هنا .

وغاص قرص الشمس فى رمال الصحراء ، وثار الغبار فوق الطريق المعبد وارتفع إلى السماء ، وصاح صائح :

— طلائع قوات القسيمة المتقهقرة ظهرت .

ودبت فى معسكر « أبو عجيلة » حركة نشاط ، وصدرت الأوامر فخف بعض الفنيين لفتح طريق للقوات المتقهقرة بين الألغام ، وأسرعت بعض القوات لتغطية الانسحاب ، وتدفقت سيارات الجيب التى تحمل الأبطال لتنضم إلى قوات أبو عجيلة .

وراح العدو ينظم صفوفه ليشن هجوما ليليا على القوات التى تعترض سبيله وتحول بينه وبين الاندفاع إلى الإسماعيلية .

وساد الظلام وأرهفت الحواس ، وحدثت تحركات فى كلا المعسكرين ، وبات السكون مسيطرا على المكان ، وفجأة أطلقت المدفعية المصرية نيرانها ، واتجهت الأنظار إلى حيث تصوب قذائفها ، وقال مأمون فى غضب :

— يحاول الملاعين أن يستولوا على التبة الحمراء .

قال راسم فى عزم :

— لن نسمح لهم أبدا بأن يستولوا عليها . أتسمح لهم أن يضعوا أيديهم على مفتاح الطريق ؟

وصدرت الأوامر إلى سرية المشاة أن تحطم هجوم الأعداء على التبة ، فراح الرجال يتقدمون متسترين بالظلام ، حتى إذا دنوا من المواقع تفرقوا وراحوا يزحفون على بطونهم ، ورفع مأمون رأسه فرأى دبابات العدو تتقدم ، والسيارات المصفحة تحاول أن تصل إلى التبة ، والجنود اليهود يتقدمون خلف الدبابات ، وقذائف المدفعية المصرية تصليهم نارا حامية تنير بقذائفها أرض المعركة ، فتناول قذيفة وألقاها فأصاب إحدى الدبابات إصابة مباشرة ، وإذا بالقذائف تلقى على الدبابات والسيارات المصفحة من كل جانب ، وإذا

بصيحات فزع تغطى على أصوات المدافع ، وتقدم راسم حتى دنا من الأعداء ، وراح يطلق رصاص مدفعه الرشاش فى انفعال وهو يصيح :

ـــ يوم بيوم دير ياسين . أمى .. أمى .. إنهم يصرخون .. إنهم يسقطون ، اختفت ضحكاتهم البغيضة الهازئة . أمت . أمت . أمت .

وخف مأمون يغطى هجوم راسم ، وتقدم المشاة يقذفون قذائفهم من كل جانب ، وركزت المدفعية المضادة للدبابات قذائفها على الوحدات المدرعة ، واتضح أن الدبابات الإسرائيلية أصبحت هدفا طيبا للقوات التى أسرعت لتصدها وتردها على أعقابها ، وإذا بطائرات العدو تظهر فى سماء المعركة وتلقى قذائفها على قوات « أبو عجيلة » ، لتنقذ دبابات إسرائيل من مصيرها المحتوم .

وأسرع راسم ومأمون ورجال سرية المشاة بإلقاء أنفسهم على الأرض والزحف على بطونهم صوب ملاجئ تعصمهم من قذائف الطائرات الإسرائيلية . وركزت الطائرات هجومها على المدافع المضادة للدبابات فشغلتها عن الفتك بالوحدات الإسرائيلية المدرعة ، التى كانت تترنح تحت وطأة القذائف التى تسدد إليها من كل جانب .

وصوبت البطارية الوحيدة المضادة للطائرات التى كانت مع قوات أبو عجيلة مدافعها إلى الطائرات المغيرة ، وبرقت قذائفها فى السماء ، وإذا بطائرة تنفجر فى الجو على مرأى من المعسكرين ، فصاح المصريون صيحات فرح ، ونزل بقلوب اليهود غم .

وحاولت الدبابات الإسرائيلية والسيارات المصفحة أن تعاود زحفها فى حماية الطائرات ، فإذا بالقناصة المصريين يزحفون على بطونهم فى الظلام ـــ وقنابل الطائرات تنفجر من حولهم والرصاص يئز فى كل مكان ـــ حتى أمست الدبابات فى نطاق قنابلهم فأمطروها بقذائفهم ، وراحت المدافع تلقى حممها فتضطر الدبابات إلى أن تتقهقر وأن تبتعد عن شرها .

ومست سيارة مصفحة لغما فتطايرت فى الهواء ، وأصيبت طائرة أخرى إصابة مباشرة فأخذت تهوى وقد اشتعلت فيها النار ، وارتطمت بالأرض

فانفجرت وارتفعت ألسنة اللهب لتنير أرض العمليات . وضايق القوات المهاجمة ، وكانت تتألف من لواء مدرع ولوائين من المشاة ، أن تقف فى وجهها قوات قوامها كتيبتان وآلاى مدفعية ميدان وأورطة سيارات خفيفة وبطارية مدفعية خفيفة مضادة للدبابات وأخرى مضادة للطائرات وكتيبة من الحرس الوطنى لا يزيد عدد أفرادها على مائتين .

وعاودت الدبابات الشيرمان والدبابات الفرنسية هجومها ، وأطلقت الهاونات الثقيلة قذائفها ، وراحت الطائرات الإسرائيلية والفرنسية تضرب الجنود الذين تحصنوا فى الخنادق ضربا مركزا ، بيد أن القوات المصرية ظلت ثابتة فى مكانها لا تتزعزع ، تدافع عن أماكنها دفاعها عن شرفها ، فقد كانت تعلم عظم الدور الذى تلعبه فى هذه المعركة ، فلو تهاونت أو تمكن العدو من أن يفتح فى صفوفها ثغرة ، لتدفق منها إلى الإسماعيلية ، ولحقق الحلم الذى دفعه إلى خوض غمار هذه المغامرة .

وراح مأمون وراسم ومن معهما من الرجال يعاودون الزحف لينقضوا بقذائفهم على الدبابات والسيارات المصفحة التى تتقدم فى إصرار لتستولى على التبة الحمراء ، وصاح مأمون صيحة مكتومة :

— آه .

وقال له راسم :

— ماذا بك ؟

— لا شىء . تقدم .

وأضاءت قذيفة المكان ، ولمح راسم الدم يسيل من كتف مأمون فقال له :

— هل أصبت ؟

— خدش بسيط . حاذر !

والتفت راسم فألفى دبابة تدنو منه ، وفى لمح البصر ألقى عليها قنبلة فانفجرت بجوارها ، وأسرع مأمون وألقى عليها قنبلة أخرى ، وألقيت عليها القنابل من هنا وهناك فاضطرت إلى أن تتقهقر .

وقال مأمون لراسم :

ـــ تمكنت قواتنا من القضاء على قوات العدو غرب نخل .

وهوت طائرة من الطائرات الإسرائيلية وفى مثل لمح البصر كانت حطاما مشتعلا ، فقال راسم فى فرح :

ـــ نحن سنكبد العدو خسائر لا قبل له بها .

وقال مأمون :

ـــ سنظل سادة الموقف ما دامت التبة الحمراء بعيدا عن أيدى العدو .

وقال راسم :

ـــ سنرغمهم على أن يظلوا فى الوحل ، ولن نمكنهم من أن يخرجوا منه .

وراح مأمون يتلفت فى حذر ، ولمح فى الظلام أشباحا تتحرك فى خفة فهمس :

ـــ راسم انظر ! إنهم يتسللون ليستولوا على التبة الحمراء .

وفى خفة الأطياف كان رجال الصاعقة يزحفون نحو التل كالأسود الكواسر ، وطوقوا المتسللين من كل جانب ، ثم انقضوا عليهم انقضاض النسور والخناجر تغوص فى قلوب من حسبوا أنهم خارجون فى نزهة !

واشتد القتال ، ومس التعب الأجسام ، بيد أن عزائم المدافعين عن شرف الوطن كانت قوية ، فكانوا يكرون على الأعداء كالليوث وهم يصيحون صيحات تلقى الفزع فى قلوبهم . وتيقنت قيادة القوات الإسرائيلية أن القضاء على هذه القوات المستميتة فى الدفاع عن مواقعها ليس أمرا ميسورا ، وأنها ستقف كالصخرة العاتية تحول دون تقدمهم . إنهم يعلمون أن الوقت ليس فى مصلحتهم ، وقد أعلنوا فى أول بلاغ حربى أنهم أصبحوا على مشارف قناة السويس ، وقد انقضت ليلة الأمس ونهار اليوم وسواد ليله ولم يحققوا شيئا مما أعلنوه على الملأ ، فليلجئوا إلى إضعاف روح هذه القوات المعنوية لعلهم يحققون عن طريق الدعاية ما عجزوا عن تحقيقه بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم وطائراتهم.

وطارت الطائرات الإسرائيلية طيرانا منخفضا وراحت تلقى منشورات على المدافعين ، وانطلقت من مكبرات الصوت من الطائرات نداءات تدعو المدافعين

البواسل إلى التسليم ، فلا أمل لهم فى أن يثبتوا فى أماكنهم أمام القوات الطاغية التى تحشدها إسرائيل والتى اعتزمت أن تجتاح بها كل المواقع المصرية مرة واحدة .

وكان رد القوات المصرية على هذه النداءات الساذجة أن صوبت كل الأسلحة إلى الطائرات التى تطير طيرانا منخفضا ، وكانت صيدا سهلا ، حتى الأسلحة الصغيرة كان لها من الصيد أوفر نصيب .

وجن جنون القيادة الإسرائيلية ، فقد بدأ الصبح يتنفس فى الصحراء وقوات « أبو عجيلة » ثابتة كالطود ، وعلى أرض المعركة ثلاث دبابات شيرمان وأربع سيارات مصفحة قد دمرت ، وجثث القتلى الإسرائيليين تكاد تغطى الوديان وسفوح التلال ، وحطام إحدى عشرة طائرة من الطائرات الفرنسية تناثرت ذليلة على الرمال تعلن اندحار قوات الطغيان .

وعزمت القيادة الإسرائيلية أن تشن هجوما يائسا لعلها تحقق فى عماية الصبح قبل أن تشرق الشمس وتفضح كل مواقعهم ، ما عجزت عن تحقيقه طوال الليل ، فرمت فى أتون المعركة كل قواتها ، وحركت كل دباباتها ، وفتحت فوهات كل أسلحتها ، فأطلقت قوة « أبو عجيلة » نيرانها من كل مواقعها ، وراحت أطقم المدفعية والرشاشات تغير مواقعها إمعانا فى الخداع ، فحسب اليهود أن إمدادات جديدة وصلت لنجدة إخوانهم ، فتملكهم حنق شديد ، وراحوا يطلقون نيرانهم فى ثورة وغضب وعصبية .

وصاح راسم صيحة ألم وسقط على الأرض ، فأسرع مأمون إليه ، ولما رأى الدم ينزف من صدره حمله وسار به إلى الخطوط الخلفية ووابل من الرصاص يتساقط من حوله ، واستمر فى زحفه حتى إذا بلغ هدفه وضعه بين أيدى من يضمدون له جراحه ، ثم تناول جرعة ماء وأسرع يعدو ليذود مع زملائه الصناديد عن التبة الحمراء ، حتى لا يقع مفتاح الطريق فى أيدى من جاءوا بدباباتهم ومصفحاتهم وطائراتهم وغرورهم يستعجلون النصر .

وفطنت قيادة القوات الإسرائيلية إلى أن الهجوم المباشر على المواقع المحصنة لا طائل تحته ، وأنها إن دكت القيادات المصرية لانهارت المقاومة ، فركزت

نيران مدفعيتها والهاونات على مراكز الرئاسات ، وأطلقت طابورا ميكانيكيا ليطوق المواقع من الخلف ، وفطنت القوات المصرية إلى خطة العدو فراحت تعمل على إحباطها .

أسرع رجال المدفعية المصرية يصوبون مدافعهم إلى الطابور الذى انطلق ليقوم بحركة التفاف حول مواقع القوات ، وخف المشاة والسيارات الخفيفة لكسر الطوق الذى أراد العدو أن يضربه حولهم ، واندفع مأمون ورفاقه كالشياطين يصوبون النيران على الطابور الميكانيكى ويزلزلون الأرض تحت جنازير دباباته ، وأخذ مأمون يرغي ويزبد ومدفعه الرشاش ينفث نيرانه كألسنة الأبالسة ، ولمح أحد زملائه يتقدم إلى جواره وقد اختلط عرقه بالتراب فاختفت ملامحه . ومضت قذيفة أضاءت المكان وعلى ضوئها تمكن مأمون أن يعرف زميله الذى يتقدم معه وقد التصق كتفه بكتفه ، فصاح فى فرح :

— راسم .!

ثم عاد وقال فى عتاب :

— راسم . عد لتستريح . أنت جريح .

قال راسم وهو يبتسم :

— أنا بخير . تقدم .

وضمه مأمون إليه فى حنان ، ثم قال :

— اضرب .

وراح راسم يصيح على طلقات الرصاص :

— أمت .. أمت .. أمت ..

ثم التفت إلى مأمون وقال :

— هذا يوم له ما بعده .

وقال مأمون وهو يتقدم فى خفة :

— يوم فخار لنا ويوم عار لهم .

ووقف تقدم الطابور الميكانيكى ، ثم راح ينسحب ، وأخذت كل القوات

الإسرائيلية فى الانسحاب تلعق جروحها وتصلح خطوطها وتعاود هجومها .

ورأى الجنود المصريون انسحاب قوات الأعداء فصاحوا فى فرح :

— الله أكبر . الله أكبر .

وراحوا يتأهبون للجولة الثانية التى قرر العدو أن يخوضها فى وضح النهار .

— ٣٥ —

كان توفيق ثائرا غاضبا حانقا وكانت جانيت ترنو إليه فى وجوم ، كان ما حدث محيرا حتى أنها عجزت عن أن تفكر تفكيرا منطقيا مدة طويلة ، فقد كان ما تجرى به الأحداث غير منطقى ولا معقول .

وراح توفيق يهدر ويزمجر ويصب لعنات غضبة على الإنجليز وهى لا تجد لسانها لتخفف من حدة غضبه ، فقد كانت فى قرارة نفسها حزينة تستشعر الخزى والعار وإن أبى بصيص من الأمل أن ينطفىء حتى لا يتركها فى دياجير اليأس المرير .

قال توفيق فى سخرية قاتلة :

— « نحن شعب شريف لن نستغل الحرب التى نشأت فجأة فى سيناء بين مصر وإسرائيل لمصلحتنا » ، كان هذا بالأمس فقط . لا تزال ذبذبات التصريح النبيل تتردد فى فضاء دنيانا التى هانت ، والليلة توجه إلينا الدولة الشريفة النبيلة أخس إنذار فى التاريخ : على مصر وإسرائيل وقف العمليات الحربية وسحب قواتهما مسافة تبلغ عشرة أميال على جانبى القناة فى خلال ١٢ ساعة . ما شاء الله . أتعرفين ما يعنى هذا الإنذار ؟. إنه يحرض إسرائيل على أن تتقدم حتى تصل إلى مسافة عشرة أميال من القناة . أنه يقول لها : شدى حيلك وتوغلى فى الأراضى المصرية وأنت مطمئنة فلن يلومك أحد . إن إيدن يعلم أن بين إسرائيل وبين القناة أراضى قفراء وعرة ، وأنه ليس من المعقول أن تقطع إسرائيل هذه الأراضى فى يوم وليلة ، ولكن إيدن رجل مخادع كذاب .

لماذا لم يطلب إيدن من إسرائيل أن تعود إلى ما وراء خطوط الهدنة ؟ لماذا

يبارك إيدن هذا الاعتداء ؟ كل تصرفاته تصرخ معلنة أنه خلف هذا العدوان . شكا الأردن إلى مجلس الأمن من العدوان الإسرائيلى على مصر ، وقال إنه يهدد السلام فى المنطقة . واجتمع مجلس الأمن وطلب كابوت لودج مندوب أمريكا فى المجلس أن تنسحب إسرائيل خلف خطوط الهدنة ، وأن تمنع عنها كل مساعدة ؛ ولكن ذلك لم يرض إيدن ولا موليه لأنه يفوت عليهما خططهما التى دبرت فى الظلام ، فإذا بمندوب إنجلترا يعلن دون خجل فيتو ، وإذا بمندوب فرنسا يؤيده فى شل إرادة مجلس الأمن . إنها مهزلة ! فضيحة ! كنا ونحن أطفال إذا أردنا ضرب طفل اتفقنا مع غريمه على أن يتحرش به ، حتى إذا ما انقلب التحرش إلى قتال تظاهرنا بأننا نفصل بين المتشاجرين بينما نقوم فى الواقع بتكتيف من نكره لنيسر لغريمه ضربه فى حرية واطمئنان . ترى أتكتفى إنجلترا وفرنسا بتكتيفنا لتمكنا إسرائيل من ضربنا كما تشاء ؟ لا أظن ، فكراهية فرنسا لنا تفوق كل حد ، فالمر الذى تتجرعه فى الجزائر تعلم أننا نحن الذين نورده .. العداوة التى بيننا وبين فرنسا سافرة لا غش فيها ولا رياء ، ولا تخجل فرنسا من أن تضع يدها فى يد إسرائيل على أعين الناس ، أما إنجلترا فلا تزال لها مصالح فى المنطقة ولها فيها أصدقاء ، فإن وضعت يدها فى يد إسرائيل فستخسر كل شىء ، ترى أيعمى الحقد إيدن ويضع يده فى يد إسرائيل معرضا كل مصالح بلاده للخطر ؟

وانقشع ذهول جانيت وتلاشى الوجوم الذى عقد لسانها ، فقالت :

— لا أظن أن عاقلا يقدم على هذه المغامرة !

فقال توفيق فى حنق :

— من قال إن إيدن لا يزال متمالكا لقواه العقلية بعد كل هذا التخبط الذى يتخبطه ؟

— وهل إيدن يسير أمر الإمبراطورية وحده ؟

— إنه رئيس الوزراء ، وهو قادر بأكاذيبه على أن يجعل حزب المحافظين يرى ما يراه .

— والعمال ؟

— ماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ سيعترضون وسيحاولون خذلانه ، ولكنه سيسير فى طريقه وينفذ كل ما فى عقله المريض .

— لا يمكن أن أقتنع أبدا بأن إيدن يجرؤ على أن يضع يده فى يد إسرائيل على الملأ .

— والإنذار الذى وجه إلينا ؟

فقالت جانيت وعيناها حائرتان لا تستقران على شىء :

— ربما وجد إيدن وموليه أن حليفتهما عجزت عن أن تتقدم لتهديد القناة بعد أن شلت تحركاتها الأرضية ، وبعد أن سيطر السلاح الجوى المصرى على سماء المعركة ، فرأيا أن يوجها هذا الإنذار حتى لا تلقى مصر بكل قواتها فى المعركة ، فيخف الضغط على القوات الإسرائيلية فتستمر فى تقدمها حتى تصبح على بعد عشرة أميال من القناة . ستعلم إسرائيل أن هذا العدوان مبارك من إنجلترا وفرنسا ، فتبذل كل ما فى طاقتها لتحقق الآمال المعقودة عليها .

— وإن عجزت ؟

— تنضم إليها القوات الفرنسية ، وتتوغل القوتان فى الصحراء حتى تدنو الحرب من القناة ، وهنا تظهر بريطانيا وتطالب بالعودة إلى القناة تنفيذا لاتفاقية الجلاء .

فقال توفيق فى غيظ :

— لا . لا . لا أظن أن مثل هذا التدبير فى الحسبان ، فلو كانت هذه هى نية إنجلترا ما قدمت أبدا هذا الإنذار . هناك مؤامرة ملعونة ، مؤامرة تزكم رائحتها الأنوف .

— وما هدف هذه المؤامرة ؟

فقال توفيق وهو يدق صدره بقبضته :

— القضاء علينا ، على قواتنا المعنوية والمادية ، وعلى ما أصبحنا نؤمن به ، وعلى ما صار فى أيدينا من أسلحة . على القومية العربية ، وعلى جيشنا بطائراته ودباباته ومدافعه وعرباته المصفحة .

وشرد توفيق قليلا ثم قال :

— نفارين أخرى . لما قوى أسطولنا فى أيام محمد على وخرج يقرع أبواب القسطنطينية ، فزعت إنجلترا وفرنسا وروسيا ودول الغرب كلها ، لا خوفا على

سلطان تركيا وخليفة المسلمين بل هلعا من القوة الفتية التى أصبحت خطرا يهدد نفوذ أوربا ، فخرجت كل الأساطيل لتقضى على الأسطول المصرى فى نفارين . واليوم أصبح لنا جيش وسلاح جوى متفوق وقوى معنوية هائلة ، ولا أحسب أن الغرب يغفل عن هذه القوى . إنها تهدد مصالحة كلها فى المنطقة ، ولا بد من أن تنشب بيننا وبين الغرب نفارين أخرى لنظل تحت رحمته وفى منطقة نفوذه .

قالت جانيت وهى تفكر فيما قال :

ـــ لكل عصر أسلوبه .

ـــ أساليب الحقد واحدة . أعلنت إنجلترا عندما نشبت الحرب بيننا وبين إسرائيل فى سيناء أنها لن تستغل هذه الحرب لمصلحتها ، ولكنها منذ اللحظة الأولى كانت تستغل هذه الحرب لتحقيق مصالحها ، وراح صوت بريطانيا فى قبرص يذيع الأكاذيب ويختلق المفتريات ويؤيد إسرائيل فى عدوانها ؛ وراحت السفارات البريطانية فى الدول العربية تبذل كل الجهود لتحرض تلك الدول على أن تترك مصر وحدها لتلقى مصيرها ، ويا ليتها اقتصرت على نصح الحكومة بل شاءت إثارة الرأى العام العربى . اسمعى يا جانيت .. سيسجل التاريخ أن ساسة بريطانيا الذين يسيرون أمورها فى هذه الأيام كانوا أغبياء . كيف دار بأخيلتهم أن منشورات هزيلة تفرق بين الشعب المصرى والشعب السورى ؟ منشورات ساذجة تقول : أيها الشعب السورى .. لا تتورط مع مصر فى مشاكلها التى خلقتها .. إن من مصلحتك أن تباشر سورية سياستها وفق مصالحها دون أن تتقيد بمصير السياسة المصرية التى قد تجلب فى أثرها أشد الأخطار . يا دم ! أى عقل ضامر فكر فى مثل هذا الأسلوب من النصح والتهديد . إنه جاهل بنفسية الشعوب .

وقالت جانيت مقاطعة :

ـــ وجاهل بحقيقة شعور العرب نحو إسرائيل ، إنهم لم يتفقوا على شىء منذ قيام إسرائيل إلا على كراهيتها ، حتى إنهم ينسون كل خلاف بينهم إذا ما لاح فى الأفق وجه إسرائيل البغيض .

ـــ وجاء رد الشعب السورى أسرع مما كان يظن العقل الضامر الذى فكر فى

المنشورات التى لا تبعث إلا التقزز فى النفوس ، أعلنت الحكومة السورية استعدادها لخوض غمار الحرب مع مصر الشقيقة . وتأهب الفدائيون السوريون لاجتياح إسرائيل كلها عند أول إشارة .

— أرجو ألا يفلت زمام الموقف من أيدى الزعماء ، وأن يتغلب العقل على الساسة البريطانيين ، وأن يظلوا كما عرفهم العالم باردين .

فقال توفيق فى مرارة :

— لقد أفلت الزمام وأعمى الحقد قلب إيدن . إن نار الحقد التى تتأجج فى جوفه تكفى لتدفئة لندن ، بل بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها التى غربت عنها الشمس .

وصمت توفيق برهة ثم قال :

— إنها الحرب يا جانيت .

وقالت جانيت فى حماسة :

— لا . لا زلت أعتقد أن إيدن لا يمكن أن يقدم على هذه الحماقة أبدا ، لا يمكن أن يعلن الحرب على مصر فى الوقت الذى تشتبك فيه فى حرب مع إسرائيل ، إنه لو فعل لقضى على نفسه ولقضى على مصالح بلاده .

— لقد أقدم عليها .

— أعتقد أن الإنذار الذى قدمه إلى مصر وإسرائيل . .

فقال توفيق مقاطعا :

— إلى مصر فقط ، إنه إنذار لمصر ، ولوم لإسرائيل على أنها لم تنفذ ما بيتوه بليل ولم تتقدم لتصبح على بعد عشرة أميال من القناة ليجد المبرر للتدخل ، إنه يقول لها : اصبرى وصابرى واثبتى ، إنا قادمون لنجدتك لنريحك ونريح أنفسنا من السلاح الجوى المصرى الذى أثبت تفوقه وساد سماء المعركة ولما يتم طياروه تدريبهم .

وقالت جانيت :

— الإنذار « بلفة » ، حرب أعصاب . أتهم إيدن بأنه نجح لما كان ينفذ سياسة غيره ، نجح فى وزارة الخارجية عندما كان ينفذ سياسة تشرشل ، أما بعد أن أصبح رئيسا للوزارة فقد أخفق لأنه لم يعرف كيف يرسم سياسة يسوس بها

الإمبراطورية بنجاح ، فأراد أن يثبت لناقديه أنه سياسى داهية ، فراح يقلد دالاس ويتبع سياسة حافة الحرب مثله ، إنه سيدفع الأزمة إلى حافة الحرب حتى إذا ما ملأ الهلع النفوس وتعلقت به أعين العالم لان وترك الأزمة تمر .

ــ كيف وقد أغلق كل الأبواب التى يمكن أن تمر منها الأزمة ؟ الإنذار دليل على أنه يريد الحرب ، لقد صيغ بطريقة تحمل فى طياتها الرفض ليجد مبررا لعدوانه الذى عزم عليه . مَن مِن المصريين يقبل أن تحتل القوات البريطانية والفرنسية بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، وأن تتقهقر فى الصحراء عشرة أميال ، ماذا يكون رد الإنجليز لو نشبت بينهم وبين الألمان حرب ، ثم تسلمت إنجلترا من روسيا إنذارا بسحب جميع قواتها العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة كيل ، وأن تقبل إنجلترا احتلال القوات الروسية للمواقع الرئيسية فى المدن التى تقع على قناة كيل ، وإذا لم تجب إنجلترا على روسيا فى ظرف ١٢ ساعة فستتدخل روسيا بالقدر الذى تراه ضروريا لضمان إجابة مطالبها ؟

إن ما تطلبه إنجلترا من مصر بدعة فى علاقة الدول بعضها ببعض ، إنه شىء لا يقبله عقل حتى فى شريعة الغاب .

ــ هذا ما يؤكد أن الإنذار إن هو إلا حرب أعصاب .

ــ إنه إعلان الحرب التى يتوق إليها إيدن ليثبت للعالم أنه هتلر الجديد ، هتلر الذى يستطيع أن يجتاح مصر كلها فى بضع ساعات .

ــ أنت تبنى استنتاجاتك كلها على أن إيدن قد جن ، وأنا لا أزال أعتقد أنه أعقل من أن يرتكب مثل هذا الجنون .

ــ كل شىء يا جانيت يؤكد أنها الحرب . القوات التى ضاقت بها قبرص ، الطائرات التى تتأهب للانقضاض علينا من مالطة ، الحرب الدائرة فى سيناء التى لم أكن أعرف حقيقة أهدافها قبل أن يوجه إلينا الإنذار ، اتضح الآن دور إسرائيل ، إنها ليست إلا مخلب القط ، إلا الجسر الذى سيعبر عليه الاستعمار ، إنها الزناد الذى أطلق أول رصاصة فى الحرب .

الشياطين الحمر .. حاملات الطائرات .. الأسطول البريطانى .. غارات

الاستكشاف .. أكان كل هذا عبثا ؟ أتنفق إنجلترا كل هذه الأموال لتشن علينا حرب أعصاب .؟ إن توقيت الحرب الدائرة بيننا وبين إسرائيل والإنذار الدنىء الذى وجه إلينا يدل أكبر دلالة على أن الهدف من التحرش بنا هو القضاء علينا قضاء مبرما ..القضاء على الأفكار الثائرة قبل أن تمتد جذورها فى الأرض ويصعب اقتلاعها .

وشردت جانيت قليلا ثم قالت :

ــ تقصد انشغال الولايات المتحدة فى معركة انتخابات الرئاسة ؟

قال توفيق فى إنفعال :

ــ وانشغال روسيا فى إخماد ثورة المجر . اختار إيدن هذا الوقت لعلمه أن أيزنهاور سيكون عاجزا فيه عن أن يتخذ أى إجراء يعرقل به نزول القوات الفرنسية الإنجليزية إلى الموانى المصرية ، إن كان حقا غير راض عن تصرفات حلفائه الإنجليز والفرنسيين .

وأطرقت جانيت تفكر ثم قالت :

ــ لو كان أيزنهاور راضيا عن تصرفات إنجلترا وفرنسا ، ولو كان على ثقة من أن هدف الإنذار الفرنسى البريطانى تفريق المتحاربين وعودة كل منهما إلى خطوط الهدنة ، فلماذا لم يشترك معهما فى توجيه هذا الإنذار ؟ لماذا لم ينسق الحلفاء سياستهم فى هذه المنطقة الحساسة التى قد تندلع منها شرارة حرب ذرية لا تبقى ولا تذر ؟

فقال لها توفيق وهو يدنو منها ويصوب عينيه إلى عينيها :

ــ أرأيت ؟ كل شىء يدل على أن إنجلترا تريد الحرب ، تريد أت تعود لاحتلال بلادنا .

فقالت جانيت فى إصرار :

ــ لا . كل الظواهر تدل على أن هناك خلافا بين أمريكا وبين حلفائها حول ما يجب اتباعه فى هذه المنطقة . أما الحرب فإنى أستبعد أن تصبح سافرة بين مصر وإنجلترا .

— إننا سنرفض هذا الإنذار ، وبعد ساعات تتحرك القوات الإنجليزية والفرنسية لقتالنا .

— إن تحركت القوات الإنجليزية ، وإن كنت أستبعد ذلك ، فستتحرك لتهبط فى سيناء لتحول بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية .

فقال توفيق فى إصرار :

— ستتحرك القوات الإنجليزية لتهبط فى الموانى المصرية ، فإيدن يعتقد أن الشعب سيثور على عبد الناصر عقب نزول القوات الإنجليزية فى الإسكندرية أو السويس أو الإسماعيلية أو هنا .

— لا أظن أن يبلغ الوهم بإيدن هذا الحد ، أو تبلغ به الغفلة هذا المدى . أين مخابراته ؟ لا خير فيها إن لم تقدم له صورة صادقة عن حقيقة شعور الشعب نحو قائده .

— أنسيت يا جانيت أن المخابرات البريطانية أخفقت فى أكثر من مناسبة ، وعجزت عن أن تنقل صورة صحيحة عما يجرى فى هذه الأيام فى الوطن العربى ؟ من الذى أعطى للغرب عنا صورة مشوهة ؟ من الذى يتهمنا دائما بالشيوعية المقنعة ؟ من الذى أشار على إنجلترا وأمريكا بسحب تمويل مشروع السد العالى ؟ من الذى اتهمنا بأننا نحاول أن نبنى إمبراطورية مصرية ؟ كنت يا جانيت حصيفة دائما عندما كنت تدرسين موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالشرق الأوسط ، وكثيرا ما كنت تضعين أصبعى على مكمن الخطر ، فما بالك لا ترين المؤامرة وقد أطلت بوجهها البغيض فى وضح النهار ؟

وصمتت جانيت وإن لاحت الحيرة على وجهها ، وقال لها توفيق :

— إنك ترين يا جانيت كل شىء ولكنك تحاولين أن تخدعى نفسك ، أن تكذبى عينيك . عزيز عليك يا جانيت أن ترى بلدك يتآمر مثل هذه المؤامرة الدنيئة ويتمرغ فى الدنس وأنت تنظرين .

فقالت جانيت فى صوت خافت :

— عيبك يا توفيق أنك لا تثق فى إيدن .

— وأنت يا جانيت متى وثقت فيه ؟

فرمت ببصرها بعيدا وقالت :

— إنى لا أثق فى كفايته السياسية ، ولكنى أربأ بنفسى أن أتهمه بالإجرام . فلو قام إيدن بما يدور بخاطرك لكان أكبر مجرم فى القرن العشرين .

— أنه يريد الحرب ويعمل لها ، وقد واتته الفرصة ، أو بمعنى أصح لقد خلقها لتحقيق ما يريد . غدا سترين .

فقالت جانيت وهى ساهمة :

— لا جاء ذلك الغد إن كان سيتمخض عن حرب بين وطنى وبلدى .

وأحس توفيق ما تقاسيه من انفعالات ، فذهب إليها وطوقها بذراعيه وضمها إلى صدره فى حنان .

— ٣٦ —

أرسلت الشمس أشعتها تكشف آثار المعركة المريرة التى دارت فى الصحراء عند « أبو عجيلة » .. كانت بعض الدبابات الإسرائيلية صريعة ، والطائرات التى هوت على مرأى من الطرفين تناثر حطامها وأكلت النيران هياكلها وتداعى حديدها فبدت كعجوز تسربلت بالسواد انكفأت على وجهها ، والسيارات تعطلت وشلت حركتها فقبعت على الرمال ذليلة ، أما جثث القتلى اليهود التى كانت تغطى أرض المعركة فقد اختفت ، سحبها اليهود لتدفن فى الأرض المغتصبة .

وراح المدافعون المصريون يلتقطون أنفاسهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، كان أمامهم نهار طويل يستريحون فيه ويتأهبون لهجوم اليهود الليلى ، فما كانت الجيوش تتحرك بالنهار ، حتى لا تكون هدفا سهلا للمدافع والقذائف وغارات المغيرين والطائرات التى تنقض من السماء انقضاض الصواعق المحرقة .

وذهب مأمون وراسم إلى الخطوط الخلفية مع من عادوا ليضمدوا جروحهم وليريحوا قليلا أجسامهم التى تحن إلى الأرض ، وتمدد مأمون وعلى مقربة منه تمدد راسم ، وإذا بخدر لذيذ يسرى فى الأجسام ليمسح التعب والإرهاق ، وقبل أن تسعد النفوس بالراحة تطايرت الأخبار فعلا الوجوه وجوم ، وفاضت الصدور

بالحنق والغضب ، وانسكبت فى الوجدان مرارة ، وقال قائل :

ــ وجهت إنجلترا وفرنسا إلينا إنذارا بإيقاف جميع العمليات الحربية فى البر والبحر والجو ، وسحب جميع القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس .

والتفت مأمون إلى راسم وقال :

ــ هذه مؤامرة .. دناءة !

فقال راسم والدموع تطفر من مآقيه :

ــ هذا هو أسلوب بريطانيا ، تتظاهر دائما بصداقتنا ، وفجأة تلقى القناع عن وجهها وتسدد إلينا الطعنة القاتلة . خذلتنا فى فلسطين ، وتحاول اليوم أن تخذلنا فى الصحراء .

ــ إنها تريد أن تقضى علينا ، أن تتخلص منا .

ــ لماذا ؟

ــ قال المسئولون البريطانيون فى مجلس العموم إن قوة مصر العسكرية أصبحت خطرا يهدد بريطانيا ، ونفوذ مصر السياسى أصبح خطرا يهدد نفوذ بريطانيا .

ــ وتريد فرنسا أن تستعيد هيبتها بعد الهزائم المتلاحقة التى منيت بها فى الجزائر .

ــ بل تريد أن تثأر منا ، لأنها على يقين من أننا وراء ثورة الجزائر .

ــ طلبوا أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية بورسعيد والإسماعيلية والسويس .

ــ إنهم يتحرشون بنا ، فما من مصرى واحد يقبل هذا الذل .

ــ استدعى الرئيس مساء أمس سفير بريطانيا فى القاهرة والقائم بأعمال السفارة الفرنسية بها ، وأبلغهما رفضه للإنذار وقطع علاقاتنا السياسية مع بريطانيا وفرنسا .

ــ طلبت إنجلترا وفرنسا الإجابة على الإنذار فى خلال ١٢ ساعة .

ــ لقد أجبنا بالرفض .

ــ انتهت المهلة من ساعتين ، ترى أتنفذ إنجلترا وفرنسا تهديداتهما ؟

— منذ أمس الأول وفرنسا تشترك مع إسرائيل فى هجومها علينا . أبلغ الطيارون المصريون أن طائرات فرنسية يقودها طيارون فرنسيون تشترك مع الطائرات الإسرائيلية فى كل المعارك .

— وعلى الرغم من ذلك فإن سلاحنا الجوى قد سيطر على سماء المعركة .

— أبلغكم ماذا قال إيدن فى مجلس العموم أمس ؟ قال إن القتال يدور على مقربة من قناة السويس ، بل لعله يدور الآن فى القناة نفسها .

— وما الذى دعا إيدن إلى أن يكذب ؟

— هناك إحتمالان : لعله كان يقدر أن القوات الإسرائيلية ستنتصر علينا هنا فى يسر ثم تنطلق إلى الإسماعيلية ، أو لعل موقفنا وثباتنا فى مواقعنا وتفوق سلاحنا الجوى هو الذى دفع إيدن إلى أن يكذب هذه الكذبة المفضوحة ، ليجد مبررا للتدخل فى المعركة لينقذ إسرائيل قبل أن تتجمع قواتنا وتسدد إليها ضربة قاضية .

— الرأى عندى أنه ليس هناك إلا مبرر واحد لهذا الإنذار ، هو خشية إنجلترا وفرنسا من انهيار إسرائيل بعد أن سيطرنا على الموقف ، وبعد أن فقد عنصر المفاجأة أثره ولم يحقق الغرض منه . إن إيدن يعلم علم اليقين أن المسالك فى الصحراء وعرة ، وأن إسرائيل حتى إن انتصرت فى معركة أمس الليلية فلن تستطيع أن تصل إلى نقطة قريبة من قناة السويس فى الساعة التى أعلن فيها إنذاره متذرعا بأن القتال أصبح يدور عند القناة ، مما يهدد سلامة الملاحة فيها .

— وهل تقف أمريكا مكتوفة اليدين إذا شنت إنجلترا وفرنسا هجوما علينا ؟

— كل ما تفعله أمريكا هو تحذيرنا من روسيا : « افتحوا عيونكم ! روسيا تريد أن تستولى عليكم . حاذروا ! روسيا ستلتهمكم » ثم لا شىء غير التحذير ، وفى نفس الوقت تغمر إسرائيل بالأسلحة والهبات . إنها لا تستطيع أن ترى التغير الهائل الذى طرأ على عقلية المنطقة .

— سترى كل شىء فى وضوح بعد خراب مالطة .

وجاء جندى من أقصى المعسكر يسعى ، وما أشرف على الجمع حتى قال :

— قتل قائد الحملة اليهودى فى معركة أمس الليلية

ــ لعل ذلك يكون رادعا لهم .

وسرت إلى الآذان مقدمة النشرة الإخبارية ، كانت آتية من راديو فى خيمة قريبة ، فهب الجميع وأسرعوا يصغون إلى نشرة الأخبار ، وراح المذيع يقرأ :

ــ « إن القوات المصرية قد سيطرت على الموقف الذى نشأ عن العدوان الإسرائيلى المفاجئ فى خلال الـ ٢٤ ساعة الأخيرة . وإن قناة السويس غير مهددة على الإطلاق بأى تهديد عسكرى ، وليس هناك ما يهدد سلامة السفن المارة بالقناة أو حرية الملاحة فيها . والقوات المسلحة المصرية قادرة فى كل الظروف على حماية القناة » .

والتفت مأمون إلى راسم وقال :

ــ هذا خير رد على ما يزعمه إيدن ..

وقال راسم فى مرارة :

ــ هذه هى الحقيقة ، ولكن ماذا تفيد الحقيقة ومن ذا الذى يصدقها ؟ صوت بريطانيا يؤكد أن إسرائيل أصبحت على مشارف القناة ، وإسرائيل تعلن للعالم عن انتصاراتها المزعومة ، وصحافة العالم وكل وسائل الدعاية فى أيدى اليهود ، وإيدن فى إنجلترا وموليه فى فرنسا ووزراؤهما يؤيدون مزاعم إسرائيل ، ويهود أمريكا يطبلون ويزمرون للنصر العظيم الذى حققته إسرائيل .

وقال مأمون فى ضيق :

ــ لن يهمنى كل ما يدعون ولن يفت فى عضدى كذبهم ، بل سيزيدنى إيمانا وتصميما على القتال . سأقاتل حتى آخر قطرة من دمى .

ــ هذا جميل ، ولكن مضى يا مأمون الزمن الذى كانت تكسب فيه المعارك فى ساحات القتال وحدها . أصبحت الدعاية أمضى أسلحة عصرنا .

وتردد فى جنبات المعسكر نداء التأهب للقتال فهرع الجنود إلى مواقعهم ، وقال مأمون لراسم وهو يعدو إلى الخطوط الأمامية :

ــ أيهاجموننا فى النهار ؟

ــ إنهم لا يريدون أن يضيعوا وقتا ، يريدون أن يقضوا علينا ليتقدموا إلى

القناة حتى لا يخيبوا أمل حلفائهم فيهم .

وصمت راسم قليلا ثم قال وقد لوى شفته السفلى فى زراية :

ـــ كان هجوم إسرائيل الفجائى علينا يحيرنى ، ولكنه كان هجوما حسب حسابه . كنت على ثقة من أن اليهود لا يقدمون على مثل هذا الهجوم إلا بعد أن يحسبوا الأرباح والخسائر ، فإن اطمأنوا إلى الصفقة أقبلوا عليها . لقد وضح الآن أنهم ما أقدموا على الحرب إلا بعد أن تآمروا علينا مع إنجلترا وفرنسا بعد أن تأكدوا أن النتائج ستكون فى مصلحتهم ، بعد أن ضمنوا الصفقة .

وقال مأمون وهو ينظر إلى جحافل الإسرائيليين التى راحت تتقدم فى وضح النهار لتخوض غمار الجولة الثانية :

ـــ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وراحت الدبابات الإسرائيلية تزحف على رمال الصحراء ، والسيارات نصف الجنزير تتقدم ، والمدافع اليهودية تغطى ذلك الهجوم . عاودت القوات الإسرائيلية الهجوم لتستولى على التبة الحمراء ، وبدأت المدافع المصرية تسدد قذائفها إلى الأهداف المتحركة .

وأخذت قوة مشاة الأعداء تتقدم ، وصدرت الأوامر للجنود المصريين أن يثبتوا ويتريثوا وألا يطلقوا قذائفهم قبل أن تصدر إليهم الأوامر . راحت القوة المعادية تزحف ، والجنود المصريون يترقبون وقد ملكوا زمام أعصابهم ، فى أيديهم أسلحتهم وبين جوانحهم قلوب آمنت بما تحارب من أجله . وأخذ مأمون يرقب دنو الأعداء وهو مبهور النفس مشدود الأعصاب ، وكان راسم يستشعر رغبة طاغية فى أن ينقض عليهم وأن يفرغ كل ما معه من رصاص وقنابل يدوية فى صدورهم وهو يصيح تلك الصيحات التى تشيع الرضا فى صدره وتزلزل الأعداء : الله أكبر .. الله أكبر .. بيد أنه كبح جماح رغبته ووقف ينظر مفتوح العينين وأصبعه على الزناد .

وأضحى العدو على بعد خطوات منهم وهم مستلقون على بطونهم على منحدر التل يرصدون إشارة قائدهم ، وكان يتتبع تقدم الأعداء فى يقظة وانتباه وحذر .

وأعطى القائد إشارة الهجوم ، فإذا بهم يهبون على أقدامهم كشياطين مردة ، وإذا برصاص المدافع الرشاشة يحصد الإسرائيليين حصدا ، والقنابل اليدوية تسدد فى مهارة وإحكام فترتفع صيحات الفزع فى صفوف الإسرائيليين المتسللين وتتطاير الأشلاء فى الهواء .

وقفز راسم فى خفة الغزال ، واندفع يخوض فى صفوف الأعداء والرصاص يندفع من مدفعه مزمجرا غاضبا كأنما استعار غضبه من صيحات ثورته التى كانت تدوى فى جنبات الصحراء ، وأسرع مأمون يغطى تقدمه ، ولمح جنديا إسرائيليا يسدد إليه ليرديه فاستقرت رصاصات مأمون فى صدره قبل أن يحقق هدفه ، فخر صريعا يخبط فى دمه .

والتحم الفريقان ودارت الحرب بينهما بالسلاح الأبيض ، وكان الرعب يمزق أفئدة اليهود قبل أن تغوص فيها الأسلحة المشرعة ، كانت رؤية السونكى وهو يتألق كضوء الشمس تجعل قلوب الإسرائيليين تبلغ حناجرهم من الفزع ، وارتفعت الأنات وتهاوت الجثث ، ودار المتسللون على أعقابهم ليلوذوا بالفرار فأعملت الأسلحة البيضاء فى رقابهم ، وغاصت الخناجر فى ظهورهم ، ودوى المدافع يدوى كهزيم الرعد ، وقد غطيت أرض المعركة بمظلة من الرصاص ، وبضجة هائلة لم يتردد مثلها فى جنباتها منذ أن طلعت عليها الشمس لأول مرة .

وقضى على الهجوم الذى كان هدفه التبة الحمراء بعد أن نال التعب من الجنود المدافعين وخلصت إليهم الجراح ، والتفت مأمون فرأى الدماء تنزف غزيرة من رأس أحد الضباط ، فهرع إليه يمسح الطين عن وجهه ويضمد له جرحه ، وفيما هو عاكف على عمله حانت منه التفاتة فرأى ضابطا يسقى أحد جنوده الجرحى ماء ويمسح عن وجهه العرق الذى امتزج بالتراب وراح يتساقط فى عينيه ، فاستشعر رضا ينتشر فى صدره ويغسل النصب الذى سرى فى أوصاله .

وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم بعد أن كسروا موجة من موجات القوات التى كانت تفوقهم عددا وعتادا ، ولكن قبل أن ينعموا بقليل من الراحة لاحت فى الأفق الطائرات المغيرة ، فانبطحوا على وجوههم وراحوا يزحفون ليبتعدوا

عن الأرض المكشوفة ويختفوا خلف الصخور وفى الجحور ، وليصوبوا أسلحتهم إلى السماء .

وامتلأ الجو بالقذائف فاضطرت الطائرات إلى الارتفاع ، ثم ألقت قنابلها فى المعسكر ولكن إصاباتها لم تكن مباشرة ، وانقضت طائرة لتسكت المدافع التى تزعجهم إلا أنها أصيبت إصابة مباشرة فى أثناء انقضاضها ، فراحت تهوى كشعلة ملتهبة ، ثم ارتطمت بالأرض وتوهجت وارتفعت ألسنة النيران كأنياب الكلاب .

وضج معسكر المصريين بالتهليل ، وسرعان ما تهاوت طائرة أخرى فقوى ذلك من عزائم الذين يدافعون عن أرضهم وشرفهم وأعراضهم ، وغاظ اليهود أن صمدت قوة لا تكاد تبلغ ربع قوتهم فى وجه طائراتهم ومدافعهم ودباباتهم ومصفحاتهم فألقوا فى المعركة بكل ما لديهم . الجنود والعدد والعتاد ليقضوا على قوات « أبو عجيلة » التى سفهت أحلامهم وقوضت كل ما أذاعوه من مزاعم كاذبة .

زعموا فى الساعة التاسعة من مساء يوم الاثنين أن قواتهم على مقربة من القناة ، والساعة الآن الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ولا تزال قواتهم مغروسة فى أماكنها أمام « أبو عجيلة » ، عاجزة عن أن تتقدم لتقتحم عرين الأسود . لقد طلب منهم إيدن أن ينسحبوا إلى مسافة عشرة أميال من القناة ، فأين هم الآن من القناة ؟! أراد إيدن أن يحفظ لهم ماء وجوههم بخديعة العالم وإيهامه أنهم حقا على مشارف القناة ، وسيعلم العالم كله مهما طال الزمن أن إيدن كذاب ، وأنه كتب فى سجل التاريخ مع الكذابين .

وتقدمت الدبابات والسيارات المصفحة فى حماية الطائرات ، واستهان المدافعون بالخطر المحلق فوق رءوسهم ، وأخذوا يصوبون إلى الدبابات نيران مدافعهم فى إحكام ، فتعطلت الدبابات وانقلبت المصفحات وخرت سيارات نصف الجنزير صريعة ، وخرج الجنود من مخابئهم ليخوضوا غمار المعركة الرهيبة القاسية ، التى أراد العدو أن تكون فاصلة وصمم المدافعون أن تكون مقبرة للأفاكين الأفاقين الذين اعتمدوا فى عدوانهم على المؤامرة التى نسجت

بخيوط الدناءة فى الظلام .

وحمى القتال واضطرمت ناره واشتدت ضراوته ، وسال العرق والدماء ، وذابت القوى ومشى التعب فى الأجسام ؛ ولكن العزائم ظلت صلبة لا تلين .

ومالت الشمس للمغيب والمدافعون البواسل ثابتون فى أماكنهم ، كلما حاول العدو أن يفتح ثغرة فى صفوفهم أو يدق إسفينا ينتشر منه كما تنتشر المروحة ، أطبقوا عليه وأزالوه وأرغموه على أن يتقهقر إلى مواضعه .

وأوشك النهار على الزوال ، وإيمان ثابت قوى يصارع وهما كبيرا وصل إلى الآذان ولم ينفذ إلى سويداء القلوب ؛ فقد زعم لليهود المقاتلين أنهم يسيرون فى أعقاب موسى عليه السلام .

كان المصريون يدافعون عن كل مقدس لديهم ، وكانوا يحاولون أن يردوا الغارقين فى الإثم على أعقابهم حتى لا يدنسوا بأقدامهم النجسة الوادى المقدس .

وأحس مأمون التعب يسرى فى كيانه ، ورغبة جامحة فى أن ينهار ويرتمى على الأرض ويملأ رئتيه من الهواء ، بيد أنه كان فى قرارة نفسه على ثقة من أنه إن غفل أو نامت عين يقظته فسيقضى عليه العدو ، فراح يجالد ويلوذ بإرادته فيشد جسمه ويسدد إلى الأعداء القنابل والرصاص .

ودوى فى أذنه صوت يقرأ : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » . فتلفت فلم يجد أحدا على مقربة منه ، وعجب من أين جاء ذلك الصوت ، وخيل إليه أنه صوت الشيخ حسن ، ولكن أين هو من الشيخ حسن ؟ ولكن من أين جاء ذلك الصوت ؟ لعله جاء من أعماقه .

وراح يطلق قذائفه وهو يهذى :

ـــ شيخ حسن ! أين أنت ؟. كيف حال عبود ؟ كيف حال إنصاف ؟ ليتها كانت هنا لتمرض جرحانا . بهية .. بهية .. ياأختى العزيزة كيف أنت ؟. بهنس بهنس .. تعال .. تعال اقبض على هؤلاء الأوغاد .. اقبض على هؤلاء اللصوص .. اللصوص .. اللصوص .

واندفع فى ثورته إلى الأمام واندفع رفقاؤه معه ، وأطلقت المدافع المصرية

تحصد الأرواح وتصيب كل ما تسدد إليه قذائفها، واشتدت وطأة الهجوم المصرى فلم تجد القوات الإسرائيلية بدا من أن تتقهقر لتعود إلى حيث كانت ، فراحت تنسحب وقت أن كان قرص الشمس الملتهب يغوص فى رمال الأفق الغربى .

وارتمى مأمون على الأرض وهو يلهث ، وانهار الرجال من التعب فما ذاقوا طعم الراحة ولا غادر رجل منهم موقعه منذ أن نشبت الموقعة طوال ليلة أمس ونهار اليوم ، ترى أيتركهم العدو ينعمون بالراحة ؟ هيهات ! إنه ينظم صفوفه ليكر عليهم ويخوض الجولة الثالثة فى الليل لعله يحقق ما أخفق فى تحقيقه منذ أن نشبت معركة « أبو عجيلة » الرهيبة القاسية .

— ٣٧ —

لم ينقض على غياب الشمس أكثر من ساعتين إلا أن سكونا عميقا خيم على بور فؤاد ، ولولا أضواء المصابيح الخافتة ووسوسة أوراق الشجر التى انبعثت من مداعبة هواء الليل البارد لأحس السارى فى شوارع المدينة وحشة ، ولانتشرت بين جنباته رهبة ، فقد كان الهدوء يوحى بأن المدينة لفظت أنفاس الحياة .

وانسابت فى الطرقات الهاجعة سيارة توفيق وكانت منطلقة إلى العوامة التى ستحملها إلى بور سعيد . كان توفيق خلف عجلة القيادة وإلى جواره عبود وقد شرد يفكر فنبت بين جوانحه قلق . إنه غادر بهية فى الصباح وهى تحس آلام الوضع ، وكان يرجو أن ينطلق إليها بعد انتهاء ساعات العمل ، إلا أن توفيق طلب منه أن ينتظر معه بعد إنصراف العمال والموظفين ليقوما بإصلاح طاحونة تعطلت فى أثناء النهار .

وهم أكثر من مرة أن يعتذر لتوفيق وأن يقول له إن زوجته تضع وهى وحدها فى البيت ، بيد أن حياءه منعه من أن يفاتح رئيسه فى مثل هذا الأمر ، وعلل النفس بأن إصلاح الطاحونة قد لا يستغرق وقتا طويلا ، ولكن الساعات مرت وهو غارق فى عمله ، ولما رفع رأسه ليلتقط أنفاسه بعد إصلاح الخلل ألفى الكون كله غارقا فى الظلام .

وربما قلقه وراحت الهواجس تهجس فى صدره ، وأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، واحتلت رأسه صورة بهية وقد أمسكت وسطها بيدها وراحت تتلوى من الألم وتتأوه وتذرف الدمع ، فأخذ يخاطب خيالها والأسى يعتصر قلبه : « صبرا يابهية . أنا قادم . آسف ياحبيبتى إن كنت تركتك وحدك ، تأخرت عنك رغم أنفى ، إنها لقمة العيش » .

ودوت فجأة صفارة الإنذار ، وسرعان ماأطفئت الأنوار فانخلع قلب عبود ، وشعر توفيق بالرهبة إلا أنه لم يستسلم لخوفه ، وراح يجاهد ليشق طريقه فى الظلام ، وقال عبود فى فزع :

ــ ماهذا ؟

وقال توفيق دون تفكير :

ــ غارة .

ــ ستهاجمنا الطائرات الإسرائيلية ؟

ــ لا أظن .

وقال عبود فى قلق :

ــ بهية ! بهية وحدها . ستموت من الخوف .

ــ بعد دقائق سنصل إلى العوامة .

وراح عبود يتطلع إلى السماء ، كانت الأنوار الكاشفة تمسح السماء بحثا عن الطائرات المغيرة ، وتقاطع نور كشافين فوق رأسه ، وثبت التقاطع مدة فأحس قلبه يقفز إلى حنجرته وراح يتمتم دون وعى :

« بهية ! بهية ! يارب ! يارب ! يارب ! ألهمها الصبر » .

واتخذت السيارة طريقها إلى العوامة ، وما لبثت العوامة أن سارت بهم على ضوء الكشافات قاصدة بور سعيد . وحبست الأنفاس وزاغت الأبصار ، ومزق السكون القلق أصوات انفجارات ، وترنحت العوامة ، فذهبت النفوس شعاعا ، ونسى عبود كل شىء إلا نفسه ، إن هى إلا قنبلة واحدة ثم يتطاير فى الجو أشلاء .

وأصاخ توفيق سمعه فسرى إلى أذنيه صوت فحيح كفحيح الأفاعى . فقال

— قاذفات قنابل نفاثة . إنها قاذفات إنجليزية .

وامتزج دوى القنابل بأصوات قذائف المدافع التى كانت تحاول اصطياد الطائرات المغيرة ، فجرى كل من فى العوامة يختفون فى جوفها ويبحثون عن عاصم يعصمهم من الموت الذى يحلق فوق رءوسهم ، فراحوا يتدافعون بالمناكب فى رعب ، وكان يزيد فى خوفهم أضواء القنابل التى كانت تتوهج فى السماء قبل سماع دويها ، وقد صور لهم الوهم أنهم الهدف الوحيد لأفواج الطائرات المغيرة .

ومالت العوامة على جنبها فارتفعت أصوات الهلع والفزع ، وراح أحد رجال العوامة يلتمس منهم ألا يتجمعوا فى ناحية واحدة ولكنهم صموا آذانهم عن نصحه ، كان التصاق بعض ببعض يوحى إليهم بشىء من الطمأنينة على الرغم من قشعريرة الخوف التى كانت ترج كل الأجسام . وقال قائل :

— إنهم يضربون بطارية مبنى هيئة القناة .

وقال آخر :

— لو طاشت قنبلة لهلكنا .

— إنهم يضربون استحكامات المدينة ، يضربون الطوابى على رصيف دليسبس ورصيف حجر سعيد ، يضربون الرسوة وبور فؤاد .

وغمغم عبود فى وجوم :

— بور فؤاد !

ورفع رأسه ونظر فلم ير القذائف التى كانت تنفجر ككرات من اللهب فى السماء ، بل رأى بعين خياله سهوله البيض الحبيبة وقد جرت فيها أنهار من الدماء ، وفاضت حتى غمرت أحواض الملح كلها .

وأخفى عبود وجهه براجتيه وأحس رغبة فى أن يجهش بالبكاء ، بيد أنه كبح جماح عواطفه فوقفت فى حلقه وقدة نار .

ورأى على مدى البصر ألسنة اللهب ، وصاح صائح :

— إنهم يقذفون مطار الجميل .

« مطار الجميل ! إذا طاشت قذيفة فستحرق الحى العربى كله ، لماذا لا تكون هذه الحرائق فى الحى العربى ؟ لماذا لا تكون فى بيتى ؟ ما أدرانى أن ألسنة النيران لا تتراقص الآن حول بهية ! » .

وخيل إليه أنه يشم رائحة لحم آدمى يشوى فامتعض وراح يمرر يده على وجهه فى قلق ، ولم يحتمل وطأة المشاعر التى ضاق بها صدره فراح يصيح فى فزع وهو يطوح رأسه فى انفعال ويسبل عينيه حتى لا يرى ما فى خياله :

ــ لا . لا . لا .

ووصلت العوامة إلى شاطئ بور سعيد فأخذ من فيها ينسلون منها وهو يترقبون ، وركب توفيق سيارته وركب إلى جواره عبود وراح يمخر عباب الظلام ، وانطلق إلى بيته والانفجارات تدوى وفحيح الطائرات ينذر بالغدر والدمار .

ووقفت السيارة أمام البيت وقفز منها توفيق وهو يقول :

ــ هيا يا عبود . أسرع .

وخرج عبود من السيارة وهو مذهول وسار خلف توفيق ، وانطلقا فى الظلام حتى إذا ما وصلا إلى حيث كانت جانيت ألفياها تغدو وتروح وهى ثائرة غاضبة ، وما إن أحست بهما حتى أخذت تصيح :

ــ جن إيدن . جن إيدن . لا بد من أن تقف هذه المهزلة . إنه يلعب بالنار . يلعب بالنار .

واندفعت إلى الباب وتطلعت إلى السماء وراحت تصيح :

ــ مجانين . مجانين .. لا بد أن يقف هذا العدوان . لا بد أن يقف هذا العدوان .

وخف إليها توفيق وراح يجذبها ليدخلها حتى لا تصيبها شظية من الشظايا التى تتناثر وهو يقول :

ــ جانيت . ادخلى أرجوك .

وصاحت جانيت فى يأس :

ــ ضاعت إنجلترا . ضاعت إنجلترا .

ووقف عبود ينظر فى بلاهة ، لم يكن يتصور كيف تضيع إنجلترا وطائراتها فى

السماء تلقى قنابلها حيث تشاء . وأفاق من ذهوله فلام نفسه على وقوفه هنا بينما بهية وحدها تقاسي ألم الوضع والوحدة والظلام فاتخذ طريقه نحو الباب ، ولمحه توفيق وهو ينصرف فقال له :

— إلى أين ؟

— إلى البيت . بهية وحدها .

— انتظر حتى تنتهى هذه الغارة .

فقال وهو يخرج :

— لا . بهية وحدها . إنها فى حاجة إلىّ ، كيف طاوعنى قلبى أن أبقى هنا ؟!

وخرج إلى الطريق وقد امتزج دوى المدافع بانفجارات القنابل بدقات قلبه ، وراح وهج القذائف ينير الظلام ، فأخذ يعدو فى انفعال وهو يصيح :

— بهية.

وانطلق كالسهم المحموم حتى إذا ما بلغ شارع الأمين غمره خوف شديد ، وأحس أن دوى انفعالاته يفوق دوى المتفجرات التى كانت تدك المدينة دكا دكا .

وصعد فى الدرج وهو لا يسمع إلا طنين أذنيه ، وفتح الباب ثم اندفع كالعاصفة وهو يصيح فى لهفة :

— بهية ! بهية !

فجاءه صوت خافت تخنقه العبرات ويلونه الفزع يناديه :

— عبود .

واندفع صوب الصوت وراح يتحسس فى الظلام حتى لمستها يداه فضمها إليه وهو يقول :

— بهية ! حبيبتى .

فقالت وهى تبكى فى حرقة :

— لماذا تركتنى وحدى ؟ لماذا تأخرت ؟

— جئت يا بهية .

— بعد أن كدت أموت وحدى . لماذا غبت عنى ؟ لماذا ؟

فقال ودموعه تبلل عينيه :

ـــ إذا كنت غبت عنك ساعات فقد عدت إليك . ما أكثر اللاتى ينتظرن وحدهن عودة رجالهن الأيام الكثيرة والليالى الطوال . الحياة قاسية يا بهية ، ونحن بغبائنا نزيد فى قسوتها . ماذا سيكسب الطيارون الذين يلقون علينا الآن قنابلهم إذا قتلونا ؟ لن يكسبوا إلا العار . ماذا فعلنا لهم حتى يقتلونا ؟

وتأوهت بهية وقالت وهى تبكى :

ـــ وسطى .

ـــ بماذا تحسين ؟

ـــ أحس كأن أحدا يدق ظهرى دقا .

فقال وهو يتحرك :

ـــ سأذهب لأستدعى من يعاونك فى أثناء ولادتك .

وألقيت قذيفة هزت الحى كله ، فتشبثت بهية به وهى تقول :

ـــ لا . لا تتركنى وحدى .. عبود لا تتركنى وحدى .

واضطر إلى أن يمكث إلى جوارها ، ومرت لحظات ثم عادت تتأوه وتصرخ وتضغط على يده بيدها فى قوة ، ثم قالت :

ـــ وسطى . وسطى يا عبود .

ـــ أنت تلدين .

ثم بكت وهى تقول :

ـــ كيف سألد ؟ كيف سألد ؟ لا أدرى كيف سألد .

ـــ سأذهب لأستدعى فتحية لتمكث معك حتى أحضر الطبيب .

ـــ لا . لا .

وتخلص منها فى رفق وراح يسير صوب الباب وهى تصيح فى رعب :

ـــ عبود ! عبود ! لا تتركنى وحدى .

واستمر فى سيره وإن كان قلبه يرفرف فى رقة ، وقالت بهية :

ـــ لم أكن أريد أولادا يا عبود . أنت الذى كنت تشتهيهم .. يا ظهرى ..

آه .. آه ..

وأغلق عبود الباب خلفه والأسى يعتصر فؤاده ، وهرع إلى بيت الشيخ حسن وقرع الباب ، فسمع صوت فتحية تقول :

ـــ من ؟

ـــ أنا عبود . الشيخ حسن موجود ؟

ـــ لا . خرج بعد زمارة الإنذار .

ـــ بهية تلد ولا أحد معها .

ـــ سأذهب إليها حالا .

ـــ أنا ذاهب لأحضر من يولدها .

ودار على عقبيه وانساب فى الطريق وهو يفكر فيمن يلجأ إليه فى هذه الساعة ، وإذا برجليه تحملانه إلى المستشفى الأميرى ، كان المستشفى يموج بالحركة ، وسيارات الإسعاف تحمل إليه المصابين ، ولمح صديق الفرارجى يحمل طرف نقالة وخطر له أن يهرع إليه ويقول له بهية تلد ونحن فى حاجة لمن يولدها ، إلا أنه أعرض عن ذلك الخاطر ، فماذا يستطيع أن يفعل لها صديق .

ـــ واندفع إلى المستشفى وهو يتلفت ، ورأى على الضوء الخافت إنصاف تسير فى الممر الطويل ، فأسرع إليها وهو ينادى :

ـــ إنصاف . إنصاف .

فالتفتت إليه وما أن رأته حتى قالت فى لهفة :

ـــ عبود ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

صور لها وهمها أن عبود ما جاء إلا لأن مكروها أصاب أمها ، فتعلقت عيناها بشفتيه ، قال :

ـــ بهية تلد ولا أحد معها .

ـــ انتظر . سأذهب معك .

وغابت بضع دقائق وهو يتململ ويترقب ، ثم عادت تحمل حقيبة وقالت :

ـــ هيا .

وراحت توسع خطوها وهو يسير إلى جوارها ، وتذكر يوم أن كان يسير إلى جوار مأمون وقابلاها فقال مأمون : لو فكرت فى الزواج يوما لتزوجت إنصاف ، وقال هو : لو كنت أموت من العطش فى الصحراء وجاءتنى إنصاف بكوب ماء ما تناولته من يدها ؟ وراح يتساءل : لماذا يتسرع الإنسان فى حكمه على الناس ؟ لماذا يقدم الشر على الخير ؟ لماذا يتلذذ بأن يحط من شأن الآخرين وأن يمرغهم فى الطين ؟

لم ير من إنصاف ما يشين ، كل ما بدر منها أنها تحب المزاح ، فلماذا لم يكن يتصورها إلا بغيا تبيع جسدها للرجال ؟

وعلى الرغم من الظلام الثقيل الذى كان يكتم أنفاس المدينة رأى بعين خياله فى وضوح شقة إنصاف التى ينتشر البؤس فى جنباتها وأمها الضريرة وقد تمددت على الأرض واهنة نحيلة كأنها هيكل عظمى شد عليه جلد أصفر لا تجرى من تحته دماء .

وأحس تعاطفا معها ، ولو طاوع نفسه للف ذراعه حولها وضمها إليه ليعبر لها عن حقيقة مشاعره نحوها ، وسقطت قنبلة فى مكان قريب فأحدثت دويا هائلا واهتزت المبانى ، وقفزت إنصاف فى فزع والتصقت بعبود وتطلعا فى خوف إلى السماء ، وقال عبود فى ضيق :

— طالت هذه الغارة الملعونة ، طائرات تذهب وطائرات تجىء .

أأنت خائفة يا إنصاف ؟

— تملكنى خوف شديد لما سمعت صفارة الإنذار ، وكدت أموت من الرعب عندما دوّى فى أذنى صوت القذائف الأولى ، أما بعد أن كثرت الانفجارات فلا أدرى أألفت صوتها أم تبلدت حواسى .

— ولماذا فزعت من القنبلة الأخيرة ؟

— خيل إلىّ أنها تسقط فوق رأسى .

وبلغا دكان فانوس فألفياه قد أغلق وانقطعت عنه الرجل . ومدت إنصاف بصرها إلى بيتها فأحست رغبة فى أن تنطلق إلى أمها لتطمئن عليها وتسكن روعها ، ترى ماذا تفعل الآن ؟ أما تزال تتنفس أم قضى عليها خوفها ؟ بيد أنها

راحت تقاوم هذه الرغبة الملحة ، وعرجت على بيت عبود وصعدت تتحسس طريقها فى الظلام .

واستقبلتها فتحية وهى تقول :

— إنها تلد ، الطلق يتتابع الآن فى سرعة . أسرعى يا إنصاف . أسرعى .

وندت صرخة من بهية تمزق لها قلب عبود ، وراح يغدو ويروح وهو قلق ، وزاد فى ضيقه الظلام الذى ساد المدينة وفحيح الطائرات الذى يمزق الأعصاب وهزيم القذائف الذى يخلع قلبه .

ومر الوقت وئيدا ثقيلا ، ثم فتحت إنصاف الباب وقالت :

— عبود . أريد ماء ساخنا .

وذهب عبود إلى وابور الجاز ودون أن يفكر أشعل عود ثقاب ، وإذا بأصوات ثائرة ترتفع فى كل مكان .

— أطفئ النور . أطفئ النور . أطفئ النور .

وأطفأ عبود عود الثقاب فى خوف وراح يفكر ماذا يفعل ليشعل عود الثقاب دون أن يتسلل نوره إلى الخارج ، فراح يغلق النوافذ فى حنق ويسدل عليها الملاءات وكل ما يصل إلى يديه من الثياب ، ثم عاد يشعل عود الثقاب فى حرص وعلى الرغم من كل ما اتخذه من إحتياطيات ارتفعت أصوات الفزع تأمره أن يطفئ النور .

ووقف ينظر إلى وعاء النار الذى وضع فوق وابور الجاز وهو يفكر فى عود الثقاب الذى أفزع الجيران ، فلطالما أشعل آلاف العيدان دون أن يحس به أحد ، وقبل أن يسترسل فى تفكيره صرخت بهية صرخات جعلته يطرق فى أسى وقد فاضت نفسه بالشفقة وكادت تذوب من الرقة .

وتتابعت القذائف واهتزت المنازل وارتفعت أصوات الفزع والهلع من بيوت الجيران ، وضاعت تأوهات بهية فى ضجيج الرهبة الذى طغى على كل صوت حتى كاد يخفى أصوات الانفجارات ، وجاءت فتحية وقالت :

— ناولنى الماء الساخن .

وقال عبود فى لهفة :

ـــ كيف حال بهية ؟

فقالت فتحية فى رقة :

ـــ جاءت لك بولد .

وانشرح صدره ، ولكن لم يدم فرحه طويلا فقد أضاءت الحى ألسنة النيران التى كانت تتراقص قريبا من نافذته فذهب ينظر ، وقبل أن يصل إلى النافذة فتح باب غرفة بهية ، وخرجت إنصاف تهرول وتصرخ :

ـــ أمى ! أمى !. أمى !

ونظر عبود فإذا بالنيران قد اندلعت فى بيت إنصاف ، فتنازعته رغبتان : رغبة فى أن يذهب إلى بهية وإلى ابنه الوليد ، ورغبة أن ينطلق فى إثر إنصاف ، ووقف برهة ثم راح يعدو إلى الطريق واندفع إلى حيث كانت النار تتأجج ، فألفى الناس يحاولون أن يحولوا بين إنصاف وبين اقتحام النيران ، بيد أن إنصاف أفلتت منهم واندفعت وهى تصرخ :

ـــ أمى .. أمى .. أمى ..

ومرق عبود خلفها كالسهم وهو يخفى وجهه بذراعيه خشية أن تحرقه النار ، وراح ينادى :

ـــ إنصاف .. إنصاف .

واستمر فى تقدمه حتى بلغ غرفة الأم ، فوجد إنصاف تحاول أن تحمل أمها وحدها ـــ لتنقذها من النيران التى تتراقص حولها ، فهرع إليها ولف الأم فى فراشها جيدا ، ثم حملها هو وإنصاف وسارا بها وألسنة النيران تلسع وجوههما وأيديهما وهما يتأوهان فى صمت ويهرولان ليفرا من الموت الذى يحلق فوقهما ويحوم حولهما .

وسمعا قرقعة أخشاب وانهيار جدران ، وزاد اندلاع اللهيب ، فأرهفت المشاعر وزاغت القلوب والأبصار ، وكادت إنصاف أن تنهار بيد أنها لاذت بعزيمتها فلم يبق بينها وبين مغادرة الدار إلا بضع درجات .

ولم يعد عبود يحتمل لسع النار ، وبلغ به الجهد منتهاه فكاد يفقد وعيه وينوء بحمله ، إلا أن رجلا اقتحم النار وبين يديه ملاءة مبللة بالماء لفها حوله فأحس كأن روحه ردت إليه ، وراح الرجل يعاونهما على الخروج ، وعلى ضوء اللهب رأى عبود الرجل فهتف فى راحة :

— فانوس ؟! شكرا لك .

وخرجوا إلى الطريق فخف الناس إليهم يتلقفون أم إنصاف منهم ، وانهار عبود يلتقط أنفاسه ، وأسرع صديق يعالج الحروق التى أصابت إنصاف ، وقبل أن يفيق الناس من هول ما هم فيه انفجرت قذيفة زلزلت الحى العربى كله .

— ٣٨ —

كان الفجر لم يولد بعد وقوات إسرائيل تضغط على قوات « أبو عجيلة » فى قسوة وضراوة لتشق لها طريقا بين صفوفها المتماسكة قبل أن تشرق شمس يوم الخميس ، فقد انقضت ليلة رهيبة بعد أن قذفت الطائرات الإنجليزية الموانى المصرية والمطارات والمدن بقنابلها الغادرة وقوات « أبو عجيلة » تستميت فى دفاعها ، لم يفت فى عضدها أنباء العدوان البريطانى الفرنسى .

وشعرت القوات الإسرائيلية بالعار الذى لحقها ، فجاء موسى ديان قائد الجيش الإسرائيلى ينظم صفوفه ويحمس قواته ويلقى بهم فى أتون المعركة ، لعله يحقق نصرا يطنطن به بعد أن خرست أصوات الدعاية الإسرائيلية يومين كاملين ، فالمعارك الدائرة فى الصحراء لم تحقق شيئا من الزعم الذى زعموه فى أول بلاغ حربى أذاعوه فى الساعة التاسعة من يوم الاثنين ٢١ أكتوبر ، ادعوا فى ذلك البلاغ أن قواتهم على مشارف قناة السويس بينما قواتهم الرئيسية فى فجر يوم الخميس لا تزال فى أماكنها أمام « أبو عجيلة » .

وراح وعاظ اليهود يحدثون يهود روسيا وبولندا ، ويهود إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، ويهود العراق واليمن ، ويهود الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، ويهود البلاد العربية ، عن موسى وعن تلك الأيام التى خرج فيها من مصر إلى سيناء

المقدسة ويذكرون لهم أنهم سيطأون بأقدامهم الأراضى التى وطأها بأقدامه الشريفة نبيهم ، ليثيروا حماستهم وليبثوا فيهم قوة روحية تشد أزر القوى المادية التى عجزت عن أن تحقق أمانى الساسة المتآمرين المختفين فى مخابئ تل أبيب هربا من قصف الطائرات المصرية ، التى كانت تجتاح إسرائيل طوال الليل والنهار معلنة سيطرتها على سماء المعركة على الرغم من إشتراك القوات الجوية الفرنسية مع القوات الجوية الإسرائيلية فى الدفاع عن الدولة القميئة التى تزهو بعضلات حلفائها .

وأثارت المواعظ حماسة المهاجمين فراحوا يشددون الضغط على القوات المصرية التى لم تذق طعم الراحة منذ أن نشب القتال فى هذه المنطقة ، واندفعت المدرعات فى إصرار وعناد لتضع حدا للمعركة ، فانبرت لها المدفعية المصرية تصليها نارا حامية ، وتقدمت سرايا المشاة تهاجم المدرعات فى بسالة ، وسقط القتلى على جانبى الدبابات ، وتفجرت الدماء من الجراح ، وارتطم الحديد بعزائم من حديد ، وراح مأمون يلقى قذائفه على قوات العدو المتقدمة وقد ذهل عن كل شيء إلا عن المعركة التى أراد العدوان أن تكون فاصلة .

وبدأ مولد الشمس فى الأفق الشرقى ، وبدا أن العدو نجح فى أن يفتح ثغرة فى سرايا المشاة بعد أن استشهد كثير من الجنود دفاعا عن مواقعهم ، فاتجهت القوات المصرية لسد تلك الثغرة ، فمكن ذلك الأعداء من أن يفتحوا ثغرة ثانية ، فخف المدافعون لسد تلك الثغرة ورد المعتدين على أعقابهم ، واشتد أوار القتال وراحت جميع المدافع والبنادق تهدر وتزمجر ، وبلغت المعركة أوجها ، وما أشرقت الشمس حتى كان العدو قد فتح ثلاث ثغرات فى سرايا المشاة الأمامية .

ونفذت الشحنة الروحية التى بثها وعاظ اليهود فى صدور المهاجمين ، وأحس الجنود المصريون الخطر المحدق بشرفهم من جراء الثغرات الثلاث التى فتحت فى صفوفهم ، فشنت الفصائل الإحتياطية للسرايا هجوما مضادا ، وراحت تلقى قنابلها اليدوية فى مهارة ودقة وتندفع وقد شهرت أسلحتها البيضاء لتلتحم مع القوات التى تسللت فى صفوفهم فى قتال مرير .

ودارت مبارزات وراح « السونكى » يغوض فى الصدور ، فانخلعت قلوب اليهود من الرعب ، وزاد فى فزعهم صيحات التكبير التى زلزلت أرض المعركة زلزالا شديدا .

وانقضت نصف ساعة وأصوات القنابل اليدوية الرهيبة تقذف الرعب فى نفوس اليهود الذين تسللوا إلى الثغرات الثلاث ، وضحايا السلاح الأبيض يتهاوون على الأرض كأوراق الخريف ، والدبابات الشيرمان تتعطل ، والعربات المصفحة تغوص فى الرمال وتشل حركتها .

وراح اليهود يتقهقرون والمقاتلون المصريون فى أثرهم يطبقون عليهم ، طردوهم من الثغرات التى فتحوها وأخذوا يتبعونهم إلى مواقع تجمعهم ليقتلعوهم من الأرض التى شنوا منها هجومهم .

وجاءت الطائرات المعادية ، وراح رجال المدافع المضادة للطائرات يسددون إليها قذائفهم ، لقد ظلوا فى أماكنهم أربعة أيام كاملة ساهرين يرعون السماء ، ويقفون للطائرات المغيرة بالمرصاد ليشتتوها حتى لا يتحكم طياروها فى قنابلهم وصواريخهم .

وراحت الطائرات الإسرائيلية والفرنسية والإنجليزية تضرب الدبابات والعربات الإسرائيلية التى تركت فى أرض المعركة حتى لا تقع فى أيدى قوات « أبو عجيلة » .

وانتهت طائرات الأعداء من تأدية هذه المهمة فاتجهت إلى قوات « أبو عجيلة » وراحت تهجم عليها هجمات حانقة . كانت تنقض على المدافع المصوبة إليها لتسكتها وتضرب الرجال بالصواريخ . وراحت الطائرات الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية تحوم فى السماء هادرة مزمجرة وقذائفها تلقى بغير حساب على المدافعين الذين أقسموا على ألا يزولوا من أماكنهم .

وركزت طائرات الأعداء الضرب تركيزا شديدا ، فصارت أرض المعركة أتون نار ، انفجارات على الأرض فى كل مكان ومن كل اتجاه ، وانفجارات فى السماء ، وطائرات تهوى ، ودبابات تعطل ، ورجال من هنا ورجال من هناك

يسقطون صرعى العدوان ، والدماء تسيل أنهارا ، وأشلاء الرجال تتطاير فى الهواء كأنها ذرات رمال أو نقع أثارته القذائف الآثمة .

وراح راسم يصول ويجول مع إخوانه الذين استماتوا فى الدفاع ، على الرغم من العرق المتصبب وعذاب التعب والإرهاق والموت الذى يلقى حممه عليهم من المغيرات صبحا وضحا وظهرا وعصرا ومساء ، وأخذ يمشى مشى الوعول ويصوب رصاص مدفعه إلى الطائرات المنقضة وهو يصيح فى ثورة وعصبية وغضب :

ـــ لعنة الله عليكم يا أوغاد ! خيبكم الله .

ويلتفت إلى من حوله ويصيح :

ـــ اثبتوا يا رجال . هذا يوم له ما بعده . هبى يا رياح الجنة .. هبى يا رياح الجنة .

واختفى مأمون خلف ساتر وطفق يسدد طلقاته ودمه الحار يسيل من جرح فى وجهه وهو لا يكاد يحس به ، وراحت القذائف تتفجر حوله وهو ثابت القدم والجنان ، وعلى الرغم من الدوى الهائل الذى كان يهدر هديرا متواصلا فى أرض المعركة فقد مس أذنيه أنين خافت وصوت واهن يردد :

ـــ أشرب ! أشرب ! أشرب !

والتفت مأمون خلفه فرأى أحد رفاقه ممددا على الأرض وقد اختلط عرقه بدمه بالتراب ، وجحظت عيناه وتدلى لسانه من العطش وكان يلهث من الجهد ، فهرع مأمون إليه فى العراء دون أن يحفل بقذائف الأعداء التى تسقط من السماء ، ومال عليه وأخذ يمسح الوحل عن وجهه ثم رفع رأسه بذراعه وراح يسقيه .

وزفر الشاب فى راحة ثم قال :

ـــ عندما تعود يا مأمون اذهب إلى شبرا تنا وقابل زينب ابنة عمى وقل لها : بدوى آسف لأنه لم يعد ، كان أمله أن يسعدك ، ولكن اليهود قتلوه وهو يحلم بليلة زفافه .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ قل لها إنى كنت رجلا . ألم أكن رجلا يا مأمون ؟

فقال له مأمون وهو يحاول أن يحمله ليبعده عن القنابل والقذائف والرصاص المتطاير من كل مكان وفى كل مكان :

— كنت رجلا حقا .

وحمله مأمون وهو متشبث بمدفعه وسار به إلى الخطوط الخلفية ، وقال بدوى :

— وقل لها : بدوى مات ومدفعه فى يده . لم يلقه ولم يتخل لليهود عن شبر من الأرض .

— إننا لا نحارب اليهود وحدهم يا بدوى . إننا نحارب إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .

— قل لها : بدوى مات رجلا .

— أنت بخير يا بدوى . وستعود إليها وستقص عليها كل شيء ، وسيكون لكما أولاد تروى لهم ذكريات بطولاتك .

فابتسم بدوى إبتسامة باهتة ثم قال :

— سأحذر أولادى من مكر اليهود ، فالخيانة تجرى فى دمائهم .

ونزف الدم غزيرا من صدره ، فوسع مأمون من خطوه حتى إذا بلغ الخطوط الخلفية وضعه فى تؤدة إلى جوار زملائه الذين أصيبوا إصابات بالغة ، وخف إليه رجل من رجال المستشفى يضمد له جراحه .

وألقى مأمون نظرة سريعة على الجرحى ، ثم قفل راجعا إلى المعركة الرهيبة التى تأججت نيرانها وحمى وطيسها ، وراحت أدوات الدمار التى اخترعها الإنسان تحصد أرواح البشر الذين كانوا يموجون فى أرض العمليات حصدا ، وتدكهم دكا دكا .

وحلقت فوق رأس مأمون طائرة فرنسية ، فانبطح على الأرض حتى لا يكون هدفا سهلا لها . وتجاوزته الطائرة وانقضت على الجرحى وفتحت مدافعها الرشاشة فاخترق الرصاص صدورهم ومزقهم إربا إربا .

وجن جنون مأمون فهب منتصبا على قدميه ، وراح يسدد رصاص مدفعه الرشاش إلى الطائرة وهو يصيح فى غيظ وغضب :

— نذل ! جبان ! جبان .

وسدد أكثر من مدفع قذائفه إلى الطائرة ، وأصيبت بضربة مباشرة ، فإذا بها تنفجر فى الجو ثم تهوى إلى الأرض ، ولم يشف ذلك غليل مأمون فأسرع إليها

ليفرغ فى حطامها رصاص مدفعه .

وتقدمت الدبابات الإسرائيلية وراحت تقصف مواقع القوات المدافعة بقذائفها، وتفجرت الألغام وأخذت الطائرات تؤيد الدبابات فى تقدمها، فراحت المدافع المصرية تصوب قذائفها إلى المدرعات والطائرات وقوات المشاة التى كانت تتقدم لفتح ثغرة فى قوات أبو عجيلة. وراح الموت ينقض من فوق ويتفجر من تحت ومن أمام ومن خلف، وعن يمين وعن شمال، وبقيت قوات « أبو عجيلة » ثابتة فى مكانها لا تتزحزح قيد أنملة .

واتصلت القيادة بقائد قوات « أبو عجيلة » وقالت له :

ـــ عليك أن تحاول الانسحاب دون أن يشعر العدو وأن تستر ذلك الانسحاب .

ورد قائد « أبو عجيلة » :

ـــ العدو يحاصر مواقعنا من كل ناحية ولكن مواقعنا كلها متماسكة .

ـــ الأوامر أن تنسحب قواتك وأن تغطى ذلك الانسحاب .

ـــ انسحاب قواتنا قد يكون متعذرا . أفضل الدفاع عن مواقعنا .

ـــ انسحاب قواتك جزء من خطة عامة .

ـــ سأنقل الجرحى أولا إلى الغردقة بقوارب تعبر البحر الأحمر عند مدخل خليج السويس .

وراح سعد الدين متولى قائد قوات « أبو عجيلة » يحمل الجرحى إلى القوارب والمعركة تدور فى قسوة وضراوة . وراح الظلام يخيم على أرض المعركة فعاد القائد يتصل بقيادته ويقول لها :

ـــ سآمر بعض قواتى أن تتسلل خارجة من مواقعها حاملة أسلحتها الخفيفة حتى تنضم إلى قوة العريش وتنسحب معها . وسأدمر كل ما لدى من سلاح ثقيل حتى لا يقع فى يد العدو .

وأصدر أوامره بتدمير الأسلحة الثقيلة، فقابلت القوات الأمر فى دهش، فقوات إسرائيل لم تنتصر عليهم، لقد غرست فى الوحل مائة ساعة ولم تكسب

أرضا ولم تحرز نصرا ، فلماذا يصدر القائد مثل هذا الأمر ؟

وقال لهم :

— صدرت الأوامر بانسحابنا . انسحابنا جزء فى خطة عامة .

وراح الرجال يدمرون الأسلحة الثقيلة ، وفى القلوب أسى وفى الحلوق غصة وفى العيون دموع .

والتقى راسم بمأمون وكان ساهما حزينا ، وما إن التقت عيناه بعينى صديقه حتى انفجر باكيا ، فقال له مأمون فى أسى :

— تآمروا علينا !

فقال وهو يصرف أنيابه فى غيظ :

— ما كنت أظن أن يأتى يوم تقف فيه إنجلترا مع إسرائيل جنبا إلى جنب ضدنا على أعين الناس .

— كانت عداوتها لنا سافرة فى الأيام الأخيرة .

— مهما بلغت العداوة بينها وبين مصر فما كان لها أن تقف مع إسرائيل فى حرب سافرة ، حتى لا تحرج أصدقاءها العرب .

وصمت راسم ثم تنهد فى ضيق وقال :

— لما اعتدت إسرائيل علينا حسبت أنها أخطأت التقدير هذه المرة ، وراودتنى آمال العودة إلى وطنى . كانت رائحة البرتقال تملأ أنفى ، وبيارات البرتقال تتراءى لى فى يقظتى ونومى ، وفى الأيام الأخيرة صليت أكثر من مرة بروحى فى بيت المقدس وفى مسجد العجمى .

— يا ليت ! إنى أحن حنينا إلى فلسطين .

وصدرت الأوامر إلى الرجال أن ينسلوا واحدا واحدا من خلال مواقع العدو الذى كان يحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، فحمل الرجال أسلحتهم الخفيفة وفى جنح الليل راحوا يتسللون فردا ، بينما المعركة دائرة والقذائف المصرية تترادف وتتتابع لتغطى عملية الانسحاب .

والتفت مأمون إلى راسم وقال له :

— هيا يا راسم .

فقال راسم فى عزم :

— سأبقى هنا .

وقال مأمون وهو يجذبه من ذراعه :

— سننسحب لنكر عليهم مرة أخرى .

فقال راسم فى حزن :

— اذهب أنت يا مأمون ، أما أنا فلن أتقهقر خطوة واحدة .

— لماذا ؟

فقال راسم والدموع تترقرق فى عينيه :

— لأنى بعدت عن بلادى ، ولا أطيق أن أبعد عنها أكثر مما بعدت . اذهب يا مأمون وسأعرف كيف أغطى انسحابكم .

— إذا قررت أن تبقى فسأبقى معك .

— لا . لا يا مأمون اذهب لتدافع عن بلادك حتى لا يقتل الشيوخ والأطفال وتبقر بطون الحوامل من النساء . أسرع لتحمى أهلك قبل أن يفضحهم أعداؤنا . ليتنى كنت رجلا يوم نكبة دير ياسين لأقاتل عن أعراضنا . كانوا سيقتلوننى . كان ذلك أهون من العار الذى رأيته بعينى والذى كان يعذبنى كلما طاف بخيالى ، وما أكثر ما كنت أعيش فى ذكريات الماضى .

ورفع عينيه إلى السماء وقال فى حزن :

— يارب ! لماذا كتبت علينا أن نتجرع هذه الكأس ؟!

ثم التفت إلى مأمون وقال :

— الوداع يا مأمون .

وضمه مأمون فى حب وقال فى انفعال :

— بل إلى اللقاء . سنلتقى هناك وندخل معا تل أبيب .

وراح راسم يرتل فى صوت خافت :

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾ .

وافترق الصديقان ، وراح راسم ينظر إلى مأمون حتى أطبق عليه الظلام ، ثم اندفع إلى غمار المعركة ليغطى انسحاب الذين انسلوا لينحازوا إلى إخوانهم فى مصر ، ليصدوا عن بلادهم الدول الباغية ، وليتأهبوا للوثبة التالية لينتزعوا الشوكة التى غرسها الاستعمار فى جنوبهم .

وثبت الذين وهبوا أنفسهم للموت وراحوا يصلون الأعداء نارا حامية ، وطفق راسم يسدد قذائفه فى مهارة وهو يصيح صيحات عالية تنفس عن المشاعر الفائرة التى تموج بين جوانحه ، وراحت قذائف الأعداء تتساقط حوله وتدوى فى أذنيه دويا هائلا ، بيد أن صوتا عاليا كان يرن فى أعماقه يغطى على كل ما عداه من أصوات ، كان الصوت يجلجل فى نفسه صائحا :

ـــ إن كتب على أن أستشهد فلن تعرف روحى الاستقرار إلا إذا دخلت فلسطين مع جيوش العرب الظافرة .

— ٣٩ —

كانت جانيت تسير فى الطريق عندما فاجأتها صفارة الانذار فراحت توسع من خطوها لتصل إلى البيت قبل أن تبدأ الغارة ، ولكن ما إن قطعت بضع خطوات حتى دوت قذائف الطائرات فراحت تحتمى فى الجدران وهى ترقب السماء فى غضب .

والتقت عيناها بعيون كثير من المصريين ولم تقرأ فيها رعبا ولا هلعا بل إيمانا وعزيمة ورباطة جأش . إنها عاشت فى لندن فى أثناء الحرب وإنها لتذكر صرخات الفزع والخوف الشديد الذى كان يرتسم على الوجوه عندما كانت طائرات النازى تجتاح بريطانيا . لقد أعجب العالم بصلابة عود الشعب البريطانى فى ذلك الوقت ، بيد أن الشعب المصرى الذى لم يعلن الحرب على أحد والذى استيقظ فجأة ليرى طائرات دولتين كبيرتين تصب عليه جام غضبها بلا ذنب ، أثبت أنه أصلب من الشعب البريطانى عودا .

وخطر على ذهنها خاطر ، إن شعرها الأصفر وعينيها الزرقاوين وبشرتها

البيضاء التى تتوهج بالدم وكل ملامحها تنطق بأنها إنجليزية ، ومع ذلك تسير مطمئنة فى الطريق بينما طائرات بلادها تصب الموت على رءوس الناس الآمنين ، ترى ماذا كان يفعل الشعب البريطانى لو أن توفيقا كان يسير فى شوارع لندن بينما كانت الطائرات المصرية تقصفها بقنابلها ؟ كان الشعب البريطانى يمزقه إربا إربا . حقا إن الشعب المصرى شعب عريق .

والتمعت أضواء القذائف كالبرق ، وجلجلت أصوات الانفجارات كهزيم الرعد ، وراحت المدافع المضادة للطائرات تحاول أن تصطاد المغيرات التى ركزت هجومها على بطاريات المدافع التى تسدد إليها قذائفها وعلى المواقع العسكرية وعلى الحى العربى .

وراح عقل جانيت يعمل فى سرعة ، إلى متى يستمر هذا العمل الإجرامى ؟ كان الإنذار مفاجأة لأمريكا حقا ؟ قال الساسة الأمريكان : إن الانذار كان مفاجأة لهم ، إنه بيرل هاربر أخرى . ترى أيقول الساسة الأمريكان الحق أم أن هذا القول إن هو إلا ضرب من ضروب السياسة التى تخفى حقيقة وجهها ؟

ويل للناس من السياسة وأطماعها ! ورن فى أذنيها ما قاله موليه فى باريس للجمعية الوطنية بعد أن عاد من لندن عقب إعلان أقذر إنذار : « قيسوا ما فعلناه على نتائجه . إننا نأمل أن نحطم عبد الناصر بقليل من إراقة الدماء . إننا نعلم أن الخطأ قد يكون من جانبنا ، بيد أن الخطأ الأكبر أن نقف من مصر موقفا سلبيا » .

وترادفت الانفجارات ، وصاح فى أعماق جانيت صوت غاضب يقول : « إن ما فعلته يا مسيو موليه شىء بغيض ، شىء ستخجل منه الإنسانية وتبرأ من نذالته . لن تحقق ما تريد لا بإراقة قليل من الدماء ولا بإراقة كثيرها . أنت واهم يا مسيو موليه ، وقد يكون لك عذرك أنك تريد بهذا العدوان الدنىء أن تسترد الهيبة التى فقدتها فى الجزائر وفى أحراش الهند الصينية ، ولكن ما عذر مستر إيدن ؟ لماذا استجاب لنوازع نفسك الشريرة ؟ » .

وراحت مدافع الأسطول البريطانى والأسطول الفرنسى تقصف بطاريات السواحل المصرية وتضرب مبانى الميناء ، ورن فى ضمير جانيت صوت إيدن وهو

يعلن فى مجلس العموم : « إن ما نفعله ليس حربا ، إنه إجراء بوليسى للحيلولة بين القوات المصرية والإسرائيلية » . آه لو كنت فى لندن الآن لوقفت مع الذين قابلوك بصفير الاستهجان ولصحت فى وجهك وقلت : « أنت كذاب يا مستر إيدن . كذاب .. كذاب ، كذاب » .

واستمرت الغارة وجانيت فى مكانها ثابتة وإن كان ذهنها يطوف بكل أنحاء العالم . إن كانت المانشستر جارديان وصفت الإنذار بأنه عمل يدل على البلاهة وليس له ما يبرره فبماذا ستصف هذه الوحشية ؟

حقا لقد مرغ مستر إيدن بهذه النذالات التى يقترفها كل ساعة الشرف البريطانى فى الوحل . إن جيتسكيل زعيم العمال عبر عن حقيقة شعورنا الذى نحسه عندما قال فى مجلس العموم : لقد صدم الملايين من الإنجليز وجللهم الخجل لأن إلقاء القنابل البريطانية على مصر لم يكن فى حالة دفاع عن النفس أو من أجل دفاع مشترك ، بل كان تحديا ونقضا واضحا لميثاق الأمم المتحدة » . إنى أكاد أموت من الخجل مما فعله إيدن ، ولكن عزائى أن شعب إنجلترا أضرب من أجل مصر ، بل إن شعب فرنسا نفسه أضرب وأعلن استياءه من سياسة موليه .

وأحست فى أعماقها أنها تتمزق من الغيظ والحنق ، وراحت تردد . « جن إيدن ولا شك . جن إيدن . جن إيدن » وكانت مظاهرات الاحتجاج فى سورية والأردن ولبنان وليبيا تطوف برأسها ، وبرز وجه بولجانين حتى غطى كل ما فى خيالها من صور وغمغمت : هذه فرصة الدب الروسى ليصول ويجول . ألم يفكر إيدن قبل أن يشن هذه الحرب الظالمة فيما يمكن أن تفعله روسيا من هذه الحماقة التى يرتكبها ؟ ترى هل أطمئن إلى أنها قد ارتكبت فى المجر نفس الإثم الذى يرتكبه فى مصر ، وأن الآثم لا يخاف آثما مثله ؟ » .

ورن فى ضميرها صوت توفيق وهو يقول لها : « إنى أرى فى وضوح عدونا وعدو كل دولة متحررة مستر جونس رجل التأمين الأصلع يرقص طربا فى لندن لأن إيدن أرسل طائراته لتدك بلادنا على رءوسنا » .

وهزت رأسها استياء وراح صوتها يصيح فى جوفها : « لا . لا . أنت تظلمه

يا توفيق لأنك تكرهه ، إنه بغيض حقا ولكن سفالته لن تصل أبدا إلى هذا الحد . ولماذا تستنكرين يا جانيت أن يرقص مستر جونس وأمثاله طربا لاعتداء إيدن على مصر ؟ . إن رجالا يحسبون أنفسهم ذوى ضمائر من رجال المحافظين أبوا أن يخذلوا إيدن وحكومته لما طرحت الثقة به . فى إنجلترا يا جانيت أناس يؤيدون هذا العدوان الغاشم ، بل يباركونه . لماذا يؤيدون هذا الظلم والتجنى ؟ أنت أعرف الناس بدوافع هؤلاء المتعصبين يا جانيت . هذا بغيض ! بغيض أن يبلغ الحقد حد أن تهتز أعطافنا طربا لإراقة دماء أناس أبرياء . أكان إيدن يعلن هذه الحرب لو عرف أن هناك أدنى احتمال لأن يلقى فيها حتفه ؟ أكان مؤيدوه يؤيدونه لو عرفوا أنهم سيلقون فى هذه الحرب مصارعهم ، إنهم سعداء لأنهم سيزينون صدورهم بأوسمة من أرواح جنود أبرياء غرر بهم ليخوضوا غمار حرب ملعونة لا تجلب إلا العار » .

وأطلقت صفارة الأمان فانطلقت جانيت إلى بيتها وهى تلعن رئيس وزراء بريطانيا المجنون فى صوت عال ، ودخلت تنادى :

— مرجان ! مرجان !

وراحت تبحث عنه فى كل مكان فلم تجده . إنه خرج كما خرج كالأمس يرصد الطائرات المغيرة ويهلل للطائرات التى تنفجر فى الجو ويجرى فى اتجاه الطائرات الهاوية ليراها وهى تسقط فى البحر . فرؤية الطائرات المعتدية وقد اشتعلت فيها النيران تريح صدره الذى تأكله الثورة والحنق والضيق .

قال بالأمس لجانيت :

— ليت هؤلاء الطيارين يهبطون إلى الأرض لأكتم أنفاسهم بيدى . أين الشجاعة فى أن يركب رجل طائرة ثم يلقى بقذائفه على الآمنين المسالمين ، وبعد أن يقتل الرجال والنساء والشيوخ والعجائز والأطفال ويشعل النيران يولى الأدبار . إن كان شجاعا حقا فليأت ليقاتلنى يدا بيد .

أدهشها بالأمس هذا القول ، فالرجل الأسود الذى كانت — على الرغم من سماحتها — تراه كأنما نحت من الغباء قد تبدل ، كشف عن ملامح ذكاء وعن منطق

سوى قد يفوق منطق كثير من بيض الوجوه زرق العيون! إن قلبه يجيش بعواطف نبيلة ترفعه إلى مرتبة سامية من مراتب البشرية، فقد قال لها فيما قال: إنى لا أكره كل الإنجليز لأن الطائرات الإنجليزية تضربنا بقنابلها، ولكنى أكره الذين أمروا هذه الطائرات بضرب بلادنا.سأقتل كل من يحاول أن يحتل أرضنا وأنا آسف. فما أكثر الذين يرغمون على الحرب وهم لها كارهون.

لا يمكن أن يصدر مثل هذا القول عن مرجان. لو أن توفيقا قال لها هذا القول لأثلج صدرها، أما أن يصدر هذا الكلام عن مرجان فهذه هى المعجزة. ترى أصار مرجان رجلا آخر أم كشفت الظروف عن حقيقة معدنه؟ يا طالما ظلمنا القارة السوداء!

وسارت جانيت إلى الراديو وأدارته وهى تقول:

— هذا هو البعث.

وانبعث صوت المذيع من محطة صوت بريطانيا يقول:

— لقد رأيتم كيف أثار عليكم عبد الناصر هجوم إسرائيل، وها أنتم أولاء ترون كيف نستطيع قصف مطاراتكم بمنتهى الدقة. وما لم يذهب عبد الناصر فسنلقى قنابلنا عليكم ونقتلكم.

وأغلقت جانيت الراديو فى حنق وهى تقول فى غضب:

— أهذه دعاية يا أغبياء؟ أبمثل هذا القول الذى يثير الاشمئزاز فى النفوس تحرضون المصريين على الثورة؟ إن كان هذا القول السخيف أسخطنى فماذا هو فاعل بالمصريين الذين تطفح قلوبهم بالحقد عليكم؟

وانطلقت صفارة الإنذار مرة ثانية، وأقبلت المغيرات الإنجليزية والفرنسية وطائرات حلف الأطلنطى تلقى حممها على المدينة، وفتحت المدافع المضادة للطائرات نيرانها من كل مكان، وارتجت بور سعيد وزازلت زلزالا شديدا، ودخل توفيق وهو ساهم، ولما رأته جانيت قالت:

— إنى معجبة ببسالة رجال المدفعية.

فقال توفيق فى مرارة:

— يخشى أن تنصهر المدافع فهي تعمل ليل نهار منذ أول غارة شنها الأعداء علينا .

وشرد ببصره ثم قال :

— إلى متى تستطيع أن تصمد هذه المدافع ؟

فقالت جانيت فى حرارة :

— أرجو أن تصمد حتى يفيق العالم من صدمة العدوان ويقول للمعتدين : ارفعوا أيديكم عن مصر وأوقفوا إطلاق النار .

فقال توفيق وهو يزفر :

— يا ليت !

— أنا واثقة أن العالم لن يسمح أبدا بأن يلقى به بعض الحمقى فى أتون حرب لا تبقى ولا تذر .

— إيدن يريد أن يستولى على مصر فى حرب خاطفة ويجابه العالم بالأمر الواقع .

— لو حسب أن الأمر بهذه السهولة لكان واهما . إن عمله العدوانى يلقى معارضة فى كل مكان ، وقد تحركت روسيا ونادت بدعوة مؤتمر باندونج للانعقاد ، وعارضت أمريكا هذا الغدر .

وقال توفيق فى ثقة :

— لن نسمح لأحد أن يعود لاحتلالنا مرة أخرى .

وحان وقت الغداء ، فذهب توفيق وجانيت إلى غرفة السفرة وراحا يتناولان طعامهما وهما يصغيان إلى الراديو ، وعزفت مقدمة نشرة الأخبار فأرهفا السمع ودق قلب توفيق رهبة وتوقف عن المضغ ، وراح المذيع يقرأ :

— أغارت الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية على قواتنا البرية وهى تعبر قناة السويس فى عدة نقط ، وخاصة عند كوبرى الفردان ، وقامت بضرب إحدى سفن الأسطول المصرى وهى السفينة « عكا » فى أثناء عبورها قناة السويس بالقرب من بحيرة التمساح . وقد غرقت هذه السفينة فى القناة ونتج عن هذا إيقاف الملاحة فيها . وهكذا تقوم بريطانيا وفرنسا بإيقاف الملاحة فى القناة فى الوقت الذى أقامتا فيه الدنيا وهما يقومان بالعدوان على القناة ، وقد قامت

الطائرات البريطانية والفرنسية أيضا طوال اليوم فى الإغارة على مطاراتنا فى القاهرة والإسكندرية ومنطقة القناة .

وسرحت جانيت قليلا ثم قالت :

ـــ سيكون شتاء قاسيا على أوروبا .

وقال توفيق وقد عافت نفسه الطعام :

ـــ هذه جناية إيدن .

ـــ سمعت أن السفينة عكا كانت محملة بأسمنت وحديد خردة ، وأن رجال هيئة قناة السويس كانوا ينتظرون الأحداث حتى إذا ما تحرجت سدوا بها القناة .

ـــ كانت الملاحة منتظمة فى القناة قبل أن يعتدوا علينا ، أكانت إنجلترا وفرنسا تنتظران أن تظل القناة مفتوحة بعد الغارات الجوية الغادرة ؟

قالت جانيت فى مرارة :

ـــ تصور لندن فى ديسمبر وينايرو فبراير بلا تدفئة فى البيوت ! سترتجف العجائز من البرد وقد تتصلب أطراف الصغار من الزمهرير . هذا بشع ، هذا شىء رهيب .

فقال توفيق فى انفعال :

ـــ ورجالنا الذين يموتون برصاص مدافع الطائرات الرشاشة ، والنساء والأطفال والعجائز والشيوخ الذين يموتون تحت الأنقاض ، هل فكر فيهم أحد ؟

هل تحركت قلوب الغرب شفقة عليهم ؟ أم أن رجالنا ونساءنا وأطفالنا لا وزن لهم فى هذه الحياة ؟!

ـــ إنى يا توفيق مشفقة على الناس هنا والناس هناك . لا أدرى لماذا يعذب الناس بعضهم بعضا .

ـــ إننا يا جانيت لم نعذب أحدا . إننا المضطهدون ، إننا الذين نتلقى العذاب من الآخرين ، ولكننا لا نرضخ للقوة أبدا ، ولن نستكين للاضطهاد .

وأتى المساء وأعلن صوت بريطانيا فى زهو أن الطائرات البريطانية والفرنسية قد أغارت على المدن المصرية خمس عشرة غارة . وراح يحرض المصريين على الثورة . بيد أن المصريين جميعا كانوا حول أجهزة الراديو ينصتون إلى البيان الذى

كان يلقيه الرئيس على شعبه .

قالت بهية لعبود وهى ترضع وليدها :

ـــ افتح الشباك يا عبود . أريد أن أسمع الراديو .

ـــ الدنيا برد يا بهية ، ولا زلت طرية .

ـــ غطنى جيدا وافتح الشباك .

وغطاها ببطانية فوق اللحاف وأحكم الغطاء حولها ، ثم ذهب وفتح الشباك فسرى الصوت إليها ، وأرهفت سمعها وظلت صامتة وهى تصغى ثم قالت :

ـــ ماذا قال يا عبود عن اللواء عبد الحكيم عامر ؟

ـــ قال : كلف القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة والعمل على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب ، والعمل على إحباط محاولات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى عزل وتدمير قواتنا الرئيسية فى صحراء سيناء .

وقالت بهية فى صوت خافت :

ـــ مأمون .

وأشاحت بوجهها عنه حتى لا يرى الدموع التى ترقرقت فى مقلتيها ، وفطن عبود إلى حقيقة مشاعرها فدنا منها وقال :

ـــ صدرت الأوامر إلى قواتنا فى سيناء بالانسحاب لتساند القوات المسلحة الشعب .

مأمون الآن فى طريقه إلى هنا .

ولم تستطع أن تكبح جماح عواطفها فقالت وهى تبكى :

ـــ لن أراه . لن أراه . لن أراه .

فقام إليها وضمها إلى صدره وقال :

ـــ لا يا بهية . لماذا هذا الجزع ؟ مأمون بخير .

وفى القهوة كان الشيخ حسن وفانوس يصغيان إلى البيان .

قال الرئيس :

ـــ أيها الإخوة ..

إن كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير .

لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح ، عندنا منه الكثير ، وسنقاتل فى معركة مريرة ، سنقاتل فى معركة من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان ، ليكن كل فرد منكم أيها المواطنون جنديا فى القوات المسلحة حتى ندافع عن شرفنا ، وحتى ندافع عن كرامتنا ، وحتى ندافع عن حريتنا .

وليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .. سنقاتل . سنقاتل ولن نسلم .

وخرج حسن من القهوة وانطلق إلى حيث كانت الأسلحة توزع وهو يقول فى الشهيق وفى الزفير :

— « ح نحارب . ح نحارب . ح نحارب » .

وتناول حسن سلاحه ودار على عقبيه لينصرف ، فرأى سليمان يختبر بندقيته فلوى شفته السفلى فى سخرية ، فما كان يستطيع أن يتصور أن مثل ذلك السكير الذى لا يرحم قلبه الضعيف يستطيع أن يخوض غمار المعارك وأن يدافع عن شرف الوطن وكرامته !

— ٤٠ —

كان مأمون يخوض غمار الظلام فى الليل السرمد ، وكان الهواء البارد يلفح وجهه وقد أنهكه المشى ودب فى أوصاله التعب ، فهو منذ ساعات طويلة يطوى الصحراء هو ورفاقه الذين أفلتوا من الحصار الذى ضربه الجيش الإسرائيلى على قوات « أبو عجيلة » ، وكان أمله أن يصل إلى العريش لينضم إلى قواتها المنسحبة فى طريق القنطرة . بيد أن الصحراء منبسطة أمامه كأن ليس لها نهاية .

وأحس أن حذاءه أطبق على قدميه كأنما صار منجلة من حديد تهصرهما هصرا ، فتأوه ، وجاهد ليسمو على آلامه وتقدم خطوات إلا أن الألم فاق كل احتمال ، فجلس على الأرض وخلع حذاءه ثم نهض ليسير حافى القدمين ، وشعر ببعض الراحة بعد أن خلع حذاءه ، ولكن ما إن سار بعض الوقت حتى عاد يحس آلاما مضنية ، كان الشوك الذى ينبت فى الصحراء يخزه وخزا قاسيا ، وارتطمت

فدماه بأكثر من حجر صلد فسالت منهما الدماء . كانت جروحه تؤلم بيد أن جرح نفسه كان أقسى وأمر .

ولماذا يهيم على وجهه فى الصحراء؟ لماذا غادر « أبو عجيلة » وهو يترقب؟ لماذا فرض عليه الفرار ؟ لأن إنجلترا وفرنسا غدرتا به وبرفاقه ورفعت اللثام عن وجه العداوة . لو أن الدولتين الآثمتين أعلنتا الحرب كما يعلنها الأعداء الشرفاء لهان الخطب ، أما أن تتبعا أساليب الخسة التى اتبعتاها فى هذه الحرب فهذا ما يحز فى النفس ويملؤها مرارة .

سيعلن اليهود فى خيلاء المنتصرين أنهم هزمونا فى سيناء وأذلوا كبرياءنا . ألا ليت الإنجليز والفرنسيين تريثوا قليلا لنلقى بهم فى البحر .

وتذكر راسم ، ترى ألا يزال ثابتا كالطود كعهدى به أم خر صريع الغدر والخيانة ؟ لا . لا . راسم لن يقتل ، إنه أكبر من الموت وأكرم عند الله من أن يقتله اليهود .

ورفع عينيه إلى السماء وكانت ملبدة بالغيوم تبعث الرهبة فى القلوب ، فقال متضرعا :

— يا رب ! احفظه وأبقه وحقق أمنيته الغالية . نجه يا رب ليطأ بقدميه إسرائيل ويدخل فلسطين مع جيوشنا المظفرة . كانت أمنيته العزيزة يا رب أن يعتلى أعلى مبنى فى تل أبيب وأن يصيح : أمى ! نامى مستقرة . لقد عدنا . لقد عدنا .

وصاح مأمون دون وعى :

— لقد عدنا .. لقد عدنا .

ودنا منه أحد الرفاق وقال له :

— لا يزال أمامنا الكثير ، تجلد يا مأمون . وسنصل بإذن الله .

وبلل مأمون شفتيه ببعض ما معه من ماء ، ثم سار يحمل نفسه حملا ويجر رجليه كأنما كان يجر كيسين من الرمال ، وعاد ذهنه يعمل : « لماذا تركت راسم ؟ لماذا لم أصمد معه ؟ أكان من الأصلح أن نبقى جميعا حتى يبيدنا الأعداء عن آخرنا ؟ قد يكون الإفلات من الحصار كسبا للمعركة . رسول الله لما رأى

أن بقاءه فى مكة يهدد حياته فر من الاضطهاد وهاجر إلى المدينة ، وكان ذلك الفرار بداية نصر المسلمين . أين نحن من رسول الله ؟ إن لنا فى حياة الرسول أسوة حسنة ، إنها منارات تنير سبل البشرية . هذا ليس قولى . هذا ما تعلمته من الشيخ حسن . الشيخ حسن ؟ أين أنت الآن ؟ هل سنلتقى ؟ لا بد أن نلتقى لأقص عليك ما فعله الإنجليز بنا .

كنت أضحك ملء شدقى لما كنت تقول : حلفاء الإنجليز من العرب لن يردوا الجنة أبدا لأن حلفاء الشياطين فى النار ، كنت أضحك لأننى لم أكن أفهم حقيقة ما تعنيه ، أما الآن فإنى أقسم بأن حلفاء الإنجليز من العرب فى جهنم » .

وأحس أنه لم يعد يقوى على السير وأنه يريد أن ينهار ، فوقف لحظات يستجمع قواه ويسترد أنفاسه ، ثم سار وهو يتخيل أن كل أعزائه على بعد خطوات منه وقد بسطوا أذرعهم ليتلقوه فى أحضانهم ، فراح يردد أسماءهم ليقوى عزيمته :

— بهية . بهية . إنصاف . إنصاف . عبود عبود . حسن حسن . بهية بهية . إنصاف إنصاف . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون . إنصاف مأمون .

وإذا به يجد نفسه يتقدم فى خطوات عسكرية .

ولاح فى الأفق الشرق ضياء فضى ، وبدأت الملاءة السوداء تنحسر عن الصحراء على الرغم من السحب التى كانت تحجب قرص الشمس الذى راح يعرج إلى السماء ، فأخذ الرجال يتلفتون فى خوف ، كان الظلام يسترهم أما النور فسيكشف مواقعهم لعيون الأعداء .

وسمع فحيح طائرات فنزلت الرهبة فى القلوب والتوت الأعناق وشخصت الأبصار إلى السماء ، وتبعثر الرجال فى الفضاء وقد قبض كل منهم على سلاحه بيدين قويتين .

وأرهفت الحواس ومرت لحظات قلقة واتضح الصوت ولاحت فى الجو طائرات فرنسية وإنجليزية وإسرائيلية ، فهرع الرجال الذين أنهكهم التعب يبحثون عن مأوى يعصمهم من النيران ، ولكن الطائرات انقضت عليهم

ورصاص المدافع الرشاشة ينطلق فى تتابع رهيب كأنما كان ألسنة الأبالسة .

ووقف بعض الرجال منتصبين على أقدامهم وقد صوبوا مدافعهم الرشاشة إلى الأعداء . وانبطح بعض الرجال على وجوههم وقد استسلموا للقضاء ، وظل الرصاص يئز أزيزا والطائرات تنقض انقضاض الصواعق وقبل أن تلمس الأرض تعود لتحلق إلى السماء ، ثم لا تلبث أن تنقض مرة ثانية وهى حانقة تنفث نيران مدافعها لتقضى على الجيش قبل أن ينضم إلى الشعب الذى يرقب عودته .

أفسد الانسحاب خططهم ، كانوا يريدون أن يسحبوا الجيش إلى سيناء ليقضوا عليه ويخلو لهم وجه مصر ، فإذا بخديعتهم قد كشفت . وإذا ببعض وحدات الجيش ودباباته ومصفحاته قد عادت إلى أرض الوطن تتأهب للقائهم ، وها هى ذى باقى وحداته تشق طريقها فى الصحراء لينضم جنودها إلى إخوانهم فى كفاحهم . إن كل رجل من هؤلاء الرجال يعود إلى قاعدته سيكون خنجرا مسددا إلى قلب جيوش العدوان ، فراحت الطائرات تهجم عليهم فى ضراوة وحقد لاستئصال شأفتهم ، إلا أن رصاص الصناديد الذين وقفوا يدافعون عن أنفسهم بأسلحتهم الخفيفة جعل أغلب رصاص الأعداء يطيش عن أهدافه .

وانقضت طائرة على مأمون فسدد إليها رصاص مدفعه الرشاش ، ولم تحد الطائرة عنه بل ظلت فى انقضاضها الرهيب ، فألقى بنفسه على الأرض وصبت عليه رصاصها صبا .

ومرت لحظات لم يحس فيها شيئا ، ثم رفع رأسه فى حرص ونظر فرأى الطائرة ترتفع فى الجو وصوتها يدوى دويا رهيبا يوحى بالموت والدمار . وبعدت الطائرة عنه فراح يحرك ذراعيه ثم رجليه ثم انقلب على ظهره ، كان سليما إلا أنه كان مجهدا فلم يقو على أن ينهض .

وراح يقلب عينيه فى المكان فألفى الصحراء قد غطيت بأجسام الضحايا ، فسرى فى جوفه أسى وامتلأ قلبه حنقا ، فنظر إلى السماء وقال :

— أقسم بك وبجبروتك ، لو كتب لى أن أعود أقاتل هؤلاء الأوغاد لأنتقمن لهؤلاء الشهداء شر انتقام !

وأسبل عينيه من التعب وكاد يغيب عن الوجود ، إلا أن ذهنه كان يقظا ، رأى أمه ليلة زفاف أخته بهية تتحامل على نفسها وتسير بين المدعوات ترحب بهن ، ورن فى أذنيه صوت بهية تقول : « قال الدكتور حازم : يجب ألا تتحرك أبدا وألا تغادر فراشها . حتى السرير يجب ألا تصعده أو تنزل من فوقه . من الأفضل أن تنام فى فراش على الأرض » . ورأى أمه وهى تنهض وقد أعرضت عن نصح الطبيب ، وسمع صوتها واضحا يقول : « أرح قلبى يا مأمون ، وأقسم لى بشرفك أن زفاف بهية سيكون يوم الخميس » ورن صوته فى جوفه : « أقسم لك بشرفى أن بهية ستتزوج يوم الخميس » .

ورأى نفسه يصعد مع إنصاف إلى حيث كانت أمه بعد أن ذهب عبود ببهية إلى بيت الزوجية . كانت أمه ممدودة على الأرض فراح يهتف : أمى .. أمى .. الدكتور ... الدكتور يا إنصاف .

وجاء الدكتور حازم فألفى أمه جثة هامدة .

وراح مأمون يقلب رأسه على رمال الصحراء ويغمغم :

ضحيت بنفسك يا أمى لتسعدى بهية . كان لا بد من التضحية .. لا بد من التضحية .

وكاد يستسلم للوهن الذى دب فى جسمه ، وأطبق جفنيه ليروح فى سبات ، إلا أنه سمع صوت أمه يصرخ به :

— مأمون ! أرح قلبى يا مأمون وانهض . انهض .

وراح صوت فى أعماقه يردد فى وهن :

— التضحية .. التضحية .

وإذا بصوت أمه يدوى دويا فى جوفه :

— لم يحن بعد وقت التضحية . مأمون ! انهض . أرح قلبى يا مأمون . انهض . انهض .

وقام مأمون وهو يحس كأن مناشير تنشر وسطه ، وأن قدميه لم تعودا من لحم ودم ، بل أصبحتا قالبين من رصاص ، ونظر أمامه وهتف :

ـــ بهية ! إنصاف ! عبود ! حسن ! أنا قادم . أنا قادم .

وسار خطوات ، وإذا بكل شيء يتراقص أمام عينيه .

* * *

وانطلق عبود وحسن بعد صلاة الجمعة إلى القهوة ، كان حسن يرتدى ثياب الحرس الوطنى وقد حمل بندقيته ، بينما كان عبود يسير إلى جواره ساهما ، كان يفكر فيما قاله الرئيس فى الخطاب الذى ألقاه فى الأزهـر : إن الجيش سليم وسينضم إلى الشعب . تم انسحاب قواتنا المسلحة من منطقة سيناء . وصلت قواتنا الرئيسية إلى القناة تاركة القوات الانتحارية فى شبه جزيرة سيناء . وغمرته موجة من الأسى ، ورأى أن ينفس عن مخاوفه فقال :

ـــ ترى هل قتل مأمون أم لا يزال يحارب مع القوات الانتحارية ؟

فالتفت إليه حسن فى دهشة وقال :

ـــ لماذا لا يكون قد عاد مع القوات التى وصلت إلى القناة .

فأطرق عبود لحظة ثم قال :

ـــ رأت بهية فى المنام أنها لن تلتقى به أبدا ، وكلما ذكرته ترحمت عليه وبكت .

ـــ لقد رأت مخاوفها .

وسرت فيه مشاعر خوف وقلق ، وأراد أن يبعد عن ذهنه فكرة أن مأمون قتل فقال :

ـــ ماذا سميت ابنك يا عبود ؟

فابتسم عبود وقال :

ـــ فكرت فى أن أسميه حربا .

ـــ لا . بل سمه حسنا أو حسينا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن على بن أبى طالب لما أنجب وليده الأول أراد أن يسميه حربا فقال له النبى ﷺ : بل حسنا ، ولما أنجب وليده الثانى أراد أن يسميه حربا فقال له النبى ﷺ : بل حسينا .

وفكر عبود قليلا ثم قال :

ـــ سأسميه حسينا .

ثم قال فى نشوة :

ـــ حسين عبود . اسم جميل . أليس كذلك ؟

ودون تفكير قال حسن :

ـــ اخترت أن يكون شهيدا .

وصمت حسن فجأة وعجب من نفسه ، كيف لم يفكر فيما قال قبل أن ينطق به ؟ وما الذى جعله يقول هذا القول ؟ ونظر من طرف عينيه إلى عبود فألفاه شاردا وقد كست وجهه مسحة من الخوف والقلق ، أيقول له إنه آسف وأنه لم يفكر فيما قال ؟ _ إن فعلت فسيزيد ذلك من مخاوف عبود . سيظن أن القدر هو الذى أنطقنى بما نطقت به .

لو أن أحدا قال لى : إن محمدا ابنى سيموت شهيدا أكنت أحزن كما حزن عبود ؟ لا شك أن فكرة موت الأبناء تمزق القلب ، لماذا لم أمسك لسانى ؟ حقا زلة القدم خير من ذلة اللسان » .

وسارا وقد غشيتهما كآبة ، وظلا صامتين إلى أن التقى بهما فانوس فقال له حسن :

ـــ إلى أين ؟

ـــ ذاهب لأسير فى جنازة أم إنصاف .

فقال عبود فى دهش :

ـــ ماتت ؟

قال فانوس وهو يهز رأسه :

ـــ لم تحتمل الحروق التى أصابتها .

وقال حسن :

ـــ سيخرج النعش من المستشفى ؟

ـــ نعم .

قال عبود :

— ومتى ستسير الجنازة ؟

— الآن .

وانطلقوا إلى الباب الخلفى للمستشفى ووقفوا ينتظرون مع الواقفين ، وقال عبود :

— مسكينة .

قال حسن :

— أكرمها الله . وجدت من يحملها إلى قبرها ، أما نحن فلا ندرى إذا كنا سنجد من يوارى سوءتنا .

ورمقه عبود وفى جوفه صوت يهمس : « حتى الأموات يحسدون » .

وجاء مرجان وكان يرتدى ثياب الحرس الوطنى وصافح حسن فى حرارة ، وصافح عبود ، ووقف يتحدث إلى حسن يروى أحداث اليوم ويعلق عليها .

وحانت منهم التفاتة فرأوا سليمان واقفا ينظر إليهم فى تردد ، والتقت عينا حسن بعينيه فأشاح بوجهه عنه . ولاحظ عبود ما فعل حسن فاستشعر كأن شيئا حادا وخز روحه ، ولم يحتمل نظرة الازدراء التى سددت إلى سليمان فهرع إليه وقال له :

— أهلا سليمان . أين أنت ؟

وابتسم سليمان ابتسامة باهتة ولم ينطق بكلمة ، وخرج النعش ولم يكن خلفه إلا صديق الفرارجى وإنصاف وبهنس ، فخف الرجال إلى إنصاف يعزونها ، وقال لها عبود وهو يصافحها :

— شدى حيلك .

وقال حسن :

— أمر الله ولا نملك إلا الصبر .

وسارت الجنازة إلى المقابر ، وما أن بلغت طريق الجميل حتى أطلقت صفارة الإنذار ، فأطلق كثير من المشيعين سيقانهم للريح ، وبعد قليل دوت الانفجارات

وراحت الطائرات تقصف المطار قصفا شديدا ، فارتج الحى وزلزل زلزالا شديدا ، وانخلعت القلوب ووضع الرجال النعش على الأرض وفروا هاربين ، وصاحت إنصاف فى حزن شديد :

ـــ أمى .. أمى .

وارتمت على النعش تبكى وتنتحب ، وخف مرجان وعبود وسليمان إلى النعش وحملوه على أكتافهم وساروا به والطائرات تحلق فوق رءوسهم والقنابل تنفجر تحت أقدامهم .

ونظر حسن إلى سليمان فتحركت شفقته وراحت نفسه تؤنبه وتقول له : « كان السكير أسرع منك تلبية لنداء الشهامة » وأحس خجلا فوسع من خطوه حتى لحق بسليمان فربت على كتفه ثم دخل مكانه ليضع على عاتقه مؤخر النعش الذى كان يحمله الرجل الذى طرد من عمله لأن قلبه كان ضعيفا !

وسار النعش يشق طريقه بين الانفجارات المدوية ، وأزيز الطائرات يمزق الصمت ورائحة البارود تملأ الجو وحفنة الرجال يتناوبون حمل النعش . كان موكب الموت يتحدى الموت .

— ٤١ —

جانيت عاكفة على مذكراتها ، ودوت انفجارات قذائف الطائرات ومدافع الأسطول فألقت القلم ، وشردت تفكر فى ذلك العدوان الذى أصم أذنيه عن صيحات الاستنكار التى انبعثت من أرجاء العالم واستمر فى طريقه المقيت .

كان جواسيس إيدن وعيونه يؤكدون له أن الشعب المصرى سيثور فى وجه حكومته عقب إلقاء أول قذيفة على القاهرة ، وقد أغارت الطائرات الإنجليزية والفرنسية على القاهرة والإسكندرية ومدن القناة إغارات وحشية ، فماذا كان رد الحكومة المصرية على هذا العدوان ؟ قامت بتوزيع الأسلحة على الشعب كله ، وهب الشعب ينتظر إيدن وجنوده ومواليه وجنوده ليدافع عن شرف وطنه ، ويقاتل ليحافظ على استقلاله الذى ناله بعد كفاح السنين .

وخرج عبد الناصر يوم الجمعة فى سيارة مكشوفة إلى الجامع الأزهر بعد أن وزع على الشعب السلاح ، فلم يثر أحد فى وجهه كما زعم الجواسيس الخائنون ، بل استقبله الناس استقبالا حماسيا حارا أكد التفافهم حوله وتصميمهم على خوض المعركة معه حتى يكتب الله لهم النصر على المعتدين.

لا شك أن ذلك الاستقبال الرائع أحنق إيدن وحلفاءه ، وزاد فى حنقه الاستقبال المهين الذى قابله الشعب البريطانى به وهو فى طريقه إلى مجلس العموم بعد أن أنذره حزب العمال بالإضراب .

ورأت جانيت إيدن بعين خيالها وهو يسير فى شوارع لندن مكفهر الوجه ، ترن فى أذنيه استقالة وزير الدولة الشاب « أنتونى ناتنج » الذى أجرى مفاوضات الجلاء مع مصر : « كنت قد قدمت النصائح بشكل خاص وقوى ضد قرارات الحكومة وإجراءاتها الخاصة بالحرب التى تدور الآن بين مصر وإسرائيل ، ولهذا فإنى صادق الشعور بأنه لم يعد فى استطاعتى أن أدافع عن موقف الحكومة سواء فى البرلمان أو الأمم المتحدة ، وعلى ذلك فليس لى خيار فى أن أطلب إليكم أن تقبلوا استقالتى » .

ورأت موليه فى شوارع باريس وهو غاضب بعد أن تكتل الحزب الشيوعى مع الحزب الاشتراكى وقررا أن يتبعا خطة موحدة لمقاومة سياسته العدوانية .

وفكرت فى موقف مصر .. إنها صمدت أمام إسرائيل وفرنسا وإنجلترا أسبوعا ، بينما ركعت فرنسا كلها منهزمة فى الحرب العالمية الثانية أمام النازى فى أقل من هذه المدة .

أذاعت الصحف البريطانية أن فرقة بريطانية وفرنسية سريعة تقف على بعد خمسة عشر ميلا من بور سعيد وهى مؤلفة من ١٨ ألف رجل ينتظرون الأوامر للنزول إلى أرض مصر ، وأن ثلاثة آلاف من جنود المظلات البريطانيين والفرنسيين ينطلقون من قبرص على ظهر البوارج الحربية ، وأن مقدمة هذه القوة مؤلفة من ألفى رجل — من الرماة البحريين الفدائيين الذين عهد إليهم احتلال بور سعيد . إن كل المصادر تؤكد أن القوات احتشدت فعلا استعدادا لاحتلال

مصر ، فإيدن مصمم على أن يستمر فى مغامرته حتى النهاية . كل شىء يؤكد ذلك ، إن محطة صوت بريطانيا منذ أعلنت نبأ أول غارة جوية على القاهرة أكدت تصميم الإنجليز على العودة إلى مصر ، فقد أذاعت عقب النبأ مباشرة أغنية : « راجعة . وحياة عنية راجعة » .

هل ستثنى إيدن عن عزمه المعارضة الشديدة لسياسته الخرقاء المنبعثة من كل مكان ؟ روسيا لا تؤيد هذا العدوان وقد احتجت عليه ، وأمريكا تقاوم الروح العدوانية فى فرنسا وبريطانيا ، والهند تهدد بالخروج من الكومنولث ، ويوغسلافيا وإندونيسيا والصين وكل شعوب العالم استنكرت هذا العدوان .

إن اللورد آتلى زعيم حزب العمال السابق صرح قبل أن يركب الطائرة إلى كراتشى بأن أول عمل يجب أن يحدث فى قناة السويس هو : وقف هذا الجنون !

وكرت ذاكرة جانيت إلى يوم الخميس ، إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة . لقد تقرر فى ذلك اليوم وقف إطلاق النار ولكن إيدن فى عناد يصمم على عدم احترامه ، إنه قرر أن يقضى على اليقظة التى انتابت الشرق الأوسط ، أن يكتم أنفاس القومية العربية قبل أن يشتد عودها . فيقدم همرشولد سكرتير عام الأمم المتحدة استقالته من منصبه ، إلا أن عبد الناصر يرسل له قائلا : إننا لا نريدك أن تستقيل ونريد منك أن تقف لتحارب معنا فى معركة الإنسانية والسلام .

وراح خيال جانيت يجرى وراء ما يحدث فى مجلس العموم ، فقد رفض إيدن قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار على الفور فى مصر .

ومع دوى قنابل الطائرات وقذائف الأسطول وما بقى من المدافع الساحلية والمدافع المضادة للطائرات راحت تدوى فى أذنيها كلمات جيتسكيل زعيم حزب العمال « ما من شك فى أن ما فعلته بريطانيا من التدخل ضد مصر التى اعتدت عليها إسرائيل ، وضرب المدنيين والمنشآت بالقنابل إن هو إلا حماية اللص وقتل صاحب البيت ، إنى أطالب بحكومة جديدة ورئيس وزراء جديد » .

ورأت جانيت ميدان الطرف الأغر وبيفان يخطب فى الشعب البريطانى مندداً بما يقوم به إيدن من عدوان ، ورأت المتظاهرين ينطلقون إلى دوانج سنريت ، إلى

رئاسة الوزراء يطرقون بابها ، وخيل إليها أنها تسمع صيحات الغاضبين : « استقل يا سفاح .. اخرج يا مجرم ! » .

وسمعت صوت انفجار هائل فانطلقت تنظر ، فرأت طائرة قد توهجت فى السماء وانهارت لتسقط فى البحر ، فقالت فى ثورة :

ـــ من أجل ماذا يموت هؤلاء الشبان يا سفاح ؟! لماذا يموتون غرباء أيها الحاقد الجبان ؟ ما هو عزاء أمهاتهم عندما يحمل إليهن نبأ مصرع فلذات أكبادهن ، عندما يقال لهن إن أبناءهن لقوا حتفهم فى حرب عدوانية ، فى حرب ظالمة ليس لها سند من الشرف أو الأخلاق ؟ ماتوا فى سبيل رفعة شأن النذالة ، فى سبيل إطفاء نار حقد اندلعت فى صدر حاقد كان من سوء حظ إنجلترا أن أصبح رئيسا لمجلس وزرائها .

وسارت فى الغرفة وهى غاضبة وضربت كفها بقبضتها وهى تقول :

ـــ ما من عاقل رشيد يرضى عن هذا العدوان .

وعادت إلى مقعدها وصدرها يعلو وينخفض فى غيظ ، وسرح خيالها فرأت المتظاهرين أمام رئاسة الوزارة يفسحون الطريق لرجال الدين ، وتقدم كبير أساقفة كنتربرى ودخل على إيدن وقال : إن المسيحيين فى بريطانيا قد انتابهم قلق شديد بسبب العدوان على مصر » .

وزاد حماسة المتظاهرين أصوات الغضب تتجاوز الحى والهتافات تردد : استقل يا سفاح .. استقل يا سفاح .

أطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين فى لندن .

وقفز خيال جانيت إلى العراق ، رأت نورى السعيد يطلق الرصاص على الهاتفين لمصر ، أحنقه أن صمد غريمه فى المعركة ، وخشى أن تخفق المؤامرة التى اشترك فى تدبيرها والتى وسوس بها فى صدر إيدن أيام أن كان ضيفا عليه فى لندن .

واختلطت الصور فى رأسها حتى إنها كانت ترى إيدن فى العراق يطلق الرصاص على العراقيين ونورى السعيد يطلق الرصاص فى إنجلترا على الإنجليز وبن جوريون يطلق الرصاص على الناس أجمعين !

وشبت حرائق فى حى العرب واندلعت ألسنتها وارتفع صراخ النساء

والأطفال حتى غطى على هزيم القنابل وقصف المدافع . ووقفت جانيت تنظر وهى ذاهلة ، وإذا بأصوات قوية ترن فى أذنيها تغطى على كل أصوات الرعب والهلع التى تشق الأجواء وتمزق أقسى القلوب .

راح صوت بيفان يرن فى أغوارها كأنما كان صدى صوت يتردد فى كهف عميق : أنت لست أقوى الحيوانات فى الغابة .. أنت لست أقوى الحيوانات فى الغابة .

وارتفع صوت جيتسكيل محذرا : « إن هذا العدوان الذى يتستر بعمل بوليسى هو غدر لا يؤمن به أحد . ولا شك فى أنه ستتبعه أعمال عدوانية كثيرة فى العالم . وسنكون نحن أكثر الناس تعرضا لهذا العدوان الذى بدأته الحكومة » .

وغطت صفحة ذهنها صورة إيدن وهو يغطى وجهه بيديه خجلا وعارا فصاحت فيه : يا سفاح ! يا سفاح !. ثم دارت على عقبيها وراحت تغدو وتروح فى الغرفة تكاد تنفجر من الغضب وهى ترى ألسنة النيران تتراقص وتعلو لتبلغ عنان السماء .

وعادت صورة إيدن تحتل كل تفكيرها فصاحت فيه فى ثورة :

— أنت لست أقوى الحيوانات فى الغابة .

وانطلق طوربيد هز المدينة ، فسقطت جانيت على الأرض وسقطت إلى جوارها مذكراتها ، وظلت لحظات وهى شاردة ثم نهضت حانقة والمذكرات فى يدها ، وكأنما أرادت أن تثأر من هذه الوحشية القاسية فأطلقت لخيالها العنان ، راحت تتصور نسف أنابيب البترول فى قطر والبحرين وبنى غازى وسورية واندلاع النار فى خزانات وقود القوات البريطانية المعسكرة بالدول العربية ، وانفعلت بأفكارها ورأت على أضواء النيران التى كانت تعلو فى الجو كأنياب الكلاب صورة واضحة للمستقبل ، فراحت تكتب فى مذكراتها : « اليوم أصبحت الوحدة العربية حقيقة واقعة » . وطافت بذهنها صورة نورى السعيد وهو يطلق الرصاص على طلبة الجامعات والشعب العراقى الذى تظاهر ليعلن تأييده لمصر فلم يهتز إيمانها بالفكرة التى وضحت فى ذهنها بل راحت تكتب فى

إصرار : « اتحدت الشعوب العربية وستسحق كل من يقف فى سبيلها من ساستها » .

واشتدت وطأة الغارات على الحى العربى ، واندكت الدور على سكانها والنيران تندلع لتحرق كل شىء ، والتمعت فى ذهن جانيت فكرة انقبضت لها : أوضعت الخطة لإبادة الحى العربى وإحراق كل ما فيه ومن فيه حتى إذا ما نزلت القوات المعتدية إلى الأرض أمنت من الأمراض والأوبئة ؟ وصاحت فى غضب :

ـــ هذا إجرام . ما أبشع هذا لو كانت هذه هى الخطة ؟ بل هذه هى الخطة المجرمة ، إبادة الحى العربى كله وإحراق الموتى حتى لاتنبعث من الجيف الروائح الخبيثة وأفتك أنواع الأوبئة . ماذا كان يقول العالم لو كانت هذه هى خطة هتلر أيام كان يدك لندن بطائراته وصواريخه الموجهة لو أنه استخدم « النابالم » الذى يحرق كل ما يسقط عليه ويشعل فيه النار الحامية ؟ ولكن النابالم لم يكن قد اكتشف أيام هتلر ، إنه هدية حلف الأطلنطى للشعب الوادع الأمين ، للشعب الذى وجد نفسه فجأة هدفا لجيوش دولتين عظيمتين ودولة رعديدة قبلت أن تكون مخلب قط لتبدو أسدا من الأسود التى تكشر عن أنيابها فى الغابة .

وانتفضت جانيت وذهبت إلى الشباك ومدت عينيها إلى السماء وراحت تصيح فى الطائرات :

ـــ أنتم مخدوعون . مخدوعون . لحساب من هذا العدوان ؟ استقل يا إيدن ، استقل يا من جللتنا جميعا بالعار .

وسمعت صوت طائرة منقضة وإطلاق رصاص مدافعها الرشاشة ، فراحت تقلب وجهها فى المكان فرأت طفلا صغيرا فى وسط الطريق يبكى ويرتجف من الفزع والرصاص يتساقط من حوله ، فأحست كأن قلبها يكاد ينخلع خوفا عليه ، ودارت على عقبيها واندفعت تهرول ولم تعد تشعر إلا بالخطر الذى يحيط بالطفل البرىء من كل جانب .

ووقفت سيارة توفيق أمام البيت وقفز منها يحتمى بالجدران من القذائف والرصاص المنهمر بغير حساب ، خرج عبود من السيارة ، وفيما هو يغادرها لمح الطفل الصغير وهو يبكى مفزوعا ، فانقبض صدره وخطر له أن يجرى إليه

ليحمله ويفر به من الموت الذى يريد أن يتخطفه ، بيد أن الضرب اشتد فوقف مترددا لحظات وهو حانق على نفسه ذلك الخور الذى يسرى فى أوصاله وهمس فى جوفه هامس : « لو أن ذلك الطفل كان ابنك حسينا أكنت تتردد هذا التردد الجبان ؟! » وقبل أن يقرر شيئا كانت جانيت تندفع وسط القذائف والانفجارات إلى حيث كان الطفل وقد وقف توفيق يرصدها فى دهش وعبود يرقبها فى إعجاب يشوبه حسد ، كان يتمنى لو أنه هو الذى انطلق لينقذ الغلام .

ومالت جانيت على الطفل الصغير وخطفته وهمت بأن تعود به وهى تحمله ، وإذا بشظية من شظايا القنابل تصيبها فى رقبتها فتصرخ صرخة هائلة ثم تسقط هى والطفل على الأرض تتخبط فى دمائها .

واندفع توفيق وعبود إليهما وقد نسيا كل شىء عن الغدر الرهيب الذى يلقى المتفجرات ليحصد أرواح الأبرياء ، وحمل توفيق جانيت على ذراعيه والتقط عبود الطفل وضمه إلى صدره وراح يحميه بكل جسمه من شظايا القنابل والمدافع والرصاص المنهمر من كل مكان .

وسار كل منهما بحمله إلى البيت ، توفيق يتمزق قلبه أسى ويملؤه خوف من أن تكون إصابة زوجه قاتلة ، وعبود زائغ البصر يترقب وقد تركزت كل مشاعره على أن يبعد ذلك الطفل البرىء عن جحيم الغارة الكاسرة .

وأقبلت أم وهى تجرى فى ذهول وتصيح فى ولولة :

— ابنى ! ابنى !

وراحت تدور فى الطريق وتتلفت دون أن تحفل بالانفجارات وأصواتها المرعبة ، ولمحت عبود يحمل ابنها فانطلقت إليه وأخذته منه فى لهفة ، وضمته إليها وراحت تمطره بقبلاتها وهى تغمغم :

— ابنى ! حبيبى !

وغسلت دموعها وجهها .

وراح توفيق يصعد فى السلم وهو واله حزين ، وسار عبود خلفه وهو لا يدرى ماذا يفعل . كانت الدماء تسيل غزيرة من رقبة جانيت على ذراع توفيق

وترسم خطا على الدرج الرخامى الأبيض ، وفى مثل لمح البصر كان عبود يرى بعين خياله أحواض الملح المترامية ، سهوله البيض الحبيبة ، قد غمرت بدماء تفور كما يفور الماء فى القدور فنزل بصدره حزن ثقيل .

ودخل توفيق مسرعا إلى غرفة النوم وعبود فى أثره ، ووضع جانيت فى السرير ثم حاول أن يوقف تدفق الدماء من رقبتها بيده دون جدوى ، غرقت يده بالدماء وسالت على الفراش .

وراح عبود يتلفت وهو فى ذهول وخوف ، فرأى فوطة على حاملها فخطفها وناولها لتوفيق الذى راح يكتم بها الدماء المتدفقة فى غزارة .

وفتحت جانيت عينين واهيتين ثم غمغمت فى صوت خافت :

— قاوموا هذا الطغيان .

وزفرت زفرة أخيرة ، ومال رأسها وألقى على الوسادة دون إرادة ، فصاح توفيق فى هلع :

— جانيت ! جانيت !

وراح يمرغ وجهه فى دمائها .

ووقف عبود ينظر فأحس وقدة نار فى حلقه وقد تحجرت دموعه فى عينيه ، وشعر برغبة شديدة فى أن ينفس عن الآلام المبرحة التى تغشى روحه وتعذب فؤاده فذهب إلى النافذة ومد بصره إلى الطائرات التى كانت تتدفق على بور سعيد فى أسراب متتابعة . وصاح فى غضب :

— وحوش ! وحوش ! قتلتم يا مجانين أختكم . قتلتم الخير فيكم . لا . لم يعد فى الدنيا خير . لا . لم يعد فى الدنيا سلام .

وانطلق ثائرا ليخوض مع إخوانه غمار المعركة .

— ٤٢ —

كانت بهية تنتظر عودة زوجها ، انتصف الليل ولم يعد عبود ، والمدينة غارقة فى الظلام والغارات مستمرة والانفجارات تزلزل المدينة ونيران الحرائق تشب

وتتطاول وتنير ما حولها بنور أحمر يغشاه سواد الدخان .

ونظرت إلى وليدها الغارق فى نومه فشاع فى صدرها الحنان ، وتحركت عواطف الأمومة فمالت عليه وقبلته قبلة مسحت كل المخاوف التى رانت على نفسها القلقة الحائرة وأنزلت عليها سكينة وأمنا .

وسمعت جلبة وضوضاء وأصواتا حادة عالية منبعثة من الشارع ، فهرعت إلى الشباك ونظرت من خلف الزجاج فألفت الشيوخ والنساء والأطفال قد غادروا دورهم وانطلقوا هائمين على وجوههم لا تدرى إلى أين يذهبون ؟!

وتدسس الخوف إليها وعاد ليستولى على كل مشاعرها فوقفت شاردة حائرة لا تدرى ماذا تفعل ، حتى إذا ما أحست البرد يسرى فى بدنها عادت إلى ابنها وراحت تضع فوقه أغطية أخرى خشية أن يصل إليه زمهرير الشتاء الذى كان يخرم عظامها .

كان بريئا براءة الملائكة ، فغمغمت فى انشراح وقد تفتحت نفسها :

ــ والنعمة الشريفة أنت جميل يا حسين .

ولم تدم سعادتها طويلا فقد سقط طوربيد هز الحى كله وخطف مهجتها ، وخطرت لها فكرة كان وقعها على نفسها أشد من وقع الطوربيد لو أنه سدد إلى قلبها ، ماذا يكون حالها لو أصيب حسين فى هذه الغارات الطائشة ؟ وكأنما كان ما طاف بذهنها حقيقة واقعة ، فخطفت ابنها من فراشه فى فزع ، وضمته إلى صدرها فى حنان ، ومالت عليه تحميه بكل كيانها وعواطفها وخفقات فؤادها .

وأخذت تتلفت فى خوف وأرهفت حواسها ، فراحت أذناها تلتقطان أزيز الطائرات وطلقات الرصاص وصرير الباب ، فقالت فى صوت متهدج مخنوق :

ــ من ؟

ــ أنا عبود .

ودخل عبود إلى حيث كانت واقفة وحسين بين أحضانها ، ودنا منها فرأته يحمل بندقية وفاحت منه رائحة البارود والعرق ، فقالت له :

ــ ما الذى أخرك حتى هذه الساعة ؟

فلم يفكر فى أن يرد عليها وقال لها :

ـــ هيا يا بهية وخذى ملابسك وملابس حسين .

ـــ إلى أين ؟

ـــ كل الشيوخ والنساء والأطفال تركوا المدينة وخرجوا ليبتعدوا عنها .

ـــ لماذا ؟

ـــ أذاع راديو لندن وصوت إنجلترا وإسرائيل أن جيوش إنجلترا وفرنسا ستنزل إلى بورسعيد ، وطلبت من الأهالى الابتعاد عن مواقع الغزو .

ـــ ستذهب معنا يا عبود ؟

ـــ لا . سأبقى مع إخوانى هنا .

ـــ سأبقى معك ، لن أترك بيتى أبدا .

ـــ لا بد أن تخرجى مع الخارجين .

ـــ لا سأبقى هنا . سأبقى هنا .

ـــ بل لا بد أن تخرجى ، هيا يا بهية ولا تضيعى وقتا .

وراح يخرج ثيابها وثياب ابنه وبهية تصيح :

ـــ عبود ! لن أغادر بيتى . لن أغادر بيتى .

ـــ ستذهبين يا بهية من أجل حسين .

ولان قلبها وكسرت مخاوفها حدة عنادها فقالت :

ـــ وإلى أين نذهب ، ولمن ستتركنا ؟

وأحس غصة فى حلقه ودمعة تجرى إلى عينيه ، ولكنه راح يجاهد ليكبح عواطفه وقال :

ـــ ستكونين مع أهل حينا ، مع فتحية وأمها وأخواتها ، وإن هى إلا أيام حتى نلحق بكم لنعود معا إلى دورنا .

ولاحت لها بشاعة ما هى مقدمة عليه فصاحت فى فزع :

ـــ لا . لا . سأبقى هنا .. سأبقى هنا .

ـــ بقاؤك هنا مستحيل ، هيا يا بهية .

ولف حسينا فى بطانية لفا محكما وحمله بين ذراعيه كأنما كان يحمل كنزا ثمينا، وراح يدفع بهية بكتفه فى رفق فسارت مطرقة، حتى إذا ما بلغت الباب فاضت شجونها وانفجرت أحزانها فتعلقت برقبة زوجها وأخذت تنشج بالبكاء وتصيخ:

— لا تتركنا يا عبود. عبود. دعنا معك. أرجوك.

وراحت تقبله ودموعها تبلل خديه، فأشعلت فى حشاياه نار حامية وقال لها فى رقة:

— هيا يا بهية. لن يطول فراقنا.

وبعدت عنه، فرفع ابنه وقبله قبلة كانت ذوب نفسه الحانية، ثم راح يهبط فى الدرج وبهية إلى جواره حزينة والهة.

وساروا فى الطريق وقد سدته أنقاض الدور المتهدمة، فراح عبود يعاونها على أن تجتاز الأحجار التى تعترض سبيلها، وكان مشفقا عليها فما أقل الأيام التى مرت منذ أن وضعت وليدها، كان يحلم بأن يحتفل بمولده احتفالا كبيرا فإذا بأعداء السلام يأبون إلا أن يعتدوا على الآمنين الوادعين ليزهقوا أرواحهم أو يرغموهم على أن يفروا من الطغيان ويهيموا على وجوههم.

ورن فى أذنيه صوت جانيت وهى تجود بروحها: « قاوموا هذا الطغيان »، فأحس أسى وامتلأ حنقا على المعتدين الذين يطفئون فى قسوة آمالا جميلة مشرقة، ويفرقون بين قلوب محبة هائنة.

وانطلقوا فى الظلام وقد غشى عبود وجوم وقد أخذت بهية تقنع نفسها بأنه لولا ابنها ما قبلت أبدا أن تقدم على هذه التضحية، ولحقوا بأفواج الشيوخ والنساء والأطفال المنطلقين إلى المنزلة وخالطوهم، فأحست بهية بعض الراحة، ورأى عبود أن يترك زوجه وابنه مع الأعزاء الذين أرغموا على الخروج من دورهم، فمال على ابنه وقبله قبلة طويلة وهو يضمه إلى صدره، ثم مد يديه إلى بهية، ونظرت بهية إلى زوجها وإلى ابنها نظرات زائغة ثم مدت يدها وتناولت ابنها وهى فى ذهول، وقبل أن تضمه إليها كان عبود يضمهما هى وحسين إلى صدره ويقبلها فى لوعة، ثم ابتعد عنهما وقال فى صوت خافت:

— مع السلامة يا بهية . مع السلامة يا حسين .

ودار على عقبيه وبهية تنادى :

— عبود ! عبود !

واندفع لا يلوى على شيء وصوت بهية يرن فى أذنيه :

— عبود ! عبود !

وابتعد عنها واختفى الصوت فى ضجيج الأصوات وبكاء الأطفال وسعال الشيوخ والعجائز واللعنات التى كانت تنطلق من الأفواه التى فاضت بالمرارة ، بيد أن صورتها وهى تحتضن حسينا كانت تملأ ما بين الأرض والسماء فتؤجج نار حقده على من بيتوا الغدر وأصروا على العدوان .

وبزغت الشمس وعبود فى طريقه إلى مطار الجميل فقد طلبت إذاعات الأعداء من الأهالى أن يبتعدوا عن المطارات وعن مواقع نزول القوات ، وكان رد أهالى بور سعيد وقوات الجيش والبوليس أن هرعوا بأسلحتهم إلى تلك الأماكن ليكونوا فى استقبال المغرورين الذين قدّروا أنهم ذاهبون إلى نزهة حربية !

وبلغ الجبانة فألفى الأهالى قد اختبئوا بين القبور وفى أيديهم أسلحتهم وعيونهم على مطار الجميل ينتظرون أعداءهم ، فأسرع ليأخذ مكانه ، وقابل وهو فى طريقه إلى ما يختفى وراءه صديقه بهنس فى ثيابه الرسمية فربت على ظهره وقال :

— صباح الخير .

— صباح الخير يا عبود .

وتلفت لعله يرى أحدا من أصحابه ولكنه لم ير منهم أحدا . كان الشيخ حسن بين المدافعين عن بور فؤاد ، وقد قابل هناك سليمان وهو يحمل سلاحه وهم بأن يحييه ولكن التحية لم تجر على لسانه ، ألجمته فكرة أنه إنسان مستهتر ينفق ما يجود عليه الخيرون فى الشراب دون أن يرحم ضعف قلبه .

وكان فانوس ومرجان فيمن خرجوا للدفاع عن الرسوة ، أما توفيق فقد كان حائرا لا يدرى أين ينتظر ، كان ينتقل من مكان إلى مكان فى ثورة يتلهف على لقاء من مزقوا قلبه ، لعله يطفئ نار الحقد المتأججة فى صدره .

وجاءت الطائرات المغيرة وهى آمنة بعد أن سكتت البطاريات المضادة للطائرات وبطاريات السواحل بعد تدميرها، وأخذت تمهد للغزو بإلقاء قنابلها الحارقة وشديدة الانفجار والنابالم، وتنقض على الناس وتطلق عليهم مدافعها الرشاشة لتلقى الرعب فى قلوبهم.

وظهرت فى سماء بور سعيد مع الشمس الصاعدة طائرات ضخمة تحمل جنود المظلات، اتجه بعضها إلى بور فؤاد وراح بعضها يحوم حول مطار الجميل وحلق بعضها فوق كوبرى الرسوة، وإن هى إلا دقائق حتى كانت مظلات الشياطين الحمر تملأ السماء، وراح عبود مع إخوانه يطلقون الرصاص على الهابطين.

كان بهنس يسدد رصاصاته فى إحكام وكانت طلقاته تنفذ إلى القلوب، وبلغ بعض الشياطين الحمر أرض المطار سالمين فأطلقوا نيرانهم صوب المدافعين وراح الفريقان يتبادلان إطلاق الرصاص، وأراد الشياطين الحمر أن يتحصنوا بسور المطار بيد أن المدافعين راحوا يشددون عليهم الهجوم ويصبون عليهم قذائفهم صبا.

وأصيب رجل فى كتفه فمال على الحجر الضخم الذى كان يختبئ خلفه، وهم عبود بأن يذهب إليه ليضمد جراحه، وقبل أن يغادر مكانه وقعت عيناه على صديق الفرارجى يتقدم إليه ويضعه فى رفق فوق النقالة ويحمله هو وزميل آخر ليبتعدا به عن أرض المعركة.

وتقدم بهنس خطوات وأطلق رصاصتين سقط بعدهما جنديان من الشياطين الحمر يتخبطان فى دمائهما، وتقدم خلفه المدافعون، وأيقن الهابطون من الجو أن نهايتهم دنت بعد أن فتحت عليهم نيران جهنم، فطفقوا يضربون المتقدمين للإجهاز عليهم فى جنون اليائس فسقط بعض الصناديد مثخنين بالجراح، وشعر عبود بأن طيفا مر به وانثنى على الجرحى يعالج جروحهم، فالتفت فى سرعة وما ارتد إليه طرفه حتى هتف فى صوت خافت:

— إنصاف.

ورمقته بنظرة خاطفة وسرعان ما عادت إلى العناية بالذين اشتعلت بطولاتهم وتألقت بعد أن ألقوا بأنفسهم فى جوف المعركة كما يتوهج التبر إذا ما وضع فى النار.

وفى ذلك الوقت الذى احتدم فيه القتال كان الفرنسيون يلقون جنود المظلات من الجو فى بورفؤاد ، وأخذ المدافعون يتلقفونهم ويصرعونهم وهم معلقون بين السماء والأرض .

ووصل بعض الهابطين إلى الأرض سالمين وتأهبوا للقتال ، وإذا بالشيخ حسن يرتبك ولا يدرى ماذا يفعل غير إطلاق الرصاص . كان سليمان إلى جانبه وكان يسدد طلقاته فى مهارة وثبات حتى إن الشيخ حسن حسده فى نفسه واستكثر على سكير مثل هذه الصلابة التى بدت منه ، ترى ماذا كان يفعل لو لم يكن قلبه ضعيفا ؟

وصاح سليمان صيحة هائلة ارتج لها المكان . هتف وهو يندفع وحده صوب الأعداء :

ـــ الله أكبر ! الله أكبر !

وانطلق المدافعون خلفه وهم يكبرون تكبيرات أنزلت الرعب بقلوب الفرنسيين ، واندفع الشيخ حسن يكبر تكبيرة فتح وكان فى قرارة نفسه يتمنى لو أنه هو الذى بدأ بالتكبير .

وأكبر فى نفسه سليمان السكير ضعيف القلب .

وراحت الإذاعة تذيع على الشعب : « فى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم أنزلت قوة من جنود المظلات فى بورسعيد فى ثلاثة مواقع هى : « الجبانة وبورفؤاد ومطار الجميل » وقد أبادت قوات الجيش والبوليس والشعب جنود العدو عن آخرهم .

وأقبلت طائرات نقل الجنود وراحت تسقط فوق كبرى الرسوة موجة أخرى من جنود المظلات ، فخف المدافعون يستقبلون الهابطين برصاصهم ، وشد انتصار إخوانهم فى مطار الجميل على الشياطين الحمر أزرهم فأخذوا يطلقون النيران فى ثقة وثبات وهم يعلمون أهمية الدفاع عن مواقعهم ، ففى هذه المنطقة محطة المياه ، فإذا ما استولى عليها العدو تحكم فى الشريان الذى يمد المدينة كلها بالحياة .

واندفع المدافعون إلى حيث سقط جنود المظلات ليجهزوا عليهم ، فطفقوا

بركزون نيرانهم الحامية على الأجساد التى ارتطمت بالأرض، ولم يهب جندى واحد من الجنود الذين تساقطوا كالمطر من السماء على قدميه، ولم يسدد إلى صدور المهاجمين رصاصة واحدة. كان ذلك شيئا يدعو إلى الدهش، فتقدم فانوس فى حذر ومرجان يحمى تقدمه وراح يتحسس أحد الأجسام التى غطت الأرض فظهرت له الخدعة، إن ما أسقط من الطائرات لم يكن جنودا بل كان دمى ترتدى ثياب الجنود للتضليل، وصاح فانوس:

ـــ خدعونا.. خدعونا.. هيا يارجال لنعود إلى مواقعنا.

وقفل الرجال عائدين ليحتلوا أماكنهم قبل أن يستغل العدو خدعته.

وأقبلت موجة أخرى من الطائرات وراحت تسقط شياطينها الحمر على الجبانة، فراح المتحصنون بالمقابر يركزون النيران عليهم ليوردوهم موارد الهلاك قبل أن يلمسوا بأقدامهم النجسة الأرض الطاهرة، وراح عبود يطلق الرصاص فى ثبات بعد أن ألف جو المعركة، وعلى الرغم من برودة الجو تفصد العرق من وجهه وأخذ يسقط فى عينيه، فكان يمسحه بذراعه ثم يعود ليستأنف اصطياد الهابطين ليلقوا مصائرهم.

وأحس يدا تمتد لتجفف العرق المنبثق من وجهه ليجرى على صدره، فالتفت فألفى إنصاف إلى جواره فى قلب المعركة، فقال لها:

ـــ شكرا لك. أرجوك ياإنصاف أن تبتعدى عن رصاصهم.

فقالت وهى تذهب إلى جريح سقط على بعد خطوات منها:

ـــ أتخاف علىّ؟

فقال وهو يسدد طلقاته إلى الأعداء:

ـــ إننا فى حاجة إليك.

واستمر القتال فى كل مكان عنيفا مريرا قاسيا، وسالت دماء المخدوعين الذين قضوا نحبهم غرباء لا يجدون من يصلى عليهم، وسالت دماء زكية دماء جرت فى سبيل كرامتها، دماء الشهداء.

وراحت سيارات تطوف بالمدينة ومكبرات الصوت المركبة بها تعلن فى

حماس يهز المشاعر ويمد القلوب بالقوة .. كانت بصيحاتها تجلجل هاتفة :

ـــ أيها الأبطال ! لقد أبدنا العدو إبادة كاملة . كونوا على استعداد للقاء عدو كم إذا ما عاد ، لقد بدأت المعركة والنصر لنا بإذن الله . هيا إلى الكفاح . إلى الكفاح يا أبطال !.

وخف أبطال بور سعيد ليقيموا المتاريس فى الشوارع وليتأهبوا لخوض غمار معركة الشرف والكرامة والفداء .

وفى مجلس العموم البريطانى وقف السر أنطونى إيدن يعلن فى خيلاء المغرورين :

ـــ إن القوات البريطانية والفرنسية تنزل إلى أرض مصر فى سهولة ويسر دون أن تلقى أية مقاومة .

وتلفت أعضاء البرلمان البريطانى بعضهم لبعض ، كانت نظرتهم تستنكر هذا القول ، وتجاوز الاستنكار النظرات فقام المستر دايفز عضو حزب العمال وطلب الإذن بالكلام .

ووقف دايفز وفى وجهه ثورة وفى نظراته التى كان يواجهها لإيدن احتقار ثم قال :

ـــ سيدى الرئيس .. هل من الممكن أن تدلنى على تعبير برلمانى أستطيع أن أستعمله لأقول ما معناه أن رئيس وزراء الإمبراطورية كذاب !

— ٤٣ —

سرى بين أبطال بور سعيد نبأ خديعة العدو للمدافعين عى الرسوة بإسقاط دمى وهياكل على هيئة جنود وانطلاق المدافعين فى أثر تلك الدمى . وانتهاز العدو هذه الخديعة فأسقط جنودا حقيقيين خلف القوات الشعبية التى هبت كالعاصفة للقضاء على من حسبتهم الشياطين الفرنسيين .

وسمع توفيق أن الهابطين بالمظلات يتأهبون لاحتلال محطة المياه وكوبرى الرسوة فانطلق يعدو كالمجنون ، أحس الخطر الداهم الذى يهدد المدينة كلها لو

وقعت خزانات المياه العذبة فى أيدى الفرنسيين ، وراح صوت يرن فى جوفه : « الموت أهون من أن أرى الإنجليز والفرنسيين منتصرين . الموت أهون من أن أرى الإنجليز والفرنسيين منتصرين . الموت أهون من أن أرى ... » .

وملأت صورة جونس رجل التأمين الأصلع رأسه ، ورآه بعين خياله يضحك فى لندن ضحكته البغيضة وهو يقول : لقد هزمنا المصريين ، فثارت الدماء حارة فى عروق توفيق وعزم على أن يقاتل حتى النصر أو يموت .

ووصل إلى الرسوة ، كان المدافعون الذين خدعهم الفرنسيون قد عاودوا القتال ضد الجنود الذين أسقطوا خلف ظهورهم ، فانضم إلى إخوانه وراح يطلق الرصاص على الجنود الذين ثبتوا أقدامهم على الأرض والطائرات تمدهم بالعتاد وأدوات القتال .

وراح توفيق يتقدم وهو يسدد الرصاص إلى صدور الأعداء وصوت جانيت يدوى فى أذنيه : « قاوموا هذا الطغيان » وما لبث أن سمع صوت عبود يقول : « قتلتم الخير فيكم » . ولم يشف الرصاص المتدفق من البندقية جرح قلبه فراح يصيح فى انفعال :

ـ يا كلاب . قتلتم خير من فيكم ، جانيت ! جانيت ! جانيت !

وتأججت نيران الثورة فى صدره ، فظل يصيح فى حقد : « موتوا !. موتوا !. موتوا » .

واشتد القتال واحتدم وراحت القذائف تزمجر ، وخاض الموت المعركة وراح يحصد الأرواح حصدا ، وضغط الأعداء على المدافعين فتقهقروا ليكونوا بعيدين عن الرصاص المنهمر . وظل توفيق ثابتا يطلق رصاصه فى عناد وقد قرر ألا يزول من مكانه حتى لو مزقته قذائف الأعداء شر ممزق .

ورأى مرجان أن توفيقا قد ثبت كليث يدافع عن عرينه ، فهرع إليه ووقف إلى جواره وطفق يطلق الموت من بندقيته ، والتقت عيونهما فى لمحة بصر بيد أنها كانت كافية للتعبير عن جلال المعانى التى تزخر بها ، فهم توفيق أن مرجانا يعاهده على أن يموتا معا أو يكتب الله لهما النصر على المعتدين .

وخف فانوس إليهما ووقف معهما يشد أزرهما: ورأى المدافعون ثباتهم فصاحوا صيحة رجل واحد: « الله أكبر! الله أكبر!، وتقدموا ليكروا على الأعداء ليطردوا من الأرض التى احتلوها ويقضوا عليهم ».

ودارت رحى معركة رهيبة: الفرنسيون مستميتون فى الدفاع عن أنفسهم، والمصريون أصروا فى عناد على أن يقضوا عليهم وعلى أن يطهروا بور سعيد منهم وألا يدعوا خزانات المياه تسقط فى أيديهم.

ومرت لحظات قلقة، إن هى إلا كرة واحدة وتصبح القوات الفرنسية كأمس الدابر، ودوت صيحات المدافعين تشق عنان السماء: « الله أكبر! الله أكبر! » وألقى الرعب فى قلوب من بقى من الفرنسيين.

ـــ اثبتوا يا رجال. النصر لنا.

ـــ الله أكبر! الله أكبر!

وأوشكت معركة الرسوة أن تنتهى بالنصر المبين، بيد أن طائرات الأعداء ظهرت فى السماء وراحت تلقى دفعة أخرى من الهابطين بالمظلات فوق كوبرى الرسوة وبور فؤاد.

وأطلقت مدافع الأسطولين الإنجليزى والفرنسى نيرانها وراحت تقصف المدينة قصفا شديدا، وجاءت أفواج من الطائرات تدك الحى العربى على من فيه وتضرب الأهالى برشاشاتها وتلقى النابالم لتشب الحرائق التى تحرق الدور وأجساد القتلى.

ولم يفت ذلك فى عضد المدافعين، بل زادهم إصرارا على القتال والذياد عن شرف بلادهم.

وانضم الهابطون فى الرسوة إلى إخوانهم الذين كاد الرعب يخلع قلوبهم، فصيحات التكبير تمزق أعصابهم ورصاص المصريين يحصد أرواحهم والتعب والنصب والكلال يكاد يودى بهم، فعاد الأمل فى الحياة إلى النفوس التى سرى اليأس إليها وأوشكت على البوار.

واشتد قصف أسلحة الدمار، وراح الفرنسيون يزحفون فى تؤدة وحرص

صوب خزانات المياه وكوبرى الرسوة، ويتقدمون وهم يترقبون، وسقط رجالهم على الأرض كأوراق الخريف، صرع خيرة جنودهم برصاص الذين أخذوا يشنون عليهم أقسى الهجمات وأمرها، ولم يحفلوا بفداحة خسائرهم فقد وطنوا العزم على احتلال المكان.

ورأى توفيق طلائعهم على بعد خطوات من محطة المياه فثارت ثائرته وامتلأ غضبا، فاندفع فى جنون ليرد المعتدين على أعقابهم، راح الرصاص يتدفق من فوهة مدفعه الرشاش وصيحات التكبير تنطلق من حنجرته فتدوى دويا هائلا يخلخل مفاصل الأعداء، وينزل الرعب فى قلوبهم:

— الله أكبر!. الله أكبر!

ونسى فى غمرة حماسته نفسه فراح يتقدم فى غير حرص، وأضحى على بعد خطوات من الأعداء فصار صيدا سهلا للجنود الفرنسيين الذين كانوا يرصدونه فى دهش واستغراب.

وصوب إليه أحدهم بندقيته فأصابه فى كتفه، وانبثق منه الدم الحار فلم يحس ما أصابه وظل فى إطلاق الرصاص فى عناد وصلابة، وسدد إليه جنديان آخران من الفرنسيين مدافعهما ليجهزا عليه ليستريحا من الصوت المجلجل الذى يلقى الرعب فى قلوبهم، وقبل أن ينطلق الرصاص من مدفعيهما كان رصاص فانوس ومرجان يستقر فى قلبيهما.

وظل توفيق فى زحفه المقدس وهو لا يشعر بما أصابه، وراح يهتف: تقدموا.. تقدموا.. أبعدوهم عن الخزان. أبعدوهم عن المياه.. يا أبطال بور سعيد. هذا يومكم.

وخارت قواه وأحس الأرض تميد به وكل شيء يتراقص أمام عينيه. فراح فى غيبوبة وانهار على الأرض.

وأخذ الفرنسيون يتقدمون فى بطء شديد، كانت مقاومة المصريين شديدة لا تلين لهم قناة، وكانت صيحات التكبير تفزع الأعداء الذين كانوا يذودون عن أرواحهم.

ورأى مرجان أن توفيقا أصبح تحت رحمة بنادق الأعداء ، فالتفت إلى فانوس وقال له :

ـــ احم تقدمى .

ـــ ماذا ستفعل ؟

ـــ سأبعد الباشمهندس عن أرض القتال .

وقبل أن يتحرك مرجان كان صديق الفرارجى يشق الصفوف فى شجاعة ورباطة جأش ، واندفع فى ثياب الإسعاف والمعركة دائرة إلى حيث سقط توفيق والرصاص يئز من فوقه وعن يمينه وعن شماله .

ومال صديق على توفيق وحمله وسار به ثابت الخطو إلى حيث يضمد له جرحه ليعود إلى الكفاح .

وأحنق القيادة المتحالفة ثبات قوات بور سعيد وقتلهم خيرة جنود الدولتين العظيمتين بريطانيا العظمى وفرنسا ، فصدرت الأوامر إلى الطائرات والأسطولين الواقفين عند مشارف المدينة بإطلاق نيرانها على الأهالى الذين حملوا السلاح لمقاومة الغزو مع رجال الجيش والبوليس ، فأخذت أمواج من الطائرات تشن غارات مستمرة على الحى العربى وتلقى قنابلها المدمرة وقنابلها الحارقة والنابالم وتهاجم السائرين فى الطرقات بمدافعها الرشاشة ، وطفقت مدافع الأسطولين تقصف المدينة قصفا شديدا فدكت الدور على سكانها وأشعلت النيران واختلطت صرخات الفزع بحشرجة الموت بانهيار الدور بصليل أجراس الحريق برنين عربات الإسعاف .

وهام الشيوخ والنساء والأطفال على وجوههم يحاولون أن يفروا من الموت ، بيد أن قذائف الطائرات كانت تبعثرهم أشلاء ، وتأججت النيران واندلعت ألسنتها لتبلغ عنان السماء ، والنساء مفزوعات بعد أن أحاط بهن سرادقها ، يهرولن دون هدف ويصرخن مفزوعات صرخات تفتت الأكباد فالنار ترعى فى أجسادهن .

وحلقت الطائرات فوق بحيرة المنزلة ، كان بعض الشيوخ والنساء والأطفال الذين خرجوا ليفروا من المدينة فى قوارب تحملهم إلى شاطئ البحيرة الآخر ، وكان

البعض ينتظرون أوبة القوارب لتحملهم بعيدا عن أرض المعركة .

والتفت المهاجرون إلى السماء فى ذعر شديد ، وضمت بهية حسينا إلى صدرها كأنما تحاول أن تحميه من غدر الغادرين ، وراح الشيوخ والنساء والأطفال يحاولون أن يفروا من الطائرات ، إلا أنها ألقت عليهم قنابلها وانقضت تحصدهم بمدافعها الرشاشة .

وانفجرت القنابل وطارت الأجسام فى الهواء وخر العزل صرعى وقد ارتسم الهلع فى وجوههم ، وألقيت القنابل على القوارب والمراكب الشراعية فسقط من فيها فى الماء والصراخ والعويل وصيحات الفزع تدوى فى الفضاء ، وغطت الدماء الزكية شاطئ البحيرة ولونت ماءها باللون الأحمر ، وزاد فى ضراوة المشهد انعكاس النيران المشبوبة على سطح الماء لكأنما نفخ فى الصور وكأنما البحيرة قد سجرت .

ولم يفت ذلك فى عضد المدافعين وظلوا مشتبكين فى قتال شديد مع الهابطين إلى بور فؤاد ومطار الجميل والجبانة وكوبرى الرسوة . وتمكن الفرنسيون بعد جهود مضنية من أن يحتلوا محطة المياه ، أصبحت الخزانات فى أيديهم فرأى قائد المظلات أن يساوم المدافعين عن بور سعيد بالماء الذى بات يتحكم فيه .

أرسل يطلب الاجتماع بالمسئولين فى المدينة ، فاجتمع الحكمدار ببعض مستشاريه وراحوا يتشاورون . كان من رأى البعض ألا يذهب إليه أحد ، وكان هناك رأى بأن ليس من وراء هذه المقابلة من ضرر ، ومن يدرى فقد يطلب قائد المظلات التفاوض على الرحيل ، وانتصر هذا الرأى .

فذهب خمسة من المدنيين والعسكريين على رأسهم الحكمدار وهم مدججون بالسلاح ، لمقابلة قائد القوات المحصورة وكانت لا تستطيع أن تتقدم خشية أن يتخطف أفرادها الموت الذى يطل من بنادق الصناديد الذين وقفوا فى وجه الغزو مكشرين عن أنيابهم .

واجتمع مجلس العموم البريطانى وكان الجو مكفهرا والجميع يتأهبون لمهاجمة إيدن والصياح فى وجهه : استقل يا سفاح . ودخل إيدن فى خيلاء وأعلن فى غرور :

— إن القوات البريطانية والفرنسية قد احتلت بور سعيد ، وإن قائد حاميتها

المصرى قد طلب شروط التسليم ، وإنه نتيجة لذلك توقف إطلاق النار فى السويس !

وذابت المعارضة ، ونسى الجميع ما كانوا يتشدقون به عن الأخلاق ، وبرزت روح الاستعمار الكامنة فى الجميع ، فدوت قاعة مجلس العموم بالتصفيق ، وقام جيتسكيل يقول :

— إن وقف إطلاق النار يدعو إلى الارتياح .

كان ذلك وهما ، فطلقات المدافع والقنابل والبنادق كانت تجلجل فى مطار الجميل والجبانة والرسوة وبور فؤاد .

وخرج المصريون بعد مقابلة قائد المظلات وهم فى دهش مما سمعوه ، قال أحدهم :

— إنه مجنون . كيف يطلب منا التسليم ؟!

وقال آخر فى سخرية :

— يهددنا بتدمير المدينة ! العزيمة فى الصدور لا فى الدور .

واستمر القتال وعادت الطائرات لدك ما بقى من الحى العربى ، وراحت القنابل الحارقة والنابالم والقنابل المدمرة تهوى على الأهلين ، وقذفت مدافع الأسطولين المدينة بقنابلها ، كانت الخطة تهدف إلى الانتقام من الأبطال الذين أذاقوا الغزاة الموت وإلى حرق جثث ضحايا العدوان حتى إذا ما نزل الجنود الفرنسيون والإنجليز إلى البر أمنوا من الأوبئة التى قد تفتك بهم .

وارتفعت الصيحات والصراخ والعويل وبكاء الأطفال ونحيب الشيوخ وولولة النساء وصليل أجراس الحريق ورنين أجراس الإسعاف ، والناس يهرولون مرعوبين مفزوعين لا يلوون على شىء ، وقد شبت النيران فى بعضهم وذاق بعضهم عذاب الحريق .

ومالت الشمس للغروب ، وأقبلت أفواج من طائرات الجنود وراحت تلقى فوق بور فؤاد والجميل إمدادات من الهابطين بالمظلات لتعزيز القوات المعتدية التى كادت أن تنهار أمام تصميم المدافعين على القتال العنيف .

وعلى ضوء الحرائق كان المدافعون يصوبون نيرانهم إلى الهابطين . وقد وصل

بعضهم إلى الملاحات فى بور فؤاد بعد أن جرت عليها دماء القوات التى أبيدت فى الصباح وعند الظهيرة ، وكانت ألسنة النيران تعكس على سهول الملح المختلطة بالدماء ، وصبغ الشفق الأفق بلون أرجوانى فبدا كأن الكون كله أتون نار متوهجة تعلوها ظلال من الدخان .

ورأى المدافعون عن مطار الجميل والجبانة أن القوات الهابطة فى المطار تتحصن فى حماية المغيرات التى تحوم فوقهم ، فأشار قادة القوات الشعبية باستدراج الهابطين بعيدا عن الطائرات التى تحميهم ، فراح المدافعون يتقهقرون ، فأطمع ذلك الشياطين الحمر فأسرعوا يقتفون أثرهم حتى إذا ما وصلوا إلى الجبانة كانوا قد وقعوا فى الشرك ، فالمكان هناك يضيق حتى ليتعذر على الطائرات تغطيه المهاجمين .

وفجأة يدوى صوت المصريين كهزيم الرعد :

— الله أكبر ! الله أكبر !

ويلتحم الفريقان فى قتال مرير ، ويشتد القتل وتسيل الدماء أنهارا ، ثم يتقهقر ما بقى من الشياطين الحمر ليعودوا إلى مواقعهم خلف أسوار مطار الجميل ليلعقوا جروحهم .

ووقف عبود يلتقط أنفاسه ، وأقبلت إنصاف تمسح الدماء التى سالت على وجهه ، وجاء رجل يسعى ويقول فى غيظ :

— أغار الأنذال على بحيرة المنزلة وقتلوا فى خسة الشيوخ والنساء والأطفال. جثث الأبرياء مبعثرة على الشاطئ هنا وهناك تفتت الأكباد . . وصاح عبود فى فزع:

— بهية ! حسين !

وراح يعدو كالمجنون ، وانطلقت إنصاف فى أثره .

ووصل إلى الشاطئ وألسنة النار تنير المكان ، ووقف ينظر مشدوها ويتلفت فى ذهول ، ثم اندفع إلى الجثث يقلبها يبحث عن زوجه وابنه الحبيب .

وراح يهتف والأسى يعصر قلبه :

— بهية ! حسين ! بهية ! حسين !

واستمر يجوس خلال الجثث . الرعب فى العيون والفزع ارتسم على الوجوه ،

أجساد مشوهة وأطراف مبتورة وأدمغة منشجوجة وبطون مبقورة وأمعاء منثورة ودماء كأنها ماء يمور .

وراح يخوض بقدميه فى الدماء ويتفرس فى وجوه الشيوخ والنساء والأطفال ضحايا الغدر الخسيس ، والغيظ يمزقه تمزيقا ، واستمر يهيم بين أشلاء الأعزاء وهو واله حزين ، ووقف أمام جثة امرأة احتضنت ابنها فى حرص شديد فخفق قلبه فى شدة ، ولم يستطع أن يصلب عوده فانهار إلى جوارها ومد يده يقبلها ، فندت منه صرخة هائلة مزقت السكون :

— بهية ! حسين ! ابنى .

وارتمى عليهما يمرغ وجهه فى دمائهما الزكية ، ودار فى نفسه الحديث الذى جرى بينه وبين الشيخ حسن والأسى يكاد يمزق نياط قلبه :

— بل سمه حسنا أو حسينا .

— سأسميه حسينا . حسين عبود . اسم جميل . أليس كذلك ؟

— اخترت أن يكون شهيدا .

وجاءت إنصاف وجذبته فى رفق ، بيد أنه كان متشبثا بهما يضمهما إلى قلبه الذى تأججت فيه نيران الأسى والحقد والغضب . ومالت إنصاف عليه وراحت تنتزعه منهما انتزاعا ، فقام وهو مطرق وظل صامتا برهة ، ثم رفع وجهه الذى مرغه فى دمائهما إلى السماء ويديه اللتين كانتا تقطران بدمائهما العزيزة الغالية وصاح :

— سأعرف كيف أنتقم لهما .

— ٤٤ —

كان الظلام يخيم على بحيرة المنزلة ، وكانت السحب تتجمع لتحجب النجوم المتلألئة فى زرقة السماء ، وكان زورق صغير يشق عباب الماء متجها إلى بور سعيد .

كان الجو باردا ولكن الأجسام الفتية القوية المفتولة العضلات التى ملأت فراغ الزورق ما كانت لتحفل بزمهرير الشتاء ولا حر الصيف ، فقد مرت بتجارب قاسية جعلتها فى مرونة المطاط وصلابة الفولاذ .

وفى سواد الليل تألق بريق العيون . كان ينم عن حزم وعزم ، ورن صوت مأمون يقول :

ـــ ترى ماذا يجرى فى بور سعيد ؟

وقال ضابط من ضباط الصاعقة :

ـــ عما قريب سنكون فى قلب المعركة وسنعرف كل شىء .

وإذا بضابط آخر يقول :

ـــ المهم أن ننقل إلى القاهرة صورة صادقة عن حقيقة ما يحدث فى بور سعيد .

وقال ثالث :

ـــ الإذاعات الخارجية بلبلت الأفكار ، إنها تذيع سلسلة من الأكاذيب .

ـــ ماذا ننتظر من صوت بريطانيا وإسرائيل ولندن غير هذا ؟

ـــ وراديو العراق ؟

ـــ إنه صوت سيده . نورى السعيد يتمنى من غير شك أن تتحقق أمانى إيدن وأكاذيبه .

ـــ كيف يواجه إيدن العالم بعد أن أعلن على الملأ أن بور سعيد طلبت التسليم ، ثم جاء كيتلى قائد القوات الإنجليزية والفرنسية وقال فى بيانه بعد الظهر : إن مصر لن تسمح للإنجليز والفرنسيين باحتلال القناة ، وأن قتال المصريين فى بور سعيد عنيف جدا .

ـــ سيواجهه بأكذوبة جديدة . فهو صفيق .

ونظر أحدهم إلى ساعته فى الظلام ثم قال :

ـــ حان موعد نشرة الأخبار .

والتقطت يده جهاز الراديو الصغير وأدارته ، فانسابت مقدمة النشرة الموسيقية فإذا بالقلوب تخشع وإذا بالآذان ترهف وإذا بقلق يتدسس إلى النفوس .

وأخذ المذيع يقرأ :

ـــ فى الساعة السابعة والنصف من مساء اليوم نزلت قوة من جنود المظلات البريطانية والفرنسية فى منطقة « الجميل » غربى بور سعيد ومنطقة « بور فؤاد » وقد

تمكنت قواتنا والشعب من إبادة هذه القوة ، ولقد تعرضت مدينة بور سعيد لغارات جوية عنيفة مستمرة كان هدفها الأول الضغط على الأهالى . وبالرغم من هذا الهجوم العنيف عليهم فإنهم شاركوا القوات المصرية فى مقاتلتهم للعدو . وقرب غروب الشمس تمكن العدو من تعزيز قواته مرة ثانية فى نفس هاتين المنطقتين ، وقد تكبد العدو خسائر جسيمة اعترف بها فى بلاغاته الرسمية . ولا زالت قواتنا مسيطرة سيطرة تامة على بور سعيد ، عدا منطقة «الجميل» وجزء من بور فؤاد .

وساد بينهم صمت رهيب وعلا وجوههم وجوم ، فقد فطنوا جميعا إلى أن العدو تمكن من أن يثبت أقدامه فى الأماكن التى نزل فيها على الرغم من فداحة خسائره ، وإن لا بد من الاشتباك معه فى قتال مرير حتى لا ينتشر فى المدينة .

وراح الضابط الذى كان يحمل جهاز الراديو يعبث فى أزراره دون هدف ، كانت حركة أصابعه توحى بالحيرة المنتشرة بين جوانحه ، وإذا بإحدى محطات الإذاعة تذيع نبأ عظيما فانتصبت القامات واتسعت العيون ولاح فيها الاهتمام البالغ وأخذ بريق من الأمل يتولد فيها رويدا رويدا ، قال المذيع :

ـــ أرسلت الحكومة السوفيتية مذكرة إلى كل من فرنسا وبريطانيا .. هذا نصها :

« ترى الحكومة السوفيتية ضرورة لفت نظركم إلى الحرب العدوانية المشبوبة على مصر من بريطانيا وفرنسا ولها أخطر العواقب على قضية السلام .. ما هو المركز الذى تجد بريطانيا نفسها فيه لو أنها هوجمت من دولة أقوى تمتلك كل نوع من الأسلحة الحديثة المدمرة ، إن هناك الآن دولا ليست فى حاجة إلى إرسال أساطيل بحرية أو جوية إلى شواطئ بريطانيا ، ولكنها تستطيع استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ الموجهة .

ونحن عازمون عزما أكيدا على سحق المعتدين وإقرار السلام فى الشرق الأوسط باستخدم القوة . ونحن نأمل فى هذه اللحظة الحرجة أن تستعملوا الحكمة المناسبة وتستخلصوا النتائج المترتبة على هذا » .

وراح المذيع يعلن أن بولجانين أرسل إلى دافيد بن جوريون رسالة جاء فيها أن

روسيا قررت سحب سفيرها فى إسرائيل، لأنها تنظر بعدم ارتياح إلى تصرفات حكومة إسرائيل التى تجعل كيان إسرائيل موضع بحث فى نظر الاتحاد السوفياتى.

وقال مأمون:

ـــ إنذار عنيف! إنه يهدد بقذف بريطانيا بالقذائف الموجهة وضربها بالقنابل الذرية.

وقال أحد ضباط الصاعقة:

ـــ كان بيفان يحس هذا الخطر لما حذر إيدن قائلا: «إذا كانت الحكومة تريد إعادة فرض «قانون الغابة» فيجب عليها أن تذكر أن بريطانيا وفرنسا ليستا أقوى الحيوانات فى الغابة، فهناك حيوانات أشد خطرا بكثير تتحرش بهما».

وقال آخر:

ـــ لماذا لم تقدم روسيا هذا الإنذار العنيف عقب الإنذار الإنجليزى الفرنسى الذى وجه إلى مصر؟ لماذا انتظرت حتى الليلة؟

ـــ ربما لأنها وجدت أن الأزمة اشتدت وأنها تخشى أن تتطور هذه الحرب إلى حرب عالمية.

ـــ صمودنا أمام الغزاة هو الذى لفت أنظار العالم إلينا، لو أن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل أكلتنا فى أول يوم من أيام القتال لكانت الآن تهضمنا دون أن تلتفت إلى صياح العالم واستنكاره.

ـــ ما من أحد يستطيع أن يدافع عن حق مثل صاحبه. دفاعنا عن حقنا هز الآخرين فجعلهم يسارعون للوقوف إلى جوارنا، لو أننا انهزمنا أمام بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لما كان أمام الدول الصديقة إلا أن تترحم علينا وتذرف دمعة على قبورنا.

وانطلق الزورق يشق عباب مياه البحيرة والريح تصفر والسحب تتكاثف والزمن يطوى والليل يكاد أن ينتصف ولا يمشى الوسن إلى الأجفان، فقد استيقظت العيون وأرهفت المشاعر وتوترت الأعصاب، فعلى الشواطئ الشمالية للبحرية تجرى معارك رهيبة تسطر بالدماء صورة المستقبل.

ولاحت فى الظلام أشباح مراكب وزوارق مقبلة من بعيد وأصوات المجاديف تشق السكون . ودنت طلائع المراكب حتى أصبحت على بعد ذراع من الزورق فراح كل من فى الزورق يتفرسون فى وجوه من غصت بهم المراكب . كانوا شيوخا ونساء وأطفالا فى وجوههم هلع وفى عيونهم فزع وفى تلفتهم رعب شديد كأنما الموت يجد فى أثرهم ليتخطفهم وينتزع الأرواح من صدورهم .

وأقبلت أفواج من المراكب والزوارق وارتفعت الأصوات تروى الفزع الأكبر والموت الذى كادوا أن يذوقوه ، وفهم كل من فى الزورق الذى كان يتجه فى عكس اتجاه المراكب والزوارق الهاربة من الجحيم أن الضعفاء الذين أخرجوا من ديارهم تعرضوا لغارات وحشية خسيسة هدفها فت عضد الصناديد الذين وقفوا فى وجه الإنجليز والفرنسيين .

وعاد الزورق يشق طريقه بين المراكب التى فرت من الطغيان ، حتى إذا ما أشرف على المطرية مد مأمون بصره فألفى النار قد اندلعت فى بور سعيد وألسنة اللهب تتراقص كالشياطين ، فأحس كأن خنجرا غاص فى قلبه ثم راح يمزق أحشاءه وجعل يصرف أنيابه فى غيظ شديد .

وانعكست ألسنة اللهب على سطح البحيرة ، وألقت النيران لونها الأحمر على الزوارق والمراكب الشرعية فبدت كأنها قطع من اللهب تمخر فى بحر من الدماء ، ورأى مأمون بعين خياله ما قاساه الأحبة من كرب شديد فغمغم :

— لك الله يا بهية ! ترى ماذا فعلت فى هذا البلاء ؟

وخطر له أن بهية قد تكون فى أحد هذه المراكب التى كادت تخفى سطح الماء فراح يتلفت فى انفعال ، وارتفع بكاء طفل وليد فاستشعر مأمون حنانا يفيض بين جوانحه وحزنا يسرى فى روحه ، وتمنى لو يستطيع أن يمشى على الماء لينقب عن أخته التى يحس حنينا طاغيا إليها .

وخطر له أن ينادى بأعلى صوته : بهية ! بهية ! بيد أنه وجد ألا جدوى من ندائه فأطبق فمه ولم تتحرك شفتاه ، إلا أن النداء كان يدوى فى أعماقه دويا يهزه من الرأس إلى القدم .

وقال قائل :

— لن نستطيع أن ننهض بمهمتنا ونحن فى هذه الثياب ، إننا فى حاجة إلى ملابس مما يرتديها أهالى بور سعيد .

فقال مأمون :

— أنا من بور سعيد وأستطيع أن أجمع ما نحتاج إليه من الملابس فى يسر .

ووصل الزورق إلى الشاطئ . كان الجو دافئا فالنيران المتأججة فى كل مكان تبعث الحرارة فى أرجاء المدينة ، وقفز ضابط الصاعقة وصف الضباط إلى الأرض فإذا بحشود من الشيوخ والنساء والأطفال يتدافعون بالمناكب ليركبوا فى المراكب والزوارق فرارا من الهول الذى أحسوه وعانوه وتجرعوه ، فراح مأمون يجوس خلال الناس يقلب وجهه فيهم لعله يجد بهية ، وقبل أن يغوص فى أمواج البشر المتلاطمة الصاخبة الباكية المولولة سمع من يناديه :

— مأمون ! مأمون !

فدار على عقبيه ليعود إلى رفاقه ، فإذا بقدمه ترتطم بجثة عجوز بترت ساقها وشوهت النيران وجهها فامتعض وأحس حقدا على المعتدين وتمنى لو يستطيع أن يسحقهم سحقا .

وسار والنار تلقى ظلالا على وجهه وعلى حشود الناس المتدفقة من البحيرة ، فزاد اضطرام كراهية الغزاة فى نفسه وجعل يطبق يده فى غيظ شديد .

وقال قائد السرية :

— أين سنجتمع بعد أن يقوم كل منا بما عهد إليه ؟

فأشار مأمون بأصبعه إلى معمل ألبان وهو يقول :

— سنجتمع هناك . مالكه صديقى ويمكننا أن نبيت فيه .

وتفرقوا واتجه كل منهم إلى مكان من أماكن المعركة ليرى رأى العين حقيقة ما يجرى فى الميدان ، وانطلق مأمون إلى شارع الأمين وهو يرجو أن يلقى فانوس وعبود والشيخ حسن وصديق ليعاونوه على ما جاء من أجله .

وطفق يفكر وهو فى الطريق : «أريد ملابس صياد ، بل أريد ملابس صيادين ،

فما أكثر ما سنحتاج إليها . من أين تستطيع أن تحصل على صدارى يا مأمون ؟ فانوس ؟ ومن أين يحصل فانوس عليها ؟ . لا . ستحصل من القهوة على كل ما تريد . ماذا سيأكل الضباط وزملائى الليلة ؟ ليت بهية تستطيع أن تقدم لهم شيئا من صنع يديها . أهلا بهية ! كم أوحشتنى يا بهية . . والنعمة الشريفة يا مأمون أكاد أطير من الفرح لأنى رأيتك الليلة . اسأل عبود كم كنت خائفة أن يصيبك مكروه . كيف أنت يا عبود ؟ كيف أنت يا رجل ؟ ماذا تفعل هنا فى البيت والرجال كلهم فى الميدان يقاتلون ؟ لا لا،لا تتحجج ببهية . أنت تمقت الحروب » .

وبلغ مشارف الحى العربى فوقعت عيناه على أنقاض ، لم يجد بيتا واحدا قائما ، فدق قلبه فى صدره رهبة وراح يتقدم وهو مذهول ويتلفت فى بلادة كأنما عطل عقله عن التفكير . . وأفاق من هول الصدمة ففطن إلى الحقيقة البشعة ، فانطلق يعدو بين الأنقاض كالمجنون والأنوار المنبعثة من النيران المشتعلة تزيد الواقع رهبة ، وجعل يصيح :

— بهية ! بهية ! عبود ! عبود !

ولم يسمع سوى صدى صوته المفزوع .

ووقف بين الأنقاض يترقب والحزن يعصر قلبه ، وطفرت من عينيه دموع الغيظ والغضب فقد دكت دور الحى ، صار بيته وبيت بهية وبيت إنصاف ودكان فانوس والقهوة أكواما من الحجارة والخشب المحروق .

وأحس أنه ضائع بلا أهل ولا بيت وقد انتزع من ماضيه ليعيش شريدا طريدا وحيدا ، ودارت به الأرض وكاد أن ينهار بيد أنه راح يقاوم ضعفه ويشد أزر نفسه : « لست وحدك الذى نكبت يا مأمون . كل من بقى حيا فى بور سعيد أصيب بجرح عميق . جرح ؟! أهذا جرح ؟ هذه مصيبة . لا تستسلم لهذا الحزن يا مأمون . أنت جندى . حقا أنا جندى يشرفنى أن أموت فى القتال ، أما أن يقتل الأبرياء وأن تدك بيوت الآمنين فهذا شىء يغيظ . .

عليك يا مأمون أن تقاوم هذا العدوان ، أن تقف فى وجهه حتى لا يحيق مثل هذا الدمار الرهيب بكل البلاد ، حتى لا يدفن الرجال والنساء والأطفال تحت

الأنقاض . هيا يا مأمون ، زملاؤك فى الجهاد يرقبون عودتك ، هيا لتنتقم لكل دم زكى سفك غدرا ، لتثأر لكل شهيد» .

ودار على عقبيه وقفل عائدا وهو حزين ، وطاف بذهنه أن يذهب إلى بيت توفيق يسأله عن بهية وعبود ، إلا أنه قاوم هذا الخاطر فالوقت متأخر وليس من اللياقة أن يدق الباب بعد منتصف الليل .

وسخر من فكرة أن توفيقا وجانيت نائمان فى هذه اللحظة ، أيعقل أن ينام أحد فى بور سعيد ووابل من قنابل الأساطيل يسقط عليها وزئير الطائرات المغيرة يتجاوب فى أرجائها وطلقات المدافع والبنادق لا ينقطع دويها ؟!

وهاله الدمار الذى حل بالحى العربى جميعه فراح صوته يرن فى أغواره غاضبا :

— وحوش . أنذال . برابرة .

وامتزجت الأفكار فى رأسه وتداخلت وهو فى طريقه إلى حيث يحتمل أن يجد الملابس التى وعد بها زملاءه ليتنكروا فيها : «لست وحدك يا مأمون الذى أصبحت بلا بيت ولا مأوى ، كل أهالى الحى العربى أصبحوا مثلك . لماذا لا تذهب يا مأمون إلى المستشفى الأميرى لتقابل إنصاف فهى خير من تستطيع أن تعاونك على جمع ما تريد من ملابس وستخبرك بأخبار بهية وعبود . لا . لا تكن أنانيا ، إنها ولا شك مجهدة والمصابون فى حاجة إلى كل دقيقة من وقتها ، إنها تقوم بواجبها فقم بواجبك يا مأمون» .

وانطلق فألفى الأهالى قد حفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ووقفوا ساهرين فى أيديهم بنادقهم ومدافعهم الرشاشة ، وحمل بعضهم مدافع البازوكا وفى وجوههم عزم أكيد على القتال حتى النفس الأخير ، وما سار فى وسط الناس حتى ذهبت عنه وحشته وشغل عن نفسه بالأحداث الهائلة التى بات يعيشها .

وخطر إيدن على باله ، أعلن مرة أن جنود الإمبراطورية ينزلون إلى أرض بور سعيد فى سلام واتضح أنه كاذب ، ثم عاد وأعلن أن بور سعيد طلبت التسليم وها هى ذى بور سعيد تقاتل قتال الأبطال وتصلى قوات الغزو نارا حامية وتلهب أرواحهم بأسواط العذاب !

ترى كيف تلقى إيدن إنذار بولجانين ؟ إنه نزل على رأسه نزول الصاعقة ، نقض غزله وأفسد كل ما دبر . ماذا سيفعل مجلس العموم بالحاقد المغرور بعد أن وضع الإمبراطورية التى بدأت الشمس تغرب عنها فى هذا المأزق ؟

كان إيدن يدخل مجلس العموم مكفهر الوجه مضطرب الأعصاب فقوبل بعاصفة من الاستهجان ، وطلب النائب العمالى دايفز الكلمة ، وتقدم إلى المنصة وهو ثائر والتفت إلى إيدن ورماه بنظرة احتقار هائلة ثم قال :

ـــ سيدى الرئيس .

قبل يومين سألتكم عن تعبير برلمانى أستعمله لكى أقول ما معناه أن رئيس وزراء الإمبراطورية كذاب . ولكنى الآن أقولها مباشرة ودون أية مواربة أو دبلوماسية برلمانية : إن أنطونى إيدن الذى وضعه القدر رئيسا لوزارة الإمبراطورية كذاب من الطراز الأول .

— ٤٥ —

كان ضوء النهار يحاول أن ينفذ من خلال السحب ، وجاءت الطائرات تستأنف هجومها على المدينة التى باتت طوال الليل هدفا لمدافع الأسطول المزمجرة ، وأخذت الأحداث الجسام تتحرك فى كل مكان ، ففى بور فؤاد كانت السفن تقترب من الشاطئ ، وفى الجميل كانت قوات الهابطين بالمظلات تتقدم على الساحل ، وفى الرسوة استولت القوات المعادية على محطة المياه وجعلت تهدد أهالى بور سعيد بحبس المياه عنهم .

وفى بحيرة المنزلة كان مأمون وضباط الصاعقة فى زورق وقد ارتدوا ثياب الصيادين وراحوا يتوغلون أميالا لينفذوا ما عقدوا العزم عليه ويسددوا إلى القوات المعتدية ضربة تترنح من وطأتها .

كان منع السفن من الاقتراب من الشاطئ مستحيلا ، فبطاريات المدفعية الساحلية قد سكتت بعد أن ألقت عليها الطائرات المغيرة وابلا من قنابلها وضربتها بصواريخها ومدافعها الرشاشة ، بيد أن قوات المقاومة الشعبية ظلت تسدد قذائف

أسلحتها الصغيرة إلى البوارج المتقدمة .

راح سليمان يتقدم حتى أشرف على البحر وأخذ يرد على قصف مدافع الأسطول بقذائفه التى كانت تسقط فى الماء ، إلا أنه ظل يطلق الرصاص فى ثبات وإصرار وعناد . ورأى الشيخ حسن ما يفعله السكير ضعيف القلب فثارت دماؤه فى عروقه وتقدم تقدم الوعول حتى لمس كتفه كتف سليمان وطفق يطلق نيرانه ، وانتشر رجال الكتيبة الرابعة المشاة على الشاطئ واشترك رجال الحرس الوطنى فى مقاومة الغزو ، إلا أن أسلحة قوات المقاومة كانت أعجز من أن تسكت المدافع التى كانت تقصف كل ما على الشاطئ قصفا .

واشتد الضرب وركز على بور فؤاد تركيزا شديدا ، وكان لا بد أن تتقهقر قوات المقاومة أمام طاقات الجحيم التى فتحت لتحصد كل من يقف فى سبيلها حصدا ، ورأى الشيخ حسن أن من الحكمة أن يتقهقر ولكنه آثر أن يثبت بعد أن رأى سليمان قد قرر ألا يزول عن مكانه .

وسقطت قذيفة بالقرب منهما ، وفيما كانت تنفجر كان سليمان يلقى بنفسه على الشيخ حسن فى لمح البصر ، ودوت القنبلة دويا هائلا وانتشرت شظاياها وسليمان يحمى الشيخ حسن بكل جسمه . ومرت لحظات رهيبة كان حسن لا يحس خلالها إلا بأنفاسه التى تتردد فى صدره ، ثم بدأ يحس ثقل جسم سليمان فوقه فخيل إليه أنه قد صرع ، إلا أن سليمان راح ينهض ويلتقط سلاحه ، وقام حسن واقترب من سليمان وقال له :

ـــ شكرا .

وكانت أول كلمة يوجهها حسن إلى سليمان منذ أن رآه يتسلم سلاحه يوم وزعت الأسلحة على الشعب ، فرفت على فم سليمان ابتسامة ، ثم راح يتقدم ليستأنف ضرب السفن المتقدمة بكل ما فى حوزته من قذائف .

وسار حسن إليه وقال له :

ـــ لن نستطيع أن نمنع اقتراب السفن بهذه الأسلحة .

فقال سليمان فى عزم :

ــ والله لو لم أجد معي إلا الطوب لقذفتهم به .

وراح يطلق ما معه من رصاص وهو يصيح :

ــ الله أكبر . الله أكبر .

وانتقلت الحماسة من صدر سليمان إلى صدر الشيخ حسن ، فراح يسدد الرصاص إلى سفن الأعداء وهو يصيح :

ــ هبى يا رياح الجنة . هبى يا رياح الجنة .

وسقطت قذيفة على الكبائن الخشبية الممتدة على الشاطئ فاشتعلت فيها النيران ، وهبت الرياح فحملت النار وعاونت على انتشارها وإذا بجميع الكبائن الخشبية تصبح قطعة من اللهب ، وارتفع الدخان وراح ينتشر حتى غطى الشاطئ وحجب الرؤية ، ووجد الشيخ حسن أن لا طائل من وقوفهما بعد أن ملأ الدخان عيونهما ونفذ إلى خياشيمهما ولسع حنجرتيهما ، فجذب سليمان وراح يبتعد به عن الدخان الذى كانت سحبه تتجمع وتتراكم لتحجب سحب السماء الداكنة ، وزرقة الماء التى كانت تتوهج بنيران قذائف تقصف كالرعد وتبرق فى تتابع كالبرق الخاطف .

واقتربت الأساطيل تحت ستار الدخان ، وانطلقت طرادات تحمل فدائيين بحريين من الإنجليز ، وفتحت مقدمة «البعابع» ليتدفق منها الجنود الذين وعدهم إيدن بنزهة بحرية فى بور سعيد .

وخرج الجنود البريطانيون من الدخان فإذا بالمدافعين ينقضون عليهم انقضاض النسور ؛ طلقات سريعة تسدد من كل مكان ، وقذائف تنفجر ، ودماء تسيل ، وأجسام تنهار ، وأرواح تزهق ، وأصوات المدافعين تجلجل كالرعد فتزلزل قلوب المعتدين :

ــ الله أكبر . الله أكبر .

ومشى سليمان ليشدد الضغط على المهاجمين ليرغمهم على أن ينقلبوا على أعقابهم أو يرووا الأرض بدمائهم ، واقتفى الشيخ حسن أثره ، وتقدم رجال الجيش والحرس الوطنى ليلقوا بالفدائيين البريطانيين فى البحر قبل أن يثبتوا أقدامهم على

الشاطئ ، فراحت أسلحة الدمار تقذف كل ما فى جوفها من حمم ، فأخذ الرجال من الجانبين يسقطون كأوراق الخريف .

وانتشرت النيران وزحفت حتى هددت بالتهام كل بور سعيد ، وعلى أضواء اللهب الذى كان يبرق كأنياب الكلاب كانت المعركة تدور ، واخترقت السحب الكثيفة طائرات فرنسية وراحت تسقط مجموعات من الهابطين بالمظلات ليحتلوا الجانب الشرقى للمدينة حتى لا يتسلل إليها إمدادات من سيناء .

وصاح الشيخ حسن :

— هذا يوم له ما بعده ، اثبتوا يا رجال .

وصاح سليمان :

— الله أكبر ! الله أكبر ! اهجموا عليهم . إنهم يترنحون .

وصاح الشيخ حسن وقد بلغت حماسته أوجها :

— يا منصور أمت . أمت .

وعلى الرغم من تقدمهم المظفر كانوا يتلفتون خلفهم خائفين ، فالنيران تنتشر وتنتقل فى سرعة الريح ، وقال قائل :

— بور سعيد ستأكلها النيران .

وقال آخر :

— أهون علينا أن تحترق من أن يستولى عليها هؤلاء الأوغاد ، اهجموا يا رجال .

— صونوا أعراضكم .

وبدأ سليمان يحس ضيقا فى صدره ووخزا فى ذراعيه ودوارا فى رأسه ووهنا فى نظره ورغبة ملحة فى أن ينهار ، إلا أنه كان يقاوم ضعف جسمه ويستعين بروحه القوية ليصلب عوده ، ويطلق على الأشباح التى تتراقص أمام عينيه الرصاص .

وراع الشيخ حسن كثرة أجسام إخوانه الذين سقطوا صرعى العدوان ، فسرى فيه تيار من القلق كاد ينقلب إلى خوف ، وخشى أن يفلت منه زمام نفسه فراح يقرأ :

— إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله .

وهتف فى صوت عال لينزع آخر ما بقى من آثار التردد فى نفسه :

— هبى يا رياح الجنة ، هبى يا رياح الجنة .

ثم ألقى بنفسه مرة أخرى فى أتون المعركة ، وراح مع إخوانه يشدد النكير على الجنود الذين أذهلتهم المفاجأة .

واشتد توهج الحريق ، وحمى القتال واشتدت ضراوته ، ولم يعد سليمان يحتمل آلام جسمه وعجز قلبه الضعيف عن أن يمد روحه بما تتمنى ، فسقط على الأرض وهو يلهث وصدره يعلو وينخفض وفى وجهه جهد وإعياء .

واستراح قليلا فاتضحت له الرؤية بعض الشيء ، إن ألسنة النيران تكاد تبلغ السماء ، بور سعيد كلها قد تصبح فى غمضة عين شعلة ملتهبة ، واستشعر الخطر الهائل الذى يهدد الناس ، فغام وجهه بسحابة من الأسى ، ودق قلبه الواهن دقات خوف وفزع ، وراح يتوسل فى صوت خافت :

— يارب ! يارب !

وسقط من السماء رذاذ ثم اشتد قليلا حتى أصبح مطرا خفيفا ، وأحس سليمان بالماء يسقط على وجهه ففتح عينيه وانبسطت أساريره .. وانتشر السرور فى صدره ونزلت الفرحة فى قلبه الضعيف لما رأى أن قطرات المطر كانت تكتم أنفاس النار .

وارتج المكان بصيحات الفرح والتهليل ، وانطلقت التكبيرات من الحناجر :

— الله أكبر ! الله أكبر !

— تقدموا يا رجال إن الله معنا .

واندفع المدافعون وقد عمر الإيمان قلوبهم حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من النصر المبين ، وإذا بقوات المظلات التى هبطت فى مطار الجميل والتى كانت تتقدم على الساحل تلتقى بالفدائيين البحريين الذين نزلوا إلى الشاطئ والذين كانت قوات المقاومة الشعبية تحصدهم حصدا وتضغط عليهم لتلقى بهم فى البحر الذى لفظهم ، فاشتد بهم ساعد الغزاة المترنحين .

وشغل كل بنفسه عما يدور حوله ، فالرصاص ينهار ويتدفق وينطلق من كل اتجاه وفى كل اتجاه ، والقذائف تبرق ثم ترعد وتتناثر شظايا تذبح وتبتر وتجرح ، واختلطت الصيحات بالأنات بحشرجة الموت بهزيم المدافع بدمدمة الرصاص بأزيز

الطائرات . والتحمت جبهات القتال فأضحت خطا واحدا ، الأعداء على طول الساحل ، وقوات المقاومة الشعبية والجيش والبوليس أمامهم .

وعلى الرغم من القتال المرير الدائر بين قوى الظلم والطغيان والقوات المدافعة عن بلادها وشرف أراضيها ، راح الشيخ يتلفت بين لحظة وأخرى بحثا عن سليمان بيد أن عينيه لم تقعا عليه ، فأوجس خيفة وأحس لأول مرة فى حياته أنه لو فقد سليمان فسيفقد شخصا عزيزا .

وظهرت الدبابات على الشاطئ فشعر المدافعون بالمرارة ولكن لم يدب اليأس فى قلوبهم ، رجحت كفة قوات الغزو إلا أن صناديد المصريين عقدوا العزم على ألا تمر الدبابات إلا على أجسادهم .

وتقهقرت قوات المقاومة الشعبية بحثا عن حصون يحتمى بها الرجال ليصلوا منها قوات الغزو نارا حامية ، وفيما كان الشيخ حسن يتقهقر لمح سليمان يجاهد لينهض على قدميه ويحمل سلاحه ، فهرع إليه وحمله وانطلق به بعيدا قبل أن تدهمه الدبابات التى بدأت تتحرك .

وفى هذا الوقت كان الزورق الذى يحمل مأمون ورجال الصاعقة قد أشرف على كوبرى الرسوة ، فراحوا يتظاهرون بإلقاء شباكهم استعدادا للصيد إلا أنهم كانوا يرصدون الكوبرى فى اهتمام فقد كانت مهمتهم أن ينسفوه بعد أن احتلته القوات المعتدية .

كانت الحراسة شديدة فوق الكوبرى وتحته ، والدنو منه فى ظل هذه الحراسة مغامرة محفوفة بالمخاطر . بل عمل انتحارى ، وراح قائد القوة يفر رجاله بعينيه ثم قال :

ــ لا يمكن أن ننسف الكوبرى إلا إذا استولينا عليه .

وقال أحد الضباط :

ــ الاستيلاء على الكوبرى يحتاج إلى قوة هائلة ، لا قبل لنا بكل هذه القوات .

وفكر قائد القوة مليا ثم قال :

ــ لا فائدة من إضاعة الوقت هنا ، فلنعد سريعا لننضم إلى إخواننا .

وراحت المجاديف تضرب الماء فى قوة ، واندفع الزورق يشق طريقه إلى اليابسة بعيدا عن السواحل التى احتلتها قوات الأعداء .

وأخذت الدبابات الإنجليزية والفرنسية تتقدم وقد رفعت على أبراجها العلم المصرى والعلم الروسى ، ورأى الأهالى الأعلام ترفرف فاندفعوا يستقبلون الدبابات فرحين مستبشرين ، يهتفون لإخوانهم وأصدقائهم الذين خفوا لنجدتهم .

وأضحى الرجال والشيوخ والنساء والأطفال على مرمى حجر من الدبابات ، وفجأة انطلقت المدافع تحصد الأبرياء فى نذالة وقسوة ، وفرشت الأرض بأجساد الضحايا .

وراحت الدبابات تشق طريقها فى شارع محمد على متجهة إلى الجنوب ، كانت تهدف إلى أن تنطلق بأقصى سرعتها إلى الإسماعيلية ، وفطن المدافعون إلى غرضها ، فالقيادة البريطانية تريد أن تحقق نصرا سريعا بعد أن تقرر فى هيئة الأمم المتحدة وقف إطلاق النار فى الساعة الثانية من صباح الغد .

وهبت قوات المقاومة الشعبية تعترض سبيل الدبابات الزاحفة ، وقف فانوس يحمل مدفعه «البازوكا» ينتظر فى حرص تقدم الدبابات ، وكان مرجان يتربص فى الناحية الأخرى ، وتوفيق واقفا بين المدافعين يقول :

ـــ هذه لحظات حاسمة فى تاريخنا . اثبتوا يا رجال ، لو اخترقوا هذا الشارع لحققوا أهدافهم ، فعلينا ألا ندعهم يمرون مهما كان الثمن .

وظهرت أول دبابة وإذا مدافع «البازوكا» تسدد إليها طلقاتها وتعطلها ، وظهرت الدبابة الثانية فعاجلها فانوس بطلقة من مدفعه وأطلق مرجان طلقات متتابعة وتجاوبت الطلقات من كل جانب وانهار الرصاص من فوق أسطح المنازل ، وراحت دبابة تحاول أن تشق طريقها بين الجموع الثائرة المزمجرة فإذا بعبود ينقض عليها ويلقى قذيفة تعطلها ، وسدد توفيق إلى قائدها طلقة قاتلة .

واضطرب نظام الدبابات وأخذت تدور فى الشارع لا تستطيع أن تتقدم ، وراحت بعض الدبابات تنطح الدور وتخترقها فتنهار على من فيها ، ولكن مقاومة القوات المدافعة لم تهن بل ازدادت صلابة وعنادا .

وراح الوقت يمر والمدافعون فى أماكنهم والدبابات لا تستطيع أن تصل إلى منتصف شارع محمد على، وسقط رجال ومات أبطال وسالت دماء وحل بالمدينة الباسلة دمار رهيب، بيد أن قلوب المدافعين كانت مؤمنة بالنصر، فكل لحظة تمر وهم ثابتون تدنيهم من الساعة الثانية من صباح الغد، الساعة التى فرض فيها وقف إطلاق النار.

وظهر فى ميدان المعركة مأمون وزملاؤه الفدائيون، وتقدموا فى حذر من دبابة سنتوريان، وفى مثل لمح البصر كان بعضهم قد استولى على الدبابة بكل من فيها.

وعادوا يستأنفون ما فعلوه فتمكنوا من خطف أربع دبابات سنتوريان بأطقمها فبثوا الهلع فى قلوب البريطانيين..

وجن جنون قادة الدبابات، القذائف تنهال عليهم وهم يدورون حول أنفسهم لا يكسبون أرضا ولا يقضون على المقاومة التى تزداد شدة وصلابة، ورأوا أنهم أعجز من أن يشقوا طريقهم فى وجه الذين استخفوا بالموت وباعوا أرواحهم للوطن، فاستنجدوا بالطائرات لتخلصهم من المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه.

وجاءت الطائرات تدك المنازل وتحاول أن تكنس الناس بمدافعها الرشاشة، بيد أن الأبطال احتموا بالجدران واستمروا فى تسديد ضرباتهم للدبابات والمصفحات والقوات الإنجليزية والفرنسية التى احتشدت خلف المدرعة لتتقدم فى حمايتها!

ألقت الطائرات كل ما تحمل من قنابل وأطلقت ما شاءت أن تطلق من مدافعها الرشاشة، وخلفت ضحايا وأججت نيران الكراهية فى نفوس المدافعين وزادتهم إيمانا بعدالة القضية التى يدافعون عنها.

وجاءت ثلاث سيارات تسعى إلى ميدان المعركة، وراحت تذيع من مكبرات الصوت نداء للمدافعين:

— يا رجال بور سعيد ألقوا أسلحتكم ولكم الأمان، إننا لم نأت لنحاربكم، ليست بيننا وبينكم عداوة ...

ورد الرجال على النداءات بطلقات من أسلحتهم فأسكت الرصاص كل من فى السيارات إلى الأبد.

وراح توفيق ينتقل من مكان إلى مكان فى خفة وحرص ، وفيما هو يرصد دبابات الأعداء إذ لمح ضابطا كبيرا فى سيارة جيب ، فارتاع كأنما رأى شبحا ، وصاح فى غضب :

— وليمز ! وليمز .

وراح يصوب الرصاص إلى وليمز رجل المخابرات الخطير الذى يعرف كل حجر فى بور سعيد ، وتقهقر وليمز بسيارته مبتعدا عن الرصاص الذى انهمر حوله .

— ٤٦ —

جاءت سيارات بريطانية تخترق شارع الجمهورية واتخذت طريقها إلى « البيت الحديد » ، وعند الباب وقفت السيارات وهبط منها بعض كبار الضباط الإنجليز ، وكان وليمز أحدهم ، ودخلوا منتفخى الأوداج شامخى الأنوف ، وتقدموا إلى قاعة الاجتماع فى صلف وغرور ؛ فالأساطيل المعتدية على الشاطئ ، والدبابات فى الطرقات ، والفدائيون البحريون والشياطين الحمر والمشاة خلف المدرعات والمصفحات وأسلحة حلف الأطلنطى تزيدهم عتوا وجبروتا .

وكان فى قاعة الاجتماع محافظ بور سعيد وحكمدارها وحكام المدينة ، وبدأ الوفد البريطانى يتكلم ، طلب القائد البريطانى من المحافظ تسليم المدينة ، وجاء رد المحافظ قويا ، رفض أن يجلل وطنه بالعار وأبى التسليم وقال :

— ليس بيننا وبينكم إلا القتال .. لو لم يكن معنا إلا الحجارة لحاربناكم بها .

وتوعد القائد البريطانى وأنذر وأرغى وأزبد ، ثم انقلب الوفد البريطانى على أعقابه وهو حانق مغيظ ، وعاد إلى مبنى القيادة المشتركة الذى كان قصر عبد الرحمن لطفى قبل ساعات ، قبل أن يطرد منه صاحبه ليستولى عليه الفرنسيون والإنجليز .

ورأى القائد البريطانى أن ينتقم من المدينة العنيدة التى قوضت آماله وكادت تلطخه بعار الهزيمة ، فأصدر أوامره للأسطول وللطائرات أن تدك المدينة دكا لعل الرعب يعرف طريقه إلى قلوب المستميتين فى الدفاع عن كل شبر من أرض

بور سعيد .

وراحت مدافع الأسطول تلقى حممها على المدينة ، وجاءت الطائرات ودمرت مستودعات البترول فى الميناء ، وسرعان ما اندلعت النيران وارتفعت ألسنة اللهب وانتشرت سحب الدخان تغطى البحر والمدينة ، وأغارت على ما بقى من الحى العربى ، ألقت قنابلها والنابالم فاشتعلت النيران فى المناخ وعبادى وعباس والأمين ، ولم يكن فى دور هذه المناطق إلا الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال فارتفع الصراخ والعويل واندفع الضعفاء مفزوعين لا يدرون أين المفر ، كانت النيران تشوى وجوههم ، والدور تدك فوق رءوسهم ، والموت يتخطفهم بعد أن يذوقوا عذاب الهون .

صراخ وعويل وفزع ورعب ورنين عربات الحريق ، بيد أن الماء لا يتدفق من الخراطيم فالقوات المعتدية تحول بين رجال الحريق وإطفاء النار المشبوبة التى كانت تلتهم الدور والأبرياء من الطير والحيوان وبنى البشر .

واندفع صديق الفرارجى بين ألسنة اللهب ، وصرخات الفزع التى تصك أذنيه تمزق نياط قلبه ، يحاول أن ينتشل من يستطيع انتشاله من براثن النار ، لكن ماذا يستطيع أن يفعل هو وحفنة من زملائه ، إنه إن حمل شيخا أو طفلا أو عجوزا ليفر به من الفزع الأكبر ، فمئات ممن لا حول لهم ولا قوة يذوقون العذاب ويتلقفهم الموت .

وفرشت أرض الحى العربى بأجساد تفحمت ووجوه شويت وحطام دور وقطع من الخشب ملتهبة ، وظلت النار تتراقص كالأبالسة لا تجد من يخمد أنفاسها .

وزادت النار المشبوبة فى ضراوة المعركة الناشبة بين الدبابات والمصفحات وقوات المقاومة الشعبية التى سدت عليها الطريق بقذائفها المدمرة وبطولتها النادرة .

وتقدمت دبابة تشق طريقها فى عناد ونجحت فى أن تندفع فى الشارع ، وتحركت دبابات أخرى تقتفى أثرها ، وإذا برجل يعترض طريقها ، وصاح عبود صيحة هائلة :

— حاذر يا فانوس ! حاذر .

بيد أن فانوس ألقى بنفسه على الدبابة ، وإذا بانفجار هائل يدوى ، وإذا بالدبابة تتعطل ، فتعطل كل الدبابات خلفها ، وإذا بفانوس يتطاير أشلاء .

وصرف عبود أنيابه فى غيظ وغضب وأخذ يطلق قذائفه على الدبابات التى أصبحت هدفا للقوات المتحصنة فى الطريق وفوق أسطح المنازل وفى شرفاتها .

وأحس عبود يدا تربت على ظهره فالتفت فرأى حسنا وفى وجهه آثار مرارة المعركة ، فقال له :

ـــ أرأيت ما فعل فانوس ؟

فهز حسن رأسه أن نعم ، ثم قال فى صوت خافت :

ـــ كان بطلا ، وما أكثر الأبطال الذين ظهروا فى هذه المعركة .

وطاف بذهنه سليمان ، أبى أن يحمله إلى المستشفى ، استراح قليلا حتى إذا ما استرد أنفاسه هب ليخوض غمار القتال دون أن يحفل بما يقاسى من آلام ، أو يشفق على نفسه من ضعف قلبه .

كان لا يثق فى سليمان ولا يرتاح إلى فانوس ، وإذا بالأيام تثبت سوء ظنه ، فقد أثبتا أنهما خير من آلاف ممن أعجب بطلاوة أحاديثهم وطلاقة ألسنتهم .

وهمس فى نفسه هامس :

ـــ كانا خيرا منك .

فرفع رأسه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم ارزقنا الشهادة .

وفيما هو يتأهب ليمشى إلى الدبابات كما مشى إليها فانوس سمع عبود يقول له :

ـــ هل سمعت بما يهمس الناس ؟

ـــ لا .

ـــ يقولون إن القائد العام ضرب رئيس هيئة أركان حرب الطيران بالرصاص .

ـــ هذه إشاعة .

وصمت عبود قليلا ثم قال :

ـــ لماذا تركتنا القاهرة نحارب وحدنا ؟

ولم يحر حسن جوابا وإن راح ذهنه يعمل ، ضربت الطائرات المغيرة محطة إذاعة القاهرة فأسكتتها ، وقامت محطة إذاعة دمشق تذيع : هنا القاهرة .. صوت العرب من دمشق ، هذا جميل ! ولكن ماذا يجرى فى القاهرة ؟

انتشرت إشاعات كثيرة عما يجرى هناك ، إشاعات مغرضة كادت تفت فى عضد المدافعين عن المدينة التى أمست طعمة للنيران ، وهدفا لمئات الغارات الوحشية وتدافع الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والدبابات التى تصر على الانطلاق إلى الإسماعيلية لولا الذين وطدوا العزم على أن يفدوا بلادهم بأرواحهم ، فراحوا يلقون بأنفسهم عليها ، أو يطلقون عليها قذائف مدافع « البازوكا » وهم على بعد أمتار منها .

قالت الشائعات : إن بعض السياسيين القدامى ذهبوا إلى عبد الناصر وطلبوا منه أن يترك لهم أمر إدارة البلاد فى هذه الآونة العصيبة ، وقالت شائعات أخرى : إن فى صفوف القاهرة انهزاميين يرون التسليم وإنقاذ البلاد من التخريب ، وانتشرت إشاعات أخرى تؤكد أن الإنجليز والفرنسيين لن يصغوا إلى نداء وقف إطلاق النار إلا بعد أن يستولوا على منطقة القناة ويضعوا العالم أمام الأمر الواقع .

وغمغم الشيخ حسن وهو يطلق قذائفه على الدبابات :

— ليت القاهرة تقول شيئا !

وظهرت فى سماء بورسعيد طائرات الميج ، وانقضت على سفن الأسطول البريطانى والفرنسى وألقت عليها قنابلها ، وصاح المدافعون فى فرح :

— طائرات مصرية .. طائرات مصرية .

وقال حسن لعبود فى نشوة :

— القاهرة لم تتركنا نحارب وحدنا .. القاهرة معنا .

وتطلع الفرنسيون والإنجليز إلى السماء فى رعب وقالوا :

— طائرات روسية ! طائرات روسية .

وراحوا يذيعون على العالم والخوف يرجهم رجا إن روسيا اشتركت بطائراتها فى المعركة .

كانت الطائرات مصرية استخدمت الطريق الزراعى الذى يربط القاهرة بالإسكندرية مطارا بعد أن ضربت الطائرات الإنجليزية والفرنسية كل المطارات المصرية .

خرجت إلى بور سعيد لتؤكد للمدافعين عنها أن القاهرة معهم ، ولتعلن على أعين الناس أن ما كانت تذيعه قيادة الحلفاء المشتركة من أنها قضت على جميع الطائرات المصرية كان وهما كبيرا .

وأضاء ظهور الطائرات المصرية فى سماء بور سعيد الظلام الذى كاد يطبق على نفوس المدافعين عنها وبث الأمل فى صدورهم ، فكروا على الدبابات والمصفحات والقوات التى غص بها شارع محمد على كرة شديدة ، وقد وطنوا أنفسهم على أن يجمدوا كل هذه القوات فى أماكنها ، وألا يدعوها تتقدم خطوة واحدة .

وراح عبود ينتقل فى حرص شديد من مخبأ إلى مخبأ لتكون الدبابات فى متناول قذائفه ، كان العرق يتفصد منه على الرغم من برودة الجو ، وتلبد السماء بالغيوم ، وكان الجهد يلوح فى وجهه فلم يذق طعم النوم منذ أسقطت الطائرات أول موجة من جنود المظلات فى مطار الجميل .

وفيما هو يتقهقر فى حرص ليختبئ خلف جدار ارتطم برجل ، فالتفت دون إرادة ، وإذا بالرجل يصيح فى فرح :

ـــ عبود !

وهتف عبود فى دهش :

ـــ مأمون ؟!

ولم يستطع مأمون أن يكبت عواطفه فضم عبود إلى صدره ضمة قوية أودعها كل ما عجز لسانه عن أن يعبر عنه ، وأحس دموعا تبلل عينيه ونشوة تنتشر فى كل كيانه ، وظل برهة كاد ينسى فيها المعركة الرهيبة الدائرة على قيد خطوات منهما ثم قال :

ـــ كيف حال بهية ؟

وتقلص وجه عبود وغام بالأسى والحزن وانقبض قلبه ، وأطرق فحركت

الانفعالات التى ارتسمت على محياه تخاوف مأمون فقال فى انفعال :

ـــ أأصابها مكروه ؟

وطفرت دمعة من عين عبود ، فقال مأمون بعد أن فطن إلى كل شىء :

ـــ ماتت ؟ قتلت !

وقال عبود فى صوت خافت مشحون بالأسى والحزن والغضب :

ـــ قتلها الوحوش هى وحسين والأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال عند شاطئ المنزلة .

ومد مأمون يده وقبض على ذراع عبود وراح يضغط عليها فى شدة ويصرف أنيابه فى غيظ لينفس عن النار التى راحت تشوى كبده ، وفى مثل لمح البصر تذكر عبود حلم بهية ، كانت تبكى لأنها رأت فى المنام أنها لن تقابل مأمون بعد يومها ذاك ، فحسبت أنه سيلقى مصرعه فى معارك سيناء وما دار بخلدها أنها هى التى كتب عليها أن تكون ضحية للعدوان الآثم !

وانطلقت قذيفة من مدفع إحدى الدبابات فانفجرت بالقرب منهما وأخرجتهما من دنيا مشاعرهما الحزينة إلى العالم الذى يعج عجيجا بدوى القنابل وجعجعة الدبابات وصيحات الفزع وأنات الألم وحشرجات الموت ، وقفز مأمون خلف حائط ثم اندفع فى غمار المعركة وقد أخذت تترادف على ذهنه صور صديقه راسم وهو يودعه وصورة أخته بهية وهى تقول له يوم وداعها آخر مرة : « مع السلامة . مع السلامة » .

وحانت من عبود التفاتة فرأى النيران التى تلتهم الحى العربى جميعه ففزع ، إنه رآها مشبوبة تكاد أن تبلغ السحب منذ أن انتصف النهار إلا أن وقعها فى نفسه لم يكن مثل وقعها بعد أن قابل مأمون وأحس عمق الجرح الذى خلفه فى روحه موت بهية وحسين ، فراح يعدو صوب الحى الذى اندلعت فيه النيران وبين جنباته صوت يهتف :

ـــ بهية ! حسين ! بهية ! حسين !

وأخذ الصوت يرتفع رويدا حتى أصبح فى أذنيه دويا .

وأشرف على النار المتأججة وأحس حرارتها تكاد تشوى وجهه ، ووقف يتلفت والغيظ يأكل صدره . ورأى بعض الرجال يخرجون من الجحيم وهم يحملون بعض النساء والأطفال وقد تركت النار آثارها فى وجوههم وأذرعهم وأرجلهم وارتسم الهلع فى أعينهم ، وكادت تمزق أذنيه صيحات الرعب وصرخات الفزع وزفرات الأنين فاندفع وسط اللهب الذى ارتفع كعمد من نار تنفث من جوفها دخاناً أسود يعلو وينتشر ويطوى كل ما فى المدينة بين جناحيه طيا .

وطفق يحاول أن يروغ من الفرجات بين ألسنة اللهب المتراقصة وهو يترقب ، وأحس النار تلسع عينيه فأسبل جفنيه وحاول أن يحميهما بذراعيه ، وسمع صراخا وعويلا وقرقعة أخشاب تتكسر ففتح عينيه ونظر فرأى أناسا كأنما قطعت لهم ثياب من نار يجرون ويعولون مرعوبين لهم شهيق وزفير يخلع القلوب من الصدور ، فانطلق إليهم دون تفكير حتى إذا ما أضحى على بعد خطوات منهم انقض عليهم جدار فدفنهم تحته .

وارتد إلى الخلف خطوات وهو يرصد النار التى أحاط به سرادقها ، وإذا ببكاء طفل يرتفع فانطلق صوب الصوت فألفى امرأة تحشرج حشرجة الموت تضم طفلها إلى صدرها وهى تقيه النار بجسمها الذى كادت تأكله الحروق ، فمال عليهما وانتزع الطفل من بين يديها وهم بأن يفر به ، بيد أنه أشفق عليها من الحريق فخطفها خطفا وحملها على كتفه وانساب يروغ من اللهب الذى كان يحاصره ويلسع وجهه وذراعيه وساقيه يريد أن يلتهمه .

وراح يشهق ويزفر والعرق يتفصد من كل جسمه ، وزاد فى إرهاقه العرق الذى ملأ عينيه وألسنة اللهب التى كانت تلحسهما لحسا يؤلمه ويضنيه ويجعل روحه تئن وتتأوه .

وكاد ينوء من العذاب أكثر من مرة إلا أنه كان يجاهد ليسمو فوق كل آلامه ، واستمر يزحف حتى خرج من الجحيم فإذ بأيد تمتد لتتلقف الطفل وأمه . ووقف مبهور النفس يحس جفافا فى حلقه وراح يتلفت ثم قال :

— قليل من الماء .

ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقد لاح الحزن فى قسمات الوجوه ، فقد حبس الفرنسيون الماء عنهم بعد أن استولوا على محطة المياه فى الرسوة وراحوا يساومونهم عليه ، يعرضون عليهم أن يطلقوه إذا ما قبلوا التسليم . وظل صدره يعلو وينخفض وهو ينظر إلى النار المشبوبة التى كانت تلتهم الدور والتى أمسى وقودها الناس والحجارة . وعادت أصوات الفزع والهلع تصك أذنيه صكا وتعذبه عذابا أشد من العذاب الذى قاساه وهو بين براثن النار ، فلم يستطع أن يصبر على ذلك الضنى الذى يمزقه تمزيقا فعاد يقتحم النار لينتزع من أنيابها أبرياء دهمهم عدوان قاس لا يعرف الرحمة .

واندفع يخوض الحريق وهو يتلفت فى حذر ، الأرض فرشت بأجسام تفحمت وعمد ممددة تندلع فيها النار ، وألسنة اللهب كأنياب الكلاب تتراقص ، وقرقعة وعويل وأنين وصرخات هلع تفتت الأكباد ، وأحس قهرا فهو أعجز من أن ينقذ كل هؤلاء المفزوعين المرعوبين الذين أذهلتهم النيران عن كل شيء إلا عن آلام الحروق التى كانت تشوى جلودهم شيا .

ووجد نفسه أمام أسرة كاملة حاصرت أفرادها النيران ، ذهل كل منهم بنفسه عن أمه وابنه وأبيه ، رأى شيخا يجرى وقد قطعت ثيابه من نار وهو يصرخ صرخات مرعبة ثم ينكفئ على وجهه . ورأى امرأة عجوزا وقد اشتعلت النار فيها تندفع إلى شابة لتحتمى بها وإذا بالشابة تفر منها خشية أن تمسك فيها النار ، ورأى أطفالا صغارا يبكون ويصرخون صرخات تمزق نياط القلوب . رأى كل ذلك فى لمحة بصر فعمل فكره بسرعة ، وسرعان ما قرر أن ينقذ الأطفال .

وانقض على الأطفال يحملهم وإذا بأمهم تتشبث به ، وسار والأم تعوق حركته وكاد أكثر من مرة أن يدفن هو والأطفال والمرأة التى تعلقت بعنقه تحت الأنقاض ، إلا أن الجدران كانت تنقض خلفهم كأنما كانت تنتظر مرورهم .

وأرهقته صرخات الأطفال وأنزلت بقلبه هما ثقيلا ، فإن كان قد أنقذ حفنة ممن حاصرتهم النيران ، فمن لآلاف الشيوخ والنساء والأطفال الذين تلتهمهم النار التهاما ؟

وقبل أن يخرج بمن معه من الحريق انهمرت الأمطار وراحت تخمد النيران التى أشعلتها الطائرات الإنجليزية والفرنسية ، وعلى الرغم من أن قوات الحلفاء حالت بين سيارات المطافئ وبين إطفاء الحرائق المشبوبة فى كل مكان فإن السماء كانت رحيمة ، أنزلت ماء غزيرا كتمت به أنفاس اللهب الذى كان يتراقص فى أرجاء المدينة .

ورأى الناس تأييد السماء فهتفوا فى انشراح :

ـــ الله أكبر ! الله أكبر !

— ٤٧ —

انتصف الليل ولم يبق إلا ساعتان على وقف إطلاق النار ، فراح الفرنسيون والبريطانيون يقاتلون قتالا لا هوادة فيه ليحققوا ما زعمه موليه فى الجمعية الوطنية من أن القوات المتحالفة قد احتلت بور سعيد ووضعت يدها على الإسماعيلية والقنطرة .

كانت الدبابات والمصفحات وسيارات الجيب لا تزال فى شوارع بور سعيد ، وكان الشياطين الحمر والفدائيون البحريون وقوات المشاة يقاسون من دقة تصويب المصرين الذين أبوا أن يتقهقروا أمام ضغط الدبابات والمصفحات ، وهال القيادة المشتركة ثبات المدافعين واستخفافهم بالخسائر الجسيمة التى أصابتهم فأصدرت أوامرها بأن تتقدم القوات المتحالفة إلى الإسماعيلية مهما كان الثمن .

وصاح الشيخ حسن فيمن حوله :

ـــ اثبتوا يا رجال ! ليس بيننا وبين النصر إلا ساعتان .

وقال توفيق فى نفسه :

ـــ لو ثبتنا ساعتين لمرغنا الشرف البريطانى والشرف الفرنسى فى الوحل ولأنقذنا مصر ، علينا أن نضحى .. أن نجود بأرواحنا .. فأية تضحية مهما بلغت تهون إذا ما أوقفنا هذا السيل الجارف المدمر عن أن ينتشر فى البلاد .

وراح مرجان يقفز فى ساحة الوغى كنمر أسود يصوب قذائفه فى إحكام ويحس

فى أعماقه زهوا ، فقد كشفت المعركة عن حقيقة معدنه . إنه معدن نفيس طمرته اضطهادات السنين ورانت عليه افتراءات الأجيال إلا أن نار التجربة صهرته فتألق وتلألأ .

وكان بهنس يرتدى ثيابا مدنية ، فالشياطين الحمر والفدائيون البحريون كانوا يصطادون رجال الجيش والبوليس ليقضوا على من قاسوا من إحكام تصويبهم ، على من جدلوا جنودهم بطلقاتهم السديدة التى كانت تعرف طريقها إلى الرءوس أو القلوب .

وراح مأمون ورفاقه يتظاهرون بالتقهقر أمام جماعة من الفرنسيين ، فأطمعهم ذلك فيهم وشدوا عليهم ليشقوا طريقا بين الحاجز البشرى الذى صمد صمود الطود وأبى أن ينكسر أو يلين .

وتوغل الفرنسيون فى اندفاع وإذا بهم يجدون أنفسهم محوطين برجال يصيحون صيحات تلقى الرعب فى الصدور وتجعل القلوب تبلغ الحناجر :

ـــ الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

ودوت القذائف من فوق الأسطح ومن الشرفات ومن مفارق الطرق ومن خلف الجدران ، وامتزجت صرخات الهلع بهزيم الرصاص ، وسقط الفرنسيون صرعى ، وبعد أن باتوا كأمس الدابر خف مأمون ورفاقه ليوقعوا آخرين فى كمين آخر .

ووقف سليمان يلتقط أنفاسه فى جهد وقد شحب لونه ووهنت عيناه وأخذ لسانه يمر على شفتيه الجافتين بيد أنه لم يكن يرطبهما ، كان العطش يكاد يخرط حلقه وقد تآزر مع ضعفه عليه ، إنه ينوء من الإعياء ، إلا أنه أبى أن ينسحب من المعركة أو يلقى سلاحه .

وراح وليمز يجوس بسيارته الجيب بين القوات الإنجليزية ويأمرهم أن يتقدموا ويخبرهم أن خلف هذا الطريق طريقا مفتوحا يقودهم إلى الإسماعيلية ، وقال فى إصرار :

ـــ يجب أن نستولى على منطقة القناة قبل أن نكف عن إطلاق النار .

وراح كل من الفريقين ينظر إلى عقارب الساعة نظرة تختلف عن نظرة الفريق الآخر ، كان المصريون يرون أنها تتحرك فى بطء شديد وكانوا يستحثونها للإسراع ويتمنون أن تطوى الزمن طيا ، بيد أن الإنجليز والفرنسيين كانوا يرون أنها تطير وكانوا يرجون أن تتريث حتى يحققوا أحلامهم ويحفظوا ماء وجوه زعمائهم الذين أعلنوا أن بور سعيد قد سلمت ، وأن القنطرة والإسماعيلية فتحتا للقوات المتحالفة .

وأصدر استوكويل قائد القوات البريطانية أوامره لقواته بأن تشق طريقها إلى الإسماعيلية ، فراحت الدبابات والسيارات المصفحة تمر على أجداث القتلى من المصريين ، وأخذ الجنود البريطانيون والفرنسيون يبقرون بطون الشهداء ويبترون أطرافهم ويعبثون بوجوههم ، لعل التمثيل بالموتى يخيف الأحياء الذين ضحوا بمدينتهم وقدموها قربانا لإنقاذ الوطن العزيز ، بيد أن هذه القسوة بثت فى نفوسهم طاقات من الكراهية والاستياء زادتهم استبسالا فى دفاعهم وتصميما على الصمود حتى الرمق الأخير .

واستمرت المعركة الرهيبة فى الظلام الدامس الثقيل فقد قطع تيار الكهرباء عن بور سعيد ، ودار قتال مرير ازداد ضراوة كلما مر الزمان ودنا من الساعة الثانية من صباح اليوم السابع من نوفمبر .

وارتفع عدد الضحايا وسالت الدماء وعبق الجو برائحة البارود واستمرت المعركة قاسية تسودها أسلحة الدمار ويسيطر عليها الفناء بينما يحصد الرجال حصدا ، إلا أن رجالا كانوا يعرفون لماذا يموتون ، بينما أن رجالا آخرين كانوا يموتون دون أن يعرفوا فى سبيل أى شىء باعوا أرواحهم .

وحانت اللحظة المرتقبة ووافت الساعة الثانية وقد أخفقت القوات الإنجليزية والفرنسية بأساطيلها ودباباتها ومصفحاتها وطائراتها وشياطينها الحمر والفدائيين والقناصة والمشاة وركاب السيارت فى أن تحتل كل بور سعيد ، وتنفس المصريون الصعداء وهللوا وكبروا ووضعوا السلاح احتراما لقرار وقف إطلاق النار .

وانقلبوا على أعقابهم ليضمدوا جروحهم وليلتقطوا أنفاسهم وليستريحوا بعد التعب الذى تغلغل فيهم حتى النخاع .

كان الشيخ حسن يشخص ببصره إلى السماء ويغمغم فى حرارة :

ـــ شكرا لك يا رب . شكرا لك يا رب .

وكان توفيق يقلب وجهه فيما حوله وهو ذاهل لا يكاد يصدق أن زحف القوات الإنجليزية والفرنسية قد توقف ، وكان مرجان يحس فى أعماقه سرورا طاغيا ، أسعده أنه هو وإخوانه صمدوا للإنجليز والفرنسيين ولم يفروا منهم مرعوبين . كان بالأمس القريب يقدم إلى وليمز أصناف الطعام وكانت تسعده كلمة إطراء تخرج من بين شفتيه ، وإذا به بعد العدوان يهب فى وجه وليمز ثائرا ويصليه هو ورفاقه السادة الإنجليز والفرنسيين نارا حامية ! صار ندا بل أمسى يشعر أنه أكثر منهم رجولة وفروسية .

وكان سليمان لا يقوى على أن يظل قائما على قدميه ، فجلس على الطوار يلهث يحس وخزا شديدا فى ذراعيه وكأن يدا قوية تضغط عنقه تكاد تكتم أنفاسه ، وعلى الرغم من برودة الجو كان العرق يتفصد من وجهه ويجرى إلى صدره .

وران على أرض المعركة سكون ما لبث أن مزقته أصوات عجلات تتحرك ، وأرهفت الآذان واشرأبت الأعناق وأخذت العيون تحاول أن تخترق حجب الظلام ، وإذا بصائح يصيح :

ـــ لم يضع الإنجليز والفرنسيون سلاحهم .. إلى أسلحتكم يا رجال .

وأسرع الرجال ليحتلوا أماكنهم ، إلا أن القوات الإنجليزية والفرنسية كانت قد توغلت فى مسالك بور سعيد .

ونشب القتال مرة أخرى وثبت المصريون فى وجه الخيانة ، ولاح الفجر ولم يؤذن لمطلعه ديك ، فقد التهمت النيران كل الدواجن والحيوانات مع من التهمتهم من أهالى الحى العربى .

وأشرقت الشمس وراحت ترسل أشعتها من خلال السحب والحرب دائرة لم يخب أوارها ، وارتفع رصيد الضحايا ، وحال المدافعون بأجسامهم وأرواحهم بين القوات الزاحفة وبين أن ينطلقوا إلى الإسماعيلية .

وفى الساعة العاشرة صباحا كف الجانبان عن إطلاق النار بعد أن احتل الإنجليز

والفرنسيون بالخديعة أحياء عجزوا عن احتلالها بالمدافع والدبابات والمصفحات والنابالم والصواريخ .

وجاءت إنصاف تقلب عينيها فى وجوه الناس وفى تلفتها خوف وقلق ، كانت تتفرس فى القتلى الذين حملوا على عربات اليد أو كدسوا فى سيارات النقل أو بعثرت جثثهم فى كل مكان ، وقد لاح عليها أنها تنقب عن عزيز غاب عنها .

وطافت بها موجة من الأسى وزاد هلعها وظلت تتلفت زائغة البصر ، واستشعرت رغبة فى أن تبكى لتنفس عن الضيق الذى نزل بها إلا أنها أخذت تهرول وتنساب بين حشود الرجال وهى تتطلع إلى وجوههم التى كانت تعكس آثار المعركة الدامية الرهيبة التى خاضوا غمارها .

ولمحت ثلة من الرجال يدفنون بعض القتلى فى ملعب النادى المصرى ، فخيل لها وهمها أنها ترى الشيخ حسن بينهم ، فانطلقت خافقة القلب مبهورة النفس تكاد تنوء من الخوف إلى حيث كان الرجال ، وراحت تفرهم بعيون غامت بالدمع فلم تجد بينهم أحدا ممن تعرفهم ، وهرعت تنظر إلى الشهداء الذين لم يقبروا بعد ثم دارت على عقبيها تعاود تلفتها يتنازعها اليأس والأمل .

وراحت تهرول فى أثر سيارة كانت دماء الشهداء تقطر منها وترسم على أرض الشارع خطا ، وهمت بأن تهتف بالسائق أن يقف لتبحث بين الضحايا عن العزيز الذى يكاد يمزق قلبها غيابه ، إلا أنها لمحت مأمونا أغبر أشعث فهتفت فى وله وهى تتجه إليه :

ــ مأمون ! مأمون !

فالتفت مأمون ناحية الصوت ، ولما وقعت عيناه عليها خف إليها وهو ينادى فى وجد :

ــ إنصاف . إنصاف .

وكاد ينسى نفسه وكل من حوله ويضمها إلى صدره ، إلا أنها قالت فى لهفة :

ــ ألم تر عبود يا مأمون ؟

ــ رأيته .

ـــ أين؟

ـــ كان يحارب معنا فى شارع محمد على ومنذ الغروب غاب عن عينى .

وانطلقا معا يبحثان عنه ، كان الأخ يحمل أخاه القتيل على ظهره ، وكان بعض الرجال يحملون بعض القتلى على ألواح من الخشب ، وفضل بعض الناس أن يدفنوا الشهداء بملابسهم ودمائهم حيث قتلوا . وظل مأمون وإنصاف يجوسان خلال المدينة التى كان الناس يموجون فيها كيوم الحشر ، ومما زاد الأمر تعقيدا أن الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون عند شواطئ المنزلة ليفروا من المدينة اضطروا إلى العودة إليها بعد أن احتلت القوات الإنجليزية والفرنسية مرفأ البحيرة وفرضوا عليه حراسة شديدة .

ورأى مأمون مرجانا فهرع إليه وإنصاف فى أثره ، ثم قال له :

ـــ ألم تر عبود ؟

فراح مرجان يفكر برهة ثم قال :

ـــ لا ، ولكنى رأيت فانوس لما ألقى بنفسه على الدبابة ، كان رائعا . ودق قلب إنصاف دقات خوف وأخذت تنظر إلى لا شىء نظرات زائغة قلقة ، ثم قالت :

ـــ وماذا فعل فانوس؟

قال مأمون فى صوت خافت حزين :

ـــ استشهد .

وانطلقوا ينقبون عن عبود ونادت إنصاف :

ـــ شيخ حسن . شيخ حسن .

كان الشيخ حسن وسليمان يسيران لا يلويان على شىء ، لا يعرفان إلى أين يذهبان وقد دك الحى العربى كله ولم يعد لهما مأوى يأويان إليه . كانا يشعران بشعور اللاجئين وإن كانا ينسابان فى طرقات مدينتهم .

والتفت الشيخ حسن ، ولما رأى إنصاف ومأمون ومرجان أحس شيئا من الراحة ، لم يعد وحيدا ، سيذوق راحة البال حتى إن عاش معهم فى الخلاء .

وقالت له إنصاف فى نبرات واجفة قلقة :

ـ ألم تر عبود ؟

وتلفت الشيخ حسن فى قلق ولم يحر جوابا وطاف به ضيق ، وراح يسأل نفسه فى تأنيب : كيف لم يفكر فى أن يبحث عنه ؟! وران على الوجوه وجوم ، وتقدم سليمان وقال :

ـ رأيته يجرى ناحية حى العرب لما كانت النار مشتعلة فيه .

وهرعوا جميعا إلى الحى العربى ينقبون عن عبود بين الأجسام التى تفحمت والتى أكلتها النار أو شوهتها ، واستمروا فى بحثهم حتى إذا ما وصلوا إلى شارع الأمين رأوا من بعيد شبحا قائما على أنقاض ما كان يوما ما بيت عبود ، ورأته إنصاف بقلبها قبل أن تراه بعينيها فجرت نحوه وهى تنادى فى وجد ولهفة :

ـ عبود ! عبود !

والتفت عبود فرأت إنصاف فى عينيه دموعا وقد لسعت النيران وجهه ونمت قسماته عن أسى عميق ، فسرت فى بدنها رعشة خفيفة وهفت روحها إليه ، ولو طاوعت نفسها لضمته إلى صدرها الملهوف .

وقال الشيخ حسن وهو يلف ذراعه حوله ويضمه إليه برفق :

ـ قلقنا عليك ، خفنا أن يكون أصابك مكروه .

وراح مأمون يدور بعينيه فى المكان ، ولأول مرة أحس هول الفجيعة ، ماتت بهية اغتالها الإنجليز والفرنسيون ، صار فى الدنيا وحيدا . كانت بهية كل أهله ، بل كل ما يربطه بالبشرية بوشائج القربى ، كان كلما خلا بنفسه يحلم بأن أبناءها سينادونه يا خالى ، وكان رنين النداء يفتح عوالم رحيمة رحيبة من المحبة فى نفسه ، وإذا بموتها يطمر كل إشراقة رقيقة حانية تنبعث من سويداء قلبه .

ووقع بصره على إنصاف فإذا بشعاع من النور يتدسس إلى الظلام الثقيل الذى جثم على روحه ، وإذا برحمة كأنها البلسم تمس جروح وجدانه .

ووقف مرجان بعيدا ، كان يشعر وهو فى قلب المعركة أنه سيد عظيم من حقه أن يجدل السادة زرق العيون ، كانت طلقاته ترديهم أو تلقى الرعب فى قلوبهم ، أما الآن فقد كان يحس أنه ضئيل ، لا أحد يحفل به أو يقدر شأنه ، وهم بأن يدور على عقبيه

وينصرف إلى بيت توفيق، وإذا بإنصاف تقول :

ـــ هيا يا عبود . هيا يا مأمون . هيا يا شيخ حسن . هيا يا مرجان . هيا يا سليمان .

وشعر مرجان بشيء من الراحة، فإنصاف تدعوه مع من دعت من أصحابها إلى أن يذهب معها، إنه راض وإن كان لا يدرى إلى أين يذهبون .

وقال مأمون :

ـــ إلى عيادة الدكتور حازم لتستريحوا .

وساروا وكانت إنصاف تختلس النظر إلى عبود بين لحظة وأخرى . إنه مرهق، لا تكاد ساقاه تقويان على حمله، ليتها تسنده بذراعيها، أو تمد له يدها يتوكأ عليها !

وكان مأمون يسير إلى جوار إنصاف يحادثها وهى تتظاهر بالإنصات، إلا أن كل مشاعرها كانت ترفرف حول ذلك السائر فى صمت وفى وجهه لسع النار، وفى قلبه، وفى عينيه وجوم وشجن، وكان سليمان يضع يده على قلبه كأنما كان يرفعه ليحول بينه وبين أن يسقط فى قدميه، بينما كان الشيخ حسن مشغولا بالحديث مع مرجان .

ووصلوا إلى عيادة الدكتور حازم وإنصاف تسند ظهر عبود بصدرها وتلف ذراعها حوله، كانت مشفقة عليه من قسوة الآلام التى يقاسيها، إلا أنها كانت تستشعر نوعا من الرضا لأن عبود بين ذراعيها وصدرها ؟ . لا بل لأنها كانت تحوطه بروحها .

ودخلوا العيادة ووضعت إنصاف عبود فى سرير، ثم ذهبت تفتح صنبور الماء دون تفكير، ولم تنزل منه نقطة واحدة . وفى لمح البصر تذكرت كل شيء فلا ماء فى المدينة كلها منذ أن وضعت القوات الغازية يدها على محطة المياه فى الرسوة .

ونظر الرجال إلى صنبور الماء الذى جف ولاحت فى وجوههم آثار ما كان يعتمل فى رءوسهم من أفكار، وإذا بمأمون يقول :

ـــ لا بد أن نسقى المدينة رغم أنف قوات الإنجليز والفرنسيين المنتشرة فى كل مكان .

وخرج مأمون وخرج مرجان فى أثره ، وتحرك سليمان ليخرج معهما فقال له الشيخ حسن :

ـــ امكث هنا . إنك مجهد ، أنت فى حاجة إلى الراحة . ارحم قلبك .

فقال سليمان وهو منطلق نحو الباب :

ـــ لا . إنى ذاهب معكم .

وخرجوا ليحملوا الماء إلى أهل المدينة فى غفلة من القوات الإنجليزية والفرنسية التى انتشرت فى أرجاء بور سعيد ، تحرس المرافق وتسد المنافذ وترصد حركات الناس .

وعادت إنصاف حيث رقد عبود فألفته قد راح فى سبات ، فأخذت تتخلل بأصابعها شعره ، وأحست رغبة طاغية فى أن تضع شفتيها على شفتيه .

— ٤٨ —

وضع توفيق سلاحه خلف الباب وسار يجر رجليه إلى غرفة النوم ، وأخذ يخلع ملابسه وهو مسبل العينين من التعب ، ثم انطلق بين النائم واليقظان ليغسل رأسه فلم يجد ماء ، فعاد وارتمى فى فراشه وراح فى سبات .

وغط فى نومه غطيطا ، حتى إذا ما أحس جسمه بالراحة جعل يتقلب ويدور فى السرير ويغطى وجهه بوسادة وسرعان ما يقذف بها بعيدا ليسحب الغطاء ويخفى به رأسه ، وسمع فى منامه دوى انفجارات وأزيز طائرات ، ورأى كأن دبابة تهم بأن تدهمه فهب من نومه مفزوعا وهو يصرخ فى هلع ويتلفت فى رعب ، ويحس جفافا فى حلقه وبقلبه يدق دقات عنيفة استجابة للرهبة التى سرت فيه من الرأس إلى القدم .

واستمر مدة يحاول أن يسترد أنفاسه المبهورة بعد ذلك الكابوس المخيف الذى كاد يمزقه تمزيقا ، وعجب من نفسه : كيف يستولى عليه كل هذا الخوف وهو فى فراشه بينما لم يستشعر بمثله لما كان فى حومة الوغى والقذائف تتساقط حوله والدبابات تزحف نحوه والطائرات تنقض فوق رأسه وتلقى بقنابلها وتطلق صواريخها ؟!

وبدأ الخوف ينقشع ويعود الهدوء إلى نفسه فتمدد فى فراشه مرة أخرى ، إلا أن النوم لم يعرف طريقه إلى عينيه على الرغم من أنه أطبقهما لعل الوسن يطوف بهما .

ونشط ذهنه وراح يمده بالأحداث الهائلة التى وقعت فى فترة وجيزة وبدلت الحياة تبديلا ، كانت جانيت تشاركه هذا الفراش منذ أيام قليلة وإذا بها فى غمضة عين تذهب وتتركه وحيدا .

ومد يده وراح يتحسس وسادتها الخالية فى رقة ، فغام وجهه بسحابة من الأسى وتدفقت فى جوفه مشاعر حزينة وطافت بذهنه لحظات الصفو التى برقت فى حياته ، فزادت آلامه وجعلته يحس بشاعة الفراغ الذى أصبح فيه .

ولم يستطع أن يستمر ممددا فى فراشه فنهض ، وإذا به يتجه إلى صورة جانيت وهو شارد يفكر ، ووقف أمام الصورة يتفرس فيها وما لبث أن استحضر ذهنه مشهد نهايتها الأليمة .. رآها تجرى صوب غلام يبكى فى عرض الطريق والقنابل تنهمر حوله وصواريخ الطائرات تنطلق إلى الأرض كالصواعق ، ورآها تحمل الغلام وقبل أن تبتعد عن الخطر تنهار به والدم يتفجر منها .

ومسح وجهه بيده كأنما يحاول أن يمحو الصور البشعة التى احتلت ذهنه ، ليته يستطيع أن يمحو ذلك الماضى البغيض كله بما فيه من مآسى وكوارث وفواجع . هيهات أن يعود الأحبة . من يذهب لا يعود . يا للأسف !

ودار على عقبيه وهو بائس حزين ، يا لهذا الفراغ ! يا لهذه الوحدة القاتلة ! وسار فى الغرفة ووقع بصره على قميص نوم لها كان معلقا بالقرب من السرير ، فارتجف كأنما رأى شبحا واتسعت عيناه رعبا واشتد وجيب قلبه وسرت فيه قشعريرة .

وتسمر فى مكانه والاضطراب يرجه والأسى يغمره . وما لبث أن كبح جماح نفسه القلقة فإذا بحنين ينتشر فى كيانه فينساب إلى القميص كالمأخوذ وتعبث أصابعه فيه ، وتركزت كل مشاعر الوجد والمحبة فى أنامله فإذا بها تفجر كنوز الرقة فى جوفه ، فدفن وجهه فى القميص وأجهش بالبكاء ، وأفلت منه زمام أمره فعلا صوته بالنحيب وراح يغمغم : جانيت .. جانيت .. جانيت .

وعاد ليجلس على حافة السرير وحمل رأسه بكفيه وهو حزين ، وإذا بصورة

مستر جونس رجل التأمين الأصلع المغرور تحتل كل ذهنه ، وخيل إليه أن قهقهاته الكريهة ترن فى أذنيه زاخرة بالشماتة فياضة بالحقد البغيض ، وصاح وهو يشير بأصبعه إلى مستر جونس الذى خيل إليه أنه قائم أمامه :

ـــ أنت وأمثالك الحاقدون يا مستر جونس سبب تعاسة البشر ، لو خلت الدنيا من أمثالك لما عرفنا الشقاء . أنتم الذين تنفخون نار الكراهية والبغضاء بين الشعوب ، أنتم وقود الحروب ، أصاغت دماء جانيت والأبرياء المسالمين قلائد مجد فى صدرك ؟ أنت يا مستر جونس حقير .. حقير .

وزفر زفرة شديدة من صدر مكروب وراح يجوس خلال الغرف وهو يتلفت ، إن كل قطعة من قطع الأثاث وكل ركن من أركان البيت يذكره بجانيت ، وأراد أن يهرب من انفعالاته التى كانت تؤجج نار حزنه فراح يهتف بصوت عال ليشغل نفسه عن الرؤى التى راحت تحتل أفكاره :

ـــ مرجان ! مرجان ! أين أنت ؟

ليت أحدا يأتى ليخرجه من العذاب الذى يعيش فيه ، وخطر له أن يدير الراديو ليفر من وحدته القاتلة التى تضنيه فاتجه إليه وأداره وانبعث نشيد «الله أكبر» يهز المكان هزا ، فراح يصغى إليه وهو منفعل به مندمج فيه .

ورنا إلى الراديو رنوة طويلة ثم غمغم :

ـــ والله لقد لعبت دورا هائلا فى المعركة ، كنت السلاح الذى يطعن الأعداء طعنات نجلاء فى الأماسى والأصابيح .

وراحت أم كلثوم تغنى : «والله زمان يا سلاحى» فتذكر سلاحه الذى تركه خلف الباب فقام إليه ليقطع الوقت بتنظيفه .

حمل سلاحه وهم بأن يعود به ليكون بالقرب من الراديو وإذا بطرقات عنيفة على الباب ، فذهب ليفتح وهو فى دهش من تلك الطرقات ، وما أن فتح الباب حتى رأى وليمز وحوله بعض الجنود البريطانيين ، فزوى ما بين حاجبيه ولاح الامتعاض فى وجهه ، وقبل أن يتحرك هجم عليه جنديان بريطانيان وانتزعا منه السلاح ونحياه من الطريق ، فتدفق الجنود إلى الشقة وراحوا يفتشون عن الأسلحة فى كل مكان .

ودخل ويلز وراح يقلب وجهه فى كل مكان فى صلف وخيلاء، ووقف توفيق يصرف أنيابه فى غيظ، ثم قال لويلز :

ـــ لا مرحبا بك فى بيتى .

وسكت صوت الراديو فجأة فهرع توفيق ليرى ماذا حدث فألفى أحد الجنود يحمل الراديو بين ذراعيه، فهجم عليه لينتزعه منه وإذا بالجنود الآخرين يدفعونه بعيدا . وسمع صوت ويلز يقول له :

ـــ اهدأ خيرا لك . وإلا أمرتهم أن يستعملوا الشدة معك .

فقال توفيق فى غضب :

ـــ هذه سرقة .. أنتم لصوص .

ـــ إننا نجمع كل أجهزة الراديو .

ـــ لماذا ؟

فابتسم ويلز ابتسامة استخفاف ثم قال :

ـــ أنا واثق أنك أعرف الناس بالسبب .

وراح الجنود يعبثون بكل شىء، يلقون بالوسائد والحشايا على الأرض ويفتحون الأدراج ويخرجون كل ما بها، وفتح أحدهم صوان الملابس وراح يطوح ثياب جانيت بعيدا، فثار توفيق ولم يستطع أن يكظم غيظه فهجم على الجندى يمنعه مما يفعل ويصيح به بالإنجليزية :

ـــ أنت سافل .. حيوان .

واستدار إليه الجندى ولكمه لكمة شديدة أطارت صواب توفيق، فهجم عليه وسدد إليه ضربات بيمينه وشماله، وإذا بالجنود الآخرين يهجمون عليه ويوسعونه ضربا ولكما .

وأمر ويلز جنوده أن يتركوه، ثم قال له بالعربية :

ـــ نصحتك فلم تستمع لنصحى، اهدأ خير لك، لولا أنك صديق لأمرتهم بإلقاء القبض عليك .

فقال توفيق فى غضب وهو يمسح الدم الذى سال من فمه بظهر يده :

ـــ ما يحز فى نفسى أنى عرفتك يوما .

ورفع أحدهم قطعة دقيقة من ثياب جانيت الداخلية ونشرها بين يديه وجعل يهزها هزا خفيفا فضج رفقاؤه بالضحك ، ورأى توفيق ما يفعلونه فثارت دماؤه فى عروقه وهجم عليهم وهو يصيح :

ـــ يا أوغاد ! يا سفلة !

ونشبت بينه وبينهم معركة ، وقبل أن تحتدم صاح وليمز :

ـــ اتركوه . إنه صديق . فهو من أصهارنا .

ورأى الجنود صورة جانيت ففهموا أوامره . وأحس توفيق عظم الإهانة التى رماه وليمز بها فمسح الدم الذى يسيل من فمه بكفه ثم مد به يده وقال :

ـــ هذا الدم مصرى وسيظل إلى الأبد دما وطنيا . إنى ما تمنيت شيئا يا مستر وليمز قدر ما تمنيت أن أصرعك لما رأيتك فى سيارتك الجيب فى صفوف أعدائنا .

فنظر إليه وليمز فى شذر وقال :

ـــ مغفل . كنت أعلق عليك آمالا كبارا .

فقال له توفيق فى زراية :

ـــ لأنك غبى .

واستشاط وليمز غضبا ، ولم يعد قادرا على أن يتحكم فى أعصابه ، فضرب توفيق على وجهه بظهر يده . فقال توفيق بالإنجليزية :

ـــ هذه أفعال الجبناء .

والتفت وليمز إلى جنوده وقال :

ـــ إنى أبحت لكم البيت بكل ما فيه .

وراح الجنود يسلبون البيت ويحملون التحف ويدسون فى جيوبهم كل ما تصل إليه أيدهم من القطع النادرة التى جمعها توفيق من البلاد التى طاف بها .

ومد أحدهم عينيه إلى صورة جميلة لجانيت وسرعان ما أخفاها فى جيب من جيوب ملابسه .

وطفق وليمز يبحث وينقب فى الغرف جميعها ، واندفع إلى المطبخ وراح يعبث

بكل ما فيه ، ثم عاد إلى توفيق وقال له :

ـــ قل لى : أين أخفيت الأسلحة ؟

فرماه توفيق بنظرة هازئة ثم قال :

ـــ أنت لا تبحث عن أسلحة هنا يا مستر وليمز ، أنا أعرف عمن تبحث .

وصمت قليلا وظهر الارتباك فى وجه وليمز ، ثم قال توفيق :

ـــ إن كنت تريد أن تعرف أين جانيت فإنى أقول لك إنها قتلت ، قتلتها طائراتكم فيمن قتلت عدوانا وظلما . وإن كنت تريد أن تعرف رأيها فيما فعلتم فإنى أقول لك إنها كانت تتمزق غيظا من الحماقة التى ارتكبتموها ، كانت تبرأ منكم ومن وحشيتكم . إنها لم تصدق أبدا أن بلادها ترتكب مثل هذه الحماقة ، وكان تعليلها لهجومكم علينا الذى لم يكن له ما يبرره إلا الحقد ، إن إيدن قد جن .

لم تكن تريد أن تصدق أن الإنجليز من أمثالك يا مستر وليمز الذين عاشوا معنا وخرجوا من ديارنا مع قوات الجلاء هم الذين أتوا يوقدون نار الحرب ، هم الذين أخرسوا صوت ضمائركم وباركوا قتل آلاف الأبرياء ليعودوا للنعيم الذى كانوا فيه .

لتعود يا مستر وليمز لمجدك الضائع وسلطانك الذى حرمت منه ، قبلت أن تقتل جانيت وأن تقتل زوجة عبود وأن يقتل فانوس وأن يقتل الرجال والشيوخ والنساء والأطفال الأبرياء ، من آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وفلذات أكبادنا . قد لا تهمك أكبادنا ، قد لا تهمك يا مستر وليمز كل هذه الدماء الزكية التى أريقت ، فبماذا تقنع ضميرك إذا استيقظ يوما وسألك عن أرواح الشبان من أبنائكم الذين غررتم بهم وسقتموهم ليموتوا غرباء معتدين آثمين لا يجدون من يترحم عليهم أو يصلى على أجداثهم ؟

وصاح وليمز فيه :

ـــ كفى هراء يا توفيق أفسدتك الدعاية التى تنفثها إذاعتكم ، إننا ما عدنا إلا لنعيد إليكم حريتكم ، لنحول بينكم وبين أن تتردوا فى مهاوى الشيوعية .

ودنا من توفيق وقال له فى لين :

ـــ اسمع يا توفيق، إن كنت تحب بلادك حقا فتعاون معنا على أن نحقق الأهداف الطيبة التي ضحينا بأبنائنا فى سبيل تحقيقها.

فقال توفيق فى انفعال:

ـــ أتعرف ماذا كانت وصية جانيت لنا قبل أن تموت؟ قالت: قاوموا هذا الطغيان. كانت جانيت يا مستر وليمز تحب بلادها أكثر من حبك إياها، كانت ترى فى هذا العدوان خسارة لكم وخفضا من هيبتكم وتحقيرا لشأنكم. قالت لى يوما: إن الأسد البريطانى فقد هيبته بعد أن لوى مصدق ذيله وأخشى أن يرتكب حماقة أخرى فتنتزع أنيابه.

لقد تحققت مخاوف جانيت بفضل مشورتك ومشورة أمثالك الطامعين فى العودة إلى بلادنا يا مستر وليمز. انتزعت أنياب الأسد البريطانى هنا فى بور سعيد. وضيعتم إمبراطوريتكم ولم تجنوا إلا مقت الشعوب لكم.

ونفذ صبر وليمز فصاح فيه:

ـــ اخسأ.

وقرب توفيق وجهه من وجه وليمز وقال:

ـــ أنتم الذين جنيتم على بلادكم، جنايتكم علينا أهون من جنايتكم على أنفسكم، جروحنا ستندمل، أما السوس الذى بدأ ينخر فيكم فسينتهى به الأمر إلى أن يقوضكم. إننا يا مستر وليمز الشمس الصاعدة، أما أنتم فشمس مالت للغروب.

ولم يجد وليمز ما يرد عليه إلا أن يلطمه بيده، ودوت اللطمة حتى إن الجنود الذين كانوا منهمكين فى سلب الدار هرعوا ينظرون ماذا جرى.

كان صدر وليمز يعلو وينخفض فى غيظ، وكان توفيق يتحسس وجهه بيده، كانت اللطمة قاسية إلا أن وقع كلام توفيق على نفس وليمز كان أقسى وأمر.

ورفع توفيق رأسه ورمى وليمز بنظرة احتقار ثم قال:

ـــ كم كنت أتمنى أن تكون جانيت هنا إلى جوارى فى هذه اللحظة لتقول لك معى: اخرج من ديارنا.

وهم وليمز أن يأمر جنوده بأن يلقوا القبض عليه إلا أنه آثر أن يتريث أن يتركه

خيطا يقوده إلى زملائه المتحمسين مثله ، ويومئذ لن يتردد فى أن يلقى القبض عليهم جميعا .

وأمر وليمز جنوده بأن يتأهبوا للانصراف . فجاءوا يحملون تحف الدار ، ولاحظ توفيق أن صورة جانيت قد اختفت ، فذهب إلى وليمز وقال له :

ـــ قل لجنودك الأشراف أن يعيدوا إلى صورة زوجتى .

ولم يحرك وليمز شفتيه ، ولم تبد من أحد الجنود بادرة توحى بأنه سيخرج الصورة من مخبئها ، فقال توفيق فى غيظ :

ـــ كنت أشرف منكم لما كنت فى بلادكم ، كنت أستطيع أن أسرق جانيت ، أن أعبث بها ثم أعود إلى بلادى ! ولكنى آثرت أن أكون شريفا ، تزوجتها ولم أخدعها ، حملتها إلى بلادى مكرمة ولم أسرقها . كنت أظن أنى أستطيع أن أبنى جسرا من المحبة بين بلادى وبلادكم ، ولكنكم أفسدتم كل شيء ، حطمتم كل جسور المحبة التى أقيمت بيننا وبينكم . حتى الصورة التى تذكرنا بالجانب الطيب فيكم أبيتم إلا أن تسرقوها .

ومد أحدهم يده فى صدره وأخرج الصورة ، ولم يقو على أن يقدمها إلى توفيق بل وضعها فى صمت على نضد قريب ، ثم انسلوا خارجين لا يقوى أحدهم على أن يواجه نظرات توفيق ، حتى وليمز سار وهو يتحامى أن تقع عيناه عينيه .

وراح توفيق يغدو ويروح وهو غاضب ، وسمع حركة خلفه فالتفت وهتف فى راحة :

ـــ مرجان ؟

وذهب إليه ولفت نظره الوعاء الذى يحمله فقال له :

ـــ ما هذا ؟

فقال مرجان وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه البيضاء :

ـــ ماء وزعناه على المدينة كلها على الرغم من حراسة الإنجليز والفرنسيين المشددة ، ثم جئت بنصيبنا منه .

وسار مرجان بالماء صوب الحمام ، ثم التفت وقال :

ـــ اختبأت حتى انصرف وليمز وجنوده ، ماذا جاء يفعل هنا ؟

فقال توفيق وقد ضيق عينيه وزوى ما بين حاجبيه : جاء يبحث عن المتاعب .

— ٤٩ —

كانت بور سعيد غارقة فى الظلام ، المحال كلها مغلقة والسكون يسيطر عليها ، ولم يكن يسمع فى طرقاتها إلا وقع أقدام الجنود الغزاة الذين يقومون بالحراسة ، وأصوات عجلات عربات اليد واللوريات التى كانت تحمل جثث الشهداء .

وانطلقت إنصاف تغذ السير وهى تسد أنفها بيدها لتتحامى الروائح الكريهة التى تنبعث من الجثث ومن طفح المجارى بعد أن انفجرت أنابيبها .

ومس أذنيها مناجاة رجلين ، كان أحدهما شابا والآخر شيخا ، قال الشاب :

ـــ هل وجدته يا أبى ؟

وقال الشيخ : لم أعثر على جثته بعد .

قال الشاب : لعله لم يقتل ؟

فقال الشيخ : قال لى أكثر من شاهد إنه قتل هنا .

وابتعدت عنهما ، وإذا بأحد الجنود البريطانيين يعترض سبيلها ويلقى على مسامعها بعض كلمات بالإنجليزية لم تفهم معناها ، إلا أنها خمنت أنه يسألها : إلى أين أنت ذاهبة ؟ فأشارت له إلى ثوبها الأبيض لتقول له : أنا ممرضة . ثم انسابت فى طريقها فى خطوات ثابتة .

وبلغت عيادة الدكتور حازم ففتحت الباب فى رفق ، كان الظلام ثقيلا حتى إنها لم تستطع أن ترى طريقها ، وسمعت الشيخ حسن يقول :

ـــ يجب عليك يا سليمان أن ترحم نفسك ، أنت فى حاجة إلى سرير وإلى ممرضة .

فقالت إنصاف فى رقة :

ـــ السرير موجود والممرضة موجودة .

فقال الشيخ حسن :

— إنصاف ؟ كيف جئت والتجول فى هذه الساعة محظور ؟

— ثيابى جواز مرور .

وتقدمت قليلا ثم قالت :

— لماذا تقعدون فى الظلام ؟

فقال سليمان :

— هل عادت الكهرباء إلى المدينة ؟

— لا . عندكم مصباح جاز .

واتجهت ناحية دورة المياه وهى تقول :

— العمليات كلها تجرى الآن على أضواء الشموع والمصابيح .

وقال سليمان :

— ترى كم أما وضعت مولودها الآن فى هذا الظلام ؟

وانتفض عبود فى سريره ، نكأ قول سليمان جروحه فقفزت إلى ذهنه أحداث تلك الليلة الرهيبة التى وضعت فيها بهية حسينا فى أثناء الغارات .

وأقبلت إنصاف تحمل المصباح فإذا بالنور ينتشر فى أرجاء المكان .

كان الشيخ حسن جالسا على الأرض وقد بسط رجليه ، وكان سليمان إلى جواره يلف ذراعيه حول صدره كأنما يمنع قلبه من أن يفر من بين جنبيه ، وكان عبود جالسا على حافة السرير ورجلاه متدليتان .

وسارت إنصاف إليه ورأت فى وجهه عبوسا وقرأت فى عينيه قصة أساه ، فخفق قلبها رقة وقالت له :

— أتشرب شايا ؟

ونهض سليمان وقال فى فرح :

— أعندك شاى هنا ؟

فقالت إنصاف وهى تضع المصباح على نضد يتوسط الغرفة :

— سأعد لكم شايا بكرا .

فقال سليمان :

ــ شايا بكرا ؟!

ــ أى شاى لم يمسسه بشر قبلك .

فقال سليمان وهو يضحك :

ــ أعتقد أن مثل هذا الشاى لا يوجد فى المقاهى ، إننا نشرب شايا استعمل أكثر من مرة .

فقال الشيخ حسن :

ــ ذلك شاى ثيب .

وغابت إنصاف عن عيونهم ، ذهبت لتعد لهم الشاى ، وظل عبود صامتا وإن ضايقه هذا المزاح . أحس غيرة تتحرك فى حشاياه وتتدفق إلى صدره حادة تؤلم مشاعره ، وأراد أن يوجه غيرته وجهة يرضاها فراح ينكر على الشيخ حسن أن يمزح وهو لا يدرى أين زوجته وابنه وماذا أصابهما ، إن اسم فتحية لم يجر مرة على لسان زوجها ، ترى أتخطر على قلبه ؟

وكأنما أراد أن ينبهه إلى أهل بيته الذين نسيهم فقال :

ــ هل رأى أحدكم السيد صديق ؟

وسمعت إنصاف ما قال ، كانت أذناها معه فقالت فى صوت عال :

ــ رأيته اليوم . جاء بأكثر من جريح إلى المستشفى .

وربت سليمان على ظهر الشيخ حسن ثم قال :

ــ حماك بطل .

فرفت ابتسامة خفيفة على شفتى الشيخ حسن ثم قال :

ــ كان يتحسر على أنه أنفق شبابه فى حياة رتيبة بلا ثورات ولا انفعالات ، كان دائما يقول أيامكم خير من أيامنا . أيامكم مليئة بالبطولات والتضحيات والأعمال المجيدة .

قال سليمان :

ــ ها هو ذا قد عاش أوقات مثيرة .

وسمع طرق على الباب فهب عبود والشيخ حسن وسليمان منتصبين ، وخف

عبود إلى بندقيته ، وقال سليمان :

ـــ ترى من ذا الذى يدق الباب فى هذه الساعة ؟

وقال الشيخ حسن وهو يحاول أن يخفي سلاحه :

ـــ إنهم يبحثون عن الأسلحة ، أخفوا أسلحتكم .

وقالت إنصاف وهى تذهب إلى الباب :

ـــ ناموا . المرضى لا يستيقظون حتى هذه الساعة .

وهرعوا إلى الأسرة وتمددوا فيها وتظاهروا بالنوم وإن أرهفت حواسهم وراحوا يرقبون ما يحدث من بين أهدابهم المسبلة على العيون ، وفتح الباب وصاحت إنصاف :

ـــ مأمون ؟! أهلا بك .

وقفز الرجال الثلاثة من الأسرة وانطلقوا إلى مأمون ، لم يكن وحده بل كان فى رفقة صديق يرتدى ثياب الصيادين ، قال له الشيخ حسن :

ـــ ادخل . حماتك تحبك . الشاى حاضر .

وقال سليمان فى سرور :

ـــ شاى بكر .

وجلسوا وراحت إنصاف تدور عليهم بأكواب الشاى ، والتقت عيناها بعينى مأمون وكان عبود يرصدهما فرأى البريق الذى التمع فى عينى مأمون والبسمة التى توجت شفتى إنصاف ، فانقبض ولاح فى وجهه الضيق ، وكأنما خشى أن تفضحه نظراته فأطرق والغيرة تزحف إلى صدره .

وأمسك سليمان بوسطه وراح يتلفت ثم قال :

ـــ برد . من أين يأتى هذا البرد الشديد ؟

قالت إنصاف :

ـــ جميع الشبابيك مغلقة .

والتفت مأمون إلى صديقه وقال :

ـــ عملها اليهود ، ألبوا علينا الإنجليز والفرنسيين .

وضع الشيخ حسن كوب الشاى على الأرض وقال :

— هذه ليست أول مرة يؤلبون فيها أعداءنا علينا ، فعلوا فى السنة الخامسة من الهجرة ما فعلوه هذه الأيام . كان اليهود يعيشون فى المدينة مع رسول الله ﷺ .. كانوا يعيشون معه فى سلام ظاهرى ، إلا أنهم كانوا يحقدون عليه أشد الحقد ، وكما خرج بن جوريون يؤلب علينا إنجلترا وفرنسا خرج زعماء اليهود من المدينة وذهبوا إلى قريش وقالوا لساداتها : نحن معكم حتى نستأصل محمدا وصحبه . ثم ذهبوا إلى زعماء القبائل العربية الذين كانوا على دين آبائهم وقالوا لهم : نحن معكم حتى نستأصل محمدا وصحبه . وخرجت جيوش قريش وجيوش القبائل العربية فى عدد عظيم وفى عدة لم تعرف الصحراء مثلها ، وسمع المسلمون بخروج هذه الجيوش فحفروا حول المدينة خندقا . وأقبلت جموع العرب لقتال المسلمين واستئصالهم ولكنهم لما رأوا الخندق أحسوا خيبة أمل ، فما كان حفر الخندق من أساليبهم فى القتال .

كان رسول الله يعد المسلمين بالنصر بعد الحصر ، وكان فى ذلك العصر منافقون كما هو الحال فى كل أوان ، فقالوا : « ألا تعجبون ؟ يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر فى يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا ، وما وعدنا رسول الله إلا غرورا » .

وقال المؤمنون : « الحمد لله ، موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر » .

وانقضى شهر ولم ينشب حرب بين الفريقين إلا رميا بالنبل ، وفى ذات يوم دعا رسول الله على الأحزاب ، على الذين جاءوا للقضاء عليه وعلى المسلمين :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

وهبت الرياح تقتلع خيام الكفار وتطرح آنيتهم ، فدبت الفوضى فى معسكرهم ولم يجدوا إلا الرحيل .

وذهب المسلمون إلى اليهود الذين ألبوا الأحزاب عليهم وانتقموا منهم ، وفتح الله على المسلمين قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وصدق وعد الله ورسوله ، ولم يهدأ

للمسلمين بال إلا بعد أن أجلوا اليهود عن المدينة .

فقال سليمان :

— أتمنى أن أجود بروحى فى سبيل إجلاء اليهود عن فلسطين .

وقالت إنصاف :

— ليتنا نموت كلنا فداء لها .

وقال الشيخ حسن :

— كلنا نعيش على أمل واحد ، أن نلقى الصهانية يوما فى عرض البحر .

وشرد مأمون ، احتل راسم كل تفكيره ، كانت أمنيته الغالية أن يدخل تل أبيب مع الجيوش العربية الظافرة ، وأن يتسنم أعلى ما فيها وأن يناجى أمه التى قتلت فى دير ياسين .

وقطب جبينه وهمس فى جوفه هامس : « إن كانت أمنية راسم لم تتحقق بعد فسيأتى اليوم الذى تتحقق فيه ، وستردد آلاف الأصوات فى جنبات فلسطين هاتفة مع أهازيج النصر : أيتها النفوس التى قتلت فى سبيل فلسطين ، أيتها الأرواح التى ماتت شريدة بعيدا عن وطنها ، اطمئنى وعودى إلى ربك راضية مرضية ، فقد عدنا إلى ديارنا » .

وتحركت إنصاف فأفاق مأمون من شروده وقال :

— ما يغيظنى أن اليهود يدعون أنهم هزمونا فى سيناء .

فقال زميل مأمون :

— وماذا يهم الادعاء ما داموا فى قرارة أنفسهم يعلمون أنه لولا دخول إنجلترا وفرنسا الحرب لنجدتهم لكنا الآن فى قلب إسرائيل ؟

كان يعبر عن رأى ارتآه وما دار بخلده أن بن جوريون وقف فى الكنيست يقول :

— إن قواتنا لم تحرز أى انتصار أمام الجيش المصرى .. وأنا أعتبر تدخل بريطانيا وفرنسا فى القتال يوم الأربعاء الماضى العامل الرئيسى فى تمكيننا من الاستمرار فى العمليات الحربية . وأحب أن أقول إن القوات المصرية كانت هائلة ومزودة بأحدث الأسلحة ، وقد ظهر لنا أن الجيش المصرى قوى جدا ، أسلحته كثيرة وعملياته

الحربية ممتازة .

ووقفت إنصاف وقالت :

— سمعت فى المستشفى إن هناك مفاوضات بيننا وبين الإنجليز على نقل الجرحى إلى القاهرة .

وراح مأمون وزميله يتبادلات النظرات كأنما كان يقول كل منهما لرفيقه : هذه فرصتنا ، وقالت إنصاف :

— ليتهم يوافقون فقد نفدت الأدوية والأربطة وامتلأ المستشفى بالجرحى حتى لم يعد فيه موضع لقدم .

وكان مأمون يرنو إليها فى إعجاب ، فلما التقت عيناه بعينيها قال لها :

— أنت مجهدة يا إنصاف ، اذهبى لتستريحى .

وأراد سليمان أن يداعبها فقال :

— كنت تقول لى يا حسن إنى فى حاجة إلى ممرضة وكنت أعارضك . كنت مغفلا . الحقيقة أنا فى شدة الحاجة إلى ممرضة .

وابتسمت إنصاف وقالت :

— مساء الخير .

وألقت نظرة على عبود فإذا به لا يقوى على أن يتلقى نظرتها الصريحة فأسبل عينيه ، وقال الجميع ما عدا عبود :

— مساء النور .

وغابت إنصاف فى غرفة أخرى ، وقام عبود وذهب إلى السرير وتمدد فيه وإذا بكل تفكيره يدور حول إنصاف ، كانت أبغض الناس إلى قلبه ، وكان لا يطيق رؤيتها أو سماع صوتها ، وإذا بالأيام تظهر له أنه كان يظلمها ، ورن فى أذنيه صوت صادر من أعماقه يقول : «أكنت تكرهها حقا يا عبود ؟» وضايقه ذلك الصوت فراح يتململ فى الفراش ويتقلب ويدور ويصيح فى نفسه فى حنق : «كيف تدور فى رأسك هذه الأفكار ودم بهية وحسين لم يجف بعد ؟ إن كنت لا تزال على قيد الحياة ، فإنما تعيش لتثأر لهما» .

وانقضى الليل وعبود لا ينام إلا خطفا ، كان يفكر فى حسين وبهية وسرعان ما تجرى أفكاره إلى إنصاف ، وكان ذلك يضايقه ، وكان يزيد فى ضيقه شخير أصحابه الذين غلبهم النعاس .

وأصبح الصباح وإذا بسيارة تجوب الشوارع ، ينبعث من مكبر صوت فيها نداء لم يميزه عبود فى وضوح ، فهب من سريره على أطراف أصابعه حتى لا ترتطم قدمه بأجساد النائمين ، وانطلق نحو الباب ثم فتحه فى رفق وراح يصغى إلى النداء ، فإذا بسحابة من الغضب تطوف به ، وإذا به يصرف أنيابه فى غيظ شديد ، وأيقظ النداء النائمين ومدوا أبصارهم إلى عبود فألفوه قد عاد وهو ساهم ، فقال له الشيخ حسن :

ـــ ماذا هناك ؟

فقال عبود فى استياء :

ـــ يطلب المنادى من الأهالى أن يسلموا أسلحتهم ويقول إن هذه رغبة السلطات المصرية .

فهب زميل مأمون منتصبا وقال :

ـــ هذه خدعة .. خدعة دنيئة قد تنطلى على الشعب . علينا أن نحذر الأهالى .

ثم التفت إلى مأمون وقال :

ـــ اذهب يا مأمون حالا إلى إخواننا وقل لهم أن يحذروا الأهالى من تسليم أسلحتهم للأعداء .

وخرج مأمون يعدو ، وتأهب الزملاء للخروج ليندسوا بين الناس ليحذروهم من ذلك النداء الخبيث ، وانطلقوا صوب الباب وزميل مأمون يقول :

ـــ إننا لم نضع السلاح .

وقبل أن يغادروا العيادة صاحت إنصاف :

ـــ انتظروا إنى ذاهبة معكم .

فقال لها عبود فى إنكار :

ـــ والمستشفى ؟

فابتسمت إنصاف وقالت :

ـــ أظن أنى أستطيع أن أؤدى هذه الخدمة وأنا فى طريقى إلى المستشفى .

— ٥٠ —

كانت المتاجر كلها مغلقة ، بيد أن الشوارع كانت غاصة بالناس الذين خرجوا يصغون إلى النداء الذى ينبعث من مكبر الصوت فى نبرات مصرية سليمة ، وكاد بعض الناس يصدقون أن ذلك نداء من السلطات المصرية حقا ، وهموا بأن يسلموا الإنجليز أسلحتهم ، لولا أن رجال المقاومة الشعبية انتشروا بين الجموع سريعا وراحوا يقولون للناس :

ـــ هذه خيانة لا تسلموا أسلحتكم .

وسار عبود وإنصاف إلى جواره . وكانا كلما التقيا بأحد حذروه من أن يصغى إلى ذلك النداء الخائن ، ووقعت عينا عبود على الجنود الإنجليز والفرنسيين فأحس كأنهم قذى فى عينيه ، والتفت إلى إنصاف وقال :

ـــ كنت أحسب أن البشر يستطيعون أن يعيشوا فى سلام ، أن يحب بعضهم بعضا ، إلى أن جاء هؤلاء الغزاة وهجموا علينا ظلما وعدوانا ، وقتلوا الأحبة والأبرياء فعرفت أنى كنت واهما . كنت أتعلق بأحلام ، لا يمكن أن تعيش فى سلام إذا كان الآخرون يطمعون فيك ولا يحترمون ذلك السلام . لم أكن أعرف الحقد فعلمونى كيف أحقد . كنت أفزع من الدماء فأرغمونى على أن أتمنى أن أخوض فى دمائهم ، إن كل قتلاهم لم يشفوا غليلى . أحس الآن رغبة شديدة فى أن أقتل كل الإنجليز والفرنسيين الذين نزلوا أرضنا ، بل لن يرضينى القضاء عليهم ، أشعر بكراهية لهم تسرى فى كل عروقى حتى إنى أتمنى أن أقتفى أثرهم لأستأصلهم من كل بقعة من بقاع الأرض نزلوا فيها ليستغلوا أهلها . ما أبشع أن يتحكم شعب فى شعب آخر .

وراح عبود يرمى جنود الحلفاء بنظرات غاضبة ثم قال :

ـــ سأقتل منهم كل من تصل إليه يدى .

فمدت إنصاف يدها وأمسكت بيده وقالت :

ـــ وأنا معك .

وانسابت السيارة ذات مكبر الصوت فى شوارع بور سعيد تنفث نداءها الخبيث ، وخرج توفيق ومرجان ينظران ، فلاح الغضب فى وجه توفيق وقال :

ـــ ألا يسكت أحد هذا الصوت الخائن .

وامتلأ مرجان بالغضب ولاح فى وجهه أنه عزم على أمر ، ولم يتردد طويلا فأخذ يعدو خلف السيارة وقد قرر أن يسكت صوت ذلك الخائن إلى الأبد .

ووقف الناس ينظرون ماذا يفعل ذلك الأسود ، وإذا بسيارة إسعاف فيها شيخ أبيض الشعر تركت السنون آثارها فى وجهه تنطلق كالسهم خلف السيارة وتلحق بها قبل أن يلحق بها مرجان ، ودنت سيارة الإسعاف من السيارة الأخرى حتى ليكاد جنباهما أن يحتكا ، والتفت الشيخ وقد استشاط غضبا إلى الشاب الأسمر الذى أمسك مكبر الصوت فى يده ، وكان أول ما فعله أن بصق فى وجهه ، ثم لطمه لطمات سريعة ، وخطف منه مكبر الصوت وراح يعلن على الملأ :

ـــ هذا خائن لا تصغوا إليه ، لا تسلموا أسلحتكم . ليحتفظ كل منكم بسلاحه .

واندفع الخائن بسيارته ليفر من غضب الناس ، إلا أن مرجانا كان قد لحق بالسيارة وتشبث بها وراح يتسلقها ليكتم أنفاس أول خيانة ترددت فى بور سعيد .

وظهر وليمز فى الشوارع ، كان يحاول أن يبدو هادئا وأن يبتسم تلك الابتسامة التى ما كانت تفارق شفتيه ، إلا أن الأناشيد الحماسية التى كانت تنبعث من أجهزة الراديو فى البيوت كانت تثير غضبه وتحرك مخاوفه ، كان الصوت يدوى فى كل مكان :

أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى ـــ بلدى ونور الحق يسطع فى يدى

قولوا معى .. قولوا معى .. الله أكبر .. الله أكبر

الله أكبر فوق كيد المعتدى

وأصدر وليمز أوامره فإذا بجنوده تندفع إلى البيوت وتنتزع أجهزة الراديو وتلقى

بها فى الطريق ثم تحطمها تحطيما ، واستمر ويلمز فى تفتيش البيوت والأناشيد تلاحقه كاللعنة .

دع سمائى فسمائى محرقة
دع قناتى فمياهى مغرقة
واحذر الأرض فأرضى صاعقة
هذه أرضى أنا
وأبى ضحّى هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا

وشعر ويلمز أن زمجرة سرت بين الناس لما رأوا آلاف أجهزة الراديو تحطم بظهور البنادق وأقدام الغزاة ، وأحس حركة تأهب للعدوان فشهر مسدسه ، ثم انسل كالأفعى ليبتعد عن الجموع الغاضبة ، والتفت الشيخ حسن إلى سليمان وقال :

— أتمنى أن أقتل ويقتل معى ويلمز .

وقال سليمان :

— لو كان سلاحى معى ما ترددت فى قتله .

— ليس قتله أمرا سهلا كما تتصور ، إنه ثعلب كثير التلفت . لا يتردد فى أن يطلق النار على أى إنسان إذا ما طاف بذهنه ظل من الشك فى أنه يريد به سوءا .

وشرد سليمان قليلا ثم قال :

— أتعرف معنى تجواله فى شوارع بور سعيد مرة أخرى ؟

— أعرف ، إنه يؤكد قوة بريطانيا .

— بل يؤكد عودتها إلى القناة .

— عادت لتتيح لنا الفرصة لنجليها عن أراضينا بالسلاح ، ليكون لنا حق تمزيق اتفاقية الجلاء . إنى لم أبارك هذه الاتفاقية فى يوم من الأيام .

— إنى لا أريد أن يخرج ويلمز من بلادنا حيا .

— المهم أن ينسحب من بلادنا .

— لا . لو قتل وليمز لكان فى ذلك تأكيد منا على كل من تسول له أطماعه أن يغزونا فلن يكون مصيره إلا الهلاك .

وجاءت سيارة تحمل مكبرا للصوت وراحت تذيع :

— أيها العمال هيا إلى العمل ! إلى تطهير القناة ! سيعطى كل عامل مائة قرش ، ولن يعمل إلا ست ساعات .

وراح الشيخ حسن يرقب سليمان بطرف عينيه ، إنه لم يعمل منذ أن قرر الطبيب فصله وكان حاقدا على طرده من عمله ، ترى ماذا يفعل سليمان وقد أتيحت له فرصة العمل ؟ إنه يذكر أن سليمان قال يوما : لو وجدت من يشغلنى فى تهريب الحشيش ما ترددت .

وراح سليمان يتلفت بعيون زائغة ، وأحس أن الشيخ حسن يرصد حركاته فزاد اضطرابه وشعر كأن الدنيا كلها صارت عيونا موجهة إليه . لماذا ترقبه كل هذه العيون ؟ لماذا تحصى عليه أنفاسه ؟ ووقفت السيارة ولم يتقدم أحد ليعمل مع الأعداء ، وكان لا بد أن يزيد الإغراء فراح المذيع يعلن :

— إيها العمال سيعطى كل عامل مائة وخمسين قرشا فى اليوم . هيا إلى العمل . هيا إلى تطهير القناة .

وزاد ضيق سليمان ، خيل له وهمه أن آلاف العيون المفتوحة صوبت إليه ، فغض من بصره ، وأطرق وانتشر القلق بين جوانحه . وأراد أن يقول شيئا لينفى عن نفسه اتهام هذه العيون الظالمة ، بيد أنه لم يجد لسانه وأحس جفافا ورعدة خفيفة تسرى فى كل كيانه .

ومر بعض الوقت وقد تسمر الناس فى أماكنهم واشرأبت أعناقهم وأرهفت حواسهم ، كان كل منهم واثقا من نفسه ، إلا أنه كان يخشى أن يضعف الآخرون بعد أن تعطلت الأعمال ونقص القوت وعز الماء .

وازداد الاختبار قسوة وضراوة ، راح المذيع يعلن :

— أيها العمال ، سيأخذ كل عامل جنيهين على أن يعمل ست ساعات ، سيأخذ أجر خمسة عشر يوما مقدما .

ولم يعد سليمان يحتمل أذى كل هذه العيون التى خيل إليه أنها مصوبة إليه ، فالتفت إلى الشيخ حسن وقال :

ــ والله لو تقدم خائن ليعمل معهم فلن أتردد فى قتله .

وزفر الشيخ حسن فى راحة ، وتفجرت مشاعر رقيقة فى جوفه كانت كلها تهفو إلى سليمان وتجله ، فراح يعبر عما يحسه بأن لف ذراعه حول سليمان وضمه إليه ضمة حانية ، نقلت كل إحساساته النبيلة إليه فملأت قلبه بالرضا .

ولم يتقدم رجل واحد ليتعاون مع الإنجليز فراحت السيارة تنسحب من الميدان تجر أذيال الخيبة ، وأحنق ذلك البريطانيين فجاء وليمز وبعض جنوده وقبضوا على بعض العمال ، وساقوهم ليرغموهم على أن يعملوا معهم قسرا .

وسرت بين الناس همهمة ثم ارتفعت أصوات الاستنكار ، وتحرك الرجال لينتزعوا إخوانهم من بين أيدى الذين أرادوا أن يلطخوهم بالعار ، فالتفت الجنود إلى الزحف الذى بدا من كل جانب ، فانتهز العمال المقبوض عليهم هذه الفرصة وفروا فى غفلة ممن قبض عليهم .

ورأى الناس فرار إخوانهم وأن تحركهم قد أتى ثمرته ، وأن ذلك الزحف لم يعد له ما يبرره ، فعادوا أدراجهم ثم راحوا يتفرقون ، ووقف وليمز وهو غاضب ، ضايقه أن سخر منه من كانوا بالأمس يرتجفون خوفا إذا ما وقعت عليه عيونهم ، فوطد العزم على أن يعذبهم ويرهبهم ليعيد إلى نفسه هيبته .

وانطلق الشيخ حسن وسليمان يتحدثان ، قال الشيخ حسن :

ــ بعض الناس لا يعترفون بالحقيقة إلا إذا صفعتهم ، وقد كنت من هؤلاء الناس ، فما كنت أصدق أن تتاح لك مثل هذه الفرصة للعمل ثم ترفضها .

فقال سليمان وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

ــ سامحك الله يا شيخ حسن . أفكرت أنى أخون وطنى لأن طبيبا من أهلى أساء إلىّ ؟ إنه قرر ما يعتقده أنه صواب ، وقد شردنى ذلك القرار .

أدار بخلدك أنى سأحقد على كل أهلى لأن أخا من إخوانى ألقى بى فى الطريق خوفا علىّ من أن أموت من الإرهاق ؟ لا يا شيخ حسن ، إنى أحب وطنى ، أحب أهلى وإن

جاروا علىّ ، إنى أفضل أن أموت جوعا على أن أضع يدى فى أيدى الأعداء .

وطفرت الدموع من عينى حسن وقال :

— آسف يا سليمان . آسف إن كنت قد أسأت فهمك مرات .

وشغل الناس بسيارات الإغراء وبمراقبة الجنود الذين كانوا فى ضيق بعد أن أغلقت حوانيت المدينة كلها أبوابها فى وجوههم ، وفى غفلة من الجنود والناس انسل مأمون وصحبه إلى مبنى قناة السويس .

وانتشروا بالقرب من الباب الحديدى الخارجى ، كان أحدهم يرتدى ثياب الصيادين ، وكان آخر يحمل صندوق مسح الأحذية ، وكان ثالث يرتدى ثياب طالب ، وارتدى رئيس السرية ثياب كناس ووقف يتلفت حتى إذا ما ألفى الطريق خاليا راح يتقدم ثابت الخطو وأخذ زملاؤه يرصدون كل حركة فى الطريق .

سار وعيناه تتجولان فى كل مكان ، وتنتقلان فى سرعة من مراقبة الأبواب والنوافذ الواقعة على الجانب الأيمن إلى مراقبة الأبواب والنوافذ الواقعة على الجانب الآخر ، وقد أرهفت حواسه وتوترت أعصابه حتى إنه كان يسمع صوت الهواء وهو يداعب أوراق الشجر كأنما يسمع أيادى عابثة تدق طبولا .

وبلغ نهاية الطريق ، وأصبح على بعد خطوات من الباب الداخلى فتلفت خلفه ويده على مسدسه ، ثم ألقى نظرة خاطفة على الفناء الذى يفصل بينه وبين الباب ، ولما اطمأن إلى كل شىء راح ينسل كالطيف حتى غاب فى جوف مبنى القناة .

وصعد فى الدرج الخشبى فى خفة ، ثم راح ينسل إلى غرفة خزائن المستندات ، كانت هذه أول مرة تطأ قدمه مبنى إدارة القناة ، بيد أنه كان يعرف طريقه فقد درس خرائط المبنى دراسة عميقة وعاش فيها بخياله ليالى وأياما .

وفتح الخزائن المعدنية وراح ينقب عن المستندات ، وكان رنين الأوامر التى تلقاها تدوى فى أذنيه :

— إنها مستندات هامة لا بد من الحصول عليها وإرسالها إلى هنا مهما كان الثمن .

وراح ينقب عنها وهو مفتوح العينين مرهف الحواس ، وصوت يهمس فى سريرته .

ــ لا بد من الحصول عليها ، لا بد من أن تصل إلى القاهرة ولو دفعت ثمن ذلك حياتى .

وراح زملاؤه يغدون ويروحون بالقرب من المبنى وقد تركزت عيونهم على الباب الخارجى ، ومراقبة الطريق الطويل الموصل بينه وبين المبنى الذى يطل على القناة والذى يحوى فى جوفه المستندات المنشودة التى جاءوا ليستولوا عليها .

ولمح مأمون جنديا بريطانيا مقبلا نحوه ، فأخرج من جيبه مسدسا على هيئة علبة سجاير وفتح غطاءها وأخرج منها سيجارة ، ودنا الجندى منه وقال بالإنجليزية :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

فقدم إليه مأمون العلبة وأصبعه على الزناد وقال بالعربية :

ــ تفضل .

وهم الجندى بأن يتناول سيجارة إلا أن مخاوفه حذرته من أن يفعل فقال بالإنجليزية :

ــ شكرا .

وسار مأمون متظاهرا بالانصراف والجندى يرقبه ، حتى إذا ما غاب عن عينيه عاد الجندى ليستأنف تجواله .

وغاب رئيس السرية طويلا ، وبدأت المخاوف تساور رجاله حتى إنهم اجتمعوا وقرروا أن يذهب أحدهم ليرى ماذا يجرى فى جوف ذلك المبنى الغارق فى الصمت المتسربل بالأسرار .

واقتحَمَ الرجل الباب الحديدى وسار فى الطريق الطويل ، وما قطع فيه خطوات حتى انقلب على عقبيه وقال لزملائه :

ــ إنه قادم .

ولم يخفوا لاستقباله ولم يذهب الفرح بعقولهم ، بل تفرقوا وراحوا يبتعدون عن المبنى وإن تركزت عيونهم على بابه الخارجى . وخرج رئيس السرية يتلفت فى حذر ثم انطلق لا يلوى على شىء ، واندفع رجاله خلفه حتى إذا ما ابتعدوا عن المنطقة لحقوا به وقالوا :

ـــ هل عثرت عليها ؟

فقال وقد لمعت عيناه ببريق الانتصار :

ـــ نعم ، إنها فى جيبى .

ثم التفت إلى مأمون وقال :

ـــ اسمع يا مأمون ، سيغادر قطار الجرحى بور سعيد اليوم .. لا بد أن أذهب إلى القاهرة فى هذا القطار .

وفهم مأمون ما يقصده فقال له :

ـــ سأدبر كل شىء ، بعد ساعة يمكنك أن تأتى إلى مستشفى المبرة .

ـــ سآتى بعد أن ننتهى من كتابة تقرير عن الحالة فى بور سعيد ، فالقاهرة متلهفة على معرفة صورة حقيقية عما يجرى هنا .

وانطلق مأمون إلى المستشفى وراح يتلفت فى دهش ، فقد كان غاصا بالجرحى حتى إن الأسرة وضعت فى ممراته ولمح ممرضة فذهب إليها وقال :

ـــ الآنسة إنصاف من فضلك .

ـــ فى الطبقة الثانية .

وراح يشق طريقه فى جهد ، وصعد فى الدرج فإذا بالطبقة الثانية كخلية نحل ، أناس يجيئون وأناس يروحون ، وجرحى فى الطرقات ، وجلبة وضوضاء ، وجموع تموج فى جموع ، واندس بين أمواج البشر وهو يتلفت ، ولمح إنصاف فأخذ يدفع الناس بمنكبيه ليصل إليها .

وأصبح على بعد خطوات منها فإذا بها تتحرك لتنصرف فناداها :

ـــ إنصاف . إنصاف .

وميزت صوته فالتفتت إليه وقالت :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا يا مأمون ؟

فقال فى لهفة :

ـــ أريد أن أقابل الدكتور حازم فى أمر هام .

ـــ تعال .

وسارت به إلى الدكتور حازم ولم يكن فى الغرفة وحده .. كان معه أناس كثيرون ، فدنا منه مأمون وقال :

ــ أريدك على انفراد دقيقة واحدة .

فنهض الدكتور وذهب بمأمون إلى ركن بعيد وقال :

ــ خيرا ؟

فقال مأمون وعيونه زائغة :

ــ معنا مستندات هامة ، لا بد من أن ينزل بها أحد ضباطنا فى قطار الجرحى .. إنها مستندات تطلبها القاهرة .

وشرد الدكتور حازم قليلا ثم قال :

ــ حسنا .

ثم أشار إلى إنصاف بأصبعه أن تعالى ، فلما اقتربت منه قال لها بصوت خافت :

ــ جهزى سيارة إسعاف ممن نثق فى رجالها .

وقال لمأمون :

ــ أنا فى انتظار صديقك .

ووقف مأمون أمام المستشفى ينتظر ، وجاء رئيس السرية وزملاؤه فأسرع يستقبلهم وهو يقول فى انشراح :

ــ كل شىء على ما يرام .

والتفت رئيس السرية إلى زملائه وقال :

ــ انتظروا هنا .

وذهب مع مأمون إلى حيث كان الدكتور حازم ، وما هى إلا دقائق حتى كان الضابط فى غرفة العمليات وقد عرى ساقه ووضع المستندات والتقارير فوقها ، ثم راح الدكتور وإنصاف يلفان الجبس حولها .

وشرد الدكتور حازم قليلا ثم قال :

ــ اليوم الثامن من نوفمبر ، كسرت ساقه يوم ٤ نوفمبر .

وراح يكتب فوق الجبس ٤ / ١١ / ١٩٥٦

ورنت إنصاف إلى الدكتور وقالت :

ـــ الجبس طرى ، لو فحص أى طبيب الجبس فسيشك فى الأمر .

فابتسم الضابط وقال :

ـــ ربنا يستر .

وقال لها مأمون :

ـــ اطمئنى . سنكون هنا .

وقالت إنصاف للدكتور :

ـــ أتسمح لى أن أذهب معه ؟

فقال لها ضابط الصاعقة :

ـــ شكرا . لا داعى لهذا التعب .

وقال لها مأمون :

ـــ إنهم يحتاجون إليك هنا .

ـــ أريد أن أشارك بنصيبى فى هذه المغامرة .

فقال لها مأمون مداعبا :

ـــ لقد شاركت فيها وكفاك ما قمت به . ماذا تستطيعين أن تفعلى أكثر مما فعلت ؟

فقالت إنصاف وهى تبتسم :

ـــ قد أستطيع أن أشغل الدكتور البريطانى عن أن يكتشف أن الجبس جديد والتاريخ قديم :

فقال مأمون مازحا :

ـــ أنا واثق أنك تستطيعين ذلك .

وقال لها الدكتور حازم :

ـــ سيارة الإسعاف جاهزة ؟

وأشارت إنصاف برأسها أن نعم ثم خرجت ، وما لبثت أن عادت ومعها رجلان يحملان نقالة . كان أحدهما صديق الفرارجى ، وما إن وقعت عينا مأمون

عليه حتى صاح فى ترحيب :

ـــ السيد صديق ؟ مرحبا بك .

وهتف صديق فى ابتهاج :

ـــ مأمون ؟ حمدا لله على السلامة .

وحمل ضابط الصاعقة على النقالة ووضع فى السيارة وزملاؤه يرقبونه من بعيد ، وركبت إنصاف معه ، وأغلق مأمون الباب خلفها ثم خف إلى زملائه وقال :

ـــ إلى القابوطى ، سيجرى تفتيش الجرحى هناك قبل وضعهم فى القطار .

وركبوا سيارة أجرة وانطلقوا خلف سيارة الإسعاف .

وصلوا إلى القابوطى وكانت سيارات كثيرة تحمل الجرحى ، وكان جنود شاهرين أسلحتهم عند أبواب عربات القطار ، وجنود آخرون يحولون بين الأهالى وبين السيارات التى كانت تقف بعيدا عن القطار .

واندس مأمون وزملاؤه بين الجماهير ، وجاءت السيارة التى تحمل ضابط الصاعقة ودخلت ونزل منها صديق وفتح الباب الخلفى ، ثم خف زميله وعاونه على حمل النقالة ، وسارت إنصاف معهما .

وجاء الطبيب البريطانى يفحص الجبس فلاح فى وجهه الدهش ، فالجبس طرى والتاريخ قديم ، وظهر الارتباك فى وجه صديق ، وفطن الزملاء إلى أن الأمر سينكشف فوضعوا أيديهم على مسدساتهم وتأهبوا لخوض غمار مخاطرة يائسة .

وسمعت جلبة فى المكان ، ووقفت سيارة جيب نزل منها استوكويل ، فهرع الطبيب لاستقباله ، وانتهزت إنصاف هذه الفرصة وقالت لصديق :

ـــ تقدم !

وسار صديق وزميله وهما يحملان النقالة صوب القطار ، وراحت إنصاف توزع الابتسامات على كل من تقابله من الجنود حتى وضع الضابط فى القطار .

وظل الزملاء ينتظرون وهم يحسون قلقا كان يشتد كلما طال مرور الزمن ، وانطلقت أخيرا صفارة القطار ، ثم راح يتحرك فى بطء شديد ، حتى إذا ما غاب عن الأنظار زفر الرجال فى راحة ، فالمستندات الغالية فى طريقها إلى القاهرة .

ـ ٥١ ـ

السكون مخيم على بحيرة المنزلة ، والظلام يلف كل شيء ، هواء الشتاء البارد يلفح جنود الحراسة فيشغلهم بأنفسهم عن كل ما حولهم ، وبيوت الصيادين فى القابوطى أغلقت أبوابها إلا أن الهواء كان يتسرب من فرجات الأخشاب التى صنعت منها أغلب الدور .

وعلى الشاطئ انتشرت بعض قوارب صغيرة نشرت فوقها شباك الصيد ، وفى أحد هذه القوارب اختفى مأمون وراح يرصد البحيرة وقد أرهفت حواسه كلها .

ومس أذنيه صوت مجاديف تضرب الماء فى حرص شديد ، فمد بصره فرأى زورقا قادما من بعيد ، فراح يرقبه وهو يشق طريقه فى سواد الليل صوب مدينة الصيادين .

واقترب أحد الجنود البريطانيين المكلفين بالحراسة من الزورق الذى اختفى فيه مأمون وألقى نظرة على البحيرة ، فخفق قلب مأمون وراح يفكر سريعا ، فقرر أن يقتل الجندى إذا ما بدرت منه بادرة توحى بأنه رأى القارب الذى يدنو من الشاطئ ، إلا أن الجندى عاد أدراجه وهو ينفخ فى يديه من البرد الشديد .

وقفز مأمون من الزورق ، وجرى فى خفة الطيف متسربلا بالظلام يستقبل القادمين . كان أحدهم يحمل جهازا أشبه بأجهزة الراديو ، وكان يضمه إلى صدره فى حرص شديد ، فقد كان جهاز لاسلكى لربط قوات المقاومة فى بور سعيد برئاسة القوات فى القاهرة ، وكان الآخرون قد جاءوا معهم بأسلحة مفككة لتركب ثم توزع على الشعب الذى أبى أن يضع السلاح قبل خروج آخر جندى من جنود الأعداء من البلاد .

وقال مأمون :

ـ أسرعوا . كل شيء معد .

وقال قائل :

ـ إلى أين سنحمل هذه الأسلحة ؟

فقال مأمون :

ـــ إلى بيت شيخ الصيادين ، اتركوا كل شىء فى الزورق وأسرعوا .

ـــ ومن الذى سيقوم بنقلها وتركيبها ؟

فقال لهم مأمون وهم فى طريقهم إلى بيوت الصيادين :

ـــ اطمئنوا . أعددت كل شىء .

وفتحت أبواب بيوت الصيادين لتستقبلهم ، وراح رجال الصاعقة يصعدون فى الدرجات الخشبية القليلة التى تفصل بين الأرض الرطبة ومداخل الدور ، وخف بعض الصيادين إلى الزورق وحملوا الأسلحة المفككة إلى بيت شيخ الصيادين .

وسرعان ما أغلقت الأبواب وعاد الصمت الرهيب ليطبق على القابوطى .

وطلع الفجر وانتهى موعد حظر التجول ، ففتحت أبواب دور الصيادين وخرج منها الرجال ، وانتشر الوافدون بالليل فى أرجاء المكان ، كانوا يرتدون ثياب الصيادين إلا أنهم كانوا يحملون آلات التصوير .

وراح أحدهم يلتقط كل ما يستطيع التقاطه من الصور ، والتفت يدير عينيه فى المكان فرأى دورية مسلحة قادمة نحوه ، فألقى آلة التصوير وأخفاها بالطين ، ثم أخرج من جيبه علبة سجاير وتناول منها سيجارة ، إلا أن أصبعه كان على الزناد .

ودنا منه أحد جنود الدورية وقال له بالإنجليزية :

ـــ ماذا تفعل هنا ؟

وقال الضابط بالعربية :

ـــ أنا لا أفهم ماذا تقول .

وإذا بالجندى يقول له باللغة الإنجليزية :

ـــ ماذا تفعل هنا ؟

وأشار للضابط إلى جامع القابوطى وقال :

ـــ أنا ذاهب إلى الجامع .

وسار إلى الجامع ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفتيشه ، وراح من الجامع يرقب آلة التصوير التى دفنها .

ووقف العم محمود ، وهو رجل مسن يملك قاربا للصيد يمزح مع البريطانيين ، ويصغى إليهم ثم يطلق الضحكات المجلجلة ، فأحس رجال الصاعقة ضيقا حتى إن أحدهم قال :

— أحس أنى سأقتل هذا الرجل يوما .

وانصرفت الدورية ، وخرج المختبئ فى الجامع يعدو صوب آلة التصوير التى أخفاها بالطين ، وبينما كان يلتقطها ألفى مأمونا واقفا عند رأسه ، فابتسم ثم انتصب قائما وقال :

— يجب أن ينقل جهاز اللاسلكى فى حرص شديد .

— اطمئن .

— وأن يوضع فى مكان أمين .

— أعددت كل شىء .

— لن يستقر الجهاز فى مكان واحد أكثر من ليلة حتى لا ينكشف أمره .

فقال مأمون فى ثقة :

— بيوت بور سعيد كلها مفتوحة لاستقباله .

وكان مأمون يتلفت بين الفينة والفينة كأنما كان ينتظر أحدا ، وقال الضابط :

— القوة كلها ستصل إلى هنا فى أيام قليلة .

— هنا أقواس منجدين ، وصناديق مسح الأحذية ، وحقائب حلاقين ، وملابس صيادين ، سيجد كل منهم ما يناسبه .

— يجب ألا يبيت أكثر من اثنين منهم فى بيت واحد .

ووقعت عينا مأمون على من كان ينتظرهم فصاح فى ترحيب :

— مرحبا بكم .

وراح يصافح الشيخ حسن وسليمان ومرجان ورجالا آخرين ، ثم انطلقوا جميعا إلى بيت شيخ الصيادين .

وراح بعض رجال الصاعقة يطوون المدافع الصغيرة ويضعونها فى أكياس مطلية بالشحم ، وأخذ البعض الآخر يضع الأكياس فى أكياس أخرى نظيفة ، بينما كان

بعض الصيادين يضعون الأجزاء المفككة فى أكياس أخرى ، ثم وضعت الأكياس فى أجولة الأرز وأقفاص الطماطم وسلال السمك .

وقال مأمون لمرجان :

ــ مهمتك أخطر من كل هذه المهام .

ثم التفت إلى جهاز اللاسلكى وقال :

ــ سنذهب بهذا الجهاز إلى بيت السيد توفيق . حاذر يا مرجان .

فابتسم مرجان وقال :

ــ اطمئن .

ووضع الجهاز اللاسلكى فى كيس كبير وملأ الكيس بزجاجات البيرة ، وقال الضابط الذى كان يشرف على العملية وكان يرتدى جلباب الصيادين :

ــ هذه الزجاجات هى مفتاح الطريق .

وقالوا مرجان فى زراية :

ــ لو كانت زجاجات شمبانيا لسلمونا مفاتيح بلادهم ..

وحمل كل من الرجال حمله وخرجوا يتلفتون فى حرص شديد ، ومروا على العم محمود فراح يتفرس فيهم فى إمعان ، ورأى بعض الضباط نظراته فهموا بأن يفتكوا به إلا أنهم خشوا أن يفتضح أمرهم .

وساروا فى طريقهم . كان الشيخ حسن يحمل الأرز على ظهره ، وسليمان يحمل الطماطم على رأسه ، أما أوعية السمك فقد كانت كثيرة .

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان بطرف عينه فأشفق عليه وإن كبر فى عينيه ، وألفى نفسه يفكر فى الطبيب الذى ألقى به فى الطريق رأفة به خشية أن يموت فى أثناء العمل . هل خطر بباله أن صاحب القلب الضعيف تسرى فيه روح قوية تربأ صدع كل اختلال فى البدن ؟ وراح صوت يرن فى أعماقه ، لا ، من قال إن سليمان ضعيف القلب ؟ الطبيب؟! وكيف فطن إلى ذلك الضعف ؟ وضع أذنه على صدره وأمسك معصمه وضغط بأصبعه على نبضه ثم قال وقد قطب جبينه ولاح فى وجهه الجد : آسف . لا أستطيع أن أتحمل مسئولية استمرارك فى العمل . ووجد سليمان نفسه

طريدا شريدا رحمة به ! لا . لا يمكن أن يكون سليمان مريضا بالقلب . إن ما احتمله حتى هذه الساعة ينوء به أشد الرجال . أصدر عليه الطبيب حكما أقسى من حكم الإعدام ، ولم يرده فيه أحد . إذا ما انتهت هذه الحرب ، وإذا ما عدنا إلى الشركة فسأقف إلى جوارك يا سليمان وأطرق كل الأبواب لتعود إلى عملك . آه لو أنصفوك لعوضوك عن الأيام المريرة التى قاسيتها بلا ذنب .

وكان الرجال قد افترقوا وراح كل منهم يسلك سبيلا للدخول إلى المدينة . ومروا بنقطة الحراسة ووقفوا فتقدم الجنود يفحصون ما معهم ، وكان أول من سمحوا بمرورهم بائعو السمك ، كانت رائحته تؤذى أنوفهم فكانوا يفرجون عمن يحملونه سريعا .

وراح جندى يمد ذراعه فى جوال الأرز وعيناه تفحصان الشيخ حسن ، كانت فى نظراته ريبة ، إلا أن رباطة جأش حسن وعدم عثور يد الجندى فى الجوال إلا على الأرز جعلت الجندى يسمح له بالمرور .

ووقف مرجان للتفتيش وكان على قرب منه مأمون وزملاؤه وقد وضعوا أيديهم على مسدساتهم ، كانوا يتأهبون لخوض معركة خاطفة إذا ما افتضح أمر جهاز الإرسال .

ومد الجندى يده وأخرج زجاجة بيرة وأخذ ينظر إليها وقد سال لعابه ، فقال له مرجان فى إنجليزية ركيكة التقطها من أحاديث جانيت معه أول ما جاءت إلى مصر :

— بيرة أبيعها لأصدقائى الإنجليز .

وابتسم الجندى ولاحت أسنانه البارزة إلى الأمام ، وقال مرجان وهو يقدم له زجاجة أخرى .

وقال الجندى فى فرح :

— شكرا .

ثم صمت قليلا وقال :

— أين تعلمت الإنجليزية ؟

فقال مرجان وهو يشمخ بأنفه فى زهو :

ــ كنت طاهيا فى بيت مستر جون وليمز .

وأفسح له الجندى الطريق ، فقال مرجان بالإنجليزية :

ــ شكرا .

ثم سار فى خطوات ثابتة ومأمون وصحبه يرقبونه وقد أثلجت صدورهم . مر جهاز الإرسال ومنذ اليوم سيعود الاتصال بين القاهرة وبور سعيد . وانطلق مرجان بحمله الثمين إلى بيت توفيق .

بلغ مرجان الشارع فى الوقت الذى كان يمر فيه وليمز فى سيارته الجيب وإلى جواره « جراى » ضابط المخابرات ، فاختبأ فى جدار بيت حتى اختفى وليمز ثم راح يتقدم صوب الدار ، وقبل أن يبلغها كان مور هاوس الضابط البريطانى يسير فى سيارته وقد اضطجع فى مقعدها الخلفى وشمخ بأنفه وراح يدير عينيه فى غطرسة وخيلاء ، فتمهل مرجان قليلا .

ورأى مور هاوس شابين مصريين ينظران إليه ثم يضحكان ، فخيل إليه أنهما يتغامزان عليه ، فأمر سائقه أن يقف ، ثم هبط من السيارة وذهب إليهما ، ودون أن ينبس بكلمة راح يلطمهما بيديه . وهم أحدهما أن يهجم عليه فأسرع وأخرج مسدسه ، فأحجم الشاب على مضض ، وراحت ثورة عارمة تتفجر فى صدره .

وانتهز مرجان انشغال الناس بقحة الضابط البريطانى المتعجرف فانسل إلى البيت وراح يقفز فى الدرج قفزات جنى الأساطير وهو يحمل صندوق الجواهر واليواقيت والذهب ، وقبل أن يصل إلى الباب رأى توفيق يفتح له ويقول :

ــ أحسنت يا مرجان . أسرع .

ودخل مرجان وأغلق الباب خلفه .

ووضع الشيخ حسن الأرز على عربة يدو سار يتلفت حتى عثر على سليمان فرمز له بعينه ، فأسرع سليمان ووضع ما يحمل فوق العربة ثم ابتعد ، وانطلق حسن إلى الحى العربى ومد بصره فرأى إنصاف تشير له أن تقدم فالطريق خال ، فأخذ يدفع العربة أمامه حتى وقف عند بيت متهدم ، ثم حمل الأرز ودخل فإذا بعبود يتلقى منه حمله .

وجاء مأمون وبعض زملائه ونظر فألفى إنصاف تشير لهم أن الطريق خال . تقدموا . فأسرعوا بما معهم وراحوا يسلمونه لعبود ، ثم عاد مأمون إلى إنصاف وقال لها :

ـــ أريد مكانا لاثنين .

ـــ اذهب بهما إلى زميلتى أم على ، لقد هيأت لهما المكان .

ـــ أين ؟

ـــ فى عيادة طبيب الأسنان .

ونظر إليها فى إعجاب ثم قال :

ـــ لو كنت صاحب شركة لعينتك مديرة لأعمالى .

وظل يرنو إليها برهة وهو صامت وإن أفصحت عيناه عما يكنه لها ، ثم قال :

ـــ لا بأس . سأعينك يوما مديرة لبيتى .

وابتسمت إنصاف ولم تحر جوابا .

وتأهب الرجال للانصراف فقالت إنصاف لمأمون :

ـــ أين أجدك ؟

ـــ إن احتجتم إلى شيء فأنا فى عيادة الدكتور حازم ، أرجوا أن أنام قليلا .

وانطلقوا وأسرعت إنصاف إلى عبود وراحت تعاونه على إخراج الأكياس من الأرز ومن بين الطماطم ومن تحت السمك ، وقد غمرتها سعادة عارمة أصبحت تنتشر بين جوانحها كلما كانت بقربه .

وراح عبود يخرج المدافع الصغيرة من الأكياس الملطخة بالشحم ، وأسرعت إنصاف تعاونه وكانت بين لحظة وأخرى تنظر إليه وتتفرس فى وجهه ، ورفعت بصرها إليه فألفت خصلة من شعره تهدلت على جبينه وتدلت على عينه ، فمدت يدها لترفع خصلة الشعر فإذا بأصابعها تترك آثارا من الشحم فوق جبينه ، وفطنت إلى ما فعلت فانفجرت ضاحكة وهى تشير بأصابعها إليه ، وإذا بعدوى الضحك تنتقل إليه فيبتسم دون أن يعرف السبب .

وتناول القطع المفككة وأخذ يجمع بعضها إلى بعض ، فإذا بالمدافع الصغيرة

والبنادق وأشرطة الرصاص وأكداس الرصاص تغطى الأرض ، فالتفت عبود إلى إنصاف وقال :

ــ من الخير أن توزع هذه الأسلحة الآن قبل أن يعثر عليها الإنجليز . وليمز يفتش كل بيت وينبش عن الأسلحة فى الجحور .

وشردت إنصاف قليلا ثم قالت :

ــ ستوزع هذه الأسلحة الآن .

وتحركت لتنصرف ، ثم عادت وتلفتت كأنما تذكرت شيئا هاما ، والتفتت إلى عبود وقالت : ــ لقد جعت . ماذا أحضر لك معى ؟

ــ أى شىء .

فقالت إنصاف وهى تهز إصبعها مؤكدة حديثها :

ــ تستحق اليوم رطل كباب .

فقال عبود فى بساطة :

ــ لم يعد فى بور سعيد إلا البطاطس .

ــ سأحضر لك كبابا ولو سرقت اللحم من الجيش الإنجليزى وشويته بنفسى .

وانصرفت إنصاف وعكف عبود على عمله ، وما مر بعض الوقت حتى أحس أن شيئا ينقصه ، كانت إنصاف تملأ ذلك الفراغ الذى أصبح فيه .

وراح يرقب الباب بين لحظة وأخرى وفى صدره أمنية أن تقبل ، أن يراها وقد أشرفت بقامتها عليه .

وانصرم الوقت وئيدا وئيدا ، وأخيرا هتك السكون رنين جرس سيارة إسعاف فهب مفزوعا ، روعته المفاجأة ثم ما لبث أن خرج يعدو ليرى ما هناك .

رأى سيارة الإسعاف يهبط منها صديق الفرارجى ومأمون ، ثم فتح بابها الخلفى وهبطت إنصاف منه ثم مرجان .

ونظر عبود إلى إنصاف فى إعجاب ، وأسرع مأمون وصديق الفرارجى فأحضر النقالة وذهبا بها إلى حيث كانت المدافع والبنادق والذخائر ، ثم وضعا على النقالة ما أمكن حمله من الأسلحة وعادا بها إلى السيارة .

وأمر مأمون مرجان أن ينام فوق الأسلحة ففعل ، وخفت إنصاف تغطيه ببطانية ، وأغلق باب سيارة الإسعاف ، وركب مأمون إلى جوار صديق ، وبدأت السيارة تتحرك فأخذ مأمون يلوح لعبود وإنصاف مودعا .

وأخرجت إنصاف من تحت إبطها لفافة قدمتها إلى عبود وهى تقول :

ـــ تفضل .

وفتح عبود اللفافة ثم هتف فى فرح :

ـــ كباب ؟!

وقسم الطعام قسمين وقدم إليها قسما وقال :

ـــ هذا لك .

فقالت وهى تدفع يده الممدودة إليها بيدها :

ـــ والنعمة الشريفة لن يأكل هذا أحد غيرك .

واضطرب عبود اضطرابا شديدا فقد ملأت صورة بهية رأسه ، وخيل إليه أنها فى كل ما حوله ، فتقلص وجهه وأحس كأن سكاكين تمزق أحشاءه ، وفطنت إنصاف إلى تبدله فقالت له :

ـــ ماذا بك ؟

فقال دون أن ينظر إليها :

ـــ أحس كأنى سيغمى علىّ .

فاقتربت منه وقالت فى عطف :

ـــ أرهقت نفسك . أنت فى حاجة إلى الراحة .

وظل قلبه يدوى بين ضلوعه دويا ، واستمر زائغ البصر يستشعر وخزا فى ضميره ، ومدت إنصاف يدها لتسنده فانسل بعيدا عنها . فأخذت تنظر إليه بعيون مشدوهة ، وقبل أن تفتح فمها بكلمة دوى صوت بوق سيارة آتية فوجد عبود فيه الخلاص من مشاعره الأليمة التى كانت تلهبه بسوط عذاب ، فأخذ يعدو فرارا من نفسه .

رأى سيارة تاكسى والشيخ حسن يهبط منها فهرع إليه كأنما يلوذ به وقال له :

— هذه الأسلحة كأنها شبح يطاردنى ، خذوها .. خذوها .

ورمقه الشيخ حسن بعين فاحصة وقال له :

— أنت مجهد يا عبود . سأحمل ما أستطيع حمله منها الآن ، وسليمان وتوفيق سيأتيان بعدى ليحملا ما تبقى منها .

ودخل الشيخ حسن ومن معه وراحا ينقلان الأسلحة إلى السيارة ، وبقى عبود فى الطريق وقد قرر ألا يعود إلى حيث كان لعله يفر من رؤاه ، إلا أن شبح بهية وشبح حسن كانا يلوحان له ويثيران أشجانه ويقفان حائلا بينه وبين إنصاف التى جاءت لتقف إلى جواره .

— ٥٢ —

وقفت سيارة الإسعاف أمام منزل توفيق وهبط منها صديق الفرارجى ومأمون ، وانطلقا ثابتى الخطو وصعدا بضع درجات وإذا بتوفيق يفتح لهما الباب ويقودهما إلى حيث كان جهاز اللاسلكى ، وقال توفيق :

— ضابط الإرسال رجل ظريف والجهاز هنا فى أمان ، دعه يا مأمون .

فقال مأمون وهو يميل ليحمل الجهاز :

— التعليمات ألا يبيت الجهاز فى مكان واحد أكثر من ليلة .

ونظر صديق إلى مأمون وهو يحمل الجهاز وقال :

— ألم يكن من الأفضل أن نحمله على نقالة ؟

فقال مأمون مبتسما :

— إنه أصغر من أن يحمل على نقالة ، وإن رآه أحد معى فسيحسبه راديو .

فقال توفيق فى سخرية :

— جهاز الراديو يفزعهم أكثر من قنبلة ، لقد حطم ويمز وجنوده حتى أمس أكثر من خمسة آلاف جهاز .

والتفت توفيق إلى مكان الراديو الخالى وقال :

— حتى جهازى كان من الضحايا .

ووقعت عيناه على صورة جانيت فانقبض وطافت به سحابة من الأسى ، وهمس في جوفه هامس يقول : «ليت أجهزة الراديو وأثاثنا ودورنا كانت كل الضحايا» .

وخف مرجان ليحمل الجهاز بيد أن مأمون قال له :

ـــ شكرا لك . اهتمامنا به سيلفت الأنظار إليه .

ثم قال لصديق :

ـــ افتح باب العربة الخلفي وانتظرني ، حتى إذا ما قفزت إلى داخلها أغلقه في سرعة ثم انطلق إلى الحي العربي .

فقال صديق :

ـــ من رأيي أن يبيت الليلة في غرفة الدكتور حازم .

فشرد مأمون قليلا ثم قال :

ـــ لا ، غرفة الدكتور غير مأمونة فقد يقتحمها أحد المرضى .

فقال توفيق :

ـــ والحي العربي كله غير مأمون ، وليمز وجنوده يقومون بتفتيشه كل يوم .

فقال مأمون :

ـــ إلى بهنس ، قسم البوليس مكان لا تحوم حوله الشبهات .

فقال صديق موافقا :

ـــ فكرة طيبة .

وأسرع صديق ليفتح باب سيارة الإسعاف الخلفي ، وتقدم مأمون في حرص ، وهرع توفيق ومرجان إلى النافذة ينظران ، وإن هي إلا لحظات حتى غاب مأمون بحمله في جوف السيارة ، وجلس صديق خلف عجلة القيادة ، وقبل أن يتحرك لمح وليمز وبعض جنوده قادمين نحوه .

خفق قلبه في شدة وراح يعمل في سرعة ، إن انطلق في طريقه فقد يأمره وليمز بالتوقف ويقوم بتفتيش السيارة ثم يستولى على الجهاز ويقبض على مأمون ، وإن اضطرب فسيثير شكوك الإنجليز ، فرأى أن خير ما يفعله أن يتظاهر بأنه وصل لتوه وأن يهبط من السيارة ويصعد إلى بيت توفيق ، فقد تتاح لمأمون فرصة الهرب .

وهبط من السيارة وهو يحمل حقيبة الإسعاف فى الوقت الذى هبط فيه وليمز من سيارته الجيب ، وأومأ برأسه محييا فقال له وليمز :

ــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

ــ استدعانى السيد توفيق .

ــ لماذا ؟

ــ لم يقل لى . طلب منى أن أحضر على عجل .

كان توفيق ومرجان يريان صديق ووليمز وهما يتقدمان صوب الباب ، وفطنا إلى كل شيء ، فراح مرجان يعدو صوب المطبخ ، ووقف توفيق متوتر الأعصاب مرهف الحواس يفكر فيما يقوله وما يفعله ، حتى إذا ما عاد مرجان من المطبخ سكنت مخاوفه وأحس كأنما خرج من مأزقه .

ودق جرس الباب فأسرع توفيق يفتحه ، وقبل أن يرى القادمين صاح :

ــ أسرع أرجوك . قطع مرجان يده .

ووسع صديق من خطوه وقد خف وجيب قلبه ، وانطلق إلى مرجان وفى عينيه إعجاب ، كانت يده تقطر دما فراح صديق يضمد جرحه وهو يهمس :

ــ لم يكن هناك ما يدعو لأن تجرح نفسك كل هذا الجرح .

قال وليمز لتوفيق :

ــ فيم جرح يده ؟

فقال توفيق فى هدوء :

ــ كان يحاول أن يفتح علبة المربى بالسكين .

ثم أطرق توفيق وقال :

ــ لم نعد ندرى أين نجد ما نحتاج إليه بعد جانيت .. حتى فتاحة العلب لم نعثر عليها .

حسب أن ذلك القول قد يؤثر فى وليمز ويجعله يدور على عقبيه وينصرف ، إلا أن وليمز تقدم صوب مرجان وفك الرباط الذى كان يلفه صديق ونظر إلى الجرح فألفاه قطع سكين ، فهز رأسه وقال :

— كنت أظن أنه جرح من العبث فى بندقية أو إصابة رصاصة مرتدة .

وغاظ توفيق قوله فقال له :

— ومن أين لنا بالبنادق بعد أن جمعتم ما كان عندنا منها ؟

فنظر إليه وليمز طويلا ثم قال :

— توفيق . لا تحاول أن تخدعنى .

وراح وليمز ومن معه يجوسون خلال الغرف ، وبقى توفيق ومرجان وصديق مكانهم ، وأراد توفيق أن يوهم وليمز أنه غاضب مما يفعله فقال صائحا :

— لست فى حاجة يا مستر وليمز لأن أطوف بالبيت معك ، من حسن الحظ أنك تعرف طريقك .

وانتهى صديق من تضميد جرح مرجان وجمع حوائجه وتأهب لينصرف ، فقال له توفيق هامسا :

— تريث حتى ينصرفوا .

— ترى ماذا فعل مأمون ؟

فنظر توفيق من النافذة ثم قال :

— لم يستطع أن يفعل شيئا ، هناك حراسة عند السيارة .

وانتهى وليمز من تفتيش البيت وانصرفوا ، فخف الرجال الثلاثة إلى النافذة يرصدون سيارة الإسعاف فرأوا وليمز يتجه إلى بابها الخلفى وينظر إلى داخلها من خلال الزجاج ، فلاح الذعر فى وجوه الواقفين فى النافذة ودقت قلوبهم رهبة واتسعت عيونهم من الخوف ، وتعطل تفكيرهم جميعا ، فقد استسلموا لما تسفر عنه الأحداث .

وابتعد وليمز عن مستطيل الزجاج الصغير الذى فتح فى ضلفة باب سيارة الإسعاف وتأهب للانصراف ، فزفر الرجال فى راحة وتلفت بعضهم إلى بعض كأنما يتساءلون ترى أين مأمون ؟ فطن مأمون إلى أن أحد جنود الحراسة قد يمد عينيه إلى داخل السيارة من خلال زجاج الباب الخلفى فزحف على بطنه وجهاز اللاسلكى معه ، وتمدد عند الباب تحت فتحات الزجاج بحيث لا يراه أحد إذا ما نظر

إلى جوف السيارة .

وقال قائل لويمز :

ــ ماذا كنت تنتظر أن ترى داخل سيارة الإسعاف ؟

ــ خفت أن يكونوا يستعملون عربات الإسعاف فى نقل أسلحتهم وذخائرهم .

فضحك الرجل وقال :

ــ هذه أفكار ويمز ، إنهم أغبى من أن يفكروا فى شيء من ذلك .

وابتسم مأمون وهو راقد على بطنه ابتسامة عريضة كأنما كانت تنطق بأفصح لسان :

وركب ويمز سيارته الجيب وركب رجاله سيارتهم وانطلقوا يجوبون الطرقات ، وفيما كان ويمز يسير فى شارع محمد على سمع صوتا يناديه :

ــ ويمز . ويمز .

فالتفت فرأى مصريا يتجه إليه ، فأخرج مسدسه فى سرعة البرق وأخذ يرقبه فى حذر واقترب الرجل منه وأسر إليه ببعض كلمات فقال له ويمز وهو يفسح له مكانا إلى جواره :

ــ اركب .

وركب الرجل وسار ويمز ورجاله إلى الحى العربى ، وقد لفت نظر الناس ركوب مصرى إلى جوار ويمز وأثار ذلك فضولهم ، فأسرع بعض من يركبون الدراجات فى اقتفاء أثر ذلك الراكب .

ووقفت السيارات الجيب خلف جامع علوان ، وهرع الناس يتلفتون ، وسمع عبود والشيخ حسن وسليمان ضجة فخرجوا ينظرون ، فألفوا الرجل يرشد ويمز ومن معه إلى دكاكين خلف المسجد . فحطم الجنود أبوابها فإذا بأكداس من الأسلحة تملأ جنباتها .

وارتفعت أصوات الاستنكار من كل جانب ، وراحت العيون الغاضبة تصوب نظرات نارية إلى الخائن ، وقال سليمان فى ثورة :

ـــ لا بد أن يقتل .

وأمسكه الشيخ حسن من يده وقال :

ـــ انتظر .

وأخذ الجنود البريطانيون ينقلون الأسلحة إلى سياراتهم ، وراحت نيران الغضب تتأجج فى صدور الجماهير الحانقة ، ووليمز يلف هنا وهناك ويصدر أوامره فى غطرسة ، كان الناس يحسون حزنا لاستيلاء الإنجليز على أسلحتهم ولكن نيران الغضب كانت ثائرة على الخيانة .

ومرت لحظات زاخرة بالقلق والغضب والحقد والثورة الفوارة بين الجوانح ، وانتهى البريطانيون من نقل الأسلحة إلى سياراتهم ، وأمر وليمز جنوده بالانصراف فتحركت السيارات وقد صوب الجنود بنادقهم إلى صدور الأهالى .

وأسرع الخائن ليركب مع وليمز فلم يجد مكانا ، وراح يهرع إلى السيارات ليركب فإذا بها كلها غاصة بالأسلحة ، وطفق يتلفت فى ذعر والسيارات تغادر المكان سيارة فى إثر سيارة وهو لا يزال واقفا وحده ، وفكر فى أن يجرى خلف آخر سيارة ليفر بنفسه من الجموع الغاضبة ، فراح يعدو خلفها إلا أن الناس تركوا السيارة تمر ثم أغلقوا الطريق فى وجهه .

وألفى نفسه فى وسط جموع مزمجرة حانقة غاضبة فوقف يتلفت فى رعب ، وصاح سليمان صيحة كأنها الرعد :

ـــ خائن .

وإذا بأصوات الرجال والنساء والأطفال تردد كلها :

ـــ خائن . خائن .

وأحس الخائن أنه فأر وقع فى المصيدة ، فراح يجرى هنا وهناك وهو يصيح فى فزع ، وأخذت الدائرة تضيق حوله وهو يزداد رهبة ، حتى إن عينيه كادتا أن تقفزا من وجهه ، وصاح سليمان فيه :

ـــ جبان . جبان .

وصرخ الخائن صرخة مفزوعة وأطبق الناس عليه ولم يتركوه إلا جثة هامدة ،

وجاء سليمان بعربة يد ووضع فوقها الجثة ثم كتب عليها « خائن » وراح يدفع العربة أمامه ويطوف بها فى شوارع بور سعيد .

والتفت الشيخ حسن إلى عبود وقال :

ـــ كان حكمك على سليمان أسلم من حكمى ، حكمت عليه بفطرتك السليمة بينما حكمت عليه بفقهى فأخطأت فى حكمى ، كنت على صواب يا عبود لما قلت لى : سليمان فى حاجة إلى معونتنا فلنبذلها له سواء أكان فى طريق الله أم فى طريق الشيطان ، إن حسابه على الله .

وصمت الشيخ حسن قليلا ثم قال :

ـــ غضبت لأنى رأيت سليمان ينفق ما أعطيه إياه فى الشراب ، عز علىّ أن أعاونه على معصية أن تنفق أموالى التى اكتسبتها بعرق الجبين فى الإثم ، يخيل إلىّ الآن أنى لم أكن محقا فيما فعلت ، كان علىّ أن أعطيه ما دام محتاجا ثم لا أحاسبه فيما أنفق ما أعطيته .

فقال عبود وهو شارد :

ـــ ما أصعب أن نفرق بين الخطأ والصواب ، فما أراه خطأ عن اقتناع قد تراه أنت صواب عن اقتناع .

وقال حسن وهو يمرر يده على وجهه :

ـــ يذكرنى سليمان بأبى محجن فى معركة القادسية ، كان أبو محجن بطلا من أبطال المسلمين وقد ضبطه سعد بن أبى وقاص قائد الجيوش وهو سكران قبل المعركة ، فأمر بحبسه .

وتأهبت جيوش الفرس وجيوش العرب للقتال ، ثم دارت المعركة الرهيبة ، وسمع أبو محجن صليل السيوف وقعقعة السلاح فراح ينشد الشعر ويقول إن الرجال فى الحرب وهو فى سجنه ذليل ، وسمعت زوجة سعد شعر أبى محجن فقالت له : إنها ستطلق سراحه ليخوض غمار المعركة ثم إذا ما انتهت يعود إلى سجنه .

ونزل أبو محجن يلعب بسيفه ويخوض فى صفوف أعدائه ، حتى إن المسلمين قالوا : لكأنه أبو محجن .

وانتهى اليوم الأول من أيام المعركة وعاد أبو محجن إلى سجنه ، وفى اليوم الثانى أطلقت زوجة سعد سراحه وأبلى أبو محجن فى المعركة بلاء حسنا لفت إليه أنظار الجيشين ، وانتهى اليوم الثانى وعاد أبو محجن إلى سجنه ، وفى اليوم الثالث اكتشف الناس أن البطل الذى يجدل الأعداء ويزلزل الأرض تحت أقدامهم هو أبو محجن نفسه .

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان الذى كان يدفع عربة اليد أمامه ثم قال :

ـــ أبلى سكير العرب فى القادسية بلاء حسنا ، كما أبلى سكيرنا بلاء حسنا فى هذه المعركة .

فقال عبود وهو يزفر :

ـــ أظن أنى أحس ما دفع سليمان إلى الشرب .

فشخص الشيخ حسن إلى السماء وقال :

ـــ ما أقسى أن يحكم إنسان على إنسان ، والله وحده هو القادر على الحكم على السرائر .

وسرح خيال عبود وساد الصمت بينهما، وانطلقا مع الناس إلا أن كلا منهما كان غائبا عن الصخب المدوى حولهما بما فى رأسه من أفكار . حتى إذا ما أفاق الشيخ حسن مما كان فيه والتفت إلى عبود ورأى فى وجهه الشرود قال له :

ـــ فيم تفكر ؟

فقال عبود فى بساطة :

ـــ أحسست حنينا إلى العمل فرأيت نفسى فى الورشة . كان الله فى عون سليمان . كيف أطاق البعد عن عمله كل هذه المدة ؟

ولم يحر الشيخ حسن جوابا ، بل جرت أفكاره إلى فتحية ومحمد واستشعر حنينا طاغيا إليهما ، وراح يقول فى نفسه : « ترى ماذا يفعلان الآن ؟ ماذا يأكلان ومع من ينامان؟ إننا ونحن فى قلب المعركة نجد ما نأكله ونجد أكثر من مأوى نأوى إليه ، أفسيعز عليهما المأوى والطعام وهما بين أهلهما . كيف سنلتقى إذا ما انتهت هذه الحرب ؟ وأين يمكن أن نتقابل ؟ سيعود أهالى بور سعيد الهاربون من وجه الطغيان

إلى مدينتهم وسيلتئم شملهم ، ولكن الدور هدمت والأحياء دمرت ، سنعيش فى خيام ، سنكون لاجئين فى بلادنا ، لا يا حسن لن نكون لاجئين أبدا ، إننا منكوبون حقا إلا أننا أعزاء .. كرماء .. أحرار .

احمد الله يا حسن فأنت أسعد حالا من عبود ومن توفيق ومن آلاف ممن فجعوا فى آبائهم وأمهاتهم وزوجاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، وممن ثكلوا أبناءهم» .

ونظر إلى عبود وقد تحركت له شفقته وكل مشاعره الرقيقة ، وإذا بعبود يقول :

ـــ ترى ماذا فعل الفرنسيون بالمصنع ؟ أخشى أن يكونوا حطموه .

فابتسم الشيخ حسن ابتسامة رقيقة وقال :

ـــ إن كانوا حطموه فقد فعلوا خيرا ، أتاحوا لنا فرصة إقامة مصنع حديث .

— ٥٣ —

كانت بيوت الصيادين غاصة بالفدائيين الذين تستروا بالظلام وانسابوا فوق مياه بحيرة المنزلة حتى بلغوا القابوطى فى سلام ، وكانت الأسلحة توضع فى أكياس وتدس بين الأسماك والأرز والطماطم والبطاطس ، وفى ثنايا كل ما يمكن نقله إلى قلب بور سعيد .

وفى سكون الليل سمعت حركة غريبة ، فأطلت الرءوس وانتشر الهمس بين دور الصيادين انتشارا الريح :

ـــ إنجليز .. تفتيش .

وخرج الرجال والنساء والأطفال من بيوتهم ينظرون ، كانت الريح تصفر وكان البرد شديدا والضباب كثيفا ، إلا أن الرغبة فى معرفة ما يجرى فى المنطقة جعل الناس لا يحفلون بشدة البرد ، بل راحوا يجرون صوب الجلبة وأضواء الكشافات التى كانت تقهر الظلام .

ورأى الناس فى وضوح العم محمود الصياد يقود الجنود البريطانيين إلى مكان قصى خبئت فيه بعض الأسلحة فغضبوا وثاروا ، وقال قائل :

ـــ نذل .

وصاح آخر :

— خائن .

وجمع ثالث شجاعته وبصق فى وجهه ، وأحس الإنجليز أن الناس سيفتكون به فسددوا بنادقهم إلى صدورهم وأمروهم بالانصراف ، فراحوا يتقهقرون فى بطء شديد وبين ضلوعهم نار ، وفى صدورهم ثورة وفى عيونهم غضب ، ويخرج من أفواههم سباب ولعنات ، وأطرق بعضهم خزيا وعارا ، حز فى نفوسهم أن يكون بين الصيادين خائن أو جبان .

ورأى أحد الفدائيين وهو فى مكمنه هذه الخيانة ، فحمل بندقيته وصوبها إلى العم محمود وهم أن يصطاده وهو ينسحب مع الإنجليز الذين جاء معهم ، وقبل أن يضغط على الزناد انقض عليه ضابط من ضباط الصاعقة وخطف منه بندقيته وهو يقول :

— كنت سترتكب خطأ جسيما .

فقال الفدائى :

— كنت سأقتل هذا الخائن .

— كنت ستكشف أمرنا .

— لا بد أن يقتل هذا الخائن .

— سيقتله الشعب يوما .

وانصرف العم محمود الصياد مع الجنود البريطانيين وأصوات الاستنكار تدوى فى أذنيه ، واللعنات تصب فوق رأسه ، والسباب يقذف فى وجهه قذفا .

وفى سكون الليل تسرب الفدائيون إلى الأماكن التى أعدت لهم ، وهربت أسلحة كثيرة فى السلال وأوعية السمك ، وانتشرت من القابوطى إلى كل الأحياء ، حتى بور فؤاد التى كانت تغص بالجنود الفرنسيين وصل إليها نصيبها .

وأصبح الصباح ، وإذا بسعد صاحب معمل الألبان يعد طعام الأفطار لمن اتخذوا من معمله مسكنا ، وفتح بابا فألفى مأمونا ممددا على الأرض وقد سحب أحدهم الجلباب الذى حشاه قشا لينام عليه من تحته ، ورأى الآخرين ينامون على جلابيبهم

المحشوة قشا ، ووقعت عيناه على شاب ينام فوق حشيتين ففطن إلى أنه هو الذى سرق حشية مأمون ، فابتسم ثم صاح :

ـــ الإفطار يا سادة .

فهبوا جميعا من نومهم وقاموا مسرعين ، وقال مأمون لصديقه سعد :

ـــ صباح الخير يا صول سعد .

وقال له آخر :

ـــ أنت خير صول تعيين رأيته فى حياتى .

وقال ثالث :

ـــ ماذا سنفطر اليوم ؟

ـــ فول وبيض .

ـــ ألا تفكر فى أن تعد لنا مرة الإفطار كبابا ؟ أنا فى شوق إلى الكباب يا حضرة الصول .

وضربه مأمون على ظهره وقال :

ـــ أصبحت الصول سعد بعد أيام قليلة ، أما أنا فقد بذلت العرق فى سبيل هذه الرتبة .

وراحوا يتناولون طعام الإفطار ، وقال سعد :

ـــ سأعد لكل منكم سندويتش كباب فى الغداء .

وقال أحدهم فى إنكار :

ـــ سندويتش واحد !

وقال مأمون :

ـــ سندويتش فى مقابل كل إنجليزى تقتله .

وقال قائدهم :

ـــ معنى هذا أن يعد الصول سعد سندويتشات كثيرة .

وقال سعد فى انشراح :

ـــ أنا قابل وإن كانت السندويتشات بعدد القوات المحتلة .

ونظر قائدهم فى ساعته وقال :

— بعد ربع ساعة سنبدأ فى العمل ، وبعد أن ننتهى من العملية نعود إلى هنا .

فقال مأمون وهو ينظر إلى سعد :

— لنأكل الكباب .

وخرجوا من معمل الألبان فى المنزلة وتفرقوا فى بور سعيد لينفذوا الخطة التى رسموها .

كان مأمون وقائد السرية يسيران معا فى شارع محمد على ، ووقع بصرهما على وليمز وقد وقف يستجوب اثنين منهما كانا فى ثياب الطلبة وقد ارتاب فى مظهرهما .

والتفت مأمون إلى قائده كأنما يسأله ماذا يفعل فقال القائد :

— استمر فى طريقك .

وسار مأمون وهو يتحاشى أن يلمحه وليمز فهو يعلم أنه من القوات المسلحة ، ولو رآه لقبض عليه وعذبه ، واستمر فى سيره حتى إذا ما رأى جنديا بريطانيا يسير وحده راح يدنو منه فى حذر ، ثم طعنه بخنجر معه طعنة سقط بعدها مجدلا .

وسقط أربعون جنديا من الجنود المحتلة قتلى ، ثم اندس الفدائيون بين الناس يبثون فيهم روح المقاومة .

وجاءت سيارة إنجليزية بها مكبر للصوت وراحت تذيع على الأهالى :

— ستضطر القوات المتحالفة إلى القيام بإجراءات تأديبية إذا استمرت أعمال الاغتيالات الغادرة .

ولاح البشر فى الوجوه ، فهناك أبطال لم يضعوا بعد سلاحهم يعتبرون أن المعركة بينهم وبين الغزاة لم تنته ما دام فى بور سعيد جندى واحد من جنود الاحتلال ، وأغرى ذلك التحذير بعض الأهالى أن يحذوا حذو هؤلاء الذين قتلوا أعداءهم وأعداء بلادهم .

وعاد الفدائيون إلى الدور التى نزلوا فيها ، وعاد مأمون وزملاؤه إلى معمل اللبن ، وراح كل منهم يطلب من سعد سندويتشات بعدد ما قتل من الأعداء . وراحوا يأكلون وهم يضحكون ، إلا أن قائدهم كان ينظر صوب الباب بين

وقت وآخر .

وفطن أحدهم إلى غياب اثنين منهم فقال :

ـــ لم يعد الأسد ولا الفهد .

وأخذ الآخرون يتلفتون كأنما يستنكرون أنهم لم يفطنوا إلى ذلك من قبل ، وقال أحدهم فى صوت خافت :

ـــ لعل مكروها أصابهما .

فقال قائدهم وهو يحاول أن يبدو هادئا :

ـــ قبض عليهما وليمز .

ـــ ولماذا لم تقل لنا ؟

وساد الصمت القلق وأخذت العيون ترقب الباب ، ومر الوقت بطيئا ، وقبل الغروب سمع وقع أقدام فهبوا جميعا وتأهبوا لما قد تسفر عنه الأحداث ، وإذا بهم جميعا يصيحون :

ـــ أهلا بكما .

ودخل الأسد والفهد يلوح عليهما الجهد ، وهرع إليهما قائدهم وقال :

ـــ ماذا فعلتما مع وليمز ؟

فقال الأسد فى غضب :

ـــ عذبنا الكلب . لم يصدق أننا طالبان ، قدمت له البطاقة المدرسية فقلبها بين يديه ثم لوى شفته فى سخرية ، وقال بالعربية : «أين زورتها ؟» قلت له : «أنا لم أزورها ، أنا طالب فى التوجيهية وقد حصلت عليها من المدرسة» . قال لى وهو يبتسم استخفافا : «وستلتحق بالكلية الحربية بعد أن تحصل على التوجيهية ، أليس كذلك ؟ لا . سنك أكبر من أن تكون طالبا بالتوجيهية» . قلت له : «أنا فى التاسعة عشرة» ، وقال : «هذا ما تقوله هذه البطاقة المزورة ، انس هذه البطاقة وقل لى : متى جئت من القاهرة ؟» قلت له : «لم أذهب إلى القاهرة أبدا . أمنيتى أن أراها» . وأمر جنوده أن يفتشونى فلم يعثروا معى على شيء .

وقال قائدهم :

ـــ والخنجر الذى معك ؟

ـــ غافلتهم وأنا أسير معهم وتخلصت منه . ألقيته فى الطريق .

ـــ وعلبة السجاير ؟

ـــ لم يفطنوا إلى أنها مسدس ، كنت أخشى أن يفحصها الجندى جيدا فيكتشف أمرها ، ولكنه ما أن أخرجها من جيبى حتى أعادها ثانية .

ثم أمرهم بتعذيبى . وراح أحدهم يلطمنى بيد قوية وهو يستجوبنى ، ثم لكمنى لكمة فى وجهى أطار صوابى ، ويا ليته اكتفى بذلك بل كان يقبض على شعرى بيده ثم يجذبه جذبا شديدا يجعلنى أتلوى من الألم .

وقال ويلز لى :

ـــ إن لم تعترف فسأمزق ظهرك بالسياط وسأنزع أظافرك من أصابعك وسأكويك بالنار .

وقلت له :

ـــ قل لى : بماذا تريدنى أن أعترف وأنا أعترف لك ؟

ـــ أريد الحقيقة .

ـــ الحقيقة أنا طالب فى المدرسة الثانوية .

ويئس من أن ينتزع منى أية معلومات فتركنى وراح يستجوب الفهد .

واتجهت الأنظار كلها إلى الفهد ، وقال له قائدهم :

ـــ ماذا فعل معك ؟

فقال الفهد فى ثورة :

ـــ والله لن يهدأ لى بال قبل أن أقتل ويلز .

ـــ لم تقل لنا ماذا فعل معك .

فعرى ظهره فإذا بالسياط قد مزقت جلده ، وقال :

ـــ هذا هو قولى .

وغامت الوجوه كلها بالأسى ، ولم يستطع سعد أن ينظر طويلا فانسل خارجا ، وأراد أحدهم أن يبدد جو الكآبة الذى ران على المكان فقال له :

ـــ تستحق كل ما بقى من الكباب وإن لم تقتل جنديا واحدا .

فقال قائدهم :

ـــ سيكون للأسد والفهد نصيب فى الخير ، علينا أن نؤكد لأعدائنا أننا لا نخشى تهديدا ، وسيقوم الأسد والفهد بهذا التأكيد .

فقال الفهد مازحا :

ـــ إن كل جندى أقتله من جنودهم سيطفئ نار ظهرى .

والتفت القائد إلى زملائه وقال :

ـــ لا بد أن نغير هذا المكان الآن .

فقال سعد فى دهشة :

ـــ لماذا ؟

قال القائد لزملائه :

ـــ استعدوا للرحيل .

ثم التفت إلى سعد وقال :

ـــ من يدرى لعلهم اقتفوا أثر الزميلين بعد أن أطلقوا سراحهما .

فقال الأسد :

ـــ جعلنا نلف وندور فى المدينة لنضللهم ونهرب من رقابتهم .

فقال القائد :

ـــ الحرص أسلم .

والتفت الرجال إلى سعد وقالوا :

ـــ سنفتقدك .

وقال مأمون مازحا :

ـــ سنشتاق إلى فولك وسمكك وكبابك .

وقال سعد فى تأثر :

ـــ كانت الأيام القليلة التى أمضيناها معا من أسعد أيام حياتى .

والتفت القائد إلى مأمون وقال له :

— إلى أين نذهب ؟

— إلى بيت السيد توفيق .

— ومتى سنعد لضربتنا القادمة ؟

فقال مأمون فى ثقة :

— الليلة .

— أتظن أن الدكتور حازم يستطيع أن يمدنا بما نحتاج إليه غدا .

— غدا سيكون كل شيء معدا .

وراح الرجال يصافحون سعدا واحدا واحدا ، حتى إذا ما وضع مأمون يده فى يده جعل يضغط عليها ليعبر عن حقيقة مشاعره ، ثم قال :

— شكرا لك يا صول سعد .

وقال قائل :

— والله لقد كنت يا سعد خير من أفضل صول تعيين فى وحدتنا ..

ولوحوا له بأيديهم مودعين فقال لهم :

— مع السلامة . فى حفظ الله .

— ٥٤ —

انطلق مأمون ليرتب للضربة القادمة ، كان يستطيع أن يذهب إلى الدكتور حازم ويتفق معه على ما يريد ، فالدكتور يعرفه جيدا وقد قدم له أكثر من مساعدة عن طيب خاطر ، وكان عقب كل معاونة يقول : أنا فى خدمتكم دائما ، بيد أنه أحس حنينا إلى إنصاف واشتاق إلى حديثها .

ستسير معه من عيادة الدكتور حازم إلى المستشفى ، وستحدثه حديثها العذب الذى ينعش روحه ويتفتح له قلبه ، وستلتقى عيناه بعينيها فى لحظات ساحرة حالمة ، وسيخفق قلبه خفقات ناعمة تسكب فى روحه كل ما فى الحياة من جمال .

أصبحت إنصاف تتراءى له فى يقظته ومنامه ، صارت كل دنياه التى يفكر فيها ، إذا أقدم على عمل أقدم عليه لوجه إنصاف ، وإذا أعرض عن عمل أعرض عنه لكيلا

يغضبها ، وإذا مسه التعب أشرقت صورته فى ذهنه وهى تبتسم فتتبدد كل الآلام .

ليته يتخذ عيادة الدكتور حازم مسكنا له ليكون دائما بقربها ، لتطول فترات سعادته ولحظات إشراقه ، وهجس فى جوفه هاجس يقول : «أنا أولى بتلك الساعات من عبود أو الشيخ حسن أو سليمان» .

ووقعت عيناه على جندى بريطانى يسير وحده فخطر له أن يقتله ليعاون الأسد والفهد على زيادة رصيدهما من الخير الذى خرجا فى سبيله ، بيد أنه آثر أن يسير فى طريقه لينفذ ما خرج له .

وعاد يفكر فى إنصاف ، سيحملها إلى داره عقب أن يخرج الغزاة ، ولكن أين تلك الدار ؟ بيته تهدم وبيت إنصاف التهمته النار ، ودور كل أصحابه تقوضت واندكت وعاث فى جنباتها الدمار .

« هل لا بد من دار يا مأمون لنمارس الحب ؟ لو اتخذنا أنا وإنصاف من غصون شجرة دارا ورفرف عليها الحب لكانت أروع عش للغرام . أن تكون مع من تحبه ويحبك فى صحراء جرداء أو بين الأنقاض والأطلال تصبح فى جنة الحياة . إنصاف يا مأمون هى ماء الحياة ، ولا رى لك إلا إذا رشفت منها . أقدم ولا تتردد . أأطلب منها أن نتزوج الآن ؟ ولماذا نؤجل هذا الطلب ؟ كيف أتزوج وأنا لا أستقر فى مكان ؟ كلما عدت من عملية ستجد من تسكن إليها . وإذا ذهبت ولم أعد ؟ ستكون إنصاف واحدة من آلاف الأرامل اللاتى تقبلن فقد أزواجهن فى شجاعة . لا . لا . هذه أنانية منك يا مأمون . لا . لم أكن فى يوم ما أنانيا ، إن غاية حبى لها أن أسعدها» .

وكان قد بلغ عيادة الدكتور حازم فطرق الباب طرقا خفيفا ، فقال الشيخ حسن :

ـــ هذا مأمون .

وخف عبود يفتح له الباب ، وما أن دخل حتى أدار عينيه فى المكان ، رأى حسن جالسا على وسادة وسليمان ممددا فى سرير ولم تكن إنصاف معهم ، فأحس راحة .

وهم بأن يقول لهم : «نحن فى حاجة إلى هذه العيادة بعد أن اضطررنا إلى ترك معمل ألبان سعد» إلا أنه أمسك لسانه فقد نبض فى ذهنه أن وجود إنصاف مع

أصدقائه وأصدقائها أفضل من أن تجد نفسها فجأة بين غرباء .

والتفت إلى عبود وقال :

ــ إين إنصاف ؟

ورن فى أذنيه صوت إنصاف تقول :

ــ أنا هنا .

والتفت فرآها مقبلة تحمل صينية عليها أكواب الشاى ، فطفق يرنو إليها فى حب ويرقبها فى إعجاب وهى تتقدم وتقدم الشاى إلى الشيخ حسن .

وقال مامون للشيخ :

ــ تفضل . أنت فى بيتك .

وقدم إليه الشيخ حسن كوب الشاى وهو يقول :

ــ تفضل . أنت ضيفنا .

فقال مأمون فى إنكار :

ــ لا لست ضيفا . بيت إنصاف بيتى .

ونظر إلى إنصاف وقد انتشرت فى وجهه السعادة ، أرضاه أنه قال ما قال ، وراح عبود ينقل عينيه بينهما ثم أطبق جفنيه ، بيد أن النظرات التى حركت غيرته كانت تومض فى خياله ، ومضات تخز روحه ، وأنكر على نفسه حقها فى أن تنفعل كل هذه الانفعالات كلما التقت عينا مأمون بعينى إنصاف ، فهو يعلم علم اليقين أن مأمون لو فكر فى الزواج فلن يتخذ له زوجة غير إنصاف ورن فى أذنى خياله ما قاله مأمون يوما :

«لو فكرت فى أن أتزوج فلن أتردد فى الزواج من إنصاف» وتذكر ما قاله حينذاك : لو كنت أنا وإنصاف فى صحراء وكنت أموت من العطش وقدمت إلىّ كوب ماء ما تناولته منها . فأحس أنه تضاءل وانكمش فى مقعده .

وقال مأمون للشيخ حسن :

ــ أتستطيع يا شيخ حسن أن تعقد عقد قران ؟

وضحكت إنصاف ضحكة زلزلت كيان عبود حتى إنه فكر فى أن يفر من ذلك

الجو الذى يعذبه ، إلا أنه أخذ يقاوم رغباته ، وقال الشيخ حسن :

ـــ يكفى فى الشرع أن يقول الرجل للمرأة : « هل تقبليننى زوجا » . فتقول له : « قبلت زواجك . وهبتك نفسى » ليكون الزواج صحيحا .

أما العقد الذى يحرر فذلك لحفظ الحقوق .

فقال سليمان مازحا :

ـــ أنا لا أهتم بالحقوق .

ثم التفت إلى إنصاف وقال :

ـــ أتقبليننى زوجا ؟

وضحكت إنصاف ولم تحر جوابا ، وقال له مأمون :

ـــ عيبك يا سليمان أنك طماع .

ووقعت عينا إنصاف على عبود فألفته مطرقا وفى وجهه امتعاض وأمامه كوب الشاى لم يمس ، فأرضاها أن ضايقه ذلك المزاح ، وأحست بغريزتها إنه يغار عليها فقالت له :

ـــ لم تشرب الشاى يا عبود .

فارتبك عبود ومد يده إلى كوب الشاى وهو يقول :

ـــ كنت أنتظر حتى يبرد قليلا .

وقال مأمون لإنصاف :

ـــ هيا معى لنقابل الدكتور حازم .

ـــ لماذا ؟

ـــ نحن فى شدة الحاجة إلى جثة .

ونظرت إنصاف إلى عبود بطرف عينيها فألفته قد أطرق وراح يدارى ارتباكه بالعبث بأصابعه .

فقالت لترضيه :

ـــ لن يكون الدكتور حازم فى المستشفى .

فقال مأمون :

— نذهب إليه فى بيته . الأمر هام .

— ذهب ليستريح قليلا . من الإنصاف أن ندعه الآن .

فقال لها مأمون :

— ومتى نذهب إليه ؟

— دع لى هذا الأمر . اين ستبيت الليلة ؟

— فى بيت السيد توفيق .

— قبل الفجر سآتى إليك لأقول لك إن كل شىء قد أعد .

والتفت الشيخ حسن إلى مأمون وقال له :

— ماذا ستفعل بالجثة ؟

فقال مأمون فى بساطة :

— سنحملها على أعناقنا ثم نسير كلنا خلفها .

فقال سليمان :

— لن أسير معكم .

فقالت له إنصاف :

— لماذا ؟

فقال سليمان :

— لأن الجنازات تذكرنى بالموت ، وأنا أكره الموت .

فقال له الشيخ حسن :

— أمرك عجيب يا سليمان إننا نعيش فى أحضانه .

فقال سليمان وهو يبتسم فى مرارة :

— إنى لا أخاف الموت الذى يأتى فجأة ، لا أخشى الرصاص الذى ينفذ إلى القلب ولا القنابل التى تبعثر الجسم أشلاء ، ولكنى أرتجف فرقا من الموت الذى يحمل على الأعناق .

ونهض مأمون وقال :

— سأنتظرك يا إنصاف فى بيت السيد توفيق .

فأومأت له إنصاف برأسها دون أن تنطق حرفا .

وذهب مأمون وراح الآخرون يتسامرون ، اشتركوا جميعا فى الحديث إلا عبود ، كان يتظاهر بالإنصات بيد أنه كان مشغولا بالأفكار التى كانت تنبض فى رأسه وكانت جميعها تدور حول إنصاف ، وقد كادت النظرات التى يختلسها تفضح حقيقة مشاعره النابعة من أغوار نفسه المتعطشة للحب ، الهفهافة إلى من تسكن إليه .

وتأهبوا للنوم ، وقبل أن تنصرف إنصاف إلى غرفتها قال لها سليمان مداعبا :

ــ متى تحبين أن أوقظك لتذهبى لمقابلة الدكتور حازم ؟

فقالت له إنصاف :

ــ إذا نمت يا سليمان فإن المدافع لا توقظك .

ــ وما أدراك ؟

فقالت فى براءة :

ــ عيبك أنك ترفس الغطاء فى أثناء نومك ، وقد قمت بتغطيتك أكثر من مرة . حاذر .. ستموت بنزلة شعبية .

فقال سليمان دون أن يبتسم :

ــ كل الناس يتهددونى بالموت كأنهم لن يذوقوا الموت أبدا .

وأحس الشيخ حسن مرارة قوله فتحركت عواطفه وثارت شفقته ، وكأنما أراد أن يواسيه فقال له :

ــ يخيل إلىّ أنك آخر من سيموت يا سليمان .

فقال سليمان فى ضيق :

ــ أوه ! ليست هناك سيرة فى أفواههم قبل النوم غير الموت .

وأحس أنه كان ثقيلا عندما تذمر فالتفت إلى عبود وقال له :

ــ ألا تروى لنا نكتة لطيفة ؟

وابتسم عبود وقالت إنصاف وهى تنظر إلى سليمان :

ــ سأروى لك نكتة تعجبك : قابل رجل كثير المشاغل صديقه فى جنازة عمه ،

فسأله : مم مات عمك ؟ فقال صديقه : من الإنفلوانزا . فقال الرجل : بسيطة .

وراح سليمان ينظر إلى إنصاف نظرة عتاب فيها كثير من المبالغة ، حتى إن عبودا لم يستطع إلا أن يشارك الآخرين فى ضحكهم .

وتركتهم إنصاف ليناموا ، فراح الشيخ حسن يفكر فى فتحية ومحمد ، وراح سليمان يصغى إلى دقات قلبه .. خيل إليه إنها عالية فأبعد أذنه عن الوسادة حتى لا يسمع ذلك الدوى الذى يفزعه ، وأخذ عبود يستعيد فى ذهنه كل ما كان بين إنصاف ومأمون من نظرات ويتململ فى رقدته ، وظلوا يجرون خلف أفكارهم حتى حطفهم النوم .

ومر الوقت وارتفع غطيطهم ، وأحس عبود يدا تهزه فى رفق ففتح عينيه ، ولما وقعتا على إنصاف خفق قلبه فى شدة وسرت قشعريرة فى بدنه ولفه خوف ، وزادت رهبته لما سمع إنصاف تقول له همسا :

ـــ تعال معى .

فقال لها فى صوت مبحوح خافت :

ـــ أين ؟

ـــ نذهب إلى المستشفى لنقابل الدكتور حازم .

فنهض لينطلق معها ولما يسكن روعه ، وسارا على أطراف أصابعهما وانسلا من العيادة إلى الطريق .

كان الهواء يهب باردا حتى إن إنصاف التصقت به ، وكان الضباب كثيفا فلم يستطيعا أن يريا إلا مواطن أقدامهما ، وانطلقا وقد أرهفت حواسهما ، كانا يعلمان أنهما يسيران فى وقت حظر التجول وأنه سيقبض عليهما إذا ما عثر عليهما جندى من جنود الحراسة ، وكان كل منهما يحصى حركات الآخر ويعد عليه أنفاسه ويحاول أن يستشف ما تعبر عنه ، وأن يفهم حقيقة خلجات النفس التى تأبى أن تسفر عن جوهر مكنونها وكنه رغباتها .

وسارا صامتين إلا أن كيانهما كان مسرحا لانفعالات رقيقة حانية تغمرهما بنشوة طاغية . تركز الكون كله فيهما ، كانا كطيفين يسريان فى الضباب وإن

رفعتهما أحلامهما المجنحة إلى السماء ، وسمعا وقع أقدام تقترب ، إنها أقدام جندى ، وفى مثل لمح البصر هبطا إلى واقع حياتهما وأحسا الخطر المحدق بهما فجعلا يتلفتان ، وهما بالفرار إلا أن الرجل كان على بعد خطوات منهما ، فإن بدرت منهما أية بادرة فسيطلق عليهما النار .

والتمعت فكرة فى رأس إنصاف كالبرق الخاطف ، فلفت ذراعيها حول عنق عبود وراحت تقبله قبلة طويلة فى الوقت الذى كان الجندى قد وصل إليهما .

وفطن عبود إلى اللعبة التى لعبتها فلف ذراعيه حول وسطها وراح يبادلها القبل ، كانا يتظاهران بأنهما عشيقان يتسربلان بالظلام وأن الجندى فاجأهما ، إلا أن قبلاتهما كانت حارة ينفعل لها الجسم جميعه على الرغم من الخطر المحدق بهما .

وقال الجندى بالإنجليزية :

ـــ ماذا تفعلان هنا ؟

ونظرت إليه إنصاف بعينين مضعضعتين ، ثم أسبلت جفنيها على عينيها وأدارت وجهها من الخجل ، واستمر الجندى يرقبهما برهة فقرأ الحب فى العيون ، فقال لهما :

ـــ Go on

ثم تركهما وانصرف ، فانطلقا وكل منهما يحس طعم القبلة التى استقرت فى سويداء القلب وسكبت فى الروح دنان النشوة .

وبلغا المستشفى فانطلقت إنصاف إلى الدكتور حازم وقالت له :

ـــ الفدائيون فى حاجة إلى جثة .

فنظر إليها الدكتور فى دهش وقال لها :

ـــ ماذا سيفعلان بها ؟

ـــ سيقومون بدفنها فى الجبانة .

وفطن إلى ما يريدونه فقال لها :

ـــ غدا يمكنهم أن يحصلوا على الجثة .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ من منهم الذى سيتسلمها ؟

ـــ مأمون .

وعادت إلى عبود وقالت له :

ـــ غدا ستكون الجثة جاهزة .. هيا لنخبر مأمون .

ـــ ألا ننتظر حتى تحين الساعة السادسة وينتهى حظر التجول ؟

فقالت له وفى عينيها بريق خاطف :

ـــ ما ألذ المغامرة !

وسارا فى جوف الضباب حتى بلغا بيت توفيق ، فتقدمت إنصاف ثابتة الخطو وعبود فى أثرها ودقت الجرس .

وانفرج الباب عن توفيق ، ولما رآهما قال لهما :

ـــ تفضلا . مأمون فى انتظاركما .

ودخلا ، كان مأمون فى انتظارهما وكان يحسب أن الفرصة ستتاح له ليحدثها عن رغبته وأن يعرض عليها أن تكون له زوجة ، وما دار بخلده أن تأتى فى رفقة عبود ، وكان ظهور عبود أمامه مفاجأة قوضت قصور الأمانى التى بناها فى خياله .

وفى الصباح كان النعش يخرج من المستشفى يحمله مرجان والشيخ حسن والأسد ، وكان توفيق وسليمان وعبود ومأمون والفهد والإخوان يسيرون خلفه ، حتى إذا ما اقتربوا من الجبانة اعترض الجنازة بعض الجنود البريطانيون وقال أحدهم بالعربية :

ـــ لا يسمح بالدخول إلا للترابى واثنين من أقارب الميت فقط .

وراح توفيق يعترض ويقول :

ـــ كلنا أقاربه ، كلنا نريد أن نودعه الوداع الأخير ، كانت وصيته أن أوسده التراب بيدى .

ـــ لا لن يسمح إلا بدخول الترابى واثنين من أقاربه .

فصاح الشيخ حسن فيه :

ـــ حتى الموت لا تحترمونه !

ورأى القائد ألا جدوى من الجدل فأشار لاثنين من رجاله أن يدخلا مع النعش ،

فتقدما وحملاه وعاونهما الترابى فى حمله، وسمح الجنود لهم بالمرور ثم سدو الطريق فى وجه الآخرين.

وتقدم الثلاثة بالنعش حتى إذا ما بلغوا الجبانة ترك الفدائيان الجثة للترابى ووقفا يفحصان المكان بعيون خبيرة. ها هى ذى المزرعة.. ها هى ذى مواقع الأعداء بالقرب من مطار الجميل.. الهدف واضح.. إن هى إلا ثوانى ثم يسددان الضربة التى تجشموا جميعا فى سبيلها كل هذا التعب. وفى مثل لمح البصر ألقيا على الهدف ما يحملان من قنابل، فإذا بأجسام تتطاير، وإذا بصيحات رعب وهلع تنطلق من الحناجر، وإذا بجنود يجرون فى كل مكان لا يلوون على شيء، وقبل أن يفيقوا من المفاجأة انطلق الفدائيان هاربين يسابقان الريح.

— ٥٥ —

كان عبود والشيخ حسن ومرجان مشغولين بنقل الأسلحة التى جمعت فى الحى العربى، كانوا يقومون بنقلها إلى سيارة صديق وإذا بسليمان يقبل مسرعا ويقول:

ــ الجنود البريطانيون يفتشون هذا الشارع بيتا بيتا، أسرعوا بالهرب.

وقال توفيق:

ــ لن تقع هذه الأسلحة فى أيديهم أبدا. كدسوها فى سيارة الإسعاف.

فقال سليمان:

ــ لن تستطيع السيارة أن تخرج من هذا الشارع. ستقع فى أيديهم لا محالة.

فقال الشيخ حسن:

ــ لو وقعت فى أيديهم فلن يسمحوا بمرور سيارة إسعاف بعدها أبدا إلا بعد أن يفتشوها تفتيشا دقيقا.

قال توفيق:

ــ ضعوا كل الأسلحة فيها وسأقوم أنا بقيادة السيارة، إنى أعرف الطرق من هنا إلى بيتى جيدا.

وراحوا يكدسون الأسلحة فى سيارة الإسعاف تكديسا، حتى إذا ما انتهوا من

إغلاق بابها الخلفي قفز توفيق خلف عجلة القيادة وراح يسير بها إلى الخلف ويدور بها في مهارة فائقة في الطرق الضيقة الملتوية ، وفي اللحظة التي غاب فيها عن عيونهم سمع وقع أقدام جنود قادمين ، فانسل الرفاق وتفرقوا ، وبقي مرجان واقفا ليتمتع ببسمة السخرية العريضة التي تنتشر في صدره بعد أن يقوموا بتفتيش البيت الذى كان يموج بالأسلحة منذ لحظات ، ثم يخرجوا منه فارغين .

وانتشروا في شوارع بور سعيد ، وإذا بسيارة بها مكبر صوت تستأنف محاولة إغراء الناس بالعمل معهم في تطهير القناة بأجور سخية ، فراحوا هم والفدائيون الذين دخلوا المدينة يدسون في أيدى الناس منشورات تحضهم على عدم التعاون مع الأعداء والثبات على مقاومتهم السلبية الرائعة .

وراح وليمز يذرع الشوارع بسيارته الجيب ، وأخذ مورهاوس ينافسه في صلفه وطغيانه ، وجاء بعض الجنود وقد ألقوا القبض على العم محمود الصياد ، فأخذ الناس يتطلعون إلى الشيخ الذى سار معهم مطأطئ الرأس ، أشفق عليه من لا يعرفه ، أما من شاهدوا خيانته من الفدائيين فقد كانوا في دهشة من أمره .

وسيق العم محمود حتى وقف أمام مورهاوس فألقى في وجهه اتهامه ، قال له :

ـــ أنت تتعاون مع الفدائيين .

فقال العم محمود في فزع وإنكار :

ـــ أنا ؟! لم أتعاون إلا معكم . كاد الصيادون أن يقتلونى أكثر من مرة ، لولا حمايتكم لى .

فقال له مورهاوس في زراية :

ـــ لا تحاول أن تخدعنى .

فقال العم محمود في تواضع :

ـــ من أنا حتى أخدع بريطانيا عظيما مثلك ؟

وانتفخت أوداج مورهاوس وقال :

ـــ لا تظن أن تملقك هذا سيدير رأسى . أنت متهم بخيانتنا .

ـــ لقد أرشدتكم يا سيدى إلى الأسلحة المخبأة في القابوطى .

فأشار مورهاوس برأسه إلى جندى كان يقف إلى جوار العم محمود ، فسدد الجندى إلى وجه الشيخ لكمة قوية أسالت الدماء من أنفه ، وقال له مورهاوس :

— وجهت أنظارنا إلى هذه الأسلحة الهزيلة لتتيح للفدائيين فرصة تهريب كميات ضخمة من الأسلحة ، لم يكن عملك خدمة لنا بل كان خديعة .

فراح العم محمود يقسم :

— والله يا سيدى كنت أقدم هذه الخدمة وأنا مخلص ، لم يكن فى قلبى غش ولا خديعة .

ورمز مورهاوس لجندى آخر بعينه فإذا بسوط يرتفع فى الهواء ليهوى على العم محمود فينهار وهو يئن ويتأوه ، ومد إليه جنديان أيديهما ورفعاه بينهما فوقف وهو يترنح ، وقال له مورهاوس :

— أريد الحقيقة .

فقال العم محمود :

— الحقيقة أنى أستحق هذا العذاب .

فقال مورهاوس :

— لأنك خدعتنا .

— بل لأننى وثقت فيكم .. لو لم يكن مستر وليمز صديقى لما تعاونت معكم .

وعاد مورهاوس يرمز لأحد الجنود فتقدم خطوة ثم راح يكيل للعم محمود ضربات متلاحقة فى وجهه جعلته يغيب عن الوجود لحظات .

وألقى على وجهه ماء بارد ففتح عينيه فألفى كل شىء يتراقص أمامه ، وراح يلتقط أنفاسه فى جهد ، وأخذ ينتفض من البرد ، ومد الجنود أيديهم إليه وجذبوه ليقف على قدميه .

ورماه مورهاوس بنظرة قاسية ثم قال :

— إن لم تقل الحقيقة فسآمرهم بأن يحرقوا جلدك وأن يدقوا المسامير فى يديك وأن ينزعوا أظافرك .

وقال العم محمود فى وهن :

ـــ اسألوا وليمز : أنا رجل من رجاله .

فقال مورهاوس فى غضب :

ـــ سأعرف كيف أحل عقدة لسانك .

والتفت إلى الجنود الواقفين وقال باللغة العربية :

ـــ هاتوا النار .

وجاء جندى وفى يده قضيب من الحديد المحمى ، وأسرع جنديان وقبضا على العم محمود وشدا ذراعيه إلى الخلف وقام آخران بتعرية ظهره ووضع قضيب الحديد المتوهج على جلده ، فصاح العم محمود صيحة مفزوعة عبرت عن قسوة الألم الذى يفوق احتمال البشر .

وجاء وليمز وقد مزقت أذنيه الصرخة المرعوبة ، ونظر إلى وجه الرجل الذى أغمى عليه من شدة الألم فاتسعت عيناه دهشة ، ثم التفت إلى مورهاوس وقال :

ـــ هذا رجل من خيرة رجالنا . لماذا تعذبه ؟

فقال مورهاوس :

ـــ لأنه خدعنا ، دلنا على بعض الأسلحة ليعمى عيوننا عن أسلحة أخرى كثيرة كانت تهرب فى نفس الوقت الذى شغلنا فيه بتلك الأسلحة الهزيلة .

ـــ من قال لك ذلك ؟

ـــ عيونى المنبثة فى كل مكان .

ـــ لقد أوقع به خصومه ، خدعوا رجالك ، قلت لك يا مستر مورهاوس المصريون أذكى مما تظن .

فقال له مورهاوس بالعربية :

ـــ أعرفهم كما تعرفهم يا مستر وليمز ، فقد عشت بينهم سنين طويلة .

وأفاق العم محمود من غشيته فخف إليه وليمز يقول له :

ـــ كيف أنت الآن يا محمود ؟

فقال العم محمود فى صوت خافت :

ـــ وليمز ! هذا بسببك ، لولا صداقتى لك ما ذقت هذا العذاب .

ـــ آسف يا محمود .

ـــ كنت أبحث عنك لما قبضوا علىّ .

ـــ ماذا كنت تريد منى ؟

فأشاح محمود بوجهه عنه وقال :

ـــ لا . انتهى كل ما كان بينى وبينك ـــ لن أقول شيئا .

ـــ قلت لك آسف يا محمود . أعدك ألا تتكرر هذه الغلطة . قل ماذا كنت تريد أن تقول لى .

فأطرق العم محمود ثم قال :

ـــ لولا محبتى لك ما قلت شيئا .

ـــ تعرف كم أنا أحبك يا محمود .

وأحس مورهاوس ضجرا فقام من مقعده وهو يغدو ويروح فى الغرفة ، وراح العم محمود يتكلم فدنا منه ليسمع ما يقول ، قال :

ـــ فى منتصف هذه الليلة سيأتى مركب به ذخيرة وفدائيون .

والتفت وليمز إلى مورهاوس نظرة انتصار ، فقال مورهاوس فى ضيق :

ـــ أتصدق هكذا سريعا ؟ لماذا لا يكون هدفه أن يسوقنا إلى كمين ؟

ـــ العم محمود كان مخلصا لنا دائما . إنى أحكم عليه بماضيه .

وفى منتصف الليل كان وليمز ومورهاوس وبعض الجنود واقفين على شاطئ المنزلة يرقبون ، وكان الظلام دامسا والبرد قارسا والسحب الداكنة أخفت كل النجوم ، وسمع صوت ارتطام مجاديف بالماء فاتسعت العيون وشهرت الأسلحة ، وعلا صوت الموج على صوت المجاديف إلا أن المركب اتضح للأنظار ، فحبس الواقفون على الشاطئ أنفاسهم ، وهبط من المركب رجلان يحملان بين أيديهما صندوقا كبيرا ، وفارقت أحد الجنود شجاعته فأطلق النار رعبا ، فوضع الرجلان الصندوق على الأرض وأطلقا سيقانهما للريح .

وأطلق الواقفون على الشاطئ عليهما الرصاص وهم يجرون خلفهما ، إلا أن الهاربين غابا فى جوف الظلام ، وعاد الجنود إلى الصندوق وفتحوه فى حرص

شديد، فإذا بمدافع سريعة الطلقات وبنادق وأكداس من الرصاص.

والتفت وليمز إلى مورهاوس، وعلى الرغم من الظلام الثقيل قرأ مورهاوس فى عينيه ما يريد أن يقوله، فقال فى صوت خافت:

— آسف.

وحمل الجنود البريطانيون الصندوق وقفل الجميع راجعين إلى مركز قيادتهم، وعاد الصمت ليطبق على الشاطئ مرة أخرى.

كانت الريح تهب شديدة وكانت بيوت الصيادين غارقة فى الصمت لا نأمة ولا حركة وكان الظلام طبقات بعضها فوق بعض، ومن جوف الليل الدامس خرج رجال يتسللون فى خفة إلى الشاطئ.

كان مركب شراعى وبعض قوارب صغيرة تنتظرهم، ولما وصلوا إليها قفزوا فى خفة إلى ظهورها، ونظر أحدهم إلى الصياد الذى كان فى انتظارهم وصاح فى دهشة:

— العم محمود!

وابتسم العم محمود وظل الرجل يتلفت وهو لا يكاد يصدق عينيه، ودنا منه قائدهم وقال:

— جزى الله العم محمود خيرا فقد أدى لنا خدمات جليلة.

فقال الفدائى:

— لقد هممت فى تلك الليلة أن أقتله.

وقال قائدهم:

— ولقد خطفت منك بندقيتك وقلت لك: كنت سترتكب خطأ جسيما.

فأشرق وجه الفدائى وقال:

— لم أفهم ليلتها، ولكنى فهمت الليلة.

وقال مأمون للعم محمود:

— أتعرف إلى أين وجهتنا؟

— أعرف هدفنا الليلة: الجبانة.

ـــ بل مطار الجميل يا عم محمود .

وراح المركب الشراعى يشق طريقه وكان يقطر القوارب الصغيرة ، كان عبود وسليمان ومرجان فى قارب ، وتوفيق وبعض الفدائيين فى قارب آخر ، ورجال الصاعقة فى قارب ثالث ؛ وكان كل منهم يعرف هدفه جيدا .

وأشرفت المركب على مطار الجميل ، وكانت المنطقة كلها غارقة فى ضوء شديد يبهر العيون وكانت الحراسة شديدة ، وقد أحس الجنود بدنو المراكب فراحوا يطلقون أعيرة نارية فى جنون .

وقال العم محمود :

ـــ يحسن بنا أن نعود .

وقال القائد :

ـــ بل لا بد من النزول إلى الشاطئ وتأدية الغرض .

وقال العم محمود :

ـــ إن كنتم قررتم الانتحار فإنى سأنتحر معكم .

وقفز بعض من كانوا فى الزوارق إلى المركب ، فقال العم محمود .

ـــ لو ركب أربعة فى المركب فستنكشف العملية .. عودوا إلى زوارقكم .

ثم التفت إلى القائد وقال :

ـــ هجومنا فى هذه الساعة لا جدوى منه ، أرى أن نصطاد بعض السمك أو أن نشترى سمكا من الصيادين وأن نتريث حتى ينتهى حظر التجول ، ثم نهبط إلى الشاطئ لنبيع السمك .

وراح الرجال يحاولون أن يصطادوا السمك ، بيد أن ما اصطادوه كان قليلا ، فأخذوا يشترون بعض الأسماك من الصيادين .

ووافت الساعة السادسة صباحا ، وانتهى ميعاد حظر التجول ، فقفز بعض الرجال إلى الشاطئ وأخذوا يبيعون السمك للجنود ، وحان ميعاد تبديل الدوريات ، فانصرفت دورية الليل ، وانتهز المختبئون فى القوارب هذه الفرصة فقفزوا إلى الشاطئ وراحوا يلتقطون صورا لكل ما تقع عليه عيونهم ، ثم تقدموا

وهم يلتفتون إلى مطار الجميل .

كانت الشمس تحاول أن ترسل أول خيط من خيوط النهار ، وكان الجنود البريطانيون مطمئنين ، وإذا بقنابل تلقى عليهم ، وإذا بطلقات مدافع سريعة تئز فى الجو تنذر بالموت والفناء .

وحدث هرج شديد ، وأفاق البريطانيون من وقع المفاجأة فخفوا إلى أسلحتهم ليردوا العدوان . وتبادل الفريقان إطلاق النار ، ثم أخذ المهاجمون يتقهقرون بعد أن حققوا هدفهم ، وفيما هم يتأهبون للفرار أصابت رصاصة كتف عبود فسقط على الأرض .

وثبت الشيخ حسن وتوفيق وسليمان ومأمون ومرجان فى أماكنهم ، وأخذوا يصلون الذين يقتفون أثرهم نارا حامية لكى يتيحوا لعبود فرصة أن ينهض ليلحق بهم ، إلا أن عبود لم يقو على النهوض .

وانطلق مرجان ومأمون إليه وخطفاه من على الأرض خطفا وعادا به إلى حيث كان إخوانهم .

وراح الجميع يتقهقرون وهم يطلقون القنابل اليدوية والرصاص حتى اجتازوا منطقة الخطر .

— ٥٦ —

كان عبود يهذى وإنصاف جالسة إلى جوار سريره تصغى إلى كل مايقول ، راح يصيح :

ـــ أنت مجنونة . مجنونة . قلت لك أكثر من مرة يا بهية : إن غيرتك هذه ستفسد حياتنا . لا . هذا البيت لم يعد يطاق .. والنعمة الشريفة أنت ظريفة يا بهية .. بهية أقسم لك أنى لم أحب أحدا سواك .

وأحست إنصاف غيرتها تتحرك ، وساءها أنها أضحت تغار من امرأة ذهبت ولم تعد إلا ذكرى .

وصاح عبود :

ـــ أقسم لك يا بهية أن ليس بيني و بين إنصاف شيء مما تظنين .

وراحت إنصاف تتذكر تلك الليلة التي اقتحمت فيها بهية دارها وقالت لها : « تخفين زوجي عندك يا فاجرة » وأطرقت تصغي إلى الحوار الذي دار بينها و بين بهية فى تلك الليلة ، وكان يرن فى أغوارها رنينا كصلصلة الجرس :

ـــ لماذا تعذبين نفسك كل هذا العذاب يا بهية ؟

ـــ ليس لى فى هذه الدنيا إلا عبود ، فهو أبى وأمى وأختى ، وهو أبو ذلك الذى فى بطنى ، فأرجوك يا إنصاف أن تتركيه لى ، إن لم يكن إكراما لخاطرى فمن أجل الطفل البرىء الذى أحمله .

ـــ أقسم لك يا بهية أنه ليس بينى و بين عبود شيء مما تفكرين فيه .

ـــ الرجال كثير يا إنصاف ، أكثر من رجل يتمنى أن يتزوجك ، مأمون أخى يعزك ولولا سفره لما أحجم عن أن يخطبك ، أما أنا فليس لى غير عبود ، اتركيه لى .

وتململت إنصاف فى جلستها ، سخرت من بهية فى تلك الليلة ، وزاد فى سخريتها أن دار بخلد بهية أن مثلها تقع فى حب عبود ، أما الآن فهى تحس أن حبه تغلغل إلى سويداء قلبها ، كيف حدث هذا ؟ إنها لا تدرى ، كل ما تدريه أنها لم تعد تحتمل بعده ، وأن وجودها بقربه يملؤها غبطة ويبعث فيها مشاعر رقيقة حانية ، إن روحها تهفو إليه وتتمنى لو تفنى فى روحه .

ونهضت ورن فى جوفها صوت يقول :

ـــ من كان يصدق أنك يا إنصاف تقعين فى حب هذا الغرير .

وذهبت إليه ومررت يدها على شعره ، وأحست انجذابا إليه فمالت عليه وقبلته قبلة أودعتها كل حبها .

وتذكرت تلك القبلة التى بادلها إياها ليلة أن فاجأهما فى الليل أحد الحراس ، كانت قبلة صادقة أنعشت روحها ، لم يضع شفتيه على شفتيها ولكن روحه النابضة بالحياة لثمت روحها .

وقال فى صوت خافت :

ـــ بهية . أشرب .

فالتفتت إليه وفى عينيها أسى ، ليته يناديها . إن اسمها لم يجر على لسانه إلا لينفى لبهية أن بينه وبينها أية علاقة ، ترى ما الذى يكنه قلبه لها ؟ إنه وهو تحت تأثير البنج ليس له سلطان على نفسه ، آه لو تحدث عنها لعرفت مكانتها عنده .

وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهوبا وهى تغمغم :

— ما أنا واثقة منه أنى أحبه ، وأنه أول رجل خفق له قلبى ، وأحبه هذا الحب الكبير ، لو أمرنى أن أتبعه إلى آخر الدنيا لأطعته وأنا راضية .

وذهبت تنظر إليه وهى تعجب من نفسها . أهذا الواهن الضعيف هو الذى أسر قلبها ؟! أهذا هو الذى تعلق به فؤادها دون سائر البشر ؟!

ألا ما أعجب قلوبنا ؟

وطاف بذهنها يوم دخل بهنس المستشفى ليخطب ودها ويعرض عليها أن تقبله زوجا ، فابتسمت فى سخرية ، إلا أن سخريتها ما لبثت أن غاصت لما فتح عبود عينيه وهتف فى صوت واهن :

— إنصاف .

فهرعت إليه وهى تقول :

— عيون إنصاف .

— أين أنا ؟

— أنت معى . وأنا إلى جوارك .

وراح يقلب عينيه فى المكان فرأى صورة جانيت معلقة على الحائط ، وبدأت الغيبوبة تنقشع عن ذهنه فقال لها :

— ما الذى جاء بى إلى بيت توفيق ؟

— كان لا بد أن نخرج الرصاصة التى استقرت فى كتفك .

— ولماذا لم تذهبوا بى إلى المستشفى ؟

خاف توفيق أن يقوم الإنجليز بتفتيشه فحملك إلى هنا ، واستدعى الدكتور حازم ليخرج الرصاصة من كتفك .

ونظر إلى إنصاف وقال لها :

ـــ إنى أتعبك كثيرا .

ورأى يدها قريبة منه فرفع يده ومررها على يدها وهو يقول :

ـــ شكرا لك .

وأحست كأن مسا كهربيا سرى فى بدنها ، لم يكن أول رجل لمس يدها فما أكثر الرجال الذين مرروا أيديهم على يدها ، إلا أن أنامله كانت تزخر بسحر عجيب لم تشعر بمثله من قبل ، سحر دغدغ كل مشاعرها وحواسها وسكب نورا فى روحها .

وقال فى صوت ضعيف :

ـــ إنصاف . أشرب .

ومرت يدها على وجهه فى حنان وقالت :

ـــ اصبر قليلا يا عبود .

وهمس هامس فى نفسها : « يا حبيبى » .

وقال وقد أسبل جفنيه على عينيه :

ـــ رأيت نفسى وأنا صغير أعيش مع أمى ، ورأيت أمى تحمل حسينا وتقبله ، وكانت بهية تقول لها وهى تكاد تطير من الفرح : أليس حسين أجمل الأطفال كلهم ؟

ورأيت بهية وهى قتيلة على شاطئ المنزلة فبكيت كثيرا ، وقابلت فانوس وذهبت إلى الورشة ورأيت أحواض الملح ناصعة البياض كالجليد ، وعشت مع الشيخ حسن وسليمان وصديق .

وكانت تصغى إليه وهى مطبقة الشفتين إلا أن صوتها كان يسرى فى نفسها يسأل : «ألم يكن بينى وبينك شىء ؟ ألم تر القبلة التى كانت بيننا . تكلم . لماذا تعذبنى ؟» .

وقال :

ـــ رأيت كل حياتى ، كل ما كان فيها من تفاهات وأحداث هامة .

ثم التفت إليها وقال :

ـــ يخيل إلىّ أنى كنت أتكلم .

فأومأت له برأسها أن نعم ، فقال :

— هل قلت شيئا معيبا ؟

فابتسمت وقالت :

— لا . اطمئن وإن كنت أحب أن أسمع الأشياء المعيبة .

وهم بأن يتكلم فوضعت يدها على فمه وقالت :

— لا تجهد نفسك . أرجوك .

وصمت وعادت عيناه تتجولان فى الغرفة حتى استقرتا على صورة جانيت . واستمر يرنو إليها مدة طويلة ثم قال :

— مسكين توفيق .

فقالت إنصاف فى استغراب :

— ماذا جرى له ؟

— ما أقسى أن يفقد الرجل زوجة كان يحبها !

وخفق قلب إنصاف وشعرت كأن يدا تضغط على عنقها ، خيل إليها أنه يندب حظه ، وضايقها أنها لم تستطع أن تنسيه زوجه فقالت فى حدة :

— لعل الله يعوضه خيرا منها .

وحنقت على نفسها ، ما بالها انفعلت كل هذا الانفعال وهى تنطق بما قالته ، ما بال صوتها كان زاخرا بالحقد نابضا بالغيرة . أتغار من ذكرى ؟

أليس من حقه أن يبكى من شاركته حياته ؟

« إن قلبه جريح يا إنصاف وعليك أن تكونى البلسم الشافى لهذا الجرح . أكتب علىّ أن أعيش بحبه ويعيش بحبها ؟ . ألم تقررى يا إنصاف أن تهبى نفسك لمن يخفق بحبه قلبك سواء أكان شابا أم شيخا ، غنيا أم فقيرا ، لم يتزوج بعد أو زوجا لثلاث زوجات ؟ ألم توطدى العزم على ألا تبيعى نفسك لأى رجل يدفع مهرك ؟! ها هو ذا قلبك تعلق به ، فلم الغيرة ؟ احترمى ذكرياته ، وحاولى أن تمسحى آلامه . كنت أتمنى أن أحب رجلى وأن يبادلنى حبا بحب ، ولكنى هويته ولا أدرى إن كان لى فى قلبه مكان » .

وقامت إليه وعرت ذراعه ثم غرزت إبرة فيه ، وما أن أخرجتها حتى راح فى

سبات ، فأتت بكرسي وجلست إلى جواره تديم النظر إليه وهي تحس نفس إحساس الرضا الذي كانت تحسه لو أنها كانت تتطلع إلى صورتها في المرآة .

ومدت يدها وجعلت تمررها على شعره وهي شاردة ، ولاحت في عينيها أحلام ؛ كانت ترى نفسها وعبودا معها ، وقد أغلق عليهما باب بيتهما ، ولجت الأحلام فرأته يطوقها بذراعيه ويلثمها في كل مكان ، وسمعته في وضوح يقول لها : أحبك . أحبك يا إنصاف .

واشتعلت عواطف الحب بين جنباتها فنهضت ومالت فوقه وقبلته في حنان ، ولو طاوعت رغباتها لألقت بنفسها على صدره وبكت من الوجد ، إلا أنها كبحت جماح عواطفها وعادت إلى مقعدها تنظر إليه .

وسمعت وقع أقدام فالتفتت فرأت مأمون قادما ، فنهضت لاستقباله ، ولما وصل إليها قال :

— كيف حال عبود الآن ؟

— بخير .

ودنا منه وأدام النظر إلى وجهه ، فقالت له :

— إنه نائم .

— ألم يفق من البنج بعد ؟

— كان يكلمني الآن ، وقد أعطيته حقنة لينام حتى لا يجهد نفسه .

ونظر إليها مليا في إعجاب وقال :

— أنت ملاك يا إنصاف .

وربت على ظهرها في حنان .

وقدمت إليه كرسيا وهي تقول :

— تفضل .

فجلس وظل صامتا مدة وجعل يتلفت ثم قال :

— والله لا أدري من أين أبدا يا إنصاف . فكرت أكثر من مرة أن أفاتحك في الموضوع ولكني لم أجد لساني . كنت وأنا في «أبو عجيلة» أحسب أن الأمر سهل ،

لقد قلت لك آلاف المرات ما أريد أن أقوله الآن .

وفطنت إنصاف إلى ما يريد أن يقوله ، فأرادت أن تعاونه على الإفضاء به لتواجه هذا الأمر الساعة وتنتهى منه ، فقالت :

ــ وماذا كنت تقول لى وأنت فى « أبو عجيلة » ؟

فراح مأمون يجمع شجاعته ثم قال :

ــ كنت أقول لك : يسعدنى أن تقبلى يا إنصاف أن تكونى زوجة لى .

وصمت وراح ينظر إليها نظرات زائغة لا تستقر على شىء ، وأرادت أن تقضى على التوتر الذى ساد بينهما حتى تتأهب للرد عليه فقالت له :

ــ وماذا كنت أقول لك ؟

فقال وهو مطرق :

ــ كانت أمانى هى التى تتكلم .

ــ ماذا كانت أمانيك تقول ؟

ــ تقول : « كانت أمنيتى دواما يا مأمون أن أكون زوجة لك » .

وارتسم فى وجهها الجد ولمعت عيناها ببريق خاطف ثم قالت :

ــ تعرف يا مأمون أنى لا أحب أن أخدعك أو أخدع أحدا ، سأصارحك بكل شىء .

وصمتت قليلا ، وأحس مأمون أنها ترفضه ، فخفق قلبه فى أسى وزاغ بصره وأرهفت حواسه .

قالت :

ــ أنت طيب القلب يا مأمون وكنت دواما أميل إليك ، وقد قررت ألا أتزوج إلا الرجل الذى يذيقنى لوعة الحب ، الرجل الذى أفتقده إذا ما غاب عنى لحظات ، الرجل الذى يرغمنى على أن أبارك كل ما يفعل ، وأن أتبعه أينما سار ، كنت أرجو أن تكون هذا الرجل ، كانت أعز أمانى أن يتعلق بك قلبى ، ولكن أمر قلبى لم يكن بيدى ، تمرد على كل رغباتى وأمانى وتعلق برجل آخر . خفق بحبه . صار يهفو إليه . يرقص طربا إذا أشرق وجهه بالابتسام ، وينز بالأسى

إذا عبس، ويذرف الدموع إذا تألم .

فقال مأمون فى حزن :

— لم يخفق قلبك بحبى .

— افهمنى يا مأمون . هل لنا سلطان على قلوبنا ؟ أتستطيع أن ترغم قلبك على أن يحب من تريد ؟ يا ليتنى يا مأمون أستطيع أن أنزع بيدى هذا الحب وأغرس حبك مكانه .

— ألست سعيدة به ؟

— ومن ذا الذى لا يسعد بحبه ؟ ولكنى أخشاه .. أخاف أن يعذبنى .

— لماذا ؟

— لأنى أكاد أموت من الوجد وهو لا يحس بى .

— إنصاف . انسى هذا الوهم . فرى بنفسك من هذا الخيال وتعالى نتزوج .

— يا ليتنى أستطيع يا مأمون .

— لا تضحى بنفسك يا إنصاف . أواثقة أنت من حقيقة مشاعرك ؟

— كل الثقة للأسف العميق .

— وإلى متى ستنتظرينه ؟

— إلى آخر رمق فى حياتى . سأعيش بحبه ، وسأكرس هذا الحب له ، ولن أخدع رجلا آخر .

فقال لها مأمون :

— إنى قابل أن تخدعينى هذه الخديعة يا إنصاف .

— لا . لن أرضى أبدا عن نفسى لو قبلت أن أدخل بيت رجل ارتضانى له زوجة بقلب مجروح .

وأطال مأمون النظر إليها ، وبرقت عيناه ببريق إعجاب على الرغم من الحزن الثقيل الذى نزل بقلبه ، ثم قال :

— أنت نبيلة يا إنصاف .

وساد بينهما الصمت برهة ثم قال مأمون :

— من ذا الذى سلب قلبك ؟

— لماذا ؟

— قد أستطيع أن أفعل شيئا .

— ماذا ستفعل ؟ هل ستحاول أن ترقق قلبه . إنى لن أخجل من أن أركع عند قدميه وأقول له : أحبك . أعبدك .. ولكننى راضية بحبى إياه ، سعيدة بأن عرف قلبى الحب ، يكفينى أن أرقبه من بعيد .

والتفتت خلفها ، وألقت على عبود نظرة خاطفة فياضة بالمحبة ، وفى مثل لمح البصر مال عليها مأمون وقبلها ، ثم دار على عقبيه وسار لا يلوى على شيء .

وأخذت إنصاف تتحسس مكان القبلة ، ثم انهمرت من عينيها الدموع .

— ٥٧ —

فى سكون الليل فتحت أبواب بعض الدور فى حرص شديد وانسل منها بعض الأشباح ، وفى لحظات انتشر الفدائيون فى كل شوارع بور سعيد ، وراح الشيخ حسن يوسع من خطوه ويجرى متسترا بالجدران ، كان هدفه الوصول إلى بور فؤاد .

وكان يحمل كلبا يخفيه فى طيات ثيابه ، وكان بين وقت وآخر يمرر يده على شعره مداعبا حتى لا ينبح ويكشف أمره .

ووصل إلى مدخل القناة ، حيث كانت المعدية ترسو لتنقل الركاب إلى الضفة الأخرى ، فأخرج قاربا من المطاط وراح يملؤه بالهواء بفمه وعيناه تتجولان فى كل مكان ، وفى غفلة من الحراسة وضع القارب فى الماء وركبه فى أناة ، ثم أخرج مجدافا من المجاديف التى لا تحدث صوتا إذا ارتطمت بالماء وراح يجدف منطلقا إلى بور فؤاد .

كان البرد شديدا فأحس كأن أطرافه تكاد تتجمد ، وأن وجهه بات قطعة من الجليد ؛ وشعر بالكلب ينكمش ويلتصق به هربا من الهواء البارد الذى يتسرب إلى عظامه ، وعلى الرغم من توتر أعصابه والخطر المحدق به من كل جانب ، كان

يفكر فى المخاطرة التى تطوع للقيام بها .

كانت أمنية عبود أن ينهض لتتاح له فرصة أن ينسل إلى الشركة ويلقى عليها نظرة ، بيد أن جرحه حال بينه وبين تحقيق أمنيته . إن كلمات عبود له قبل أن يخرج لا تزال تتردد فى كيانه : « إذا أتيحت لك يا شيخ حسن فرصة أن تجوس خلال الشركة وأن تلقى عليها نظرة فلا تتركها ، إنى أحن حنينا إلى الشركة ، أتمنى أن ألقى نظرة على سهولها البيض . ترى ألوثت بياضها الناصع دماء العدوان ؟ » .

ورأى بعين خياله عبودا وهو يلتفت إلى إنصاف ويقول لها :

« أتعرفين يا إنصاف ماذا سأفعل أول ما تنسحب القوات المعتدية عن بلادنا ؟ سأعدو إلى الشركة لأكون أول من يدخلها » وسمع بأذن خياله إنصاف تقول : «أتحب يا عبود الشركة إلى هذا الحد ؟ » « إنها قطعة من نفسى يا إنصاف . سأقبل أرضها ، ستلثم روحى كل ذرة من ذراتها » .

وملأت رأسه صورة سليمان وهو يصغى إلى هذا الحديث ، إنه يتلفت زائغ البصر وقد لاح فى وجهه الأسى العميق ، كأنما كان قلبه يدمى .

وغمغم الشيخ حسن :

ـــ مسكين يا سليمان ، ظلمناك جميعا .

وراح الزورق يشق طريقه والشيخ حسن يتلفت كالصقر ، وخيل إليه إنه يسمع أصواتا على الشاطئ فنام فى الزورق ، وسدد نظره الحديدى إلى مصدر الصوت ولكنه لم ير إلا النخيل ولم يسمع إلا زفيف الريح وحفيف الشجر ، وعاد الاطمئنان إلى قلبه ، وراحت الذكريات تطفو على سطح ذهنه فرأى سليمان واقفا إلى جواره يصغى إلى صوت الإغراء المنبعث من مكبر الصوت : ثلاثة جنيهات لمن يعمل فى اليوم ست ساعات ، وأجر خمسة عشر يوما مقدما ، ورأى أحد العمال يتقدم ، أسال الإغراء لعابه ، وإذا بسليمان ينتفض غضبا ويقول : هذا الخائن لا بد أن يقتل .. إنه متعفن . لو تركناه سرت عفونته إلى الآخرين . ورأى فى إكبار سليمان وهو يقتفى أثر الخائن ، لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا ،

حتى إذا ما شرد بعيدا عن عيون الإنجليز قتله وحمله على عربة يد وكتب فوقه «خائن» وراح يدور به فى الشوارع وهو يقول : « هذا جزاء من يتعامل مع أعدائنا» .

وهز الشيخ حسن رأسه وهمس :

ـــ سليمان الذى طرد من عمله وكان يبحث عن أى عمل شريف أو غير شريف يقتل من يضعف ويتقدم للتعاون مع أعدائنا !

والتفت إلى ناحية بور سعيد وقال :

ـــ أنت عظيم يا سليمان .. أنت عظيم .

ونهض فى ذهنه خاطر : لو أنك يا حسن الذى طردت من عملك ، وهنت حتى حاولت أن تهرب الحشيش ، ثم أتيحت لك فرصة العمل مع الإنجليز ، أكنت تتردد فى أن تتعاون معهم ؟

وأفزعه ذلك الخاطر ، فراح يضرب الماء بالمجداف فى قوة ليشغل نفسه عن الفكرة البشعة التى نبتت فى رأسه .

وبلغ الشاطئ فقفز إلى الأرض ، وحمل الزورق ثم راح يفرغ منه الهواء ويطويه ويدسه فى جيوبه وهو يتلفت .

وراح يسترق الخطى ويقوم بما غامر من أجله فى حرص شديد ، وينتقل فى خفة من مكان إلى مكان فى غفلة من الفرنسيين الذين ظنوا أنهم فى مأمن من غارات الفدائيين .

واستيقظت بور سعيد و بور فؤاد وقد غطيت جدرانهما بالمنشورات ، وكتب فى كل مكان : بور سعيد مقبرتكم ، الموت للقتلة ، كلنا جمال .

وخف أهالى بور فؤاد يقرءون المنشورات :

ـــ يا أهل بور فؤاد .

لا تهنوا ولا تحزنوا .... إن يوم الخلاص قريب .

عاش رئيس مصر العظيم .

« هاتا شاما »

واندس الشيخ حسن بين جموع الناس يصغى إلى تعليقاتهم، ويقرأ الأمل الذى انتعش فى الوجوه، والتفت رجل إلى آخر يقف إلى جواره وسأله:

— ما معنى « هاتا شاما ».

فقال له الشيخ حسن:

— « هيئة تحرير شعب مصر ».

وفى بور سعيد، اجتمع الناس يقرءون:

الشرف البريطانى!

هذه هى الخرافة التى ما فتئنا نسمعها منذ عرفنا الحياة!

هذه هى الأسطورة التى كان يرددها دائما على أسماعنا الإنجليز وأصدقاء الإنجليز! حتى لقد وصل الأمر بأحد زعماء مصر الأقدمين إلى أن يقول قولته الكاذبة: الإنجليز خصوم شرفاء معقولون.

هذه هى الأسطورة!

فهل صحيح أن الإنجليز لهم « شرف » يتحدثون عنه الآن وقبل الآن؟

الحق. لو كان للإنجليز شرف لما تظاهروا بالوصول إلى حل سلمى لمشكلة القناة ثم ما لبثوا أن هاجموا مصر بهذه الخسة والنذالة.

ولو كان للإنجليز شرف لما أحرقوا منازل بور سعيد! ولما شردوا أهلها، ولما قتلوا الأطفال والنساء.

ولو كان للإنجليز شرف لما لجأ رجال مخابراتهم الأذكياء «جدا» إلى تعذيب هذا الرجل الشجاع لأنه لم يرض أن يوقع على اعتراف حشوه بالأكاذيب.

ولو كان للإنجليز شرف لقرر أطباؤهم له علاجا فى مرضه ولما كذبوا وقالوا: إنه ليس بمريض!

لقد سمعنا الكثير عن نذالتهم وخستهم مع جميع المعتقلين، بل رأينا بأعيننا ما يفعلونه مع غير المعتقلين فى الشوارع، ولم نذكر هذه الأمثلة إلا «عينة» فقط للشرف البريطانى.

أيها الإنجليز الأوغاد.

أنتم آخر من يتحدث عن «الشرف» فى القديم والحديث وإلى يوم القيامة.
فلعنة الله عليكم وعلى شرفكم المزعوم.
وعاشت مصر وعاش رئيسها العظيم.

« هاتا شاما »

وقال قائل:
— يستحقون هذا وأكثر منه، هم الذين بدءوا السباب فى منشوراتهم.
وقال آخر:
— منشور بمنشور.
— بل منشور منهم بألف منشور منا. فتحوا على أنفسهم هذا الباب.
— «علمناهم الشحاتة سبقونا على الأبواب».
وغطيت أرض الشوارع بعبارات كتبت بالإنجليزية بلون أبيض:
« أيها القراصنة! اخرجوا من بلادنا». أيها القراصنة. عودوا إلى البرد والجوع. وإن حاولتم العودة إلينا فإننا هنا متربصون، لنبعث بكم إلى الجحيم.

« هاتا شاما »

وجن جنون الفرنسيين فى بورفؤاد، وتميز الإنجليز غيظا فى بورسعيد، وراحت الدوريات تجوب الشوارع تنزع المنشورات، وتطمس الكتابات من على الجدران، وتطلى الشوارع بالقار حتى تمحو ما ثبته الفدائيون على الأرض من عبارات، وكان وليمز يجوب الطرقات فى سيارته الجيب، بينما راح مورهاوس ينفس عن غضبه بإلقاء القبض على من يوقعه سوء طالعه فى طريقه.

وجددت المنشورات العزم ومدت الأهالى بطاقات جديدة من المقاومة حتى إنهم كانوا ينظرون إلى الجنود الذين يحملون الفرش والطلاء هازئين ساخرين.

وسرت فى الناس روح جديدة، وانتشرت موجة من الفرح، فبورسعيد أصبحت غاصة بالفدائيين ورجال المقاومة الذين بدءوا يناوشون قوات الغزو ويقضون مضاجعهم.

وعاد جنود الحلفاء إلى مراكزهم وهم يلهثون بعد أن مزقوا المنشورات

وطمسوا كل الكتابات التى كتبت بليل، وما كادوا يستقرون حتى أطلق الشيخ حسن الكلب الذى كان يحمله فراح يعدو فى شوارع بورفؤاد، وضج الأهالى بالضحك والتهليل، واستمر الكلب فى عدوه حتى وقعت عليه عيون الفرنسيين فاستشاطوا غضبا وأخذوا يعدون خلف الكلب ليمسكوه، وقد زاد فى إضحاك الناس حتى إنهم كانوا يقهقهون.

كان الكلب أبيض، وكتب عليه بخط أسود غليظ «موليه».

وفى نفس الوقت فتح بيت توفيق وأطلق منه كلب أسود راح يخترق شوارع بورسعيد عدوا، ورآه الناس فابتسموا، وأخذ الصبيان يعدون خلفه ويتصايحون، وجذب الكلب كل الأنظار إليه حتى أنظار الجنود البريطانيين.

وتمزق البريطانيون غيظا، فقد كتب على الكلب بخط أبيض جميل: «إيدن» وراحوا يحاولون أن يمسكوه وهو يقفز ويفر مرعوبا، وطفق الأهالى ينظرون وهم يضحكون ويهللون.

وهم أحد الجنود البريطانيين أن يسدد رصاصة إلى الكلب ليرديه ويستريح من سخريته المتنقلة وشماتة الأهالى وهزئهم، إلا أنه أحجم خشية أن يصيح الناس «قتل إيدن بأيدى الإنجليز».

وأصدر وليمز أوامره لجنوده أن يطلقوا الرصاص على الجماهير. فرفعوا بنادقهم وقبل أن يسددوها إلى الصدور كان الناس قد تفرقوا وهرعوا إلى مداخل الدور وتركوا الكلب يجرى وحده.

وعادت الشوارع وغصت بالناس، وإذا بمرجان والأسد والفهد قادمون يحملون نعشا سار خلفه مشيعون كثيرون، كان عددهم يزيد كلما توغلت الجنازة فى السير.

وفى وسط الشارع وضعوا النعش على الأرض وجروا، وإذا بجميع المشيعين يجرون خلفهم دون أن يعرفوا لماذا يجرون، ورأى الجنود البريطانيون النعش على الأرض والناس يجرون فراحوا يجرون فى أثرهم وهم يتلفتون رعبا.

واهتزت أسلاك وحدثت اتصالات وأقبلت سيارات الإطفاء وفرق الإنقاذ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخبراء المتفجرات ، وضرب حول النعش نطاق من جنود مدربين ، وتقدم خبراء المتفجرات من النعش فى حذر شديد ، وداروا حوله دورات ثم تقدموا ليرفعوا الغطاء فحبست الأنفاس ، وتقهقر الناس خطوات ، وتوترت الأعصاب ، وأضحى الجميع يخشون أن يفلت من أيدى الخبراء الزمام فيدوى انفجار هائل يزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وقد يبعثر أجسادهم أشلاء .

ورفع الغطاء فى تؤدة وأناة وحرص شديد ، ولم يحدث انفجار ، فبلع البريطانيون ريقهم وإن استمر الخوف فى أعينهم .

ومد الخبراء أيديهم وأخرجوا ما فى النعش ونشروه ، كان دمية على هيئة إيدن ، فانفجر الناس ضاحكين ، وانفجر مرجل غضب البريطانيين فراحوا يطلقون النار بغير حساب .

وفى هذا الوقت كان مأمون وتوفيق وسليمان وبعض رجال الصاعقة فى غرفة تطل على المدرسة التى نزلت بها بعض قوات الغزو ، وأداروا عيونهم فى المكان ، ثم ألقوا عليه ما كان معهم من قنابل .

ودوت الانفجارات وخرج الجنود مرعوبين وقد شهروا سلاحهم . خرجوا إلى الشارع يعدون بيد أنهم ما بلغوا أول الطريق حتى انهمر عليهم الرصاص فاضطروا إلى أن يتقهقروا ويعودوا إلى المدرسة ، وما أن وصلوا إلى فنائها حتى ألقيت القنابل من الشبابيك ، فلم يجد الجنود خيرا من أن ينبطحوا على وجوههم وأن يخفضوا رءوسهم .

وفر الفدائيون هاربين بعد أن زلزلوا الأرض تحت أقدام المحتلين ، وتفرقوا فى أنحاء المدينة . وراح مأمون يعدو صوب بيت توفيق وجندى بريطانى يركب دراجة يقتفى أثره .

ورأى الجندى دخول مأمون إلى بيت توفيق ، فعاد أدراجه إلى مورهاوس وقال له :

ـــ لقد وضعت يدى على وكر من أوكار الفدائيين .

وأسرع مورهاوس وجنوده إلى دار توفيق وضربوا نطاقا حولها ثم دخل

مورهاوس وبعض جنوده وقد أمسكوا مسدساتهم فى أيديهم ، وراحوا يتقدمون فى حذر وينقبون فى كل ركن عن الفدائيين حتى وصلوا إلى الغرفة التى نام فيها عبود .

كان عبود ممددا فى سريره وإنصاف بالقرب منه ووقف أمامهما مأمون ، وما أن وقعت عينا إنصاف على مورهاوس وجنوده حتى ارتمت فوق عبود وقالت :

— لا . لا تأخذوه . إنه مريض .. مريض .

وأشار مورهاوس لجنوده ناحية مأمون وقال لهم :

— اقبضوا عليه .

ثم راح يرفع إنصاف من فوق صدر عبود وهو يقول :

— خذوه .

— لا . إنه مريض . دعوه .. دعوه .

ولم يلتفتوا إلى صراخها وجذبوه من فراشه ، وارتمت إنصاف فوقهم وهى تقول :

— خذونى معه . خذونى معه .

ونظر مأمون إليها فى إشفاق ، فقد فطن إلى أن عبود هو آسر فؤادها وهو الذى خفق قلبها بحبه .

ووقع بصره على مدفعه الرشاش فخطر له أنه لو ألقى بنفسه عليه لأمكنه فى مثل لمح البصر أن يقضى على الذين ألقوا القبض عليه ، ولخلص إنصاف وخلص عبود وخلص نفسه . وهم بأن ينفذ ما نبض فى رأسه كالبرق الخاطف ، إلا أنه قبل أن يتحرك كانت فوهة مسدس مورهاوس فى صدره .

وانطلق مأمون بين جنديين ، وسار عبود وهو يتوكأ على إنصاف والجنود يسددون إليها نظرات نهمة جائعة ، حتى مورهاوس كان يتفرس فى مفاتنها وطاف بذهنه خاطر خبيث فالتفت إلى الجنود وقال :

— اقبضوا عليها .

وتحرك عبود ليحميها إلا أنه كان أضعف من أن يصلب طوله ، ورأت إنصاف

محاولته فانشرح صدرها على الرغم من محنتها .

وخرجوا إلى الطريق ودفعوا مأمون وإنصاف إلى سيارة مورهاوس ، وقبل أن يدخلوا فيها دوت طلقات نارية ، فالتفت مأمون فرأى رفاقه قد جاءوا ورأوا أسره فعزموا على تخليصه .

وشغل الإنجليز بهذه المفاجأة التى ما كانوا يتوقعونها ، فاستداروا يدافعون عن أنفسهم ، وانتهز مأمون هذه الفرصة فدفع إنصاف وعبود داخل السيارة ، ثم قفز خلف عجلة القيادة وانطلق هاربا والرصاص يتساقط من حوله .

ـ ٥٨ ـ

كان عبود جالسا فى سريره فى عيادة الدكتور حازم ، وأقبلت إنصاف تحمل أكواب الشاى ومرت بالشيخ حسن وسليمان واتجهت إلى عبود وقدمت إليه كوبا ، ثم عادت إلى حيث كان الصديقان فقال سليمان :

ــ الماء لا يمر على عطشان .

فقالت إنصاف وهى تبتسم :

ــ هذا ليس ماء . هذا شاى .

وقال الشيخ حسن :

ــ سئل رجل : أى أبنائك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يبرأ .

فقال سليمان محتجا :

ــ إذا كانت تعز عبود لأنه مريض ، فهو مريض مؤقت ، أما أنا فمريض دائم ، وأنا أقدم منه .

والتفت إلى إنصاف وقال :

ــ وعلى ذلك فأنا أولى بك منه .

فقالت إنصاف وهى تضحك :

ــ والله يا سليمان إن حبى لك كحبى لمأمون ، أحبكما حب

الأخت لأخيها .

واتسعت عينا عبود دهشة ، ترى أتريد أن تسمعه هذا القول ، أتريد أن تؤكد له أنها لا تحب مأمون ؟!

وقال سليمان وهو يشير بيديه كأنما يرفض شيئا يقدم إليه :

ـــ لا لا . أنا لا أرضى بهذا الحب . إنى متنازل عنه لعبود .

وسمع طرق خفيف على الباب فقال سليمان :

ـــ « جبنا سيرة القط جه ينط » ، مأمون حضر .

وخفت إنصاف إلى الباب وفتحته ، فدخل مأمون وفى رفقته عسكرى بوليس ، وقالت دون أن تتفرس فيهما :

ـــ تفضلا .

ودخلا ، وما أن وقعت عيون الأصدقاء عليهما حتى أشرقت وجوههم بالابتسام ، وقال سليمان لعسكرى البوليس :

ـــ إنصاف لم تعرفك .

وتفرست إنصاف فى وجهه ثم ضحكت وقالت :

ـــ آسفة ، لم أنظر إليك . حسبتك صديقا لمأمون .

فقال وهو يبتسم :

ـــ هذه هى الحقيقة ، أنا صديق مأمون .

كان قائد سرية مأمون وقد ارتدى ثياب عسكرى بوليس ، وقال مأمون :

ـــ جاء ليطمئن على صحة عبود .

فقالت له إنصاف :

ـــ شكرا لك ! عبود بخير .

وقدمت لهما كرسيين وقالت :

ـــ تفضلا . اشربا الشاى معنا .

وجلسا ، والتفت الشيخ حسن إلى القائد وقال له :

ـــ ما رأيك فى أن ننضم أنا وعبود وسليمان وتوفيق ومرجان إلى رجالك ؟

فقال القائد فى بساطة :

— أنتم من رجالى .

وقال سليمان :

— نريد أن نشترك معكم فى كل عملياتكم ، وأن نتلقى الأوامر منك .

— بكل سرور .

وسرح خيال الشيخ حسن برهة ثم قال :

— ومارأيك أن نسمى فرقتنا « كتيبة الأهوال » ؟

وراح القائد ينظر إليه نظرة فاحصة ثم قال :

— ولماذا اخترت هذا الأسم ؟

فقال الشيخ حسن وقد تفتحت أساريره .

— تيمنا بكتيبة الأهوال التى خاضت كل المعارك فى العراق وفارس أيام عمر ابن الخطاب ، وكتب لها النصر فى كل معركة خاضت غمارها .

وجاءت إنصاف وقدمت لهما كوبين ، ثم سارت حتى وقفت إلى جوار سرير عبود وقالت فى رقة :

— ماذا تريد أن تفطر اليوم ؟ فول ؟ بيض ؟ طعمية ؟ مربة ؟

ولم يقو مأمون على إدامة النظر إليهما فأطرق ولاح فى وجهه سهوم ، كان انعكاسا للحزن الذى نزل بقلبه ؛ إنه لم يحزن لأنه فقد إنصاف فما كان حبه لها هياما ، بل لأن الحقيقة انبلجت واضحة أمام عينيه ، ستنزع إنصاف بهية من قلب عبود وستحل مكانها فى بيته ! إن بهية قتلت ، وقد أحس يدا قوية تهصر قلبه لما أفضى إليه عبود بنبأ موتها ، أما الآن فحزنه عليها أقسى وأوجع ، فهو يشعر بنار مندلعة فى جوفه تلتهم أحشاءه ، وبوخز كوخز الجمر يلسع روحه ، ولو طاوع نفسه الآن لتأوه .

ونهض قبل أن يشرب الشاى ، وقال له حسن :

— إلى أين ؟

— أرسل إلىّ سعد بالأمس يطلب منى مقابلتى ، وقد حان الموعد الذى

ضربته له .

وقال القائد لمأمون :

ــ أصبحنا فى حاجة إلى معمله مرة أخرى بعد أن كشف بيت توفيق .

ــ أظن أنه يريدنى لذلك ، قال لى ذات يوم بعد أن تركنا معمله : حياتى أصبحت فارغة بعد رحيلكم ، لم يبق لى من تلك الأيام السعيدة إلااللقب الذى منحتمونى إياه . ففى أوقات فراغى ــ وكل أوقاتى فراغ ــ أقول لنفسى : قم ياصول سعد اغسل وجهك . قم ياصول سعد افطر . قم ياصول سعد واشتر طعاما للغداء . ألا تفكرون فى أن تشرفونى بالإقامة عندى مرة أخرى ؟

فابتسم القائد وقال :

ــ قل له : سنعود إليه الليلة .

ودار مأمون لينصرف ، أراد أن ينفس عن حزنه بما قال ، أضحك الآخرين بينما ظل قلبه يدمى .

وقبل أن يتحرك قال القائد وهو ينهض :

ــ انتظر يا مأمون ! خذنى معك :

وخرجا ، وذهب مأمون لمقابلة سعد ، واتجه القائد إلى المقهى وجلس ، وراحت عيناه تجولان فى كل مكان وتتفرسان فى المارة وترصدان حركة الحراس والدوريات .

وجاء العم محمود يرتدى ثياب الصيادين ، واتجه صوب المقهى وهو يفر الجالسين بعينيه ، حتى إذا مارأى القائد فى ثياب عسكرى البوليس اقترب منه ورمز له بعينه ، ثم سار فى طريقه .

وقام القائد وانطلق إلى قسم ثالث ، وقابل بهنس وأسر إليه ببضع كلمات ، فإذا ببهنس يترك له مكتبه ويذهب إلى غرفة أخرى .

وجاء العم محمود إلى القسم ، فهم من ارتداء القائد ملابس البوليس أن مكان اجتماعهما هناك ، ومد بصره فرآه جالسا مكان بهنس ، فتقدم ووقف كأنما ينتظر أن يستجوبه .

فتح القائد دفتر الأحوال أمامه، ثم رفع رأسه وراح يصغى إلى ما يقصه عليه العم محمود، ولاح فى وجهه الاهتمام، وخشى أن يفطن المحيطون إلى ما يجرى بينهما فصاح:

— والله إن لم تقل لى الحق فسألقى بك فى التخشيبة.

وقال العم محمود فى توسل:

— أنا رجل فقير، والله لم أفعل شيئا من هذا.

ثم رفع صوته:

— هذا ظلم، هذا افتراء.

ثم عاد يتم قصته، حتى إذا ما انتهى منها قال له القائد:

— غدا فى الفجر.

فرفع العم محمود يديه إلى السماء وقال بصوت عال:

— الله يعمر بيتك. الله يستر عرضك.

ثم خرج لا يتلفت يمنة ولا يسرة.

ونهض القائد وانطلق إلى معمل الألبان، فلما وقعت عينا سعد عليه هرول إليه وهو يقول فى فرح:

— أهلا بكم. أهلا بكم. والله لن تتغدوا اليوم إلا كباب.

وقال القائد وهو يبتسم:

— كيف حالك يا صول سعد؟

— الصول سعد سعيد، سعيد جدا.

— أين مأمون؟

— دخل يعد لنفسه وسادة من القش.

ودخل القائد وقال لمأمون:

— اذهب إلى جميع رجالنا وقل لهم لا يبرحوا أماكنهم حتى أمر عليهم.

ونظر مأمون إليه نظرات تساؤل كأنما كان يقول له: ماذا هناك؟

وقال القائد:

ــ أريدهم فى أمر هام ؟

وقبيل الغروب راح القائد يمر على رجاله ، اتجه إلى عيادة طبيب الأسنان وطرق الباب ففتحت له أم على ، ولما رأته زالت من طريقه وهى تقول :

ــ تفضل .

ودخل ومر بعض الوقت قبل أن يغادر العيادة ، ثم انطلق إلى بيت توفيق ، وقبل أن توافى ساعة حظر التجول كان يغذ السير ليصل إلى عيادة الدكتور حازم .

كان الشيخ حسن وسليمان وعبود فى انتظاره ، وأخذوا يصغون إليه فى اهتمام وهو يتحدث ، قال :

ــ سيشترك كل رجالنا غدا فى عملية واسعة ؛ سنلتقى فى الساعة الثالثة صباحا على شاطئ المنزلة خلف المنازل الشعبية ، وسيوزع عليكم الليلة كل ما تحتاجون إليه من أسلحة وذخيرة ، والله يوفقنا .

فقال الشيخ حسن :

ــ الله معنا .

ودار لينصرف فألفى إنصاف واقفة عند باب غرفتها فقال لها :

ــ مساء الخير .

ثم انطلق .

وغادر عبود سريره ، ولحجته إنصاف فهرعت إليه تقول :

ــ ماذا تفعل ؟

ــ أستعد لغارة الغد .

ــ لا . لن تذهب . لا تزال مريضا .

ــ بل سأذهب .

ــ ابق يا عبود إكراما لى .

فقال فى إصرار :

ــ لو بقيت فسأحتقر نفسى .. ناولينى مدفعى .

ولم تقو إنصاف على معارضته ، فذهبت وأحضرت له مدفعه وقدمته إليه . وراح ينظفه ويختبره وهى ترنو إليه فى وجد وإشفاق .

وبعد منتصف الليل تأهب الشيخ حسن وسليمان وعبود للانطلاق ، وقبل أن يسيروا خرجت إنصاف من غرفتها واتجهت إلى عبود ورفعت له ياقة جاكتته لتقيه من البرد ، ودنت منه حتى اختلطت أنفاسها بأنفاسه ولو طاوعت نفسها لقبلته .

وساروا وهى ترقبهم ، وقبل أن يخرجوا من الباب قالت :

— مع السلامة . لن تعرف عيناى النوم ، سأنتظركم حتى تعودوا .

ثم غمغمت : « حتى تعود يا حبيبى » .

واجتمعوا عند بحيرة المنزلة ، وقفزوا كالليوث إلى الزوارق ، وراح العم محمود يشق طريقه فى الظلام وزوارق الصيد فى أثره ، كان يعرف طريقه جيدا فقد ظل يجوب المنطقة ويرسم خطة مفاجأة الفرنسيين ليالى وأياما .

وقلب الشيخ حسن وجهه فى الزوارق وفى الرجال فامتلأ زهوا بكتيبة الأهوال ، ولو استجاب لأهوائه لجلجل صوته فى هجعة الليل وجوف الظلام هاتفا : « الله أكبر ! الله أكبر ! » بيد أنه أمسك لسانه وإن كان التكبير يرن فى جوفه كرنين الأجراس .

ومع خيوط الفجر الأولى نزلوا إلى البر وتقدموا حتى لاح لهم معسكر الفرنسيين ، فانتشروا حوله وأخذ كل منهم مكانه ، فما كانوا يهدفون إلى غارة خاطفة ثم يفرون ، بل كانوا متأهبين لخوض معركة مريرة تزلزل الأرض تحت أقدام أعدائهم .

وألقيت القنابل على المعسكر وفتحت النيران ، فهب الفرنسيون مفزوعين وأسرعوا إلى أسلحتهم ، وراح الجانبان يتبادلان إطلاق النار ، وتقدم سليمان خطوات ثم صاح :

— الله أكبر ! الله أكبر !

وعلت التكبيرات فانخلعت لها قلوب الفرنسيين ، وأشرقت الشمس والمعركة

مستعرة الأوار ، وسالت دماء وزهقت أرواح ، ومرت ساعات والقذائف تنهمر كأنها المطر .

وأخذت إنصاف تغدو وتروح فى قلق ، الساعات تمر وعبود لا يعود ، « لماذا ؟ لماذا تركته يذهب وهو جريح ؟ لماذا لم أتشبث به ؟ كيف ذهبت طائعة لأحضر له مدفعه لما قال : ناولينى مدفعى ؟ لماذا لم أستعن بالشيخ حسن وسليمان ليقنعاه بالبقاء . إنى تركته ينتحر . لا . لن أفقده بعد أن وجدته . آه لو قتل عبود ! » .

ولم تستطع أن تتصور عودتهم وهم يحملونه قتيلا ليضعوه عند أقدامهم ، فصاحت فى فزع :

ــ لا . لا .

وراحت تمسح وجهها بيدها فى انفعال لتمحو الصورة البغيضة التى نبضت فى ذهنها .

واستمرت صاعدة هابطة فى الغرفة ، تهرع إلى الشباك تنظر كلما سمعت وقع أقدام . لا . لم تكن وقع أقدامهم ، إنها وقع أقدام الحراس الإنجليز وقد ربطوا أسلحتهم بأيديهم حتى لا يخطفها منهم أحد .

وخيل لها وهمها أنها تسمع دوى الرصاصة التى نفذت إلى قلب عبود . فأحست كأن سكينا طعن قلبها ، فتأوهت فى ألم وزاغ بصرها وارتسم فى وجهها هلع ، ونفذ صبرها ففتحت الباب وخرجت تعدو فى الطريق .

ووصلت إلى شاطئ البحيرة وهى تلهث ، وانهارت تنوء من التعب ، إلا أنها مدت عينيها بعيدا فلم تر إلا الماء والسماء ، ولم تسمع إلا صفير الرياح ووجيب قلبها .

ولم تحتمل أن تستقر طويلا ، كانت انفعالاتها ثائرة وطاقاتها الحبيسة تضغط فى جوفها ضغطا شديدا حتى خيل إليها أنها ستنفجر ، فراحت تسير جيئة وذهوبا على الشاطئ وهى ترقب الأفق البعيد فى لهفة ، وكل أمانيها أن ينفرج عن حبيبها .

ولاح لعينيها زورقان يتهاديان على سطح الماء ، ودق قلبها دقات قوية ، كانا مقبلين نحوها ، وراحت أمانيها تسبقها فرأت عبود بين من فيهما من الرجال .

ودنا الزورقان واستطاعت أن تميز من فيهما ، لم يكن عبود بينهم ، فانتشر فى جوفها خوف وأحست أن جوفها أصبح فراغا ، وأن قلبها يسقط فى قدميها ، وأنها ستنهار . ونزل الرجال إلى الشاطئ ، فتقدمت إليهم وهى ترتجف وقالت فى صوت متهدج :

ـــ أين .. أين باقى الرجال ؟

ـــ هبطوا فى أماكن أخرى .

ـــ لن يأتوا إلى هنا ؟

ـــ لا .

ـــ هل .. هل هم بخير ؟

ـــ نعم .

ـــ هل .. هل .. هل عادوا جميعا ؟

ولم يحر أحد جوابا فراحت تنظر إليهم بعيون زائغة ، ثم جرت مرة أخرى صوب البيت وكل خلجة فيها تهتف : «عبود .. عبود ..عبود» .

وأضحى البيت على بعد خطوات منها ، وغشيتها غيبوبة إلا أنها راحت تقاوم رغبتها فى أن تنهار .

وفتحت الباب وصدرها يعلو وينخفض ، وعلى عينيها غشاوة أخذت تزيحها بظهر يدها ، ورأت عبود فى جهد ، فهتفت فى فرح :

ـــ عبود . عبود .

إلا أن صوتها لم يخرج من بين شفتيها ، وطفرت الدموع من مآقيها ، وراحت تجهش بالبكاء .

ـــ ٥٩ ـــ

قال الشيخ حسن :

ـــ أعدموا ثلاثة وحكموا بالسجن على سبعة وعشرين من الجنود الذين تمردوا ورفضوا إطلاق النار على الأهالى .

وقال عبود :

ــ أصبح مقامهم بيننا صعبا ، لا أحد يريد أن يتعاون معهم ، كانوا يأملون فى أن يقبل القبرصيون أن يشتغلوا معهم ، ولكن بعد أن أذاع حزب أيوكا أن كل من يتعاون مع الإنجليز والفرنسيين فى بور سعيد سيعتبر خائنا لبلاده . قضى على ذلك الأمل .

ونظر الشيخ حسن إلى سليمان فألفاه شاردا وفى وجهه عبوس ، فقال له :

ــ فيم تفكر يا أبا داوود ؟

فرفع سليمان رأسه وقال :

ــ أعلن إيدن أن الجلاء سيبدأ فى ١٥ ديسمبر ؟

فقال له الشيخ حسن مداعبا :

ــ وهل جلاؤهم هو الذى أحزنك ؟

فاتسعت عينا سليمان دهشة ، وفغر فاه وارتبك كأنما ضبط متلبسا بجريمة ، وراح يتلفت بلا هدف ، ثم قال وقد أطرق :

ــ كنت أفكر فيما سيكون عليه حالى بعد أن تنتهى هذه المعركة .

وخفق قلب عبود رقة ، وأحس الشيخ حسن حقيقة ما يقاسيه سليمان وإن عبر عنه فى كلمات قليلة ، وصمت ولم ينطق حرفا ، وأخذ سليمان يتلفت فى قلق ثم قال :

ــ سيعود كل منكم إلى عمله وسيلتقى بأهله ، وسأعود مرة أخرى إلى ما كنت فيه .

وهز رأسه فى أسى ثم قال :

ــ إلى الحانة . إلى الطريق .

وأهاج حديثه ذكريات عبود ، سيعود كل إلى أهله ، أما هو فلا أهل له ولا ذرية ، ماتت أمه ومات أبوه يوم ماتت بهية ، وتقطعت الأوصال بينه وبين الدنيا بموت حسين ، ترى ماذا سيكون حاله بعد أن تهدأ العاصفة وتستقر الأمور ؟

وسار الشيخ حسن وضم سليمان إليه ضمة أودعها كل ما فى قلبه من حنان وهو يقول .

ـــ أخطأنا فى حقك يا أبا داوود مرة ، ولن نخطئ مرة أخرى . بل سنكفر عن خطئنا .

وانفرجت شفتا سليمان عن ابتسامة خفيفة ، ولم يطمئن قلبه فقد علمته السنون أن الناس يسرفون فى الوعود وسرعان ما ينسون . بل غالبا ما يتنكرون لوعودهم .

وقرأ الشيخ الأفكار فى عينيه فقال له :

ـــ اتفقت مع السيد توفيق على أن أول ما نفعله إذا ما عدنا إلى الشركة أن نعيدك إليها .

واتسعت ابتسامة سليمان وقال الشيخ حسن :

ـــ وسأقوم بذبح خروف وتوزيع لحمه على الفقراء ابتهاجا بهذه المناسبة .

فقال سليمان فى مرح :

ـــ لن تجد من هو أفقر منى .

وابتسم عبود وراح يرنو إلى سليمان فى إعجاب ، لم يسترسل مع حزنه ولم يسلم نفسه لليأس بل سما بروحه فوق كل ظروفه وراح يمزح ، واقترب سليمان من الشيخ حسن وقال :

ـــ لى عندك رجاء إذا ما عدت إلى عملى .

ـــ ما هو ؟

ـــ أن تزوجنى . إن أغلى أمانى أن يصبح لى بيت ، أن يغلق على وعلى زوجتى باب .

فقال الشيخ حسن فى حماس :

ـــ والله لأزوجنك .

وهز سليمان السرور فقال وهو يضحك :

ـــ وتدفع لى مهرى .

وابتسم عبود ابتسامة عريضة ، ولاح فى عينيه ما يريد أن يقوله ولكنه أمسك لسانه ، وكأنما قرأ سليمان ما يدور فى نفس عبود فقال وهو غارق فى الضحك :

— أعرف ما تريد أن تقوله ، أقرأه فى عينيك ، لا . لا يا عبود ، أنا قادر على أن أنجب لنفسى الأولاد .

وضحك الرفاق الثلاثة حتى اغرورقت عيونهم بالدموع .

وأخذ صوت يعلن :

— يا أهل بور سعيد :

ستدخل القوات الدولية مدينتكم لتفصل بين قوات الإنجليز وبين القوات المصرية ، ولتتسلم المدينة بعد الانسحاب .

وراح الشيخ حسن وعبود وسليمان يتبادلون النظرات ، ثم فتحوا الباب واندفعوا إلى الطريق ، وإذا بالناس يتدفقون جماعات وقد رفعوا فى أيديهم صورا كبيرة لجمال عبد الناصر ، وساروا فى مظاهرات يهتفون :

— يحيا جمال . يحيا جمال .

وانطلقوا كالسيل الجارف إلى المحطة وقد فغر الإنجليز والفرنسيون أفواههم من الدهشة . أين كانت كل هذه الصور المتباينة الأحجام ؟

وفى غمضة عين كانت صور جمال قد لصقت على زجاج النوافذ ، ووصلت المظاهرات إلى المحطة فألفت جنود الأعداء قد ضربوا حولها نطاقا ليمنعوا الناس من الوصول إلى القوات الدولية .

وارتفعت الأصوات تهتف :

— تحيا مصر ، يحيا جمال ، يسقط إيدن ، يسقط موليه ، تسقط إنجلترا ، تسقط فرنسا ، تحيا مصر ، تحيا مصر .

وبلغت حماسة الأهالى غايتها ، فاندفع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجائز يكتسحون جنود الأعداء الذين وقفوا ليحولوا بينهم وبين القوات الدولية ، وتحطم النطاق المضروب وتدفق الناس كالسيل وهم يهتفون من أعماق قلوبهم .

ورفع طفل صورة جمال فى وجه ضابط فرنسى وأخذ يهتف :

— يحيا جمال ، يحيا جمال .

وأولاه الضابط ظهره ، فدار الطفل حوله وقرب الصورة من وجهه وعاد يهتف :

— يحيا جمال ، يحيا جمال ، يحيا جمال .

وأخذت الطفل الحماسة فكان يقفز وهو يهتف ، وابتعد الضابط عنه ، فراح يقتفى أثره كلما ذهب خلفه وهو يهتف فى وجهه :

— يحيا جمال ، يحيا جمال .

ونفد صبر الضابط الفرنسى وانفجر مرجل غضبه ، فأخرج مسدسه وسدده إلى قلب الطفل ، ثم أطلقه فأرداه قتيلا .

وثارت الجموع وهجمت لتفتك بالضابط الآثم ، وإذا بجنود الحلفاء تهرع لنجدته ، وتحول بأسلحتها بينه وبين الجموع الغاضبة الثائرة المزمجرة .

ووقف توفيق بين الجموع يهتف بالإنجليزية :

— تحيا مصر ، يحيا جمال ، كلنا جنودك يا جمال ، قلوبنا معك يا جمال .

وراح الناس يرددون الهتافات خلفه .

وهبطت القوات الدولية إلى المحطة فاستقبلت بعاصفة من التصفيق والهتافات ، ثم اصطفت وسارت فى طريقها إلى معسكرها أمام المحافظة .

وخرج الجنود الإنجليز من خنادقهم وألقوا أسلحتهم ، وأخذوا يصفقون ويهتفون :

— نحن سعداء ، سنخرج من هنا .

وطافت المظاهرات ببورسعيد ، وفى شارع محمد على لمح رجل الجنرال ستوكويل فى سيارة جيب ، فأسرع إليه وعرى له صدره ، فإذا عليه صورة جمال وقد كتب تحتها بالإنجليزية : «يحيا جمال عبد الناصر» .

ولاح فى عينى ستوكويل الغضب ، أحنقه ذلك التحدى ، إلا أنه سار فى الطريق وهو يتميز حقدا .

ورأى الناس موزهاوس ووليمز فارتفعت هتافاتهم :

— يسقط إيدن ، يسقط إيدن ، تسقط إنجلترا ، تسقط بريطانيا الصغرى .

وأصدر وليمز أوامره بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، فسقط شاب قتيلا ، فجن جنون الناس وراحوا يلقون على الإنجليز كل ما تصل إليه أيديهم .

وصوب الإنجليز رصاصهم الحانق إلى صور جمال عبد الناصر التى ألصقت بزجاج النوافذ ، ورأى الناس يثأروا لما نالهم فكمنوا لسيارة جيب فرنسية فى الحى العربى ، وألقوا عليها قنبلة قتلت كل من فيها .

وهاج الشعب وثار ثورة عارمة ، وإذا بالسيارات البريطانية تجوب الشوارع تجمع الجنود .. خشية غضبة الشعب الكاسرة .

وحان موعد حظر التجول فعاد الشيخ حسن وسليمان وعبود إلى عيادة الدكتور حازم ، وتمدد عبود فى سريره وراح يتقلب فيه وهو يحس مللا ، وأن حياته فارغة ، وأن شيئا ما ينقصه .

ولم يحتمل الاستقرار فى السرير فنهض ، وراح يذرع المكان بلا هدف ، وشعر على الرغم من وجود الشيخ حسن وسليمان أنه وحيد ، وأن رغبة غامضة تحرضه على أن يبكى لينفس عن ذلك الحزن الثقيل الجاثم على صدره .

وعاد مرة أخرى إلى السرير وارتمى فيه وراح يتقلب ويدور ، ملل . ملل .. فراغ .. فراغ . إنه يهفو إلى شىء .. شىء لا يدريه . شىء تعجز رغباته عن أن تفصح عنه ، إلا أنه يملأ الخواء الذى يعيش فيه .

لولا الحظر الذى فرض على الناس لخرج إلى الطريق يمشى بلا هدف ، ألا ليت مأمون يأتى الآن ويقول هيا إلى غارة .

ونظر إلى سليمان فتحركت شفقته : « مسكين ، إن كان قد عانى ما أعانيه من فراغ وملل فهو معذور إذا شرب . هل تقدم على الشراب يا عبود إذا هيأ لك الهرب من هذا الملل ؟ إذا أعماك عن الفراغ الذى أصبحت فيه ؟ لست أدرى » .

وفتح الباب ودخلت إنصاف ، فدبت حياة جديدة فى المكان كأنما سرت فيه روح ، وإذا بالملل الذى كان يحسه عبود انقشع ، وإذا بالحياة تنبض فى الجو الذى

كان يعيش فيه .

وهب سليمان واقفا ، وراح يقلد الإنجليز الذين خرجوا من خنادقهم فرحين لما رأوا القوات الدولية ، ويهتف بالعربية بلكنة إنجليزية :

ــ نهن سؤداء . سنهرج من هنا .

وضحكت إنصاف وقالت للشيخ حسن :

ــ ماذا يريد أن يقول ؟

ــ يريد أن يقول بالإنجليزية كما كان الجنود الإنجليز يقولون : نحن سعداء .. سنخرج من هنا .

فالتفتت إليه إنصاف ودفعته فى صدره وقالت :

ــ فصيح .

وهزته ابتسامتها فنبصت فى ذهنه فكرة فقال :

نتكلم بلا هذر مرة ، اسمعى يا إنصاف ، لقد أقسم الشيخ حسن أن يزوجنى بعد أن تستتب الأمور ، ومهرى فى جيبه ، فأصبح من حقى أن أخطب الآن . أن أختار شريكة حياتى . ما رأيك يا إنصاف فى أن تكونى زوجة لى ؟

ولم يضحك أحد ، أحس الجميع أن الأمر لا هذر فيه ، حتى إن عبودا انقبض وأحس أنه يختنق .

وارتبكت إنصاف ، وتلفتت فى حيرة ، أحست أنه صادق فى عرضه ، وأنه ينتظر منها جوابا .

وأطرق الشيخ حسن وتمنى أن تقول له إنصاف قولا جميلا ، إن كانت سترفض عرضه ، ولمت إنصاف كل كياستها وقالت :

ــ أتحبنى يا سليمان ؟

فقال سليمان فى صراحة :

ــ لو لم أكن أحبك ما عرضت عليك هذا العرض . إن كان اسمى لا قيمة له ، إلا أنى ضنين به ، لن أمنحه إلا لمن يهواه قلبى .

وكان ذلك فوق احتمال عبود فأحس نارا ترعى فى أحشائه ، وعجب من

نفسه ما باله يحس خناجر تمزق قلبه كلما غازل إنسان إنصاف أو عرض عليها الزواج ؟

وقالت إنصاف فى هدوء :

ـــ ما دمت تؤمن بالحب فلنتريث حتى أعرف حقيقة عواطفى نحوك .

وزفر الشيخ حسن فى راحة ، ونظر إلى إنصاف نظرة كانت تقول فى وضوح : «شكرا لك» .

وفهم سليمان أن إنصاف ترفضه وأنها لا تريد أن تخدش شعوره ، فأطرق وغام وجهه بسحابة من الحزن ، وفطنت إنصاف إلى أنه التقط حقيقة ما تعنيه فقالت له :

ـــ الزواج قسمة يا سليمان . لا يمكن لأحد أن يفر مما قسم له .

ولم يكن قادرا على أن يحزن طويلا فابتسم ، وأثرت ابتسامته فى إنصاف حتى إنها مالت عليه وقبلته .

واندلعت النيران فى عبود حتى إنه لم يستطع أن يكتم عواطفه ، فندت من بين شفتيه آهة ، فالتفتت إليه إنصاف فى ذعر وقالت :

ـــ ماذا بك ؟

فوضع عبود يده على مكان الجرح فى كتفه وقال :

ـــ أحس ألما شديدا .

فهرعت إليه إنصاف وقالت :

ـــ توسلت إليك أن تبقى ، ألا تخرج معهم ، ولكنك لم تستمع لنصحى ، أجهدت نفسك .

وساعدته على أن يصعد إلى سريره ، ومددته وهى تقول :

ـــ لن أدعك تخرج من هنا قبل أن تبرأ .

وراح سليمان يرمقهما بطرف عينيه ، فتيقن أن إنصاف تهوى عبود وأنه سالب لبها .

وناموا وفى الفجر استيقظ الشيخ حسن ومد يده يهز سليمان ، وبقى سليمان

غارقا فى نومه ، وهزه مرة أخرى هزات عنيفة وهو ينادى :

— سليمان قم . سليمان .

وطاف بذهنه خاطر أفزعه ، فنادى فى خوف :

— سليمان .. سليمان .

واستيقظ عبود على نداء الشيخ حسن المرعوب ، فأسرع إليهما وقلبه يدق رهبة ، فرأى الشيخ حسن وقد وضع أذنه على قلب سليمان ، فقال وهو يحس أنه سينهار :

— ماذا حدث ؟

ورفع الشيخ حسن رأسه وفى وجهه حزن عميق وقال :

— البقية فى حياتك ، سليمان مات .

فقال عبود والأسى يمزق قلبه ، وغصة فى حلقه ، والدموع تجرى إلى مقلتيه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . رحمة الله عليك يا سليمان .

وسمعت إنصاف كل شىء فخرجت تولول :

— سليمان .. سليمان .

وارتمت عليه تقبله وتغسل وجهه بدموعها .

وأطرق الشيخ حسن ، وإذا ما قاله خالد بن الوليد وهو على فراش الموت ينبض فى ضميره :

« ما فى جسمى موضع إلا وفيه إصابة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء» .

— ٦٠ —

خرج الشيخ حسن وعبود وحدهما لأول مرة ، غاب عنهما سليمان بعد أن ووری فى التراب ، بيد أنهما لم ينسياه ، كان حديثهما يدور حوله ، قال الشيخ حسن :

— كان رائعا لما وقف كالطود يغطى انسحابنا يوم هاجمنا الفرنسيين ، حسبت

أنه قرر أن ينتحر ليفدينا ، وإذا به يقفز كأبطال السينما إلى آخر زورق وهو يسدد رصاص مدفعه الرشاش إلى الذين كانوا يقتفون أثرنا .

وقال عبود :

ـــ كان يحب الضحك ، ولكنى لم أره يضحك فى حياته مثلما ضحك آخر ليلة .

وشرد الشيخ حسن قليلا ثم قال :

ـــ مات بعد أن بدأت تراوده الآمال .

ـــ أحمد الله أن مات بيننا ، مات مطمئنا ، كان دائما يقول لى : أقسى ما فى الدنيا أن يموت الإنسان وحده .

ولوى الشيخ حسن شفته استخفافا وقال :

ـــ هذه مخاوف الأحياء ، يستوى أن يموت الإنسان وحده أو أن يموت بين أحبابه وأصحابه وأهله وعشيرته . لا يأخذ الإنسان من دنياه إلا عمله .

ووصلوا إلى شارع سعد زغلول ، كانت الجدران مغطاة بصور الرئيس ، وصورة جمجمة وعظمتين شعار الفدائيين ، وأدام عبود النظر إلى الشعار ثم قال :

ـــ كنت أظن أن الإنسان يستطيع أن يرسم طريق مستقبله ، خططت حياتى على أن أعيش مسالما أدعو للسلام ، وكنت أظن أن بالمحبة تذلل كل الصعاب ، وما دار بخلدى يوما أن أحمل فى يدى سلاحا . أقسم يا حسن أن ذلك لم يكن عن جبن كما كان يحلو لبعض الزملاء أن يصوروه ، بل كان عن عقيدة واقتناع .

فقال الشيخ حسن فى هدوء :

ـــ الإنسان ابن ظروفه .

واستمرا فى سيرهما ، المحال لا تزال مغلقة ، وكتائب مشاة الإنجليز تقوم باستعراض ، والصبية يسيرون خلفهم وقد حملوا على أكتافهم قطعا من الخشب وهم يبالغون فى تقليدهم .

ونظر عبود إلى هؤلاء الصبية فى حب وقال :

ـــ ترى ماذا يكون مستقبل هؤلاء الأعزاء ؟

— إننا الآن نعمل من أجلهم، نضحى لنسعدهم.

وقال عبود وهو شارد:

— جميل.

ثم خطرت على ذهنه فكرة، فقال:

— أخشى أن يكون كل جيل يضحى فى سبيل الجيل القادم، دون أن يسعد جيل من الأجيال.

وقال الشيخ حسن:

— قد تكون التضحية ذاتها قمة سعادة الإنسان، إنى عندما أحرم نفسى من شيء أشتهيه لأوفر لفتحية أو محمد أشياء تدخل السرور على قلبيهما، أحس سعادة تفوق تلك السعادة التى كنت أحسها لو أشبعت رغبتى.

وسرح خيال عبود، يا ليت بهية وحسينا بقيا على قيد الحياة وحرم نفسه من أجلهما كل متع الدنيا. بهية ماتت يا عبود، وحسين مات، انس ما فات وابدأ حياة جديدة. لست أول من فجع، ما أكثر المفجوعين الذين أسدلوا على الماضى ستر النسيان.

وكانا قد وصلا إلى بيت توفيق، فألفيا مأمون وتوفيقا ومرجانا يعملون فى دمية كبيرة على هيئة إيدن، فنظر إليهما الشيخ حسن ثم قال:

— ألم يحضر قائد كتيبة الأهوال بعد؟

قال مأمون:

— نحن فى انتظاره.

وعكفوا يعملون، كان مأمون يختلس النظر إلى عبود بين لحظة وأخرى، وكان كلما وقعت عيناه عليه تذكر سليمان وبهية وإنصاف، وتختلط الرؤى فى رأسه وتتداخل: وقال فجأة:

— لم يموت الإنسان قبل أن يحقق آماله؟ لماذا مات راسم قبل أن يدخل تل أبيب ويعتلى أعلى مكان فيها ويهتف بأمه: قرى يا أماه عينا فقد عدنا إلى فلسطين.

فقال الشيخ حسن:

ـــ سيتحقق هذا الأمل يوم أن يطأ أول جندى من جنود العرب قلب إسرائيل.

فقال مأمون :

ـــ ولماذا مات سليمان قبل أن يتحقق أمله ؟ لماذا مات قبل أن يعود إلى عمله ؟

واضطرب عبود وأسبل عينيه ، خشي أن تلتقيا بعينى حسن ، فآمال سليمان تجاوزت حدود العودة إلى العمل دون أن يدرى مأمون ، كان يريد أن يتزوج وأمست أعز أمانيه أن تحمل إنصاف اسمه ، أحقا أحب إنصاف أم كانت الأنثى الوحيدة التى صادفها فى حياته الخالية ؟!

وقال توفيق :

ـــ لم يمت سليمان وفى قلبه مرارة اليأس ، كان واثقا من أن أمله سيتحقق بعد أن تستتب الأمور . أكدنا له أنا وحسن هذه الحقيقة ، فسيان أن يموت الآن أو أن يموت بعد أن يعود إلى عمله .

وقال مأمون فى حزن وهو يتحامى نظرات عبود :

ـــ ولماذا قتلت بهية ؟ ولماذا جاء حسين إذا كان مقدرا له أن يموت فى مهده ؟

وصمتوا جميعا ، قال توفيق بالإنجليزية همسا :

ـــ هذه هى المسألة (That is the question)

وقال الشيخ حسن :

ـــ هذه إرادة الله ، وما لنا أن نحكم على إرادته بعقولنا ؟

وراح مأمون يتلفت بعيون زائغة وقال :

ـــ أريد أن أفهم .

وهم الشيخ حسن أن يقول له : « ربما أراد الله أن يأتى بذرية من صلب عبود من امرأة أخرى » ، إلا أنه أمسك لسانه ، لم يشأ أن يؤلمه أو يسبب حرجا لعبود .

وقال توفيق :

ـــ ما حكمة وجودنا ؟ هذا هو السؤال الذى حير عقول البشر .

فقال عبود فى سخرية :

— ليقتل بعضنا بعضا ، لننغص على أنفسنا حياتنا القصيرة .

فقال الشيخ حسن :

— إننا نؤمن بصراع الشعوب ، ولولا هذا الصراع لفسدت الأرض .

فقال عبود فى دهش :

— أنؤمن بالحروب ؟ أنؤمن بأن يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟

— هذه حقيقة واقعة ، وإننا نؤمن بالواقع ونحاول تهذيبه .

وقال توفيق :

— إننا نميل إلى السلم .

وقال الشيخ حسن :

— الميل شىء والواقع شىء آخر ، ستكون نهاية العالم يوم أن يقف صراع الشعوب .

فقال عبود فى حماسة :

— بل ستكون بداية البشر الصحيحة .

فقال الشيخ حسن وهو يبتسم ابتسامة انتصار :

— فى الجنة ونعيمها .

وسمع طرق على الباب ، فأسرع توفيق ومأمون ورفاقهما يخفون الدمية التى كانوا يضعون فيها اللمسات الأخيرة لتبدو فى هيئة إيدن ، وعرج مرجان إلى الباب وفتحه .

دخل صديق الفرارجى وراح يعانق الموجودين ، ثم انتحى بالشيخ حسن ناحية وقال له :

— جاءنى اليوم رجل من المطرية وقال لى : إنه قابل فتحية وأمها والأولاد ، وقد أرسلوه ليقول لنا إنهم جميعا بخير .

وخفق قلب حسن حنانا وأحس الدموع تبلل عينيه ، ثم أطرق خاشعا وشعر أنه يندمج فى روح الكون ، كان على الرغم من وقوفه بين زملائه يصلى شكرا لله . كان فى قرارة نفسه يؤمن أن بينه وبين الله عمارا ، وكان يناجيه كلما صفت

نفسه : فى العمل وفى الطريق وفى الفراش وفى القتال ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن صلته بالله هى التى جنبته أن يلقيه الله فى التجارب والمهالك وعذاب الدنيا .

وجاء بهنس وإذا بالجميع يقابلونه بالترحيب ، مضت مدة طويلة لم يروه فيها ، وقال الشيخ حسن وهو يعانقه :

ــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فقال مأمون :

ــ إنه محور العملية .

وقال عبود لمأمون :

ــ هل سيأتى العم محمود ؟

ــ لا . العملية القادمة لن نركب لها الماء إنها فى قلب بور سعيد ، وسنقوم بها فى وضح النهار .

والتفت صديق الفرارجى إلى بهنس وقال له :

ــ ما هى مشروعاتك الجديدة ؟

فقال بهنس وهو يبتسم :

ــ سأتزوج اثنتين لأصون أعراض الأرامل .

وقال له الشيخ حسن فى خبث :

ــ رحمة الله عليك يا فانوس . كنت الوحيد الذى تعرف كيف تسكت ادعاءاته .

وجاء الأسد والفهد وضابط اللاسلكى وبعض الفدائيين ، ووقف ضابط اللاسلكى وعبود يتحادثان ، قال ضابط اللاسلكى :

ــ لماذا لا تأتى يا عبود لزيارتنا ؟

ــ أين ؟

فقال ضابط اللاسلكى وهو يضحك :

ــ عند أم على .

ــ فى عيادة طبيب الأسنان ؟

— نعم .

— سأزورك بعد أن ننتهى من هذه العملية .

— إن شاء الله .

وجاء رجل من رجال المطافئ ثم أقبل القائد فى ثياب عسكرى بوليس .

وجلس القائد والتفوا جميعا حوله ، وأرهف مرجان أذنيه حتى لا تفوته كلمة مما يقال ، قال :

— هناك عمليتان : عملية فرعية سنقوم بها الليلة وكلما أتيحت لنا فرصة ، وعملية أصلية سيشترك فيها نصف الفدائيين الموجودين فى بور سعيد .

نقصت الأغذية فى المدينة وعلينا أن نعوضها بطعام الإنجليز ، هذه هى العملية الفرعية التى سنقوم بها الليلة وكلما سنحت لنا الفرصة ، أما العملية الأصلية ...

وسمع صوت سيارة تقترب ، إنها لا شك سيارة أحد القواد الإنجليز فما كان يستعمل السيارات غيرهم بعد أن نفد من المدينة الوقود وصار أغلب الناس يستعملون الدراجات فى تنقلاتهم .

وأسرع بعض الرجال إلى النوافذ ونظروا من بعيد ، وإذا بأكثر من صوت يهتف فى حرص وانفعال ودهشة :

— وليمز !.. وليمز !

وماج الرجال وراحت أذهانهم تعمل فى سرعة، خطر لبعضهم أن يخفوا أسلحتهم وأن تدور بينهم وبين الإنجليز معركة ، فخير لهم أن يقتلوا من أن يقعوا فى أيدى أعدائهم ، وفكر بعضهم فى أن ينسلوا هاربين قبل أن يضرب الحراس نطاقا حول البيت ، وتعطل تفكير بعضهم وراحوا يمدون أبصارهم إلى قائدهم كأنما يسألونه ماذا يفعلون ؟

ولمعت فى ذهن الشيخ حسن فكرة ، فخلع حذاءه وجلس يقرأ آى الذكر الحكيم ، وفهموا جميعا هدفه ، فجلسوا على الأرائك والكراسى يصغون ، وهرع مرجان إلى المطبخ ليتم أطراف مادبره الشيخ حسن .

ودق الباب دقات شديدة ، فأسرع توفيق وفتحه ، ولما وقعت عيناه على وليمز

قال له وهو يفسح له الطريق :

ــ تفضل !

وصك القرآن أذنى وليمز ، فصوب إليه عينين مستفسرتين ، فقال توفيق فى حزن :

ــ بالأمس مات سليمان زميلنا فى الشركة بالسكتة القلبية ، وقد جاء أصدقاؤه للتعزية .

ودخل وليمز وظل الجميع فى أماكنهم يصغون ، وراح يتفرس فى الموجودين ، رأى مأمون وعبود وصديق فى ثياب الإسعاف ، ورجلا فى ثياب المطافئ ، وبهنس فى ثياب البوليس ، ورجلا بملابس عسكرى البوليس ، وبعض رجال مدنيين .

وخطر على قلب مأمون نفس الخاطر الذى طاف برأس عبود ، من حسن الحظ أن الذى جاء للتفتيش وليمز ، فلو كان مورهاوس لعرفهما ، ولألقى القبض على الجميع ، ولحصل على صيد ثمين قلما تسنح فرصة أخرى بمثله .

وأشار توفيق إلى مقعد وهو يسير إلى جوار وليمز ، وقال له :

ــ تفضل .

وأرغم وليمز على الجلوس ، ولو سار إلى الغرفة المفتوحة أمامه لرأى دمية إيدن شامخة فى وسطها .

وجاء مرجان يحمل صينية عليها بعض فناجين القهوة ، وتقدم إلى وليمز وقدم إليه الصينية ، فمد وليمز يده وتناول فنجانا ، وراح يرشف منه القهوة السادة وهو كاره .

كان الشيخ حسن على علم بأن وليمز يعرف التقاليد ، وأنه لن ينصرف قبل أن يختم قراءته ، فأنهى ما كان يقرؤه ، فقام توفيق ومأمون وعبود ووقفوا عند الباب يتلقون العزاء .

وقام بعض الرجال وتظاهروا بالانصراف ، وأخذوا يصافحونهم ، فقام وليمز وصافح الأيدى الممدودة إليه ، ثم انطلق خارجا ، وسار توفيق خلفه ، وقبل أن يسير فى طريقه التفت إلى توفيق وقال :

— مضطر إلى تصديقك هذه المرة ولكن لن تفلتوا من يدى .

وانصرف وفى نفسه ريبة ، وكان فى حيرة من أمره : ترى أأخطأ لأنه إنقاد لعواطفه ؟ هل اجتمعوا لتدبير مؤامرة ؟ وأية مؤامرة تحتاج إلى رجل البوليس ورجل المطافئ ورجل الإسعاف وأناس كثيرين وبهذا العدد ؟ إنهم أذكياء يا وليمز . لا . لا يمكن أن يصل ذكاؤهم إلى مثل هذا التدبير السريع المحكم .

وعاد الرجال الذين انصرفوا بعد أن اطمئنوا إلى أن وليمز وجنوده قد خدعوا ، والتف الجميع حول قائدهم يصغون إلى شرح دور كل منهم فى العملية الكبيرة المقبلة .

وفى الليل كان الفدائيون جميعا يتسللون إلى مخازن تموين القوات البريطانية ، وفى الصباح كانت عربات اليد مكدسة بعلب الجبن والسردين والمربى وأنواع أخرى كثيرة ، وكان الصبيان يقومون ببيع علب المربى بقرش ، وعلبة البولوبيف بقرشين .

وعند تقاطع أهم شارعين فى المدينة كان إيدن يتدلى مشنوقا .

— ٦١ —

كان بعض رجال التنظيم يحفرون ، وجاءت عربة إسعاف ووقفت عند الحفر ونزل منها مرجان وصديق ، وفتحا باب السيارة الخلفى وأخرجا منها مدافع سريعة الطلقات ووضعاها فى الحفرة ، وسرعان ما أخفيت تحت التراب .

واستمر رجال التنظيم فى حفرهم ، وجاءت سيارة جيب نزل منها الشيخ حسن والفهد ورجل آخر وراحوا ينقلون البنادق إلى الحفرة . وسرعان ما انهال عليها التراب .

وجاءت سيارة الحريق بها ذخيرة طلقات المدافع الرشاشة وبعض القنابل اليدوية ووضعت الذخائر فى حرص شديد ، كان رجال التنظيم من خبراء المفرقعات ، وانتهى نقل الأسلحة وإخفائها ، فراح بعض الرجال يزرعون الأرض ويزينونها بأصص الزرع :

وذهب مأمون والقائد والأسد وبعض الفدائيين إلى قسم ثالث ، وانطلقوا إلى بهنس فراح يقيدهم فى سجلات القسم على أنهم مساجين جاءوا بالأمس ، وساقهم إلى السجن وهو يقول لهم مازحا :

ـــ أنا فى الخدمة دائما .

وقال له مأمون :

ـــ يرد لك فى الأفراح .

وضحك بهنس وقال :

ـــ ستتعب لأن أفراحى كثيرة .

فقال له القائد :

ـــ متعك الله بشبابك .

فالتفت بهنس إلى مأمون وقال :

ـــ هذا أول رجل قابلته فى عينيه نظر .

وقال مأمون :

ـــ نظرى ستة على ستة .

وقاطعه بهنس قائلا :

ـــ النظر فى القلب والشباب فى القلب والحب فى القلب .

فقال الأسد :

ـــ قلب المحبَ لا يموت .

فقال بهنس وهو يغلق عليهم السجن :

ـــ خذ الحكمة من أفواه المساجين .

وضحكوا ، وقال مأمون :

ـــ لو أن الشيخ حسن كان معنا لقال لك : السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه .

فقال بهنس فى انشراح :

ـــ ما يدعوننى إليه أحب إلىّ من روحى .

فقال له مأمون :

ـــ رحمة الله عليك يا فانوس !

وانسل بهنس قبل أن يركبه مأمون بسخريات فانوس .

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا هى ساعة الصفر ، وقبل الموعد بقليل كان الفدائيون يحومون حول معسكر الحرس فقد اتخذه الإنجليز ملجأ لدباباتهم .

ونظر عبود من بعيد ، كان فى فناء المعسكر دبابات تحتها بعض الجنود ، ورأى بالقرب منها غرفة لا يدرى ما بداخلها ، ثم نظر فى ساعته ، وسار إلى حيث دفنت الأسلحة وأخرج مدفعا رشاشا وبعض الطلقات ، وأسرع إلى مكانه عند مدخل شارع من الشوارع المؤدية إلى المعسكر .

وفى الساعة الثانية عشرة فتح باب السجن ، وخرج مأمون والقائد والأسد والآخرون وانطلقوا إلى حيث دفنت الأسلحة ، وتناول مأمون والقائد والأسد مدافع دبابات ، وأخذ الآخرون البنادق والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية ، وخفوا لينضموا إلى زملائهم الذين نصبوا عند كل شارع من الشوارع المؤدية إلى المعسكر كمينا .

وانسل القائد ومأمون والأسد إلى داخل المعسكر وصوبوا مدافعهم إلى ثلاث دبابات ، وصاح القائد :

ـــ اضرب .

وإذا بثلاث دبابات تدمر .

وأنزل دوى الطلقات الهلع فى قلوب كل من كانوا فى المعسكر ، وقبل أن يتحرك منهم أحد أو يفيق من هول المفاجأة كان القائد يأمر :

ـــ اضرب .

ودمرت ثلاث دبابات أخرى .

وأخذ الرجال الذين كانوا تحت الدبابات يجرون مفزوعين ، وإذا بصوت القائد يصيح : ـــ اضرب .

ودمرت دبابتان وعطلت ثالثة . حدث كل هذا فى دقيقة واحدة .

والتفت رجال الاقتحام إلى من نجا ممن كانوا تحت الدبابات فراحوا يحصدونهم حصدا .

وخرج من كانوا فى الغرفة القريبة من الدبابات ، فإذا بالرصاص يصوب إليهم من كل جانب فيتهاوون على الأرض كأوراق الشجر .

وأطلقت بعض الرشاشات البريطانية نيرانها ، فسدد إليها الشيخ حسن رصاص مدفعه وهو يصيح :

ــ يا منصور أمت . أمت .

وعلى الرغم من الرصاصات المتطايرة فى كل اتجاه ، كان خاشعا مطمئنا كأنما كان فى صلاة ، وكان مرجان يطلق الرصاص وفى سريرته صوت ينشد : «والله زمان يا سلاحى» فيخيل إليه أنه يصغى إلى تسبيح الملائكة .

وراح توفيق يطلق رصاص رشاشه فى انفعال وثورة ، فصوت جانيت يدوى فى أرجاء الكون : «قاوموا هذا الطغيان» ، وصورتها والدم ينبثق منها تملأ الفضاء ، وتؤجج نار حقده وتثير كل عوامل المقت فى نفسه ، فيستشعر رغبة طاغية فى أن يمحق كل ما يمت للأعداء .

وأخذ يتقدم فى ضراوة الوحوش ، كل أمانيه أن يسحق كل الذين هبوا إلى رشاشاتهم ويسكتهم إلى الأبد .

وتتابعت الطلقات السريعة القاتلة وأخذ عبود يصطاد الواقفين خلف رشاشاتهم ، وفجأة ملأت صورة إنصاف كل رأسه ، وعجب من نفسه ما باله يذكرها فى هذا الموقف المحفوف بالخطر الذى يحوم فيه الموت حوله ؟ وسرى فى ضميره صوتها يقول فى رقة : «ابق يا عبود . إكراما لى» . وخفق قلبه كأنما لم يسمع هذا القول الرقيق من قبل . ترى أقالتها مجاملة ، أم كانت صادقة فى التعبير عن حقيقة مشاعرها ؟؟ إنه ليفهم هذا الهمس الذى يهمس فى جوفه فى هذه اللحظة أكثر مما فهمه ليلة أن توسلت إليه أن يبقى . إنه هنا فى منطقة الخطر ، أكثر رقة وشاعرية ، إنه زاخر بأشياء ناعمة ، تهزه وتسكب فى نفسه بهجة حالمة .

وأطلق الرصاص وهو يهتف :

ـــ إنصاف .

واستمر يطلق الرصاص وهو يهذى وقد اختلطت فى ذهنه الصور حتى إنه لم يعد يميزها .

وسكتت الرشاشات البريطانية ، وغمر الأعصاب المتوترة هدوء نسبى ، وراحت الأنفاس تنتظم والأذهان تصفو وتعود النفوس إلى تمييز ما يدور فيها .

والتفت الشيخ حسن إلى عبود وقال :

ـــ كنت أحس وأنا أسدد طلقاتى أن سليمان إلى جوارى .

وسكت قليلا ثم قال :

ـــ أتصدق أنى سمعته فى وضوح يكبر : الله أكبر ! الله أكبر ؟

فراح عبود يتلفت ثم قال :

ـــ أنا واثق أن روحه معنا .

وقال الشيخ حسن :

ـــ لا بد أن أرواحا كثيرة معنا الآن .

وشرد عبود ولاح فى وجهه سهوم ، فقال له الشيخ حسن :

ـــ فيم تفكر ؟

فصوب إليه نظرات قلقة ثم قال :

ـــ كنت أعجب مما يمكن أن يدور فى رءوسنا فى لحظة ، رأيت أشياء كثيرة فى اللحظة التى تفصل بين انطلاق طلقتين من بندقيتين .

وسمع وقع أقدام جنود فتأهب الفدائيون للقائهم ، كانت أربع دوريات بريطانية مقبلة من أربعة طرق ، فرفع كل فدائى فى كمين بندقيته وصوبها إلى صدور من جاءوا على عجل لنجدة من أبيدوا عن آخرهم .

وعلى ومضات الرصاص ومضت فى ذهن عبود حادثة كان قد نسيها ، أو كان فى الحقيقة يمقت أن يذكرها ، كان بعض فتيات الهوى قد وفدن إلى بور سعيد من القاهرة ، وقد اندست بينهن بعض الفدائيات ، كن يغرين الجنود بالذهاب معهن إلى أماكن خالية ، ليقتلهم الفدائيون بخنجر أو بحجر ، وقد عرضت عليه إنصاف

ذات ليلة أن تقوم بما تقوم به الفدائيات وأن تسوق إليه الإنجليز والفرنسيين ليزهق أرواحهم، بيد أنه اضطرب ورفض أن تقوم إنصاف بهذا الدور، كره أن يراها تمثل مغازلة رجل وإن كانت تسوقه إلى الموت. لماذا رفض؟ لماذا يغار عليها؟ أهو يحبها؟ وعادت المشاهد تختلط فى ذهنه وتمتزج، ولم يعد يميز إلا الجنود الذين كانوا يسقطون صرعى.

وتتابعت الطلقات وأخذت تبرق كالبرق الخاطف، وبرقت فى ذهن مرجان ذكرى عجيبة: رأى نفسه يغنى فى فرح، وعجب وراح يتساءل وهو يسدد طلقات مدفعه إلى الأعداء: ما الذى يدفع مثل هذه الرؤى العجيبة إلى سطح ذهنه فى لحظات؟

ودار فى صدر توفيق حوار بينه وبين جانيت:

ـــ أرى أن ننجب اثنين يا جانيت ثم نستريح، ويا حبذا لو جاءا ولدا وبنتا.

ـــ ولم العجلة؟ فلنتمتع بشبابنا، الأيام أمامنا طويلة.

وكان مأمون يسمع صوت أمه فى وضوح:

ـــ أريد أن أفرح بك يا مأمون قبل أن أموت.

ـــ إن شاء الله. بعد أن تنتهى مدة الخدمة العسكرية.

ـــ سأخطب لك أجمل بنات بورسعيد.

ورأى نفسه وهو يحمل أمه وهى مغشى عليها بعد أن أغلق على عبود وبهية باب الزوجية.

واحتلت ذهن الشيخ حسن أحداث أول لقاء بينه وبين فتحية ليلة الجلوة، وسرعان ما تلاشت ليرى نفسه وهو يحمل على ذراعيه ابنه محمد أول مرة.

وطافت بذهن كل الذين كانوا غارقين فى خضم المعركة الخاطفة، ذكريات حسبوا أنها طمست بكر الأيام ومر السنين.

وسقط من سقط من الجنود وفر من فر منهم، إلا الدورية التى كانت منطلقة ناحية الكمين الذى كان الفهد بين أفرادها اكتشفت موضع الكمين، وأحست أن هناك مفاجأة فى انتظارهم، فخف جنودها يتحصنون بالجدران، وسرعان

ما نظموا صفوفهم وما لبثوا أن تقدموا فى حرص وحذر وهم يصلون الفدائيين نارا حامية .

ورأى الفهد أن المعركة لو سارت فى طريقها الطبيعى فستطول ، وقد تخف نجدات لشد أزر المقاتلين فصمم على أن ينهى هذه المعركة فى أسرع وقت ، فحمل ما معه من قنابل وذخيرة ، وأخذ يعدو ناحية الأعداء كالسهم المنطلق ليشق صفوفهم .

وأصابت أكثر من طلقة من طلقاتهم ما كان يحمل من قنابل ، فإذا بانفجار هائل يدوى ، وإذا بكل رجال الدورية البريطانية يتطايرون فى الهواء .

وفى مثل لمح البصر اختفى الفدائيون من المكان ، وانطلق القائد ومأمون والأسد ومن كانوا معهم إلى قسم ثالث ، واستقبلهم بهنس وقد فتح لهم أبواب السجن على مصاريعها .

ولم تستغرق العملية الرائعة أكثر من ثلاث دقائق .

واستقروا فى السجن مطمئنين ، فقد كانوا مقيدين فى سجلاته على أنهم ممن جاءوا أمس . قبل أن يقع الهجوم بأكثر من أربع وعشرين ساعة .

وفتح بهنس باب السجن ليقدم لهم الغداء وما كان يختلف عن غداء المساجين ، فنظر مأمون إلى الخبز الخاف ، ثم التفت إلى بهنس فى زراية وقال :

ــ ما هذا ؟

ــ هذا طعامكم .

فقال مأمون وهو جالس على الأرض ، وكان ينظر إلى بهنس الواقف أمامه :

ــ إننا نستحق وليمة .

فراح بهنس يمرر يده على شاربه ويقول :

ــ أنا رجل أحترم اللوائح والأوامر والتعليمات ، رجل نظامى ، لا أسمح بأن ترتكب أية مخالفة فى القسم ، ولن يقدم فى السجن للمساجين من أمثالكم غير هذا الطعام .

ورفع مأمون الخبز الجاف وهم بأن يقذف به بهنس ، إلا أن بهنس أسرع

بالفرار .

وقال مأمون :

ـــ فى المرة القادمة سنختار سجنا أفضل من هذا السجن . يشرف عليه أناس كرماء .

وقبل أن ينتهى مأمون من كلامه فتح باب السجن ودخلت صينية كبيرة عليها ما لذ وطاب .

ورأى مأمون الطعام الشهى فسال لعابه ، وقام إلى بهنس وأخذ يقبله وهو يصيح فى فرح :

ـــ ينصر دينك .

ورفع بهنس بصره إلى سقف السجن وقال :

ـــ ربنا يجعل مخازن الإنجليز عمارا .

وتحركت الدبابات البريطانية وسيارات نقل الجنود ، وعادت القوات البريطانية تحتل المدينة . وقرأ الجنود المنشورات المكتوبة باللغة الإنجليزية والتى ألصقت على أعمدة النور ، فتدفقت دماء الغيظ إلى وجوههم ، وراحوا يمزقونها فى حنق .

وراحوا يمدون الأسلاك الشائكة حول المدارس والملاجئ والأندية التى نزلوا بها ، بعد الضربة المفاجئة التي نالت من هيبتهم .

ونزل مورهاوس ليجوس خلال الشوارع يرهب الناس ويقبض على من يشاء ليسومه سوء العذاب ، وانطلق وليمز يفتش البيوت وقوارب الصيد والكنائس والمساجد .

واتجه مورهاوس إلى بعض الشبان وقال لهم :

ـــ أطلقتم رصاصة من طبنجة ؟

ـــ ليس معنا سلاح .

ـــ ولكنى سمعت صوت الرصاصة .

ـــ لعلها أطلقت من مكان آخر .

ـــ لا . أنتم الذين أطلقتموها .

ـــ من منا الذى أطلقها ؟

ـــ لا أدرى . ولكنى رأيت الرصاصة تنطلق من ناحيتكم .

ـــ فتشنا .

والتفت إلى جنده وقال :

ـــ فتشوهم .

وقاموا بتفتيشهم ولم يعثروا على شىء وعلى الرغم من ذلك قال :

ـــ اقبضوا عليهم .

وانطلق ورجاله إلى شارع التجارة والروضة وما ترك بيتا إلا فتشه بحثا عن الأسلحة .

كان يدفع الرجال من وجهه ويقتحم غرف النساء ، ولا يلتفت لصراخ الأطفال الذين كانت تفزعهم المفاجأة .

والتفت خلفه ، كانت ألسنة النيران تتراقص ، فأسرع ليرى ما حدث ، فإذا به يجد أن سيارة من سيارات الجيش البريطانى قد أشعل فيها الفدائيون النار .

— ٦٢ —

كانت إنصاف تتقلب فى فراشها ، وكان يبدو على وجهها أثر انفعالات متباينة ؛ كانت ترى فيما يرى النائم ثوبا أبيض ناصعا يقدم إليها مطويا فنشرح له قلبها وأدخل البهجة على نفسها . ونشرته وهى منتشية فإذا بها تجد تمزقات فى ظهره ، فانقلب سرورها غما وبهجتها انقباضا ونشوتها قلقا ، وما لبثت أن رأت الأرض تنشق تحت قدميها فتهوى فى الفضاء دون أن تصل إلى قرار .

وهبت من نومها مفزوعة يدق قلبها دقا عنيفا ويستولى عليها خوف قاتل ، وجعلت تتلفت فى لهفة لتؤكد لنفسها أنها كانت تحلم ، ولما هدأت نفسها قليلا غمغمت :

ـــ أعوذ بالله .

وراحت تتذكر حلمها وتحاول أن تفسره ، ترى ما هو الثوب الأبيض الجميل الذى انشرح له صدرها؟ وما معنى تلك التمزقات التى وجدتها فى ظهره؟ وما العلاقة بين الثوب وبين انشقاق الأرض وسقوطها ذلك السقوط المفزع الذى كاد يخلع قلبها من صدرها وهى نائمة؟ إنها لا تدرى .. كان كابوسا رهيبا.

وعادت لتنام ومخلفات الخوف لا تزال عالقة بشعورها ، بيد أن ذهنها ظل متيقظا . كانت تفكر فى الحلم فتقلق ، وتتذكر البسمة التى استقبلها بها عبود بعد أن عاد من المعركة التى خاضها فينقشع القلق ليفسح مكانا للعواطف الناعمة ، كانت بسمة رائعة عرفت طريقها إلى قلبها ، وزاد فى روعتها ذلك البريق الجذاب الذى تألق فى عينيه . أحست أنه سيضمها إلى صدره ليقبلها ، ولو أنه لم يفعل إلا أنها أحست نشوة تندس إلى روحها تفوق كل نشوة تتفجر من التفاف شفة بشفة.

كانت نظراته طوال ليلة الأمس توحى بأنه يريد أن يفضى إليها بشىء ، أن يبوح لها بسره ، أن يقول لها : أحبك يا إنصاف . ولو أن لسانه لم يتحرك بما تشتهى أن تسمعه منه ، إلا أن جوارحه كانت تهتف فى وجد : أحبك .. أحبك .. أحبك .

وفاضت سعادتها حتى إنها راحت تتقلب وتضم الوسادة إليها فى قوة ، وكأنما ساء مخاوفها أن تتشبث بالأمانى وأن تهيم وراء آمالها المجنحة فراحت تنفث فيها فكرة أن الثوب الجميل الذى أسر لبها إن هو إلا عبود آسر فؤادها ، وأن التمزقات التى رأتها إن هى إلا تمزقات قلبه ، وإن هذا الحب سيزلزل الأرض تحت أقدامها وسيجعلها تهوى إلى غير مستقر .

وأفزعها ذلك الفحيح البغيض الذى كان يفح بين جوانحها ، وراحت تقاوم الحزن الذى راح ينتشر ليغمر كل مشاعرها ، وتجاهد لتقنع نفسها أن تفسير حلمها لا يمكن أن يكون كما فسرته ريتها وذاك التشاؤم الذى يسرع بالبطش بها فى لحظات صفوها .

« عيبى أن أحلامى تتحقق كلها ، ما رأيت حلما إلا جاء فى وضوح النهار ، ولكن هذا الحلم لا علاقة بينه وبين عبود ، خوفى هو الذى زج بى فيه . هذا الحلم

يتعلق بى وحدى ، الثوب ثوبى ، والتمزيق فى ثوبى ، أنا التى ستصاب بمكروه . وهل هناك مكروه أبشع من أن أفجع فى عبود ؟ » .

ولم تحتمل أن تسترسل فى هذا التفكير ، فهبت من سريرها وراحت تذرع الغرفة صاعدة هابطة ، ثم اتجهت إلى الباب وفتحته وراحت تمد عينيها إلى حيث رقد عبود .

كان يتقلب فى نومه وكان يخفى وجهه بذراعه ، ترى أيحلم بها ؟ أيراها فى نومه ؟ «وإذا كان يرانى فماذا يفعل بى ؟ وبماذا يناجى طيفى ؟ ليتك يا عبود تقوم الساعة وتصارحنى بما كانت عيناك تحكيان . آه لو فعلت لكنت أسعد مخلوقة فى الوجود» .

ولف لفة كاملة فى سريره فجفلت وأغلقت الباب ، ثم هرعت إلى سريرها لتستأنف نومها ، إنها ما كانت تعرف الأرق فما بال النوم خاصم عيونها ؟

وأصبح الصباح ، واستيقظ حسن وكان أول ما وقعت عيناه عليه مكان سليمان الشاغر : « إذا كان سليمان قد ذهب فسيأتى يوم أذهب فيه ، الدنيا كلها سراب .. وهم من الأوهام .. أأنا موجود حقا ؟ لست أدرى ! » .

وشخص ببصره إلى السماء : « ليست هناك حقيقة إلا أنت . سبحانك » . وأحس أنه استيقظ منقبضا ولا يدرى لانقباضه سببا ، فشحذ ذهنه ليتذكر ما رآه فى منامه فلم يتذكر شيئا ، فهب من نومه قفزا ليطرد الانقباض الذى أخذ يترسب فى صدره .

وقام عبود من نومه يتمطى ، كان مشرق الوجه ، ولكن لما وقعت عيناه على مكان سليمان طافت به سحابة من الكدر ، وفطن الشيخ حسن إلى ما اعتراه فقال له :

— ما رأيك فى أن يأتى مأمون ليبيت معنا ؟

وفى لحظة اضطرب عبود وماجت مخاوفه وتحركت غيرته ، فقد أحس بغريزته الخطر الكامن فى أن يكون مأمون إلى جوار إنصاف على الدوام ، وخشى أن يفطن الشيخ حسن إلى قلقه واضطرابه فقال فى صوت خافت :

— لا بأس .

وشعر الشيخ حسن أن عبود ليس متحمسا للفكرة فسكت ، وفهم عبود أن مجىء مأمون أصبح أمرا واقعا ، فلن يرفض مأمون أن يكون بالقرب ممن قال عنها يوما : « لو فكرت فى الزواج ما ترددت فى أن أتزوج إنصاف » .

وجلس ثلاثتهم ليتناولوا طعام الإفطار ، فراح عبود وإنصاف يتبادلان نظرات ملتهبة ، نظرات تروى حقيقة مشاعرهما بأفصح لسان .

وقال الشيخ حسن :

— أرأيتم كيف فرح جنود إنجلترا وفرنسا لما ذاع بينهم أن إيدن ومولِيه قبلا الانسحاب بلا قيد ولا شرط ؟

فقال عبود فى راحة :

— إنه خبر سار للجميع ، ما أبغض الحرب !

— وهل نحن الذين أثرناها ؟ اعتدوا علينا فقمنا ندافع عن أنفسنا .

— أعتقد أن حدة غاراتنا عليهم ستخف .

وقالت إنصاف وهى ترنو إلى عبود فى حب :

— أظن أنه لم يعد هناك مكان لهذه الغارات .

قال الشيخ حسن :

— بل العكس ، أرى أن يزداد هجومنا عليهم ، أن نجعل مقامهم بيننا جحيما .

قالت إنصاف :

— ولماذا نستمر فى قتالهم إذا كانوا قد أعلنوا موافقتهم على الانسحاب ؟

فقال الشيخ حسن وهو يهز رأسه سخرية :

— ما أكثر الوعود التى وعدونا بها لما يحيق بهم الضيق ، وما أسرع أن ينكثوا وعودهم إذا ما جاءهم الفرج . لا بد أن نزهقهم حتى يخرج آخر جندى من بلادنا .

وصمت عبود ، واستمر الشيخ حسن فى حديثه قال :

— لن نعرف السلام قبل أن يتم انسحابهم .

قالت إنصاف :

— اشتقنا إلى الاستقرار ، متى تضاء الأنوار ؟ متى تعود إلى بور سعيد بهجتها؟
قال الشيخ حسن :
— أعتقد أن واجبنا لن ينتهى بخروج الإنجليز والفرنسيين من بلادنا .
فرمقه عبود فى دهشة وقال :
— وماذا علينا أن نفعل ؟
— على الأحرار فى كل مكان أن يتكتلوا ضد الاستعمار ، ضد استغلال الشعوب للشعوب .
إذا خرج الإنجليز والفرنسيون اليوم من بلادنا وظلوا أقوياء فى الجزائر وفى المستعمرات الإفريقية ، فما أدرانا أنهم لن يعودوا مرة أخرى لغزونا ، علينا أن نتكاتف مع الأحرار لنقضى على الاستعمار ونكتم أنفاسه .
— أتريدنا أن نكافح الاستعمار خارج بلادنا ؟
— هذا هو السبيل الوحيد لنحمى أنفسنا من غدر الطامعين فينا .
وصمت عبود ، لم يكن مقتنعا ، كان يكره الحرب ، وقد أرغم على حمل السلاح ليدافع عن وطنه ليصون السلام ، أما وقد انسحب المعتدون مدحورين ، فليسعد بالطمأنينة التى كافح ليفوز بها .
وخرجوا جميعا ، كانت إنصاف فى طريقها إلى المستشفى ، وكان عبود والشيخ حسن فى طريقهما إلى بيت توفيق ، وقبل أن تنطلق إنصاف التفتت إلى عبود وقالت :
— متى ستعود ؟
— فى المساء بعد أن أزور أصدقائى فى عيادة دكتور الأسنان .
فابتسمت إنصاف وقالت :
— لا ترفض قهوة أم على ، فهى مشهورة بيننا بإتقان صنع القهوة .
وفى المساء كان عبود جالسا مع ضابط اللاسلكى والفدائيين الذين توطدت بينه وبينهم أواصر الصداقة فى أثناء هجومهم على أعدائهم ، كانوا ستة وكانت أم على تدور عليهم بالقهوة .

وشرب عبود قهوته، واستمر ينظر فى الفنجان فقالت له أم على مازحة :

ــ أتقرأ الفنجان يا عبود ؟

فابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

ــ يا ليت .

وتناولت منه الفنجان وهى تقول :

ــ هات أقرأ لك البخت .

وجعلت تقلب الفنجان بين أصابعها وتنظر فيه مليا ثم تقول :

ــ أنت مقبل على حب جديد ، كان قلبك حزينا ولكنه سيفرح . أيامك القادمة أفضل من الأيام التى مضت ..

وسرح خيال عبود ، أقالت لها إنصاف شيئا عما بينهما؟ ولكن أبينهما ما يقال؟ إن كل ما كان بينه وبين إنصاف تلك القبلة التى اضطرت إلى طبعها على شفتيه لتخدع الحارس البريطانى . تطبعها يا عبود ! كانت قبلة ملتهبة ، قبلة أمدت القلب بإكسير الحياة .

وسمع وضع مفتاح فى باب العيادة ، والتفت الجميع فى دهش ، وقالت أم على:

ــ ليس مع أحد غير الدكتور مفتاح آخر .

وقال ضابط اللاسلكى :

ــ لعله الدكتور .

ــ الدكتور لا يأتى فى هذه الساعة بعد حظر التجول .

وفى لحظة كان المكان غاصا بجنود بريطانيين على رأسهم مورهاوس يصيح بالعربية:

ــ مكانك .

ووقف الجنود وقد شهروا أسلحتهم فى وجوه الفدائيين ، وتقدم مورهاوس يتفرس فى وجوههم ، فلما وقعت عيناه على عبود قال فى خيلاء :

ــ آه . هو أنت؟ كنت واثقا من أنك ستقع يوما فى يدى ، لن يستطيع إخوانك أن يخلصوك الليلة . ألا ليتهم يأتون لنقتلهم كالكلاب .

ثم التفت إلى جنده وقال :

ـــ اقبضوا عليهم .

وسار الفدائيون الستة وفى ظهر كل منهم بندقية ، ووقفت أم على تنظر وهى ترتجف خوفا .

وأشار مورهاوس إليها بأصبعه وقال :

ـــ وهذه . اقبضوا عليها .

وقبل أن يغادروا العيادة جاء فدائى ليشترك معهم فى سمر الليلة فرأى الجنود البريطانيين وهم يسوقون زملاءه ، وقبل أن يرتد إليه بصره فهم كل شىء ، فوضع يده على خده وقال :

ـــ آه ! أين الدكتور ؟

وقال له مورهاوس :

ـــ ماذا تريد منه ؟

ـــ أريد أن أخلع ضرسى .

ـــ تعال .

وأجلسه على الكرسى وقال له :

ـــ افتح فمك .

وفتح فمه وهو ينظر إلى يد مورهاوس ، فرآه يأتى بكماشة فهب مفزوعا ، وقال مورهاوس لجنده :

ـــ اقبضوا عليه .

وقال له :

ـــ متى كان الدكتور ينتظر مرضاه بعد حظر التجول ؟!

وعادت إنصاف من المستشفى ، وعاد الشيخ حسن ، ولم يعد عبود ، وراح الوقت يمر وإنصاف تتلفت فى خوف وينتابها ضيق ، وتذكر حلمها فقالت للشيخ حسن .

ـــ قلبى يحدثنى أن عبود وقع له مكروه .

ـــ لعله سيبيت الليلة مع أصدقائه .

ـــ لا . قال لى إنه سيعود .

قال الشيخ حسن وهو يتأهب للخروج :

ـــ لا أظن .

ونهض وأخذت ترقبه بنظرات قلقة ثم قالت :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى بيت توفيق لأبيت هناك .

ـــ وعبود ؟ أنتركه ؟ ألا نسأل عنه ؟

ـــ نسأل عنه من ؟

ـــ نذهب لنرى ما الذى أخره .

وفى جوف الليل انسلا خارجين يتستران بالجدران حتى بلغا عيادة طبيب الأسنان ، فهرع الشيخ حسن يطرق الباب دون أن يجيبه أحد .

ونفد صبر إنصاف فذهبت إلى بيت قريب من العيادة وطرقته ، وبعد قليل فتح الباب وخرج رجل يفرك عينيه بظهر يديه ، قالت له إنصاف :

ـــ أليست أم على فى العيادة ؟

قال الرجل وهو يتثاءب :

ـــ قبض الإنجليز على كل من كانوا فى العيادة .

ودخل لينام .

وقالت إنصاف للشيخ حسن :

ـــ لن يحتمل تعذيبهم .

واحتل صفحة ذهنها صورة الثوب الجميل الممزق من الخلف ، فدق قلبها رهبة ، وقالت فى أسى عميق :

ـــ سيمزقونه .. سيمزقونه .

ـــ نحن فى حرب . ولكل حرب ضحايا يا إنصاف .

ـــ لا . لسنا فى حرب ، قبلوا أن ينسحبوا بلا قيد ولا شرط ، فبأى حق

يلقون القبض علينا؟ بأى حق يعذبوننا ؟

ـــ بحق القوة يا إنصاف .

وضعفت فراحت تئن وتقول فى إشفاق :

ـــ ترى ماذا يفعلون بك يا حبيبى ؟ .

* * *

كان عبود واقفا أمام مورهاوس يستجوبه ، قال له :

ـــ من شركاؤك ؟

ـــ كل المصريين .

وابتسم مورهاوس استخفافا وقال :

ـــ أين شركاؤك . اعترف وإلا فسأعرف كيف أنتزع الاعتراف منك انتزاعا .

ـــ شركائى فى كل مكان فى بور سعيد .

ـــ ليس هناك ما يدعو للإنكار ، اعترف كل زملائك .

ـــ ماداموا قد اعترفوا فما قيمة اعترافى !

وأخذ عبود وعرى ظهره وانهال جندى عليه بالسياط حتى تمزق جلده ، ثم حملوه حملا إلى حيث كان مورهاوس فقال له :

ـــ قل .. من شركاؤك ؟

فقال عبود فى صوت واه :

ـــ كل المصريين .

وحاول مورهاوس أن ينتزع منه كلمة واحدة تهديه إلى من يتخطفونه فى وضح النهار ، ومن يظهرون فجأة كزبانية الجحيم ليلقوا الرعب والفزع فى قلوبهم ثم يختفون فجأة ، كأن الأرض قد انشقت وابتلعتهم بعد أن يجرعوا بعض جنودهم غصص الموت ، ولكن ذهبت محاولاته مع الريح التى كانت تصفر خارج الغرفة .

وحمل عبود مرة أخرى إلى حيث ينزعون أظافره بكماشة ، كان يحس أن روحه تسل من بين جنبيه ، وراح ينوء من عذاب الهون ، ثم حمل مرة أخرى

وجیء به أمام مورهاوس ، فقال له :
— أين يختبئ رجال الصاعقة ؟
— لا أعرف .
— انطق قبل أن آمرهم بدق عظامك .
وصمت عبود وراح يلتقط أنفاسه فى جهد شديد ، وصاح مورهاوس فى غيظ :
— اكووه .
وحملوا عبود ليذيقوه من العذاب ألوانا ، ولم ينبس عبود بكلمة ، كان يئن ويتأوه ويغمى عليه من الآلام المبرحة التى كانت تفوق احتمال البشر ، وما إن يعود إلى وعيه حتى يستأنفوا تعذيبه ، وأخيرا يئسوا من أن ينتزعوا منه سر زملائه ، فألقوا به فى السجن ولم يكن أكثر من نفس يتردد .
ومر الوقت وهو لا يستشعر إلا الآلام التى تفوق كل حد ، وتسلل ضوء النهار من شباك السجن دون أن يميزه ، كان لا يقوى على أن يفتح عينيه ، وبدأ ذهنه يصحو . كان أول ما تذكره قول الشيخ حسن :
« على الأحرار فى كل مكان أن يتكتلوا ضد الاستعمار » .
وراح صوت يهمس فى ضميره :
— أن يقاوموا هذا الظلم ، هذا الاضطهاد . كنت فى شك مما كان يقول حسن ، أما الآن فسأحارب الاستعمار أينما كان .
وأن أنة لينفس عن العذاب الذى يعيش فيه ، ثم راح ينادى فى صوت ضعيف :
— إنصاف .. إنصاف .

— ٦٣ —

هدد ستوكويل بضرب المدينة بالطائرات إذا استمر هجوم الفدائيين على قواته ، بعد أن طلب من بيرنز قائد القوات الدولية أن يحميه أكثر من مرة من ضراوة الغارات المفاجئة المريرة ، وبعد أن ظلت مدافع الأسطول البريطانى تطلق قذائفها فى حالة هستيرية طوال الليل ، لما شاهد أحد الحراس رجلا يسبح فى الماء

وعلى ظهره وعاءان من المعدن ، متجها إلى السفن البريطانية ، وحسبه من الضفادع البشرية المصرية .

ذاق ستوكويل الأمرين من جنود الصاعقة ، حتى إنه فزع أكثر من مرة إلى بيرنز يلتمس حمايته ، وإذا بخطر جديد يهدد سفنه .

وراحت دورية بريطانية تجوب الحى العربى بعد أن أعلن ستوكويل أن المدينة أصبحت محرمة على جنوده ، وما إن توغلت فيه حتى جاءها الرد على تهديد ستوكويل . انهالت عليها القنابل من سطح بيت من بيوت الحى ، ثم هطل عليها وابل من رصاص المدافع الرشاشة ، وقتل جنديان ولاذ الآخرون بالفرار .

وفى لحظات انسل الفدائيون من الحى العربى ، وبعد أن غادره آخر رجل منهم كانت قوات الاحتلال قد أحاطت بالحى العربى من كل جانب ، وكان ويليمز يقوم بتفتيش البيوت بيتا بيتا .

وتفرق الفدائيون إلى منازلهم الجديدة . أمر قائدهم بتغيير الأماكن بعد أن ضبط الفدائيون الستة فى عيادة طبيب الأسنان ، كانت الأوامر ألا يستقر أكثر من اثنين فى مكان واحد ، إلا أن هذه الأوامر ما كانت تنفذ استخفافا بالقوات المعادية .

وذهب مأمون إلى بيت توفيق ، واندفع منطلقا إلى الداخل كالسهم ، وإذا به يهتف فى دهشة :

— إنصاف ؟ ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟

فقالت فى قنوط :

— إنى قلقة أكاد أموت من اليأس ، مضى أسبوع على القبض على عبود ولا أدرى عنه شيئا ، أقتلوه أم اكتفوا بتعذيبه ؟ حاولت أن أتصل به ، أسبوع مضى وأنا أطوف حول السجن دون جدوى ، كنت أتنسم أخباره ، أسأل كل من يخرج من السجن عنه ولم أجد عند أحدهم ما يشفى غليلى .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أتتركون عبود فى السجن يا مأمون ؟

فقال مأمون دون أن تلتقى عيناه بعينيها :

ـــ إننا ننتقم له ولزملائه فى كل ساعة .

فقالت فى انفعال :

ـــ لن أرضى ولو قتلتم الإنجليز والفرنسيين جميعا ، لن أرضى إلا إذا أطلق سراح عبود .

ـــ اطمئنى .. سيطلق سراحه يوما .

فقالت فى ثورة :

ـــ متى ؟ متى ؟

ـــ مهما طال سجنه فسيعود .

ولم تحتمل انفعالاتها فأجهشت بالبكاء ، فأحس مأمون وقدة نار فى حلقه ، وقال فى تأثر :

ـــ بالله لا تبكى يا إنصاف .. سيعود .

فقالت فى قنوط :

ـــ وما أدرانى أنه سيعود ؟. وما أدرانى أنهم لم يقتلوه ؟

وشرد مأمون وقد لفه أسى ، ما بال كل أصدقائه يذهبون واحدا فى إثر آخر ، كانوا جميعا ضحية هذا العدوان : ترك راسما فى « أبو عجيلة » مع القوات الانتحارية وودعه وهو على ثقة من أنه يودع شهيدا ؛ وفى بور سعيد قتلت بهية وفانوس ومات سليمان ، ترى أيفجع فى عبود ؟! وانصرفت مطرقة ، كانت والهة حزينة ، وإذا بخاطر ينبض فى رأسها ، إنها فى جزع لأن حبيبها قد غاب عنها ، ترى كم أما هنا وكم أما هناك وكم أختا هنا وكم حبيبة هناك تنتظر أوبة حبيبها ؟ لماذا يقتل الناس بعضهم بعضا ؟

وسارت فى الطريق تنظر ، كانت بعض سيارات جيوش الاحتلال تغدو وتروح ، وكان بعض الناس يتنقلون على دراجاتهم ، وكانت سيارات كثيرة قد خزنت تحت البواكى بعد أن نفد الوقود ، كانت تقرأ فى عيون الجميع الخوف والقلق والتحفز والبغض والكراهية ، فخيل إليها أنها فى غابة ، بين وحوش كشرت عن أنيابها .

وغمغمت : « ليت الناس يفطنون إلى أنه ليس فى الدنيا أسمى من المحبة » ثم انطلقت إلى عيادة الدكتور حازم ، لتبيت وحدها تذرف الدمع ، وتتأرجح بين اليأس والأمل ، وتناجى طيف عبود .

وتمددت لتنام وإذا بهاجس يهجس فى أغوارها : « إذا خيرت يا إنصاف بين أن يطلق سراحه ويتزوج أخرى وبين أن .. » ولم تحتمل الاستمرار فى هذا التفكير فقفزت من سريرها وهى تصيح فى الظلام :

ــ أطلقوا سراحه .. أطلقوه .

* * *

وفى الصباح خرج مورهاوس يجوس خلال المدينة ، منطلقا إلى الحى العربى ، ليسوم كل من فيه العذاب لما نال الدورية البريطانية من مهانة ، كان يقود سيارة ملكية وحده ، شامخ الأنف يكاد أن ينفجر من الغرور ، ففى عروقه دم ملكى أزرق ، إذ أن بينه وبين البيت الملكى فى بريطانيا أواصر قرابة .

وجاء شابان على دراجتين وسارا أمام السيارة ، فضغط على الكلاكس فى تتابع فلفت ذلك الأنظار إليه .

ولم يفسح الشابان له الطريق بل أخذا يتمايلان بالدراجات أمامه ، فثار وضغط على الكلاكس فى غضب ولا من مجيب .

ووقف الشابان بدراجتيهما أمامه ، وكان ذلك فوق ما يحتمله فأخرج مسدسه وفتح باب السيارة وانطلق إليهما وهو شاهر مسدسه فى وجهيهما .

ووقف الناس ينظرون ؛ كان ذلك يجرى فى الحى الفاصل بين الحى العربى وحى الفرنج ، وفى غمضة عين طار المسدس من يده وألفى أيادى تخطفه وتلقى به فى سيارته ، وإذا بالسيارة تنطلق لتسابق الريح .

وصاح الناس فى فرح :

ــ خطف مورهاوس . خطف مورهاوس .

وفى سرعة الريح انتشر النبأ العظيم فى أرجاء بورسعيد .

انطلقت السيارة إلى الحى العربى ، ثم مال بها قائدها ودخل بها تحت البواكى

لتستقر بجوار السيارات التى خزنت لنفاد البنزين .

وأخرج مورهاوس من السيارة ودفع دفعا حتى أدخل قسم البوليس . وراح الذين خطفوه يرسمون خطة ترحيله إلى القاهرة.

ودار بينهم الحديث :

— ننقله فى الليل إلى القابوطى ، ونرحله عن طريق المنزلة إلى داخل البلاد .

— نرسل إشارة لاسلكية إلى القاهرة نقول فيها : مورهاوس فى طريقه إليكم، تسلموه فى المطرية .

— لا نستطيع أن نرسل هذه الرسالة بعد أن ألقى القبض على ضابط اللاسلكى الذى يعرف الشفرة ، لو أرسلنا الرسالة دون شفرة فسيلتقطها الإنجليز .

— أسافر معه إلى القاهرة .

— هذا هو الرأى .. ستكون مفاجأة .

— لن تكون مفاجأة ، ستذيع كل وكالات الأنباء غدا نبأ خطف مورهاوس .

ونزل خبر خطف مورهاوس على الإنجليز نزول الصاعقة ، فانطلق ويليمز كالريح على رأس قوة كبيرة وقبض على كل الرجال والأطفال والنساء الذين كانوا فى منطقة اختطافه ، وبعث بهم ليستجوبوا ويعذبوا عذابا عسيرا ، وراح ينقب عن الضابط المخطوف فى كل بيت ويقلب كل حجر من أحجار الحر العربى .

واقترب التفتيش من قسم البوليس ، وراح الرجال الذين خطفوا مورهاوس يديرون قداح الرأى ، قال قائل :

— نستمر فى القسم ولا نبرحه .

— نختفى فى السجن .

— لا أظن أنهم سيقومون بتفتيش قسم البوليس .

— بل فتشوه أكثر من مرة . لا بد أن نهرب به من هنا .

وكتف مورهاوس بلا وثاق ، لف ذراعاه إلى ظهره بنفس الطريقة التى تكتف بها الدجاجة ، وضع فى شيكارتين ، ثم وضع فى سحارة من سحارات عساكر البوليس .

وجاءت عربة حريق ووقفت أمام القسم ، فأسرع الرجال ووضعوا السحارة فوقها ، ثم انطلقوا بعيدا عن منطقة التفتيش إلى بيت سبق أن فتش . ووقفت سيارة الحريق وهبط الرجال منها وحملوا السحارة وساروا بها إلى بئر السلم .

كانت أرض بئر السلم غير مبلطة وكان البرد شديدا ، وأحس الرجال بالرطوبة تتسرب إلى أرجلهم فكانوا يرفعون رجلا ويضعون أخرى . وظلوا ينتظرون إلى أن تهدأ الرجل ليفروا بمورهاوس إلى القابوطى

وجاء أحدهم يسعى ، وقال فى لهفة :

— احترسوا . عادوا لتفتيش هذه المنطقة .

وراحوا يتلفتون ماذا يفعلون . إن حملوه وخرجوا به فلا شك أنهم سيرونهم وسيطاردونهم حتى يقبضوا عليهم ، وإن تركوه فسيعثرون عليه وتكون مغامرتهم بلا ثمرة . بل قد تكون وبالا عليهم وعلى كل بور سعيد ، سيخرج مورهاوس أكثر ضراوة وأكثر حقدا ، وسيفتن فى أساليب الاضطهاد والتعذيب .

وقر رأيهم على أن يدفنوا السحارة فى بطن بئر السلم ، فراحوا يحفرون الأرض فى همة ، فالخطر محدق بهم . ولما أتموا حفر حفرة تسمح بوضع السحارة ، حملوها ودلوها فى الحفرة ثم أهالوا عليها التراب وراحوا يدوسونه بأقدامهم ، ثم فروا هاربين .

وجاء وليمز ودخل البيت وداس بأقدامه الأرض التى دفن فيها مورهاوس ، وعاد يبحث وينقب ، ويسأل مرة أخرى كل من كانوا فيه .

وانقضت ساعة ووليمز لا يترك بيتا إلا ويدخله ، وبدأت خيوط الأمل تنقطع خيطا خيطا ليتسرب اليأس إلى قلبه ، ففكر فى أن يلجأ إلى سلاح التهديد .

ركب سيارة وانطلق إلى محافظ المدينة وقال له :

— إن لم يظهر مورهاوس قبل الساعة الحادية عشرة فلست مسئولا عما سيحدث للمدينة .

خطف مورهاوس فى الساعة العاشرة صباحا ، وفى الساعة العاشرة والنصف وجه وليمز تهديده ثم عاد يفتش البيوت .

وجاء الرجال ليخرجوا مورهاوس قبل أن يموت ، ورفعوا الفئوس ليبدءوا الحفر ، وإذا بجلبة فى الطريق . كان وليمز يفتش المنطقة للمرة الثالثة ، وكان فى طريقه إلى البيت الذى دفنت فيه السحارة ، وتأهبوا للفرار وقال أحدهم .

— إن تركناه فسيموت .

— وإن أخرجناه لننقذه فسيقضى علينا .

— إننا لم نقتله ، قتله وليمز بإصراره على العثور عليه ، قتله من حيث أراد أن ينقذه .

— كان هدفنا أن نبعث به إلى القاهرة أسيرا .

وقال قائل منهم وهم يبتعدون عن منطقة الخطر :

— لقى مصيره .

وراحت سيارة تجوب الشوارع وتذيع :

— محظور على الأهالى التجول فى الشوارع بعد الساعة الخامسة ، ومحظور استخدام الدراجات ، وكل من يتجول بعد الساعة الخامسة يعرض نفسه للرمى بالرصاص .

وراح الناس يصغون إلى الخطر الجديد ساخطين ، وكان يخفف ذلك السخط علمهم بأن الضربة القاسية التى سددت فى الصميم أطاشت بعقول الإنجليز وزادتهم حماقة على حماقتهم .

وأخذت السيارة تجوس خلال شوارع بور سعيد وهى تذيع التحذير بلغة عربية ركيكة ، وفجأة انفجرت وتطايرت فى الهواء ، وإذا بالمكان فى لحظة يغص بالناس ، فقد ذاع فى المدينة أن الذين قبض عليهم وليمز من سكان المنطقة التى خطف فيها مورهاوس يعذبون على أيدى جلادين قساة عذابا لا رحمة فيه .

— إنهم يعلقونهم من شعورهم .

— كووا جلودهم بالنار .

— انتزعوا أظافرهم بكماشات .

— ماتت امرأة بين أيديهم .

ـ خلعوا أسنان أحد الشبان .

ـ إنهم وحوش لا يخافون الله .

وأقبلت سيارة مصرية تذيع بالإنجليزية .

ـ محظور على الإنجليز أن يتجولوا فى شوارع بور سعيد بعد الخامسة مساء ، وكل من يتجول بعد هذا الميعاد يعرض نفسه للرمى بالرصاص .

وعلى الرغم من سيوف الاضطهاد المسلطة على رقاب الناس أخذتهم الحماسة فاستقبلوا السيارة المصرية بالتهليل والهتاف ، هان فى عيونهم وليمز وجنوده وكل ما يملك من آلات التعذيب الجهنمية .

وجن جنون الإنجليز ، اللطمات توجه إليهم كل لطمة أوجع للقلب من سابقتها ، وزادت السخرية منهم حتى تجاوزت كل حد ، فخرجوا من كل صوب ليلقوا القبض على هذه السيارة التى مزقت كبرياءهم تمزيقا أو ليدمروها تدميرا .

وفى غمضة عين اختفت السيارة ولم يعثروا لها على أثر ، كل ما وجدوه دمية فى هيئة جندى بريطانى معلقة فى حبل المشنقة وقد كتب عليها :

« هذا مصيركم » .

ـ ٦٤ ـ

توعد وليمز وهدد ، وأرغى وأزبد وقال : إن لم يظهر مورهاوس قبل الساعة الحادية عشرة فسأفعل كيت وكيت ، ولم يظهر مورهاوس ، ولم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يذهب إلى بيرنز يحمل إليه طلب القيادة البريطانية أن يتوسط لدى المصريين ليعاملوا الضابط المخطوف معاملة أسير .

لو سلك وليمز هذا الطريق منذ أول لحظة ولم يركب رأسه ويغره سلطانه ، لما لقى مورهاوس حتفه .

وتحركت الدبابات تطوف الشوارع لتحمى الانسحاب الأخير ، ودخل الجنود البريطانيون ينامون ، فراحوا يحلمون بالعودة إلى بلادهم بعد أن أعلن ستوكويل أن الانسحاب سيتم قبل عيد الميلاد ، كانوا جميعا يحلمون بشجرة عيد

الميلاد وهم بين الأهل والأحبة فرحين مستبشرين.

وكانت تدوى فى آذانهم الأجراس وتتردد التراتيل، وكان يعكر صفو الأحلام خوفهم من الفدائيين، فقد خرج ستمائة منهم ليفتشوا عن مورهاوس، وقد بطشوا بالأهالى، فباتوا يرتجفون أن يزهق الفدائيون أرواحهم قبل أن يتحقق الأمل الكبير، أمل أن يضموا الأحبة إلى صدورهم.

وكاد الليل أن ينتصف، وانسل توفيق ومرجان ومأمون والشيخ حسن وقائد كتيبة الأهوال وضباطه وجنوده إلى الحى العربى، واختفوا فوق أسطح المنازل وفى الشرفات وفى مداخل البيوت.

وجاءت دورية بريطانية وانطلقت إلى الحى العربى، وراحت تتقدم فى الظلام، كانت قلوب رجال الدورية منقبضة، وكانوا يتمنون أن تنتهى هذه الساعات الثقيلة الفاصلة بين بقائهم فى بور سعيد وذهابهم إلى السفن التى ستحملهم إلى الأوطان فى سلام.

وما كانوا يفهمون سبب إصرار قيادتهم على أن تستمر الدوريات فى المرور، ماداموا سيتركون المدينة للقوات الدولية.

لماذا تضحى بهم قياداتهم وتدفع بهم إلى براثن الموت؟ لماذا تعرضهم للهلاك؟! كانوا يفهمون أن تضحى بهم قياداتهم من أجل تحقيق هدف أو احراز نصر، أما أن تسوقهم إلى العدم بلا هدف ولا أمل، فهذا لا يمكن أن يفهم.

ووقف الشيخ حسن فى شرفة أحد المنازل وهو يتلفت كالصقر، كان مدفعه بين يديه، فى عينيه عزم ولكن فى قلبه حسرة، فقد كان إلى جواره دواما سليمان وعبود، وقد ذهب سليمان وقبض على عبود، أكتب عليه أن يقف وحده؟

ورأى بعين خياله إنصاف وهى تذهب إلى بهنس فى القسم وتقول له: ألا تعرف أحدا فى سجن الأجانب يا بهنس؟ أريد أن أطمئن على عبود.

« كان حديثها نابضا بالأسى زاخرا بأرق المشاعر حتى إنى أحسست الدموع تكاد تطفر من عينى .

شغفت إنصاف بعبود حبا ، هامت به وسرى حبه فى عروقها مسرى الدم ، ألا ليت عبود يخرج من سجنه لينعم بهذا الحب الكبير . ترى أيدرى عبود أن إنصاف تهواه وأن قلبها تعلق به » .

وحانت منه التفاتة فرأى مأمون فخطر له خاطر : أيزور مأمون صديقه القديم وزوج بهية إذا تزوج إنصاف ؟ أعتقد أنه سيزوره ، فقد كان مأمون رجلا فى كل تصرفاته . وأثبت أن قلبه كبير .

وهز الشيخ حسن رأسه وغمغم :

ـــ مسكين يا مأمون ، كنت ترجو أن تتزوج إنصاف ولكن قلب إنصاف تمرد . من يدرى لعل الخيرة فيما اختاره الله .

ولمح الدورية الإنجليزية تقترب ، وأعطيت إشارة إطلاق النار فإنهمر الرصاص من كل اتجاه ، وسقط ضابط بريطانى قتيلا وصرع جنديان ، ولاذ باقى الجنود بالفرار .

وبقى الفدائيون فى أماكنهم ينتظرون ، لم يفكروا فى الهرب ، كانوا على استعداد للقاء كل القوات المعتدية الباقية فى المدينة بل كانوا يتوقعون أن يخوضوا معهم غمار معركة مكشوفة . وجاءت قوة للبحث عن الأسلحة والفدائيين فى الحى العربى ، وإذا بالفدائيين يقابلونها بالقنابل ورصاص المدافع الرشاشة .

وجاءت قوات أخرى فشن الفدائيون عليها خمس هجمات بالقنابل والبنادق والرشاشات ، وانسحبت القوات مندحرة .

وأصدر ستوكويل أمره بألا تمر الدوريات فى الحى العربى ، ولكن لما أصبح الصباح جاء بحملة ليؤدب الحى العربى .

راحت قواته تجمع أقوات الناس ، تستولى على اللحوم والخضر وكل ما يقتاتون به ، وساقوا أهل الحى بالقوة ليمزقوا المنشورات وصور جمال الملتصقة على الجدران وليطمسوا العبارات التى تتحدث عن البريطانيين والشرف البريطانى .

وتسلل الفدائيون إلى نقط الحراسة فى الجنوب الغربى من بور سعيد، كانوا يزحفون على بطونهم ليذبحوا الحراس أو ليطعنوهم بخناجرهم، وفيما كان توفيق يزحف على بطنه أحس أن أحد الحراس اكتشف موضعه وأنه رفع بندقيته ليرديه، فعالجه توفيق برصاصة من مسدسه .

ونبه صوت الرصاص الحراس فخفوا إلى أسلحتهم، ونهض الفدائيون على أقدامهم وأخذوا يلقون القنابل اليدوية ويطلقون الرصاص على الحراس، واشتد القتال ودوت الانفجارات وأسفرت المعركة عن قتل ثلاثة ممن كانوا يتأهبون للرحيل.

وفى هذا الوقت كان جون وليمز وجراى ضابط المخابرات يدخلان بيت توفيق وأخذا يجوسان خلال الغرف ينقبان عن الأسلحة، واستمرا يتنقلان من غرفة إلى غرفة حتى وصلا إلى غرفة كان بابها مغلقا، وكان ينبعث منها صوت رجل يتكلم.

وأرهف وليمز أذنيه، كان الحديث مثيرا يروى أشياء خطيرة، وفتح الباب فى حرص وقد شهر سلاحه، ووقف جراى خلفه يحميه، ونظر قبل أن يدفع الباب ويفاجئ من فى الغرفة فإذا به يرى مرجان نائما يروى كل ما حدث فى أمسه كما هى عادته.

وتقدم وليمز على أطراف أصابعه وأعار مرجان سمعه، كان حوارا يجرى بين مرجان وعدة أشخاص، ولكنه كان يكشف كل شىء، قال مرجان :

ــ القائد يريد أن يلقاك الليلة فى معمل ألبان سعد بالمنزلة .. يا سيد صديق التعليمات أن تجهز سيارة الإسعاف فى الليل وتذهب بها إلى بهنس فى قسم ثالث وتنقل بها الأسلحة .. نعم يا سيد بهنس إنصاف وحدها الآن فى عيادة الدكتور حازم بعد أن قبض على عبود وانضم الشيخ حسن إلينا .

وصمت مرجان قليلا ثم قال :

ــ تصور . السيد توفيق لبس ملابس خباز وحمل على رأسه لوحا عليه بعض الأرغفة وسار حتى دنا من سيارة جيب وألقى عليها الأرغفة وجرى، فانفجرت السيارة .. أنا؟ لا . لست بطلا يا صديق .. أنت البطل .

وتقلب مرجان حتى بدا أنه سيستيقظ من نومه . فمال جراى ليقبض عليه ، وإذا بوليمز يجذبه ويقول له :

— دعه ، إذا قبضنا عليه فقد يلفت ذلك أنظارهم .

وخرج من غرفة مرجان وهو شامخ الأنف ، ثم التفت إلى جراى وقال :

— وقعوا جميعا فى المصيدة ، سأنتقم لمور هاوس .

وقال جراى فى حقد :

— ولكل الذين ذهبوا ضحيتهم .

تململ وليمز قليلا ، وشرد خياله يفكر فى خطة القبض عليهم جميعا فى وقت واحد ، وصمت جراى احتراما لتفكير وليمز العميق ، ولما انتهى من نسج كل الخيوط فى ذهنه التفت إلى جراى وقال :

— الظاهر أن الرأس المدبر فى معمل سعد للألبان بالمنزلة ، سأقوم أنا بمهاجمة هذا الوكر ، وستقوم أنت بالبحث عن صديق فى الإسعاف وإلقاء القبض عليه ، وستكلف واحدا من خيرة ضباطك بمراقبة عيادة الدكتور حازم ، أما بهنس فى قسم ثالث فسنرسل من يلقى القبض عليه .

وسار يوسع من خطوه وهو يقول :

— هيا . لنأتى بقواتنا .

وقفز وليمز فى سيارته وجلس إلى جواره جراى ، وما ابتعدوا قليلا حتى ألقيت على السيارة قنبلة فانفتح بابها ، وألقى وليمز بعيدا والدم ينزف من ساقه ووجهه .

وبعد لحظات خفت سيارة إسعاف بريطانية إلى مكان الحادث . وحمل جراى جثة هامدة ، وحمل وليمز والدم ينزف منه فى غزارة ، وانطلقت سيارة الإسعاف إلى المستشفى .

والتف الأطباء حوله ، كان يشير لهم أن يدنوا منه ، أن يصغوا إليه حتى يفضى إليهم بما عنده ، ولكنهم كانوا مشغولين عنه بفحص حالته الخطرة ، واتجه أحدهم إليه ، لا ليصغى إليه ، بل ليعطيه حقنة بنج .

وبتروا ساقه ، ورأوا أن حالته تتدهور فقال أحدهم :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـــ لابد من أن ينقل إلى قبرص .

وقال آخر :

ـــ سيموت قبل أن يصل إليها .

ـــ هذا آخر أمل .

وحمل وليمز إلى المطار ووضع فى طائرة ليموت بعيدا عن بور سعيد ، لكيلا تتحقق أمنيته. كان يتمنى أن يموت ويدفن فى الأرض التى أذاق أبناءها من العذاب ألوانا .

وراح الإنجليز والفرنسيون ينسحبون فى سرعة هائلة والقوات الدولية تحمى انسحابهم ، وانطلق توفيق ومرجان والقائد ومأمون ورجال الصاعقة مع جموع الشعب إلى الميناء لتكتحل أعينهم برؤية المعتدين وهم ينسحبون مدحورين .

كانت كل القلوب ترقص طربا ، وكانت دموع الفرح تترقرق فى العيون ، وكان اثنان يقاومان التيار الجارف ، كانا يشقان طريقهما فى جهد بين الجموع ، كانا إنصاف والشيخ حسن فى طريقهما إلى سجن الأجانب .

كانت إنصاف تنادى فى كل شهيق وزفير :

ـــ عبود . عبود .

وكان الشيخ حسن يجاهد ألا يفقد أثرها بين الحشود ، وبعد جهود مضنية وصلا إلى سجن الأجانب وقد تمزقت ملابسهما ، وأسرعت إنصاف فى لهفة :

ـــ أين من سجنهم الإنجليز ؟

ـــ أطلق سراحهم جميعا .

وخانتها دموعها فبكت ونادت فى وجد :

ـــ عبود .

ثم التفتت إلى الشيخ حسن وقالت :

ـــ ترى أين ذهب ؟ أين يمكن أن نسأل عنه ؟

واتسعت عينا الشيخ حسن ، وظهر فى وجهه أنه تذكر شيئا فقال فى فرح :

ـــ تعالى .

وكان عبود قد بلغ الشركة ، كان يتقدم إليها وهو يحس إحساس المحرم الذى يتقدم صوب الكعبة . سار وهو غارق فى النشوة ، ولما دخل الورشة انقبض ، رأى كل شيء قد حطموه ، وزاد انقباضه لما وقعت عيناه على الطواحين ، كانت متناثرة فى المكان كأنما كانت تخوض معركة .

وراح يعدو صوب أحواض الملح ، حتى إذا ما بلغها وقف يمد بصره فى خشوع . غسلت الأمطار الدماء التى لوثت المكان وتركت السهول البيض ناصعة كالجليد ، فشعر عبود أن كل أحزانه تنقشع ، وأن الطمأنينة أخذت تنتشر فى كل كيانه .

وسمع صوت إنصاف تناديه :

ـــ عبود .. عبود .

فخفق قلبه ، ودار على عقبيه وهو يكاد يطير من الفرح ، وراح يعدو نحوها وهو يهتف فى وجد :

ـــ إنصاف .. إنصاف .

وتلقاها بين ذراعيه وأخذ يضمها فى قوة .

وسار عبود وإنصاف والشيخ حسن ، ورأوا السفن وهى تبتعد عن الشاطئ .

فقال عبود :

ـــ رحلوا .

وقال الشيخ حسن :

ـــ إنى أقول كما قال رسول الله ﷺ بعد أن هزم الله الأحزاب فى غزوة الخندق :

«الآن نغزوهم ولا يغزوننا . نحن نسير إليهم » .

« تمت »